



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

الشيخ مبارك بن محمد الميلي الجزائري

قسم الفلسفة



الأسس التربوية عند محمد البشير الإبراهيمي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في فلسفة التربية

إشراف الأستاذ الدكتور:

سعيد شريفي

إعداد الطالب:

حمزة عايد

أعضاء لجنة المناقشة

اسم ولقب الأستاذ	الرتبة العلمية	صفة العضوية	مؤسسة الانتماء
أ.د. يمينة شيكو	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة
أ.د. سعيد شريفي	أستاذ التعليم العالي	مشرفا و مقرا	المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة
أ.د. مسعود بعيش	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا	المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة
أ.د. نادية سعدي	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا	جامعة الجزائر 2
د. حاج سعيد بكير	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة
أ.د. شريف رضا	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا	جامعة الجزائر 2

السنة الجامعية: 2021 - 2022

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر و عرفان

الحمد لله الذي وفقنا لإتمام هذا العمل المتواضع فالحمد لله حمدا كثيرا.
ويسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ الفاضل سعيد شريقي
لإشرافه على هذا العمل و على كل ما غمرنا به من نصائح و توجيهات،
ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من ساعدني في إنجاز هذا
العمل من قريب أو من بعيد.

إهداء

أهدي ثمرة هذا العمل المتواضع إلى أمي وأبي وإخوتي
حفظهم الله

وإلى كل أساتذتي وأصدقائي وزملائي
حفظهم الله جميعا

الملخص:

تتطرق الدراسة إلى الأسس التربوية التي يقوم عليها الفكر التربوي الإبراهيمي، من خلال توضيح مفهوم التربية عند البشير الإبراهيمي وتحديد منهجه فيها من حيث منطلقاته ووسائله وغاياته، مؤسساً رؤيته التربوية على أسس هامة تمثلت في الأخلاق والدين والعلم والوطنية ومراعاة مقومات الشخصية الوطنية، إضافة إلى الأبعاد الاجتماعية والنفسية في عملية التربية. وقد اكتست رؤيته التربوية صبغة راهنية من خلال علاقتها بالعديد من القضايا المعاصرة أهمها علاقة التربية بالسياسة، وتأسيسه لتربية سياسية، إضافة إلى علاقة التربية بالثقافة وتوضيحه لوظيفة المثقفين التربوية وموقعهم في المجتمع، وقد شكّلت رؤيته مساراً نحو تحقيق الإنسانية التي تراجعت قيمها في الفترة المعاصرة، وارتبطت رؤيته بالأزمة التربوية الراهنة وما تطرحه من مشكلات من خلال دعوته وعمله على إصلاح المدرسة وضرورة تجاوز كل ما يعيق مسارها التربوي والتعليمي.

الكلمات المفتاحية: التربية، التعليم، الأسس، الأخلاق، العلم، الوطنية.

Abstract:

This study takes the foundations of raising that the Ibrahimi's ideology is based on, through clarifying the concept of raising and identifying its method in terms of concepts, means and objectives, also establishing his vision to raising on important bases including ethics, religion, knowledge, patriotism and considering the ingredients of national character, in addition to the social and psychological dimension the process of raising. His vision to raising has taken a contemporary mode due to its relation to the various contemporary issues of which the most significant are the relation between raising and politics and how El Ibrahimi set the foundations for this political raising, in addition to raising and culture relation the role of intellectuals towards raising and their position in the society. This view paved the way to achieve humanity that has devalued in the recent period, his vision associated with the current crisis of raising and the problems it introduced through his advocacy for school reform and the necessity to overcome all what hinders raising and education.

Key words: Education, Raising, foundations, ethics, knowledge, patriotism.

فهرس

الموضوعات

فهرس الموضوعات

03	شكر وعرفان
04	إهداء
05	الملخص
06	فهرس الموضوعات
14	مقدمة
19	الفصل الأول: التأسيس المنهجي والمفاهيمي للدراسة.
21	تمهيد.
23	1. إشكالية الدراسة.
24	2. تساؤلات الدراسة.
25	3. الدراسات السابقة.
35	4. أهداف الدراسة.
36	5. أهمية الدراسة.
37	6. أسباب و مبررات اختيار الموضوع.
38	7. ضبط مفاهيم الدراسة.
59	8. طبيعة الدراسة.
60	9. منهج الدراسة.
60	10. أدوات الدراسة.
60	11. حدود الدراسة.
61	خلاصة.
62	الفصل الثاني: مفهوم التربية ومنهجها عند محمد البشير الإبراهيمي.
63	تمهيد.
64	أولاً: مفهوم التربية والتعليم عند البشير الإبراهيمي.
65	1: مفهوم التعليم عند البشير الإبراهيمي.
71	2: مفهوم التربية عند البشير الإبراهيمي.
78	3: علاقة التربية بالتعليم عند البشير الإبراهيمي.

84	ثانيا: منهج البشير الإبراهيمي في التربية.
87	1: من سمات المنهج التربوي الإبراهيمي: الواقعية و المستقبلية.
89	2: مراحل ووسائل المنهج التربوي عند الإبراهيمي.
89	2. 1: التوعية والتنوير منطلقا للمنهج.
97	2. 2: الوسائل و الوسائط.
98	2. 2. 1: المدارس.
99	▪ المدرسة في نظر الإبراهيمي.
104	▪ إنشاء المدارس.
105	▪ نظام المدارس ومنهجها.
106	▪ المدارس الابتدائية ومنهجها.
107	▪ المعاهد الثانوية ومنهجها.
112	2. 2. 2: المساجد.
114	▪ الخطبة و الموعظة الدينية.
116	▪ التعليم المسجدي.
117	2. 2. 3: الصحافة.
120	2. 2. 4: الجمعيات والنوادي العلمية.
123	2. 2. 5: الكتابة والتأليف.
127	2. 2. 6: البعثات العلمية للمصلحين إلى نواحي القطر الجزائري.
128	2. 2. 7: الاحتفالات وإحياء المناسبات الدينية والوطنية.
129	2. 3: الغايات و الأهداف.
129	▪ تحقيق الاستقلال وبناء الوطن.
132	▪ إحياء مقومات الشخصية الوطنية والحفاظ عليها.
134	▪ تحرير العقل الجزائري.
137	▪ تحرير الفكر الإسلامي من البدع والخرافات.
139	▪ تصحيح نظرة النشء إلى الحياة وتوحيده في أفكاره.
143	▪ توسيع الأفق الفكري للنشء.
145	▪ المحافظة على الوحدة الوطنية و القومية.

148	خلاصة.
149	الفصل الثالث: الأسس الأخلاقية والعلمية للتربية عند الإبراهيمي
150	تمهيد.
152	أولاً: الأخلاق.
165	1. وسائط التأسيس الأخلاقي.
166	▪ الأسرة.
167	▪ تربية المرأة تفعيل لدور الأسرة.
173	▪ المدرسة.
180	▪ المجتمع.
187	2. العناية الأخلاقية بالشباب.
190	ثانياً: الدين.
191	1. مفهوم الدين.
192	2. الدين الإسلامي أساس للتربية.
195	3. القرآن الكريم والسنة النبوية أصلاً وأساساً أولان للتربية الإبراهيمية.
202	4. الابتعاد عن الدين أهم أسباب ضعف تربية المسلمين وتخلفهم.
214	5. ضرورة القيادة التربوية الدينية للأمة.
215	ثالثاً: العلم.
221	1. إرشادات في التحصيل العلمي:
221	▪ صحة الأداء للقراءة و الكتابة
221	▪ تحصيل مبادئ الدين الإسلامي.
222	▪ توحيد المناهج والبرامج.
223	▪ الانقطاع لطلب العلم.
225	▪ تخصيص فسحة للاسترجاع الفكري والنفسي.
226	▪ الإيمان بأن العلم منطلق النهضة وأساس للحياة.
229	2. ارتباط العلم بالأخلاق.
231	3. التأكيد على دور العلوم التطبيقية والتجريبية.
233	4. ضرورة العلوم الإنسانية والاجتماعية.

239	خلاصة.
240	الفصل الرابع: الأسس الاجتماعية والنفسية للتربية عند الإبراهيمي.
241	تمهيد.
241	أولا: التربية والمجتمع.
241	1. بناء المجتمع الحيوي.
244	2. نحو بناء مجتمع جزائري حيوي.
245	2. 1. اللازم الديني ودوره في بناء الاجتماع الحيوي.
245	▪ ترسيخ المفهوم العملي للذين لتحقيق الإنتاج.
246	▪ تحكيم أحكام المعاملات في مجال العلاقات الاجتماعية.
246	▪ نشر اللغة العربية وتعميمها.
249	▪ نشر تاريخ الإسلام الصحيح وما يتضمنه من ثقافة إسلامية.
251	2. 2. اللازم الأخلاقي كأساس و أفق للمجتمع الحيوي.
251	2. 3. اللازم العلمي.
253	2. 4. اللازم الاقتصادي.
256	3. تحقيق التغيير الاجتماعي.
263	4. الإصلاح الاجتماعي امتداد للإصلاح الديني.
265	5. الحد من الأمية كظاهرة اجتماعية.
268	6. تربية الراشدين والحد من الأمية.
272	ثانيا: الوطنية.
273	1. مفهوم الوطنية.
274	2. مفهوم المواطنة.
275	3. مفهوم الوطنية عند الإبراهيمي.
276	▪ المفهوم الضيق للوطنية.
277	▪ المفهوم الواسع للوطنية.
279	4. دحض المفهوم الاستعماري للوطنية.
281	5. الوطنية وتربية الناشئة.

287	6. مقومات ودعائم التربية الوطنية عند الإبراهيمي.
287	6. 1. مقومات الشخصية الوطنية
288	▪ الدين الإسلامي.
288	▪ اللغة العربية.
290	6. 2. العلم و الأخلاق.
292	6. 3. المنطق العملي النافع.
294	ثالثا: الأساس النفسي و مراعاة البعد الفطري للإنسان.
294	1. مراعاة الطبيعية الإنسانية في التربية.
296	2. تحكيم الضمير الإنساني «وازع الله في نفس الإنسان» وتنميته لدى الناشئة.
297	3. مراعاة الجانب النفسي في تربية الأطفال.
298	4. الاعتماد على أسلوب الترغيب.
300	5. الاعتماد على أسلوب الاقتداء « القدوة الحسنة »
302	6. الألفة و الانسجام كأهم عاملين للنجاح التربوي.
304	7. التدرج والتكامل في البناء التربوي.
305	رابعا: الحياة كأساس ومبدأ تربوي.
310	خلاصة.
312	الفصل الخامس: التربية عند الإبراهيمي و راهنية الطرح.
313	تمهيد.
313	أولا: التربية والسياسة.
313	1. التربية السياسية.
314	2. مفهوم السياسة عند الإبراهيمي.
321	3. التربية السياسية عند الإبراهيمي.
325	4. مراحل في الممارسة السياسية عند الإبراهيمي.
325	▪ المرحلة الأولى: التأسيس لقاعدة سياسية وتصحيح ما زاع عنها.
326	▪ المرحلة الثانية: المطالبة بالحقوق بمبدأ من الإيمان والمنطق.
327	▪ المرحلة الثالثة: مرحلة التضحية والاستماتة (التصعيد السياسي).

330	5. العلاقة بين رجل السياسة والشعب.
334	6. شمولية المنظور السياسي للشيخ إبراهيمي.
339	ثانيا: التربية والثقافة.
340	1. مفهوم الثقافة والمثقف.
342	2. المثقف عند إبراهيمي المفهوم والوظيفة.
343	2. 1. مفهوم المثقف والثقافة عند إبراهيمي.
344	2. 2. المثقف شروطه وواجباته التربوية.
345	▪ إصلاح الذات.
346	▪ إصلاح المجتمع.
348	3. نماذج المثقفين عند إبراهيمي.
349	▪ المثقف الحق.
350	▪ المثقف الطفيلي.
351	▪ المثقف المنفي.
352	4. ازدواجية المثقفين و موقف إبراهيمي منها.
354	5. واجب المثقفين بين إبراهيمي ومثقفي الزّاهن.
357	ثالثا: التربية مسار إلى الإنسانية.
358	1. الإنسانية في الإسلام وموقعها الراهن من منظور إبراهيمي.
362	2. الإنسانية بين واقعها المتأزم و أفق تحقيقها.
368	3. مسار تحقيق الإنسانية.
368	▪ القرآن الكريم.
371	▪ الأخوة الإنسانية كمبدأ تربوي يحكم العلاقات بين البشر.
373	رابعا: التربية عند إبراهيمي و الأزمة التربوية الراهنة.
375	1. بناء مناهج دراسية تتماشى وفلسفة المجتمع وتساير تطورات العصر.
376	2. تجنب طغيان البعد السياسي و الأيديولوجي على محاولات الإصلاحات التربوية.
378	3. ضرورة الابتعاد عن التقليد الساذج للإصلاحات الغربية.
380	4. الدعم المادي للمدرسة و للبحث العلمي.

383	خلاصة.
384	نتائج الدراسة وتوصياتها
385	نتائج الدراسة.
391	التوصيات والمقترحات.
393	خاتمة.
394	قائمة المصادر و المراجع.

مقدمة

مقدمة:

كانت ولا زالت التربية الأداة التي يتكون بواسطتها الإنسان، فهي ما يجعل الإنسان إنساناً، آخذة بذلك مركزها الهام والمحوري في الفكر الإنساني عبر امتداداته التاريخية والمستقبلية، عاملاً الفكر التربوي في دينامية متواصلة على الاستمرارية والتكيف مع متغيرات الحياة، مطوّراً في أساليبه ومناهجه ووسائله بهدف مواكبة تطورات العلوم والعصر، محدثاً تواصلًا خلاقاً بين تراث الأمة وفلسفتها وبين منتجات العصر ومتطلباته ومتغيراته الجديدة على مختلف الأصعدة الاجتماعية والثقافية والتاريخية والاقتصادية.

ونظراً للتغيرات والمستجدات التي تطرح على الساحة العالمية من أحداث ووقائع ومشكلات كان لزاماً على التربية أن تكون المنطلق والأداة والقاعدة التي تؤسس عليها تربية الأجيال التي ينبثق عنها مختلف الحلول لكل ما يطرح ويستجد. من هنا اتجهت جهود المجتمعات والدول إلى العناية بالعامل التربوي للتعامل مع متغيرات الحياة المختلفة، ونظراً لأهمية هذا العامل والقدرة على توجيهه وفق ما يريده القائمون على التربية خاصة على المدى البعيد، فإنّ توظيف التربية اتخذ عدّة مسارات وارتبط بشتى الممارسات والاتجاهات الفكرية والتوجهات الأيديولوجية، فشكّلت التربية بذلك أداة للإصلاح والتغيير نحو الأفضل من جهة كما وُجّهت نحو الهدم والتغيير، فأدّت بذلك إلى بناء مجتمعات كما أدّت إلى تدمير مجتمعات أخرى.

وعطفاً على ما سبق فقد اتجه العديد من المصلحين والمنظرين التربويين إلى ترجمة أطروحاتهم الفكرية واقعيًا، وإلى تجسيد مشاريعهم الإصلاحية بغية النهضة بمجتمعاتهم وتحريها وتطويرها، وتنشئة الأجيال على القيم الأخلاقية الفاضلة ودعمها ودفعها في معترك الحياة لتحقيق آمالها. والفكر التربوي والإصلاح في العالم العربي والإسلامي يزخر بنماذج رائدة في التنظير والإصلاح التربوي ظهرت ملامحها ونتائجها على أرض الواقع كبعد ممارساتي أكثر منه بعداً نظرياً. ومن رواد التغيير والإصلاح الذين سطع نجمهم في العالم الإسلامي وفي الوطن الجزائري خصوصاً الإمام عبد الحميد بن باديس، الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الشيخ مبارك الميلي، الإمام العربي التبسي وغيرهم رحمة الله عليهم جميعاً.

ويعدّ الإمام محمد البشير الإبراهيمي أحد أهم العلماء المحدّدين والرواد الجزائريين المصلحين الذين عملوا جاهدين في مكافحة الاستعمار الفرنسي على مختلف الأصعدة الدّينية والتربوية والسياسية والاجتماعية. فقد ركّز الإمام الإبراهيمي رفقة الإمام عبد الحميد بن باديس على التربية إيماناً منهما بالدور الذي تؤدّيه في تكوين

أجيال قادرة على تحقيق استقلالها، وفي إصلاح المجتمع الجزائري وتغييره نحو الأفضل، من خلال مواجهة المخططات الاستعمارية التي لم يتوان المستعمر فيها على توظيف مختلف الوسائل والأساليب الممحية للقضاء على الشخصية الجزائرية، مركزا في ذلك أيضا على التربية والتعليم لتنشئة أجيال متشعبة بالثقافة الفرنسية في سبيل استعمار الجزائر فكريا وروحيا بعد استعمارها ماديا.

وبذلك انصبّت جهود البشير الإبراهيمي على مقاومة السياسة الفرنسية من خلال إصلاح الواقع التربوي الجزائري والعربي عموما، والتوعية بأهمية التربية والتعليم عاملا على بعث مشروع تربوي تجديدي بروح جديدة، فاتحا بذلك آفاقا قادرة للنهضة بالوعي والتفكير التربوي الجزائري إلى مستويات أكثر رحابة وشمولا مقارنة بما كان سائدا من رؤى تربوية غلب عليها الطابع التقليدي السكوبي.

ونظرا للنتائج التي حققتها الحركة الإصلاحية التربوية في الجزائر بفضل العلماء الأجلاء الذين قادوها وأشرفوا عليها، فحقيق أن تكون شخصياتهم وأطروحاتهم ومعالجاتهم مواضيعا لدراسات معمّقة ومستفيضة، وبذلك تدخل دراسة الباحث ضمن نطاق الحركة التربوية التي شهدتها الجزائر مع العلامة محمد البشير الإبراهيمي، حيث ركز على التربية عند البشير الإبراهيمي و الأسس التي أقام وجسّد عليها تربيته، نظرا لتلك الجهود التربوية والتعليمية التي بذلها الإمام الإبراهيمي في الحقل التربوي من خلال سعيه إلى بناء فلسفة تربوية وتعليمية لتربية الأجيال وفق أسس مكيّنة تمكنها من أداء أدوارها والوظيفة الحضارية التي تنتظرها، وذلك ضمن دراسة موسومة بعنوان: « الأسس التربوية عند محمد البشير الإبراهيمي »

قام الباحث من خلال دراسته التطرق إلى المنظور التربوي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي من خلال تحليل أهم الأسس التي أقام عليها رؤيته التربوية، والمنهج الذي سار عليه في تربيته، وهذا ما سيتحدّد أكثر في التأسيس المنهجي للدراسة من خلال إشكالية الدراسة وتساؤلاتها. وبناءً على ذلك فقد تم تقسيم الدراسة إلى خمسة فصول -بداية بفصل منهجي يؤسّس لها مع التطرق إلى أهم النتائج المتوصل إليها مع جملة من التوصيات- وجاءت فصول الدراسة على النحو الآتي:

الفصل الأول:

التمثّل في فصل التأسيس المنهجي والمفاهيمي للدراسة، تطرق الباحث فيه إلى الإطار العام الذي يحتضن الدراسة، من خلال توضيح الدراسات السابقة لها وأهم ما تضمنته من أفكار ونتائج، وتحديد الثغرة

التي تعمل دراسة الباحث على سدّها، ومنه تحديد إشكالية الدّراسة وتساؤلاتها، مع توضيح أهمية وأهداف الدّراسة والأسباب التي دفعت الباحث إلى اختيار بحثه، مع ضبط أهم المفاهيم الأساسية الواردة في الدّراسة. كما قام الباحث بتحديد المنهج المتبع في الدّراسة وتبيين طبيعتها وحدودها.

الفصل الثاني:

أما الفصل الثاني والمعنون بمفهوم التربية ومنهجها عند الإبراهيمي تناول الباحث من خلاله تحديد مفهومي التربية والتعليم عن البشير الإبراهيمي رحمه الله مبينا العلاقة القائمة بينهما في نظره. منتقلا بعد ذلك إلى المنهج التربوي الذي سار عليه الإبراهيمي في تربيته وعمله الإصلاحية والذي اتّسم بسمتين أساسيتين تتمثلان في الواقعية والمستقبلية. وقد قام منهجه على ثلاثة عناصر أساسية تمثلت في منطلقات المنهج والتي شملت التوعية والتنوير بضرورة التربية وأهميتها. ثم التطرق إلى الوسائل والأساليب المعتمدة فيه مركزا فيها على دور المدرسة خاصة محدّدا برامجها ووظائفها. وأخيرا الغايات والأهداف التي سعى إلى تحقيقها من خلال مشروعه التربوي.

الفصل الثالث:

قام الباحث من خلاله بعرض وتحليل أهم الأسس التي تقوم عليها التربية عند الإبراهيمي، والمتمثلة في الأسس الأخلاقية والدينية والعلمية، مبينا ضرورة القيم الأخلاقية في تربية الأجيال، والتأسيس لها انطلاقا من الأسرة والمدرسة، موضّحا ضرورة الدين الإسلامي كأساس تربوي من خلال ضرورة الرجوع إلى هدي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في التربية. إضافة إلى الأساس العلمي الذي يضمن من خلاله للأجيال تربية مستمرة ويربطها بالحياة ويفتح لها آفاقا جديدة ويجعلها مواكبة لتطورات العصر ومنتجاته.

الفصل الرابع:

وهو امتداد للفصل الثالث تطرق الباحث فيه إلى الأسس الاجتماعية والنفسية في التربية الإبراهيمية، مبينا في الأساس الاجتماعي للتربية لوازم بناء الاجتماع الحيوي وكيفية تحقيق التغيير المنشود في المجتمع. إضافة إلى الوطنية كأساس تربوي حيث بين الإبراهيمي معنى الوطنية ومؤكدا على قيم المواطنة ومحدّدا دعائم التربية على الوطنية والمتمثلة في مقومات الشّخصية الوطنية و العلم والأخلاق وربط ذلك بالجانب العملي. وفي الأساس النفسي للتربية يؤكد الإبراهيمي على مراعاة الطبيعة الإنسانية في التربية ومراعاة الجانب النفسي في

تربية الأطفال خصوصاً، مع الاعتماد على أسلوبي الترغيب والاقتداء. ولا يهمل الإبراهيمي ربط الناشئة بالحياة جاعلاً منها أساساً في منظوره التربوي.

الفصل الخامس:

تطرق الباحث فيه إلى علاقة التربية عند الإبراهيمي بأهم قضايا الحياة المعاصرة موضحاً راهنية طرحه التربوي، وتحدد ذلك من خلال علاقة التربية بالسياسة والتأسيس لتربية سياسية. إضافة إلى علاقة التربية بالثقافة وضرورة أن يكون المثقف فاعلاً في مجتمعه ثقافياً وتربوياً، وتوضيح وظيفة المثقف بين رؤية الإبراهيمي ومثقفي الزاهن. إضافة إلى علاقة التربية بالإنسانية وكيف تعمل التربية على تنمية البعد الإنساني لدى الأجيال، مختتماً هذا الفصل بموقع التربية عند الإبراهيمي والأزمة التربوية الراهنية وكيفية الاستفادة من رؤية الإبراهيمي في حلحلة هذه الأزمة والخروج منها.

وانتهت الدراسة باستنتاج تضمن أهم النتائج المتوصل إليها، والإجابة عن التساؤلات المطروحة فيها، إضافة إلى عرض أهم التوصيات والمقترحات التي خرجت بها هذه الدراسة المتواضعة، مختتماً إياها بخاتمة موجزة.

ولا يسع الباحث إلا القول بأن هذه الدراسة جاءت كمساهمة متواضعة محاولةً الكشف عن المنظور التربوي الإبراهيمي، الذي له في كل جانب من جوانب الحياة الجزائرية أثراً لا زال بارزاً إلى اليوم، وله في بناء المواطن الجزائري بصمة تربوية وفكرية وروحية، كان لها وقعها وفعاليتها في بناء العقل الجزائري والدفع به إلى تحقيق حريته فكرياً ومادياً. ومنه فإن هذه الدراسة لا يمكن أن تثني للبشير حقّه لكنها تبقى مجرد مساهمة بسيطة في التنوير بفكره وتعميق الوعي بمساعي علمائنا وجهودهم الحثيثة في سبيل النهضة بالأمة الجزائرية، رغم ما تضمنته الدراسة من نقائص وما التوفيق إلا بالله.

الفصل الأول

التأسيس المنهجي و المفاهيمي
للدراسة

الفصل الأول: التأسيس المنهجي و المفاهيمي للدراسة.

تمهيد:

01: إشكالية الدراسة.

02: تساؤلات الدراسة.

03: الدراسات السابقة.

04: أهداف الدراسة.

05: أهمية الدراسة.

06: أسباب و مبررات اختيار الموضوع.

07: ضبط مفاهيم الدراسة.

08: طبيعة الدراسة.

09: منهج الدراسة.

10: أدوات البحث.

11: حدود الدراسة.

خلاصة.

تمهيد:

يجد الإنسان ذاته أمام معترك من التحدّيات والصّراعات في ظل عصر وواقع يتسمان بالتحوّلات المتسارعة في شتى مناحي الحياة الإنسانية، وبإسقاط هاته النظرة على الفرد الجزائري، فإن هذا الأخير ليس بمنأى عن تلك المتغيرات، بل يخوض غمارها عاملا على الإعداد لكل ما يتطلبه هذا الواقع والقضايا التي يطرحها، ولا يكون ذلك إلا من خلال بناء أجيال قادرة على مجابهة ومعايشة ما يكتنف هذه الحياة من مشكلات وتحدّيات، وهذا ما يتطلب ضرورة التأسيس لرؤى ومشاريع تربوية تتوافق مع البنى الاجتماعية ومميزات الواقع ومتغيراته، ومسايرة من جهة أخرى لمختلف التحوّلات التي تفرضها الحياة المعاصرة، هذا ما يمكن استقصاؤه من خلال الرؤى والجهود التربوية التي أسّست بهدف النهضة بالمجتمع الجزائري منذ فترة الاحتلال الفرنسي للتحرر منه، وحتى بعد الاستقلال من أجل النهضة والتخلص من دياجير التبعية والانحطاط.

إضافة لما نشهده في راهننا من تحولات وتطورات مسّت المدرسة الجزائرية والواقع التربوي والتعليمي عموما، من إصلاحات وتجديد وتطوير، أو ما أصبح يصطلح عليه اليوم – بإصلاح الإصلاحات – وغير ذلك من المصطلحات المتداولة والمستحدثة في القاموس التربوي التعليمي، لكن رغم تلك الجهود لم يتم التوصل إلى النتائج المرجاة، ولم تنجح مهمة بناء المواطن الجزائري الكفيل بنهضة مجتمعه، ما يطرح عديد التساؤلات، حول طبيعة تلك المشاريع والرؤى، خاصة وأنه كلّما قدّم مشروع تربوي إلا وعقبه مشروع آخر في فترة وجيزة وغالبا ما يكون مغايرا لا مكتملا له.

كل هذا يؤكّد حجم الأزمة التربوية التي نعيشها، في ظل ما يميز الواقع من صراعات اجتماعية، تأزّمت سياسية، وأزمات اقتصادية، دون إغفال ذلك الصراع الذي لا زال قائما بين العديد من الأيديولوجيات، والاتجاهات الفكرية والدينية، بين رؤى بقيت منغلقة حبيسة لظروف خاصة فتحوّلت إلى نزعة طوباوية لا تتعدى الجانب الخطابى هدفها تمجيد الماضي دون الولوج في الحاضر ومعاصرتة، ويقابلها اتجاه حداثى منبهر بالحضارة الغربية وما حققته من انتصارات، فاتجهت أنظارهم إلى استنساخ مناهجهم وتطبيقها في واقع لا تتوافق معالمه وإحداثياته مع الرؤى والمشاريع الغربية. فوجدنا أنفسنا في ظل هذا الشرخ بين عقول تلجأ إلى الهروب من الواقع والانفصال عن أوضاع المجتمعات المعاصرة بالاحتماء في ظلال المطلق الديني أو إلى كل موروث تقليدي، عاجزة عن التوفيق بين الأصالة و المعاصرة. وبين رؤى لجأت إلى الآخر ففتحت مصراعها له

أخذة بمحاكاته، متقبلة كل ما أدلى به دلوه ولو على حساب قيمتها ومقومات الشخصية الوطنية، كل هذا سبب تفاقما وترديا للوضع التربوي خاصة وباقي الأوضاع عامة، بدل العمل على النهضة وتطوير المجتمع، وبقينا نتيجة لذلك أمودجا يجسد لإنسان مغلوب فكريا وثقافيا، ذلك الإنسان الذي بقي تائها يبحث عن موقعه داخل دائرة البشرية وحضارتها.

إن هذه الأزمة التربوية تحيل إلى ضرورة تفكيك الفكر التربوي لدينا، وإلى تحليل الرؤى التربوية لدى المفكرين الذين تناولوا الوضع التربوي والنهضوي ومختلف جهودهم في ذلك، خاصة تلك الرؤى التي عملت على تجاوز هذه الازدواجية المتصارعة إبان الاستعمار الفرنسي وحتى بعده. خصوصا الرؤى القائمة على مراعاة القيم الوطنية، العاملة على ربطها بالحاضر و تغيراته. إذ من المعلوم أن تأسيس أي رؤية علمية أو تربوية يتطلب قراءة الماضي من موقع الحاضر وبعيون المستقبل، والتأسيس للحاضر لاستشراف المستقبل.

ومن أهم الرؤى التربوية التي حاولت التأسيس لنهضة جزائرية، رؤية الإمام محمد البشير الإبراهيمي⁽¹⁾ (1889-1965) رحمة الله الواسعة عليه، من هنا تنطلق الدراسة إلى الفكر التربوي للإمام محمد البشير

(1) - محمد البشير الإبراهيمي: هو محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي، نسبة إلى قبيلة ذات أفخاذ ويطون تعرف ب «أولاد إبراهيم»، وهي إحدى قبائل سبع متجاورة في سفوح الأطلس الأكبر الشمالية المتصلة بقمم جبال الأوراس من الجهة الغربية، وكل ذلك واقع في مقاطعة قسنطينة من القطر الجزائري. ويرتفع أصل العلامة البشير الإبراهيمي إلى الأدارسة العلويين. فهو في أصله الزكي يتصل بعترآ آل البيت عليهم رضوان الله. و يضيف الإبراهيمي أن نسب قبيلته العربي ينتهي إلى قبيلة قريش أو هلال بن عامر " فمما لا شك فيه أن نسبنا عربي أصيل، إن لم يكن في قريش فهو في هلال بن عامر، لأن موطننا الحاضر من المجالات الأولى التي كان لبني هلال فيها مضطرب واسع لأول هجرتهم من صعيد مصر في أواسط المائة الخامسة." أما مولده يوم الخميس الثالث عشر من شهر شوال عام 1306 هـ، الموافق للربيع عشر من شهر يونيو (جوان) سنة 1889م، وقد سجل هذا بقلمه في مقال له عنوانه ب. "أنا"، بمناسبة تعيينه عضوا في المجمع اللغوي بالقاهرة قائلا: " أنا محمد البشير الإبراهيمي ولدت يوم الخميس عند طلوع الشمس في الثالث عشر من شهر شوال سنة ست وثلاث مئة وألف (1306هـ)، و يوافق الرابع عشر من يونيو(جوان) سنة 1889م، كما رأيت ذلك مسجلا بخط جدي لأبي الشيخ عمر الإبراهيمي رحمه الله في سجل أعدده لتسجيل مواليد الأسرة ووفياتها."

- نشأ الإبراهيمي في أسرة جزائرية لها جذورها في رسم العلم و توارثه، و نشأ ككل أبناء البيوتات العلمية الريفية على طرائق الحياة، وقد ابتلي بمرض في رجله اليسرى عندما بلغ سن التاسعة من عمره، و نظرا للإهمال والبعد عن التطبيب المنظم كان له أثره في إصابته بعاقة العرج. وكانت تربيته وانكبابه على التعلم أنيسه في نسيان ألمها و الحزن حيالها، و يبين الدور الإيجابي لتربيته الريفية في فضلها بما يتمتع به من قوى بدنية، فكرية و خلقية. وقد كان لعائلته مكانة متميزة في العلم و توارثه لعدة قرون مما أكسبها مكانتها العلمية وسط القبائل أما بالنسبة لتعليمه فبدأ حفظ القرآن في الثالثة من عمره تحت إشراف عمه محمد المكّي الإبراهيمي. في عام 1903 توفي عمه مجيزا إياه تدرّس الطلبة، الذين كان عمه حريصا على نفعهم، وبذلك كان الإبراهيمي معلما (شيوخا) في سن الصبا. من هنا تبدأ مرحلة جديدة في حياته، ففي سنه الواحد والعشرين انتقل الإبراهيمي إلى المدينة المنورة سعيا للاستزادة بالعلم من جهة، وتلبية لطلب والده من جهة أخرى، و كانت طريقته إلى المشرق بذلك طريقا تعليمية

الإبراهيمي رحمه الله و إلى الأسس التي تقوم عليها التربية عنده، وربطها بأهم قضايا التي نعيشها اليوم وتطرحها الحياة المعاصرة، خصوصا ما تعلق منها بالنهضة بالمجتمع، وإلى علاقة التربية بالسياسة وعلاقتها بالدين وغيرها من المجالات، من خلال تفكيك وتحليل الرؤية التي يقدمها الإمام الإبراهيمي لتحرير المجتمع الجزائري من الاستعمار الذي تعرض له فكريا، سياسيا وثقافيا، وإلى الإعداد لمرحلة ما بعد الاستقلال كنظرة استشرافية لمواجهة التحديات التي تنتظر المواطن الجزائري والمسلم عموما. كل هذا ضمن دراسة موسومة بعنوان: "الأسس التربوية عند محمد البشير الإبراهيمي". معالجين من خلالها أهم الأسس التربوية التي أقام عليها الإبراهيمي مشروعه التربوي وهذا ما تحدده في إشكالية الدراسة وتساؤلاتها.

01. إشكالية الدراسة :

تطرق الإمام الإبراهيمي في مشروعه النهضوي والإصلاحي إلى عدة مواضيع وقضايا، احتلت فيها التربية موقعها الفاعل، خاصة مع ممارساته التربوية مدرسا ومرشدا دينيا وخطيبا ومنظرا تربويا. ودعوته إلى إعداد أجيال جديدة من منطلق تربوي، إدراكا منه أن أي نهضة عالمية لدى شعب من الشعوب، وأي حضارة

معرفية، مروا بمصر أين لبث ثلاثة أشهر بالقاهرة، حيث حضر خلالها بعض الدروس في الأزهر وتعرف على أشرف علمائه وشعرائه، إضافة إلى ما تلقاه من دروس بالمشرق العربي بعد رحيله إليه خصوصا بالمدينة المنورة، وهذا ما يتضح في رحلاته.

يعدّ أهم المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931، ورئيسها الثاني بعد وفاة الإمام عبد الحميد بن باديس، كما أشرف وأسس العديد من مدارس جمعية العلماء، أهمها دار الحديث بثلماسان، ومعهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة، أما وفاته فكانت يوم الأربعاء 18 محرم 1385هـ- الموافق 19 مايو 1965، وفارق الفانية إلى الباقية عن عمر يناهز ستة وسبعين عاما. أما بالنسبة إلى آثاره، فهي قليلة في حجمها بالنسبة إلى حياة الإمام الحافلة مثلما أكده نجله أحمد طالب الإبراهيمي، وقد ضاع منها الكثير، وأجل ما كتب: 1- كتاب عيون البصائر، وهو الكتاب الوحيد الذي طبع في حياته، يتضمن مجموعة من المقالات التي كتبها في جريدة البصائر في سلسلتها الثانية. 2- كتاب بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر. 3- كتاب النقايات والنفايات في لغة العرب. 4- كتاب أسرار الضمائر في العربية. 5- كتاب التسمية بالمصدر. 6- كتاب الصفات التي جاءت على وزن فَعْل بفتح العين. 7- كتاب نظام العربية في موازين كلماتها، 7- أرجوزة شعرية سماها الملحمة كتبها يوم كان منفيا بمدينة آفلو، وهي من أعظم ما كتب... الخ. ومن الأعدار التي يبرز الإبراهيمي بها عزوفه عن الكتابة والتأليف قوله: "لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة، مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلى بأنني ألفت للشعب رجلا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصححت له دينه و لغته، فأصبح مسلما عربيا، وصححت له موازين إدراكه، فأصبح إنسانا أبيًا، وحسي هذا مقربًا من ربي و رضى الشعب". ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، ج5، (1954-1964) دار الغرب الإسلام، بيروت، ط1، س1997، ص163-170. محمد البشير الإبراهيمي، أنا، البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، (إعادة طبع مجلة الثقافة العدد87، شعبان-رمضان، 1405هـ، ماي-جوان، 1985) "عدد خاص بالبشير الإبراهيمي" ط2، دار الأمة، الجزائر، س2012، ص11-36.

بشرية قامت على مَرّ التاريخ كان أساسها الأول التربية، فهي التي تعمل على بناء إنسان الحضارة، وترتبط أفراد المجتمع بفلسفته في الحياة. إضافة إلى أن أي فكر تربوي يتأسس ويقوم على أسس مختلفة باختلاف مجالات الحياة الإنسانية. هذا ما دفع إلى صياغة إشكالية الدّراسة على النحو الآتي:

ما الأسس التربوية التي أقام عليها محمد البشير الإبراهيمي مشروعه التربوي ؟ وما موقع مشروعه وأسس من أهم القضايا التي طرحها الحياة المعاصرة ؟ أو بتعبير آخر ما مدى راهنية الطرح التربوي الإبراهيمي ؟

وتتضمن إشكالية الدراسة العديد من التساؤلات الأساسية والهامة وهي على النحو الآتي:

02. تساؤلات الدراسة :

- كيف أسّس الإبراهيمي لمشروعه التربوي ؟ وما المنهج الذي سار عليه في تجسيده ؟
- هل يمكن ربط الفكر والمشروع التربوي للإمام الإبراهيمي بقضايا الراهن؟ وهل تضمنت رؤيته التربوية صبغة راهنية معاصرة تمكن من ذلك؟
- هل يمكن لمثل هذا الفكر التربوي ذو المرجعية الدينية والوطنية أن يتكيف مع الواقع الراهن الذي أصبحت فيه الكثير من الرؤى الدينية فاقدة لعنصر التجديد ؟
- هل يمكن تبني مثل هكذا مشاريع في صياغة رؤى تربوية معاصرة تجمع بين الموروث الديني والثقافي و بين عناصر الحداثة في ظل راهن غالبا ما يتميز بالصراع بينهما ؟

03. الدراسات السابقة :

بناءً على ما تملّيه الضرورة المنهجية لا بد من التطرق إلى الدّراسات السابقة ذات العلاقة بموضوع البحث، إذ تمثل هذه الدراسات قاعدة ومنطلقا لا بد من الرجوع إليه حتى تحدّد الثغرة والأساس الذي تنطلق منه هذه الدراسة، فتعمل على سدّها، إضافة إلى دورها في تحديد وصياغة إشكالية البحث وضبطها بدقة. إضافة إلى المساهمة في توضيح ورسم الطريق الذي تنحوه الدراسة وأهدافها، أهميتها ومآلاتها.

حيث يتطرق الباحث إلى الدراسات السابقة التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع موضوع البحث، خصوصا المتعلقة بالفكر التربوي عند الإمام البشير الإبراهيمي، والتي نجدها نادرة كموضوع أو كدراسات معمقة قائمة بذاتها، ما عدا بعض المقالات وأطروحة دكتوراه في علم النفس، ونوجز أهم تلك الدراسات على النحو الآتي:

أولا: الدراسات الأكاديمية. تشمل أطروحات الدكتوراه و رسائل الماجستير.

أ. أطروحات الدكتوراه :

1. الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي : إعداد محمد زمران إشراف دحو العربي، أطروحة دكتوراه دوله في الفكر الإسلامي الحديث، معهد الدعوة و أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية سنة 1994-1995م.

تطرق الباحث في دراسته إلى الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الشيخ البشير الإبراهيمي، فقام بعرض الأسس العامة للتغيير لديه ثم قضية الإطار المرجعي ودوره في التغيير والواقع الإنساني ببعديه الفطري والمعيشي، مبينا أن الإسلام هو الإطار المرجعي للأمة الإسلامية والأساس الهام الذي ينبغي أن تقوم عليه أية عملية تغيير في المجتمعات الإسلامية، وأن القرآن و السنة هما المصدرين الأساسين للإطار المرجعي والإنسان مفتاح التغيير.

كما تحدث عن الانفتاح الحضاري عند الإبراهيمي وعن آلياته وضرورته في التغيير، لينتقل بعد ذلك للحديث عن منهج التغيير عند الإبراهيمي، الذي عالج فيه الإطار الزمني والمكاني وعلاقتها بالتغيير والقواعد الضرورية والشروط الموضوعية لمنهج التغيير، ثم الأساليب الضرورية لهذا المنهج وأهدافه الإستراتيجية والمرحلية. وفي ختام دراسته تطرق إلى مجالات التغيير عند الإبراهيمي، وقد شملت المجالات الدينية، الثقافية والتربوية والسياسية وغيرها. ويظهر ارتباط هذه الدراسة مع دراسة الباحث خصوصا في المجال الثقافي والتربوي للتغيير، إذ يعدّ المتغير التربوي عاملا أساسيا وهاما في أي تغيير.

وقد توصلت الدراسة إلى نتائج هامة تمثلت تحديدا في ضرورة الإطار المرجعي لأي تغيير، فلا يمكن إحداث التغيير الإيجابي أو إصلاح المجتمعات الإسلامية إلا من خلال فهم خصوصياتها والمرجعية الثقافية لها، دون إهمال واقع تلك الشعوب. وتوصلت الدراسة أيضا إلى أن أي تجربة هادفة إلى تحقيق غاياتها وإحداث

التغيير ينبغي أن تنطلق من الإنسان باعتباره وسيلة وغاية للمشروع الحضاري، وكونه العنصر الأساس في العملية التغييرية، ويساهم كل مجال من مجالات التغيير بجانب معين في عملية التغيير الشاملة.

تتضح القيمة العلمية لهذه الدراسة كونها ركزت على نظرة الإبراهيمي كأحد كبار المصلحين في العالم الإسلامي، متطرفة على عدة مجالات في التغيير. مما يبين ضرورة التوسع في تلك المجالات لأن كل مجال منها يمثل موضوعا واسعا للبحث، خاصة مع غزارة التراث الفكري والأدبي للإمام الإبراهيمي في مساره الإصلاحية. ومنه سترتبط دراستنا بعامل ومجال واسع من مجالات التغيير والعمل الإصلاحية العام لدى الإبراهيمي، وهو العامل والمتغير التربوي الذي يعدّ منطلقا أولا للتغيير وأساسا تبني عليه الأمم نخضتها ومشاريعها المستقبلية. وهو ما تطرقت إليه الدراسة كمبحث جزئي أقصى العديد من جوانبها نظرا للموضوع الواسع والمجالات الواسعة للتغيير عند البشير الإبراهيمي.

2. الفكر التربوي عند محمد إقبال و محمد البشير الإبراهيمي دراسة مقارنة: أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علوم التربية، إعداد الدكتور بيبي مرزاق، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم النفس و علوم التربية و الأروطوفونيا، السنة الجامعية: 2007/2006 م.

تطرق الباحث إلى أهمية التربية ومبادئها عند المفكرين، متسائلا عن كيفية إصلاح الواقع التربوي والتعليمي ومواجهة التعليم الأجنبي والعربي التقليدي، مبرزاً نقاط التشابه و الاختلاف بين فكر البشير الإبراهيمي و محمد إقبال.

وتوصل الباحث إلى أن فكرهما يمثل خلاصة ما يهدف إليه العالم الإسلامي اليوم بحثا عن شروط نخضته، ذلك أن أهم ما دعا إليه إقبال والإبراهيمي يتمثل في فكرة أساسية مفادها أن العالم الإسلامي يعاني من تخلف وضعف على جميع الأصعدة، والسبب الأول في ذلك الاستعمار وما فرضه على الشعوب العربية والإسلامية من جهل وتخلف من جهة، وإلى المؤسسات والمراكز التعليمية التقليدية التي تسير على أنماط تقليدية ساهمت في قتل المواهب. وبذلك فلا بد من بعث ذاتي جديد حتى يتم الخروج من هذا التخلف، ويكون ذلك من خلال إحداث ثورة في الأساليب التعليمية السائدة، وأن محاربة الاستعمار تكون بتحرير العقول، وأن الثورة التربوية شرط لكل ثورة.

ويتفق إقبال مع الإبراهيمي في ضرورة إصلاح العلماء وتطهير سريرتهم ليكونوا في مستوى الأمانة التي كلفوا بها، حتى يُكتب للإصلاح التربوي النجاح وتصحح النظرة للحياة التي عمل الاستعمار على نشر مفهوم خاطئ حيالها. إذ يسعى كل منهما بذلك إلى تربية متوازنة جامعة بين الأخلاق والعلم.

وقد بيّن الباحث أنه رغم الاختلاف الجغرافي و الثقافي، وطبيعة التكوين لهما إلا أنّهما استطاعا تشخيص أمراض الأمة الإسلامية وتحديد العلاج المناسب لها، واضعين أطرا عامة لمواجهة الوضع المتردي لهاته الشعوب المغلوبة على أمرها. هذا ما يبرز الأثر الكبير الذي تركته الحركة الإصلاحية للشيخين على الفكر الإسلامي المعاصر، ما يدل على تواصل الفكر الإسلامي و استمراريته و حيويته.

وضّحت هذه الدراسة القيمة والزخرة العديد من معالم الفكر التربوي والإصلاحي لدى المفكرين، غير أنّها ركزت أكثر على نظرة مفادها المقارنة بين رؤية الشيخين البشير الإبراهيمي ومحمد إقبال، وبذلك لم تتعمق أكثر في الفكر التربوي للإبراهيمي أسسا و منهجا، والذي يمثّل موضوع دراسة الباحث الحالية، ولم تتطرق بالبحث حول صلاحية هذا الفكر التربوي ومدى إمكانية إسهامه في صياغة مشروع تربوي معاصر كفيل بالخروج من الواقع التربوي المتأزم الذي نعيشه اليوم كنتاج لمخلفات استعمارية، وإصلاحات متوالية لم تجد البوصلة الصحيحة في توجيهها و إرشادها.

3. قضايا العرب و المسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي و الأمير شكيب أرسلان، دراسة تاريخية و فكرية مقارنة: رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إعداد بشير فايد، جامعة منتوري قسنطينة قسم التاريخ و الآثار، سنة 2010/2009م.

تطرق الباحث إلى المقارنة بين أهم أسباب تخلف العرب والمسلمين، و المتمثلة عند الإمام الإبراهيمي في فساد علماء الدين والحجر على الاجتهاد والنزوع إلى النقل والتقليد، فساد الأخلاق والعادات إضافة إلى الاستعمار الروحي. أما شروط نهضتهم فتقوم على مدى صلاح علماء الدين و إحياء الدين الإسلامي إضافة إلى تفعيل دور المثقفين، أما التخلف عند أرسلان فيرجع إلى الجمود إلى أولئك العلماء والفقهاء المعطلون للرقى، وفساد الحكام وضعف الروح القومية والخيانة. إضافة إلى عدم الثقة بالنفس والتعاس والتواكل والتخاذل. وتتمثل شروط النهضة في أخذ العبرة من الماضي من جهة، واقتحام غمار العلوم والاقتصاد من جهة أخرى، إضافة إلى التحلي بروح الإرادة والتضحية والموازنة بين العقيدة والعلوم. كما قام بعرض رؤيتهما

حول الجامعة الإسلامية مزاياها وكيفية بنائها، وإلى الوحدة العربية وبواعثها وكيفية تحقيقها من خلال كتابات وآثار الإمام الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان.

وتوصل الباحث إلى أن البيئة السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية التي شبّ فيها الشيخان كان لها الأثر الكبير في بلورة فكريهما، رغم أن البيئة السياسية اللبنانية كانت أفضل بكثير منها في الجزائر في عصر الأمير شكيب و الشيخ البشير. هذا الأخير الذي عالج مختلف أمراض المجتمع الجزائري وأسقطها على البلدان العربية والإسلامية المتشابهة في أوضاعها، مع انفراد المجتمع الجزائري بالأحادية الدينية والمذهبية، خصائص انعكست على فلسفة الإبراهيمي المتصلة بالإصلاح الديني، إذ أنه غالبا ما ينطلق من الخصوصية الجزائرية أو المغاربية ثم يعممها على كافة أقطار العالم العربي و الإسلامي. في حين غلب على الأمير أرسلان القضايا السياسية بصورة خاصة، وقد كان أكثر انفتاحا في مناقشة الواقع الديني في العالم العربي والإسلامي المتسم بالتردي. وهما على غرار جيلهما من قادة النهضة والإصلاح لم تكن الظروف مناسبة لكي يعالجوا قضايا الأمة العربية الإسلامية على نحو يجعل ما اجتهدوا فيه قابلا للتطبيق من الناحية العملية، ورغم ذلك اضطلعوا بالمهمة ولم يتركوا مجتمعاتهم تواجه مصيرها لوحدها، وبذلك كَشَفَا عن كفاءة كبيرة في النضال الوطني و القومي.

تظهر الأهمية الكبيرة لهذه الدراسة من خلال طبيعة المواضيع والقضايا الحساسة التي تطرقت إليها، خصوصا توضيح أسباب التخلف لدى الأمة العربية والإسلامية من منظور الإبراهيمي وشكيب أرسلان، وإبراز شروط النهضة للحاق بالركب الحضاري. غير أن هذه الدراسة لم تتطرق إلى الفكر التربوي لدى الإمام الإبراهيمي كعنصر فاعل في التغيير الحضاري والنهضة بالشعوب، فمن المتعارف عليه أن منطلق أي مشروع تحضوي أو حضاري يتمثل التربية والتعليم. إضافة إلى ذلك فإن الدراسة كانت تاريخية في بعدها الأول وهو ما جعل الطابع التاريخي يغلب عليها.

ب: رسائل الماجستير.

1. التجديد عند محمد البشير الإبراهيمي منهجه و مضامينه: رسالة ماجستير، كلية الشريعة وأصول الدين والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، إعداد إبراهيم بريك، 2008/2007م.

تطرق الباحث فيها إلى مفهوم التجديد ومجالاته في الفكر الإسلامي محددا أسسه وضوابطه ومجالاته. وموضحا مفهوم التجديد عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والأمور التي لامسها خصوصا في مجال الدين

الإسلامي وتصحيح العقيدة الإسلامية موضعاً شروطه وأهدافه. كما تطرق إلى مضامين التجديد والتي تمثلت في التجديد العقدي، التجديد في المجال التربوي والثقافي. ويمثلان في هاتين النقطتين همزة وصل بين الدراسة الحالية للباحث في شقها التربوي، وفي جانب التجديد في المجال الاجتماعي ثم في المجال السياسي. متوصلاً بالباحث إلى عدة نتائج أهمها:

معايشة الإبراهيمي للواقع الجزائري مكّنه من الوقوف على أسباب المرض والتخلف الذي حلّ بالجزائر في مختلف المجالات، ومنه اتّسمت نظرتة في التجديد بالشمولية من خلال أبعاد التجديد العقدي، الاجتماعية والثقافية، وكل مجال من تلك المجالات يتخذ مسارا تجديدياً، كما بين أن الإسلام يمثل المرجعية الأولى للتجديد.

أبانت هذه الدراسة عن قيمة علمية ومعرفية هامة، كون التجديد من القضايا التي شغلت أرقام المصلحين وكتاباتهم مما أتاح تنوع التوجهات والرؤى حول ذلك، ومنظور الإبراهيمي من بين الرؤى التجديدية التي تركت آثارها البارزة في الواقع الجزائري. غير أن هاتين الدراستين هي الأخرى تناولت بطرح جزئي مسألة التربية والتعليم عند الإبراهيمي غير موفية إياها حقها، كجزء من العامل الثقافي في التجديد. هذا ما يدعو إلى ضرورة التطرق إلى التربية عند البشير الإبراهيمي بشكل خاص حتى نوفيها حقها من الطرح، ويتم توضيح مختلف الآراء التي تضمنتها رؤيته التربوية.

2. الخطاب الدعوي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: دراسة مقارنة بين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي. رسالة ماجستير بكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية جامعة باتنة، من إعداد شهرة شفري إشراف محمد زمران، السنة الجامعية: 2008-2009م.

تطرق الباحث في هذه المذكرة إلى مفهوم الخطاب الدعوي ومضامين وخصائص هذا الأخير عند كل من الإمام عبد الحميد بن باديس والإمام البشير الإبراهيمي. بالإضافة إلى عرض وسائل الخطاب الدعوي عندهما من خلال استحضار نصوص الشيخين ومقارنتها ببعضها البعض، واستخراج أوجه الاختلاف والتشابه بينهما.

وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج مفادها أن الخطاب الدعوي مرادف للخطاب الديني والخطاب الإسلامي، وأن جمعية العلماء دعوة سلفية لأنها دعت إلى العودة إلى كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه

وسلم، وأن خطاب ابن باديس والإبراهيمي لا يخرج عن هذه الدّعوة، بالإضافة إلى مراعاتهما للواقع وقوانينه، مع الدّعوة إلى الانفتاح على ما لدى الغرب من علوم وتكنولوجيا وعدم تجاوز حدود الشريعة.

إضافة إلى نجاح الإمامين في كفاحهما ضد الطرق الصوفية المنحرفة، وغرس الأخلاق الفاضلة في نفوس الأمة الجزائرية كخلق الصبر وخلق الاعتماد على النفس، والدعوة إلى تعليم المرأة وفق ما أمرت به الشريعة، وعملا على تخريج جيل يعتز بدينه ووطنه وعروبته، والدّعوة إلى الدفاع عن القضية العربية والإسلامية قضية فلسطين محرضين الشعوب على القيام بدورهم اتجاهها.

3. إضافة إلى رسالة الباحث المقدمة لنيل شهادة الماجستير المعنونة ب: "مفهوم التربية والتعليم عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي" التي تناول من خلالها مفهوم التربية عند الشيخ الإبراهيمي والمنهج الذي تبناه مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الإصلاح وجهوده في التربية والتعليم، إضافة إلى ما كان الشيخ الإبراهيمي يرنوا إلى تحقيقه من أهداف أهمها استقلال الجزائر.

غير أن هذه الدراسة لم تتطرق إلى الأسس التربوية التي تمثل جملة منطلقات تقوم عليه أي رؤى فكرية تربوي أو إصلاحية، ولم تتعمق في ذلك، إضافة إلى عدم ربط الفكر التربوي للإمام الإبراهيمي بقضايا المعاصرة، خصوصا أنه كان يطمح إلى إعداد أجيال كفيلة بقيادة الجزائر إلى تحقيق استقلالها وتطويرها.

ثانيا: المقالات العلمية.

إضافة إلى الدراسات الأكاديمية نجد عديد المقالات العلمية التي نشرت ضمن أعمال ومؤلفات جماعية لعدد من الكتاب والباحثين نتطرق إلى أهمها:

01. عدد خاص من مجلة "الثقافة"، صادرة عن وزارة الثقافة الجزائرية، السنة الخامسة عشرة، العدد: **87**، شعبان، رمضان **1405**هـ/ مايو، يونيو **1985**م.

عدد حافل بالمقالات الفكرية والأدبية التي تحدثت عن الإمام الإبراهيمي ومختلف جهوده، وقد سطرّت بأقلام بعض تلامذته وعارفيه من الجزائريين وغيرهم، نذكر منهم: عبد المجيد مزيان، عبد الرحمن شيبان، محمد الغزالي، محمد حافظ الجمالي، شكري فيصل، تركي رابح، إبراهيم السامرائي، محمد الطاهر فضلاء وغيرهم، وقد أعيد طبع هذا العدد من طرف دار الأمة بالجزائر وإصداره على شكل كتاب يحمل عنوان "الشيخ البشير

الإبراهيمي بأقلام معاصريه"، ط2، 2012م، في 456 صفحة. ويعتبر هذا الكتاب أو هذا العدد من مجلة "الثقافة" وثيقة تاريخية مهمة، لأنها تتضمن شهادات حيّة لعلماء وأدباء ومفكرين عايشوا الإمام الإبراهيمي عن قرب وسمعوا منه وتخلوا من معينه. وقد اعتمد الباحث في دراسته على الإصدار الجديد في طبعته الثانية "البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه".

ومعظم المقالات تناولت جوانب إصلاحية وأدبية للشيخ الإبراهيمي، ومن الدراسات ذات الارتباط بالفكر التربوي عند الإمام والتي تضمنها هذا العدد:

أ. الإبراهيمي و رسالته التربوية : مقال ل: محمد فاضل الجمالي (الجامعة التونسية (العراق)) وهي بمثابة شهادة على لقاءه بالشيخ الإبراهيمي واعتراف بالرسالة والجهود التربوية الكبيرة التي كان يبذلها الإمام في حقل التربية و التعليم، مقدّما من خلالها مقتطفات من رسالة قدمها الشيخ الإبراهيمي لفاضل الجمالي حول الوضع التربوي في الجزائر.

ب. فلسفة التعليم عند الإبراهيمي: مقال للباحث: علي زيكي جامعة الجزائر، تطرق من خلاله إلى بعض مواقف البشير الإبراهيمي وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وجهودهم المبذولة للنهضة بالتربية والتعليم في الجزائر.

02. كتاب يجمع مداخلات ومقالات الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته. الجزائر، قصر الثقافة، في 13، 14 ربيع الثاني 1426هـ الموافق ل 22-23 ماي 2005م. إصدار دار الغرب الإسلامي، ط1، سنة 1427هـ الموافق ل: 2006م.

كتاب حافل بالدراسات والشهادات حول الإمام البشير الإبراهيمي ومختلف مجالاته الفكرية وجهوده ومحطات حياته لمفكرين من الجزائر وخارجها، من بينهم محمد الهادي الحسني، يوسف القرضاوي، أبو القاسم سعد الله، محمد سعيد رمضان البوطي، محمد عمارة... الخ. ومن الدراسات تضمنها هذا العدد، وترتبط بالتربية والتعليم الإمام الإبراهيمي ما يلي:

أ. الشيخ البشير الإبراهيمي إمام في مدرسة الأئمة: ل: محمد عمارة. حيث تناول بعض جوانب الإصلاح لدى الإمام الإبراهيمي، و إلى أصول الإصلاح المتمثلة في الإسلام والعربية والوطنية.

ب. مقومات الفكر الإصلاحى عند الإمام محمد البشير الإبراهيمى: للأستاذ يوسف القرضاوى. متطرقا الشيخ القرضاوى فى مقاله إلى مقومات الإصلاح لدى الإبراهيمى والمتمثلة فى الإسلام والعروبة، معتمدا على التوعية والتربية كمنهج فى عمله الإصلاحى، إضافة إلى العمل الجماعى كشرط هادف للوحدة و التحرر.

03. التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمى: ل: عبد القادر فضيل، مقال منشور بالعدد الثانى من مجلة الوعى الصادرة عن دار الوعى الجزائرى العاصمة، شهر ذى القعدة 1431 هـ الموافق ل نوفمبر 2010م.

مقال قيّم تطرق الباحث من خلاله إلى دراسة تحليلية للمنهج التربوى الذى خطّه الشيخ الإبراهيمى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعالج من خلاله مسائل التعليم، وبعض الغايات التربوية التى حدّدها الإبراهيمى.

04. نحو فهم أعمق للأسس التعليمية عند البشير الإبراهيمى: مقال للباحث ولها حسين، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، مجلة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية فى الجزائر. العدد 15، سنة 2012.

تطرق الباحث من خلال مقاله القيّم إلى أهم الأسس التى تقوم عليها العملية التعليمية لدى الإمام الإبراهيمى والمتمثلة فى المعلم والمادة العلمية والمتعلم، إضافة إلى الطريقة التى تمكن من نجاح العملية التعليمية التربوية، مبينا أن رؤيته تتضمن آراءً نجدها فى التربية الحديثة. وتبقى رؤية الإبراهيمى ضمن المقال فى حاجة إلى التعمق والتوسع.

05. تربية الأمة عند العلامة محمد البشير الإبراهيمى: مقال للباحث: علي يطو، جامعة الجزائر، مجلة نقد وتطوير، العدد الثانى آب / أغسطس صيف 2015.

سعى الباحث من خلال دراسته إلى إبراز دور الإمام الإبراهيمى فى بناء الأمة الجزائرية وإصلاح ما فسد منها بفعل المستعمر، محاولا إبراز دور التربية والإصلاح الدّينى فى ذلك بناءً على مقومات المجتمع الجزائرى. وتوصل إلى نتائج يتمثل أهمها فى: أنه لا بد أن نبين للمجتمع أنه لا توجد أمة فى نظر الإبراهيمى إلا من خلال مقوماتها من جنس ولغة ودين وتقاليد صحيحة. و بضرورة تربية الأمة على الاعتداد بنفسها و بماضيها.

وأن الإصلاح يقوم على التربية ومنطلقه الأسرة، ولا بد أن يكون مطلب التربية أولى من طلب المعرفة، ويمثل الدين الإسلامي و آدابه الأرضية التي تبنى عليها الأمة الجزائرية.

رغم النتائج القيمة لهذه الدراسة إلا أنها تفتقر إلى تحليل كيفية تربية الأمة، فقط تطرق البحث إلى أن التربية احتلت مكانة هامة عند البشير الإبراهيمي وفي إصلاح الأمة من خلال عرض بعض نصوصه لكن دون تحليل معمق أو توضيح لكيفية ذلك.

06. الفكر التربوي و سؤال المرجع عند محمد البشير الإبراهيمي: مقال للباحث عبد الله بن صافية، مجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية، لبنان - العام الخامس، العدد 40، أبريل 2018.

مقال قيم تطرق من خلاله الباحث إلى سعي الإمام الإبراهيمي إلى إقامة نهضة فكرية، ولا تنجح هذه النهضة إلا من خلال التربية والتعليم، خصوصا في عصر تردت فيه مقومات التربية ودعائمها في الجزائر بفعل الاستعمار الفرنسي، مؤسسا الإبراهيمي رؤيته التربوية على المرجعية الدينية والقومية، هادفا إلى ترسيخ مجموعة من الثوابت التي تقوم عليها الأمة.

أما بالنسبة إلى " الكتب العامة " فلم يجد الباحث كتبا تناولت وتخصصت في الفكر التربوي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، والكثير من المقالات المتطرق إليها ضمن الدراسات السابقة أو غير المتطرق إليها، ليست منشورة ضمن مقالات علمية محكمة. ما يثبت النقص الملحوظ في دراسة الفكر التربوي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي والأسس التي قام عليها، نظرا إلى غياب دراسات علمية موسعة ومستفيضة رغم الكم الهائل الذي نجده في الدراسات السابقة لفكره في أغلب القضايا والتي يغلب عليها الطابع الأدبي أكثر.

التعليق العام على الدراسات السابقة :

إن الدراسات السابقة ذات أهمية بالغة وقيمة كبيرة نظرا لما تزخر به من رؤى، و لما وضحته من أفكار حول فكر الإمام الإبراهيمي رحمة الله عليه في مختلف المجالات. وإن دلت على شيء إنما تدل على مدى الزخم الفكري والجهد الإصلاحي الذي بذله الشيخ الإبراهيمي، إذ تصب هذه الدراسات غالبا في المساعي الإصلاحية والنهضوية التي مارسها الإبراهيمي ودعا إليها في سبيل النهضة بالمجتمع الجزائري والعالم العربي والإسلامي قاطبة. فرغم الواقع الاستعماري في الجزائر ومضايقات الاستعمار إلا أن فكر الإمام لم يبق محصورا

في الجزائر بل كان له صداه في عديد الأقطار العربية والإسلامية، ما يوضّح النظرة الشمولية التي ميزت فكر الإبراهيمي، والتي استمدّها من عالمية وشمولية الإسلام كرسالة ربانية للبشرية جمعاء.

وركزت الدراسات السابقة في أغلبها على الإصلاح الديني، وعلى التغيير الذي سعى الإبراهيمي للتأسيس له مع العلماء أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وغيرهم. على رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، مؤسس النهضة الوطنية في الجزائر. إذ يعدّ مشروع الإمام الإبراهيمي استكمالاً لما تم الاتفاق عليه بين الشيخ ابن باديس والإبراهيمي. وقد ركز الإبراهيمي في مختلف مشاريعه الفكرية والإصلاحية على البعد الأخلاقي. معتبراً أن التغيير لا يكون إلا بتغيير الأنفس، وتحرير الأرض لا يكون إلا بتحرير الفكر والروح. كما يجب التنويه إلى عديد الدراسات في مجال اللغة و الأدب العربي التي عُدّ الإبراهيمي من فارسي بيانها آنذاك.

وتشترك الدراسات المتطرق إليها مع دراسة الباحث في كونها تصبّ ضمن المسعى الإصلاحي والنهضوي العام الذي قام به الإمام الإبراهيمي ورواد الفكر الإصلاحي في الجزائر والأقطار العربية الإسلامية. هذا ما يبرز علاقة هذه الدراسات بدراسة الباحث التي تركز على التربية كمنطلق أولي يقوم عليه أي بناء، خصوصاً بناء الإنسان والاستثمار فيه. وقد أفادت هذه الدراسات بما قدمته من أفكار قيمة الباحث كثيراً في توضيح الكثير من الأفكار لديه، ما يمثل نقطة التلاقي والتكامل بينها في توضيح تلك البنى الفكرية والمعرفية التي ما فتأت آثار الإمام الإبراهيمي تكشف عن رحابها.

غير أن هذه الدراسات لم تتطرق بالتحليل الدقيق والمستفيض للفكر التربوي عند الشيخ الإبراهيمي، ولم تعرّج على الأسس التربوية التي قام عليها منظوره التربوي، إذ تعدّ أسس التربية منطلقاً، وأرضية ومرجعية فلسفية ضرورية يقوم عليها أي مشروع إصلاحي تربوي، أو أي رؤية أو نظرية تربوية. إضافة إلى ذلك عدم ربط منظوره التربوي بالواقع الراهن الذي نعيشه اليوم وما استجدّ فيه من قضايا. خصوصاً أمام عديد الرؤى والممارسات التي أصبحت خطراً محدقاً بالهوية الوطنية وبالخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري، فقد كان الاستدمار الفرنسي بشقّ ممارساته يشكّل خطراً على هاته المقومات في زمن ليس ببعيد، لا يزال محفوراً في الذاكرة الجزائرية التي لم تلتئم جراحها إلى اليوم. إضافة إلى ذلك تلك التغييرات في مختلف جوانب الحياة الإنسانية من المجال الديني إلى المجال التربوي، السياسي، الثقافي حيث لم يتوان الإبراهيمي في توضيح عديد النقاط منها، والتي يمكن أن تستفيد منها الدراسة وتُفيد بها. هذا ما يحيل إلى أن الفكر التربوي للإمام

الإبراهيمي لم يدرس دراسة متكاملة توضح مختلف جوانب وأبعاد فكره في إطار كلي وشامل. ما يشكل ثغرة في هاته الدراسات، ومنطلقا للباحث في دراسته هاته، وبناء إشكالية البحث المتطرق إليها في العنصر الآتي.

04. أهداف الدراسة :

أما فيما يتعلق بأهداف الدراسة فإنها تهدف إلى ما يلي:

إبراز الفكر التربوي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي ومكانته في الفكر العربي والإسلامي والعالمي، لا في مجال الإصلاح والأدب العربي فقط بل كمفكر ومنظر تربوي، من خلال التطرق إلى أهم المعالم والمرتكزات الأساسية في التربية التي دعا إليها في مساره النهضوي والإصلاحية، ليستفاد منها في التأسيس لمشاريع تربوية تأخذ بعين الاعتبار فلسفة المجتمع الجزائري وخصوصيته الثقافية.

معرفة الطرق والأساليب التي سار على نهجها الإمام الإبراهيمي في التربية، والتوعية التي قام بها مع نخبة العلماء الجزائريين للنهضة بالأمة الجزائرية التي استكانت الضمائر لدى الكثير من أفرادها إلى حالة من السبات الفكري، ومواجهة الواقع المتردّي الذي فرضه الاستعمار، والمساهمة في إصلاح الأوضاع التربوية، الاجتماعية، الثقافية والدينية.

بيان أهم الأسس التي قام عليها الفكر التربوي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، وأهم سماته وأبعاده وعلاقتها بالأوضاع التي تميز الواقع الجزائري بصفة عامة والواقع التربوي بصفة خاصة. مع مدى إمكانية استثمار فكره في الخروج برؤية لإصلاح هذا الواقع التربوي مثلما ساهمت في إصلاح الواقع الجزائري في عهد الإمام الإبراهيمي.

إظهار دور العلماء الجزائريين وجهودهم في سبيل النهضة بالوطن والحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية، والوقوف على ظروفهم الشخصية ومختلف العراقيل التي واجهتهم، وكيف أنها لم تكن من عزائمهم لاستكمال المشروع والطريق الذي سلكوه رغم تلك العروض المقدمة إليهم مقارنة بما نلاحظه على بعض علماء ومثقفي اليوم.

05. أهمية الدراسة :

تتضح أهمية أي دراسة من خلال القيمة العلمية لها، ولا شك أن أهمية هذا الموضوع مستوحاة من أهمية الفكر التربوي في أي منظومة للحياة، إذ تعد التربية والمدرسة أهم ما تبنى عليه الأمم المتحضرة. ولا شك أن التربية في الجزائر لها أهميتها البالغة نظرا لما تطرحه من انشغالات، وما الأزمات المتعددة التي ميزت المدرسة الجزائرية والمنظومة التربوية منذ الحقبة الاستدمارية وقبلها إلى يومنا هذا لدليل على ذلك، دون إغفال تذييل مستوى التربية والتعليم لدينا مصاف الترتيب عالميا، كل ذلك يمتد عن أزمة متشابكة لا بد من البحث فيها أكثر لإيجاد السبل للخروج منها، والاستثمار في بناء إنسان متحضر يعكس مستوى تطلعات الأمة.

كما أن عدم وضوح أو غياب فلسفة تربوية إسلامية عربية أصيلة أدّى إلى استيراد فلسفات تربوية أجنبية لا تتلاءم وإحداثيات واقعنا وتراثنا الفكري والثقافي، ما عدا بعض الرؤى لدى بعض رجال الإصلاح والنهضة في الفكر العربي، ومن المعقول أن يكون الفكر التربوي استجابة لمتطلبات وأوضاع المجتمعات التي تعيش أزماتها وظروفها الخاصة لا أن تعبر عن أوضاع غير أوضاعها. فواقعنا التربوي والتعليمي يفرض علينا بناء فلسفة تربوية تتفق والمرجعية الفكرية والفلسفية للمجتمع والواقع، وهذا لا يكون إلا من خلال العودة إلى واقعنا وتشخيص داءه واقتراح دواء له، ودراسة وتحليل مختلف ما قدّمه مختلف المفكرون والمصلحون من رؤى وحلول كترجمة لذلك الواقع وأوضاعه التي عايشوها، وقدّموا حلولاً ورؤى بناء على ذلك حتى تتضح معالم بناء رؤية فلسفية تربوية تساهم في الخروج من مختلف الأزمات المتتالية، ما يبرز للباحث أهمية التطرق إلى علماء الجزائر من حيث نظرياتهم وممارساتهم، ومدى الحاجة إلى فلسفة تربوية تعبر عن أصالة الأمة وحاضرها ومستقبلها.

وتبرز أهمية الدراسة أيضا من خلال الأهمية والمكانة التي يكتسبها فكر الإمام الإبراهيمي وتحتلها شخصيته، نظرا لسعة فكره وراثته في عدة مجالات دينية، أدبية، اجتماعية، تربوية، تعليمية، ما يتطلب ضرورة التطرق إلى مختلف مجالات فكره، خصوصا المهمشة أو المقصاة منها فهما وتحليلا و استثمارا.

وما يعزّز أهمية الدراسة أيضا سعي الإبراهيمي إلى تجسيد رؤيته التربوية عمليا رفقة جهود العديد من العلماء الجزائريين، رغم كل الظروف والمضايقات الاستعمارية التي كانت تُدين وتضرب بيد من حديد على كل تعليم وتربية تعارض المخطط الاستدماري. فقد اختير الإمام الإبراهيمي وهو في السّجن لرئاسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد وفاة الإمام ابن باديس رحمة الله عليهما، وقد عرض أفكاره ورؤيته في التربية والتعليم،

ولم يقتصر على ذلك فقط بل كان يطبق و يمارس ذلك معلما، محاضرا، كاتباً ومؤلفاً. ما يضفي قيمة علمية كبيرة لرؤيته كونها تجمع بين التنظير والتطبيق، وتجعلها أكثر نجاعة في معالجة أزمة المجتمع وتردّي أوضاعه التربوية. لأن رؤيته هذه نابعة من معايشة للواقع الجزائري ومعبرة عليه، ما مكّن الإبراهيمي من وضع معالجات جديدة صيّرت مشكلات الواقع التي عايشها إلى مشكلات وجدليات فكرية وعلمية عمل على إيجاد طرق لحلها.

كما تعكس رؤيته فلسفة المجتمع الجزائري في الحياة من خلال تلك الروح الإسلامية والعربية والوطنية التي تسلّح بها وعبّرت عن مقومات الشخصية الوطنية، ما يجعل الطرح التربوي الإبراهيمي يعبر عن أصالة فكره وطرحه وارتباطه بمجتمعه. وبهذا تتضح أهمية دراسة الفكر التربوي عند الإمام البشير الإبراهيمي وأسسها التي قام عليها كمفكر تفاعل مع واقعه و قدّم معالجات وحلول للعديد من مشاكل عصره خاصة التربوية منها.

06. أسباب و مبررات اختيار الموضوع:

أما بالنسبة إلى مصوغات وأسباب اختيار الباحث لهذه الدراسة فهناك أكثر من سبب، تتراوح بين أسباب ذاتية وأخرى موضوعية نوجزها فيما يلي:

أ . أسباب ذاتية :

تتمثل الأسباب الذاتية في رغبة الباحث مواصلة دراسة فكر وآثار الإمام البشير الإبراهيمي خصوصا فكره التربوي، الذي ميّز نشاطاته التربوية والتعليمية في حياته، إضافة إلى ما تزخر به آثاره من رؤى تربوية تعليمية. هذه الأخيرة التي كان لها أثرها العميق على التغيّرات الحاصلة على المستوى التربوي والتعليمي في الجزائر آنذاك، بل على مختلف الأصعدة الأخرى الدينية، الفكرية، الثقافية والاجتماعية، وكل ما تعلق بالعمل الإصلاحي والتربوي للإمام الإبراهيمي.

صلة الباحث بالميدان التربوي والتعليمي ما جعله يقف على الكثير من المشكلات التربوية، بل والأزمة التي تعانيها المنظومة التربوية والتعليمية في الجزائر، حيث شهدت المنظومة الجزائرية عدّة إصلاحات متتالية دون أن تحقّق الآمال المرجوة منها، ما يفسّر غياب أسس وفلسفة تربوية صحيحة تبنى عليها تلك الإصلاحات، لتمثّل منطلقا يتم الرجوع إليه في إعداد الأجيال، ولا شك أن فكر علمائنا المصلحين الذي عايشوا أزمت

الشعب الجزائري يتضمن رؤى وأسساً تربوية تفيد في هذا المجال، والإبراهيمي يعدّ أحد أهم أولئك العلماء المصلحين.

ب . أسباب موضوعية :

سعى الباحث إلى تبيان دور العلماء الجزائريين في الإصلاح، خصوصاً في مجال الإصلاح والتأسيس التربوي، وإلقاء الضوء على جهودهم في صياغة رؤى ومشاريع تربوية كانت نابعة من واقعهم المعيش من خلال أنموذج الإمام البشير الإبراهيمي، لتحليل فكرهم وتجديده وأخذ ما يتناسب منه مع حاضرنا اليوم ومشكلاته.

مواصلة واستكمال الدراسة التي تضمنتها رسالة الماجستير للباحث المشار إليها في الدراسات السابقة، والتي تضمنت مفهوم التربية والتعليم عند الإمام الإبراهيمي، إذ تبين للباحث العديد من النقاط التي وجب استكمالها ومواصلة البحث فيها خصوصاً فيما يتعلق بأسس الفكر التربوي الإبراهيمي ومحاولة استثمارها في واقعنا الراهن.

محاولة الإسهام في تأسيس رؤية تربوية معاصرة تساهم في حل المعضلات التي تطرحها الساحة التربوية اليوم في زمن ما بعد الحداثة، في وقت لازالت منظومتنا حيصة صراع بين عدّة اتجاهات على اختلاف توجهاتها الدينية، السياسية، الثقافية، فكل اتجاه يدعو إلى ما يتبناه من أفكار مهملاً الدراسة الحقيقية للمجتمع ومرجعياته الفلسفية وخصائص الواقع الذي يعيشه.

إضافة إلى ما سبق من الأسباب ذلك النقص الملاحظ في البحوث الموسعة والمعمقة للبعد التربوي في فكر الإمام البشير الإبراهيمي، ماعدا بعض المقالات التي تناولت ذلك بإيجاز، واعتبار العديد من المفكرين له أنه شخصية أدبية عرف ببلاغته اللغوية، أو شخصية دينية من دعاة الإصلاح لا غير. وهذا ما هو شائع لدى عامة الناس في المجتمع الجزائري، فإنهم يعرفونه كرجل دين من رجال جمعية العلماء أو خطيب عرف ببلاغته، فمن أسباب الدراسة إذًا تنوير القارئ بالمجالات الفكرية والتربوية للإمام محمد البشير الإبراهيمي.

07. ضبط مفاهيم الدراسة :

نظراً للقيمة المعتمدة للمفاهيم في البحث العلمي تُلزم الضرورة المنهجية الباحث بضبط المفاهيم الأساسية للدراسة، وهذا ما سيساعد الدارس والقارئ على تحديد موضوع الدراسة بدقة. إذ لا بد من "تثبيت

الاصطلاحات العلمية حتى لا تتبدل الحقائق بتبدل الألفاظ التي أفرغت فيها... وتشبثت الاصطلاحات هو الحجر الأساسي في العلم... وهذا لا يفيد العلماء وحدهم بل يفيد المعلمين والمتعلمين كما يفيد جمهور القراء، فله إذا فائدة تربوية وفائدة اجتماعية معا. (1)

01-07. مفهوم التربية :

لا يكاد يخلو المجتمع البشري منذ ماضيه السحيق إلى اللحظة الراهنة من فكر تربوي، إذ لا تقتصر التربية على مجتمع دون غيره، أو تخص إنسانا دون آخر، فكل تجمع بشري إلا وكانت له رؤية تربوية تعكس فلسفته التي يتبناها في الحياة، بغض النظر عن مصدرها أكانت دينية أم وضعية، إنما الأصل في ذلك الهدف والوظيفة التي تؤديها، فهي تعدّ كسمة ملازمة للإنسان في وجوده.

أكد إمانويل كانط E. Kant (1724-1804) في مدخل كتابه "تأملات في التربية" أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يجب تربيته وتعليمه فبهما يكون إنسانا. (2)

وفي الفلسفة لم تكن التربية من الموضوعات الجديدة بل كانت محل اهتمام الفلاسفة منذ العهد الإغريقي إلى اليوم، غير أن طرحها كان كمشكلة من المشكلات الوجودية للإنسان، فطرح لدى البعض كبحث ثانوي تابع للقضايا الوجودية، بينما عالجها آخرون ونظروا لها كمشكلة أساسية، وهو ما أدرج فيما بعد ضمن مبحث فلسفة التربية. ومنه كان لزاما الوقوف على مفهوم التربية ومختلف المعاني التي تتضمنها ثم التطرق بعد ذلك إلى مفهوم التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

المدلول اللغوي للتربية :

المدلول اللغوي للتربية نجده متقاربا لدى المعاجم العربية والأجنبية (الانجليزية والفرنسية). بالنسبة إلى اللغة العربية ترجع التربية إلى الفعل رَبَّ، وربَّ (الأمر) يَرْبُهُ رَبًّا و رَبَّابَةً: أصلحه و مَنَّه. و رَبَّ الدُّهْن: طَبَّه و أجاده. و رَبَّ القوم: ساسهم أي كان فوقهم، و رَبَّ الشيء: ملكه. وتنقسم (رَبَّ) إلى ثلاثة أقسام حسب الأنباري، القسم الثالث منها بمعنى أصلح، و الرَبُّ هو المصلح، و رَبَّ ولده و (الصَّبِي) يَرْبُهُ رَبًّا (رَبَّاه) أي

(1) - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، 1982، ص 8، 9.

(2) - إمانويل كانط، تأملات في التربية - ما هي الأنوار؟ ما التوجه في التفكير؟، ت محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، صفاقص، تونس، ط5، 2005، ص11.

أحسن القيام عليه و وليه حتى أدرك ، أي فارق الطفولة ، كان ابنه أو لم يكن و في الحديث « لك نعمة تُرَبُّها أي تحفظها وتراعيها و تُرَبِّها كما يرَبِّي الرجل ولده. » (1)

ونفس التعريف يوجد في لسان العرب فربَّ ولده والصَّبِيَّ يَرْبِيهِ رَبًّا، و رَبَّبَهُ تَرْبِيًّا بمعنى رباه. وفي الحديث لك نعمة تُرَبُّها أي تحفظها وتراعيها وتربِّيها كما يُرَبِّي الرجل ولده. وربَّا الشيء يَرْبُو رَبْوًا و رَبَاءً: زاد ونما. وأرَبَيْتُهُ: نمَيْتُهُ وقال الأصمعي: ربوت في بني فلان أرَبُو: نشأت فيهم، و رَبَيْتُ فُلَانًا أَرْبَيْتُهُ تَرْبِيَةً و تَرْبَيْتُهُ و رَبَّبْتُهُ و رَبَّبْتُهُ بمعنى واحد. (2)

وفي التنزيل الكريم قوله عزوجل: ﴿ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ ﴾. (3) أي يضاعفها وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (4) أي نمت وازدادت، وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّي أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّبَانِي صَغِيرًا ﴾. (5)

وبذلك يتضح أن مفهوم التربية في اللغة العربية شامل لعديد المعاني: كتنمية القدرات والمهارات ومختلف الجوانب المتعددة للإنسان والإحاطة بها وتعهدها بالرعاية و التهذيب.... الخ إضافة إلى تنشئة الفرد وإصلاحه حتى يبلغ درجة الاعتماد على نفسه والاستغناء عن غيره، كما تشمل أيضا الإرشاد، القيادة و السياسة.

أما في اللغات الأجنبية (Education) ترجع إلى الأصل اللاتيني والتي تدل على فعل التربية بمعناه الأولي. وأصلها من كلمتين لاتينيتين: الفعل (Educare) بمعنى يغذي، والفعل (Educere) بمعنى استخراج، وفيما بعد أصبحت كلمة (Education) تعني إعداد الطفل ذهنيا ونفسيا وعقليا منتقلة من مستوى الدلالة البيولوجية إلى مستوى الدلالة النفسية والعقلية. (6)

(1) - محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جوهر القاموس، تحقيق علي هلاي، ج2، مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1408هـ-1987م، ص463، 464.

(2) - ابن منظور، لسان العرب، مادة رب - ربأ، مج 3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص 1547، 1572.

(3) - سورة البقرة، الآية 276.

(4) - سورة الحج، الآية 05.

(5) - سورة الإسراء، الآية 23.

(6) - عمر نقيب، مدخل إلى علوم التربية - رؤية بديلة، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، ط1، 2018، ص 56، 57.

في اللغة الأجنبية الفرنسية والانجليزية (Education) لا يخرج معناها عن معنى النمو و الرعاية القيادة. يذكر معجم « هاتزفيلد Hatzfeld » و « دارمستر darmester » و « توما thomas » أننا لا نقع عليها في اللغة الفرنسية قبل عام 1527، ونحن نجدها في جميع المعاجم منذ عام 1549، كما نجدها في المعجم الفرنسي اللاتيني لصاحبه « روبين إتيين Robert Etienne » حيث نجدها ملحقة بكلمة طعام. ولكنها مع ذلك لم تكن تظهر في النصوص إلا نادرا، على أنها ليست من الوجة الاشتقاقية سوى نقل عن اللاتينية، وهو نقل قام به أصحاب النزعة الإنسانية في عصر النهضة الأوروبية. فاللغة اللاتينية كانت تستخدم الكلمة للدلالة على تربية النباتات أو الحيوانات وللدلالة على الطعام وعلى تهذيب بني البشر دونما تفريق بين هذه الأحوال جميعها. وفي عام 1649 لم يكن المجمع العلمي الفرنسي يعرف غير المعنى الأول لهذه الكلمة. فلم يكن يفهم من التربية سوى تكوين النفس والجسد. وكان يجعل منها والتعليم شيئا واحدا إذ يرى فيها « العناية التي نقدمها لتعليم الأطفال، سواء فيما يتصل برياسة النفس أو برياسة الجسد. »⁽¹⁾

المدلول الاصطلاحي للتربية:

أما بالنسبة للمدلول الاصطلاحي للتربية فهو غير بعيد في معناه عن المدلول اللغوي، إذ تتقارب التعاريف الاصطلاحية للتربية فيما بينها غالبا، وإن تباعدت فذلك من باب الاستعمال من جهة، ونظرا للمعاني التي ما فتئ يكتسبها مفهوم التربية يوما بعد يوم من جهة أخرى. غير أن ذلك لا يعني أن ضبط المدلول الاصطلاحي للتربية عملية سهلة بل تمثل صعوبة بالغة بمجرد الخوض فيها. خاصة وأن مفهومها له عدة معاني انطلاقا من المعنى المتداول في الثقافة العامة كجهد المربين أو الآباء في رعاية أولادهم، إضافة المعاني التي تكتسبها في الحقل التربوي والعلمي، ناهيك عن مختلف الدلالات التي اكتسبتها التربية وألحقت بها عبر مراحل التاريخ، وكتناج أيضا لتعدد الاتجاهات الفكرية والفلسفية فكل يطرح رؤيته للتربية ومفهومه لها من منظوره الخاص.

وبذلك فضبط تعريف دقيق للتربية يمثل مهمة صعبة في حقيقته، وقد عبّر « رونييه أوبير R.Hubert » عن هذه الصعوبة قائلا: "قد يبدو أن ليس من أمر سهل تعريف كلمتي تربية

(1) - روني أوبير، التربية العامة، ت عبد الله عبد الدائم، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1983، ص 22.

Education وبيداغوجيا Pédagogie ومع ذلك ما نكاد نقبل على هذا التعريف حتى تجاهنا منذ الخطوات الأولى بعض الصعوبات." (1)

إذ يعرفها جميل صليبا بأنها تبليغ الشيء إلى كماله، أو هي كما يقول المحدثون تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كمالها شيئا فشيئا. ويقال ربّيت الطفل إذا قوّيت ملكاته و نُمّيت قدراته وهذّبت سلوكه حتى يصبح صالحا للحياة في بيئة معينة. وتقول تربي الرجل إذا أحكمته التجارب، ونشأ نفسه بنفسه ومن شروط التربية الصحيحة أن تنمي شخصية الطفل من الناحية الجسمية و العقلية و الخلقية . (2)

وفي المعجم الفلسفي لالاند تعني التربية مسارا يقوم على تطور وظيفة أو عدة وظائف تطورا تدريجيا بالذرية، وعلى تجويدها و إتقانها، هذا في المعنى العام لها، أما المعنى الخاص تعني سلسلة عملية إجرائية يدرّب بها الراشدون (الأهل عموما) الصغار من جنسهم ويشجعون لديهم نمو بعض النزعات والعادات. (3) فالتربية ترتبط بالتنمية والتغيير الذي يحدثه المربون في سلوك وقدرات الأطفال والمتعلمين عموما.

كما تقابل بالوراثة، فسمة التربية التغيير أما الوراثة فسمتها الثبات. نظرا لما يحدثه الإنسان من تغييرات في سلوكات الأبناء، باعتبارهم قابلين للتغيير و بالتالي الإنسان قابل للتربية . "فالتربية والوراثة متقابلتان، والفرق بينهما أن ماهية الأولى التغيير، و ماهية الثانية الثبات، فإذا كان الموجود الحي يتغير بتأثير غيره تارة و بمؤالفة الظروف التي يعيش فيها تارة أخرى، فمرد ذلك إلى التربية، وإذا كان يميل بفطرته إلى الاتصاف بصفات نوعه، فمردّ ذلك إلى الوراثة." (4)

ويعرفها إبراهيم مذكور بأنها تنمية الوظائف الجسمية والعقلية والخلقية كي تبلغ كمالها عن طريق التدريب والتثقيف، وهي علم يبحث في أصول هذه التنمية ومناهجها وعواملها الأساسية وأهدافها، وتعدّ ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الأخرى في نموّها و تطورها. (5)

(1)-المرجع السابق، ص 21.

(2)- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص266.

(3)- أندرية لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مج 1 A-G، تعريب أحمد خليل، منشورات عويدات بيروت، ط2، 2001، ص 322، 323.

(4)- شيشوب أحمد، علوم التربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1986، ص 22.

(5)- إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العليا لشئون الطباعة الأميرية، القاهرة، دط، 1983، ص 42، 43.

والتربية ليست حكرا على المؤسسات التعليمية كالمدارس بل تشمل مختلف جهود المربين وما يمارسونه في الشارع ومختلف المؤسسات الاجتماعية من مدارس، و الروض الخاصة بالأطفال، المراهقين، السجون، ولكل طبقات المجتمع بما في ذلك ذوي الاحتياجات الخاصة و المعوقين والمتخلفين ذهنيا.⁽¹⁾

إن مختلف التعاريف التي تبين المدلول الاصطلاحي للتربية تُبين أن هاته الأخيرة تتوجه إلى الإنسان بغض النظر عن موقعه في المجتمع وعن عمره الزمني، بهدف نقله إلى حال أفضل وتشمل مختلف أبعاده، فهي بذلك عملية تشمل كل أطراف المجتمع ومستمرة باستمرار وجود الإنسان فهي لا تقتصر على فئة أو مرحلة معينة.

كما تحظى التربية بعدة تعاريف مختلفة من طرف الفلاسفة و المفكرين، تختلف باختلاف اتجاهاتهم الفكرية والفلسفية، وكذا باختلاف الفلسفة التي يتبناها المجتمع في حياته، وباختلاف الغاية التي تهدف إليها الدولة أو المجتمع وما يرمى تحقيقه من خلال هاته العملية، ومن بين هذه التعريفات :

التربية في نظر « هاربرت Hubert » موضوع علم يجعل غايته « تكوين الفرد من أجل ذاته، بأن نوظف فيه ضروب ميوله الكثيرة.» وهي عند « ويليام جيمس William James » (1842-1915). مادة فن: « يكتسب في الصّف عن طريق ضرب من الحدس وعن طريق الملاحظة التعاطفية للوقائع ولمعطيات الواقع.» أما «إميل دوركايم Emile Durkheim» (1858-1917). فيرى أنها « تكوين الأفراد تكويننا اجتماعيا.» ويرى « جيمس ميل James Mill » (1773-1836) أن موضوع التربية « أن نجعل من الفرد أداة سعادة لنفسه و لغيره.»⁽²⁾

ويضع « جون ستوارت ميل John Stuart Mill » (1806-1873) في تعريفها جميع المؤثرات التي يعانها الإنسان سواء أتت من الأشياء أو من المجتمع « إنها جميع ما نقوم به من أجل أنفسنا، وما يقوم به الآخرون من أجلنا بغية الاقتراب من كمال طبيعتنا، وهي في مفهومها الأوسع تشمل حتى الآثار غير المباشرة التي تحدثها في طبع الإنسان وملكاته، الآثار التي تتركها القوانين وأشكال الحكم والفنون الصناعية، بل

⁽¹⁾ - Champy Philippe et christian etevé, *Dictionnaire encyclopédique de l'éducation et de la formation* Editions nathan. 1994. P253

⁽²⁾ - روني أوبير، التربية العامة، ص 22، 23.

حتى الحوادث الطبيعية المستقلة عن إرادة الإنسان، كالمناخ و التربة و الوضع المحلي. «⁽¹⁾ هذا بعض ما قيل في تعريف التربية، فلنا أن نتساءل عن مفهوم آخر له علاقة بالموضوع و هو فلسفة التربية.

02-07. مفهوم فلسفة التربية :

إن زيادة الاهتمام بالتربية خصوصاً في القرن العشرين نتيجة لمختلف المتغيرات التي ميزته سواء في الجانب المعرفي أم في جوانب الحياة الأخرى، خصوصاً لدى المجتمعات المتقدمة التي ازداد تسابقها وتنافسها حول السيطرة والمهيمنة الحضارية، إلى تلك المجتمعات الناهضة و المتخلفة التي تريد اللحاق بالركب الحضاري، كل هذا أدى إلى ضرورة التأسيس لفلسفة تربوية تتجاوز مع متغيرات الواقع و متطلبات المجتمعات و كل ما استجدّ في هذه الحياة من تطورات، صراعات أو أزمات. وبذلك شكّلت فلسفة التربية ضرورة بشرية ملحّة على مرّ التاريخ البشري حتى تُؤسس لأجيال متحضّرة، ولرؤية تربوية تتوافق مع فلسفة المجتمع من جهة و بين طموحاته وغاياته التي يريد بلوغها. ما يبدي ذلك الترابط الكبير بين الفلسفة و التربية كعنصرين فاعلين في حياة الإنسان على مرّ تاريخه، وهو ما يؤكد الصلة والعلاقة الكبيرة بينهما. ونظراً لضرورتها ارتأى الباحث التطرق إلى مفهوم فلسفة التربية وإلى العلاقة التي تربط الفلسفة بالتربية بعد أن تم توضيح مفهوم التربية، ليطلع القارئ خصوصاً البعيدين منهم عن الشأن الفلسفي على مفهومها، ولكي يزول ذلك الغموض الذي يحيم على مفهومها لديهم و على علاقتها بالتربية.

ومنه سيوضّح الباحث مفهوم الفلسفة بإيجاز لتقريب الرؤية وتوضيحها من جانب، أمّا من جانب آخر لأن فلسفة التربية لا تنشأ من فراغ بل تنبثق من فلسفة واضحة المعالم، ومنه تظهر الحاجة إلى ضبط مفهوم فلسفة التربية وتحديد الصلة و العلاقة بين الفلسفة و التربية.

أ. مفهوم الفلسفة:

ليس ثمة تعريف متفق عليه للفلسفة بل هناك عدة تعاريف لها، اختلفت من فيلسوف إلى آخر، إذ سلك كل فيلسوف اتجاهها مغايراً للذين سبقوه، كما اختلفت من عصر إلى عصر، بل داخل كل عصر، ولعل مرجع ذلك الاختلاف المفاهيمي إلى النقد، الحوار والمساءلة كشرط للممارسة الفلسفية و تجدد وظيفتها.

(1) - المرجع السابق، ص 23.

إضافة إلى اعتبار أن الحقائق نسبية وهذا من صميم الفلسفة. ومنه سيحدد الباحث مفهوم الفلسفة لغة واصطلاحاً إضافة إلى تعاريف مجموعة من الفلاسفة لها.

الفلسفة لغة :

لفظ فلسفة مشتق من اليونانية (Philosophia) و أصله (فيلا - صوفيا) ومعناه محبة الحكمة، ويطلق على العلم بحقائق الأشياء و العمل بما هو أصلح.⁽¹⁾

"والفيلسوف هو الذي يتعاطى الفلسفة، ويقال أن القدماء كانوا يسمونه حكيماً (Sophos)، فلما جاء فيثاغورس Pythagore سمى نفسه فيلسوفاً أي محباً للحكمة لأن صفة الحكيم في نظره لا تطلق إلا على الله. والفيلسوف هو الرجل الذي يؤمن بقيمة العقل، و يحاول التقيد به في علمه و عمله." ⁽²⁾

ومنه يتضح أن الفلسفة في مدلولها اللغوي كلمة مشتقة من أصل يوناني تعني محبة و إثارة الحكمة.

الفلسفة اصطلاحاً :

تعرف الفلسفة في موسوعة (أندريه لالاند * André Lalande) الفلسفية بأنها دراسة نقدية، فكرية لما تنظر فيه العلوم بمعناها الحقيقي: « تبحث الفلسفة في أصل معارفنا، في أصول اليقين و مبادئه، وتسعى لاختراق علة الوقائع التي يتناولها مبنى العلوم الوضعية. » كما تعني « دراسة الفكر من حيث تميزه بميزة الأحكام القيميّة، بهذا المعنى يكون مركز الفلسفة المجموعة المكوّنة من العلوم المعيارية الأساسية الثلاثة: الأخلاقيات، الجماليّات و المنطق. » ⁽³⁾

كما أطلق لفظ الفلسفة قديماً على دراسة المبادئ الأولى و تفسير المعرفة عقلياً، فتشمل عند «أرسطو Aristote « (384 – 322) ق.م الفلسفة النظرية و العلمية، وحصرتها الرواقيون في المنطق والأخلاق والطبيعة. ويرى « ابن سينا » «Avicenne» (980-1037)م أن الغرض من الفلسفة الوقوف على

(1) - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص 160.

(2) - المرجع نفسه، ج2، ص 173.

* - أندريه لالاند: (André Lalande) أندريه لالاند فيلسوف فرنسي ولد في ديجون، ودرس في عدة مدارس رفيعة، إلى أن انتقل إلى مدرسة أنري الرابع، فدار المعلمين العليا ما بين 1883 و 1888. نال شهادة في الفلسفة عام 1888، وشهادة الدكتوراه في الآداب عام 1899. من أهم مؤلفاته موسوعته الفلسفية. نقلا عن ويكيبيديا.

(3) - أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مج 1 A-G، ص 980، 981.

حقائق الأشياء كلها، سواء أكان وجودها باختيارنا أم خارجا عن إرادتنا. و هي فلسفة نظرية و فلسفة عملية، ويضع تحت النظرية الطبيعيات والرياضيات والإلهيات، وتحت العملية تدبير المدينة وتدبير المنزل والأخلاق. ويشبهه « روني ديكارت R.Descartes » (1559-1650) الفلسفة بشجرة جذورها الميتافيزيقا، ومن هذه الجذور انبثقت فروع شتى.⁽¹⁾ وللفلسفة عدة تعاريف لدى الفلاسفة :

فقد "جمع أفلاطون Platon في تعريفه للفلسفة بين الحكمة الأخلاقية التي تقوم على الارتفاع فوق أعراض الحياة ومصالح الأفراد، وبين دراسة العالم و المبادئ التي يقوم عليها، ودراسة النفس الإنسانية من حيث المعرفة والسلوك. وكان يميز بين الفلسفة و الرياضيات، وبين الفلسفة و التاريخ.

أما عند أرسطو Aristote فقد اتسع معنى الفلسفة بحيث صارت تشمل كل المعارف العقلية. و استمر هذا المعنى المتسع للفلسفة حتى أوائل العصر الحديث حين بدأت العلوم تستقل عنها. " ⁽²⁾

ويرى هربارت سبنسر « Herbert Spencer » (1820-1903). « إن الفلسفة هي المعرفة التامة التوحيد. » ما يوافق معنى ان الفلسفة هي مجموع الدراسات أو التأملات ذات الطابع العام، التي تسعى إلى رد نظام المعرفة أو المعرفة كلها إلى عدد صغير من المبادئ الموجهة، و بهذا المعنى يقال : فلسفة العلوم، فلسفة التاريخ، فلسفة القانون. وهذا المعنى يتحدد أكثر بأن الفلسفة محاولة للنظرة الشاملة للكون.⁽³⁾

أما «ديكارت R.Descartes» فيرى أن: "لفظ الفلسفة معناه محبة الحكمة، وأنه لا يقصد بالحكمة التَّحَوُّط في تدبير الأمور فحسب، بل يقصد منها معرفة كاملة لكل ما يستطيع الإنسان أن يعرفه، إما لتدبير حياته أو لحفظ صحته، أو لاستكشاف الفنون جميعا. وأن المعرفة التي يُتَوَسَّل بها إلى تلك الغايات لا بد أن تكون مستنبطة من العلل الأولى بحيث يكون من الضروري لاكتسابها (وهو ما يسمى على التحقيق تفلسفا) أن نبدأ بالفحص عن تلك العلل الأولى." ⁽⁴⁾

(1) - ابراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، ص 138.

(2) - عبد الرحمن بدوي، مدخل جديد إلى الفلسفة، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1975، ص 8.

(3) - المرجع نفسه، ص 10.

(4) - روني ديكارت، مبادئ الفلسفة، ترجمة عثمان أمين، دار الثقافة للطباعة و النشر، القاهرة، دط، 1974، ص 43.

ويعرفها « كانط Kant » "علم العلاقة بين كل المعارف و الغايات الجوهرية للعقل البشري" أو "الحب الذي يكتنه الكائن العاقل للغايات العظمى للعقل البشري" (1)

كما يرى أن الفلسفة تشريع العقل البشري، ووظيفتها تحديد المفهومات القبيلية التي تهيمن على المعرفة والعمل معاً، ويظهر تسلسل هذه المفهومات، وتؤلف فيما بينها منظومة متماسكة. والفلسفة إما أن تكون نظرية تحدد موضوعاً أي تعيين صفات الطبيعة و قوانينها، و إما أن تكون عملية تحقق الموضوع، أي انتقاله من حيز الفكر إلى حيز العمل، الأولى علم الطبيعة و الثانية علم الحرية. ولكل فلسفة نظرية أو عملية وجهان، وجه محض، وآخر اختياري، فمن الوجه الأول تستند الفلسفة إلى مبادئ قبيلية سابقة للتجربة، ومن الوجه الآخر تكون الفلسفة اختبارية عندما تستخلص المبادئ من التجربة. (2)

كما حظيت الفلسفة بعدة تعاريف لدى الفلاسفة المسلمين إذ يعرفها الفيلسوف « ابن سينا» (980-1037) بأنها: "الوقوف على حقائق الأشياء كلها، على قدر ما يمكن للإنسان أن يقف عليه." (3)

ويعرفها «ابن رشد» «Averroès» (1126-1198)م : "هي النظر في الموجودات و اعتبارها من جهة دلالتها على الصانع." (4)

من خلال ما سبق يظهر أنه هناك اختلاف في تحديد مفهوم الفلسفة وذلك باختلاف الفلاسفة واتجاهاتهم، وكذا عبر المراحل التاريخية التي مرت بها الفلسفة، ومنه تبقى الفلسفة سعياً نحو الحقيقة و المعرفة بصفة عامة. بعد تحديد مفهوم كل من الفلسفة و التربية نتساءل عن مفهوم فلسفة التربية. فما مفهومها؟

ب. فلسفة التربية :

فلسفة التربية عدة معان فهي استخدام الطريقة الفلسفية في التفكير والبحث في مناقشة المسائل التربوية، فهي جهد عقلي لمناقشة وتحليل ونقد جملة المفاهيم الأساسية التي يتركز عليها العمل التربوي كالتربية

(1) - إمانويل كانط، نقد العقل الخالص، نقلا عن جيل دولوز، فلسفة كانط النقدية، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، ط1، 1997، ص5.

(2) - ابراهيم زكريا، كانط أو الفلسفة النقدية ، نقلا عن عبد الله المجدل، صابر جيدوري، محمد علي محمد، فلسفة التربية، منشورات جامعة دمشق، سوريا، دط، 2007-2008، ص 18.

(3) - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص160.

(4) - محمد عابد الجابري، ابن رشد سيرة و فكر، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط1، 1998، ص99.

الإنسانية، النشاط المدرسي، الحرية... الخ، إضافة إلى نقد المشكلات التربوية و الافتراضات الأساسية التي تقوم عليها نظريات التربية. والقول باستخدام الطريقة الفلسفية يعني عدم التوقف عند الجزئيات والعلل القريبة إنما محاولة إدراك العلاقات بين عناصر الموقف التربوي والغوص في أعماقه للوصول إلى الجذور و العلل البعيدة. (1)

إذ يشير مفهومها إلى الارتباط بين الوظيفة الفلسفية التأميلية النقدية، وبين الوظيفة التربوية العملية. فهي بمثابة تنظير فلسفي للعمل التربوي من حيث مفاهيمه، أسسه ومنطلقاته، وإلا ظلت تلك الأفكار والمفاهيم معتمة مبهمه. فتمثل فلسفة التربية منظورا كليا وشاملا يوضح العمل التربوي وما ينبغي أن يمرّ به من مراحل، من منطلقاته إلى غاياته.

"فلسفة التربية هي تطبيق النظرة الفلسفية، والطريقة الفلسفية في ميدان الخبرة الإنسانية، والتي نسميها تربية. وهي تتضمن البحث عن مفاهيم تُوجد الاتساق بين المظاهر المختلفة للعملية التربوية التعليمية من خطة متكاملة شاملة، وتتضمن أيضا توضيح المعاني التي تقوم عليها التغيرات التربوية، وتبين الفروض الأساسية التي تعتمد عليها المفاهيم التربوية، وتعرضها مع علاقة التربية بغيرها من ميادين الاهتمام الإنساني." (2)

كما تقوم فلسفة التربية "باختيار المنطق في مفاهيمنا وكفاءاته في مجابهة الحقائق التي ننشد تفسيرها، وهي تفضح المتناقضات الموجودة بين نظريتنا و توجه الأنظار إلى مجموعة النظريات الدقيقة التي تبقى بعد إزالة التناقضات، وتدرس الانتشار الكبير الهائل للمفاهيم التربوية المتخصصة. وفوق كل هذا تجتهد في توضيح العدد الذي لا حصر له من المعاني المختلفة التي تناط بتلك المصطلحات، التي أسرف في استخدامها، مثل الحرية، التوافق، النمو، الخبرة، الاهتمام و النضج." (3)

وتحرص فلسفة التربية على النظر الكلي و تحكيم البصر الاجتماعي و تأكيد أهمية الرؤية من الداخل، وهي الوعي بالمحركات الأساسية للعمل التربوي، سواء من داخله هو أو من داخل البنية المجتمعية. في إطار من النقد والتحليل القائمين على استخدام الأدلة العقلية و البراهين المنطقية والالتزام بمحكمة الخبرة التربوية على أرض الواقع. فيتسع بذلك نطاقها ليشمل عموم الخبرة التربوية و علومها. (4)

(1) - سعيد إسماعيل علي، فلسفات تربوية معاصرة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، دط، 1995، ص 21.

(2) - عبد الكرم علي اليماني، فلسفة التربية، دار الشروق للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004، ص 16.

(3) - المرجع نفسه، ص 26.

(4) - سعيد إسماعيل علي، فلسفات تربوية معاصرة، ص 22.

وهي مبحث يوفر إطارا عقديا وفكريا للتربية، ويحدد غاياتها، ويضع معايير نجاحتها، ويضفي نوعا من التوحد على أنشطتها، يولد مفاهيمها ويحلل عملياتها ويعالج مشكلاتها. فهي التي تحدد ملامح التربية الملائمة، ورسم الخطط الكبرى و البعيدة لها.⁽¹⁾

ويرى « جون ديوي J.Dewey » (1859 - 1952) أن " فلسفة التربية ليست تطبيقا خارجيا لأفكار جاهزة على نسق من الممارسة، له أصله وغرضه المختلفان عنه جذريا، بل هي مجرد صياغة صريحة لمشكلات تشكيل العادات العقلية والخلقية الصائبة، فيما يتعلق بصعوبات الحياة الاجتماعية المعاصرة. وأنفذ تعريف للفلسفة يمكن الإدلاء به إذا، هو أنها نظرية التربية في أشد جوانبها عمومية."⁽²⁾ ومن خلال رؤية جون ديوي والآراء السابقة، تظهر مشكلة العلاقة بين الفلسفة و التربية. فما العلاقة التي تربطهما ؟

ج. علاقة الفلسفة بالتربية :

إن مختلف الرؤى المتطرق إليها تشير إلى الترابط الكبير بين الفلسفة و التربية، ما يستدعي توضيح العلاقة القائمة بينهما، فالتساؤل عن التربية غاياتها وأساليبها من صميم التساؤلات الفلسفية، ما يبرز للباحثين العلاقة الوطيدة بين الفلسفة و التربية. أي أن الفلسفة العامة هي بالضرورة فلسفة للتربية، ولذا يجب أن تعكس التربية في غاياتها وطرائقها ومناهجها الفلسفة العامة للمجتمع في مرحلة من مراحل تطوره. وعليه سواء أكانت الفلسفة فلسفة مثالية أم مادية، دينية أم علمانية، لا بد أن تشكل أساسا للتربية تنطلق منه و ترتد إليه، فتاريخ التربية بصورة عامة هو جانب من جوانب تطور النظرية الفلسفية.⁽³⁾

وإذا كان هدف الفلسفة هو المعرفة البعيدة بالغاية من الحياة، فإن التربية هي وسائل وطرائق لتحقيق ذلك الهدف، ومن هذا المنطلق يمكن القول أن الفلسفة و التربية وجهان مختلفان لشيء واحد: الفلسفة (فلسفة الحياة) فالتربية هي الوسيلة التي نراهن عليها لترجمة الفلسفة في شؤون الحياة، ذلك أن التربية فلسفة عملية تلامس الحياة الإنسانية بكل تفاصيلها.⁽⁴⁾ وتنبثق فلسفة التربية من فلسفة المجتمع. إذ أن الأفكار

(1) - عبد الكريم بكار، حول التربية و التعليم، دار القلم، دمشق، سوريا، 3، 2011، ص 29.

(2) - جون ديوي، الديمقراطية و التربية، ترجمة نظمي لوقا، مكتبة الأنجلو المصرية، دط، 1978، ص 294.

(3) - عبد الله المجيدل، وآخرون، فلسفة التربية، ص 28.

(4) - عبد الكريم كرام، محاضرات في فلسفة التربية، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة، دط، 2004-2005،

والمعتقدات والقيم المتعارف عليها اجتماعيا وأساليب العمل وغيرها مما يميز خصائص أو طريقة الحياة في المجتمع يقدم منبعا ومصدرا رئيسا للفلسفة التربوية و للأهداف التربوية.⁽¹⁾

ونظرا لأهمية كل من الفلسفة و التربية فإن "العلاقة بينهما وبين الإنسان علاقة مباشرة، حتى يمكن القول أنهما مظهران مختلفان لشيء واحد، أحدهما يمثل فلسفة الحياة و الآخر طريقة تنفيذ تلك الفلسفة في شؤون الواقع المعيش الذي يعد فيه الإنسان الشغل الشاغل في هذا الكون." ⁽²⁾ أي أنه لا يوجد إلى حدّ ما انفصال بين التربية والفلسفة في تاريخ البشر و تاريخهم التربوي.

ومن وجهة أخرى فإن معظم مشاهير الفلسفة قديما وحديثا كانوا مربين، ومعظم كتب تاريخ الفكر التربوي تشير إلى أن الحركة التربوية ليست إلا وليدة للمذاهب و الأفكار الفلسفية، وأن أهم رجال التربية هم رجال الفلسفة. فمثلا «سقراط Socrate» حوالي (470-399) ق.م قال بنظرية التوليد في التربية.

وأوضح «أفلاطون Platon» (427-347) ق.م هذه الصلة توضيحا كبيرا لدرجة أن اعتبره مفكرو التربية في العصر الحديث إماما لهم، وأن كتاب الجمهورية أكبر كتاب في عالم التربية. وأسس «فرانسيس بيكون F.Bacon» (1561-1626) م في العصر الحديث آراءه التربوية بناءً على فلسفته العلمية. أما «جون لوك J.locke» (1632-1704) م في كتاب «آراء في التربية» فقد انعكست أفكاره الفلسفية على أفكاره التربوية فنأدى بصون حرية الفرد في التفكير. وفي القرن العشرين الفيلسوف الأمريكي «جون ديوي J.Dewey» وضع علاقة الفلسفة بالتربية في موضعها السليم.⁽³⁾

يعتبر ديوي أن الفلسفة هي النظرية العامة التي تتضمن التربية وتؤسس لها، وهذا ما بينه في كتابه «الديمقراطية والتربية» قائلا: "إذا كنا نريد أن ننصوّر التربية كعملية تشكيل للاستعدادات الأساسية، الفكرية والعاطفية، نحو الطبيعة و الأخوة في البشرية فمن الممكن تعريف الفلسفة بأنها « النظرية العامة للتربية »."⁽⁴⁾ وفي نفس السياق يبين كيف تأسس الفلسفة للمفاهيم وتستثمر في الطاقات البشرية، وتظهر نتائجها وتتجسد في العمل التربوي فتكون الفلسفة بمثابة العقل وتكون التربية بمثابة العمل، فالفلسفة لها التنظير و للتربية

(1) - عبد الكرم علي اليماني، فلسفة التربية، ص 27.

(2) - المرجع نفسه، ص 29.

(3) - عبد الله المجيدل و آخرون، فلسفة التربية، ص 29، 30.

(4) - جون ديوي، الديمقراطية و التربية، ص 292.

الممارسة. "عن طريق الفنون التربوية تتمكن الفلسفة من توليد طرق لاستخدام طاقات البشر، بما يتفق والمفاهيم الجديدة للحياة. فالتربية هي المعمل الذي تغدوا فيه التميزات الفلسفية عينية و مختبرة." (1)

ويقوم الارتباط الوثيق بين الفلسفة والتربية، كون أن فلسفة التربية تقوم بتحليل، نقد، تفسير وتوضيح المفاهيم المختلفة التي تتعلق بالمجال التربوي، لتتخذ منها وسيلتها لتوجيه العملية التربوية وتحسينها وتحليل القيم التي تقوم عليها التربية و أهدافها. (2)

ومنه تلتقي الفلسفة مع التربية في الكثير من أدوارها، ويتضح الفكر التربوي عن طريق سمات التفكير الفلسفي التي تتلخص في الشمول والاتساق والعمق الذي يتناول قضايا الحياة التي تتأثر بها التربية، وكذلك التغييرات التي تحدث في المجتمع، ويرسم لها في التربية تغيرا على قدر ما يحدث في الحياة من تغير، بحيث لا يكون هناك انفصال بين قضايا الحياة وقضايا التربية، وإنما يكون هناك تكامل وتناسق بين فلسفة المجتمع وجميع مكوناتها وبين الفكر التربوي الخاص به. (3)

ومنه فإن فلسفة التربية ما هي إلا تطبيق الرؤى الفلسفية من أفكار عامة ومبادئ كلية على المشكلات التربوية. فهي كإطار عام يحتضن مختلف الرؤى الفلسفية التي تتعلق بتربية الإنسان، ورؤيته للحياة وللغاية من وجوده، ودوره في الحياة. وتمثل التربية بذلك التجسيد الواقعي والبعد العملي للفلسفة، ولعل ما يمثل علاقتهما الوثيقة علاقة الروح بالجسد في الإنسان إذ لا ينفصلان إلا بزوال الإنسان.

بعد تحديد مفهوم التربية وما ارتبط بها من مفاهيم كالفلسفة وفلسفة التربية خصوصا، فإن هناك مفهوما آخر يرتبط به، وهو التعليم، ما يستدعي ضرورة توضيح معنى هذا الأخير، خاصة وأن التعليم أيضا من المفاهيم الأساسية التي احتلت مكانتها في الفكر التربوي الإبراهيمي. ونظرا للارتباط الوثيق بين التربية والتعليم، فما مفهوم التعليم؟

(1) - المرجع السابق، ص 293.

(2) - محمد لبيب النحيجي، مقدمة في فلسفة التربية، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1992، ص 7.

(3) - عبد الله المجيدل و آخرون، فلسفة التربية، ص 30، 31.

07-03. مفهوم التعليم :

أ . لغة :

التعليم في لسان العرب لابن منظور من علم الأمر وتعلّمه: أتقنه، وتقول علمت الشيء بمعنى عزفتُهُ وخبرتهُ. وتقول عَلِمَ و فَقَّهَ بمعنى أي تعلّم و تفقّه. وعلمه العلم وأعلمه إياه فتعلّمه، ويقال تعلّم في موضع اعلم. (1)

والتعليم من مصدر علم، فقولنا علم الناشئة، لقنها الدرس وأعطاهها المعرفة، والتعليم مهنة المعلم، وفي المعاجم المعاصرة هو: " (مساعدة شخصٍ ما على أن يتعلم كيف يؤدي شيئاً ما) أو (تقديم تعليمات) أو هي (التوجيه في دراسة شيء ما) أو (التزويد بالمعرفة) أو (الدفع إلى الفهم و المعرفة). " (2)

والتعليم لغة من الفعل علم، و مضارعه يعلم، ويقال علم الفرد أي جعله يتعلم أو يدرك أو يعرف. (3)

ومن منظور آخر لا يمكن تعريف التعليم منعزلاً عن التعلّم حيث يعرف التعليم حسب دوجلاس براون* في كتابه «أسس تعليم اللغة وتعليمها» بأنه: "تيسير التعلّم وتوجيهه، وتمكين المتعلم منه، وتهيئة الأجواء له. " (4) ونظراً لترابط المفهومين من ناحية وتمايزهما من ناحية أخرى سنورد بعض التعاريف الموجزة للتعلّم أيضاً على سبيل التوضيح بين العمليتين.

ب. اصطلاحاً :

التعليم في المعجم الفلسفي لجميل صليبا Enseignement يعني التدريس، وهو مقابل للتعلّم، تقول علّمته العلم فتعلّم. والتعليم أخص من التربية، لأن التربية تشمل نقل المعلومات إلى الطالب مع العناية

(1) - ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع، باب العين، ص 3083.

(2) - دوجلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، ت عبده الراجحي وعلي علي أحمد شعبان، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1994، ص 25.

(3) - حسام محمد مازن، تكنولوجيا التربية وضمان جودة التعليم، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009، ص 10.

* - دوجلاس براون: هنري دوجلاس براون علم لغوي انجليزي من مواليد 1941، متخصص في تدريس اللغة الانجليزية لغوي المتحدثين بها، منهجية تدريس لغة ثانية، علم النفس اللغوي، من أهم مؤلفاته: التدريس بالمبادئ، استراتيجيات للنجاح دليل علمي، أسس تعلم اللغة وتعليمها. نقلا عن ويكيبيديا.

(4) - دوجلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، ص 26.

بتبديل صفاته وتهذيب أخلاقه، والتعليم لا يشمل إلا نقل المعلومات بطرق مختلفة. ومفهوم التعليم يتضمن الحاجة إلى المعلم، على حين أن مفهوم التعلّم لا يتضمن ذلك لأن المتعلم يستطيع تحصيل العلم بنفسه، وربما كان استقلاله بطلب العلم أعمق تأثيراً في نفسه من أخذه من معلم.⁽¹⁾ إذ يميز جميل صليبا بين التعليم الذي يعتمد و يتمركز على المعلم في الموقف التعليمي، إذ يمثل المعلم مجرد ناقل للمعرفة و المتعلم متلق لها، وبين التعلّم الذي يتمركز حول المتعلم الذي يكون له الدور الفاعل في العملية التعليمية التعلّمية.

وفي المعجم الفلسفي لالاند التعليم مرادف ل (إنشاء) Instruction وهو عملية توصيل معارف لشخص ما – تتقابل بالفرنسية مع تربية، تقال بنحو خاص على تنمية العادات المسلكية وعلى السمة و الحياة الأخلاقية. وهي جملة معارف تكتسب بالدرس أو التعلّم.⁽²⁾

والتعليم "عملية تسهيل تفاعل المتعلم مع بيئته بهدف تحقيق النمو المعرفي من خلال ما يقوم به من بحث، تحليل، تركيب، قياس و اكتشاف. ويدخل ضمن هذا التعريف ما يسمى بمعالجة المعلومات وهي عملية تتطلب دوراً نشطاً إيجابياً من قبل المتعلم الذي يحول ما يكتسبه من معلومات إلى مفاهيم و مدركات تدخل ضمن نطاق التنظيم المعرفي القائم من خلال عمليات المواءمة، التمثيل، والإدماج."⁽³⁾ ويبدو من خلال هذا التعريف أنّ التعليم لا يدل على مجرد تلقين معلومات، بل على تفاعل المتعلم مع بيئته محوّلاً ما اكتسبه من معارف كحلول لما يصادفه من مشكلات ووضعيّات.

ويعني أيضاً الجهد الذي يبذله شخص (المعلم) اتجاه شخص (المتعلم) لإكسابه خبرات أو ينقل إليه معارف معينة. لذلك فالتعليم عملية تحفيز وتنشيط واستثارة قوى المتعلم العقلية، وتهيئة الظروف المناسبة التي تمكن المتعلم من التعلّم، ولا تتم هذه العملية إلا بوجود ثلاثة عناصر، وهي المعلم، المتعلم، والمادة موضوع التعلّم.⁽⁴⁾

كما يعني التعليم النشاط الذي يتم بموجبه تحويل المعلومات من شخص إلى آخر، يأخذ طابع نشاطٍ منظم هادف وواضح في مستوياته الفردية والاجتماعية والمدرسية، ففي الأسرة يعمل الأبوان على تعليم

(1) - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص307.

(2) - أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مج 1 A-G، ص 682.

(3) - عبد الله قلي، فضيلة حناش، التربية العامة - سند للتكوين المتخصص، المعهد الوطني لمستخدمي التربية وتحسين مستواهم، وزارة التربية، الجزائر، 2009، ص16.

(4) - إبراهيم ناصر، مقدمة في التربية، دار عمان للنشر و التوزيع، عمان، 2002، ص 40، 41.

الأطفال كثيرا من المعلومات التي تتصل بالحياة. ويتضح مفهوم التعليم بصورة أفضل وأكثر تنظيما في المدرسة حيث يقوم المعلم بنقل المعرفة إليهم، ليتشكل الموقف التعليمي من المعلم، التلاميذ، المنهج، المادة التعليمية والأهداف المحددة.⁽¹⁾

غير أن مفهوم التعليم يختلف باختلاف الفلسفة التربوية. فهو عملية نقل المعارف والمعلومات من المعلم إلى المتعلم في موقف يكون فيه للمدرس والمعلم الدور الأكثر تأثيرا، في حين يقتصر دور التلميذ على الإصغاء والحفظ والتسميع وهذا ما يخدم الطرائق الإلقائية.

ويعرف أيضا بأنه عملية غرضها الأساس مساعدة الطفل على تحقيق ذاته ونمو شخصيته وتلبية حاجاته النفسية ومطالب نموه، ويكون دور المتعلم إيجابيا وفعالا، في حين يقوم المعلم بدور المرشد والموجه والمساعد على النمو بما يوفره من مناخ نفسي يساعد على الانطلاق والتعبير عن الذات.⁽²⁾

كثيرا ما يقترن مفهوم التعليم بالتعلم، غير أن التعليم كمفهوم تقليدي ارتبط بالمعلم أكثر منه بالمعلم، في حين أن التعلم يرتبط بالمتعلم أكثر، ومنه يبدو من الضرورة أفراد بعض التعاريف بإيجاز للتعلم حتى يتضح الفرق بينهما وإن كانا مرتبطين في العملية التعليمية التعلمية.

وتختلف تعاريف التعلم هو الآخر في ميادين التربية وعلم النفس في تحديد معناه وتفسيره نظرا لتعدد المدارس في ذلك، و يورد عبد الله قلي بعض التعاريف له نوجزها فيما يلي:

يعرف التعلم بأنه التغيير المطرد في السلوك الذي يرتبط من ناحية بالمواقف المتغيرة التي يوجد فيها الفرد، ويرتبط من ناحية أخرى بمحاولات الفرد المستمرة للاستجابة لها بنجاح. "التعلم نشاط يصدر عن الفرد، ويؤدي إلى تعديل في سلوكه ويؤثر في نشاطه المقبل."⁽³⁾ بتعريف روبرت ودورث (Wood Worth) *

(1) - علي أسعد وطفة، أصول التربية إضاءات نقدية معاصرة، لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت، ط1، 2011، ص 54.

(2) - عبد الله قلي، فضيلة حناش، التربية العامة - سند للتكوين المتخصص، المعهد الوطني لمستخدمي التربية وتحسين مستواهم، ص 16.

(3) - المرجع نفسه، ص 129.

* روبرت إس. ودورث Robert Woodworth : عالم نفس وأستاذ جامعي أمريكي، ولد في 17 أكتوبر 1869 في ماساتشوستس في الولايات المتحدة، وتوفي في 4 يوليو 1962 في نيويورك في الولايات المتحدة. من أهم مؤلفاته : علم نفس دراسة الحياة العقلية، علم النفس التجريبي، دقة الحركة الطوعية... الخ عن ويكيبيديا.

ويعرّف التعلم بأنه "عملية عقلية داخلية، نستدل على حدوثها عن طريق آثارها أو النتائج المترتبة عليها، وذلك في صورة تعديل يطرأ على سلوك الفرد سواء من الناحية الانفعالية مثل اكتساب اتجاهات وقيم وعواطف وميول جديدة، أو من الناحية العقلية مثل اكتساب معلومات ومهارات للاستعانة بها عند التفكير في مواقف معينة وذلك في محاولة الحصول إلى هدف معين أو حل بعض المشكلات.⁽¹⁾

التعلّم "تغير دائم في سلوك الإنسان و اكتساب مستمر لخبرات، ومهارات جديدة تؤدي بالضرورة إلى إدراك جديد ومعرفة عميقة للمحيط الطبيعي و الاجتماعي الذي يعيش فيه الإنسان من حيث هو كائن مكلف يحمل رسالة مقدسة في هذا الكون."⁽²⁾

ويعرّف التعلّم عموماً على أنه تغيير شبه دائم في سلوك الفرد، لا يمكن ملاحظته مباشرة، لكن يستدل عليه من أداء الفرد، ينشأ نتيجة الممارسة، قد يتفق علماء النفس عموماً على أن التغيرات السلوكية الثابتة نسبياً تندرج تحت التغيرات المتعلمة، وهذا يعني أن التغيرات المؤقتة في السلوك لا يمكن اعتبارها دليلاً على حدوث التعلم. بينما ترى النظرية التربوية التعلم بمفهوم التفكير الذي يتطلب استعمال معرفة سابقة واستراتيجيات خاصة لفهم الأفكار في نص ما، وفهم عناصر المسألة باعتبارها كلية واحدة.⁽³⁾

ومحاولة التمييز بين مفهومي التربية و التعليم يكشف مدى التداخل بين المفهومين، فكلاهما يساعد المتعلم على النمو الكامل و الشامل. غير أن التربية تتناول شخصية المتعلم من جميع جوانبها انطلاقاً من تهذيب الخلق، أي التركيز على البعد القيمي، في حين أن التعليم يقتصر على تحصيل المعرفة. فالتربية هي تكوين الإنسان من جميع النواحي بصفة عامة، ومنه فالتربية و التعليم لا يتطابقان ولا يتباينان، والفارق بينهما الجنس والنوع، حيث تضم التربية التعليم. وبذلك تحتم التربية بالفرد في عمقه في عاداته وانفعالاته وعواطفه الأولى، بمعنى أن التربية تسبق كل علم.⁽⁴⁾

يتضح ضمناً ومما سبق أن التعليم كمنشأ يرتبط بإيصال المعلومات والمعارف والخبرات إلى المتعلمين وفق منهج منظم ومسطّر، يكون الدور الفاعل فيه للمعلم، وهذا الأخير يكون موجّهاً ومقيداً بمنهاج وبرنامج

(1) - عبد الله قلي، فضيلة حناش، التربية العامة - سند للتكوين المتخصص، المعهد الوطني لمستخدمي التربية وتحسين مستواهم، ص 129.

(2) - أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية حقل تعليمية اللغات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2007، ص45، 46.

(3) - فضيلة مقران، كريمة صيام، عبد الرحيم بلعوسي، وحدة علم النفس التربوي (دروس وتطبيقات)، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة، 2008/2007، ص 29.

(4) - عبد الله قلي، فضيلة حناش، التربية العامة - سند للتكوين المتخصص، المعهد الوطني لمستخدمي التربية وتحسين مستواهم، ص 17، 18.

تعليمي. في حين أن التعلّم يغلب عليه النشاط الذاتي للمتعلم الذي يطور سلوكه، مهاراته، خبراته ومعارفه وبذلك يحتل الدور الفاعل. ويمثل المعلم دور الموجه والمرشد له. لذلك ركزت مختلف النظريات النفسية والتربوية الحديثة على المتعلم في بناء تعلّماتها، وإشراكه فيها فيحتل الدور الفاعل الأكبر فيها بهدف أن يكون إنسانا فاعلا ناجحا في الحياة مواجهها لمختلف المشاكل التي تطرحها الحياة.

04-07. مفهوم الأسس :

أ. الأسس لغة :

جاء في لسان العرب لابن منظور أن الأسس جمع أساس، فالأسُّ والأسسُ والأسسُ كلُّ مبتدأ شيء، والأسُّ والأسسُ: أصل البناء، و جمع الأساس أسس، و قد أسَّ البناء يؤسُّه أسّا و أسَّسه تأسيسا، وأسست دارا إذا بنيت حدودها و رفعت من قواعدها ، وهذا تأسيس حسن. (1)

فالأساس في اللغة قاعدة البناء، وأصل كل شيء مبدؤه، تقول أساس البحث، أساس البلاغة، أساس العلم. (2) وفي المعجم الوسيط (أسسَ) البناء : أسَّه. (الأساس) : قاعدة البناء التي يقوم عليها ، وأصل كل شيء و مبدؤه . و منه أساس الفكرة ، و أساس البحث و التعليم الأساسي: الخبرة العلمية و العملية التي لا غنى عنها للناشئ ، والنظام الأساسي هو النظام الذي يمثله دستور الدولة. (3)

وعلى كل حال فالأسس لغة ما يتنى عليه الشيء بالجملة، وهذا يصدق على الأمور المعنوية ، فهي في كل شيء بحسبه و منه قوله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ (4) وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (5) وفي هاتين الآيتين شاهد على صدق

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مادة أسس، باب الهمزة، مج1، ص 78، 79.

(2) - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص 63.

(3) - ابراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، باب أ ، ص 17.

(4) - سورة التوبة، الآية 108.

(5) - سورة التوبة ، الآية 109.

الأساس على الأمر الحسي و الأمر المعنوي، فالبناء على التقوى معنوي والمشبه به و هو البناء على حرف هار أمر حسي و في كلى الحالتين يعتمد عليه البناء.⁽¹⁾

ب. اصطلاحاً:

لا يكاد التعريف الاصطلاحي للأسس يخرج عن المدلول اللغوي له إلا من حيث خصوصية الاستعمال، لذلك لا يجد الباحث تعريفا اصطلاحيا مضبوطا للأسس، إذ غالبا ما يطابق المعنى اللغوي المعنى الاصطلاحي، غير أن المعنى اللغوي يكون عاما وأكثر شمولية من المعنى الاصطلاحي، ومنه توجب ضبط مفهوم الأسس اصطلاحيا أيضا حتى يرتبط و يتضح أكثر مفهومها في الدراسة.

الأساس عند الفلاسفة له معنيان: المعنى الأول الأساس مصدر وجود الشيء وعلته، تقول أن عالم المعقولات أساس عالم المحسوسات، ويطلق الأساس بهذا على كل مبدأ يدعم إحدى النظريات، أو على مقدمة تجعل التصديق بإحدى القضايا واجبا، أو على مجموع القضايا النظرية أو العلمية التي يستند إليها في بناء الأخلاق. والشيء الذي لا أساس له وهمي وغير مشروع.

المعنى الثاني: يطلق مصطلح أسس على أعم القضايا و أبسط المعاني التي تستنبط منها المعارف ، التعاليم أو الأحكام فأساس الاستقراء مبدؤه الذي ينقله من الجزئي إلى الكلي، وأساس الرياضيات هو البديهيات، والمسلمات والتعريفات، وأساس الأخلاق هو المبدأ الذي تستنبط منه الواجبات الجزئية كمبدأ اللذة في أخلاق أبيقور، ومبدأ الكمال في أخلاق مالبرانش . وجملة القول أن كل أمرٍ يؤصل للبحث أو المناظرة في إحدى المسائل يجب أن يعدّ أساسا لها.⁽²⁾

وفي المعجم الفلسفي لإبراهيم مذكور معنى أساس هو مبدأ تعتمد عليه عملا أو نظرا طائفة من الظواهر أو القضايا، وأساس الإستقراء هو المبدأ الذي بمقتضاه يكون الانتقال من الوقائع إلى القوانين ممكنا ومشروعا، وأساس الأخلاق هو المبدأ الذي تستمد منه القوانين الأخلاقية في مذهب فلسفي.⁽³⁾

(1) - عدي جواد علي الحجار، الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء العراق، ط1، 2012، ص 21.

(2) - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص 63.

(3) - إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، ص 10.

فالأساس هو الأرضية التي تُبْتَنَى عليها القواعد، وإطلاقه شامل للأمور الحسية والمعنوية، كما في بيان المعنى اللغوي، والأساس هنا من الأمور المعنوية، لأنه يعني الأرضية المعرفية، بعد تقييده بما يتركب منه التعريف، إذ هو الأرضية المعرفية التي تبنتى عليها حركة الفكر أو المنظومة الفكرية التي تهدف للوصول إلى نتائج حقيقية أو النتيجة القصوى من حيث ملامسة الحقيقة أو مقاربتها.⁽¹⁾

والحاجة إلى الأساس ضرورة، سواء في الأمور المعنوية أم الأمور الحسية إذ أنهما عبارة عن بناء ولا شك أن "علو البنيان على قدر توثيق الأساس و إحكامه، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان و اعتلى عليه. وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان و لم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد. فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس، فلا يلبث بنيانه أن يسقط".⁽²⁾

ومنه فالأساس هو كل ما يبني ويؤسس عليه من قواعد، معارف، منظومات فكرية أو تربوية، فهو بمثابة الركيزة و المنطلق لكل الأمور المعنوية أو الحسية. والأسس تختلف باختلاف المجال والغاية و غيرها من العوامل التي ترتبط به، فنقول مثلاً الأسس التربوية، الأسس المنهجية، الأسس العلمية، أسس الاقتصاد و غيرها.

فيقال مثلاً الأسس المنهجية وهي: " البنى التحتية التي تبنتى عليها القواعد الكلية الحاكمة لصياغة أي منهج جديد، وفق منظومة تشتمل على فلسفة وإجراءات تهدف للوصول إلى نتيجة متوخاة. أو هي خطوات البناء الفكري الأولى التي تقوم عليها وسائل معيارية لاستعمال أدوات متمثلة بالمناهج على وفق إجراءات نظرية متمثلة بالأنموذج المعرفي."⁽³⁾

وبناءً على هذه المفاهيم وربطها بموضوع الدراسة يمكن تحديد مفهوم أسس التربية :

استناداً على ما سبق تحديده من مفاهيم يمكن استخلاص مفهوم يحدّد معنى أسس التربية. فهي كمفهوم عام تشمل مختلف الأسس والدعائم والأصول التي تقوم عليها التربية ويتأسس عليها أي منظور تربوي. فمن خلالها تستمدّ التربية مضامينها ومعارفها، وتحدّد مبادئها ومناهجها وغاياتها التي ترنوا إلى تحقيقها،

(1) - عدي جواد علي الحجار، الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني، ص 20.

(2) - ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب، الفوائد، آثار ابن القيم الجوزية وما لحقها من أعمال، تحقيق محمد عزيز شمس، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، دط، دس، ص 228.

(3) - عدي جواد علي الحجار، الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني، ص 26.

ومختلف الوسائل والأساليب المتبعة من أجل تجسيد تلك الغايات. من منطلق أن التربية لا تبنى من فراغ إنما لها مقومات وأسس تقوم عليها، فهي تستند إلى معارف وأصول تنطلق منها. بل إلى فلسفة تنطلق منها وهو ما تحدد في علاقة الفلسفة بالتربية. وتختلف هذه المقومات والأسس من أسس فلسفية، اجتماعية، اقتصادية، والتي غالبا ما تشكل المرجعية الفكرية و الفلسفية لأي مجتمع.

وإن تقاربت هذه الأسس غالبا في مجال التحديد أي بتقسيمها بناءً على مجالات معرفية أو مجالات الحياة كالقول بأسس فلسفية، اجتماعية، اقتصادية، فإنها تباعدت من حيث مضامينها من منطلق اختلاف المرجعية الفكرية والفلسفية. وحتى وإن تقاربت المرجعية فإنها تختلف باختلاف رؤى المنظرين لها وفهمهم للمشكلات التي تطرحها التربية في الواقع البشري. لذلك يظهر ذلك التمايز والتنوع في أسس التربية من فلسفة إلى أخرى، ومن مفكر إلى آخر. إضافة إلى المتغيرات الزمنية والمكانية والثقافية نظرا لتأثيرها على حياة البشر، فقد تميزت أسس التربية لمجتمع معين في العصور القديمة عنها في مجتمع آخر في عصر العولمة والتطور الرقمي، نظرا لتغير المعادلات التي تحكم الحياة البشرية. ونظرا لانتساح فلسفات لأخرى واندثار أخرى، وتأثر مجتمعات وتلاشي ثقافتها ومقوماتها بتأثير مجتمعات أخرى.

وبذلك تبرز تلك الضرورة والأهمية التي تحتلها أسس التربية عند التطرق إلى أي نظرية تربوية، فهي التي تحدد المنطلقات وتساهم في استشراف النهايات في تلك النظرية أو المشروع التربوي.

08. طبيعة الدراسة :

تندرج الدراسة ضمن البحوث الأساسية النظرية، والتي تهدف إلى اكتشاف حقائق علمية نظرية جديدة، وإضافة رؤى جديدة لنظريات سابقة من خلال الشرح والتوسع. لأن الدراسة تهدف إلى اكتشاف الأسس التربوية التي قام عليها الفكر التربوي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ومنه المقاربة المنهجية التي توافق طبيعة الدراسة مقارنة البحث الكيفي. إضافة إلى تعامل الدراسة مع مصادر مكتوبة - آثار الإمام الإبراهيمي - بغية تحليلها وتفسيرها وتحليل مختلف أفكاره التربوية مع طرح إمكانية الوصول إلى نتائج يمكن استثمارها في صياغة رؤى تربوية تخرج بالمدرسة الجزائرية من أزمتها، خصوصا فيما يتعلق بتربية الأجيال. وما يبرر المقاربة المنهجية الكيفية أيضا كون الدراسة لا تتناول تحليلا إحصائيا كميًا، إنما تحليل لأفكار وآراء تم جمعها من خلال آثار الإبراهيمي ومؤلفات مفكرين آخرين.

09. منهج الدراسة :

من أجل البحث في إشكالية الدراسة وتساؤلاتها المطروحة، وما تسعى الدراسة إلى تحقيقه استلزم الموضوع اتباع المناهج الآتية:

المنهج التاريخي والوصفي لأنهما يستهدفان الوصف والتحليل والتفسير من خلال عرض بعض الوقائع وتتبع الأحداث التاريخية خصوصا في الجانب التاريخي من الدراسة وكذا البحث في آثار الإمام الإبراهيمي. والمنهج التحليلي من خلال تحليل المادة العلمية، تحليل وتفكيك الفكر التربوي للإمام الإبراهيمي وأسس، بغية ربطه بالفترة المعاصرة و القضايا التي يطرحها.

10. أدوات البحث :

تماشيا مع طبيعة الدراسة، إشكالياتها وتساؤلاتها ومنهجها، خصوصا مصادرها تم الاعتماد على تقنيات البحث المتمثلة في: تحليل المحتوى، وهو الغالب على الدراسة. إذ تظهر تقنية تحليل المحتوى من خلال التعامل مع مختلف المصادر التي اعتمد عليها الباحث في جمع المعلومات، خاصة أن الدراسة اعتمدت على المصادر المكتوبة التي تركها الإمام الإبراهيمي ومختلف الأعمال الفكرية التي تعرضت إلى أفكاره نقلا و تحليلا. و سعي الدراسة إلى الكشف عن تلك المعاني والدلالات التي تزخر بها أفكار الإمام الإبراهيمي و آثاره، لا مجرد الوقوف على العبارات والألفاظ.

11. حدود الدراسة :

من أجل تحديد حدود الدراسة فإن هذه الأخيرة تركز على عدة جوانب، يتسنى من خلالها استخلاص أسس الفكر التربوي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي من خلال أعماله و آثاره وسيرته في الحياة من خلال أهم محطاته الفكرية وأهم هاته الجوانب هي على الآتي:

- طبيعة التربية ومفهومها عند الإمام البشير الإبراهيمي وعلاقتها بالتعليم.
- عمله ومنهجه في تربية الأجيال من خلال خطابه ومقالاته وممارساته.
- الأسس و الركائز التي تقوم وتأسس عليها التربية عند الإمام الإبراهيمي.

■ محاولة ربط الفكر التربوي للإمام الإبراهيمي بقضايا الراهن و ما تطرحه الحياة المعاصرة من مستجدات في المجال التربوي، السياسي، الثقافي ... الخ.

وحدود الدراسة الزمنية ترتبط بحياة الإمام البشير الإبراهيمي وبالفترة التي عايشها وتجاوزها إلى رهننا. أي من الحقبة الاستعمارية في الجزائر إلى حقبة ما بعد الاستقلال حتى زمن إنجاز هاته الدراسة.

خلاصة :

في ختام فصل التأسيس المنهجي و المفاهيمي للدراسة، الذي حاول الباحث من خلاله أن يضبط الدراسة منهجيا و مفاهيميا، حتى يضمن التسلسل المنهجي والترابط المنطقي بين فصول الدراسة وعناصرها. وهو ما تفرضه الدراسة والضرورة المنهجية معا، فيساهم بذلك في تحديد المراحل الأخرى للبحث. ومن جهة أخرى حتى لا يقع القارئ في أي التباس مفاهيمي يتعلق بمفاهيم الدراسة ومضامينها مما قد يؤدي إلى رؤية أخرى غير التي يسعى الباحث إلى إيصالها و بلوغها.

الفصل الثاني

مفهوم التربية ومنهجها عند

محمد البشير الإبراهيمي

الفصل الثاني: مفهوم التربية و منهجها عند محمد البشير الإبراهيمي.

تمهيد :

تتقارب الرؤى الفكرية وتتفق على الموقع الذي يحتله الفكر والفعل التربوي لبناء حياة بشرية كفيلة بالإجابة على مختلف تساؤلات الإنسان وتحقيق تطلعاته، إذ تعدّ التربية الوسيلة المثلى لتكريس ثقافة العيش المشترك الذي يليق بمقام الموجود البشري، فالصيرورة التربوية على مرّ التاريخ ما تنفك تبرز أدوارها في بناء مجتمعات جديدة إذا جعلتها قاعدة و منطلقا، وتكون على النقيض معول هدم إذا أهملتها جاعلة إياها هامشا وعرضًا عاما. فالتربية بذلك سلاح ذو حدين تؤدي إلى تطور مجتمعات وتدهور أخرى، ازدهار شعوب وثقافات واندثار حضارات على حسب الأهمية المعطاة لها، وعلى حسب التوجه والأيدولوجيا المسيّرة لها وبحسب تعدد واختلاف الآراء التربوية.

لذلك ركز الاستعمار الفرنسي في سياسته الاستعمارية للجزائر على ورقة المتغير التربوي التعليمي، مخضعا إياها إلى أيدولوجية استدمارية من شأنها إحداث استلاب ثقافي وتربوي للمجتمع الجزائري، وإحداث قطيعة مع مقومات شخصيته الوطنية. بل تجاوز القطيعة إلى التأسيس لعدمية تربوية كفيلة بمسحه من سلم الوجود البشري لأن أي شعب فقد خصوصيته وتاريخه ذاب في مجتمعات أخرى، لذلك نلاحظ المجتمعات تتسابق في بناء وابتكار تاريخ لها. وبالنسبة إلى الاختلاف حول المتغير التربوي فهو ليس وليد الفترة الحديثة، بل يرجع إلى إرهابات الفكر التربوي وفلسفته، وإلى اختلاف الرؤى في التربية وفي فلسفتها بناءً على التوجهات الفكرية والمذاهب الفلسفية القديمة فكل ينظر وفق رؤيته ومذهبه، فتعددت فلسفات التربية بذلك، من فلسفة التربية المثالية، التربية الطبيعية، فلسفة التربية البراغماتية، فلسفة التربية الماركسية، فلسفة التربية الإسلامية وغيرها، وهذا يدل أيضا على مدى ارتباط التربية بالمرجعية الفلسفية للمفكر أو الفيلسوف، وإلى الأسس التي بنى عليها رؤيته التربوية وفلسفته. فتختلف التربية وخصائصها باختلاف الفلسفات والثقافات، فمثلا خصائص التربية الإسلامية تختلف عن خصائص التربية البراغماتية.

هذا ما يحيل إلى ضرورة استقصاء الفكر والمشروع التربوي للبشير الإبراهيمي من حيث المفهوم الذي يحدده للتربية ومن حيث المنهج الذي سطره وسار عليه في تجسيد هذا المشروع وتربية الأجيال، فكيف عرّف البشير الإبراهيمي التربية؟ وما منهجه فيها؟

أولاً: مفهوم التربية والتعليم عند البشير الإبراهيمي.

يُحيل التطرق إلى مفهوم التربية عند البشير الإبراهيمي إلى فلسفة التربية الإسلامية باعتبار أن الحضارة والثقافة الإسلامية هي الإطار العام الذي احتضن نشأة الإمام الإبراهيمي، وهذا ما سيكون له الأثر البالغ في صياغة مشروعه التربوي. إذ تستمد فلسفة التربية الإسلامية خصائصها ومبادئها من الإسلام كرسالة ربانية حددت الغاية من الوجود الإنساني المستخلف في الأرض لإعمار الكون الذي سخّره الله له، وحدد رؤية الإنسان للحياة والأحياء. مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾⁽¹⁾

وهذا ما يصرح به الإمام الإبراهيمي في أكثر من مناسبة، فقد كان الدور الأساسي الذي تسعى إليه جمعية العلماء الجزائريين برئاسة الإمام عبد الحميد بن باديس وبعده البشير الإبراهيمي يتمثل في نشر الوعي لدى الشعب الجزائري بمكانته في التاريخ، والتركيز على تعليمه وتربيته التربية الإسلامية الصحيحة. إذ يحدد الإبراهيمي الوظيفة المنوطة لجمعية العلماء قائلاً: "جاء الدور الثاني لجمعية العلماء، وهو دور التربية الإسلامية والتعليم العربي الابتدائي الحر، المشتمل على مبادئ العربية و آدابها، و مبادئ التاريخ الإسلامي، والتربية الإسلامية الصالحة."⁽²⁾

وإن كان أي مفكر في مجال فلسفة التربية يحدد مفهوم التربية ويوضحه كمنطلق لأي مشروع وتنظيم تربوي، فإن هذا التحديد لا ينفصل عن المرجعية الفلسفية والفكرية لذلك المفكر غالباً، ولا ينفصل عن فلسفة المجتمع التي يتبناها في حياته إلا إذا كانت رؤيته مخالفة لها. ما يبرز مدى ضرورة التحديد المفاهيمي والتأسيس للتربية، إذ من شأن ذلك أن يوضح مسار المشروع التربوي الذي يسطره أي مفكر. وهذا ما يتضح مع البشير الإبراهيمي الذي يحدد مفهومه للتربية. إذ يرتبط هذا الأخير بفلسفته العامة التي تمثل من جانب الإطار والمرجعية الفكرية للإمام الإبراهيمي، وترتبط من جانب آخر بالواقع الذي عايشه الإمام في ظل جزائر تكابد جروحها وتلطمها لاسترداد حريتها وحياتها المسلوبة بفعل المستعمر. ومنه فلا يمكن إغفال المشروع الإبراهيمي

(1) - سورة لقمان، الآية 20.

(2) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ص 153.

من خلال رؤيته التربوية في التأسيس إلى أيديولوجيا تحررية مناهضة لتلك الأيديولوجيا السائدة التي فرضها المستعمر الفرنسي.

ويتضح مفهوم التربية عند الإمام الإبراهيمي قولا و فعلا، تنظيرا وممارسة، خصوصا أن الممارسة لديه تغلب على التنظير، إذ أن الفترة الزمنية والواقع الذي عايشهما الإبراهيمي آنذاك وخصوصيتهما يفرضان بقوة الممارسة العملية والتطبيق الميداني. ما يفسر ندرة المؤلفات والدراسات لمختلف ما قدمه الإمام الإبراهيمي في مجال التربية والتعليم خاصة، إضافة إلى تلف العديد من المؤلفات والآثار التي تركها بفعل المستعمر، لكن هذا لم يمنع من أن تبرز رؤيته التربوية في الوسط التربوي والتعليمي، من خلال آثاره القيمة التي اتسعت لعديد المجالات، وكان للفكر التربوي حصّة الوافر منها. إضافة إلى دور التلاميذ الذين قام بتربيتهم وتعليمهم وتركيز نفوسه فنقلوا مآثر الشيخ، وتربيته وتعليمه، وكذا من خلال تلك المدارس التي عمل مع العديد من العلماء على تشييدها ولا زالت شاهدة عليهم إلى اليوم كدار الحديث بتلمسان.

وبذلك يتحدد مفهوم التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي من خلال آثاره، إذ يقترن المفهوم والفعل التربوي عند الإمام بالتعليم، إذ غالبا ما يجمع بينهما ويجعل التعليم لاحقا بالتربية ومرتبطا بها نظرا للغاية المشتركة والهدف الواحد المراد تحقيقه منهما. وبذلك كان من الأصوب التطرق إلى معنى التعليم، لدى الإمام الإبراهيمي قبل تحديد مفهومه للتربية، حتى يتضح مفهوم هذه الأخيرة ومن ثمة تحديد العلاقة القائمة بينهما. فما مفهوم الإبراهيمي للتعليم؟

1. مفهوم التعليم عند البشير الإبراهيمي:

يختلف مفهوم التعليم هو الآخر باختلاف الفلسفات التربوية والنظريات في علم النفس، ومن تعددت معانيه وتعريفاته، مثلما تبين في تحديد مفهومه في الفصل المنهجي. واستقراء الرؤية التربوية للإمام البشير الإبراهيمي تبين مفهومه للتعليم بحيث أنه لا يخرج في الغالب عن الإطار المفاهيمي العام الذي يتضمن معنى التعليم.

فالتعليم عند الإمام البشير الإبراهيمي عملية نقل لمختلف المعارف والمعلومات من المعلمين والمربين إلى المتعلمين، وهذا ما ترجمه توجيهاته وممارساته التعليمية. ويتضح مفهومه له أيضا من خلال تحديده لبعض

أهداف التعليم بأن ينقل المعلمون للمتعلمين تاريخهم ويعرفونهم به، وينقلون لهم الدين الإسلامي وفقهه لهم، ومختلف العلوم الأخرى التي تفيدهم وتعرفهم بما يجهلونه.⁽¹⁾

تنحصر هاته الرؤية للتعليم في عملية تلقين المعارف من المعلم إلى المتعلم، هذا الأخير الذي يكون متلقيا سلبيا فيها، من منطلق أنه يتلقى فقط دون أن يكون إيجابيا فعّالا في هذه الممارسة التعليمية، فيكون التعليم من هذا المنظور عملية نقل معارف لا أكثر، من خلال نقل وإيصال لرسالة أساسها المرسل وهو المعلم. هذا المفهوم ما كان سائدا في أبجديات التعليم الكلاسيكي ولا زال قائما إلى اليوم في الكثير من الممارسات، وهذا ما يعرف في أدبيات علوم التربية بالتعليم عن طريق المحتوى والتلقين أين يكون المعلم محور العملية التعليمية والتربوية وأساسهما، والهدف من هذه العملية هو نقل محتوى تعليمي معين للمتعلم. فهل نفهم من هذا المنطلق أن الإبراهيمي جعل من التعليم مجرد تلقين آلي المعارف؟

لا يجعل البشير الإبراهيمي من التعليم مجرد عملية تقتصر على نقل المعلومات، إذ أنه يتجاوز مفهومه التلقيني التقليدي الذي انتقده وأبرز سلبياته ومضاره على التربية والتعليم. فقد كانت هذه الطريقة التلقينية منتشرة في المؤسسات التعليمية الإسلامية والعربية، فانتشرت في دروس المساجد نظرا لدورها التربوي التعليمي ناهيك عن التعبدي، كما انتشرت بكثرة في المدارس الابتدائية والثانوية، وحتى في مجال الدراسات العليا آنذاك كما هو الحال في جامع الزيتونة أو الأزهر. باعتبار أن معظم الطلاب الجزائريين كانوا يزاولون ويواصلون دراساتهم العليا في هذين القطبين العلميين، أين بقي التعليم فيهما رهينا للتلقين والنظم القديمة من حيث البرامج و المناهج. فبقي بذلك حبيسا لرفوف التكرار. حيث يصفه الإمام الإبراهيمي بالنظام البالي المتآكل الذي تجاوزه الزمن، وهو ما يتطلب ثورة إصلاحية شاملة للمناهج و البرامج و لمختلف المؤلفات المعتمد عليها في التعليم، فإذا صلح التعليم في كل جوانبه هاته سينتقل الإصلاح لا محالة إلى العقول. فالمسار الإصلاحي في التعليم يبدأ من الكتب وينتهي إلى العقول و الأنفس ويشمل ما بينهما من مختلف النظم والطرائق المعتمد عليها. ما يتحدّد في قول الإبراهيمي: "ما زلنا نبرأ بجامعاتنا أو - جوامعنا التاريخية - أن تبقى جارية على التقليد البالي في مناهجها و كتبها، وأن ترضى لنفسها هذا الجفاف في الزمان المُمَرَّع، وهذا التَمَطّي في العصر المسرع، و ما زلنا نرجوا له - مخلصين - إصلاحا شاملا، يعقبه صلاح كامل، يبتدئ ذلك الإصلاح

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، "عيون البصائر"، ص507.

من الكتب وينتهي إلى العقول، و يجرف ما بين الطرفين من أوضاع من النظم بالية، و أوساخ من الأذهان عالية." (1)

فمقالات الإمام الإبراهيمي ومحاضراته ودروسه وأساليبه، تظهر أنه لم يكن معلما عاديا ممن يعتبرون أن التعليم مجرد عملية نقل وتلقين للمعارف، كما كان مستشريا في فاهمة أغلب المعلمين في أيامه، بل على النقيض من ذلك امتلك الإبراهيمي نظرة خاصة إلى التعليم و إلى رسالة المعلم و أجدياتها. و المقارنة بين ما هو معتمد اليوم وبين رؤيته، يبين أنه تطرق إلى موضوعات لم يكن قد تُطرق إليها آنذاك. (2) وبذلك يمثل موقفه من التعليم ثورة مفاهيمية وممارساتية على ما كان سائدا من آراء وطرائق في التعليم العربي. من خلال تركيزه وربطه بين مختلف الحلقات المشكلة للمنظومة التربوية و التعليمية بصفة عامة، بداية من العامل البشري المعلم والمتعلم وإلى العامل المعرفي ومختلف الوسائل المادية والطرائق والمناهج الكفيلة بتأسيس تعليم متطور وناجح.

فالتعليم من منظور الإمام الإبراهيمي عملية متكاملة الأطراف، لا يقتصر على تلقين المعارف للمتعلم فقط، بل هو عملية متواصلة يتداخل ويتكامل فيها دور كل من المعلم، المتعلم والمعرفة. مع الارتباط بالتغير الخارجي والعلمي الحاصل على مستوى المعارف والمعلومات لا الارتحان إلى معارف يغلب عليها طابع الجمود نظرا لعدم ربطها بما يستجد ويتغير من معارف وخبرات، إضافة إلى إصلاح ما تقادم أو تأكل منها بمصطلح الشيخ. فهو يركز على ضرورة الانطلاق من قاعدة وأساس مكينين في التعليم، لأن صحة المنطلق تمثل عاملا مهما في تحقيق الأهداف المراد بلوغها كما يمثل القاعدة الصلبة للبناء.

إضافة إلى ذلك يركز الإبراهيمي على النظرة التكاملية والشمولية للعملية التعليمية في مختلف أطوارها بداية من التعليم الابتدائي إلى الثانوي وصولا إلى مرحلة الدراسات العليا، لا التركيز على مرحلة و إهمال المراحل الأخرى. إذ يجب أن يكون التعليم في نظر الإمام الإبراهيمي: "كاملا في جميع مراحلها، يبنى على أساس صحيح في المرحلة الابتدائية، وصحة الأساس تكون بالمعلم الكفاء، والكتاب الوافي، والبرنامج الكافي، ثم ينتقل إلى الدرجتين الثانوية والعليا. فالأمة تريد تعليما عربيا يساير العصر وقوته ونظامه، لا تعليما يحمل

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 409.

(2) - جيلاني ضيف، بناء المجد - محمد البشير الإبراهيمي - طبعة خاصة لوزارة الثقافة، دار الخليل العلمية، الجلفة، الجزائر، 2013، ص98.

جرائم الفناء، وتحمله نذر الموت.⁽¹⁾ ومن خلال ذلك تشتت عملية التعليم من منظور البشير الإبراهيمي الكفاءة لدى المعلم، وهي كفاءة معرفية بأن يكون ملماً بالجانب المعرفي الذي يدرسه، مدركاً لما تقادم وما استجد فيه من معلومات وطرائق وأساليب، وكفاءة مهنية وسلوكية ونفسية من خلال حسن التعامل مع المتعلمين والتفاعل معهم والإحاطة بمختلف جوانب شخصيتهم. كفاءة الضمير والحس بأن يكون مدركاً لمدى أهمية وحساسية الدور الذي يقوم به، فهو ليس وظيفة مثل الوظائف الأخرى.

إضافة إلى دعوة الإبراهيمي إلى إقامة كتاب « وافي » يكون شاملاً لمختلف ما يحتاجه المتعلم من جوانب معرفية ومنهجية حتى تتحقق فيه صفة « الوافي » وهي الكفاية والشمولية. وأن يمهد و يحفز المتعلم للبحث عن المعرفة ويجدد له وسائلها. ويرتبط ذلك أيضا ببرنامج يتصف بخاخصة الكفاية بأن يكون شاملاً وكافياً لما يراد تعليمه من مقررات ودروس في كل مرحلة تعليمية معينة. فالتعليم الذي يقصده الإبراهيمي هو: ما ينقل المتعلمين وأفراد المجتمع في تلك الفترة من نظام الأموات إلى نظام الأحياء، فيُحيي ما قتله الاستعمار فيهم من وعي وفكر وأخلاق، وكل ما تعلق بمقومات الشخصية الوطنية الجزائرية، باعتبار أنه لا حياة إلا بالمعرفة وبالعلم. وكأن التلقين في نظر الإبراهيمي عبارة عن جرثومة و فيروس استشرى في التعليم لا بد من مكافحتها وإلا سينتقل أثرها السليبي إلى الأجيال اللاحقة نظراً لما يتم تلقينه من معارف غير صحيحة أو مخالفة لمقومات الأمة وجذورها الضاربة في التاريخ. فالتأسيس لتعليم صحيح في مبناه وأهدافه يقتضي ضرورة تجديد التعليم وتطوير أساليبه.

وما يُظهر البعد المفاهيمي المعاصر للتعليم لدى الإمام الإبراهيمي انتقاده العلاقة التعليمية بين المعلم والمتعلم، والتي كانت قائمة على نوع من التسليم الساذج والتلقين الأعمى، دون وجود لروح المناقشة والنقد والإبداع، فقد كان المعلم يُسلم لما هو موجود في الكتاب و المقرر، ويسلم الطالب لما يقوله ويتلقاه من معلمه، فتكون العلاقة القائمة بينهما قائمة على التلقين والتسليم. فينتج بذلك متعلمون يقومون بالحفظ والتكرار بهدف إعادة إنتاج ما تلقوه من معارف فقط لا بهدف بناء معارف جديدة أو تقديم حلول للمشكلات التي تجابههم. موضحاً عبد المالك مرتاض هذه العلاقة القائمة بين المعلمين والمتعلمين، فكان الشيخ يسلم لكتابه ما يقول، والطالب يسلم لشيخه ما يقول، فكانت الصلة التعليمية قائمة بين هذه الأطراف الثلاثة على شيء من الانصياع الأعمى، فلا الشيخ كان قادراً على مناقشة كتابه الذي كان يستمد منه معارفه التي يبثها بين

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 283.

طلابه، ولا طلابه نتيجة لذلك، كانوا قادرين على مناقشة شيخهم فيما يقرره لهم من تلك المعارف الممخوجة، فكان الجمود الفكري هو السائد في التعليم الأصلي في الجزائر قبل ظهور الحركة الإصلاحية.⁽¹⁾

يوضح الإمام البشير الإبراهيمي ويُشخص هذا الداء الذي ابتلي به التعليم العربي في قوله: "كان العلم إلى ما قبل النهضة مباشرة عبارة عن أقوال يسلمها الشيخ لكتابه، ويسلمها التلميذ لشيخه، فإذا استقامت تراكيب الكتاب و أفادت معنى صحيحا لم يكن في ذهن الشيخ قوة على التماس الدليل، ولم يكن من حق التلميذ أن يطالبه بالدليل، إذا تاقت نفسه إلى الكمال بمعرفة الشيء بدليله، أو انقذح في نفسه خاطر من شك في صحة تلك القضية فأراد أن يطرده بالدليل."⁽²⁾

فالمفهوم الكلاسيكي والضيق للتعليم انحصر في التلقين و التسليم الأعمى مما كان سببا فاعلا في المرتبة المتدهورة و المتذيلة التي بلغها التعليم في الجزائر، بغض النظر عن الفاعل الأكبر وهو التضيق الاستعماري ومحاربه للمدرسة الجزائرية والتعليم العربي. إضافة إلى تأخر النهضة والثورة لدى المجتمع الجزائري لأن عقله استكان للتلقين وما شاع من خرافات و آراء غير صحيحة. وقد ساهمت المجالس الطرقية في انتشار التلقين وآثاره السلبية، حيث كانت الطريقة تسعى إلى تحقيق - نزع التسليم - لدى المتعلمين. "ليروضوهم على الطاعة العمياء لهم، ومن كلماتهم التي سارت مثلا: «سلم تسلم» و «سلم للرجال في كل حال»."⁽³⁾ فيتم توجيههم بذلك إلى أي غايات وأهداف يريدون تحقيقها. وقد يجيل هذا الشعار الطرقي من منظور آخر إلى شعار الكنيسة ومبدئها في العصور القروسطية بحملها شعار «اعتقد ولا تنتقد» أو «آمن ولا تتعقل». فكل منهما يقصي دور العقل والتقد والتساؤل في جوانب عديدة لدى الإنسان ويكرسان لمبدأ التسليم و التلقي.

مثل هذا التسليم والتلقين باين ومنفذين واسعين دخلت منهما العديد من الخرافات والمبالغات السخيفة والآراء المضطربة إلى مجال التربية والتعليم، فأصبحت جزءا من العلم والمعارف التي تدرس، فلم يميز بين صحيحها و كاذبها، حتى توارثت نزع التسليم بين المشائخ وأخذت على أئها أصل من أصول التربية، إذ يوضح الإبراهيمي أنه "انتقلت هذه النزعة إلى مجالس العلم فسيطرت عليها، وفتكت بعقول المعلمين

(1) - عبد المالك مرتاض، الموسوعة التاريخية للشباب، محمد البشير الإبراهيمي، 1889-1965، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، مديرية الدراسات التاريخية و إحياء التراث، الجزائر، 1984، ص 27.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 147.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 147.

والمتعلمين، وكان من آثارها هذا الارتخاء الذي نشاهده في ملكاتنا العلمية، وهذا الفتور المستحکم الذي استحال إلى انحطاط وتدلّ في العلم، وقد يستحيل - إذا تمادى - إلى موت و عدم." (1)

فالتلقين قد يؤسس ويجعل من الشائع كحقيقة معرفية وعلمية متداولة بين المتعلمين وبين عامة الناس. بين المتعلمين لأنهم لم يمتلكوا بعد الأداة والوسيلة النقدية التي تمكنهم من دحض المعارف الخاطئة وتصحيحها، أو لأنهم تلقوها من طرف معلمهم على أنها حقائق غير قابلة للنقد و المناقشة. أما بالنسبة إلى عامة الناس فمن منطلق تسليمهم بالشائع و إيمانهم به، فيتم توارث هذه المعارف لدى الأجيال اللاحقة بطابع تلقيني، وأي محاولة للتشكيك فيها ستكون انتهاكا للعلم و قدسيته. فبدل أن تؤسس العلوم و المعارف لفلسفة حياة جديدة ولعقل علمي جديد، وأن تطور في الملكة العلمية للإنسان الذي يمتلك أدوات المعرفة، يؤسس الشائع على النقيض نتيجة غياب النقد لعدمية معرفية وعلمية جديدة. ومنه لا بدّ من إعادة بعث سؤال النقد وتوجيه الأنظار صوب هذه الأساليب من خلال الثورة على الميثولوجي الخرافي، والشائع من المعارف والأفكار غير الصحيحة ومختلف الأساطير التي لا أساس لها من الصّحة. ولا يتأتى ذلك إلا من خلال الثورة على أساليب التلقين والطرائق القديمة التي وضعها الزمن ضمن رفوف النسيان، والعمل على إحداث دينامية جديدة في مجالي التربية والتعليم من خلال اكتساب وتطوير سائلهما.

يوضّح جيلاني ضيف في تعقيب له على مفهوم التعليم عند الإمام البشير الإبراهيمي بأن "التعليم ليس غاية في ذاته، وتلقين المعارف والعلوم للنشء وتمكينه من القراءة والكتابة لا يمكنه أن يكون حلا لمشاكل الشعب الجزائري، فالغاية من التعليم تمكين الفرد من أدوات المعرفة التي تجعله يعي حقيقته ويقف على علاقاته مع مجموعته ومع الإنسانية ككل." (2)

ومنه يتضح أن مفهوم التعليم عند العلامة محمد البشير الإبراهيمي ليس عملية مقتصرة على نقل المعارف وتلقينها، بل هو عملية تتجاوز التلقين إلى البناء. عملية متكاملة من حيث الأدوار و الوظائف تجمع بين المعلم، المتعلم والمعرفة وتتعداها إلى المتغير الخارجي والواقعي وما يفرضه من مستجدات علمية واجتماعية واقتصادية وثقافية، ولا يقتصر التعليم بذلك على الجانب المعرفي فقط بل يتجاوزه إلى البعد النفسي و الروحي و الأخلاقي. وهذا ما بيّن محاولة الإمام الإبراهيمي تأسيس فلسفة تعليمية سبقت زمانه و تجاوزت ظروف

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 147، 148.

(2) - جيلاني ضيف، بناء المجد - محمد البشير الإبراهيمي، ص 98.

واقعه، نظرا للتراطيب الكبير بين ما ركّز عليه الإمام الإبراهيمي في رؤيته للتعليم وما أكدته مختلف النظريات التعليمية والتربوية المعاصرة.

فمفهوم الإبراهيمي للتعليم يبدي مدى العلاقة القائمة بين مفهومي التربية والتعليم، إذ لم يقتصر التعليم على الجانب المعرفي فقط بل تعداه إلى جوانب أخرى تربوية تتعلق بإصلاح الفرد وتنشئته، هذا ما يفسر إلى حد بعيد ارتباط التعليم بالتربية وجعله تابعا لها. هذا ما سيتحدد أكثر من خلال ضبط مفهوم التربية عند العلامة البشير الإبراهيمي كمقابلة مع مفهوم التعليم ثم بيان العلاقة بينهما. فما التعريف الذي يحدده الشيخ البشير الإبراهيمي للتربية؟

2. مفهوم التربية عند البشير الإبراهيمي.

يرتبط مفهوم التربية لدى الإمام البشير الإبراهيمي بمفهوم التعليم، وقد تحدّد ذلك إلى حد بعيد من خلال التداخل الملاحظ بين الوظيفتين في تحديد مفهوم التعليم، غير أن التعليم يعدّ جزءاً أو وسيلة لتحقيق غايات تربوية. فيعتبر التعليم لاحقا بالتربية مفهوما ووظيفة، باعتبار أن التعليم يتضمن أبعادا تربوية ومعرفية، خاصة من حيث التكامل الوظيفي بينه وبين التربية ومن حيث تعليم مختلف القيم الأخلاقية، ويعد بذلك وسيلة أساسية تساعد في تحقيق الغايات والأهداف التي تنشدها التربية.

فالتربية عند الإمام الإبراهيمي هي عملية إعداد الفرد وتهيئته ليقوم بدوره داخل أمتة، التي تنتظر منه أن يكون فاعلا و مؤثرا فيها. وهي سعي إلى خير الفرد، ومنه إلى خير المجتمع الذي ينتهي بخير الأمة، وبالتالي تحقيق السعادة الحقيقية، والتي لن تقوم أو تفيد ما لم تقم على التربية السليمة والتعليم الحقيقي.⁽¹⁾

يربط الإمام الإبراهيمي مفهومه للتربية بالجانبين المعرفي و العلمي، مع ضرورة التركيز على البعد العملي أكثر لا الاهتمام بالنظري فقط، فلا تقوم التربية إلا إذا ترجمت المعارف والعلوم إلى ممارسات عملية تظهر نتائجها على أرض الواقع، تجمع بين المجالين النظري والتطبيقي، بين البعدين الروحي والمادي، فهي تربية تجمع بين منطق الفكر ومنطق العمل. وهي سبيل النهضة بالأمة من خلال توجيهها نحو الشباب بصفة أكبر، معتبرا الإبراهيمي الشباب المحور الأساسي الذي ينبغي أن تستثمر فيه التربية، فهو الكفيل بنقل الأمة -إذا حسنت تربيته وتكوينه - من دياجير العبودية التي فرضها الاستعمار إلى أنوار النهضة والتحرير. بشرط تنشئة الشباب

(1) - المرجع السابق، ص 98، 99.

وتكوينه وفق تربية علمية وأخلاقية صحيحة، تمكنه من تولي زمام القيادة والتسيير بالعلم والحكمة والأخلاق، لبناء مستقبله بذاته لا بذوات أخرى، فالتربية عملية متسلسلة شاملة تبدأ من الفرد وتنتهي إلى المجتمع ككل، من منطلق أن تربية الفرد تربية للمجتمع وللأمة عامة.

هذا ما يتحدد في قول الإمام الإبراهيمي: "إن شباب الأمة هم الدّم الجديد في حياتها، فمن الواجب أن يصاب هذا الدم عن أخلاط الفساد، ومن الواجب أن يتمثل فيهم الطهر والفضيلة والخير، ومن الواجب أن تربي ألسنتهم على الصدق و قول الحق، هذه الطلائع التي هي آمال الأمة، ومناطق رجائها، والتي لا تُحقق رجاء الأمة إلا إذا انقطعت إلى العلم وتخصصت في فروعه، ثم زحفت إلى ميادين العمل مستكملة الأدوات تامة التسلح، تتولى القيادة بإرشاد العلم، وتحسن الإدارة بنظام العلم، فتأثر لأمتها من الجهل بالمعرفة، ومن الضعف بالقوة، ومن العبودية بالتحريم." (1)

يؤكد شكري فيصل على ارتباط العلم والعمل في المنظور التربوي الإبراهيمي، ففي مقاله: «قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي» يعتبر أن مفهوم التربية عند الإمام الإبراهيمي يتضح عندما يضع بجواره مصطلحي العلم والعمل كأساسين من أسس التربية، فمنطلق التربية الشباب الذي يعلّق عليه الإبراهيمي الأهمية الكبرى. (2) فالتربية مهمة ووظيفة علمية عمليّة لا نظرية فقط، وتحقيق غايات التربية وتحقيق النهضة لا يكون بتقديم معارف وتأمّلات ذهنية صورية فقط، بل لا بد من إعطاء وتحقيق البعد العلمي والعملية لها، لأنهما الكفيل بإظهار نتائج التربية واقعيًا، فتتحوّر التربية إلى حركة وحيوية واقعية في مقابل السكون النظري، ومنه كان التأكيد الإبراهيمي على تصيير النظري إلى ممارسات عملية بتركيزه على البعد العملي.

كما تتسع التربية لدى الإبراهيمي لعدة مفاهيم و تشمل عدة وظائف، فهي: فعل يحافظ على الفطرة السليمة التي جبل عليها الإنسان، فتحافظ على فطرة الشاب الجزائري، وهي تربية تتوافق مع مقومات شخصيته الوطنية فتحافظ عليها، هذا ما تبين من خلال تأكيد الإمام الإبراهيمي على ضرورة أن تصان عقول و أفكار فكر شباب الأمة اللذان يمثلان - دمه - من أخلاط الفساد فهي تحميه مما يفسد فطرته، وتُفقِّم و تصلح ما زاغ منها، مثلما تبين في قوله السابق.

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص67.

(2) - شكري فيصل، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، (إعادة طبع مجلة الثقافة العدد87، شعبان- رمضان، 1405هـ، ماي-جوان، 1985 عدد خاص بالإمام محمد البشير الإبراهيمي) دار الأمة، الجزائر، ط2، 2012، ص177.

والتربية فعل يقود الإنسان إلى الفضيلة والخير ويحفظ له فطرته السليمة، كالصدق وقول الحق والوقوف معه إلى غير ذلك من الفضائل. إذ يقودنا هذا التعريف إلى جانب من الرؤية الأفلاطونية للتربية. إذ الهدف من التربية هو إصلاح الفرد والمجتمع والوصول إلى معرفة الخير، وتنمية هذه المعرفة وطبع النفس الإنسانية على الحق والخير والجمال، وهي تدريب الفطرة الأولى للطفل على الفضيلة من خلال إكسابه العادات المناسبة. فالتربية عملية تدريب ومجهودات الجليل القدمس لنقل العادات الطيبة وحكم الحياة للأجيال اللاحقة. (1)

ولا تتمثل التربية عند الإبراهيمي في حشو ذهن المتعلم بكثرة المعلومات و المواعظ التي سرعان ما ينساها، بل التربية الحقّة هي التي تتضمن معايشة الفرد للواقع، فيعيش من خلالها الواقع، فهي مرتبطة بالحياة وهادفة إلى إعداد وتكوين الإنسان الفاعل في الحياة، وبذلك فهي عملية معقدة ومركبة الأجزاء لا يمكن فصل أي جزء منها عن الآخر، تسعى إلى إعداد الإنسان الذي يحسن فهم الأشياء ويحسن الحكم عليها، وبذلك يفهم معنى الحياة، فيحسن تحليل أمورها. (2)

وإن أكدت نظرة الإمام الإبراهيمي مرارا على أن التربية لا تكون إلا باجتماع ثنائية العلم مع العمل مثلما تبين سابقا، فإنه يؤكد على ثنائية أخرى تمثل في حقيقتها كلاً واحدا لا تكون التربية إلا به، ألا وهي مراعاة التوافق بين النمو العقلي والنمو الجسمي لدى الإنسان، بين تكوينه الروحي والبدني، فيجب أن تقوم التربية وتراعي النمو العقلي والجسدي، فلا يغلب مثلا الاهتمام بالجانب العقلي على الجسدي في مرحلة لم يكتمل فيها بعد نمو العقل، كأن يُعلّم الطفل معارف لا يستطيع عقله استيعابها وفهمها، أو أن يُهمَل الاهتمام بالتكوين الروحي مقابل التركيز على الجانب البدني لديه، كأن يُرَبَّى فيه مثلا حبّ الماديات مقابل النفور من الروحيات. إضافة إلى مراعاة نفسية المتربي أثناء العملية التربوية والتعليمية، كنمو إحساساته وتقلبات مشاعره وأحواله. إذ يُفهم من هذا أن كل مرحلة زمنية من عمره، وكل جانب من جوانب شخصيته إلا وله تربية خاصة به.

ويكون هذا التوافق ضروريا في مراحل العمر الأولى، أو العقد الأول من العمر بتعبير الإمام الإبراهيمي، بينما تركز التربية في العقد الثاني من عمره على الجانب الروحي والمعرفي أكثر. أين تنمو إحساساته و تتسع

(1) - عمر محمد التومي الشيباني، تطور النظريات والأفكار التربوية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1971، ص 32، 33.

(2) - بيبي مرزاق، الفكر التربوي عند محمد إقبال ومحمد البشير الإبراهيمي دراسة مقارنة، أطروحة دكتوراه دولة في علوم التربية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم النفس وعلوم التربية و الأرتوفونيا، جامعة الجزائر، 2006-2007، ص 64، 65.

مداركه، يزداد نشاطه و إقباله على الحياة، فيرتي على قيم الفضيلة والعلم مما يزيده شغفا بالمعارف، ومما يساعده في توجيه سلوكه والتحكم فيه، وفهم المتغيرات الحاصلة على جسمه وانعكاساتها على نفسيته وسلوكه. فالعملية التربوية بأهدافها، طرقها ومنهجها يجب أن تكون مناسبة لمرحلة النمو التي يمر بها الطفل أو التلميذ.

يؤكد الإبراهيمي على ذلك التوافق والتدرج في تربية الطفل عند اجتيازه العقد الأول من عمره بقليل قائلا: "أن يكون غذاؤه العقلي مسايرا لغذائه الجسمي، ويكون تكوينه الروحي جاريا مع تكوينه البدني في عنان واحد، ويكون نمو مداركه العقلية بالعلم والمعرفة مقارنا لنمو إحساساته النفسية بالطبع والفطرة. فيتلقى العقد الثاني من عمره - وهو عهد الإحساس بجمال الحياة - مُزودًا بإحساس آخر، وهو الإحساس بجمال العلم وشرف الفضيلة والدين، ويتلقى هذا العهد الذي هو أيضا، عهد النزوات و تنبُّه الغرائز الفطرية، مسلحا مما يدفع غوائلها، ويشذب زوائدها، و يهدّب حواشيتها." (1) فالتربية لا تكون دفعة واحدة من لحظة الطفولة إلى مرحلة النضج، ولا من لحظة الميلاد إلى مرحلة الشيخوخة، بل تكون جارية ومسايرة لارتقاء ملكاته و تطور تفكيره، فهي تتبنى تسلسلا زمنيا و تَمَائِيًا، عمرا زمنيا مساويا لمسار حياة كل إنسان، بل ما التربية إلا حياة الإنسان بأكملها.

فجهود الإمام الإبراهيمي التربوية تبتغي بصفة إجمالية الاهتمام بالتنمية الشّخصية المتكاملة للفرد فكرا وخلقا وقيما وجسما، وقد أكد الشيخ أنه يريد بممارسته التربوية التعليمية توجيه المجتمع إلى سبيل الرشاد وذلك من خلال إنشاء جيل من المعلمين يخلفونه ويحافظون على رسالته، مركزا في ذلك على الجانب التربوي فدور المعلم لا ينحصر فقط في نقل المعرفة بل هو مرتبّ بالدرجة الأولى. لذلك كان دور الإبراهيمي التربوي منصبا على تنشئة جيل مسلم وإعداد كل فرد فيه إعدادًا كاملا من جميع النواحي وفي جميع مراحل نموه، وذلك في ضوء المبادئ والقيم وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي جاء بها الإسلام، فكانت التربية عنده أساس عملية التغيير سواء في النفس أو في المجتمع. (2)

يتضح أن مفهوم التربية لدى الإمام الإبراهيمي شامل لعديد المعاني التي يقدمها المختصون في حقل التربية والتعليم، خصوصا المفاهيم الحديثة والمعاصرة منها، والتي ركزت على الإنسان بمختلف أبعاده العقلية

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 109.

(2) - عبد الله بن صفية، الفكر التربوي و سؤال المرجع عند محمد البشير الإبراهيمي، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، لبنان، العام الخامس، العدد 40، أبريل 2018، ص 46، 50.

والنفسية والجسدية، كما يدخل ضمن مفهومها مختلف الجهود التي يبذلها العلماء، المعلمون والمرّبون والمسؤولون في رعاية أفراد المجتمع في مجالات التربية والتعليم و التوجيه خاصة. فهي رؤية ترتبط أساسا بما يرنو المجتمع تحقيقه من وراء تلك الجهود.

لكن لا يفهم من ذلك أن مفهومه للتربية يقتصر على إعداد الفرد للمستقبل، أو حياة أخرى غير الحياة التي يعيشها، مثلما نجد في بعض الأجدديات الفلسفية التربوية الكلاسيكية أو المثالية، أو في بعض الآراء التربوية الدّينية الإسلامية أو غيرها ممن تركز رؤاهم التربوية على إعداد الفرد للحياة الآخرة والإعراض عن الحياة الدنيا، بل يجمع الإبراهيمي في مفهومه للتربية بين ما توصل إليه من رؤى تربوية في الإسلام وما يفرضه الواقع بشتى تجلياته ومتغيراته وتغيّراته، من مستجدات علمية ومعرفية، وكذا المشكلات التي يفرضها الواقع الذي يعيشه الفرد الجزائري خصوصا والمسلم عموما فمفهومه للتربية لا ينحصر في الماضي ولا يقصي الحاضر والمستقبل.

يوضح عبد القادر فضيل مفهوم التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي على أنّها: إعداد الأفراد للحياة الحاضرة والحياة المستقبلية، من خلال الدعوة إلى بناء عقولهم ونفوسهم وتنمية مواهبهم الفطرية وتنشئتهم على صحة الإدراك ودقة الملاحظة. مستوحيا رؤيته هاته من حوادث التاريخ والحقائق العلمية التي استخلصها من التربية في الإسلام، ومن مشكلات الواقع الذي كان مضطربا، لا هو واقع منسجم مع قيم الأمة، ولا هو واقع مندمج مع روح العصر.⁽¹⁾

فواقع المواطن الجزائري الذي كان يعاني ويلات الاستعمار فرض رؤية و تربية تتوافق و إياه، فمن جهة يشاهد الفرد الجزائري إقبال واندماج الكثير من الشعوب في عصر جديد، برؤى وفلسفة إنسانية جديدة قوامها الحرية، والتمتع بحقوق التربية والتعليم وفق فلسفة مجتمعاتهم، وفي المقابل يجبره المستعمر الفرنسي على تربية لا تتوافق مع مقومات شخصيته الوطنية ولا ترقى إلى طموحاته وآماله، بل تجسّد لأيديولوجية وسياسة استعمارية، يقف الجزائري أمامها ضمن مفترق تشوبه مواقف متعدّدة، يكون فيها أحيانا مشاهدا أو مُقيّدا، وأحيانا مكافحا ومقاوما، فيجد نفسه لا مندجما مع روح عصره وما استجدّ فيه من حقائق ومعارف من جانب، ولا متحررا من طغيان المستعمر من جانب آخر.

(1) - عبد القادر فضيل، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، دار الوعي للنشر والتوزيع، روية، الجزائر، محرم 1432هـ، ديسمبر 2010م، ص40، 41.

فمفهوم التربية عند الإبراهيمي إذًا يعدّ نتاجا عمليا وتاريخيا لجملة من الفعاليات والمتغيرات الإنسانية، والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي ميزت الواقع العربي والإسلامي عامة والواقع الجزائري خاصة. فالإبراهيمي يأخذ بعين الاعتبار هذه المتغيرات محاولا التأسيس لتربية تكون كأديولوجيا وسياسة مناهضة للأيديولوجيا الاستعمارية السائدة، والتأسيس لفكر ثوري يُقبل بالشباب على الحياة حتى يتحرر من قيوده، لينطلق من الواقع ويعود إليه ليغيره نحو الأفضل.

فليست التربية الإبراهيمية مجرد تأملات مثالية كما يظهر لدى رؤى بعض فلاسفة التربية، أو كقواعد نظرية تُعلّم، إنّما التربية تتمثل في ضرورة التحسيد الواقعي لها فيما يرى عليه الإنسان، وهذا ما كان يسهر عليه الإمام الإبراهيمي بنفسه. وبهذا يكون للتربية مفعولها في أرض الواقع فلا تكون مجرد تعاليم نظرية تبقى حبيسة الأذهان، وهذا من شأنه أن يضفي ويحقق مفهوما واقعيًا لها، بكونها إعدادا نظريا وواقعيًا للحاضر والمستقبل آخذا الإنسان بأسباب ذلك، إذ يدعو الإبراهيمي المعلمين والمربين إلى ضرورة مراعاة ذلك، هذا ما تحدّده توجيهاته لهم قائلا: "رتّوهم على استخدام المواهب الفطرية من عقل وفكر وذهن، وعلى صدق التصور وصحة الإدراك ودقة الملاحظة والوقوف عند حدود الواقع ... رتّوهم على بناء الأمور على أسبابها، والنتائج على مقدماتها علما وعملا... بينوا لهم الحقائق، و اقرنوا لهم الأشباه بالأشباه، واجمعوا لهم النظائر إلى النظائر وبينوا لهم العلل والأسباب، حتى تنبت في صغرهم ملكة التعليل... امزجوا لهم العلم بالحياة، والحياة بالعلم، يأت التركيب بعجيبة، ولا تعمروا أوقاتهم كلها بالقواعد، فإن العكوف على القواعد هو الذي صيّر علماءنا مثل «القواعد»".⁽¹⁾

ونفس التصور التربوي يتشاركه الإبراهيمي إلى حد بعيد مع الإمام ابن باديس، بحكم المرجعية الفكرية المشتركة بينهما واشتغالهما بقضايا التربية والتعليم، وإشرافهما على جمعية العلماء، فالتربية في تصور الإمام ابن باديس جُهد إنساني هادف يوجه لرعاية الفرد والمجتمع، ويسعى لبناء الفكر وتثقيف العقل، وتقويم الأخلاق وتقوية البدن، من أجل تحقيق الغاية التي يتطلع إليها الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية. وهي بلوغ الكمال الإنساني وبناء الشخصية المتكاملة التي يركز فيها على الجوانب العلمية والعملية والأخلاقية.⁽²⁾

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص272.

(2) - عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص181.

يشير الإبراهيمي أن التاريخ يشهد أن ابن باديس هو "واضع أساس النهضة الفكرية في الجزائر، وقد سلك لها المسلك العلمي الحكيم، وهو مسلك التربية والتعليم ... وكان - رحمه الله - يُؤثر التربية على التعليم، ويحرص على غرس الفضائل في نفوس تلامذته قبل غرس القواعد الجافة في أدمغتهم ... وكان من طريقته في التربية أن يرمي إلى تصحيح الفكر، وترقية الروح، وتقوية الخلق، وتسديد الاتجاه في الحياة، وأن يستخرج من قواعد العلوم التعليمية قواعد للاجتماع، وينتزع منها دروسا في التربية والأخلاق."⁽¹⁾

فمفهوم الإمام الإبراهيمي للتربية منطلقه فطرة الإنسان والعمل على المحافظة عليها، بمراعاة ملكته العقلية وحسنه وتنميتها، وربط تلك الملكات الذاتية بعوامل ومناهج المعرفة الصحيحة، كدقة الملاحظة والوقوف على حدود الواقع والمقارنة بين الأشياء، معرفة العلل والأسباب إلى غير ذلك مما يؤكد عليه البشير الإبراهيمي.

فالتربية تحمل مدلولاً عقلياً واستقراءياً للواقع، فاستقراء الحوادث من شأنه أن يكمل عمل العقل فتتضح الحقائق. ولن يكتمل مفهوم التربية ويتضح إلا إذا امتزجت التربية بالحياة وبالواقع. فمفهوم الإمام الإبراهيمي للتربية مفهوم متكامل إلى حد بعيد للتربية. إذ يحمل بعداً سيكولوجياً من خلال تركيزه على فطرة الإنسان وملكاته ومواهبه وميولاته. بُعداً واقعياً سوسولوجياً من خلال ربط التربية بالواقع و بالمجتمع الذي يكتنف الفرد وفلسفته في الحياة. بعداً علمياً من خلال التركيز على التّهل من العلوم والمعارف وما استجد منها والاعتماد على نتائج العلم ووسائله في التربية، وبتعبير أعم وشامل ترتبط التربية لدى الإبراهيمي بالحياة ومجالاتها المتعددة.

ومنه نستخلص أن التربية الحقّة عند الإمام الإبراهيمي هي عملية شاملة تعني بالعقل، وتهذب النفس والسلوك والبدن. كوظيفة جامعة بين العلم والعمل، لتقود الإنسان من النقص الذي يعانيه سعياً إلى الكمال الإنساني، والمقصود به الكمال الإنساني النسبي الفطري الذي يهدف الإنسان إلى بلوغه. "فالكمال والنقص وصفان يتعاقبان على الفرد، كما يتعاقبان على المجموع، وهذا الإنسان العاقل خلق مستعداً للكمال، وقد هياً له خالقه الحكيم أسبابه، ومكن له وسائله، ونصب له داخل نفسه وخارجها أمثالا يحتذيها لبلوغ الكمال."⁽²⁾

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص 138، 139.

(2) - محمد البشير الإبراهيمي، تقرير الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي عن الأمية، ينظر سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تقدم نوار جدواني، دار المعرفة، الجزائر، 2009، ص71.

3. علاقة التربية بالتعليم عند البشير الإبراهيمي:

أبرز التطرق إلى مفهومي التربية والتعليم عند الإمام الإبراهيمي التداخل الكبير بين المفهومين، ما يدفع إلى ضرورة التعمق في علاقتهما واستقصاءها أكثر. وهذا التداخل ارتبط بالتطور التاريخي لكل من مفهومي التربية والتعليم، فكثيرا ما ارتبط مفهوم التربية و التعليم في عملية واحدة، نظرا للدور والعناصر المشتركة بينهما، غير أن هناك بعض الخصوصية التي تميزهما.

يميز الفيلسوف الألماني إمانويل كانط بين المعلم *Précepteur* وبين المربي *Pédagogue* فالأول مجرد مدرس، أما الثاني فهو مرشد، الأول لا يربي إلا من أجل المدرسة، أما الثاني فيربي من أجل الحياة.⁽¹⁾ والمباحث في علوم التربية و التعليمية تتناول مراحل ذلك التطور.

فالتعليم جانب جزئي وهام من جوانب التربية يقتصر على تنمية الجانب العقلي والمعرفي أو جانب القدرة والمهارة ... فالتعليم يمثل الجانب المتخصص في التربية. في حين أن التربية عملية ذات مدلول أوسع وأشمل في غاياتها و مجالاتها و أدوارها، إذ تشمل النمو، التعلم، تغيير السلوك، التكيف النفسي والاجتماعي والتهذيب الخلقى، فهي تعدّ تنميةً لقدرات الفرد و إعداده بهدف أن يجيا حياة كاملة في المجتمع الذي يعيش فيه.⁽²⁾

كما أن التعليم غالبا ما يقتصر وينحصر في المؤسسات التعليمية والمدارس، ويكون موجها ببرامج ومناهج، مركزا على جانب اكتساب المعرفة وتحقيق أهداف أو كفاءات معينة، في حين أن التربية لا تُحدّد بقسم أو مؤسسة بل تضمهم جميعا متجاوزة إياهم لمختلف جوانب الحياة الأخرى. لذلك ارتبط مفهومها بالحياة عند الإمام الإبراهيمي ولدى العديد من المفكرين.

أما التربية فتعني بعملية التثقيف التي لا تقتصر على تنمية الجانب العقلي أو المعرفي، بل أيضا التهذيب الأخلاقي وتنمية الذوق الجمالي وإكساب الخبرة، وما يترتب عنه من تغيير في سلوك الفرد بمختلف جوانب

(1) - عبد الرحمن بدوي، فلسفة الدين و التربية عند كانط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص 124، 125.

(2) - عمر محمد التومي الشيباني، الاتجاهات الحديثة في مفهوم التربية، سلسلة - كتاب الشعب، العدد 6، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ط 1، 1980، ص 272 - 274.

شخصيته. وعملية التثقيف التي تقوم بها التربية لا تنحصر داخل المؤسسات التعليمية، بل تشمل كافة جوانب الحياة، كعملية متواصلة تبدأ مع الميلاد.⁽¹⁾

ويؤكد هذا المعنى مالك بن نبي إذ يرى أن التربية لا ترتبط بجانب التعلم لوحده، هذا الأخير الذي يعدّ جزءاً منها، بل هي كمنظومة حياة شاملة، وكعامل تاريخي وحضاري، تطبّق وتنتشر لدى جميع أطراف المجتمع باعتبارها عملية تثقيف وتوعية، مبيّنا أن: "من أولويات واجبنا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي، ولذلك يجب أن نحددنا عاملاً تاريخياً لكي نفهمها، ثم نظاماً تربوياً تطبيقياً لنشرها بين طبقات المجتمع."⁽²⁾

والمتمعن للواقع التربوي والتعليمي في الجزائر يتبين له مدى الترابط بين التربية والتعليم، فالتعليم وسيلة تساعد على تحقيق الأهداف التربوية التي يروم المجتمع تحقيقها. هذا ما تؤكدته الفلسفة التربوية الإبراهيمية، "فالتربية هي الأساس والمقصد الأول الذي يسبق التعليم، ليكون الفرد عضواً حقيقياً في أمته صالحاً للحياة لها و... بالتعليم مهم للتربية، والتربية لا معنى لها بدون تعليم فهذان الأساسان مكملان لبعضهما ويشكّلان ثنائية لا يمكن الفصل بين طرفيها لينجح المشروع الإصلاحي."⁽³⁾

تتموضع التربية وتحتل المكانة الأولى ثم يأتي بعدها التعليم، فهي التي تهيء الأرضية لتعليم الأجيال، لأن أي فشل في هذه الحياة قد لا يرجع لعوامل تعليمية بقدر ما يرجع إلى أسس وقواعد تربوية في نظر الإمام البشير الإبراهيمي، من منطلق أن التربية تكوين شامل للإنسان بمراعاة مختلف أبعاده، لا البعد المعرفي فقط، هذا ما يسمح له بتدارك ما فاتته، أو تصحيح مساره في الحياة. فقبل الشروع في عملية التعليم لا بد من تأسيس تربوي للمتعلمين والمعلمين، لأن أدوارهم ليست تعليمية فقط وإنما تربوية في مقامها الأول. فيدرك المعلم أنه يُربّي قبل أن يُعلّم، والأولى أن تكون السنوات الأولى للأطفال في المدارس ذات طابع تربوي أخلاقي أكثر منه طابعاً معرفياً، حتى تغرس في نفوسهم قيم مجتمعاتهم، كمبادئ لا يجيدون عنها، ويدركون الهدف من تعلمهم.

(1) - محمد بغداد باي، التربية والحضارة - بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي، عالم الأفكار للنشر والتوزيع، ط2، 2007، ص 182، 183.

(2) - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ت عبد الصبور شهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 1984، ص76.

(3) - جيلاني ضيف، بناء المجد - محمد البشير الإبراهيمي، ص98، 99.

هذا ما يؤكد عليه الإبراهيمي كقاعدة وحقيقة تربوية ينبغي أن يركز عليها المربون قائلاً: "أحرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، و اجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، واجعلوها حاديكم في تربية هذا الجيل الصغير، وهاديكم في تكوينه، وهي أن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في حيبته في الحياة من نقص في العلم، وإنما خاب أكثر ما خاب من نقص في الأخلاق، فمنها كانت الخيبة و منها كان الإخفاق." (1)

فالتعليم عنده وسيلة والتربية غاية، والغاية تسبق الوسيلة عند بناء الخطة، ولكن لا بد منهما معا (الوسيلة والغاية). فالمعلم يجب أن يعي المسؤولية الملقاة على عاتقه، ويدرك دوره الحقيقي، الذي يتجاوز تلقين المعرفة إلى ممارسة الفعل التربوي، الذي يتجه إلى تربية العقل، وتركيب النفس، وتهذيب الوجدان، وتقويم الأخلاق. (2)

وهي نفس الرؤية التي أكدها باعزیز بن عمر* في تقرير له حول التعليم المكتبي. عند تساؤله ما التعليم؟ إذ يؤكد أن كل تربية و تهذيب تعليم، وإن كل مهذب معلّم و مربّ ولا ينعكس، والغاية من التعليم بناءً على هذا أن تربي نفس المتعلم وتقوّم أخلاقه وتهذب، وأن يصير ذهنه قادرا على توليد أفكار جديدة واستنتاجات خاصة كلما تقدم في سبيل التعلم ومراحل الحياة، و كل ما يجب أن يتم مع هذه التربية من مسائل مدققة ومعلومات صحيحة فهو من الفوائد الثانوية التي تأتي بالتعليم بطول الدراسة، ولعلّه نفس أسلوب القرآن الذي سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم في تعليم أمته و تهذيبها، وإعدادها لكل خير بالتركيب. (3)

فالإمام الإبراهيمي كان من أشد المؤمنين و المدافعين عن ضرورة إيلاء التربية و التعليم الأهمية التي تليق بهما، باعتبارهما وسيلة واحدة تُعنى بإعداد الأفراد و تأهيلهم سلوكيا و معرفيا للاضطلاع بما ينتظرهم من أدوار

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 264.

(2) - عبد القادر فضيل، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص42.

* - باعزیز بن عمر: هو عبد العزيز بعزي ولد عام 1906 بقرية آث حماد الواقعة بأزفون ولاية تيزي وزو ، درس على يد والده القرآن الكريم ومبادئ العلوم، كما درس في معهد ابن باديس بقسنطينة، اشتغل بالتعليم والصحافة، وبعد أحد أهم الفاعلين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، توفي عام 1966 تاركا آثارا متمثلة في مجموعة من المؤلفات منها : كتاب دروس الأخلاق والتربية الوطنية، رحلتي إلى البقاع المقدسة، الجزائر الثائرة (مسرحية تاريخية)... فضلا عن العديد من المقالات الصحفية يقدر عددها ب 500 مقالة.

(3) - باعزیز بن عمر، تقرير في التعليم المكتبي، ينظر سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 89.

لتحرير الأرض. و بذلك كان الاهتمام بالتعليم منفتح جمعية العلماء المسلمين في الإصلاح. ومحاربة الفساد الذي استشرى في العقول والنفوس، فالخلاص من هذا الواقع المشين لا يكون إلا بتربية النشء و تعليمه.⁽¹⁾

وبناءً على ما سبق فالتعليم هو مجرد لحظة تربوية أو موقف تربوي جزئي من النظرة الشمولية التي تميز التربية، لأن الطفل مثلما يتعلم بعض المبادئ التربوية في مواقف تعليمية معينة، في المدارس أو في المساجد، فإن الحياة بمختلف مجالاتها، وضعياتها و مشكلاتها بمثابة المربي له، خاصة مع ارتباط التربية بغايات بعيدة قد تتعدى عدّة أجيال لتحقيق، فهي لحظة و معركة وجودية مع الذات، مع الآخر ومع الحياة بصفة عامة. فيكون المعلم والمربي أبا ومعلما، يجمع بين التربية والتعليم، لأن التعليم في أصله الأول عملية تربوية، كان يشرف عليها الآباء، وما الاختلاف الظاهر إلا لفظي لا غير، نظرا للتكامل الوظيفي بينهما، فلا يكتفي المعلم بدوره التعليمي فقط، بل يركز على التربية خاصة أن القيم الأخلاقية والمشاركة الوجدانية، وبناء السلوك القويم لا يعلم بل يربي الطفل عليها، ويكون للسلوك والقُدوة الحسنة الدور الفاعل للتربية، وقد أخذ الإبراهيمي هذا الجانب بعين الاعتبار في منظوره التربوي خاصة من حيث التأكيد على ضرورة الرّبط بين القول والفعل، التنظير والتطبيق.

يؤكد محمد العابد الجلاّلي * أحد أساتذة مدرسة جمعية التربية و التعليم أنه إذا أضيفت التربية إلى التعليم، سيكون موقف المعلم أدق، على أن الفرق بين التربية والتعليم لا يكاد يدرك إلا عندما يريد الإنسان أن يدقق في معاني الألفاظ، ذلك أن كلاهما عمل من عمل الآباء، وليس كل معلم في استطاعته أن ينزل نفسه من تلاميذه منزلة الأب من أبنائه، والعمل على ذلك يجعل من المعلم قوة دافعة لأبنائه في سبيل العمل لإصلاح دينهم ولغتهم ووطنهم، وتجعل من أذهان أبنائه صفحات أنصع و أكثر قبولا لصور الكمالات النفسية.⁽²⁾

(1) - جيلاني ضيف، بناء المجد - محمد البشير الإبراهيمي، ص 97.

* - محمد عابد الجلاّلي: (1967 / 1890) من أوائل كتاب القصة في الجزائر، له اشتغال بالصحافة، عرف باسمه المستعار "رشيد" ولد بقرية أولاد جلال قرب بسكرة، درس على والده ثم على الشيخ عبد الحميد بن باديس، اشتغل بالتدريس في مدارس جمعية العلماء المسلمين أكثر من ثلث قرن، وفي سنة 1937 أنشأ جريدة "أبو العجائب"، التحق بجيش التحرير بعد اندلاع ثورة التحرير، وعاد إلى التدريس بعد الاستقلال، من آثاره: تقويم الأخلاق، الأناشيد المدرسية. توفي في أولاد جلال عام 1967. ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت لبنان، ط2، 1980، ص 115.

(2) - محمد عابد الجلاّلي، نظرة في التربية والتعليم، ينظر: من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تقديم عبد الرحمان شيبان، دار المعرفة، الجزائر، دط، 2009، ص 77.

تصور الإبراهيمي هنا لعلاقة التربية بالتعليم مستمد من مرجعيته وتربيته الإسلامية، إذ أن هذه الأخيرة تؤكد على ضرورة جعل التربية بجوار التعليم، فتكون موجهة للمعلمين والمتعلمين، فلن يفيد أن يكون الإنسان متعلما إن لم يكن مزودا بمكارم الأخلاق التي توجه سلوكه وتفيد بعلمه. وهو ما بينه تركي رابح عندما أشار إلى الإصلاح التربوي عند الإمام ابن باديس وجمعية العلماء المسلمين مبينا أنه "من مفاخر التربية الإسلامية أنها قد أدركت منذ عهد طويل أن العلم وحده لا يكفي لكي يكون سلاح المعلم، بل لا بد أن يضاف إلى العلم فن التربية."⁽¹⁾

يؤكد الشيخ الإبراهيمي أن وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام كانت أخلاقية تربوية في المقام الأول قبل أن تكون تعليمية، فعندما ربى النفوس و زكاها سهل تعلمها لمختلف ما تضمنته الشريعة الإسلامية ، لأنه هيا الأرضية والقواعد التي تقوم عليها تلك التعاليم الربانية، من منطلق الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾⁽²⁾

حيث كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقوم بتزكية النفوس و تربيتها على مكارم الأخلاق، إذ أنه لا ينفع علم، و لا ينفع تعليم ما لم يمهده بالتربية الحقة، لذلك يرى الشيخ الإبراهيمي الرسول عليه الصلاة والسلام "قَدِّمَ التَّزْكِيَةَ الَّتِي هِيَ التَّزْكِيَةُ عَلَى تَعْلِيمِ الْكِتَابَةِ وَالْعِلْمِ."⁽³⁾ وهذا ما يبرز التكامل بين التربية والتعليم عند الإبراهيمي من منطلق التداخل بين وظيفتيهما، ونظرا إلى الغاية و الهدف المشترك بينهما.

يؤكد الإبراهيمي على ذلك التكامل بتوضيح طريق عمل الجمعية في سبيل هبتها العلمية للنهضة بالوطن، مبينا أنه لا يمكن ان تقوم قائمة للتعليم ولا استثمار نتائجه فيما ينفع الأمم إلا إذا ارتبط بالتربية، فهو سلاح يوجه إما للبناء أو الهدم على حسب الغايات والأهداف: "كانت الطريقة التي بنت عليها جمعيتنا أصول هذه النهضة هي الجمع بين التربية والتعليم، لأن العلم الخالي من التربية ضرره أكثر من نفعه، وما أصيب المسلمون في عزّتهم إلا يوم فارقت التربية الصالحة العلم. وكم شقي أصحاب العلم بمجرد العلم و أشقوا

(1) - تركي رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس - رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، ط5، 1422هـ - 2001م، ص475.

(2) - سورة البقرة ، الآية 151.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص266.

أهمهم، والسعادة غاية لا يسلك إليها طريق العلم وحده من غير أن تصاحبه التربية، وأن الجمع بين التربية والتعليم هو وظيفة النبوة. " (1)

نظر الإبراهيمي إلى التربية على أنها فعل إيجابي يهدف إلى بناء المتعلم في مراحل الأولى من النواحي الدينية والعقلية والاجتماعية، وهذا البناء المتكامل للمتعلم يرتبط بكل من التربية والتعليم معا. فتعدّ العملية التربوية التعليمية هدفا يراد منه سلوكا معينا، ويرتقب من ورائه فعلا يحدث تغييرا في الواقع الاجتماعي والاقتصادي. (2) فـتربية المتعلم وتكوينه ينبغي أن تراعي التكامل في تكوينه خصوصا في مراحل الأولى بين النواحي الآتية: (3)

الناحية الدينية: من منطلق إيمان الإبراهيمي أن المتعلم لا يمكنه إحداث الفارق في مجتمعه ما لم ينهل من معين الدين الإسلامي ولغته وتراثه ويحفظ تاريخه، لأن الإبراهيمي يدرك أن التاريخ جزء من الوطن، فالدين واللغة يحققان الغاية من التعليم لأن المتعلم سيكون ممثلا لوطنه وتاريخه ودينه.

الناحية العقلية: حرص الإبراهيمي على أن تكون العملية التعليمية محكمة يراعى فيها المستوى العمري للمتعلم أثناء عملية التعلم والتفاعل، ولا بد من إرشاد وضبط حتى ينمو الطفل نموا صحيحا وفي اتجاه صحيح.

الناحية الاجتماعية: التربية لا يقتصر هدفها على التثقيف فقط، إنما أن تظهر نتائجها في النسيج الاجتماعي، إذ يرى أن العلاقة بين المتعلم والمجتمع علاقة بناء وتكامل، فلكي يستقيم التعليم ويرتجى منه الفائدة لا بد من الإصلاح الديني والاجتماعي.

وبذلك نستنتج أن التربية والتعليم في نظر الإمام الإبراهيمي بمثابة عملة واحدة ذات وجهين، إذ ركز على وظيفتهما أكثر من الخوض في الخصوصية المفاهيمية لهما، فالتعليم ما هو إلا عبارة عن موقف تربوي يعكس لحظة وجودية لها سماتها في فلسفة الإبراهيمي التربوية. ومنه كانت نظرتة شاملة ومتكاملة الأطراف لقضايا التربية والتعليم ودورها في النهضة بالمجتمع الجزائري وإصلاحه، ولجابهة الإستيلاء الاستعماري الثقافي والتربوي للإنسان الجزائري، ولعقول الجزائريين خصوصا الأطفال والشباب منهم.

(1) - المصدر السابق، ج4، ص173.

(2) - ولهة حسين ، مجلة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة تيزي وزو، العدد 15، 2012، ص 195.

(3) - المرجع نفسه، ص 196، 197.

فروية الإمام الإبراهيمي التربوية التعليمية جمعت بين مختلف الجوانب التي تدخل في بناء شخصية الإنسان، من أبعاد عقلية نفسية واجتماعية وثقافية، إضافة إلى ظروف الراهن الذي عايشه المواطن الجزائري آنذاك، دون إهمال نظراته الاستشرافية للتربية التي تُنمُّ عن قراءته للواقع بعيون المستقبل، بهدف بناء أجيال مفعمة بالوطنية تدرك حقوقها وتقوم بواجباتها قادرة على تشييد دولة عصرية، تحتضن مجتمعا جزائريا مستقلا ومتحضرا .

ثانيا: منهج البشير الإبراهيمي في التربية.

يعد المنهج من الخطوات الأساسية في أي بحث أو مشروع، فهو الوسيلة التي يعتمد عليها أي مفكر، فيلسوفا كان أو عالما في بحثه. فهو الذي يحدد الطرائق والوسائل التي يعتمد عليها من أجل بلوغ الهدف الذي يريده. ولا يوجد منهج ثابت يتم اعتماده بل تتعدد المناهج بتعدد مجالات البحث والمعارف وبتعدد الباحثين. هذا ما يبرزه تتبع تاريخ المناهج، فقد أسس أرسطو المنطق "الأورغانون" كمنهج للعقل والعلم، ثم وضع فرنسيس بيكون منهجا علميا على أسس استقرائية كمنطق جديد تمثل في "الأورغانون الجديد"، ووضع الفيلسوف الفرنسي ديكارت كتابه «مقال في المنهج» مُمهدا لمنهج فلسفي استنباطي. ومنه تطورت المناهج بتعدد البحوث والدراسات فلا يكاد يوجد مبحث علمي أو معرفي في مجالات المعرفة المتعددة إلا وله منهجه الخاص به.

كما أن المنهج لا يختص فقط بالبحث العلمي أو بمعرفة ما، إنما يخرج من تلك الدائرة ليشمل شؤون الحياة الإنسانية، فنجد مناهج تربوية، إصلاحية، اقتصادية وغيرها، وإن كانت منطلقاتها غالبا ما ترجع إلى بحوث فلسفية أو علمية أو دينية.

وللمنهج عدّة تعاريف تختلف وتتنوع على حسب مجالات البحث، إذ يُعرف المنهج في المعجم الفلسفي لجميل صليبا بالمنهج أو المنهاج وهو الطريق الواضح، وجميع الكتب العربية التي سميت بهذا الاسم تشير إلى أن معنى المنهج أو المنهاج هو الطريق الواضح، والسلوك البين، والسبيل المستقيم. ومنه المنهج الدراسي الذي هو مجموعة من المواد الدراسية والخبرات العملية الموضوعة لتحقيق أهداف التربية، ويشتمل على

مجموعتين أساسيتين، أولاهما المعلومات المستمدة من التراث الثقافي، وثانيهما مجموعة الخبرات التي يمارسها الطفل بنفسه.⁽¹⁾

كما يعرف المنهج أيضا على أنه: "فن ترتيب الأفكار ترتيبا دقيقا بحيث يؤدي إلى الكشف عن حقيقة مجهولة أو التثبت من صحة حقيقة معلومة، بمعنى أنه مجموعة من القواعد التي يسير بمقتضاها العالم أوالفيلسوف أو الباحث."⁽²⁾

والمنهج المراد دراسته في التربية لدى الإمام البشير الإبراهيمي ليس ذلك المنهج المتبع في بلوغ الحقائق العلمية، إنما يتمثل في مختلف الأساليب والطرائق والوسائل التي اعتمد عليها الإمام في تجسيد مشروعه التربوي الإصلاحي والغايات التي سعى إلى تحقيقها. وما اقترن خاصة بتربية وتعليم الأجيال، وما ارتبط بذلك من قضايا ونشاطات إرشادية توعوية، فهو منهج في التربية والتعليم يمكن استخلاصه من خلال آثاره وأعماله.

وقد وضح عبد القادر فضيل معنى المنهج لدى البشير الإبراهيمي مبينا أنه: الخطة التي رسمها لنشاطه الإصلاحي في المجال التربوي و التعليمي، وجعلها سبيله في تناول قضايا التربية وتحديد مفهوم كل قضية. ورسم النموذج التعليمي المنشود الذي يراه ملائما لانتظارات المجتمع ومحققا لتطلعات الأجيال."⁽³⁾

وإن كان من شروط المنهج الصحيح -خاصة المنهج الدراسي- أن يكون ملائما للظروف الطبيعية والاجتماعية والبيولوجية، وأن يكون مستمدا من حاجات المتعلم وثقافة المجتمع، وأن يرتبط بشؤون الحياة الحاضرة، وأن تكون مواد وخبراته وطرقه ووسائله متماسكة.⁽⁴⁾ فإن منهج الإمام الإبراهيمي يتضمن هذه الشروط، نظرا لأنه أسهمت فيه بناء عدة عوامل أولها: الفلسفة العامة للشيخ التي تشكل مرجعيته الفكرية، وهي المرجعية الإسلامية، وفلسفة التربية الإسلامية وثقافتها، من منطلق التكوين والتعليم الذي تلقاه طيلة مساره العلمي، أثناء نشأته وتعلمه في الجزائر، أو في دراسته وتدريسه في عدة أنحاء من المشرق العربي، خاصة المدينة المنورة ودمشق.⁽⁵⁾

(1) - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص 435.

(2) - أحمد قيس هادي، نظرية العلم عند فرانسيس بيكون، مطبعة المعارف، بغداد، العراق، 1980، ص 257.

(3) - عبد القادر فضيل، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص42.

(4) - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص 435.

(5) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص 164 - 166.

كما مثلت رحلات الإمام العلمية والثقافية، وجولاته ونشاطاته السياسية، وعلاقاته بقيادة الفكر والنهضة آنذاك في القطر الجزائري والعربي والإسلامي، خاصة لقاءاته المتكررة وعمله مع الإمام عبد الحميد بن باديس، واتصاله بمختلف الشخصيات الدينية والفكرية التي ضمتها جمعية العلماء المسلمين. إضافة إلى تلك النشاطات الفكرية التي كان يشارك فيها، وسعة إطلاعه المعرفي، كل ذلك مكّنه من الإطلاع على جهود العلماء المصلحين آنذاك ومشاريعهم التربوية والإصلاحية. مما ساهم في فتح أفق فكري واسع وجديدة للإبراهيمي جمعت في طياتها بين رؤية خارجية نابعة من مسار بعض الدول في مشاريعها التربوية، خاصة تلك التي تجمعها مع الجزائر قواسم مشتركة في عدة مجالات ثقافية وفكرية، وكذا تشابها في بعض الظروف كالتخلف والتعرض للاستعمار ومخلفاته. وبين رؤية محلية نابعة من معايشة للواقع الجزائري ومعرفة خصوصياته وتركيبته البشرية، البيئية والطبيعية، إضافة إلى المتغير الزمني. كل هذا ساهم في بناء تصور كفيّل بتجسيد خطة ومنهج يسير عليه الإبراهيمي وجمعية العلماء في بناء مشروع تربوي إصلاحي، من أهم أهدافه تكوين أفراد كفيّلين بالنهضة بالمجتمع الجزائري وتحقيق استقلاله.

ومن العوامل المساهمة في بناء منهجه وتكوين تصوره التربوي قراءة الإبراهيمي للواقع الجزائري وفهم تركيبته، خصوصا الواقع التربوي، والتعليم العربي الإسلامي الذي حرم منه الجزائريون بفعل المستعمر. وقد أشرف الإبراهيمي على هذا التعليم مدرّسا ومنظرا، ما دفعه مع جمعية العلماء المسلمين إلى إيجاد المنهج الكفيّل لإقامة تربية وتعليم يتوافقان ومقومات الشخصية الوطنية. كما لا يمكن إغفال مختلف الجوانب الأخرى المؤثرة في تصوّره، بداية من الظروف السياسية، الاجتماعية و المادية العسيرة التي كان يعاني ويلاؤها أفراد الأمة الجزائرية. إذ يعتبرها الإبراهيمي عاملا أساسا ومهما وجب مراعاته في إقامة مشروعه الإصلاحي ومنهجه التربوي، من خلال دراسته للأمة الجزائرية وقراءتها كما يقرأ الكتاب ويفهم، مع تحليله واستخلاص نتائجه، إضافة إلى قراءة المواطن الجزائري الذي لم يكن يتمتع بأدنى الحقوق، فلم تكن دروس الإبراهيمي ومحاضراته وخطبه ومقالاته إلا ترجمة لذلك الواقع والمجتمع الذي يعيشه الجزائري، وما يحتاجه من تربية وتعليم، فمثل الواقع والمجتمع الجزائري منطلقا هاما في بناء المنهج التربوي للإمام الإبراهيمي.⁽¹⁾

وتعدّ أولى لبنات المنهج التربوي الإبراهيمي نتاجا لتدارسه للوضع الجزائري مع الإمام عبد الحميد بن باديس، حيث مثلت لقاءاتهما المتكررة منطلقات تأسيسية لوضع برنامج عمل، وتصور مسبق للمنهج

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 209، 210.

وللمشروع التربوي الذي يتم اعتماده، وإلى مآلاته التي يمكن أن يؤدي إليها نتيجة الأحداث المتعاقبة على الجزائر. وقد صرح بذلك الإمام الإبراهيمي قائلاً: "كانت الصلة بيني وبين ابن باديس قوية وكنا نتلاقى في كل أسبوعين أو كل شهر... فنزنا أعمالنا بالقسط ونزنا آثارها في الشعب، وبنينا على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبداً، وكنا نقرأ للحوادث والمفاجآت حسابها." (1) وبناءً على ذلك يمكن تحديد سمتين أساسيتين في منهجه التربوي.

1. من سمات المنهج التربوي الإبراهيمي: الواقعية و المستقبلية.

يمكن استخلاص سمتين هامتين من سمات المنهج التربوي الإبراهيمي تتمثلان في: الواقعية و المستقبلية.

1.1 الواقعية: كون المنهج التربوي عند الإبراهيمي نابع من قراءته للواقع بحكمة وواقعية، وهو الواقع الذي احتضن البشير الإبراهيمي والشعب الجزائري، فانطلق منه لبناء منهج يتفق وخصوصيات ومقومات الشخصية الوطنية الجزائرية، إضافة إلى مراعاته لحركة هذا الواقع ومتغيراته ومستجداته بفعل الأحداث المتعاقبة عليه. وتظهر خصوصيته الواقعية أيضاً من خلال إمكانية تجسيده ميدانياً، وهذا ما قام به العديد من رجال الإصلاح والأئمة والمعلمون خصوصاً المنضوون منهم تحت لواء جمعية العلماء المسلمين. دون إغفال فعالية هذا المنهج في تربية أفراد المجتمع بمختلف أطيافهم، فيكون أفراد المجتمع بمثابة الحاضنة الاجتماعية لهكذا مناهج تربوية ومشاريع إصلاحية، فيساهمون في نجاحها إذا ما قبلوا عليها واحتضنوها، لأنهم سيدافعون عنها ويجعلونها منطلقاً للإصلاح والبناء، أما إن لم يتم احتضانها فمآلها عدم النجاح والزوال.

فقد كان الإمام الإبراهيمي يتساءل عن: "إمكانية بناء « فلسفة تعليمية خاصة » خصوصية الشخص والوضع! وإمكانية وضع مشروع للتربية، صلب أرضيته، متكافئ في عناصره و متكامل في وسائله وغاياته." (2) ومنه: فالواقعية في منهجه تظهر أولاً: من خلال منبعه أي أن منهجه لم يكن نابعا من رؤية مثالية بل من الواقع المعيش، وتظهر ثانياً: من خلال إمكانية التطبيق الواقعي له.

1.2 المُستقبلية: هي تلك النظرة الاستشرافية التربوية للمستقبل. نظرة لما يجب أن يكون (كأهداف وغايات)، ولما قد يكون (كمآلات أو مفاجآت) - إذا لم تواتي ظروف التطبيق أو عُرقلت - أي أن المنهج

(1) - المصدر السابق، ج5، ص280.

(2) - علي زيكي، فلسفة التعليم عند الشيخ البشير الإبراهيمي، محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص324.

التربوي يتضمن رؤية وبرنامجا للمستقبل انطلاقا من الواقعية التي اتسم بها كمنطلق، كما يتضمن تصورا مسبقا لكيفية العمل مهما كانت الظروف التي يمكن أن يصادفها والتي كانت محل توقعات مسبقة. وبتعبير آخر فإنه يمتاز بالعصرية مرتبطا بما قدمته الحضارة المعاصرة من منتجات على الرغم من خصوصية الظرف حتى يتم استثمارها في اقتصار الوقت و الجهد لتحقيق نتائج أفضل.

فلم يعلق الإبراهيمي آمال الأمة بالأوهام والأحلام والخيال، فالخيال أوله لذة و آخره خبال، إنما كان يستشرف النتائج، موظفا قاعدة النظر في مآلات الأفعال، وقاعدة جلب المصالح و درء المفساد، وهو في هذا يصدر عن عقلية مقاصدية اتّسمت بها مدرسة الغرب الإسلامي و تراثها الفقهي المالكي.⁽¹⁾

والتأسيس لمنهج تربوي لا يكون إلا بتظافر الجهود وتناسقها بين مختلف المصلحين والمختصين في الحقل التربوي والتعليمي من مفكرين وعلماء وأئمة وأساتذة، ما يساهم في فتح آفاق بعيدة، وتكتمل وجهات النظر بعضها البعض. فالمشروع التربوي الإبراهيمي هو محصلة نشاط علمي جموعي بصفة عامة احتضن العديد من الأفكار والآراء وبلورها، ويعدّ تنمة للمشروع الذي بدأه مع الإمام عبد الحميد بن باديس، ما يبين ضرورة تكاتف وجهات النظر والجهود بهدف الوصول إلى بناء رؤى ومناهج تربوية متكاملة، فنظرة الفرد لوحده تبقى قاصرة في جوانب عديدة إذا لم تكملها آراء أخرى. حيث يصرح الأستاذ محمد الغسييري* (1912-1974) في مقامة رثاء لابن باديس مبينا دور وجهود الإمام الإبراهيمي في ذلك قائلا:

"من أعلى ما امتاز به أستاذنا الجليل، ورئيسنا الأكبر محمد البشير الإبراهيمي من شرف الخلال، (نكران الذات) فهو لا يزال يعمل الأعمال التي تعجز عنها الجماعات، وتنوء بها العصب، وهو مع ذلك لا ينسب الفضل إلا لإخوانه ورفقائه الأموات والأحياء إذ يصرح بذلك في خطبه الدينية، ومحاضراته الجامعية، ويقول: إن كل فضل في هذه الحركة العلمية النامية يرجع إلى جمعية العلماء، وإنه لولا جمعية العلماء لما كان هو. ونحن أبنائهم نشهد، و إخوانه يشهدون أنه لولا علمه ولسانه وصبره وتأثيره الذي يشبه السحر لما كانت

(1) - محمد بو عبد الله، النزعة النقدية عند الإبراهيمي، ينظر: العلامة محمد البشير الإبراهيمي و آفاق الحداثة - سؤال التنوير - تقدم محمد الصادق بلام، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، ط1، 2016، ص338.

* محمد الغسييري (1912/1974): هو محمد بن أحمد يكن المنصوري الغسييري، ولد بأولاد منصور بأريس ولاية باتنة، حفظ القرآن بزواوية أولاد ميمون، واصل دراسته بيسكرة، وكما اشتغل بالتدريس في مدارس جمعية العلماء بداية من قسنطينة، وتم تعيينه عضوا في لجنة التعليم العليا في الاجتماع السنوي لجمعية العلماء 1948، وكانت له رحلات إلى تونس، ليبيا ومصر. ينظر: عبد النور آيت بعزيز، الشيخ محمد المنصوري الغسييري المرابي المعلم والمرشد المناضل (1912/1974) مجلة قضايا تاريخية، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر العاصمة، مج2، ع1، ص50-62. ومج3، ع1، س2018، ص190-199.

جمعية العلماء...⁽¹⁾ فمن خلال ذلك يتضح أن المنهج التربوي هو محصلة جهود متكاتفة فيما بينها، وهذا ما يتضح من تصريح الغسيري على أن الشيخ الإبراهيمي يغفل جهوده وأعماله وينسبها إلى الإمام عبد الحميد بن باديس داخل جمعية العلماء وخارجها، إذا طالما أكد الإبراهيمي على أن ابن باديس هو باني النهضة الجزائرية ومؤسسها.

وبناءً على ما سبق فإنّ النظرة الملمّة والمتنوعة للإبراهيمي مكنته من خوض معركة البناء الإصلاحي والتربوي في الجزائر، منطلقاً من التربية مركزاً على المدارس والعلوم ليتصف بنوع من السيورة والحركة، ما جعلته مسائراً لمختلف الأوضاع والتطورات، وارتبطت به العديد من التطلعات والآمال، ما يمكّن من استخلاص واختزال أهم مراحل المنهج التربوي عند الإبراهيمي. فما أهم العناصر والمراحل التي سار عليها الإبراهيمي في منهجه التربوي؟

2. مراحل ووسائل المنهج التربوي عند البشير الإبراهيمي:

يقوم المنهج التربوي للبشير الإبراهيمي على ثلاثة مراحل أساسية تتمثل أولاً في: التوعية والتنوير بأهمية التربية والتعليم كمنطلق لمنهجه، وثانياً في: مختلف الأساليب والوسائل التي اعتمدها في منهجه، وتتمثل ثالثاً في: الغايات والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها. وهي بالتفصيل على النحو الآتي:

2. 1. التوعية و التنوير منطلقاً للمنهج:

إن المنطلق والشروع في التطبيق العملي لأي منهج إصلاحي، سياسي أو اجتماعي بعد التأسيس له يتطلب ضرورة احتضان الأرضية الشعبية له ولأسسه وأفكاره، من خلال الإيمان بها والدّود عنها بهدف نقلها من منطق الفكر إلى منطق العمل وتجسيدها واقعياً. وتاريخ البشرية في تجاربها المتكررة يثبت أن نجاح أي مشروع لا يكون إلا من خلال حركة الشعوب اتجاه ذلك، فلم تنجح الثورة الجزائرية إلا من خلال احتضان فكرة الحرية وبناء دولة مستقلة، والإيمان بالحرية من خلال تحرير الذهنيات من المخيال الاستعماري الذي لازمها وسيطر عليها لعدة عقود، ونفس الشيء لدى المجتمعات الأخرى، فلم ينجح مثلاً المسعى التنويري

⁽¹⁾ - مقامة في رثاء الإمام ابن باديس (مناجاة مبتورة، لدواعي الضرورة) - تقدم محمد الغسيري - (مناجاة مبتورة، لدواعي الضرورة. نشرت في العدد 76 من جريدة البصائر سنة 1949م)، ينظر محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر (مجموع المقالات التي كتبها افتتاحيات لجريدة البصائر طبعة خاصة)، تقدم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2007، ص 652.

والتثويري في أوروبا إلا بعد احتضان الشعوب الأوروبية لخطاب التنوير والسير قدما في طريق التغيير الذي رسمه فلاسفة الأنوار.

ومنه كان المنطلق في منهج الإمام الإبراهيمي التربوي متمثلا في: التوعية و التنوير. توعية الرأي العام الجزائري في الداخل والخارج حتى يحتضن الخطاب الإصلاحي والتربوي. فهو يتجاوز النطاق الداخلي المتمثل في الحيز الجغرافي الجزائري إلى خارجه كمحاولة لتنوير الرأي العام العربي والدولي بضرورة وحق الشعب الجزائري في نيل حريته وفي التربية والتعليم.

والمقصود بالتوعية تبصير الجزائريين بالجانب الذي تؤديه كل من المعرفة و العلم في تحرير الشعوب والنهضة بها وبناء الإنسان، من خلال بعث الأمل فيه، إذ أن الحياة أمل ومن فقدته فقد الحياة، وبذلك وجب نشر الوعي بحق الشعب الجزائري في الحياة، الحياة التي حرمه منها المستعمر هذا من جهة، وتوعيتهم من جهة أخرى بضرورة التربية والتعليم ومحاربة الجهل والأمية، وتبيان دور كل ذلك في بعث حركية و دينامية جديدة في المجتمع للارتقاء به. فهي توعية تشمل الفكر ولها أثرها على النفس، فعندما تعي الذات دورها والوظيفة المنوطة لها، والهدف الذي تسعى إلى تحقيقه فإنها تشعر بنوع من الرضا و التقدير الذاتي مما يدفعها لاستكمال المشروع الذي بدأت به.

فقد كانت التوعية في نظر الشيخ الإبراهيمي كما هي في نظر جمعية الإصلاح منذ نشأت تقوم على فهم الدين فهما صحيحا، بحيث تنشئ مسلما سليم العقيدة، صحيح العبادة، مستقيم السلوك، عزيز النفس، قوي الجسم، حر الإرادة، مستنير العقل، مُحِبًا للخير غيورا على أهله ووطنه ودينه. عالما بمن هو صديقه ومن هو عدوه.⁽¹⁾

أما بالنسبة للتنوير فإنه يتجه إلى العقل وتحريره من تلك الأوهام والأصنام التي قيدت العقل الجزائري بفعل الاستعمار وما خلّفه من مخيال جماعي أو فردي لدى أفراد الشعب الجزائري. أو استيلاء عقولها وإيهامها إما بنيل حقوقها، ومنح التحرير لها إلى غير ذلك من الوعود التي كذّبتها وقائع التاريخ والواقع. إضافة إلى تحرير العقل الجزائري من بعض الأوهام التي عشتشت في الذهن الجزائري بفعل بعض الطرقية الفاسدة في

(1) - يوسف القرضاوي، مقومات الفكر الإصلاحي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، الجزائر، قصر الثقافة، 13 و 14 ربيع الثاني 1426هـ الموافق ل 22 و 23 ماي 2005م، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1427هـ - 2006م، ص 77.

منهجها، والتي وظّفها الاستعمار لخدمة مصالحه كتجّار للدين، مروجين للخرافة في وسط المجتمع الجزائري. ويظهر تأثيرهم أكثر على تلك الفئات البسيطة أو غير المثقفة من المجتمع التي يسهل انقيادها إلى تلك المغالطات خاصة إذا كانت مغلّفة بستر ديني وكأنّها قدر إلهي وجب تقبله. فمثلوا بذلك معول هدم يوظفهم المستعمر متى و أين سنحت له الفرصة أو وافته مصلحة. فطالت أيديهم بذلك إلى العبث بالدين ومقدساته، والعمل على تعطيل فاعليته وتأثيره في الأرواح. هذا ما يبينه الإبراهيمي بالصورة التي غدا عليها الدين والممارسات الدينية لديهم بقوله: "اختلّت العقائد ولابسها هذا الشّوب من الخرافات والمعتقدات الباطلة... واختلّت العبادات فحوّت النفوس من تلك الآثار الجلييلة التي هي سرّ العبادة والتي هي الباعث الأكبر على الكمال الرّوحي، واختلّت الأحكام فانتهكت الحرمات واستبيحت المحرّمات." (1) فالتنوير الذي يمارسه الإبراهيمي تنوير عقلي وديني يحرّر الإنسان من مختلف العلائق والأوهام، خاصة تلك التي قيّدت أذهان بعض الجزائريين والتي عمل المستعمر ومن سار على نهجه بترسيخها لدى الكثير من النّاس.

يعتبر محمد زمران أن التنوير هو الشق الثاني من العملية التربوية بعد عملية التحرير، إذ يتكفل بمهمة الملء أو البناء، ومعناه غرس القيم الفاضلة والأفكار النيرة في الإنسان، بعد تخليصه من الجوانب السلبية، وهي عملية تقتضي الصبر والمصابرة، وطول النفس وحسن الإعداد وفعالية الوسيلة. (2) والتنوير في منطلقه وأساسه عمل تحرّري، يحرر الفرد الجزائري من أصنام المستعمر و استلابيته له ومن أيديولوجيته المقيّنة.

ويرتبط التنوير في أساسه بالتوعية، لذلك فهما عبارة عن ممارسة واحدة في الأصل. وإن كان هناك تمييز بينهما، فمن منطلق أن التوعية ارتبطت بالثقافة العربية الإسلامية، أما مصطلح التنوير ارتبط بعصر التنوير وفلاسفته في أوروبا فلا يكاد يكون الاختلاف إلا لغويا في أصله. بالرغم من أن التنوير في أوروبا ارتبط بالعقل والحرية أكثر، مانحها إياها مقدسية لا يُعلّى عليها، بخلاف التنوير الذي نجده عند جمعية العلماء و لدى الشيخ الإبراهيمي فهو تنوير ديني و عقلي هادف إلى تصحيح العقيدة، تحرير العقل و الأرض، فهو يرتبط بقُدسية الدين الصحيح الخالي من الشوائب. وقُدسية العقل والتفكير السليم الرافض للخرافات، للأوهام وظلالها على حياة الفرد. تنوير يهدف إلى التأسيس لدين سليم وعقيدة صحيحة. التأسيس لعقل مقدس مقابل عقل مُندس

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 133.

(2) - محمد زمران، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الفكر الإسلامي الحديث، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، معهد الدعوة وأصول الدين، قسنطينة، 1994-1995، ص164.

بالأبطال الدينية والخرافية التي عمل المستعمر على صناعتها حتى يكرس لدى الشعب الجزائري القابلية للاستعمار فيستكين له.

وضمن هذا السياق يبين عبد القادر بوعرفة الفرق بين التنوير لدى مفكري الإصلاح وبين رواد التنوير الأوروبي. كون أن النظرة الإصلاحية تشترك مع النظرة التنويرية في عصر النهضة الأوروبية، بيد أن الفارق المهم في المعادلة أن خطاب التنوير الأوروبي كان ضمن بيئته وثقافته وسلطته، أما الخطاب الإصلاحي الجزائري كان خطابا غريبا لأنه نشأ ضمن جغرافيا مُستَعمَرة، وسلطة غاصبة وثقافة مستلبة. لكن رغم تلك المفارقة التاريخية، حاول الخطاب الجزائري من خلال أعلامه أن يضع مسألة التنوير من قضاياها وغاياتها.⁽¹⁾ وهذا ما يظهر من خلال الهبة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومشايخها من أجل توعية وتعليم وتربية أفراد المجتمع الجزائري.

حيث يبين الإبراهيمي أن المنطلق التوعوي والتنويري في منهجه التربوي والإصلاحي هو ما عملت من أجله جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كمنطلق أول لتحرير المواطن الجزائري عقلا و بدنا، ومنه تتحرر مختلف جوانب شخصيته وبالتالي يتحرر فكريا، اجتماعيا، سياسيا وثقافيا فيتحرر بذلك معنويا وماديا، فينال حريته ككل، هذا ما يتحدّد في قول الإبراهيمي واصفا نهج عمل الجمعية: "أول يد بيضاء لها في هذا الباب تحرير العقول من الأوهام والضلالات في الدين و الدنيا، وتحرير النفوس من تأليه الأهواء و الرجال، وإن تحرير العقول أساس لتحرير الأبدان، و أصل له، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا."⁽²⁾

ومن خلال المسعى التوعوي التنويري يتبين أن العقل الإصلاحي من خلال كتابات الشيخ الإبراهيمي وعبد الحميد بن باديس ينحوا منحى وظيفيا لا ماهويًا، لأن التعريف الماهوي يحاول أن يجعل العقل ملكة مقدسة معصومة، بيد أن التعريف الوظيفي يجعله مجرد أداة مشروطة بقيم الاستخلاف والتعارف. ومنه نادى الجمعية بضرورة الاحتفاء بنعمة العقل وتقديره تقديرا يليق بمكانته، وهذا ما يُستخلص من خلال بنود جمعية العلماء التي تحدد هويتها وطريقة تفكيرها وأهدافها، إذ تنص المادة السادسة من البند الثاني: « يُمَجِّدُ الْعَقْلَ

(1) - عبد القادر بوعرفة، الشيخ البشير الإبراهيمي بين مطلب التنوير وحلم التنوير، ينظر: العلامة محمد البشير الإبراهيمي و آفاق الحداثة - سؤال التنوير - تقديم محمد الصادق بلام، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، ط1، 2016، ص 296.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص56.

وَيَدْعُو إِلَى بِنَاءِ الْحَيَاةِ كُلِّهَا عَلَى التَّفَكِيرِ» وفي المادة السابعة من البند ذاته «ينشر دعوته بالحجة والإقناع لا بالختل والإكراه.»⁽¹⁾

أما عن كيفية التنوير وطريقته فيكون من خلال ضخ دماء وروح جديدة لدى الفرد الجزائري، من خلال تجديد خطابي ذو تأثير على الجانب الشعوري لأفراد الأمة حتى تستيقظ تلك النفوس من سباتها الفكري، فتذكرها بماضيها وشرفها التليد فيزداد حماسها، ويزول عنها بأسها و انتكاساتها، وهذا من شأنه أن يُهَيِّئَ العقول والنفوس للتغيير و الإيمان به، وترسم طريقها من خلال تبني التعليم والتربية منهاجاً وطريقاً، فيساهم بذلك كل فرد في بناء ذاته من جديد، فيشكل أداة تنويرية من جهة، ويكون موجهاً لتلك الأداة بعمله على التحرر والتعلم من جهة أخرى، كحلقة تابعة لعمل المدارس ومختلف الوسائل التربوية. فمنطلق الإصلاح والتنوير هو وعي الإنسان بضرورته في ذاته والعمل عليه. " لأنَّ إصلاح الإنسان لا يمكن أن يكون إلا إذا كان الإنسان ذاته مستعداً للإصلاح." ⁽²⁾ وأن المجتمع يغير ذاته بذاته مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.⁽³⁾

هذا ما يمكن استنتاجه من خلال خطاب البشير الإبراهيمي للشعب الجزائري عقب حوادث الثامن ماي 1945م بدعوته إلى تغيير ذاته بذاته لا الاعتماد على الآخر، فكيف يكون التغيير إذا كانت الضحية تستكين إلى الجلاد؟ وتأبى الخلاص لذاتها. " لك الله أيها الشعب المعذب، لقد هُنتَ عليهم حين هُنتَ على نفسك، إنهم ما ضربوك إلا بعد أن جرُّوك، وما جرُّوك إلا بعد أن عرفوك، وما جنوا علينا و اتهموك إلا بعد أن قرؤوك وفهموك، فلا تلمهم و لم نفسك، وغير ما بنفسك و هلم... " ⁽⁴⁾ فإيقاظ شعور الأمة و إقامة وبناء وعي فردي وجماعي يؤكد أن الإنسان ذاته هو مبدأ التربية و التغيير. وقد مثل ذلك المنطلق الأول الذي عملت عليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مشروعها الإصلاحي التنويري. وما يؤكد أهمية ذلك مدى التربية والاستثمار في تربية الإنسان من خلال إصلاح الفرد وتنشئة المواطن الصالح. وهذا ما يتضح من خلال توضيح الإبراهيمي لعمل الجمعية أيضا في قوله: " فأول ما يجب أن تبدأ به هو تقديم و توجيه نصائح عامة ونداءات صارخة تستفز بها شعور الأمة، و تثير نَحْوَتَهَا وحماسها لتحمل على الأمة بِقَضِّهَا وَقَضِيضِهَا حَمَلَةً

(1) - عبد القادر بوعرفة، الشيخ البشير الإبراهيمي بين مطلب التنوير و حلم التنوير، ص 300، 301.

(2) - المرجع نفسه، ص 297.

(3) - سورة الرعد، الآية 11.

(4) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 379.

صادقة، وأقل ما يكون لهذه النصائح من التأثير أن تهيئ الأذهان و تشرع الطرق و تجعل لنا من الخامل الكسلان عوناً على نفسه." (1)

إن التنوير الإبراهيمي تنوير لا يعتمد على مجرد خطابات تجديدية و روحية فقط مما قد يقيه منعزلاً في الجانب النظري فقط، بل هو تنوير يتجسد أيضاً من خلال العمل الميداني كتنوير بالقُدوة و الممارسة. إذ إن الخطاب لا يصدق و لا تثبت صحته إلا إذا صدقه العمل. و النظرية يثبتها التطبيق والتجسيد الواقعي. إذ يعدّ المسعى الإصلاحي والتنويري للإبراهيمي كتكملة لمسار التنوير والتثوير التعليمي التربوي الذي عمل عليه الإمام عبد الحميد بن باديس، وساهم من خلاله في إعادة الحياة للكثير من النفوس. "فالثورة التعليمية التي أحدثها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه، و التعاليم الحقّة التي كان يبثها في نفوسهم الطاهرة النقية، والإعداد البعيد المدى الذي كان يغذي به أرواحهم الفتية، فما كادت تنقضي مدة حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات من فكر صحيح وعقول نيرة و نفوس طامحة و عزائم صادقة." (2)

ومنه تعد التوعية و التنوير بمثابة تهيئة مسبقة للعقل، للعقل الفردي و العقل الجماعي، العقل الفردي حتى يغير كل إنسان من ذاته على الأقل، فمنطلق الوعي الجماعي هو الوعي الذاتي، فإذا استنار العقل الفردي استنار العقل الجماعي، وإذا توعّى الضمير الفردي توعّى الضمير الجمعي. أما التنوير والتوعية العامة فهما ما يؤديان إلى توحيد الرؤى وفتح الآفاق للعمل من خلال احتضان الأمة للخطاب الإصلاحي والتربوي والعمل على تحقيقه، وهذا ما يتمثل في قول الإبراهيمي مبيناً ما تمكنت الجمعية من تحقيقه متجاوزة مختلف الصراعات بهدف بناء الحمة واتحاد وطني: "فبذلك التحرير الذي كان أساسه توحيد الله تمكنت الجمعية من توحيد الميول المختلفة والمشارب المتباينة، والنزعات المتضاربة، وبذلك التحرير أيقظت في الأمة قوة التمييز بين الصالح من الرجال والمبادئ... وبذلك التحرير أراحت الأمة من أصنام كانت تتعبدها باسم الدين و باسم السياسة، وبذلك التحرير زرعت البذرة الأولى لما يسمى الرأي العام في الجزائر، وتكون الرأي العام بمعناه الصحيح هو بلوغ الرشد بالنسبة للجماعات." (3)

(1) - الإبراهيمي، تقرير الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي عن الأمية، سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 76.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 115.

(3) - المصدر نفسه، ج 3، ص 56.

ومن أجل أن تحقّق جمعية العلماء غاياتها سعت إلى تنوير وتبصير الحاضنة الاجتماعية بدورها وتوعيتها بوظيفتها وموقعها، وفي سبيل تحقيق ذلك أيضا قامت بمراعاة العديد من الاعتبارات النفسية والاجتماعية والتربوية في تجسيدها للمسعى التوعوي والتنويري، فكانت مثلا تلقي: "محاضرات بلغة عامية أو قريبة من العامية، وأن يكون المحاضر المتجول مُبشرا لا مُنفرا، وأن لا يخرج في أحاديثه الخاصة والعامية على منهاج الجمعية، وأن يكون ملما بالدخائل النفسية لسكان تلك الناحية حتى يعرف من أين يأتيهم، وأن يكون ممثلا للجمعية بقوله و حاله، ومن الكمال أن يكون لكل مرسل علاقة شخصية بالناحية التي يرسل إليها أو ذكر شائع أو سمعة حسنة."⁽¹⁾ ومنه كانت الجمعية تدرس أحوال المجتمع الجزائري من جميع نواحيه الدينية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية حتى تبني رؤية وبرنامجا يتوافق مع أهدافها تسير عليه في توعيتها وحتى يتلاءم مع أهلة كل منطقة وخصوصياتهم الثقافية والاجتماعية.

وإن أكد الشيخ الإبراهيمي على التوعية و التنوير كمنطلقين في منهجه التربوي نظرا لدورهما في تهيئة الأرضية التي يتجسد عليها المشروع التربوي والإصلاحي، خصوصا القاعدة الاجتماعية التي يرتبط نجاح أي مشروع بها. فذلك يظهر من خلال مدى تهيئتها و إعدادها لذلك المشروع. وفي هذا يؤكد عبد القادر بوعرفة على ضرورة الاعتراف بأن أي خطاب فلسفي أو اجتماعي إذا لم يجد الحاضنة الاجتماعية فلا يكتب له النجاح الميداني بل سيبقى مجرد خطاب حالم. و يعتقد أن الخطاب الإصلاحي كان جدّ متقدّم من حيث الحمولة المعرفية وحتى اللغوية عن مستوى الحاضنة الاجتماعية، التي كانت تستقبل مقولات الدروشة والطريقة لكونها تنسجم مع المستوى المعرفي و اللغوي لفئات المجتمع الجزائري، بيد أن الخطاب الإصلاحي كانت الحاضنة تنفر منه لعدم قدرتها على استيعابه معرفيا و لغويا."⁽²⁾ هذا ما يبرز تركيز الإمام الإبراهيمي على ضرورة توعية الحاضنة الاجتماعية حتى تستوعب الخطاب الإصلاحي ثم تتبناه وتعمل به.

ومّا ساهم في تحقيق هذا المسعى وضع خريطة عمل في القطر الجزائري، توضح مناطق العمل وكيفيته، وتحديد خصائص الحاضنة الاجتماعية في كل منطقة. وهذا ما يحدّده القانون الداخلي للجمعية في فصله الثالث حول مقاصد الجمعية غاياتها و أعمالها، إذ تدعو المادة الواحد والسبعون من مواده، على تحديد ما يغلب على أهل كل منطقة من: " أخلاق صالحة أو فاسدة ودرجة استعدادهم للخير والشر، وأسباب ذلك،

(1) - الإبراهيمي، القانون الداخلي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الفصل الثالث: مقاصد الجمعية و غاياتها و أعمالها، المادة 66، ينظر: من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص52.

(2) - عبد القادر بوعرفة، الشيخ البشير الإبراهيمي بين مطلب التنوير وحلم التنوير، ص294.

وما يكثر في كل منطقة من البدع و التقاليد الموروثة. وأثر تلك التقاليد في مجتمعهم الخاص، فإذا أنجزت الجمعية هذا العمل تكون قد مهدت الطريق لنفسها و أنارت السبيل ورحمت من القوت في المستقبل أضعاف ما تضييعه.⁽¹⁾

إن دعوة الإبراهيمي للتنوير تشمل زاويتين، تتمثل الأولى فيما يعكسه واقع المسلمين المزري على جميع الأصعدة وخاصة الجهل المركب والبعد عن العلم، والواقع الجزائري ليس بمنأى عن ذلك، وتتمثل الثانية في الاستشهاد بما وقع في أوروبا من حركة تنويرية أدت إلى تغيير وجهها ودخولها مسرح التاريخ بقوة. فالتنوير عند الإبراهيمي يقترن بالتجربة العقلية للإنسان، فالله قد وضع في كل إنسان ذلك النور الذي يتجاوز به القصور والعجز.⁽²⁾ ويظهر في كثير من مقالات الإبراهيمي وخطاباته التأكيد على دور النور الرباني الذي منحه الله للإنسان، على سبيل المثال ما يتضمنه قوله: "حيّاكم الله وأحياكم، و أحيا بكم الجزائر، وجعل منكم نورا يمشي من بين يديها ومن خلفها. هذا هو الصوت الذي يسمع الآذان الصم، وهذا هو الدواء الذي يفتح العين المغمضة، وهذه هي اللغة التي تنفذ معانيها إلى الأذهان البليدة، وهذا هو المنطق الذي يقوم القلوب الغلف، وهذا هو الشعاع الذي يخترق الحجب و الأوهام."⁽³⁾

يتضح من النظرة الإبراهيمية مدى ضرورة التأسيس لوعي مجتمعاتي يحتضن الخطاب الإصلاحية عامة والخطاب والمشروع التربوي خاصة، ذلك المشروع الذي سهر الإبراهيمي على تجسيده وتفعيله لدى الناشئة بداية من التنوير التربوي والتعليمي. وهذا ما يعكسه الانهماك الكبير للشيخ الإبراهيمي في العمل على تصحيح موازين الإدراك لدى أفراد المجتمع حتى ينحوا بهم بثبات اتجاه ما يهدف إلى تحقيقه من تطلعات وإصلاحات. لأنه كلما ترسخت الفكرة لدى الإنسان بعد أن يعيها و يُدركها بعقله إدراكا تاما، اتجه صوب تحقيقها بإرادته وبضمير داخلي دون الحاجة إلى ضمير خارجي يفرضها عليه، عاكسا بذلك نضجه ووعيه الفكري الذي اتسع لفهم الحياة ودوره في صناعة مستقبله وبناء حياته مؤسسا لمَدِينَةٍ سليمة بتعبير الإبراهيمي، عاكسا المعنى الحقيقي للمسلم، الذي ترتبط استقامة دينه باستقامة حياته ومجتمعه ووظيفته فيها، فالاستقامة تشمل الاستقامة في الدين والحياة بمختلف جوانبها. لأن المسلم في نظر الإبراهيمي: "لا يكون مسلما حقيقيا

⁽¹⁾ - الإبراهيمي، مقاصد الجمعية و غاياتها و أعمالها، المادة 66، ينظر: من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص54.

⁽²⁾ - عبد القادر بوعرفة، الشيخ البشير الإبراهيمي بين مطلب التنوير وحلم التنوير، ص304.

⁽³⁾ - بيان مكتب جمعية العلماء بالقاهرة وقعه: محمد البشير الإبراهيمي و الفضيل الورتلاني، القاهرة: 15 نوفمبر 1954م. ينظر: محمد البشير الإبراهيمي في قلب المعركة، تصدير أبو القاسم سعد الله، دار الأمة، الجزائر، دط، 2007، ص19.

مستقيما في دينه على الطريقة حتى تستقيم اجتماعيته فيحسن إدراكه للأشياء وفهمه لمعنى الحياة وتقديره لوظيفته فيها، وعلمه بحظه منها، وينضج عقله وتفكيره ويؤلم بزمانه و أهل زمانه.⁽¹⁾ و مما لا شك فيه أن الإبراهيمي استفاد كثيرا من تجربة التغيير في العالم الإسلامي، فلم ينتهج أسلوب العمل السياسي وحده لتوعية الفرد الجزائري كما فعل جمال الدين الأفغاني، ولم يكتف بالمسعى التربوي كما فعل محمد عبده، بل عمل على الجمع بينهما، ونظر إلى عملية الإصلاح نظرة شمولية متكاملة تقدم إضافة هامة في بناء الإنسان.⁽²⁾

ونظرا لأن التوعية و التنوير يمثلان منطلقين أساسيين للتربية عند الإبراهيمي، فإنهما لا يقتصران على تنوير عقلي فقط، بل يمثلان تنويرا شاملا يلامس كيان الفرد ككل، كتنوير عقلي و روحي و ديني واجتماعي وسياسي، تنوير على مستوى الواقع، وإحداث تنوير تربوي كفيل بانبعث حركية فردية و اجتماعية تكسر الجمود والانتكاسة الفكرية والحضارية التي يرجع السبب الفاعل فيها إلى الاستعمار و استدمارته. أمام هاته التحديات التي واجهها الإمام الإبراهيمي والطريق التنويري الإصلاحية الذي سعى إلى رسم معالمه وتحديد ملامحه وفق خطى تربوية موزونة، تزن موضع الرجل قبل الخطو، وتهدف إلى التبصير قبل التسيير، وإلى النظر قبل التطبيق، جعلت من الإمام الإبراهيمي مختلفا كثيرا عن نظرائه من رموز الإصلاح في العالم الإسلامي في ظل واقع مأساوي عايشه الشعب الجزائري آنذاك.

من خلال ما سبق تبين أن البشير الإبراهيمي اعتمد على التوعية والتنوير كمنطلق قام عليه منهجه التربوي ومشروعه الإصلاحية، هذا ما يدفع إلى التساؤل عن الوسائل التي اعتمدها في منهجه. فما الوسائل والأساليب التي اعتمدها الإبراهيمي في منهجه التربوي وساهمت في تحقيقه وتجسيده لمشروعه؟ وكيف تجسد هذا المسعى التربوي التنويري في ظل واقع متأزم فرضه الاستعمار وعارض فيه كل ما من شأنه النهضة بالشعب الجزائري خاصة على المستوى الفكري؟

2.2. الوسائل و الوسائط.

المنهج المعتمد في التربية لدى الشيخ الإبراهيمي يتجسد من خلال عدة وسائل وأساليب ووسائط بهدف تحقيق غاياته، إذ لا يمكن تحقيق أي مشروع تربوي أو تغييرية إلا إذا قام واعتمد على آليات فعالة.

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 115.

(2) - محمد زمران، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 176، 177.

وهذا ما لم يغيبه الإبراهيمي في منهجه رغم قلة الوسائل وشح الأساليب نتيجة الواقع الذي كان مفروضا على الجزائر آنذاك. فقد اعتمد على ما توفر لديه ولدى جمعية العلماء في تلك الفترة من مساجد ووسائل تربوية وتثقيفية. أهم تلك الوسائل التي اعتمدها المدرسة، والتي اعتمدها الاستعمار هو الآخر موظفها إياها على حسب أيديولوجيته لتحقيق غاياته الاستعمارية والسيطرة على الشعب الجزائري. فهذه الوسائل والأساليب تجمع بين وظيفتي البناء والهدم على حسب الأيديولوجية الموجهة لها. لذلك سعى الإبراهيمي إلى استثمار مختلف الأساليب والوسائل المتاحة كتتمه للمسعى التربوي التنويري ولإنجاح الإصلاح التربوي، موظفا كل ذلك كأيديولوجية ثورية مناهضة للأيديولوجية الاستدمارية السائدة.

ومنه اعتمد البشير الإبراهيمي على العديد من الوسائل والوسائل شملت مختلف المؤسسات التربوية المتمثلة في المدارس والمساجد ودور التعليم، إضافة إلى اعتماده على الصحافة من خلال ما يتم نشره من مقالات في الجرائد والمجلات، خصوصا التي أشرفت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعبرت عن الحاجيات الأساسية التي ينبغي العمل عليها. دون إغفال ما تعرّض له توظيف هذه الوسائل من عوائق وعراقيل وظّفها الاستعمار لاعتراضها والحد من نشاطاتها من جهة، وصعوبة توفيرها نظرا للوضع المادي والاقتصادي المنهار آنذاك من جهة أخرى، خاصة وأن دعم هذه الوسائل كان من طرف عامة الناس.

وقد ركّز الإبراهيمي على أن تكون هذه الوسائل ذات فاعلية، وفعاليتها تظهر من خلال القائمين عليها، فالوسائل لا تعدّ ناجعة إذا افتقرت إلى الفاعلية و الفعالية، فتكون فاعلة من خلال تأثيرها في أفراد الشعب واستقطابها لهم، فعالة من خلال الموجهين و المشرفين عليها فتكون منبعا للنشاط والتغيير ونورا يحتذي ويقتدي به أفراد المجتمع، وتمثل هذه الوسائل و الوسائل في:

2. 1. 2. المدارس :

تعدّ المدرسة أول مؤسسة اجتماعية تحتضن الطفل بعد الأسرة و يتفاعل معها - باستثناء دور الحضنة أحيانا- فالمدرسة بمثابة الأسرة الثانية للفرد، بل وتعدّ المدرسة الأسرة الأولى التي احتضنت الكثير من الأطفال نتيجة التّثيم الذي تعرضوا إليه بفعل الاستعمار، ففيها تتشكل وتتحدد معالم شخصية الطفل مستقبلا من خلال تربيته وتكوينه. ومنه لا يمكن أن يتأسس أي مشروع تربوي إلا ومثّلت المدرسة أهم وسيلة فيه.

وتعدُّ المدرسة أداة ووسيلة ضرورية للوظيفة التربوية التعليمية، خاصة أمام التطورات الحاصلة في الحياة إذ لا تستطيع الأسرة أن تقوم بكافة بوظيفة التربية لوحدها، إضافة إلى ذلك فإن المدرسة هي الأداة الأنجع لمقارعة سياسة التجهيل التي فرضها الاحتلال، ومجابهة سياسته لنشر وتوريث الجهل والتبعية لدى الجزائريين، ومنه أكد الإبراهيمي على ضرورة إقامة مدرسة جزائرية في مقوماتها حتى تحد من تلك السياسة الاستعمارية المطبقة وهذا ما سيتحدد في رؤيته للمدرسة.

المدرسة في نظر الإبراهيمي :

يحدّد الإبراهيمي رؤيته للمدرسة مؤكداً في نفس السياق على ضرورتها، مبيناً أن حياة الأمم في هذا العصر لا تتأسس ولا تقوم إلا على المدارس. وهذا ما يجب أن يدركه كل مصلح أو منظر تربوي، ويجب أن يعيِّد أفراد المجتمع الجزائري، فهي التي تحدّد مسار الأجيال وطريقهم في الحياة بفضل ما تقدمه من علوم ومعارف. فتكون بمثابة المرشد والموجه لهم، وأي إهمال لهذه الوسيلة يكون من عواقبه عدم بلوغ الغاية المنشودة. مُستدلاً الإبراهيمي في ذلك بما بلغته الأمم المعاصرة من تطور وتسبقها في تطوير التربية والتعليم، والعمل على تحسين جودة المدرسة. وهذا ما يتضح من خلال قوله: "فحياة الأمم في هذا العصر بالمدارس، ما في هذا شك إلا في قلوب ران عليها الجهل، و غانَ عليها الفساد، ونفوس ختم عليها الضلال، وضرب على مشاعرها المسخ و طال عليها الأمد في الرق، فصدت منها البصائر، وعميت الأبصار فتغير نظرها في الحياة ووسائلها، فرضيت بالدون و لاذت بالسكون. الحياة بالعلم، والمدرسة منبع العلم، و مشرع العرفان، وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة، فمن طلب هذا نوع من الحياة من غير طريق العلم زل، ومن التمس الهداية إليه من غيرها ضل، وحياة الأمم التي نراها ونعاشرها صدق على ذلك."⁽¹⁾ فخير دليل على وظيفة المدرسة العناية الفائقة التي تحظى بها المدرسة والتربية في حياة الأمم المتطورة في الفترة المعاصرة كونها تمثل استثماراً في العنصر البشري.

فالمدرسة هي الحاضنة الاجتماعية الثانية التي ينشأ فيها الفرد وتتشكل فيها شخصيته بعد أسرته. كما تعكس في نظر الإبراهيمي استثمار المجتمعات في الإنسان الذي تبقى جوانب الحياة الأخرى في المجتمع ناقصة بدونها إن لم يعمل على إتمامها والاستثمار فيها، فلا فائدة من المصانع إن لم يوجد العقل الإنساني الذي يوجهها كما لا فائدة للجسم بلا قلب يبعث فيه الحياة، فالمجتمعات بلا مدارس هيكل بلا روح، وجسد بلا

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 258.

عقل، فالمدرسة صانع ومنبع الحياة في المجتمعات. فيجب التركيز على بنائها والاهتمام بها قبل التوجه إلى أشياء أخرى مبينا الإبراهيمي هذه الأهمية في قوله: "تبنى الأمم ما تبني من القصور، وتُشَيِّد ما تُشَيِّد من المصانع. وتُنسَّق ما تُنَسَّق من الحدائق. وتحفّ كل ذلك بالسور المنيع، فإذا ذلك كله مدينة ضخمة جميلة، لكنها بغير المدرسة عقدٌ بلا واسطة، أو جسم بلا قلب، وإذا ذلك كلّهُ إرواء للغرائز الحيوانية لا غير، وإرضاء للعواطف الدنيا بالمتّع واللذات، والتباهي وطلب الذكر. أما إرواء العقل والروح، وإرضاء الميول الصاعدة بهما إلى الأفق الأعلى فالتمسها في المدرسة لا في القصر ولا في المصنع".⁽¹⁾

ورؤية الإبراهيمي هذه ترتبط برؤية مالك بن نبي إلى حد بعيد، عندما أكد هذا الأخير على أن منطلق النهضة لا يكون إلا من خلال الاستثمار في العنصر البشري و العلوم الاجتماعية قبل العلوم المادية، والاستثمار في الإنسان لا يكون إلا من خلال توفير الوسائل والأساليب لتشكيله، ولا يتم هذا إلا بفضل المدرسة. فقد بين أن "العلوم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية تعدّ اليوم أكثر ضرورة من العلوم المادية، فهذه تعدّ خطرا في مجتمع ما زال الناس فيه يجهلون حقيقة أنفسهم، ومعرفة إنسان الحضارة وإعدادة أشق كثيرا من صنع محرك أو ترويض قرد على استخدام رباط عنق".⁽²⁾

يحدّد الإبراهيمي معالم المدرسة التي يتطلع إليها في تربية الأجيال فهي المدرسة العربية التي تَسْقِلُ الفكر والعقل وتنيرهما. وتوجه الجيل الناشئ إلى الإسلام والعروبة، وإلى الشرق وروحانيته، فعلى المدرسة يتوقف واجب كبير و حظُّ هذا الجيل في الحياة يرتبط بها، والغاية من هذه المدرسة هي تربية الجيل و تعليمه، وتصحيح نظرتة وفهمه للحياة.⁽³⁾ فتحليل الإبراهيمي للواقع التربوي والتعليمي الذي كان سائدا في الجزائر، من خلال التعليم الفرنسي، أو التعليم العربي الذي ساد في بعض المساجد، أو الذي ميز جامعي الزيتونة بتونس والأزهر بمصر أو في المدينة المنورة والمشرق العربي. هو ما مكّنه وساعده على بناء تصوّره للمدرسة الجزائرية وللنظام التربوي والتعليمي الذي ينبغي أن تسير عليه. والذي تتطلع إليه الأمة فيعبر عن خصوصياتها، ويقابل ويجابه التعليم الفرنسي الذي كان يريد تفويض المدرسة الجزائرية والقضاء على شخصيتها.

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 258.

(2) - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ت عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002، ص 38.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 274.

فالتعليم الفرنسي تعليم موجه هدفه القضاء على الشخصية الجزائرية ومقوماتها، وإنتاج أشخاص تابعين لمصالح الاحتلال خادمين له، لا علاقة لهم بهذا الوطن، فهو إن عَلَّم شيئاً غَيَّب عنهم أشياءً أخرى، بل وحرّمهم مما يتلقاه المتعلّمون في الأمم الأخرى من معارف وعلوم بهدف إبقائهم في تبعية له. وهذا ما ظهر في تلك المقررات الدراسية الاستعمارية التي كانت تدرس تاريخًا غير التاريخ الجزائري، وقيّمًا غير قيّم الشعب الجزائري، وأخلاقًا غير الأخلاق الدين الإسلامي، ولغة ليست بلغته. إذ يبين الإبراهيمي أن "التعليم الأجنبي - على تفاهته في الكيف وقلته في الكم، وعلى اضطرارنا إليه و إقبالنا عليه - يسبقه جهل، وتقترن به آفات، وتعقبه مفساد، وهو على ذلك كله يفتح عيننا، ليعمي عيننا ومن بلغ إلى غايته منّا أصبح متنكرا لماضيه ودمه وقومه، لأن ذلك التعليم وجدّه فارغا فمأله بما يشاء هو لا بما نشاء نحن".⁽¹⁾

وهناك العديد من النماذج التي تفضح التعليم الفرنسي وتوضّح خطورته على الأجيال، هذا ما يظهر في بعض الكتب المدرسية التي اعتمدها الاحتلال في التدريس، إذ أنّها تسعى إلى تكريس قيم الثقافة الفرنسية لدى الجزائريين، وتحبيب فرنسا إليهم، فعلى سبيل المثال كتاب دروس الجغرافيا للسنتين الأولى والثانية ابتدائي، يعرض في بعض دروسه الانفتاح الفرنسي على الجزائر، ويدعو التلاميذ إلى التفكير والتأمل من خلال الإشارة إلى التكوين الجغرافي لفرنسا مقارنة بالجزائر، خصوصا على المستوى العمراني مرفقين ذلك بمجموعة من الصور كشوارع قوس النصر بباريس، وما يتضمنه من هياكل وجمالية مقارنة بالشوارع الجزائرية وبيوتها، وهذا من شأنه أن يجذب المتعلمين إلى فرنسا ويجيبها لهم، واصفا الحياة الأوروبية بالجديدة، وذات المستوى المعيشي الأفضل، وبها مؤسسات ومدن جديدة مقارنة بالجزائر والمسلمين.⁽²⁾

وفي مرسوم 14 جويلية إلى 06 أوت 1850 الذي قام بإنشاء مدارس للذكور والبنات الجزائريين، نصّ على أن التعليم الابتدائي مجاني، يشمل البرامج التعليمية للدروس التي تترك في يد مديري المدارس، وفي الحقيقة فتلك البرامج لم تطبق سوى على مستوى الذكور حيث يدرسون اللغة العربية، الفرنسية، أدوات الحساب، أما في مدارس البنات تم استبدال الحساب بأعمال الخياطة والنسيج.⁽³⁾ فتعليم البنات الجزائريات الأصليات لا

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 275.

(2) - Max Marghrand, Robert Tinthoin, *Géographie, du milieu local Algérien a la Géographie Générale, cours élémentaire 1^{er} et 2^{er} Années, éditions L.Fouque, Oran 1954, p79,80.*

(3) - Tsourikoff Zénaide, *L'enseignement dex filles en afrique du nord, Editions A.Podone librairie de la cour d'appel et de l'ordre des avocats, 13 Rue soflot, Paris, 1935, p 48.*

يكون وفق نظام بيداغوجي خاص، بل يتعلّم مفاهيم اللغة الفرنسية، القراءة، الأخلاق والرسم بالإضافة إلى برنامج تعليمي في التنظيف والطبخ والاقتصاد المحلي⁽¹⁾. ما يبرز كيفية إهمال تربية البنات وتوجيههم إلى خدمة البيوت لا غير من خلال التركيز على تعليم الطبخ والتنظيف، وكأن غايتهم إنتاج خادمت وعاملات لهم لا غير.

ومنه فالمدرسة التي يروم الإبراهيمي تحقيقها هي على النقيض من المدرسة الفرنسية أدوارا ونظاما تعليميا، فهي مدرسة ذات تربية وتعليم عربي معاصر مصاحب للتطورات الحديثة، وبهذا وضّح طبيعة المدرسة في منهجه التربوي، فهي ليست المدرسة التقليدية التي تقدس الماضي وتبقى منغلقة فيه. ولا المدرسة التي تفتتح بكل جوانبها على الحياة المعاصرة أو ما يعرف اليوم بالعملة فتدوب فيها فاقدة أصالتها، بل هي المدرسة العربية المعاصرة، التي تقوم على التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، تحافظ على أصالة الشخصية الوطنية وجذورها الضاربة في التاريخ، وتفتتح في نفس الوقت على ما استجد من العلوم المعاصرة. يبيّن ذلك في قوله: "الأمة تريد تعليما عربيا يسائر العصر وقوته ونظامه، لا تعليما يحمل جراثيم الفناء، وتحمله نُذر الموت. والأمة تريد تعليما عربيا عليها طابعها، وفيه أثر يديها، وله مالها من روح، وعليه ما عليها من سمات."⁽²⁾

فالتاريخ أثبت أن القوميات المقهورة اعتمدت على التربية والتعليم في كفاحها من أجل استرجاع مقومات شخصيتها القومية، ويبدو هذا في ألمانيا خلال القرن التاسع عشر، ونفس الأمر في الجزائر طوال فترة احتلالها (1830-1962) من طرف فرنسا، وفي معظم القوميات التي تعرضت للاحتلال العسكري. وفي العصر الحديث اعتمدت القوميات في أوروبا وغيرها على التعليم كسلاح فعال لدعم كيائها، وإبراز معالم شخصيتها القومية الخاصة. وكان الفيلسوف الألماني فيخته Fichte (1762/1814) ينادي بوجود الاعتماد على التعليم في بعث الشخصية القومية الألمانية التي كانت ممزقة في القرن التاسع عشر إلى كيانات ضعيفة.⁽³⁾ إذ يقول في كتابه الكبير «نداء إلى الأمة الألمانية» عن العناصر المكونة للأمة: "إن وجود أمة من الأمم بوجود إنيتها التي هي شخصيتها، وإن هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاثة: الدين واللغة وحب الوطن. وإن تربية الشعب على التمسك بالدين والأخلاق هي أساس كل حكومة، وعلى الحكومة أن تؤسس

⁽¹⁾ -Ibid, p50.

⁽²⁾ - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 283، 284.

⁽³⁾ - تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية (1931-1956)، ط2، 1981، ص 48، 49.

معهدا دائما لهذه التربية الدينية. وهذا المعهد جزء لا يتجزأ من مؤسسات كل دولة حكيمة طيلة دوامها.⁽¹⁾ هذا ما يفسر ضرورة الاهتمام بالمدرسة وتأسيسها عند الإبراهيمي، كمؤسسة من مؤسسات الدولة التي تطمح إليها الأمة الجزائرية، ولا يكون ذلك إلا بتربية أفراد الشعب، وغرس الوطنية وحب الدين واللغة في نفوسهم، ما يضمن تربية الأجيال ويصلهم بتاريخهم ويدفعهم إلى بناء مستقبلهم من منطلق مقوماتهم الوطنية.

ويؤكد الإبراهيمي في مقام آخر على طبيعة المدرسة ووظيفتها قائلاً: "أنها" السبيل القويم الذي يؤدي إلى حفظ الجيل الجديد من هذه الشرور المتوارثة، و لتوثيق عُرى الأخوة بين أفرادها، و إلى توحيد أفكاره ومشاربه واتجاهاته، وإلى تصحيح فهمه للحياة، وتسديد نظرته إليها، وتشديد عزمته في طلبها - هو المدرسة العربية التي تصقل الفكر والعقل واللسان و تسيطر عليها، وتوجه الجيل الناشئ إلى الإسلام والعرب."⁽²⁾ وبهذا يقدم تصوّراً لخصائص المدرسة الوطنية الجزائرية التي يجب أن تسعى إلى إقامتها الأمة، ويركّز في تحديد معالمها على خاصيتين مهمتين تتمثلان في:

الخاصية الأولى: أن تكون مدرسة ذات تعليم عربي في لغتها وأهدافها ومضامينها، بحيث ينسجم تعليمها وتربيتها مع مقومات الأمة و موروثها الحضاري.

الخاصية الثانية: أن يكون التعليم فيها وطنياً لا مستوردًا، ولا تُسهم في صنعه أفكار أجنبية، فلا بدّ أن يكون نابعاً من عبقرية الأمة، وعليه طابعها وخصوصياتها، بحيث تصنعه بنفسها ووفق إرادتها، وتُضمّنه الروح التي تعيش في أعماق كل فرد من أفرادها، وفي هذا دعوة للحكومة الجزائرية التي ستتولى تنظيم التعليم في عهد الجزائر المستقلة أنّ مسؤولياتها هي تشكيل نظام تعليمي وطني يستجيب لحاجات الأمة ويتلاءم مع خصوصياتها.⁽³⁾ بعد توضيح الإبراهيمي لطبيعة المدرسة وضرورتها ودورها في الأمة، فإنه عمل جاهدا على تجسيد تلك المدارس واقعياً، وذلك من خلال بناء تلك المدارس و إعمارها بالتلاميذ.

(1) - مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1991م، ص 367، 368.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 302.

(3) - عبد القادر فوضيل، التربية عند الإبراهيمي، ص 43.

إنشاء المدارس :

بعد أن وضّح الإبراهيمي تصوره للمدرسة الجزائرية التي تطمح إليها الأمة، مبينا بأنها ذات تعليم عربي معاصر يربط الأمة بماضيها ومستقبلها، فإنه سعى جاهدا إلى تجسيدها واقعا، فقد عمل مع جمعية العلماء على إنشاء مدارس عصرية بصفة كبيرة، بداية من المدارس الابتدائية والإعدادية الثانوية. وبفضل الجهود المتضافرة استطاعت جمعية العلماء المسلمين تشييد أكثر من 150 مدرسة ابتدائية ومتوسطة، ومعهدا ثانويا هو معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس، وعددا كبيرا من النوادي الثقافية والتربوية والمساجد الحرة في كامل أنحاء الجزائر.⁽¹⁾

وكان التركيز على مدارس جمعية العلماء نظرا لارتباطها بالإبراهيمي وارتباطه بها أكثر من خلال إشرافه على الكثير منها، فلم تؤسس مدرسة من المدارس العربية في الجزائر والتي توصف بصفة « الحرة »، ولا سيما بعد وفاة عبد الحميد بن باديس إلا وللإبراهيمي الفضل الجَمّ والسعي الحثيث في إنشائها، ولعل أعظمها مدرسة دار الحديث بتلمسان والتي له اليد الطولى في إنجازها، والتي أمست تخرج الكثير من المثقفين حاملي أمانة الجزائر، وإنك لتجد الكرسي الذي كان يدرّس فيه الإبراهيمي، محتفظا به في تلك المدرسة إلى يومنا هذا.⁽²⁾

وتمثل مدرسة دار الحديث ونظيراتها من المدارس الترجمة الواقعية على إعادة بعث الروح في الشخصية الوطنية ومقوماتها، وهي شاهد حي على صدق النهضة الإسلامية العلمية ونضجها في الجزائر، وأنها قامت ببعث الشعور بالوجود لدى الجزائريين، ولعل ذلك ما دفع بالاحتلال إلى تعطيلها بعد ثلاثة أشهر فقط بعد إنشائها تحت ذريعة جمهرة الناس من طرف الإبراهيمي بدون رخصة، وقد مسّ التعطيل دروس التعليم الابتدائي.⁽³⁾ وفي هذا لدليل على الدور المهم لهذه المدارس في تنشئة الأجيال ومقارعة الاستعمار، وتوضيح مدى إدراك المستعمر لخطورة المدارس على وجوده في الجزائر.

⁽¹⁾-تركي رابع عمارة، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية (1931-1956) ورؤساؤها الثلاثة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط1، 1425هـ، 2004م، ص101، 102.

⁽²⁾- عبد المالك مرتاض، الموسوعة التاريخية للشباب - محمد البشير الإبراهيمي، ص22، 23.

⁽³⁾- الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص312، 313.

نظام المدارس ومنهجها :

سعى الإبراهيمي إلى إقامة منظومة تربوية مدرسية إسلامية عربية تجمع بين الخصوصية الثقافية الإسلامية، وإحيائها لدى أفراد المجتمع، مع ضرورة ربطها بالأنظمة العصرية في التربية والتعليم قدر المستطاع، وهذا ما سعت إليه جمعية العلماء المسلمين، "فخطت خطواتها في التعليم العربي الإسلامي على نظم عصرية، وكانت خطواتها الأولى تحبيب العلم إلى الجماهير بواسطة الدروس الدينية والمحاضرات الاجتماعية ليساعدهم الجمهور إلى الغاية المقصودة. وهي تعليم الناشئة وإحياء الدين في نفوسها والعربية في ألسنتها، وحارب الاستعمار رجالها فصدوا له حتى قهره ولهم اليوم نحو مئة وخمسون مدرسة عربية حرة تحتوي على نحو خمسين ألف تلميذ من بنين وبنات، ولهم معهد ثانوي يحتوي على ألف وخمسة تلميذ." (1)

وفي تحديد هذا النظام بيّن الإبراهيمي أسلوب الجمعية في التعليم، ومنها تعليم العربية الذي يعد أحد مفاخرها، فهي تكلف الأساتذة بتعليم التلاميذ "أبسط القواعد في أسهل التراكيب، ثم تمكينها في نفوسهم بالتمرينات التطبيقية، والحرص على إشرابهم معنى ما يقرؤون، والاجتهاد في تربية ملكة الذوق والاستنتاج في نفوسهم، وفي إصلاح اللهجات التي حرّفتها العامية عن سبيلها العربي، وتقويم اللسان على الحروف، وهياتها ومخارجها، والتشجيع على التكلم أمام الناس بما يمليه الخاطر من غير اعتماد على وحي معلم أو كاتب واقتلاع تلك العادة السيئة التي كانت سائدة في المكاتب عريقة في الأوضاع المنزلية وهي عادة الهيبة والحصر." (2) فهي تتبنى أسلوبا تعليميا تحريريا للفرد المتعلم، يجعله معتمدا على ذاته ويتخلص من التبعية للمعلم وللكتاب بخلاف ما كان سائدا في التعليم السابق الذي انتقده الإبراهيمي بشدة. ويتضح ذلك من خلال التأكيد على التكلم بوحى العقل لا المعلم، ومما استنتجه المتعلم وتوصل إليه من معارف بذاته، حتى يتحرر اللسان والفكر، ويطبق ما تعلمه من قواعد ولغة فيستقيم في لسانه، ويساهم في تعلم الآخرين المحاورين له، خاصة العوام من الناس فيصوب لغتهم وينقلها من اللهجات العامية نحو اللسان العربي الفصيح.

وهذا من شأنه أن يبعث الفعالية لدى المتعلمين ويؤسس لثقافة الاستقلال في الرأي بتشجيع ثقافة الاختبار والنقد والاستدلال. فلا طريق لبلوغ ذلك إلا من خلال الشجاعة الأدبية والنفسية، وهذا ما يستوجب إعادة النظر في طرائق التعليم، برامجه ومصنفاته، ومستوى تحصيل معلميه، إضافة إلى الاستفادة من

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 266.

(2) - الإبراهيمي، موقف الجمعية في التعليم، ينظر سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 50.

الأمم المتقدمة في العلم والمعرفة والنظام، فالنظام أساس النجاح في التربية التعليمية والاجتماعية، وفي الحياة بصفة عامة. ولا ضير من الاستفادة من التجارب الإنسانية في مجال التنظيم.⁽¹⁾ فالإبراهيمي يسعى إلى تأسيس نظام تربوي ينطلق من مقومات الأمة ليعانق ما استجد من أساليب عصرية، مع ضرورة أن يكون للمتعلم دوره الفاعل في ذلك من خلال بناء أفراد متعلمين مسؤولين ومتحررين حتى يتمكنوا من تحرير وطنهم.

ويمكن تحديد النظام التربوي الذي سطره الإبراهيمي من خلال مقالاته التي كتبها عن التعليم العربي الحر، وكذا دروسه ومحاضراته التي كان يقدمها للمُعَلِّمين والمُتَعَلِّمين، إضافة إلى مدارس جمعية العلماء المسلمين التي كان يشرف عليها، وتمثل تلك المدارس في قسمين يتمثلان في: المدارس الابتدائية والمعاهد الثانوية.

المدارس الابتدائية ومنهجها :

ترتبط بالمرحلة الابتدائية وتتكون عموما من خمس إلى ست سنوات في المدارس التي أشرفت عليها الجمعية، تلقب بالمدارس العصرية وتنقسم المرحلة الابتدائية التي تكون فيها إلى ثلاثة أقسام:

1- القسم التحضيري: يتكون من سنتين، وسمي بالتحضيري لأنه يحضر ويعد الأطفال للمرحلة التالية. حيث يدرسون بواقع ثلاثين ساعة في الأسبوع، ومدة الحصة ثلاثون دقيقة. يقوم المنهاج الدراسي فيها على برنامج كامل يشمل المواد التالية: التعليم الديني والخلقي، القراءة، اللغة (محادثة)، الخط العربي، محفوظات وأناشيد، الحساب، تصوير (رسم)، أشغال يدوية، تمارين رياضية واستراحة، مقسمة وفق تقسيم زمني معين.

2- القسم الابتدائي: يتكون من سنتين، ويتكون المنهاج الدراسي فيه من المواد العلمية السابقة مع التوسع في دراستها، إضافة إلى مادتي التاريخ والجغرافيا.

3- القسم المتوسط: يتكون من سنتين، وهو نهاية المرحلة الابتدائية مع المحافظة على نفس المنهاج الدراسي والعلوم المقررة، مع توسيع تقتضيه طبيعة القسم.⁽²⁾

⁽¹⁾ - عمار جيدل، أسس بعث الفعالية في فقه الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، دار الوعي للنشر والتوزيع، روية، الجزائر، محرم 1432، ديسمبر 2010، ص48، 49.

⁽²⁾ - تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، مرجع سابق، ينظر شرحه لمقررات المدارس العصرية، ص 270-277.

هذا ما أضفى صبغة عصرية لهذه المدارس في نظامها، ويبين ذلك التغيير والنقلة النوعية في الدفع قدما بمسار التربية والتعليم.

وقد كان الإبراهيمي يشرف على لجنة التعليم التي تشرف على البرامج، وتوزيع المعلمين على المدارس، وأعمالها ويراقبها إلى غير ذلك فنجده معبراً على ذلك: "أتمت لجنة التعليم أعمالها... فوزعت المعلمين على المدارس على صورة تجمع بين مصلحة المعلم والمدرسة والجمعية المحلية، مستندة في ذلك على تجارب السنة الماضية، وعلى الملفات الخاصة بكل مدرسة، وعلى الملاحظات المتجمعة من المفتش ورؤساء الشعب ورؤساء الجمعيات المشرفة على المدارس، ثم عاودت النظر في البرامج و اللوائح وأكملت النقائص الموجودة في القديم... وعرضت عليّ أعمالها جزئية جزئية".⁽¹⁾

ويبين الإبراهيمي أن التعليم الابتدائي هو مرحلة تأسيسية لمراحل تعليمية أخرى، وأنه لا يكفي وحده لتحقيق الغاية التربوية من المدرسة، ومنه وجب الانتقال إلى التعليم الثانوي، "لأن التعليم الابتدائي وحده لا يكفي هماً و لا يُشفي أَلَمًا، وإنما هو مفتاح للعلم، وارتفاع عن الأمية وإن وراه لدرجات إن لم يُؤدِّ إليها كان عقيماً وكان عاطلاً، وإنّ للوقوف عنده والقناعة به لآفات، منها زهدُ الجيل في العلم، وفتور هَمِّه فيه، وفساد تصوّره".⁽²⁾

المعاهد الثانوية و منهاجها :

بعد تأسيس المدارس الابتدائية من الضروري الانتقال إلى المدارس الثانوية أو ما عرف بالمعاهد الثانوية، وأهمها المعهد الباديسي. ويعدّ أول معهد للتعليم الثانوي العربي في الجزائر، يصفه الإبراهيمي بالوطني في برامج، العصري في الطرق البيداغوجية، الجزائري الإطارات، العربي النزعة. أسسه الشيخ عبد الحميد بن باديس بقسنطينة في سنة سبع و أربعين و تسعمائة وألف، والذي قارب عدد طلابه في الفاتح نوفمبر سنة أربعة وخمسين من هذا القرن ثلاثة عشر و تسعمائة طالبا.⁽³⁾ فبرامجه الدراسية وطنية وليست غربية وأساتذته و إدارته جزائرية، ومن شأن ذلك تكريس الوطنية لدى المتعلمين، وبخلاف طرق التعليم القديمة أسس المعهد على طرق بيداغوجية عصرية بهدف تجاوز النقائص التي سجلت في المدارس السابقة وتصحيح أخطائها.

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 324.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 255.

(3) - عبد المالك مرتاض، الموسوعة التاريخية للشباب، محمد البشير الإبراهيمي، ص 42.

ويبين الإبراهيمي الوظيفة التربوية للمعهد في إحدى مقالاته بجريدة عيون البصائر قائلا: " وهذا المعهد على عظمته، وظهور نتائجه من أول يوم ليس إلا معهدا تجهيزيا يحتضن المتخرجين من السنة الخامسة الابتدائية، ومن مثلهم من ذوي الجهود الخاصة، فيقوِّبهم في الدينيات علما وعملا، وفي القرآن حفظا وفهما، ويروِّضُ ألسنتهم على القراءة والخطابة، وأقلامهم على الإنشاء والكتابة، وعقولهم على التفكير الصحيح، ويصوِّغهم صياغة أخلاقية متقاربة، ويشرف بهم على علوم الحياة من باب الرياضيات والطبيعات، و يُهَيِّئُهُمْ هَيِّئَةً صحيحة قويّة للتعليم العالي." (1) إذ يتضمن برنامج المعهد الباديسي دروسا كان محروما منها التلميذ العربي، نظرا لأن المعاهد العربية كانت تخلوا منها كالرياضيات والطبيعات، فجعل منها المعهد وسيلة إلى مقاصد سامية. كما وقر المعهد دروسا في حفظ الصحّة لتلاميذ المعهد مستعينا في ذلك أستاذهم عبد القادر بن شريف بأشرطة سينمائية لاقت إقبالا كبيرا، كما تضمن دروسا في الرياضيات والطبيعات وعلم وظائف الأعضاء وتركيب الجسم، إضافة إلى دروس في الجغرافيا والحساب. (2)

أما بالنسبة للبرنامج الدراسي بالمعهد هو برنامج السنوات الأربع الابتدائية في جامع الزيتونة ما عدا مواد التاريخ والجغرافيا والأدب العربي فإنه يختلف قليلا حيث كانت الأهمية تعطى لتاريخ الجزائر، جغرافيتها وأدبها، وبالنسبة لمدة الدراسة فهي أربع سنوات، من السنة الأولى إلى السنة الرابعة، وتمثل المواد العلمية المدرسة في: القواعد، القرآن والدين والأخلاق، التوحيد، الجغرافيا، التاريخ، النصوص الأدبية، البلاغة، تاريخ الأدب، الرسم والإملاء، التجويد، اللغة الفرنسية، الحساب والهندسة والعلوم، مع تغيير في تدريس بعض المواد أو حجمها الساعي ما بين السنوات على حسب ضرورتها، وتنتهي الدراسة بالمعهد بامتحان ينتقل بموجبه الناجح إلى الدراسة بجامع الزيتونة، و لذي أصبح المعهد أحد فروعها. (3)

وتظهر النظرة التحديدية والعصرية التي أدخلها الإبراهيمي على المدرسة باعتماده على مدرسين أكفأ من جهة، وتعديل البرامج وإضافة مواد جديدة لم تكن تُدرس سابقا، خصوصا ما تعلق بالمعارف ذات الطابع العلمي كالرياضيات والطبيعات. وهو ما زاد في إقبال الطلبة على العلم والمدارس. ما شكل منعطفًا تربويا تعليميا اختلفت فيه المدرسة في عامها الثاني عن العام الأول من تأسيسها، كما تميزت عن سابقاتها. والتي انتقدتها مبينا عيوبها خاصة فيما تعلق بطبيعة المواد و طرق التعليم القائمة على التلقين.

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 255.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 256، 257.

(3) - تركي رابع عمارة، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، ينظر: مقررات معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 281-285.

وفيما يلي برنامج المعهد متضمنا المواد الدراسية و الحجم الساعي لها: ⁽¹⁾

جدول يبين برنامج المواد الدراسية وحجمها الساعي في معهد عبد الحميد بن باديس

السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	المواد العلمية
عدد الساعات	عدد الساعات	عدد الساعات	عدد الساعات	
05	05	04	04	القواعد
05	05	05	06	القرآن والدين والأخلاق
01	01	01	01	التوحيد
02	02	02	02	الجغرافيا
01	02	03	03	التاريخ
02	02	02	02	النصوص الأدبية
02	02	02	02	البلاغة
02	02	02	02	تاريخ الأدب
01	01	01	00	الرسم و الإملاء
01	00	00	00	التجويد
02	02	02	02	اللغة الفرنسية
04	04	04	04	الحساب و الهندسة
02	02	02	02	العلوم
30	30	30	30	المجموع

ويتضح من خلال الجدول الموضح للبرنامج الدراسي في السنوات الأربع بالمعهد التركيز على اللغة العربية وعلى الجانبين الأخلاقي والديني من خلال الحجم الساعي المخصص لهما، إذ تشمل اللغة العربية بتخصصاتها المختلفة من قواعد، بلاغة ونصوص أدبية، تاريخ الأدب، ونالت بذلك الحصة الأكبر إذ تتراوح في حدود عشر ساعات أسبوعيا، وهذا من شأنه الحفاظ على لغة الأمة التي عمل الاستعمار الفرنسي على القضاء عليها. تليها دروس الأخلاق والدين بمعدل خمس ساعات في الأسبوع لكل السنوات ما عدا السنة الرابعة يزيد بساعة واحدة ليصبح ست ساعات، وهذا يدل على المكانة التي تحظى بها التربية على الأخلاق الحميدة والإسلامية في مدارس الجمعية. كما تقسم دروس الرياضيات على أربع ساعات أسبوعيا.

⁽¹⁾ - المرجع السابق، ص 283.

وقد عرف المعهد مجموعة من الإصلاحات في عامه الثاني، إصلاحات تتعلق بالبرامج وبالجانبيين النظامي والأخلاقي الذي يُسيّرُ بهما المعهد. كندارك للنقائص التي شهدتها المعهد في عامه الأول، ما يبرز تتبع المسار الدراسي فيه والعمل على تجديده وإصلاحه، وتمثل أهم تلك الإصلاحات فيما يلي :

- زيادة المقبولين بضعف ما كانوا عليه في العام الأول حيث كانوا ستمائة تلميذ.
- إنشاء السنة الرابعة التي يحصل فيها التلميذ في نهايتها على الشهادة الأهلية.
- زيادة ثلاثة مدرسين أكفاء تمثلوا في عبد القادر الماجوري، وعبد اللطيف القنطري، وعبد الرحمن شيبان وهم حائزون على شهادة التحصيل من الكلية الزيتونية.
- تحسين برنامج الرياضيات وعلوم الحياة بإسناد تعليمها إلى مدرسين أكفاء مثقفين بالثقافتين.
- تحسينات واسعة ذات أثر على النظامين الداخلي و الدراسي.
- تشديد المراقبة على التلاميذ من الناحية الأخلاقية.
- شراء ثلاث بنايات للمعهد، اثنتين منهما كسكن للمشايخ المتأهلين، وواحدة لسكن الطلبة.⁽¹⁾

ولم تهمل المدرسة الجانب التربوي والأخلاقي في إصلاحاتها، إذ لا ينفك الإبراهيمي التركيز والتنويه على أهمية الأخلاق والعلم. فجمعت المدرسة بذلك بين طلب العلم وحسن الخلق ما بيّنه قائلاً: "إن التربية الفاضلة هي الغرّة اللائحة في جبين المعهد الباديسي، وهي الميزة التي يمتاز بها على جميع معاهدنا من أعلاها إلى أدناها، ولو تكاملت وسائلها ومنها توحيد السكنى لأخرج المعهد في بضع سنين للأمة الجزائرية جيلاً مسلّحاً بالفضائل، زعيماً بإحياء الدّين والدنيا، و لَقَدَّمَ لجامع الزيتونة نموذجاً من خريجي السنة الرابعة يجمع بين حياة الفكر ومثانة الخلق."⁽²⁾

فالأخلاق العالية للتلاميذ، والنظام الصارم يجب أن يميز سلوك التلاميذ داخل مؤسسة التعليم وخارجها، ويلزمهم بتلقي العلوم العصرية النافعة لهم ولجتمعتهم، ثم المحافظة على أصول الدين، والتزود بالثقافة العربية الأصلية تزوداً أوفى، ومدارسة التاريخ الوطني الذي به يعرف الناشئة ماضيهم ومواقف أجدادهم المشرقة من المظاهر التي كانت تميز التعليم في المدارس الجزائرية الوطنية الحرة بوجه عام، ومدارس جمعية العلماء بوجه

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 214.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 214.

خاص في ذلك العهد الذي كان فيه للإبراهيمي مساهمة كبيرة.⁽¹⁾ يتضح من هذا أن المدرسة كوسيلة تربوية في المنهج التربوي الإبراهيمي لها دور فعال في تنشئة أجيال مفعمة بالوطنية جامعة بين كريم الأخلاق وسعة المعارف من خلال ما تقدمه المدرسة بنظامها الدقيق. ومما سبق ذكره يمكن تصور خصائص النظام التربوي التعليمي الوطني في المدرسة الإبراهيمية والذي حدّده و ركّز في تحديد معالمه على خصائص أساسية تتمثل في:

أولاً: أن تكون مدرسة ذات تعليم عربي من ناحية اللغة، المضمون والأهداف، فينسجم بذلك مع مقومات الأمة و موروثها الثقافي.

ثانياً: أن تكون مدرسة ذات تعليم وطني لا مستوردا ولا تسهم في صنعه أفكار أجنبية حتى لا يؤثر في الهدف الذي تسعى إليه المدرسة. فينبغي أن يكون نابعا من عبقرية الأمة، وعليه طابعها وخصوصياتها، بحيث تصنعه بنفسها ووفق إرادتها، وتضمّنه الروح التي تعيش في أعماق كل فرد من أفرادها، فكأنه يريد أن يبين للحكومة الجزائرية التي ستولى تنظيم التعليم في عهد الجزائر المستقلة أن مسؤولياتها هي تشكيل نظام تربوي تعليمي يستجيب لحاجات الأمة ويتلاءم مع خصوصياتها، ومسايرا للتطورات المعاصرة.⁽²⁾

ثالثاً: أن تكون مدرسة مسايرة وشاملة للتطورات العلمية المعاصرة، أي تشمل ما استجد من العلوم العصرية وكل ما يعود بالفائدة على الوطن والمواطن الجزائري.

وبذلك نلمس لدى الشيخ الإبراهيمي دعوته إلى ضرورة توحيد النظام التربوي التعليمي بكل جوانبه في القطر الجزائري، حتى تتوحد الرؤية والأفكار والعقول، وتحقق الغاية المرسومة و الهدف المنشود من تجسيد المدرسة الجزائرية، فهو يؤكد على ذلك قائلاً أنه "لا يتم هذا على وجه مثمر إلا بتوحيد منهاج التربية وبرنامج التعليم، ولا يتم توحيد المنهاج والبرنامج إلا بتوحيد الإدارة، ولا يتم توحيد الإدارة إلا بتوحيد الإشراف العام، درجات متلازمة سبقتنا بها الأمم التي بنت حياتها على تجربة النافع... وهذه هي المعاني التي دعتنا إلى جمع المدارس العربية تحت إدارة واحدة و إشراف واحد، و إلى حشر المعلمين تحت لواء واحد، لعلمنا أن توحيد الغايات لا يأتي إلا بتوحيد الوسائل".⁽³⁾ ولكن قد تتوحد الوسائل ولا تتوحد الغايات إن لم يسبقها توحيد الأفكار والضمائر، ولعل هذا ما لم يغفله الشيخ بدعوته لتوحيد الرؤى. قصد بناء مشروع واضح المعالم من

(1) - عبد المالك مرتاض، الموسوعة التاريخية للشباب، محمد البشير الإبراهيمي، ص 44.

(2) - عبد القادر فوضيل، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص 43.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 275.

الأسس إلى الغايات حتى لا يضيع فيه القوت أكثر، ولا تتشتت فيه الجهود، بالعمل على توحيد الرؤية حول المدرسة الجزائرية من حيث المناهج والبرامج الدراسية، ومن حيث التخطيط والإدارة التربوية المشرفة عليها، بلوغا إلى الغايات التربوية التي تركز لقيم الأمة الضاربة في جذور التاريخ و تربطها بروح العصر و مستجداته.

2. 2. 2. المساجد:

تعدّ المساجد أحد الوسائل الهامة في المنهج التربوي عند الإبراهيمي، فإن كان التعليم في المدارس يقتصر على المتعلمين من الأطفال غالبا، فإن المسجد لا يرتبط بعمر زمني معين بل يشمل كل فئات المجتمع، كل من يحضر إليه ويستمع إلى خطبه، دروسه ومواعظه. وإن كان التعليم في المدارس يخضع إلى مراقبة الاستعمار ومضايقاته فإن المساجد تقل فيه تلك المضايقات، خصوصا المساجد الحرة التي لا يتحكم فيها المستعمر، نظرا لأن أغلب المساجد كانت تحت قبضة المستعمر لإدراكه للدور الكبير الذي تقوم به، ونظرا لأهمية المساجد في حياة كل إنسان مسلم، حيث أجهت فرنسا من أول يوم في احتلالها للجزائر "إلى المساجد فدمرت بعضها وحوّلت بعضها الآخر إلى ثكنات عسكرية و إلى اصطبلات، بل عمدوا إلى أجمل مسجد في عاصمة الجزائر وحوّلوه إلى كنيسة أو كاتدرائية إمعانا في الانتقام من الدين الإسلامي."⁽¹⁾

وتعدّ المساجد منارة للعلم والتعليم عبر التاريخ الإسلامي منذ أن أسس رسول الله عليه الصلاة والسلام أول مسجد بالمدينة المنورة يعلم فيه المسلمين تعاليم الدين وأحكامه ومكارم الأخلاق. فهو مركز للعبادة يلتقي فيه المصلون خمس مرات في اليوم يصلّون و يتذاكرون، وعرفت المساجد تطورا ملحوظا في وظائفها الدينية والمعرفية إذ أصبحت منارات لطلب العلم وتلقي المعارف عند المسلمين. بل إن الجامعات الإسلامية اليوم خرجت من تحت أسقف تلك المساجد، فما سمي الجامع (المسجد) بالجامع إلا لأنه يجمع الناس للعبادة والعلم، وما سميت الجامعة بالجامعة إلا لأنها تجمع الطلبة لطلب العلم. من هنا تحتل المساجد دورها الهام عند الإبراهيمي لنشر الخطاب الإصلاحية و التهذيب الأخلاقي. فالمسجد في نظر الإبراهيمي: "مرجع المسلم ومثقله، فهو الذي يغدّي الإسلام في نفسه، بما يتردد عليه خمس مرات في اليوم والليلة، وبما يسمعه فيه من قرآن وخطب و دروس، وهو الذي يكونه ويوجهه، بما يصبغه من ألوان ثابتة، وبما ينفض عليه من روحانية قوية، وبما يغشى في جوانبه من فضائل أصيلة، وبما يشيع في دخائله من أنوار وهاجّة، وبما يغرسه فيه من آمال

(1) - محمد البشير الإبراهيمي، الإسلام في عهد الجزائر من خلال مقالات الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مقدمة محمد دراجي، عالم الأفكار، الجزائر، 2007، ص11.

شريفة، و بما يطبعه عليه من أخلاق قويمه، وبما يخطه له من سبل للسعادة، وبما يركبه فيه من استعدادٍ للعة والسيادة. " (1)

وبمثل المسجد حلقة الوصل بين الجزائر والإسلام، فَيُرَبِّي كل مسلم على تعاليمه، من خلال الخطب والدروس التي يتلقاها، وإلى ما يبثه سماع القرآن في نفس كل مسلم فيحييها، ويذكره بتاريخه، مخاطبا روحه وعقله، فيبعث فيه الحياة من جديد، فعلاقة المسلم بالمسجد علاقة روحية، دينية، تربوية وتعليمية تتجاوز مجرد التعبّد وإقامة الصلوات، والارتباط بالمسجد ساهم وسمح ببقاء الدين في أعماق نفوس المسلمين، وبقيت أخلاقهم مرتبطة به نظرا لما يتلقونه فيه من آداب وتعاليم. فوظيفته تشترك مع وظيفة المدرسة والجامعة. هذا ما تبرزه خطبة الإبراهيمي يوم صلاة الجمعة الأولى في مسجد «كاشاوا» بالجزائر العاصمة:

"يا معشر المؤمنين إنكم لم تسترجعوا من هذا المسجد سقوفه و أبوابه و حيطانه، ولا فرحتم باسترجاعه فرحة الصبيان ساعة ثم تنقضي، ولكنكم استرجعتم معانيه التي كان يدل عليها المسجد في الإسلام و وظائفه التي كان يؤدّيها من إقامة شعائر الصلوات والجمّع و التلاوة و دروس العلم النافعة على اختلاف أنواعها، من دينية و دنيوية، فإن المسجد كان يؤدّي وظيفة المعهد و المدرسة و الجامعة." (2)

ويبرز المسجد كوسيلة تربوية من الوسائل المعتمدة في منهج الإمام التربوي من خلال الوظائف التي يؤدّيها ويحتضنها. من تربية وتعليم، خطب ومواعظ ودروس، و إصلاح الخصومات وذات البين بين الناس وتركية النفوس، والإبراهيمي في هذا لا يخرج بالمسجد عن الوظيفة والغاية التي وجد من أجلها بل يحددها ويكملها. "كل ما يؤدّيه المسجد في حكمته الإسلامية هو إقامة لدولة القرآن وتشيد لمدرسة القرآن ورفع لمنارته، ولا يؤدّي المسجد وظيفته إلا إذا شاده أهل القرآن على مناهجه، جاعلين القرآن لله، يصدق وصف الله لمن يعمر المساجد بأنهم لا يخشون إلا الله." (3) ويحدّد محمد زمران أربعة وظائف حيوية للمسجد تتمثل في: الخطبة و الموعظة الدينية والتعليم المسجدي والفتوى. (4) ونوضح دور المسجد من خلالهما فيما يلي:

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 155.

(2) - المصدر نفسه، ج5، ص 307. (مقتطف من الخطبة التي ألقاها الأستاذ الإبراهيمي يوم الجمعة 5 جمادى الثانية 1382 هجرية الموافق للثاني من نوفمبر 1962 ميلادية بحضور أركان الدولة ووفود غفيرة من مختلف الدول الإسلامية.)

(3) - المصدر نفسه، ج3، ص 191.

(4) - محمد زمران، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 282.

الخطبة و الموعظة الدينية :

للخطابة تأثير كبير في السامع من خلال أسلوبها الذي يستثير حمية النفوس، فيحركها ويشير نشوتها ومروءتها، فالخطبة تخاطب النفوس والعقول، وتلامس مواطن العزة والكرامة، خاصة إذا امتلك الخطيب ناصية الخطابة، وتحكم في قواعد اللغة والبيان، فالخطبة أحد أهم وسائل التربية والإصلاح في منهج الإبراهيمي خاصة وأن الكثير من الجزائريين تعذر عليهم القراءة والكتابة بفعل سياسة التجهيل التي انتهجتها فرنسا في حقهم. فالخطيب بذلك هو من يسمع ويصور وينقل الحقائق والعبر.

يوضح الإبراهيمي مكانة الخطبة لدى الأمم الحية موقع الخطيب فيها، فالخطيب يفكّ العقول من قيود الأوهام، ويجرر الحقائق من أسر الشوائب، فهذه الأمم تجمع بين الخطابة والتمثيل وتعتبرهما شيئاً واحداً، وأن منزلتهما من دواعي التهذيب والتربية الفاضلة، والنهضات الأخلاقية في الأمم الجديدة كان فيها للخطابة والتمثيل القسط الأوفر، نظراً لوقعهما على الأنفس. "فإنما الخطيب و الممثل شيء واحد - الممثل خطيب إذا أحسن تصوير المغزى وشخص الحقائق الغائبة للمشاهدين كالحاضر المشاهد، و ألبس الخيالات لباس الواقع المحسوس، والخطيب ممثل إذا عرف كيف يقصّ الخبر، وكيف يستخرج العبر، وكيف يسوق المؤثرات فيترك في نفوس سامعيه أعمق الأثر."⁽¹⁾ وقد كانت تنظم لقاءات واجتماعات من طرف جمعية العلماء المسلمين فيتخللها سماع الخطب والمواعظ الدينية، ففي مقدمة سجل مؤتمر جمعية العلماء يبرز قراراً بإقامة عكاظ سنوي تتدرب فيه الناشئة الإصلاحية على الكلام في العموميات، وتتمرن على الخطابة بهدف الاستعداد للقيام بالدعوة والإرشاد وتربية الناس عموماً، إذ يؤكد الشيخ أنّ: "الخطابة لركن الإصلاح الركين."⁽²⁾

يؤكد الإبراهيمي أيضاً على ضرورة استفادة الخطباء من الاحتفالات ودورهم فيها، فهم أكثر الناس استفادة من الاحتفالات وأبلغهم إفادةً فيها وأثقلهم عهداً في توجيهها إلى الصالح النافع أو إلى الفاسد الضار، فعليهم وحدهم يتوقف إصلاحها أو إفسادها، وليست خصوصية الأسباب ولا تحديد النظم بمانعة للخطباء من بلوغ غرضهم ما دام باب المناسبات والاستطرادات واسعاً رحب الجوانب، وما دام وجود الخطباء في الاحتفال جزءاً ضرورياً.⁽³⁾

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص67.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص157.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص328.

أما الموعظة الدينية فتتمثل في: مجالس دينية للوعظ والتعليم والإرشاد، يقوم بها الأئمة بهدف تذكير الناس بدينهم فيمتزجون بهم في حلقات ومجالس مصلحين ومرشدين و مرشدين، مساهمين في توضيح كيفية العبادات، مساهمين في حل مشاكلهم الاجتماعية والدينية من خلال الأخذ بنفوسهم وجذبها إلى الفضائل مبعدين عن الرذائل، معتمدين على صرائح الآيات والصحيح من السنة النبوية وسيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في دروس الوعظ والإرشاد، ويبين الإبراهيمي تلك الطريقة قائلا: "أما في المساجد فطريقة الجمعية في الوعظ والتذكير، هي طريقة السلف، تذكر بكتاب الله وتشرحه، وتستجلي عبره، وبالصحيح من سنة رسول الله تبينها وتنشرها، وبسيرته العملية تجليها وتدلل الناس على مواضع التأسي منها، ثم سير الصحابة وهديبهم، ثم سير حملة السنة النبوية." (1)

وهو الطريق الذي سارت على نهجه جمعية العلماء في توعية الأمة و إرشادها فكان الوعظ الديني "رائد جمعية العلماء إلى نفس الأمة، جعلته مقدمة أعمالها، فمهد واستقر، وذل الصعاب و ألان الجوامح، وعليه بنت هذه الأعمال الثابتة من إصلاح للعقائد، ونشر للتعليم، ومنه جنت كل ما تحمد الله عليه من نجاح، والوعظ الديني هو الذي حركت به جمعية العلماء الهمم الراكدة، وشدت به العزائم الواهية، واجتثت به الرذائل الموبقة، فكان هو معينها في غرس الإصلاح الديني، وتثبيت جذوره وامتداد أصوله و فروعه." (2) فإن كانت الخطبة تتبنى أسلوب إثارة العواطف وتعبئتها بكلمات حماسية قوية مؤثرة، فإن الموعظة الدينية ذات أسلوب هادئ، يتناول الواعظ من خلال نفوس الجماهير برفق، بالترغيب والترهيب، فيذكر الناسي و يوقظ الغافل، زارعا الفضائل والخيرات راشدا. (3) وبذلك يظهر دور الموعظة الدينية في توعية وتربية الناس لما لها من أثر في نفوسهم بضرورة المحافظة على مقومات الأمة من لغة ودين، وضرورة التربية والتعليم فهما منطلق للتحرر.

وللموعظة الدينية طريقتها ونظامها حتى تؤثر في الأفراد فيستجيبوا لها، وذلك من خلال تنظيمها وتجاوز ذلك الجمود الذي يمس مختلف المواعظ في المساجد فالغالب عليها أنها تحتكم إلى إلقاء بعض الخطب والدروس التي تكون نابعة من الأوراق لا من القلوب والعقول، يحكمها التكرار وتعود المخاطبين عليها، فالموعظة والخطاب في نظر الإبراهيمي لا يؤثر إلا إذا كان نابعا من القلب موجها إلى القلب، ومتجها من الروح إلى الروح، هذا ما يؤكد من خلال الدعوة إلى: "تنظيم برنامج للوعظ الديني على أساس صحيح واسع،

(1) - الإبراهيمي، موقف الجمعية في التعليم، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 50.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 285.

(3) - محمد زرمان الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 282.

وطريقة فنية تقتبس من حقائق الدين وحقائق النفس و سنن الله الواقعة في كونه، وتمتدح فيها روحانية الدين بأرواح البشر فتؤثر فيها وتقودها إلى الخير، لا على هذه الطريقة الموجودة في المساجد في أيام الجمع فإنها ترغب لا يرغب، وترهب لا يرهب... وأكبر الأسباب في فشل الوعظ الديني بصورته الحاضرة أنه لا يصدر عن تأثر قائله، وإنما تعود قائلوه أن يقولوه قولاً من غير حكمة." (1)

التعليم المسجدي :

يعدّ التعليم المسجدي أحد أهم الوسائل لنشر الثقافة والتربية الإسلامية، اقترن بالتعليم في التاريخ الإسلامي كما ارتبط أيضاً بالتعليم في الجزائر، لكنه تأثر كثيراً بفعل المستعمر الذي سعى جاهداً إلى القضاء عليه أو تحويله لخدمته، فسعت جمعية العلماء الجزائريين إلى إحيائه. وقد وسمي بالتعليم المسجدي لأن المساجد هي التي تحتضنه. واعتمده الشيخ الإبراهيمي كوسيلة مهمة في التربية والتعليم، يشمل فئات طلبة والعامّة من الناس مع تفاوت في الغاية بينهما. يوضح البشير الإبراهيمي معناه بأنه: "التعليم الذي نلتزم فيه كتب معينة في العلوم الدينية من تفسير، وحديث وفقه وأصول وأخلاق، والعلوم اللسانية من قواعد ولغة وأدب، والعلوم الخادمة للدين من تاريخ وحساب وغيرهما، ويقوم به مشايخ مقتدرون في تلك العلوم محسنون لتعليمها. ونسميه مسجدياً لأنه كان من فجر الإسلام إلى الآن وما زال يلقي في المساجد." (2)

فإن كانت تعمل الخطبة على إيقاظ النفوس من سباتها واستثارة هممها، فإن التعليم المسجدي أقرب ما يكون إلى الموعظة الدينية في وظيفته، غير أنه منظم أكثر، له طريقة وبرنامج معينين يقوم عليهما، ويشبه إلى حد بعيد التعليم في المدارس والمعاهد التي تتجاوز التنظيم والمواد العلمية، مقارنة بالمسجدي الذي يركز على الجانب الديني وما يعترض الحياة الاجتماعية وموقعها من الدين كدروس التفسير، الفقه، الحديث وغيرها. يبين الإبراهيمي أن "أسلوب الجمعية المعتمد التعليم الديني في المساجد على إطلاقه العناية بالمعنى والنفوذ إلى صميمه من أقرب طريق يؤدي إليه، وتحليلته للسامعين بالصور العملية التطبيقية، والإعراض عن اللفظيات والخلافات، وكل ما يشوش ويبعد عن تصور المعنى المقصود." (3)

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 73.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 170.

(3) - الإبراهيمي، موقف الجمعية في التعليم، ينظر سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 50.

ونظرا لحاجة الناس إلى رؤية الدين في المستجدات التي يطرحها الواقع والقضايا التي يثيرها، تظهر ضرورة التعليم المسجدي الذي يبين موقع تلك القضايا من الشرع ويقدم الفتاوى والدروس اتجاهها، فيقدم حلولاً لمختلف القضايا التي تطرح، مبقيا رواده ومتابعيه على اتصال دائم مع الدين الإسلامي، مجدداً روحه وأخلاقه فيهم. هذا ما ساعد في بقاء الدين الإسلامي وملازمته للواقع الذي يعيشه الجزائري كمسلم، ومنه برزت ضرورته في الأمة الإسلامية. "التعليم ضروري للأمة الإسلامية في حياتها الدينية لأنها مفتقرة دائما إلى من يفتيها في النوازل اليومية، ويبين لها أحكام الحلال والحرام، وما بقي الإسلام محفوظا إلا بهذا النوع من التعليم الذي من أصوله تفسير القرآن والحديث النبوي."⁽¹⁾ ويؤكد على هذه الأهمية الإمام عبد الحميد بن باديس معتبرا أن المسجد يقترن بالتعليم. "فالتعليم والمسجد صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام، فما بنى النبي صلى الله عليه وسلم يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه، فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فكما أنه لا مسجد بدون صلاة، لا مسجد بدون تعليم. وحاجة الإسلام إليه كحاجته للصلاة فلا إسلام بدون تعليم."⁽²⁾

كتميز بين التعليم المدرسي والتعليم المسجدي، فإن هذا الأخير يشمل فئة الطلاب المتفرغين لتلقي العلم الوافدين من مختلف جهات القطر الجزائري، وعامة الناس الراغبين في دروس التثقيف العام التي تزيدهم وعيا. وتشكل هذه الفئة من جمهور الرجال الذين يتلقون الوعظ والإرشاد كل ليلة ومن النساء اللواتي يتلقين الدروس الخاصة بحدّ مرة في الأسبوع. أما التعليم المدرسي فهو تعليم خاص بالبنين والبنات الصغار، سواء أكانوا منتسبين إلى المدرسة الفرنسية أم غير المنتسبين لها، لأن الغاية منه تربيتهم تربية عربية إسلامية تحفظ شخصيتهم، وتصون لسانهم وتثقف أفكارهم وتسدّ الثغرات التي يتركها التعليم الفرنسي في تكوين من يتعلمون في المدارس الفرنسية.⁽³⁾

2. 2. 3. الصحافة :

للصحافة مكانتها البارزة في الوسائل التربوية لدى الإبراهيمي، فقد شكّلت منبرا لتنوير الرأي العام بضرورة التربية والتعليم، وتجسدت أكثر في العديد من المقالات التي كانت تصدرها جمعية العلماء في الجرائد،

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 170.

(2) - عبد الحميد بن باديس، كتاب آثار ابن باديس، من تقرير في التعليم المسجدي ألقاه الإمام عبد الحميد بن باديس، ج1، مج2، مقالات اجتماعية تربوية أخلاقية دينية سياسية، إعداد عمار طالبي، الشركة الجزائرية، باب عزون، الجزائر، ط3، 1997، ص 225.

(3) - عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص 252.

وأهمها جريدة البصائر التي كان يشرف عليها البشير الإبراهيمي وتضمنت عديد المقالات التي تتطرق إلى قضايا التربية. وتدعو الناس وتحثهم على طلب العلم، فلا زالت الصحافة إلى اليوم تحتل موقع الصدارة في التأثير على الرأي العام سلبا أو إيجابا، بما تتدواله من حقائق وأخبار أو ما تروّج له. وقد اقتصرنا في تلك الفترة على الصحافة المكتوبة. وقد أشار مبارك الميلي* إلى تلك الأهمية التي تحظى بها الصحافة في العصر الحديث قائلا: "من أهم الخطط وأعم الوسائل لتحقيق الغايات ونشر الدعوات، إنشاء الصحف السيّارة التي تحفظ جيّد الأقوال، وسديد النظريات، وتدخل بها على الطالب في مسكنه، وعلى التاجر في متجره، وعلى الصانع في مصنعه، وعلى الملاّ في ناديهم، وعلى المسافرين في مركبهم ... وما وجدت فكرة الإصلاح الديني بأرض الجزائر حتى وجدت لها صحف تعبّر بها عنها وتبشر بها وتدافع عنها." (1)

والمفتحص لآثار الشيخ الإبراهيمي يدرك الدور الذي مثله الصّحافة في نشر الفكر التربوي للخاص والعام، من خلال تلك المقالات التي تحثّ الطلبة على العلم، وتخطب المعلمين وترشدهم، وتوجه إلى العامة موعيّة إياهم بضرورة المدرسة وأهميتها، إضافة إلى انتقاد طرق التعليم القديمة، وفضح مخططات التعليم الفرنسي مقابل الدعوة إلى الالتحاق التعليم العربي وتدعيمه. كما تتضمن ما يتعلق بالمدارس والمعاهد الإسلامية من كيفية عملها وشروط الالتحاق بها إلى مختلف النتائج التي توصلت إليها مع الطلبة.

ويظهر الدور الذي مثله الصحافة والمجالات التي تشملها من خلال نموذج جريدة البصائر التي تمثل: "لسان حال جمعية العلماء، ولسان العروبة والإسلام بهاته الديار، وخادمة العلم والتعليم وسائر الحركات الفكرية والأدبية في ميدان الثقافة الشرقية وحاملة راية الجهاد المستمر في ميدان الكفاح الوطني، وبهذه الاعتبار فهي جريدة كل مسلم جزائري يحمل بين جنبيه الغيرة على وطنه ولغته ودينه." (2) والعديد من الدراسات التي تطرقت إلى الفكر الإصلاحي والتربوي لدى الإبراهيمي لم تتم من خلال مؤلفات تركها، بل من خلال تلك المقالات والأخبار التي كانت تنشر ضمن المجلات الجرائد ومراسلاته ولقاءاته. فإن مثلت دورا

* مبارك الميلي: (1889-1945) هو مبارك بن محمد بن مبارك الهلالي الميلي، مؤرخ وكاتب من رجال الإصلاح، ولد في مدينة ميلية عام 1889، وتعلم بتونس، فتخرّج من جامع الزيتونة بشهادة التطويغ، وعاد عام 1922 فعمل في حقلّي التعليم والكتابة، وتأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931 فكان من أقطابها وألع كتابها، فقد كان يمتاز بدقّة التحليل وعمق التفكير، لذلك كان يطلق عليه إسم فيلسوف الحركة الإصلاحيّة. توفي عام 1945، من آثاره: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، رسالة الشرك ومظاهره، وله مقالات كثيرة نشرت في الصّحف الإصلاحيّة كالشّهاب والبصائر. ينظر عادل نويهيض، معجم أعلام الجزائر، ص 325.

(1) - محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 288.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 201.

تربويا إصلاحيا في ذلك العهد فلا زالت تحضى بذلك اليوم، لكونها تمثل مصدرا يتضمن مشروعاً تربوياً وفكرياً ساهم في النهضة بالشعب الجزائري وتنويره.

ويوجز الإبراهيمي مسار بعض تلك الصحف، وكيف تكالب الاستعمار على تعطيلها بداية من جريدة «المنتقد» التي مثلت لسان الفكرة الإصلاحية للجمعية حيث كانت صريحة في دعوتها، ثم خَلَفَتْها مجلة «الشهاب» الشهرية، وقد كانت تتناول آراء ابن باديس في الدين والسياسة وتفسره للقرآن. وهي أطول الصحف عمراً وتم تعطيلها اختياراً عندما قامت الحرب العالمية الثانية، وتم تعزيز حركة الجمعية الواسعة بأسبوعية «السنة»، «الشريعة»، «الصراط» وكان مصيرهم التعطيل بأسابيع قليلة من تاريخ إصدارهم، بصدور قرار وزاري فرنسي يعطل الجرائد الصادرة عن الجمعية معتبراً أن اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر. غير أن الجمعية لم تأبه بالقرار وأصدرت جريدة البصائر التي لا زالت تصدر إلى الآن.⁽¹⁾

وقد تطرقت الصحافة إلى عديد القضايا، كالدين، اللغة، السياسة، التبشير، التجنيس، الطريقة... الخ، كما ركزت على قضايا التربية والتعليم، وهذا ما يتضح في جريدة البصائر في عامها الثاني خصوصاً، فكان من مواضيعها التطرق إلى مناهج التعليم في المدارس الحرة والمعاهد، ومحاربة الجرائم التي دَاخَلَتْ الجهاز التعليمي، كما فضحت ذلك التأثير السلبي للحزبية السياسية على التعليم بعنوان (حماية الحزبية على التعليم) مما انعكس سلباً على طلب التلاميذ للعلم وأعاق تحصيلهم له. كما عالجت في عامها الجديد أيضاً مشكلة التعليم العربي عامة، مُدلية برأيها في التعليم الجامعي بالجامعات الدينية. داعيةً إلى ضرورة توحيد المناهج والعناية بالتربية الخلقية في الجامعات والمدارس.⁽²⁾

ومنه كانت الصحافة بمثابة المرآة والمعلم غير المباشر الذي يعلم عن بعد، لكن وقعته على النفوس والعقول أكثر تأثيراً، نظراً لطبيعة المواضيع التي تطرقت إليها المقالات التي تضمنتها الجرائد، وإلى اللغة التي كتبت بها، إضافة إلى نبوغ وكفاءة كتابها و اتساع معارفهم، إضافة إلى المشرفين عليها.

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 166، 167.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ينظر من ص: 229 - 233.

2. 2. 4. الجمعيات و النوادي العلمية :

خُصِّصَت النوادي العلمية لفئات المجتمع الذين لم يلتحقوا بالمدارس أو المساجد من أجل استقطابهم وتثقيفهم. ويغلب على هاته الشرائح فئة الشبان الذين وجدوا في المقاهي والشوارع مرتعا لهم، مما أدى إلى تفشي الأمية والجهل والآفات لديهم. وتحمل النوادي العلمية طابعا خاصا وأسلوبا في التعليم، يتمثل عموما في تنظيم العديد من المحاضرات التثقيفية والتاريخية والدينية. ومن هنا برزت ضرورة تأسيس هذه النوادي العلمية في نظر الإبراهيمي فإذا كانت المدارس تحتضن الأطفال، والمساجد تحتضن الكبار بصفة عامة، يتساءل الإبراهيمي عن مصير الفئة العظمى من الشباب وحظها من التربية والتعليم. لذلك ركزت الجمعية على الفئات الثلاث في آن واحد على قدر استعدادها: "فإذا التقت بالشيخ والكهول ورواد المساجد في المساجد، والتقت الأطفال في المدارس التي شيدتها للاتقاء بهم فيها، فأين تلتقي بالشبان الذين فاتتهم المدرسة والمسجد معا؟...فأنشأت مشروع النوادي لتكون وسطا طبيعيا بين المساجد والمدارس، وتلتقي فيها بالشبان الذين هم وسط طبيعي بين الشيخ والأطفال."⁽¹⁾

ارتأى الإبراهيمي ضرورة مراعاة الطبيعة النفسية للشباب وما يميلون إليه، فاستثمر ذلك في الدعوة إلى تأسيس النوادي العلمية، التي يختلف نظامها عن نظام المسجد والمدرسة، من حيث الحرية الممنوحة للشباب وتسييرهم لهذه النوادي، فهم يحتلون مركز الإدارة والتنظيم فيها، وهذا من شأنه أن يعزز قدراتهم، ويربطهم بالميدان العملي أكثر، ويحملهم مسؤولية القيادة والتنظيم والانضباط الأخلاقي كإعداد للتحديات التي سيخوضونها في قيادة البلد مستقبلا فقد أنشأت الجمعية "عشرات النوادي في المدن والقرى، ودعت إليها الشبان فاستجابوا وأقبلوا عليها لأنها أقرب إلى أمزجتهم ولأن فيها شيئا من التسلية والمرح ولأن فيها قليلا من جو المقهى، وفي ظل هذه الجواذب التقت الجمعية الشبان... فنظمت لهم محاضرات تهذب بها أخلاقهم وتعرفهم بأنفسهم وقيمتهم ومنزلتهم في الأمة وتجمع قوتهم، ودروسا تعلمهم بها دينهم ولغتهم وتاريخهم، فكان لمشروع النوادي آثار في الشبان تساوي آثار المدرسة في الأطفال وتفوق آثار المساجد في الشيخ والكهول، ومن النوادي خرج الشبان إلى المساجد يؤدون حق الله، وإلى ميادين العمل يؤدون واجبات المجتمع."⁽²⁾ حيث

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 173.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 173، 174.

تشارك النوادي العلمية مع المدارس والمساجد في الدور التربوي والتعليمي والتثقيفي وما الاختلاف إلا في الأسلوب والطرائق المعتمدة.

كما أن هاته النوادي تستقطب وتهدف إلى تخليص الشباب من المستنقعات الاستعمارية المتمثلة في نواديها ومقاهيها، ومن خطر الفرنسة والتغريب، بل وحمائتهم من تلك المقاهي الجزائرية السائرة على نهج المقاهي الفرنسية التي تضيع فيها أوقات دون فوائد تذكر، إضافة إلى الحماية من الانحلال الخلقي والانحراف الاجتماعي ويمكن مقارنة دورها الإصلاحية والتثقيفية بالدور الذي تؤديه بعض النوادي العلمية والجمعيات اليوم، والتي تستقطب الشباب وتمثل منبرا لإبداعاتهم واستثمارها في النهضة الوطنية. لذلك أكد الإبراهيمي على دورها وعلى النتائج التي حققتها.

ولم يستثن الإبراهيمي الجالية الجزائرية بالمهجر من مشروعه التربوي، فإن كان الشباب عرضة للتضليل الديني، والتنصير والتجنيس في الجزائر من طرف المستعمر، فآثار ذلك ستكون أكبر على من يعيش في أرض المستعمر ويتعلم في مدارس وبلغته، ويعيش وسط ثقافته ودينه، فنقلت الجمعية جانبا من نشاطها خارج الجزائر، لإنقاذ الجالية الجزائرية والجالية المسلمة عموما من الذوبان والانسلاخ عن دينها ولغتها ووطنها من خلال تأسيس النوادي وتفعيل دورها في الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية والتذكير بها، لذلك: " أنشأت الجمعية للعمال الجزائريين في باريس وغيرها من مدن فرنسا عشرات من النوادي وزودتها بطائفة من الوعاظ والمعلمين من رجالها، يتعلم فيها أولئك العملة ضروريات دينهم وديانهم، ويتعلم فيها أبناءهم اللغة العربية تكلمًا وكتابة، ويرتّبون على الدين والوطنية." (1)

فالنوادي الإسلامية التي تؤسسها الجمعية أو تشرف عليها هي وسط جامع بين المدرسة والجامع، لأن هناك طائفة كبيرة من الشباب لم تجد الجمعية وسيلة لتبليغها الدين والعلم إلا في تلك النوادي، إذ تعتمد هذه الأخيرة على دخل خاص نتاج عائدات مبيعاتها من مشروبات مباحة، غير أن المستعمر أصدر اتجاهها مجموعة قرارات تمنع تلك المبيعات بهدف إفقارها. (2) فترتب عن ذلك الإفلاس المالي للنوادي، إذ وجدت نفسها عاجزة عن توفير النفقات اللازمة لنشاطاتها الثقافية والعلمية، مما انعكس سلبا على أداء دورها العلمي والتربوي، وقلل من نسبة روادها والمقبلين عليها.

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 344.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 51.

وما يثبت أهمية هذه النوادي محاربة الإدارة الاستعمارية التعسفية لها حيث عملت على تعطيلها، مدركة أن النوادي الوطنية ليست محلات اجتماع عادية فحسب، إنما ملجأ للقائمين على الحركة الإصلاحية والتعليمية، وملتقى المحركين لدولاب النهضة الجزائرية، إذ في النوادي تلقى المحاضرات والدروس وتؤسس الجمعيات وترسم الخطط لمصلحة الأمة. كما تهدف إلى تحرير الجزائر في نطاق شخصيتها العربية الإسلامية. من هنا انصب غضب الاحتلال على النوادي كما انصب على المدارس الحرة لما أحدثته من نهضة فكرية وعلمية وقومية وسط الشباب الجزائري. ومن أهم تلك النوادي نادي الترقى الذي تأسس بمدينة الجزائر، ونادي صالح باي بمدينة قسنطينة الذي أصبح يعرف بنادي عبد الحميد بن باديس.⁽¹⁾

فكانت النوادي بذلك تعني بتربية الشباب تربية خلقية ودينية ووطنية تجعلهم أحرص على مقومات الشخصية الوطنية، ويظهر ذلك مثلاً في تلك التنظيمات الكشفية والثقافية والفنية التي تزيد في الرابطة الاجتماعية والوطنية بينهم. ومن بين الأبعاد والأهداف التربوية التي كانت تهدف إليها النوادي ما يلي:

- حماية الشباب من عوامل الانحراف السياسي، والفساد الأخلاقي والانحلال الديني خاصة في مرحلة المراهقة.
- استغلال طاقات الشباب المتدفقة استغلالاً ناجحاً فيما يعود عليهم وعلى الوطن والأمة بالنفع والفائدة.
- تربية الشباب تربية عربية إسلامية حتى لا يجرفهم تيار الفرنسة والتغريب الذي كان يهدد الوطن.⁽²⁾

ومنه كان للنوادي العلمية والثقافية دور إصلاحي تربوي بما تقدمه بأساليبها المتنوعة من محاضرات وأنشطة علمية واحتفالات، وبما تطرحه من قضايا وتساؤلات ومناقشتها بأسلوب علمي منظم هادف. وشموليتها للعديد من الآراء، وانعكاساتها الإيجابية على المسار الإصلاحي والنهضوي للوطن. فكانت مركز تواصل منظم بين الجماهير على مختلف أعمارهم وتوجهاتهم، فمثلت أرضية تربوية ساهمت في تصحيح العديد من الأفكار وإنتاج بعضها الآخر مستقطبة الطاقات والقدرات المهدورة، مستثمرة إياها في بناء مشروع وطني كفيل بضممان استقلال الوطن.

(1) - تركي رابح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، ص 183، 184.

(2) - المرجع نفسه، ص 223، 224.

2. 2. 5. الكتابة و التأليف:

تؤكد الحكمة و تُشيد بقوة القلم على السيف، فما يُعَيِّرُه القلم ويَرَسِّخُه في الفكر وما تطبعه المطابع لا تحوه السيوف ولا تزيله طلقات المدافع. "لأن المدفع أداة حرب والحرب دمار، والمطبعة أداة علم والعلم عمار."⁽¹⁾ فالقلم والكتاب يعكسان قوة الفكر والمعرفة. لذلك عرفت الثورات عبر تاريخها الاعتداد بالقوة الفكرية، فكان سلاح الكتاب مرتبطا بالعلم وحاميا للتراث الثقافي والحضاري لأي مجتمع. ناهيك عن الدور التربوي والتعليمي له.

فالكتاب والتأليف من الوسائل التي احتلت موقعها بقوة في منهج الإبراهيمي التربوي. فمثلا بذلك أرضية ينهل الطلاب والعلماء من معين معارفهما، وشعلة تنير طريقهم. فدعا إلى ضرورة التأليف والطباعة، مبينا القضايا التي تحتاج الجزائر إلى توضيحها والتأليف حولها في تلك الفترة، خصوصا توجيه الأمة إلى جوانب الفكر والمعرفة وتذكيرها بخصوصياتها وأبعاد تاريخها. مرشدا الكتاب في قوله: "إننا لا نريد التضيق عليكم كُتَّابَنَا الكرام وإنما نريد إلفاتكم إلى الميادين الفسيحة والمراعي الخصيبة وتوجيهكم إلى ناحية الفكر العميق والبحث المنتج فأمامكم من المواضيع ما تنفذ الأعمار ولا ينفد. أمامكم حقائق الدين وفضائله، وآداب الإسلام وحكمه فاشرحوها وبيّنوها، وأمامكم السنن الميثة فأحيوها نشرا ونصرا كما أحييتموها علما وعملا، وارفعوا أصواتكم بلزوم إحيائها، وأمامكم مباحث التاريخ الإسلامي وعبره وعظاته وسير أجداده فأحيوها تحيوا بها و تُحيوا، أمامكم أمراضنا الاجتماعية وجوائحن النفسية والخلقية التي حجبت عنا وجه الحياة، وأخفت علينا مسالكه فاشرحوا الداء وبيّنوا الدواء، ومزقوا الجلايب التي أضفاها الجهل على عقولنا فلم تفقه معنى الحياة."⁽²⁾

بعد أن وضّح الإبراهيمي أهم معالم التأليف والكتابة. أبرز ضرورة تربية الناشئة على الكتابة والاعتداد لها بقراءة ومطالعة أهم الكتب القديمة والحديثة، فتكون لهم قاعدة ينطلقون منها في التأليف فتتسع أذهانهم وتستنير بصيرتهم، متحرّين في ذلك اللغة الدقيقة تدريجيا. معتمدين على أنفسهم، إذ ينصح الكتاب خاصة الجدد منهم في قوله: "نصيحتنا إلى هؤلاء وإلى ناشئتنا الكاتبة أن ينظروا لأنفسهم وأن يعتمدوا عليها، وأن يدمنوا القراءة لآثار فحول الكتاب من قدماء ومحدثين، وأن يحملوا أقلامهم على احتذائها بالتدريج، وأن

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 324.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 211.

يتكثروا بحفظ اللغة الأدبية، ويتبصروا في مواقع استعمالها في التراكيب، وأن يكونوا عصاميين في الأدب والكتابة.⁽¹⁾

ويؤكد الإبراهيمي على ضرورة الاعتماد على النفس في الكتابة والمطالعة من جهة، وبوجههم من جهة أخرى إلى ما يطالعون، وهذا ليس من باب التناقض وإنما من باب استثمار الوقت وتنظيم القراءة نظراً لمحدودية أوقاتهم، خاصة مع مشاغل الحياة وظروف الواقع آنذاك. فالشباب في "حاجة إلى قراءة القديم النافع، والحديد العامر، وفي حاجة إلى الإرشاد الخاص إليهما، ومن حقهم علينا أن نرشدهم إلى تنظيم القراءة، وأن نبين لهم ما يُقرأ وما لا يُقرأ لأن أوقاتهم محدودة."⁽²⁾

هذا بالنسبة للتأليف فيما يتعلق بالعمل الإصلاحي بصفة عامة، أما في المجال التربوي والتعليمي في المدارس فقد خصها الإبراهيمي مع جمعية العلماء ببرنامج حافل للتلاميذ وللمعلمين في سير عملهم، وكان ذلك بطلب من المعلمين، وقد عرف هذا البرنامج في أوساطهم باسم «مرشد المعلمين». وقد جاء ذلك على لسان محمد الغسيري* في قوله: "وضع أستاذنا الجليل برنامجاً حافلاً للتعليم العربي بجميع أنواعه، وضمّنه أصولاً عظيمة من علم التربية، سألناه أن يجرد لنا منه فصولاً عملية تتعلّق بالسنوات الست الابتدائية ففعل حفظه الله، وسلّمه لنا لنطبعه ونتنفع به. وطالعناه فلم نجد كالب برامج المعتادة، وإنما «معلم مكتوب» فهو يأخذ بيد المعلم ويسير به خطوة، خطوة إلى الغاية لا يضل عنها ولا يجور. وكأنما هو ملقن وراء المعلم يملي عليه الكلام ويرشده إلى كيفية العمل، لذلك أثار مجموعة من قدماء المعلمين تسميته «مرشد المعلمين»."⁽³⁾

إضافة إلى الإشادة بتلك الكتب القيمة التي تُرغّب التلاميذ في العلم والتعلّم ومن نماذج تلك الكتب كتاب «نقرأ و نكتب» وهو كتاب صغير وضع لتعليم اللغة عند الأطفال يثير في نفس التلميذ الرغبة في

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 295.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 397.

* محمد الغسيري: محمد بن أحمد يكن الغسيري المنصوري الغسيري ولد سنة 1915 بمنطقة الأوراس، ولقب بالغسيري نسبة إلى القرية التي نشأ فيها- غسيرة- تتلمذ في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أهتم الأستاذ محمد خير الدين بيسكرة والذي أرسله فيما بعد إلى الإمام عبد الحميد بن باديس ليتدبر دراسته، ليزاول مهنة التدريس بعد فتح فرع مدرسي بباتنة سنة 1937م، توفي 24 جويلية 1974م من آثاره بعض المقالات التي نشرت في بعض المجلات أهمها: عدة من الشرق، وكتاب صورة من حياة ونضال الزعيم الإسلامي والمصلح الديني الكبير الشيخ عبد الحميد بن باديس.

(3) - الإبراهيمي الآثار، ج2، ص 108. (وضع الإمام الإبراهيمي رحمه الله هذا المرشد بقرية آفلو في رجب 1361 الموافق ل يوليو 1942. ولم تكن المطابع على استعداد لطبع مثله، فطبع أمثلة خطية "كليشيات". ونشر في البصائر، العدد67 السنة الثانية من السلسلة الثانية، 14 فيفري 1941.)

القراءة والكتابة ويوضح معناها لديه، رغم بعض النقائص فيه يعتبره الإبراهيمي محاولة أولى ناجحة مشجعة للمؤلفين والمعلمين في جمعية العلماء على "متابعة التأليف المدرسي ومراعاة الإتقان فيه، وبنائه على التجارب من جهتهم، والاستعدادات من جهة تلامذتهم، فنكون قد استفدنا من فائدتين: التحقيق لتوحيد التعليم كما نرجوه ونعمل له، والاستغناء عن الكثير مما لا نحتاج إليه." (1) ويدل تأليف هذا الكتاب على ضرورة مراعاة قدرات التلاميذ واستعداداتهم للتعلم، فلا يتجاوز فيه قدراتهم العقلية بل يأخذها بعين الاعتبار، وهو ما تؤكد عليه النظريات في علم النفس بأن تتوافق المعارف المدرسة ومراحل النمو لدى المتعلمين وقدراتهم العقلية، ولم يغيب الإبراهيمي البعد النفسي ودوره لهذه الفئة الموجه إليها الكتاب من خلال تضمينه لصور لطيفة تجذب التلاميذ وتجلب القراءة إليهم. ومن جهة أخرى شكّل لبنة أولى في تأسيس وبناء تعليم موحد يعبر عن خصائص الأمة مركزاً على ما يحتاجه التعليم الوطني، مستغنياً في الوقت نفسه عن كثير مما لا يحتاجه مما وجد في بعض المؤلفات التي كانت تستورد بهدف التعليم.

كما يظهر دور الكتاب من خلال التحفيز على القراءة والمطالعة، مما يغذي الفكر ويوسّعه، ويبين الإبراهيمي أن الحقائق والمعارف يتم تحصيلها من خلال البحث والتعلم لا التلقي فقط، مما يفتح مختلف المجالات العلمية والمعرفية أمام المتعلمين للتّهل من معيّناتها، فلا يمكن بناء نهضة الجزائر إلا بالعلم والمعرفة، ما أكّد عليه الإبراهيمي مراراً، ويظهر ذلك من خلال عمل الجمعية، فهي "تبث في أساندها وتلامذتها وجميع أعضائها المتعلمين على طريقتها روح المطالعة النافعة والبحث العلمي السديد، وترشدهم إلى كيفية المطالعة وطرائق البحث في التاريخ والاجتماع والآداب، والرجال والكتب، وإن كان المتأهلون لهذه المباحث الآن تصدهم عنها شواغل الدروس وغيرها، فإن التّهضة الجزائرية العلمية التي كونتها جمعية العلماء والحركة الفكرية التي غذتها ستمحضّان ناشئة تساهم في الأبحاث العلمية إن شاء الله مساهمة قيمة." (2)

وفي نفس الوقت ينوّه الإبراهيمي بضرورة الموضوعية والعلمية والكتابة المفيدة، وتجنب الكتابات الفارغة والعناوين التي توهم بعكس ما يتضمنه الكتاب، وهذا ما بيّنه انتقاده لأحد الكتب آنذاك، وهو كتاب: «السعادة الأبدية» حيث لم يتضمن الكتاب أي لمسة شخصية للكاتب، ولا يعبر عن أنه نتاج ذاتي لذهنه، فمن الموضوعية أن ينسبه إلى صاحبه معتبراً كتابه مجرد دراسة أو نقد له، ومن جانب آخر ينتقد الإبراهيمي

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 338.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 108.

بعض المدرسين المؤلفين لدى الحكومة الفرنسية نظرا لغاياتهم الشخصية وراء التأليف أهمها تحصيل الجانب المادي.⁽¹⁾ ومنه لا بد من التحلي بالموضوعية والعلمية وعدم الكتابة في موضوع ما إلا بعد الإلمام به. وأن يكون ذلك الموضوع ضمن مجال تخصص الكاتب والباحث فيحسن الكتابة والتحليل. ما يؤكد قول الإبراهيمي: "الإحسان الإحسان - أيها الكتاب الكرام - فلا تكتبوا إلا فيما تحسنون موضوعه." ⁽²⁾

ويقترن التأليف بالطباعة، فقد حال الوضع المادي دون توفير الطباعة، ما شكل عائقا لتحقيق فعالية هاته الوسائل التربوية، فبواسطتها تنعكس الأفكار وتنتقل من المؤلفين والمفكرين إلى الجماهير، فكانت دعوة الإمام إلى ضرورة اقتناء الطابعات في العديد من المناسبات خاصة في جريدة البصائر. "لولا المطبعة ما ارتقى علم ولا فن ولا صناعة ولا تجارة ولا عمران، ولولا المطبعة ما تمّ للنهضات العقلية والفكرية والفنية تمام، ولولا المطبعة لما أحيى الخلف مآثر السلف فوصلوا بها حلقات التاريخ العلمي." ⁽³⁾

إن أثر الكتب بمعارفها وعلومها على الأفراد قد يفوق أحيانا تأثير الوعاظ والمرشدين، فهي تنمي ملكة البحث عن الحقائق لدى المتعلمين وتوسّع مدركاتهم، فهذا الأثر بمثابة بناء ذاتي للذات يمكنها من بناء نظرتها للحياة، والهدف من وجودها، حيث يصبح المتعلم مرتبًا ومكونًا لذاته، ومنه تحتزل هذه الوسيلة جهودا تربوية عديدة وتكملها. وبناءً على ما سبق يمكن تحديد أهم المجالات التي ينبغي التأليف فيها في نظر الإبراهيمي مما يساهم في مشروع تربوي إصلاحي وتمثل فيما يلي:

- إبراز حقائق الدين الإسلامي وفضائله للإنسان وما قدمه للبشرية قاطبة.
- شرح آداب الإسلام وأحكامه و حكمه للناس و تبيان أخلاقه.
- إحياء السنن المهجورة والانتصار لها، والتأكيد على ضرورة إحيائها بتعليمها والعمل بها، وتربية النشء عليها.
- التطرق إلى التاريخ الإسلامي من خلال مآثره وسير عظمائه. فيكون تربية بالأسوة والقدوة وزيادة في الاعتراف بتاريخ الأمة.

(1) - المصدر السابق، ج1، ينظر مقاله: "كتاب السعادة الأبدية" من: ص 212 إلى ص 220.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 211.

(3) - المصدر نفسه، ج4، ص 324.

- التأليف في المجال الاجتماعي ظواهره وأمراضه وتقديم الحلول لمشكلاته، وتحطيم الأصنام التي افتعلتها العادات الاجتماعية غير الصحيحة التي حجبت النفوس والعقول عن إدراك الحقائق.
- الدعوة إلى طلب العلم، والتمسك بأسبابه والأخذ من أقطابه. من خلال توضيح فوائده والترغيب فيه والتنبيه عن عواقب التخلف عنه.
- علوم اللغة وآدابها بحثاً وتنقيباً، وإبراز فضلها وفضل تعلّمها وترسيخها لدى ناشئة الأمة.
- التأليف في المجال التربوي والتعليمي والعلمي، بهدف تربية وتعليم أبناء الوطن تعليماً يؤسّس لخصوصيات المدرسة الجزائرية، ويربطها بمستجدات العلوم.
- مجال الدين و العلم و ما يتضمنانه من فروع و آفاق للبحث. ⁽¹⁾

هذه بعض المجالات التي يمكن أن تؤسس لتربية جيل يرتبط بمقومات الأمة ويصلها بالحاضر ومختلف متغيراته خصوصاً التغيرات والتطورات العلمية. ومن خلال ما سبق يتضح مدى ضرورة الوسائل التربوية في أي منهج، ولا يمكن جمعها في وسيلة واحدة أو أسلوب معين، بل هي متعددة بتعدد الغايات ومتغيرات الواقع والعصر، لذلك تطرق الباحث إلى أهم تلك الوسائل بأساليبها بداية من المدرسة وما ارتبط بها وصولاً إلى الكتابة والتأليف، كما توجد وسائل أخرى ترتبط وتشابك مع الوسائل والأساليب السابقة من بينها:

2.2. 6. البعثات العلمية للمصلحين و الأئمة إلى نواحي القطر الجزائري :

من خلال إرسال بعثات من المشايخ والمرشدين يلتقون بالطلاب والعامّة من الناس محاضرين ومرتبين، فقد كان من "وسائل الجمعية لنيل غايتها تسمية من فيه الكفاءة من أعضائها وعاظماً مرشدين لترسلهم على نفقتها إلى نواحي القطر، وتنظم لذلك رحلات تراعي فيها عدّة اعتبارات: أن تلقى المحاضرات بلغة عامية أوقربية من العامية، وأن يكون المحاضر المتجول مبشراً لا منفراً." ⁽²⁾ وقد تم الإشارة إلى ذلك في معرض الحديث عن منطلقات المنهج التربوي حيث كانت بعثاتهم ذات مغزى توعوي تنويري تربوي.

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 211.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 85.

2. 2. 7. الاحتفالات وإحياء المناسبات الدينية و الوطنية :

ركز الإبراهيمي على المناسبات والاحتفالات الدينية نظرا لما تتضمنه من إذكاء للمشاعر وإحيائها، ولما تُبني من تواصل بين العلماء فيما بينهم وبين العامة، ويظهر ذلك في الاحتفالات المقامة في افتتاح المدارس والمعاهد وكذا في اختتام السنوات الدراسية وتخرج الطلاب، وكذا في الاحتفالات المصاحبة لافتتاح المساجد وغيرها من المناسبات، إذ تمثل هذه الاحتفالات "للدعاة ميادين دعوية يجردون فيها متسعا رحبا لنشر آرائهم بدون كلفة وبدون نفقة لأنها تحشد لهم طبقات من الناس ما كانوا ليستطيعوا جمعها، وهي للمرشدين والمرتبين الاجتماعيين فُرص بث الإرشاد بين الجمهور وتوجيهه للخير والمنفعة... إن هذه الاحتفالات بمثابة دروس تطبيقية، معظم تلامذتها من الدهماء الذين حرموا المدارس والدروس النظامية... وإن أكثر الناس استفادة من الاحتفالات و أبلغهم إفادة وأثقلهم عهدا في توجيهها إلى الصالح النافع أو الفاسد الضار هم الخطباء، فعليهم وحدهم يتوقف إصلاحها أو إفسادها." (1)

فلكل أمة في نظر الإبراهيمي بواعث تاريخية تدفعها إلى إقامة تلك الاحتفالات لما لها من فوائد وهذا ما تنبّهت له الأمم الحية، فجعلته جزءا من حياتها. والأمة الإسلامية لأغنى بهذه البواعث التاريخية، ومن أروع الاحتفالات التي شهدتها الجزائر في عهد الإبراهيمي الاحتفال بافتتاح دار الحديث بتلمسان، أين احتشدت له الأمة وتكلم فيه العلماء، إضافة إلى الاحتفال بحتم الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله تفسير القرآن الكريم بالجامع الأخضر بقسنطينة، فكان ذلك دليلا على نظام الاحتفالات وعلى ما يبثه من روح التأسي في الصالحات الذي تحيا به الأمة وتنتعش. (2)

تعدد هذه الوسائل والأساليب في طابعها وطرائقها كما تتكامل فيما بينها، فمبادئ العلماء والمفكرين لم تتغير في جوهرها، وإن كانت الوسائل خاضعة للظروف فهي لم تتغير في جوهرها وفي الغاية التي وجدت من أجلها، ويتضح ذلك في قول أبو القاسم سعد الله مبينا مهمة بعض هذه الوسائل: "فالمسجد كان للوعظ والإرشاد بطريقة العلماء الجديدة في فهم الدين ودوره في الحياة، والمدرسة كانت لتربية وتعليم النشء الجديد وتخريج إطارات الثقافة العربية الإسلامية، والنادي كان للتوعية والتوجيه الوطني بالخطب والمحاضرات والمسامرات

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 328.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 329 - 334.

والمسرحيات والأشعار والأناشيد. والصحافة كانت لنشر المبادئ والأهداف والدعوة إلى اليقظة، والدفاع عن الجمعية ضد خصومها سواء كانوا من الإدارة الفرنسية أو من قطاعات المجتمع الأهلي. ⁽¹⁾

كانت هاته أهم الوسائل والأساليب التي قام عليها المنهج التربوي عند الإمام البشير الإبراهيمي، والتي ارتبطت بخصوصية الظرف والواقع المرير الذي عاشته الجزائر وعائشه الانسان الجزائري، غير أن هذا الواقع لم يُثنِ من عزائم المصلحين لتبني خطاب التربية والإصلاح واستثمار كل ما أتى من وسائل وسبل في سبيل تحقيق نهضة علمية وتربوية جزائرية. ومنه يتوجب التساؤل عن أهم الغايات التربوية التي تضمنها منهج التربية عند الإبراهيمي كمرحلة ثالثة في منهجه التربوي، فما أهم الغايات التربوية التي كان يهدف إليها الإبراهيمي؟

2. 3. الغايات و الأهداف:

الغاية من وضع أي منهج هو رسم الطريق وتوضيحه لتحقيق مجموعة من الغايات والأهداف على المستوى القريب أو البعيد، والمنهج التربوي والإصلاحي للبشير الإبراهيمي لا يخلو من غايات يسعى إلى تحقيقها. فبعد قراءته للأمة الجزائرية وواقعها وما يميزها من تركيبة بشرية ومادية وظروف اجتماعية وسياسية، رسم منهجه وحدّد غاياته التي كانت في مجملها نابعة من منبعين هاميين يتمثلان في الدين الإسلامي بتراثه الثقافي والأخلاقي، وفي الواقع الجزائري بمختلف تجلياته ومشاكله، بما في ذلك خصوصيات الشعب الجزائري. إذ لم تنفصل تلك الغايات عن الدعوة إلى إحياء مقومات الشخصية الجزائرية من دين ولغة، والعمل على استقلال الجزائر. ويورد الباحث أهم تلك الأهداف مع التركيز أكثر على الأهداف التربوية وهي على النحو الآتي:

تحقيق الاستقلال و بناء الوطن :

أول ما كانت تسعى إليه معظم الحركات والاتجاهات الوطنية من خلال نضالها في الجزائر بناء دولة جزائرية مستقلة، والتخلص من هيمنة الاستعمار الفرنسي. ويتضح هذا الهدف جليًا في تربية الإبراهيمي للأجيال على حبّ الوطن والاعتزاز به والانتساب إليه والتضحية في سبيله. ومشروعه التربوي يؤكد على ضرورة التأسيس لمجتمع جديد يحمل خصوصيات الأمة الجزائرية " فإذا كانت الأمم المتقدمة التي قطعت أشواطًا بعيدة في التطور تجعل الغاية من جهودها التربوية المحافظة على استقرار الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

⁽¹⁾ - أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية، 1930-1945، ج3، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط4، 1992، ص90.

والسياسية القائمة، وإعداد الأجيال الصاعدة للتمكين لهذه الأوضاع وتقويتها، فإن الأمر يختلف تماما بالنسبة للأمم التي تعاني التخلف والتبعية الاقتصادية والسياسية، أو تلك التي تخضع لاستعمار يحتل أراضيها، وذلك أن الجهود التربوية لهذه الأمم يفرض عليها الواقع أن تتوجه نحو التمهيد لتغيير جذري يقضي على كل العناصر السلبية ويعمل لإيجاد مجتمع جديد.⁽¹⁾

وما التربية التي دعا إليها الإبراهيمي والتعليم الذي ميز مدارس جمعية العلماء إلا عمل وتمهيد لبناء مجتمع جديد من خلال استقلال الشعب في دينه ولغته ووطنيته وأخلاقه. فإذا استقل في ذلك أمكن للوطن أن يوجد ويستقل بذاته. فلا استقلال لوطن دون استقلال الثوابت الوطنية. " فلا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس ولغة ودين وتقاليد صحيحة وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة، وتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغلاة بقيمتها وبميراثها، والإمعان في ذلك كله حتى يكون عقيدة راسخة تناضل عنها، وتستमित في سبيلها، وترى أن وجود تلك المقومات شرط لوجودها فإذا انعدم الشرط انعدم المشروط. ثم يفيض عليها من مجموع تلك الحالات إلهام لا يُغالب ولا يُرد، بأن تلك المقومات متى اجتمعت تلاقت ومتى تلاقت ولدت «وطنا».⁽²⁾

فامتزاج هذه المقومات بمثابة ميلاد جديد للوطن، وتحقيق الاستقلال وعملية البناء ينطلقان من تلك الأفكار والأعمال التي تخضع لقانون التطور الذي يحكم الأفكار والأشياء، فتتجسد الأفكار كحقائق وينتقل الاستقلال من فكرة إلى واقع. فالجزائر تحمل بذور تطورها في ذاتها، في ماضيها وتاريخها، إذا أحيها العلماء وهبّ الشعب إلى احتضانها. واستقراء التاريخ يبين أن أي أمة امتلكت موجبات نهضتها وتطورها بداية من العنصر البشري فستحقق ذلك لا محالة. والأمة الجزائرية تتضمن مختلف الأسباب والوسائل لذلك، فالواجب تعهدها وتوجيهها من خلال التربية. " فالأمة الجزائرية قابلة للتطور، وقد اقتضاها الوجود فوجدت، والتزمها التطور فظهرت، وقد حان حينها وشبت عن طوق الخفاء، فتكونت كالنبته يراها الرائي ضعيفة طرية لينة ويراها مع ذلك تشق الأرض الصلبة والتراب المتماسك في طريقها إلى الكمال، وما لقوة النبتة خضعت الأرض

(1) - محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 429، 430.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 64.

الصلبة ولكن لقوة الحياة وسلطان الوجود." (1) فبناء الوطن وضمان تطوره يتم كما يتم تعهد نبتة في نموها، وتطورها من مرحلة إلى أخرى في الحياة، والوقوف اتجاه كل ما يعيق ذلك النمو من عوائق.

وتأكيداً لمنطق العمل الذي يؤكد الشيخ الإبراهيمي فإن بناء الوطن وتحقيق استقلاله لا يكون إلا بالعمل. فحتى في البناء المفاهيمي يرفض الإبراهيمي كلمة «طلب الاستقلال» لأن معناها في الواقع طلب الحق من غاصبه أو طلب الملك من سالبه، والصواب هو «العمل على الاستقلال» لأن العامل للشئ بأسبابه وبوسائله آخذ له بالاستحقاق الطبيعي، فالاستقلال يؤخذ ولا يعطى، ومن شروطه الإيمان به مع التصميم له، ثم العمل عليه مع الإصرار، ثم المحافظة عليه بعد تحصيله. (2)

ويؤكد الإبراهيمي على هذه الغاية صراحة في إطار نشاطه ضمن جمعية العلماء، حيث كان المنطلق ومبدأ العمل فيها "يرمي إلى غاية جليلة، فالمبدأ هو العلم، والغاية هي تحرير الشعب الجزائري، والتحرير في نظرهما قسمان: تحرير العقول و الأرواح، وتحرير الأبدان و الأوطان، والأول أصل للثاني، فإن لم تتحرر العقول والأرواح من الأوهام في الدين و الدنيا كان تحرير الأبدان من العبودية و الأوطان من الاحتلال متعذراً أو متعسراً." (3) فالاستقلال والتحرير الذي يرنو إلى تحقيقه الإبراهيمي يشمل الوطن ببعديه المعنوي والمادي، فتحرير البعد المعنوي يكمن في التحرير التدريجي لروح وعقل الشعب الجزائري من الأوهام والأصنام التي استعمرت ذهنه. وتنقية تعاليم الإسلام مما لحقها من شوائب وبدع بفعل المستعمر وبعض الطرقيين. فإذا استقلت العقول في تفكيرها فاهمة لمعنى الحياة وغاياتها، وأشعت مقومات الأمة في روح الشعب فأنارته وأحيتته، آن له أن ينتفض على العبودية، عاملاً على تحقيق الاستقلال في بعده المادي لأنه وضع الأساس الذي يقوم وينبني عليه ويضمن له الاستمرارية. ومبدأ التحرير ومنطلقه العلم، لذلك ركز المنهج التربوي الإبراهيمي والمسعبي الإصلاحية لجمعية العلماء على ضرورة تكوين جيل متعلم ومحاربة الأمية التي تفتشت في المجتمع.

وما يفسر هذه الغاية من جانب ويحققها من جانب آخر مختلف الأعمال و الجهود المبذولة في سبيل التأسيس لثقافة عربية إسلامية. وإحياء ما اندثر منها، وإنشاء مدرسة وطنية تحتضن مقومات الأمة الجزائرية وتربي الناشئة عليها. إضافة إلى بناء رأي وطني، ونشر الوعي بضرورة الوحدة الوطنية وتجاوز

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 129.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 405.

(3) - المصدر نفسه، ج4، ص 343، 344.

الانشقاقات واختلافات التحزبات السياسية والتعصبات الأيديولوجية التي من شأنها أن تُغيّر المسار نحو المصالح الفردية، فتتحول دون تحقيق الهدف العام والأسمى وهو تحرير الوطن. وهذا ما يحيل من وجهة أخرى إلى ضرورة الائتلاف والوحدة السياسية في المبادئ والغايات العامة التي ترتبط بمصلحة الوطن لا الأشخاص، فالهدف من الجهود التربوية والنضال السياسي في الجزائر هو نيل الاستقلال. لذلك يعتبر الإبراهيمي أن جهود المصلحين، ونشاط الممارسة السياسية يجب أن يتجه نحو غاية واحدة وهي «إيجاد الأمة الجزائرية» ولا يمكن للأمة أن توجد إلا من خلال تثبيت مقوماتها. (1) كما يرتبط تحقيق هذه الغاية ويقوم على تحقيق أهداف أخرى من خلال العمل على إحياء مقومات الشخصية الوطنية.

إحياء مقومات الشخصية الوطنية و الحفاظ عليها :

من أهم الأهداف التي سطرها البشير الإبراهيمي في منهجه التربوي إحياء مقومات الشخصية الوطنية والحفاظة عليها، وقد كان هذا الهدف مشتركا بين الكثير من المصلحين والعلماء، خصوصا لدى جمعية العلماء المسلمين، من خلال تكريس روح الوطنية في الأجيال وتعريفهم بحقائق بلادهم وأمجاد تاريخهم الحقيقي لا الذي كان يلقته و يلفقه الاحتلال. إضافة إلى إحياء الدين الإسلامي وقيمه في نفوس المتعلمين ومختلف فئات المجتمع في الجزائر وخارجها، والعودة إلى اللغة العربية التي أصبحت في أزمة، غريبة في وطنها في ظل انتهاكات المستعمر لها، أين عمل على إبادتها، كما أنها ظلمت من طرف بعض بنيتها الذين هجرها، فاللغة تعتبر إطار الفكر ومدماك المنتج المعرفي فوجب إحيائها، لذلك يؤكد الإمام الإبراهيمي عليها معتبرا أن:

"اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حماها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواحي مع الحاضر، طويلة الأفتان مع المستقبل، ممتدة في الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام ... فأصبحت لغة دين ودينا، وجاء دور القلم والتدوين فدونت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانيته." (2) وتبرز أهميتها في المحافظة على المقومات الأخرى نظرا للبنية الترابطية معها، خصوصا الدين الإسلامي، لأنها اللسان الذي تنطق به هذه المقومات، ولأن أي ثقافة أو حضارة قامت بلغتها لا بلغة غيرها، ولأنها عنصر رئيس في المحافظة على ثقافة وتراث المجتمع الذي ترتبط به وخصوصا تراثه الفكري.

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 64.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 206.

لذلك كانت محاربة الاستعمار للغة العربية في غاية العنف، واعتبرها العقبة الكبرى إلى جانب الدين الإسلامي في طريقه إلى ابتلاع الجزائر نهائياً في الكيان الفرنسي. ويبين تركي رابع عمامرة أن المحافظة على مقومات الشخصية الوطنية يكون من خلال المحافظة على اللغة العربية، الدين الإسلامي، وعلى التاريخ الجزائري والثقافة العربية الإسلامية والوطنية الجزائرية وبذلك ترسخ هذه المقومات لدى الأفراد.⁽¹⁾

ويؤكد عبد القادر فوضيل أنه من الغايات التربوية التي حرص عليها البشير الإبراهيمي الدفاع عن الذاتية الجزائرية التي هي العروبة والإسلام مجتمعين في وطن واحد، وإحياء مجد اللغة العربية وآدابها وتاريخها، وتذكير المسلمين بحقائق دينهم وسير أعلامهم، وإحياء مجد الدين الإسلامي بتصحيح أركانه الأربعة العقيدة، العبادة، المعاملة، والخلق.⁽²⁾ فيظهر بذلك ارتباط إحياء مقومات الشخصية الوطنية بالتأسيس لوطن وأمة لها تاريخها وأمجادها، تسعى جاهدة لكتابة تاريخ حضاري جديد. فتظهر التدريجية والمرحلية في تربيته من غايات خاصة إلى غايات عامة.

والتعليم الذي يعلم للنشء من تلاميذ وطلبة، والتربية التي تكوّنهم وجب أن تسير نحو هذه الغاية "فغاية التعليم هي تفقيهه في دينه ولغته، وتعريفه بنفسه بمعرفة تاريخه، تلك الأصول التي جهلها آباؤنا فشقوا بجهلها، وأصبحوا غرباء في العالم، مقطوعين عنه، لم يعرفوا أنفسهم فلم يعرفهم أحد."⁽³⁾

فكل مجتمع وكل ثقافة لها أصل بمثابة القاعدة التي تقوم عليها، والأمم التي لا تركز إلى ماضٍ زاهر بزخمه ليس لها نصيب من الحاضر.⁽⁴⁾ وتطرق الإمام الإبراهيمي إلى ذكر غاية التربية أولاً ثم أردفها بغاية التعليم بعد ذلك، فهو تكملة لغايات التربية ووسيلة لتحقيقها، فلا يمكن أن يعرف الإنسان تاريخه إلا بدراسته، ولا يمكنه معرفة حقيقة دينه إلا بتفقهه فيه، كما نستشف من ذلك الحرص على ضرورة ارتباط التعليم بالأخلاق، فبعد التربية على القيم وتوضيحها يشرع في عملية التعلم العام، وتبقى التربية والتعليم تصبوان نحو غاية إعداد الإنسان الصالح الفاضل القادر على تحرير وطنه والنهضة به وأن يكون بحق خليفة الله في أرضه.

(1) - تركي رابع عمامرة، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، ص 324 - 341.

(2) - عبد القادر فوضيل، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص 43.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 275.

(4) - حسين سعد، بين الأصالة و التغريب، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط1، 1993، ص 68.

تحرير العقل الجزائري:

اكتنف العقل الجزائري الكثير من الأوهام والظلال الجزائري بفعل الاضطهاد الاستعماري والتضليل الطُّرقي، وهي أشبه ما تكون بتلك الأوهام التي سيطرت على العقل الإنساني في فلسفة فرنسيس بيكون كأوهام الكهف والسوق بل أشد تأثيراً وتعطيلاً للعقل. ومن انعكاسات الممارسات الاستعمارية على الجزائريين تقييد سلطان العقل وتعطيله، وتحجير الفكر، مما قيد الفرد الجزائري في شتى ممارساته وجعله خاضعا للآخر المستعمر، مقيدا فكريا وواقعا فيما يتعلق ببناء ذاته وصنع قراراته والتأسيس لحياته.

والغالبية من المواطنين الجزائريين آنذاك كانوا خاضعين لقيود فكرية وواقعية. مقيدون واقعا وفكريا بحاجة الاستعمار الذي عمل على القضاء على منابت الأفكار، وإشاعة مجموعة من الأوهام الدينية والاجتماعية والسياسية من شأنها أن تُحجّر العقول وتحول دون التفكير بدعوى أن هناك من يفكر مكانك ويقرر مكانك. وهذا ما انعكس على طول أمد الوجود الاستعماري في الجزائر وصعب من مهمة استقلال الوطن. فتحريروا الوطن وأرضه مرهون بالتحريروا من القيد الأول وهو استعمار العقول والأرواح. من هنا كان من غايات التربية لدى الإبراهيمي تحرير العقول أولا، لأنه إذا تحررت واستنارت الأفكار تحررت الجوانب الأخرى تباعا فيتحرر الوطن أرضا وشعبا روحا وبدنا، فالتحرير قسمان كما تحدد في قوله سابقا أن "تحرير العقول والأرواح، وتحرير الأبدان والأوطان، والأول أصل للثاني، فإذا لم تتحرر العقول والأرواح من الأوهام في الدين والدينا كان تحرير الأبدان من العبودية والأوطان من الاحتلال متعذرا أو متعسرا." (1)

والباحث المعمق من طرف الإبراهيمي في خبايا الاستعمار وسياسته وواقع المجتمع الجزائري ونكباته جعله يدرك أن التحرر الفعلي هو التحرر الجيوبشري الحضاري بمختلف أبعاده، والذي لن يتم إلا بنشر التعليم ومحاربة الخرافات والفكر الظلامي الذي خيّم على شريحة هامة من المجتمع، لذلك تمثل كتاباته ورؤاه التربوية والإصلاحية وسيلة للإصلاح والمقاومة والتعبير عن الذات الواعية النزاعة للتحرر والانعقاد من قيود التسلط الاستعماري، فشجّع بذلك روح المقاومة والتحرر بجانبه الروحي والمادي. (2)

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 343، 344.

(2) - محمد بن ساعو، ثنائية الإصلاح والثورة من منظور الإبراهيمي، الثورة أفقا للحرية- محمد البشير الإبراهيمي أنموذجا، كتاب جماعي، مطبعة النشر الجامعي الجديد، تلمسان- الجزائر، ط1، 2017، ص11.

هذا ما يتضح في أهداف التربية التي عمل عليها الإبراهيمي مع كثير من المفكرين والمصلحين في جمعية العلماء المسلمين بالتركيز فيها على البعد الروحي والعقلي، ثم الانتقال الى الجانب المادي، وهذا ما يظهر في الثورة التحريرية التي سبقها الإعداد النفسي والعقلي بتربية الأجيال ونشر ثقافة التحرر ثم تفجير الثورة، ومنه كان عمل الإبراهيمي في إطار جمعية العلماء منصبا على ذلك. هذا ما يحدده في قوله: "أول يد بيضاء لها في هذا الباب تحرير العقول من الأوهام والضلالات في الدين والدنيا، وتحرير النفوس من تأليه الأهواء والرجال، وإن تحرير العقول أساس لتحرير الأبدان، وأصل له، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا."⁽¹⁾

فإذا كان هدف الرؤى الإصلاحية والجهود الثورية تحرير أرض الجزائر التي هي بمثابة بدن لأبنائها، لا بد أن تكون الانطلاقة من تحرير العقول وتنويرها، فيدرك الفرد حقيقته ومقوماته، ويميز بين الصالح لقيادته والمدمر لكيانه، مما يساهم في توضيح الطريق الذي يؤسس به لحضارته، والذي يكون منطلقه التوحيد، انطلاقا من توحيد الله والدين إلى توحيد الرؤى والتوجهات المختلفة فكريا، سياسيا واجتماعيا، فمن خلال: " التحرير الذي كان أساسه توحيد الله تمكنت الجمعية من توحيد الميول المختلفة والمشارب المتباينة، والنزعات المتضاربة، وبذلك التحرير أيقظت في الأمة قوة التمييز بين الصالح من الرجال والمبادئ... وبذلك التحرير أراحت الأمة من أصنام كانت تتعبد لها باسم الدين وباسم السياسة، وبذلك التحرير زرعت البذرة الأولى لما يسمى الرأي العام في الجزائر، وتكون الرأي العام بمعناه الصحيح هو بلوغ الرشد بالنسبة للجماعات."⁽²⁾ ومنه فتح تحرير العقل ينير طريق التحرر العام ويرسمه، فيتم التوصل إلى رؤية مفيدة للصالح العام أو ما عبر عنه الإبراهيمي بتكوين الرأي العام من خلال استقاء الآراء، فتزول الحزبية والتعصب ويتشكل وعي جماعي راشد يساهم في حل المشكلات المطروحة.

وإذ قلنا تحرير العقل نستنتج هدفا آخر يُبنى عليه وهو التفتح وعدم الانغلاق على الذات بشرط المحافظة على المقومات الوطنية، هذا ما يظهر في مواقف البشير الإبراهيمي المؤكدة على المرجعية الدينية ومقومات الشخصية الوطنية من جهة. وفي دعوته إلى التجديد والثورة على التقليد وعلى ضرورة الإقبال والنهل من العلوم المعاصرة المساعدة على التطور، سواء في رحلاته نحو عديد من الدول مفيدا ومستفيدا، أو في حثه لطلبة العلم الإقبال على مختلف العلوم الحديثة، تقنية كانت أو اجتماعية. بل وكان التأكيد على الفلسفة والعلوم

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص56.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص56.

الاجتماعية والنفسية أكثر نظرا للراهن الذي كانت تعيشه الجزائر آنذاك وحاجتها لعلوم تفيد في نشر الوعي الفكري والحضاري ومعالجة المشكلات قبل وقوعها.⁽¹⁾

ويرتبط تحرير العقل بهدف آخر وهو تحرير الإنسان من الجهل والامية، فمن الغايات التي تدرج ضمن هذه النقطة القضاء على الامية، وقد أخذت اهتماما كبيرا في فكر الشيخ التربوي، فإضافة إلى عمل المدارس والمساجد، لتعليم الكبار والنساء للقضاء على الامية. بهدف الوصول إلى جيل مثقف فعّال يبدد الظلامية التي خلفها المستعمر بسياسته التجهيلية، وهنا يبرز دور العمل التربوي ومهمة المعلمين والمربين في الأمة، إذ يبين الإبراهيمي حاجة الأمة إليهم قائلا: "إنّ حاجتنا إليكم أن تنقذوا هذا الجيل الناشئ من الامية التي ضربت بالشلل على مواهب آبائهم، وكانت نقصا لا يعوض من إنسانيتهم، ثم كانت سببا فيما يعانونه من بلاء وشقاء."⁽²⁾

فاستمرار الامية سيخلف جيلا لا يختلف عن الأجيال السابقة المتخلفة، جيلا مشلول الفكر والإرادة. لأن من آثار الامية القضاء على المواهب والطاقات، ولن يتغير بذلك الواقع الذي عاشه الآباء بل يزداد مرارة لأنها أدت إلى تعطيل العقل والتفكير. فالأطفال غير المتعلمين اليوم، "مشردون في الحاضر، بلاء على الأمة في المستقبل، والحكومة لا تعلمهم لأن تعليمهم منافٍ لمصلحتها."⁽³⁾

وقد بيّن الإبراهيمي أن أكبر "جناية تجنيها الامية على الأمم هي القضاء على التفكير، والتفكير هو المعيار الذي توزن به القيم العقلية في الأمة سموا و إسفافا، ومحال أن يسموا تفكير الأمي لأن فكره في قفص من أميته، وهو كالطائر الذي قُصّ جناحاه فلا يغنيه عن ذلك أن يكون اسمه (طائر)"⁽⁴⁾ فالتفكير هو الذي يرتقي بالإنسان إلى مصاف الإنسانية والشعوب المتحضرة، فالتفكير والعلوم هما ميزان الأمم الراقية على مدار التاريخ. فلن يتحرر الوطن وهذا الشعب الذي أشيعت فيه الامية والجهل وعُيِّب فيه العقل والعلم إلا بالتربية والتعليم.

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 129.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 286.

(3) - المصدر نفسه، ج5، ص 154.

(4) - المصدر نفسه، ج1، ص 202، 203.

تحرير الفكر الإسلامي من البدع والخرافات :

عمل المستدمر الفرنسي منذ دخوله الجزائر على القضاء على الدين الإسلامي، موظفاً مختلف الوسائل في ذلك، من مصادرة لأوقافه، تحويل المساجد إلى كنائس، التضييق على ممارسة الشعائر الدينية، إضافة إلى حملات التبشير والتنصير في مختلف أرجاء الوطن، كل هذا تيقناً منه بالدور والمكانة التي يحتلها الدين الإسلامي في نفوس الجزائريين ووحدهم، وأنه لن تتحقق غايات الاستعمار إلا بالقضاء عليه وعلى لغته فقد "جاء الاستعمار الدنس إلى الجزائر يحمل السيف والصليب، ذاك للتمكّن وهذا للتمكين، فسلك الأرض واستعبد الرقاب... كان استعماراً دينياً مسيحياً عارياً، وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم، وانتهك حرّماته من أول يوم." (1)

ومن الأساليب التي انتهجها الاستعمار العمل على تحطيم القيم الأخلاقية ونقل الانحلال الأخلاقي من الثقافة الغربية إلى الثقافة الجزائرية على أنه مدنية وتحضر، إضافة إلى شراء ذمم الكثير من الأئمة والطرفيين فيملي لهم تشريعاته على أنها من الدين، و يشيع البدع والخرافات في المجتمع. هذا ما يلخص الغزو الفكري الذي انتهجه الاستعمار في جانبه العقلي والروحي، من خلال التمكين لثقافته القائمة على الاستلاب والعبث بثقافة الآخر المغلوب عليه فتتغير أفكاره ومعتقداته.

إضافة إلى ما ابتدعه أهل الطّرق الفاسدة بعد أن باعدوا بين الأمة الإسلامية وبين قرآنها، ومكّنوا فيها خلق الخوف منهم والرجاء فيهم والطاعة والخضوع لهم، وأصبحت مقاليد العامة والدّهماء - وهم أعظم الأمة المحمدية في أيديهم. فأفسدوا فطرتها وأماتوا ما غرسه الإسلام فيها من فضيلة، وفكّكوا كل ما أحكم بينها من روابط الأخوة، وراضوها على الدّل والمهانة، وفرّقوها فرقا وقسموها إلى مناطق نفوذ يتزاحمون على استغلالها. (2) فامتزج الفكر الإسلامي في الجزائر على غرار ما في البلاد الإسلامية الأخرى بكثير من البدع والخرافات، واختلط بنوع من الأفكار الطرقية في الجزائر، وأدّى ذلك إلى انحراف في فهم الدين، فقد أصبح الدين مشوبا

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 80.

(2) - محمد البشير الإبراهيمي، الطرق الصوفية، مقتطفات من تصدير نشرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بقلم محمد البشير الإبراهيمي، ط1، مكتبة الرضوان، الجزائر، 2008، ص 40.

بالخرافات المخزية التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، كعبادة الأولياء والأضرحة، والتي استغلت من طرف بعض المشايخ إما جهلا و إما لمصالح معينة.⁽¹⁾

فأصبح هؤلاء ممن امتهنوا المتاجرة باسم الدين، فكان لهم أسوأ الأثر على عقول الناس، حيث خدروها بالأوهام، وملؤوها بالخرافات والإدعاءات التي ليست من الدين الحنيف في شيء، فكان فعلهم مشوّشاً للإيمان عند العامة مانعاً للتفاعل الروحي المتعقل من تعاليم الإسلام. وممكن خطر هؤلاء أنّ رأس ما لهم التدجيل والتحريف، فأحكّموا الحيل في تخدير الأمة فأفسدوا فطرتها الدينيّة بما ابتدعوه لها من عبادات و عملوا على زعزعة عقيدتها بالله.

ومنه لا مناص من العمل على تغيير هذا الواقع كههدف ووجوب العمل عليه، فواصل الإبراهيمي مسار الإمام عبد الحميد بن باديس، الذي خاض هذه المعركة ضد رجال الطريقة المنحرفة ساعيا إلى تحرير عقول الجزائريين ومعتقداتهم من الشرك والضلال.⁽²⁾ وقد كان تحرير الدين بفضح رجال الطريقتين وبيان بطلان كثيرا من طقوسهم التي اعتبرت عبادات عن طريق العادات، أو من خلال "تعوّد المنكر حتى يصير معروفا... وهذه علّتنا فيما فشى بيننا من بدع ومنكرات وضلالات، يسكت عليها الأول فتصير عادة، وتستحكم فتصير سنة، وتتكاثر أنواعها فتغطي على الدين الصحيح." ⁽³⁾ فمن غايات المنهج التربوي تصحيح عقيدة الجزائريين وتحرير الفكر الإسلامي من الممارسات والانتهاكات البشرية له وفقا للمصالح الشخصية أو الاستعمارية.

ولن تتحقق هذه الغاية إلا بإحياء الدين الإسلامي، والاهتداء بهدي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فالدين الإسلامي يعتبر مقوما أساسيا في الشخصية الوطنية، إضافة إلى البعد الروحي الذي يضيفه على الإنسان ويدفعه إلى الثورة على الظلم والعمل استرداد الحقوق، فإذا صحّ مسار الأجيال فلن ترضى بذلك الواقع الذي تعيشه، ولعل ذلك يعتبر دافعا ودفعاً كبيرا في تغيير الواقع الجزائري آنذاك وتحريره من الاستعمار وقيوده. وعن كيفية الإحياء فإنها تتحقق بالتربية وإقامة الدين على أساس متين بتفعيل دور الوسائل التربوية الأنف ذكرها من التعليم المدرسي والمسجدي، فيحرّر الكاتب بقلمه ما يصدر عن عقله وروحه، ويجرّر الخطيب ما يخاطب به الناس بقلبه لا بلسانه.

(1) - تركي راجع عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص 440، 441.

(2) - المرجع نفسه، ص 442، 443.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 152.

تصحيح نظرة النشء إلى الحياة و توحيدته في أفكاره :

الغايات التي يهدف الفكر التربوي الإبراهيمي إلى تحقيقها أو ما يصطلح عليها الإبراهيمي بتعبيره الخاص «غاية الغايات» من التربية معبراً عنها: "غاية الغايات من التربية هي توحيد النشء الجديد في أفكاره ومشاربه، وضبط نوازعه المضطربة، وتصحيح نظرتة إلى الحياة، ونقله من ذلك المضطرب الفكري الضيق الذي وضعه فيه مجتمعه، إلى مضطرب أوسع منه دائرة، وأرحب أفقا، وأصح أساسا، فإذا تم ذلك وانتهى إلى مداه طمعنا أن نُخرج لنا المدرسة جيلا متلائم الأذواق، متحد المشارب، مضبوط النزعات، ينظر إلى الحياة - كما هي - نظرة واحدة، ويسعى في طلبها بإرادة متحدة، يعمل لمصلحة الدين والوطن بقوة واحدة، في اتجاه واحد." (1)

فالتربية التي يؤسس لها الإبراهيمي تهدف إلى تكوين جيل موحد، توحيد الرؤى لدى الأجيال الناشئة في منابع معارفهم وتوجهات أفكارهم من خلال التصحيح العقائدي واللغوي، وتصحيح نظرهم للحياة وتفعيل دورهم فيها، فمختلف الصراعات التي تحكم الواقع الفكري والاجتماعي والسياسي في الجزائر، وتعدد منابع هذه التوجهات والصراعات، إضافة إلى آثار الاستعمار في تشويه الحقائق والمرجعيات التاريخية والفكرية انعكس سلبا على التكوين الفكري والعقلي للناشئة، إذ يعيش الفرد صراعا فكريا مع ذاته بحثا عن أي التوجهات أقرب إلى الحقيقة، وصراعا مع الآخرين ناتج عن دوغمائية الطرح والتشبث بالأفكار والتحزبات مع تغييب مع غياب لثقافة الحوار والعيش المشترك. إذ يجب العمل على استثمار الاختلاف في التوجهات والتعدد في الأفكار والأطروحات في خدمة المجتمع لا في الضرر به، لا في تغذيتها وبلورتها كإشكاليات وأطروحات ذات طابع تنافري، حيث أصبحت جُلُّ الاختلافات الفكرية والدينية في واقعنا العربي والإسلامي اليوم تفرق أكثر مما توحد، وتُباعَد أكثر مما تُقَرَّب، وقد اتخذت كتبريرات واهية لسلوكيات لا يتقبلها لا العقل ولا الدين. ومن هنا ركز الشيخ الإبراهيمي على الجانب الروحي والفكري كغاية أولى لأنها تتضمن الوحدة وعدم الاختلاف، وهذا ما كان يعاني منه الواقع الجزائري آنذاك، وعاناه فيما بعد الاستقلال، ما يبدي الرؤية الاستشرافية للإمام محمد البشير الإبراهيمي.

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 275.

كما أن بلوغ هذه الغاية لن يتم إلا من خلال وسائل معينة، فتوحيد الغاية يتطلب توحيد الوسائل، وذلك يقع على عاتق المدرسة ومختلف مؤسسات المجتمع والقائمين عليها، من خلال توحيد المناهج التربوية والبرامج، تكريس ثقافة الحوار وتبرير الاختلاف بالتنوع وإعداد المعلمين وتوحيد المدارس العربية كما تبين في وسائل المنهج التربوي. فالإصلاح ينطلق من داخل المنظومة التربوية الاجتماعية، فهي الكفيلة بتوحيد الأهداف وتكوين الأفراد نحو بلوغ غايات واضحة ترتبط بالوطن و آفاقه البعيدة.

يعتبر العامل الديني من أهم العوامل التي ركز عليها البشير الإبراهيمي لما له من دور بارز في توحيد النشء، العامل الديني، فإن كانت الأوطان تجمع الأبدان واللغات تجمع الألسن فالدين يجمع الأرواح ويؤلفها، ويصل بين نكبات القلوب فيعرّفها ببعضها البعض، فلا تلتبس الوحدة في الآفاق الضيقة من المرجعيات والتجزّيات، وإنما تلتبس في الدين، وفي القرآن، حيث تجد "الأفق أوسع، والدار أجمع، والعديد أكثر، والقوى أوفر."⁽¹⁾ فقد تُوحّد اللغة والوطن بين أفراد الشعب غير أن ذلك التوحيد مرتبط بمرجعية جزئية وضيقة قد لا تنجح غالباً، فالجتمعات العربية اليوم لها نفس اللسان ولم تحقق الوحدة التي طالما تعنتت بها، ويشترك الكثير منها في اللسان والوطن والدين غير أنها قسمت إلى دويلات، ناهيك عن أسباب ذلك كالتمسك بالسلطة، ودور الدول الغربية وما تفتعله من أزمات وصراعات لتحقيق مصالحها أو الحفاظ عليها. وبذلك تظهر الحاجة إلى عامل وغذاء روحي يلامس المشاعر ويوحدها، وهذا ما يقوم به الدين، فبفضله وحدّ الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلّم بين عدة طوائف متباينة في اللغات والبلدان. لأنه يركز على البعد الروحي والجانب النفسي، وهذا كفيل بجمع الشتات والنزعات المختلفة نحو غاية وهدف واحد شرط الفهم الحقيقي له وتنقيته من الخرافات وتجنب التعصبات المذهبية.

وإن تساءلنا عن السبب وراء الاقتتال الفكري والمادي وازدراء الآخر وثقافته في العديد من البلدان ذات المشترك الديني الواحد خصوصاً البلدان العربية اليوم، فيرجع ذلك إلى عدّة عوامل، بداية من الآخر الغربي أو - ما يعرف بنظريات المؤامرة الخارجية - التي تحركها إيديولوجيات، ورواسب تاريخانية ومصالح مادية في خلق الأزمات بين البلدان في ظل صراع عولمي يحتكم إلى القوة والمهيمنة، إلى العامل الذاتي المتعلق بالذات المسلمة (البلدان المسلمة والعربية في حدّ ذاتها) التي غابت عنها تلك الروح الدّينية السّميحة التي ميّزت عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ومثلت أهم عامل في التوحيد والائتلاف ونبذ ثقافة الإقصاء.

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 163.

إن تتبع المسار الإصلاحى والتربوى للإبراهيمى يبرز الوحدة كشيء مقدس لا ينبغي المساس به، خصوصا ما يتعلق بوحدة الشعب والوطن، فإن كان الاستعمار يغذى العنصرية والتفرقة مستغلا ذلك التنوع الثقافى فى الجزائر، كاستغلاله واختلاقه قضايا متعلقة بالعربية و الأمازيغية كعامل تفرقة، وتغذية كل ما من شأنه إحداث شرخ وتصدعات فى بنية الوطن ووحده. فالإبراهيمى يفضح ذلك مبيّنا أن الشعب الجزائرى عرّبه الإسلام كما عرّب المغرب العربى فى صراعه بين الحق والباطل " فجمعية العلماء هى التى أثبتت للاستعمار أن الدماء البربرية التى مازجت الدم العربى أصبحت عربية بحكم الإسلام، وبحكم العمومة والخوولة الممتدين فى سلسلة من الزمن ذرعا ثلاثة عشر قرنا، مزاج فطرى، أحكمت القدرة تداخل أجزائه، والتحام نسبي وصل التاريخ أطرافه." (1)

كما استغل المستعمر العامل السياسى المتمثل فى كثرة الأحزاب المتصارعة فيما بينها لتحطيم تلك الوحدة. فاستقراء تاريخ الاستعمار للشعوب خصوصا العربية منها يثبت ذلك. "ففى الوقت الذى كان فيه جمال الدين الأفغانى يضع أساس الوطنية الإسلامية على صخرة الإسلام الصحيح... جرت الأحزاب إلى إهمال شنيع لتربية الأمة وتقوية مقوماتها، وتطاحن أشنع على الرياسة والحكم، وترديد لكلمة الوطنية دون تثبيت لدعائمها، وتغنى بمصالح الوطن وهى ضائعة، و تزام بالتهم والجريمة عالقة بالجميع، وتقديس للأشخاص والمبادئ مهدورة، والاستعمار من وراء ذلك يضحك ملء شذقيه وينام ملء عينيه." (2)

فمبدأ التوحيد والشمول إذا من الأهداف الأساسية فى تربية إنسان جديد، فعلى المرئى أن يساعد فى تنميته تنمية متكاملة موحدة لجميع قواه ومواهبه، جسمه وفكره وعاطفته وأخلاقه الشخصية وعلاقاته الاجتماعية، فنواحي حياة الإنسان كلها يجب أن تجد مجالا فسيحا للنمو الموحّد وما يقال عن تكوين الفرد يقال عن تكوين الأمة. (3) فالغاية من التوحيد بين أفراد النشء يرمى إلى توحيد المجتمع والأمة مستقبلا فى كيان واحد، خصوصا فى المجال الروحى والنفسى الذى يؤثر على الأبعاد الأخرى وهو ما ركزت عليه اهتمامات الإمام الإبراهيمى التربوية.

(1) - المصدر السابق، ج3، ص57.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص66.

(3) - محمد فاضل الجمالى، تربية الإنسان الجديد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1967، ص 281، 282.

ومن غايات التربية المتعلقة بذلك أيضا تصحيح النظرة للحياة لأنها تُعرّف الإنسان بذاته، وتعرّف النشء والأجيال بذواتهم وكيانهم، حتى يستطيع كل فرد أداء رسالته في هذه الحياة بشكل صحيح، فالوضعية المؤسفة التي يعيشها المسلم اليوم والاعتراب الذي يعاني منه نتاج تقصير تربوي في توعيته وتبصيره بحقيقته، فلم تترك له الفرصة للوقوف على مواهبه وكشف قدراته. فالإنسان الجديد الذي يريده المجتمع المعاصر وفق التصور الإسلامي للحياة لا يمكن إيجاده إلا بالتربية والتعليم الذي يضع في مقدمة أهدافه تبصير الإنسان بحقيقته وتعريفه بنفسه. (1)

هذا ما سيساهم في تصحيح نظرة النشء للحياة، من خلال تصحيح فهمهم لها، من خلال إعداد الأفراد للحياة، وتعريفهم بذواتهم، فإن قال الإبراهيمي تصحيح النظر للحياة، فهذا يبرز خلاا تربويا في المناهج التربوية التعليمية السائدة خصوصا ما يرتبط بفلسفة المجتمع ونظرتة للحياة. إضافة إلى وجود خلل مفاهيمي وفكري لدى الناشئة ناتج عن تلك المناهج وعن سياسة الاستعمار التعليمية خصوصا بينه الإبراهيمي في انتقاده للتعليم العربي والتعليم الفرنسي.

فلاضطراب والغموض الذي يكتنف رؤية النشء للحياة، وغايتة من وجوده سببه الاستعمار بنسبة أكبر حيث عمل على تغيير مسار نظرتة وسعى إلى استلاب ذاته، إضافة إلى تلك التيارات المتعارضة سواء كانت حزبية سياسية أو توجهات رجال الفكر ورؤاهم، واختلاف رجال الدين وانحراف بعضهم عن عملهم، ويكون تصحيح النظرة بتربية تضمن للمواطن أسسه الفكرية ومنطلقاته الصحيحة التي ترتبط بمقومات شخصيته الوطنية، وتحدّد له منهجا واضحا نحو التقدم والإقبال على ما استجد في الحياة المعاصرة من تطورات علمية تفيده ووطنه والإنسانية جمعاء.

وتصحيح الرؤية يرتبط بنظرة الإسلام للإنسان والكون والحياة، الإنسان الذي مُنح العقل و جُبل على استعدادات فطرية تمكّن من الرقي إلى الكمالات الروحية والخلقية. فعلى الإنسان أن يحافظ على تلك الفطرة ويوجهها لخدمة رسالته في الحياة وخلافة الله في الأرض، وعلى المرين مراعاة تلك الفطرة في بناء مدركاتهم

(1) - بيبي مرزا، الفكر التربوي عند محمد إقبال ومحمد البشير الإبراهيمي، ص 289، 290.

وتصوراتهم، يوضح الإبراهيمي ذلك في توجيهه للمعلمين بتربية الأجيال "على استخدام المواهب الفطرية من عقل وفكر وذهن، وعلى صدق التصور وصحة الإدراك ودقة الملاحظة والوقوف عند حدود الواقع."⁽¹⁾

فالغايات التربوية تبرز الأفق الواسع الذي يعمل الإبراهيمي على بلوغه في تربية الأجيال، من خلال ربطها بالحياة وبمعناها الذي يستقيه من الدين الإسلامي علما وعملا، ليشمل جوانب الحياة العديدة حتى يفتح على علومها ومجالاتها، فتدافع عن حقها في الحياة بداية من تغيير ما بالأنفس وتكوين ذوات مستقلة تعمل على الاستقلال وبناء الوطن، إلى رسم طريق حافل في التاريخ الحضاري والإنساني.

توسيع الأفق الفكري للنشء :

التشتت الفكري بين التوجهات المختلفة قد يخلق أزمة تفكير لدى الفرد، أو يؤدي به إلى تبني أطروحات غير صحيحة، وقد ينتصر فيها للأشخاص لا إلى الأفكار. هذا ما طغى على الكثير من جوانب الحياة الفكرية والدينية في الواقع الجزائري الخاضع للاستعمار في عهد الإبراهيمي. إذ انحصر تفكير الفرد الجزائري في أفق ضيق وضعه فيه المستعمر من جهة، والمجتمع من جهة أخرى من خلال ما هو سائد من رؤى وأفكار متنافرة ومتباعدة، قيده في نطاق فكري ضيق. كما عمل المستعمر على توجيه الأفراد نحو المتطلبات اليومية خصوصا المادية منها، حتى يُغيب القضايا ذات البعد الفكري والوطني لدى أفراد المجتمع وبالخصوص الشباب منهم. ما نتج عنه حاجة التفكير إلى التنظيم والترتيب، بسبب تباعد الأفكار وفقدان فاعليتها في التماسك اللازم للوصول إلى رؤية موحدة تحرر الجزائر، وتوسع تطلعات الأجيال في الحياة إلى آفاق فكرية وعلمية. لذا كان على الإبراهيمي العمل في منهجه التربوي على توحيد مبادئ وأفكار مختلف المدارس لينقل الأجيال من النطاق الفكري الضيق إلى الأفق الفكري الواسع. "ونقله من ذلك المضطرب الفكري الذي وضعه فيه مجتمعه إلى مضطرب أوسع منه دائرة وأرحب أفقا وأصح أساسا."⁽²⁾ ولأن عوامل التقارب متوفرة من دين ولغة ووطن، فعلى المدرسة أن تنقل الأجيال من حدود التفكير الضيقة إلى آفاق فكرية جديدة أوسع دائرة.

فالإبراهيمي الذي عرف الدرجة الراقية من التقدم العلمي الذي كان عليه الغرب، ومن العمل والاجتهاد رأى أنه من الضروري توجيه الشباب على انتهاج طريق العلم، ولأن الدين الإسلامي دين يؤكد على أهمية

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 272.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 275.

العقل والتفكير، لذلك ينصح المثقفين الجزائريين بأن يسلكوا طريق الاستقلال الفكري في الحكم على الأشياء وطريق التفكير المنطقي لا طريق التحريف، فطريق نجاة هاته الأمة هو طريق الابتكار والاجتهاد والعمل.⁽¹⁾

كما يوجه الإبراهيمي الطلبة إلى ضرورة الإقبال على الحياة وعلى الحاضر العلمي الجديد بالعمل والعلم، كنوع من الانفتاح الحضاري المضبوط بقواعد أخلاقية دينية. هذا ما سيساهم في فتح آفاق جديدة للأجيال التي ستعيش عصرا مخالفا لعصره إذ يخاطبهم قائلا: "إن عصركم بطل، فمن البرّ أن تكونوا أبطالاً، وأن جيلكم سماوي التشوف، فلا تخلدوا إلى الأرض، وإن حاضركم جديد فلا تكونوا منه موضع الرقعة البالية، إن الحياة حسناء، مهرها الأعمال العامرة، فلا تسوّقوا لها بالأقوال الجوفاء، وإن دينكم ينهاكم أن تأخذوا الأمور بالضعف و الهوينا، فخذوها بالقوة والغلاب، وإن أربعة خلال ارتضاها الله لعباده وأمرهم بها: الصبر و المصابرة و المرابطة والتقوى."⁽²⁾

وإن كان هناك اضطراب معرفي فسيكون دافعا وحافزا لفتح أفق معرفية جديدة ومساهمة في حل ما يبرز من مشكلات جديدة. وذلك الاضطراب الجديد الذي يُنقل إليه هو تفكير فيما استجد من مشكلات وقضايا جديدة. لأن التفكير يدل على وجود مشكلة، وجب تنظيم طريقة منهجية لحلها، لذلك ارتبط التفكير العلمي مثلا بالطريقة المنهجية التي استخدمها الإنسان للتصدي للمشكلات أو التغلب عليها أو تبسيطها.⁽³⁾

فالحاجة اليوم أشد إلى توسيع قاعدة الفهم والأفق الفكري للإنسان أمام هذا الزخم الهائل من المعارف والاتجاهات. والفارق بين إنسان وآخر يتمثل في القدرة على الفهم والاستفادة من المعارف على نحو أحسن، بامتلاك مركب عقلي جديد، ذي بنية متميزة، وتكون مهمة التربية والغاية التي تطمح إليها تكوين تلك البنية وصقلها.⁽⁴⁾ بتأسيس قاعدة للفهم قائمة على أسس صحيحة ومن ثمة توسيع الأفق الفكري في مجالات أخرى حتى لا تحيد عن المسار المرسوم، فقصده توسيع الأفق الفكري لدى الناشئة لا بد من إكسابهم المرونة الفكرية، وسرعة استيعاب المتغيرات التي تميز واقعهم وتحتاج العالم بصفة عامة، والتميز بينها فينتقل إلى أفق أوسع دائرة وأصح أساسا.

(1) - عبد اللطيف عبادة، الاجتهاد في نظر الشيخ البشير الإبراهيمي، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص 316.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص413.

(3) - مؤيد أسعد حسن دناوي، تطوير مهارات التفكير الإبداعي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، دط، 2008، ص 14.

(4) - عبد الكرم بكار، حول التربية و التعليم، دار القلم، دمشق، ط3، 2011، ص 84، 85.

المحافظة على الوحدة الوطنية والقومية :

من الأهداف التربوية التي أسس لها الإبراهيمي المحافظة على الوحدة الوطنية و القومية للشعب الجزائري، وتجاوز كل أسباب التفرقة بين أبناء الجزائر بمختلف مشاربهم و توجهاتهم وأفكارهم. خاصة وأن المستعمر كان يستثمر في كل ما يؤدي إلى زرع الفتنة وتفريق الأمة بإحاطته لصراعات دينية وثقافية واجتماعية، وذلك دأبه مع كل نهضة علمية تربوية أو مع المقاومات المسلحة والسياسية، فكلما انتشر الوعي بضرورة التوحد والعمل عليه اتجه إلى إشعال فتيل العنصرية والتفرقة حتى يَجِدَ أبناء الوطن عن غايتهم وتخور قواهم فيسهل القضاء عليها. وقد اعتمد الإبراهيمي في العمل على تحقيق الوحدة الوطنية والقومية على عاملين أساسيين وهما: الإسلام والعروبة. "واتخذنا من الإسلام والعروبة الجزائرية محورا للدعوة إلى الإتحاد، وموثلا نسوق إليه المتفرقين من أهله، لا تحريكا للعصبيّة الدينية أو الجنسية، ولكن لأنها الجوامع الطبيعية لرجالنا العاملين، والصفات التي تربطهم بالأمة، والأصول التي ائتمنتهم الأمة على المطالبة بحقوقها."⁽¹⁾

فالتربية على الوحدة ونبذ العصبية الجنسية والدينية هي وظيفة المثقفين في الأمة، خصوصا من يقع على كاهلهم الدفاع عنها من أئمة ومعلمين وسياسيين لذلك لا ينفك الإبراهيمي على التذكير بضرورة الوحدة وأهميتها في تحقيق الاستقلال والتحذير من التفرقة. مستأنسا باستقراء تاريخ وماضي الشعوب كشواهد تبرز ما حققتة الوحدة من إنجازات وانتصارات، وإلى ما آلت إليه الشعوب المتفرقة من هزائم وانتكاسات. ومنه كانت دعوته للهيئات والأحزاب السياسية في الجزائر إلى التوحد ما دامت الغاية واحدة، ونبذ العصبية الحزبية التي أدت إلى الاختلاف والضعف، وما ضعف الضعيف إلا زيادة قوة في القوي. إذ يقول: "لا بدّ في الإتحاد من تذكر بعض الماضي، ولا بدّ من نسيان بعضه، بذكر الصالح من الماضي ليبنى عليه الحاضر... وتُلحُّ في الرجاء على أن يتحدوا على الأصول المسلمة، لأننا نعلم جميعا أن الغاية واحدة وأن الخلاف إنما هو في الوسائل الموصلة إلى تلك الغاية، وإذا كان الأمر كذلك كان الإتحاد من أيسر الأمور."⁽²⁾

ومن أساليب التفرقة التي اعتمدها الاحتلال الادّعاء أن الجزائر يسكنها شعبان مختلفان تمام الاختلاف هما: العرب و الأمازيغ. وادّعاء المستعمر الفرنسي أن الأمازيغ يمتون بأصلهم الجنسي إلى أوروبا، عاملا على فصل المناطق التي يسكنها الأمازيغ في الجزائر عن بقية القطر، محاولا تنصيرهم وإدماجهم في الكتلة الكاثوليكية

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 304.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 306.

الأوروبية معتمدا في تحقيق هذا الهدف على المبشرين المسيحيين، ثم تهادى في التفرقة حتى بين الأمازيغ أنفسهم حيث قسمهم إلى قبائل وشاوية وطوارق، مغذيا التعصبات الجهوية، حتى أصبح الجزائريون منقسمين على أنفسهم والسياسة الاستعمارية تضرب هذا بذاك.⁽¹⁾ والتصدّي لهذا لا يتأتى إلا بمحاربة العنصرية التي غداها الاستعمار ومارسها، فبيّن الإبراهيمي أن الوطن بتعدده الثقافي والتحامه التاريخي والديني لا يمكن أن يقسمه الفكر العنصري الإقصائي، واعتمد في ذلك على القوة المعنوية وحسن توظيفها، وهو الدور الذي قامت به جمعية العلماء. "فكان ذلك منها تحديا للاستعمار، وإبطالا لكيده وتعطيلا لسحره، وأثبتت بتلك المواقف للجزائر إسلاميتها، وحاربت العنصرية التي كان الاستعمار يغذيها ويعدها من أمضى أسلحته لقطع أوصال الأمة، فقطعت دابرها، والاستعمار حزياً ينظر، وأثبتت بذلك للجزائر قوميتها العربية."⁽²⁾

وحذر الاحتلال الفرنسي من نشاطات الشيخ الإبراهيمي ومحاضراته لكونها تحمل طابعا توعويا يهدف إلى توحيد الأهالي والعمل من أجل نهضة إسلامية، ما يشكل خطرا وعملا مضادا للاستعمار الفرنسي. هذا ما يظهر في العديد من التقارير الفرنسية، ففي تقرير مكتوب سنة 1940 من والي وهران إلى الوالي العام يحذر فيه من عمل الإبراهيمي في تلمسان جاء في فحواه: "أن الإبراهيمي قد أصبح في حوالي منتصف سنة 1935 ليس فقط «محركا للضمير العام» ولكنه أصبح المحرك لكل الأنشطة السياسية المحلية الأهلية ذات الطموح المضاد لفرنسا، بينما كان يخطط في كل فرصة ومناسبة ومكان لتوحيد الأهالي لأجل نهضة الإسلام."⁽³⁾

ومنه فالتربية لدى الإبراهيمي تؤسس لعيش مشترك بين أفراد الوطن الواحد بمختلف توجهاتهم وأفكارهم، بالتأكيد على العامل المشترك بينهم وإقصاء الفكر العنصري والعنصري الذي يؤسس لثقافة اختلاف سلبية هدامة مقابل الاختلاف البناء، فوحدة الوطن وأفراد الشعب تقتضي التركيز على العامل الروحي خصوصا الديني منه كما تبين سابقا، وهذا ما ميز المنهج التربوي للإبراهيمي بدعوته لتوحيد البرامج التعليمية، وتوحيد توجهات النشء ومقارنتها، والتربية على قيم التسامح والأخوة بداية من الأسرة التي يتلقى فيها الفرد روح المحبة الأسرية بين أفراد العائلة إلى المدرسة حيث تترجم في علاقة التلميذ مع أقرانه ومعلميه، بلوغا إلى المجتمع والوطن وما يتضمنانه من مقومات دينية ولغوية، ما أكد عليه الإبراهيمي في وصيته للمعلمين في تعليمهم للناشئة في قوله: "أن تطبعوهم على التأخي والتعاون على الخير، وأن تربوهم على الفضيلة الإسلامية

(1) - تركي رابع عمارة، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التربية في الجزائر، ص 438، 439.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 69.

(3) - أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج3، عالم المعرفة، الجزائر، ط خاصة، 2009، ص 64.

التي هي مناط الشرف والكرامة والكمال، وأن تأخذوهم بممارسة الشعائر الدينية صغاراً، حتى نأمن تضييعهم لها كباراً، وأن تزرعوا في نفوسهم حب العلم والمعلم، وحب الأب والأم، وحب بعضهم بعضاً، وحب الله ورسوله والإسلام قبل ذلك ومعه وبعده." (1)

وتمثل التربية الروحية التي تشمل التربية على قيم الأخوة والوطنية والإسلام أساساً يضمن وحدة الوطن والأمة خصوصاً فيما يتعلق بمقوماتها، فتعكس هذه المقومات كقوة روحية توظف في خدمة الوطن. فالمسار التربوي للإبراهيمي بذلك تكملة لمسار زميله الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي دعا إلى تربية جيل يكون شرفه من شرف الوطن، وآماله هي آمال الوطن، فيتجنّدون لخدمته. "إنما ينسب للوطن أفراد الذين ربطتهم ذكريات الماضي - ومصالح الحاضر- وآمال المستقبل والذين يعمرّون هذا القطر وتربطهم الروابط هم الجزائريون. وبالنسبة للوطن توجب تعلّم تاريخه، والقيام بواجباته من نهضة علمية واقتصادية وعمرانية والمحافظة على شرف اسمه وسمعة بنيّه فلا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه." (2)

هذه أهم الغايات التي تضمنها المنهج التربوي للإمام محمد البشير الإبراهيمي، والتي تسعى أساساً إلى تحرير المواطن الجزائري والبلاد الجزائرية روحاً وجسماً، ونفض غبار الانحطاط والتخلف الذي تعيشه الدول المسلمة والعربية التي عانت من ويلات الاستعمار، ولا تزال تعاني من مخلفاته اليوم، وكل عنصر من تلك الغايات يتضمن غايات أخرى جزئية يمكن التوسع والبحث فيها أكثر.

وعموماً فإن الغايات التربوية التي يمكن استخلاصها من فكر الإمام الإبراهيمي تعتبر مكلمة لمجهود ثلة من العلماء المصلحين وخاصة الإمام عبد الحميد بن باديس، الذي ينحوا عمله التربوي في منحى واحد مع الإمام الإبراهيمي، والمتمثل في الخروج بالجزائر من هيمنة الاستعمار، بتحريرها جسداً وروحاً، وتحرير الأرض والشعب، والعمل على بعث فعالية أفراد المجتمع الجزائري حتى يقوموا بنهضة فكرية وعلمية تنقل الجزائر إلى مصاف الشعوب المتقدمة.

وبهذا يظهر التكامل في المنهج التربوي للإبراهيمي إلى حدّ بعيد رغم خصوصية الظرف المتأزم الذي عاشته الجزائر آنذاك، فقد تضمن منطلقات أساسية يقوم عليها تمثلت في التوعية والتنوير كمنطلقين لتهيئة

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 268.

(2) - ابن باديس مجلة الشهاب، ج10، م.5 جمادى الثانية 1348هـ /نوفمبر 1929 ص 11. نقلاً عن تركي رابح الشيخ ابن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التربية في الجزائر، ص 440.

العقول وتنوير الرأي العام بأهمية التربية والتعليم إضافة إلى تحديده لمفهوم التربية. موضحاً بعد ذلك أهم الوسائل والأساليب في منهجه التربوي والتي ارتبطت بما أمكن توفيره، نظراً للأوضاع المادية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها الجزائر، وصولاً إلى غايات وأهداف المنهج. ما يمكننا من استخلاص بعض النتائج تتضمنها خلاصة الفصل.

خلاصة

كخلاصة لما تمّ التطرق إليه في هذا الفصل يمكن استنتاج ما يلي:

- نستنتج أن البشير الإبراهيمي انطلق في منهجه التربوي من توضيح مفهومي التربية والتعليم مبرزا أهميتهما في التأسيس للمجتمع البشري وتحريره.
- ضرورة التوعية والتنوير بأي فكرة أو مشروع حتى تحتضنه الحاضنة الاجتماعية ثم العمل على تجسيده لضمان نجاحه.
- الأخذ بعين الاعتبار مختلف المتغيرات والمؤثرات في إقامة منهج تربوي يتوافق مع خصوصية الواقع الجزائري وظرفه وما استجد من معارف وعلوم لدى الأمم المتطورة.
- استثمار ما يمكن استثماره من أساليب تربوية ووسائل بشرية ومادية في سبيل إنجاح المشاريع التربوية.
- ضرورة توضيح وتسطير أهداف وغايات بعيدة وقريبة المدى لأي مشروع تربوي، يؤمن بها المرءون، وترسخ لدى الناشئة ويأخذها بعين الاعتبار المشرفون على التربية والشأن العام.
- التأكيد على عامل الاتساق والتنسيق، وعلى النظرة الشمولية والموحدة في سبيل إنجاح المشروع التربوي. مع ضرورة مراعاة جهود السابقين وإكمالها وتصحيحها حتى لا يهدر الوقت والجهد.

هذا بعض ما يمكن استنتاجه من الفصل الثاني الذي ركز فيه الباحث على مفهوم التربية ومنهجها لدى البشير الإبراهيمي، ويدفعنا ذلك للتساؤل عن أهم الأسس التي تقوم عليها التربية عند الإبراهيمي. فما أهم الأسس التي تقوم عليها التربية عند الإبراهيمي والتي انطلق منها في بناء مشروعه التربوي وفي تربيته للناشئة ؟

الفصل الثالث

الأسس الأخلاقية والعلمية

للتربية عند إبراهيمي

الفصل الثالث: الأسس الأخلاقية و العلمية للتربية عند الإبراهيمي.

تمهيد :

إن أي تربية لا بد لها من أسس ومركزات تتأسس عليها بهدف تربية الإنسان، والسير به نحو تحضره وتحقيق إنسانيته أو بالأحرى المحافظة على تلك الفطرة الإنسانية التي فطر عليها وتنميتها، فما من إنسان إلا وهو في حاجة إلى رعاية وتربية، بحاجة إلى من يوجهه ويرشده في تربية شخصيته، والحفاظ على كيانه، حتى يؤدي دوره في الحياة، والذي يتحدد غالبا من خلال فلسفة مجتمعه في الحياة، التي هي في أساسها رؤية وفلسفة تربوية "فالإنسان لا يمكن أن يصير إنسانا (حقًا) إلا بالتربية، إنه ما تصنع التربية منه."⁽¹⁾ فلا يمكن إغفال الأسس التي تقوم عليها تربية الفرد لأنها تمثل الدعامة والحاضنة التربوية للفرد بمختلف جوانبه. فالتربية لها أسس متعددة، كأسس أخلاقية، اجتماعية، ثقافية، علمية أو فلسفية تقوم عليها وتستمد منها معارفها، مبادئها وقواعدها، وتختلف تلك الأسس من فلسفة تربوية إلى أخرى، ومن مفكر إلى آخر، بناءً على متطلبات التربية وغاياتها، أو بناءً على ما يفرضه الواقع والحياة من تطورات وتغيرات، وما يطرحه من إشكالات. وبذلك تعددت الأسس والفلسفات التربوية فتباعدت أحيانا وتقاربت أحيانا أخرى في أسسها ومضامينها، فالأسس التي تقوم عليها الفلسفة التربوية الاجتماعية تختلف عنها في التربية الطبيعية، وفي المثالية تختلف عنها في البراغماتية، والأسس التي قامت عليها التربية في العهد اليوناني تختلف عنها في العهد الروماني، والتي نجدها في العصور الوسطى تختلف عنها في الفترة المعاصرة.

وإن ارتبطت التربية بفلسفة المجتمع الضاربة في جذور التاريخ، فيمكن اعتبارها من منظور آخر ابنة يومها لما يستجد من إشكالات وأزمات، فالإنسان ابن يومه وراهنه، خصوصا إذا كان في رحاب عالم متغير كعالم اليوم، عالم عولمي أهم ما يميزه التسارع، عالم اختزل فيه الزماني والمكاني في ديمومة تستدعي تحيين الطرح التربوي مع النتاج العولمي والفكري والتقني، وعلى الرّؤى التربوية بذلك أن توفق بين الخصوصي والعالمي، بين الذات والغير. كما يبدو التقارب التربوي بين عديد المجتمعات، فقد يتبنى الأضعف منها فلسفة الأقوى وقد توظف التربية كعامل مقاومة وتحقيق الذات تصديًا لفلسفة الأقوى أو هيمنته. ولكن رغم ذلك نجد علاقة وطيدة لا تكاد تنفصم، بين فلسفة المجتمع في حياته، وبين التربية والأسس التي يقيمها عليها، بل وينعكس ذلك في شتى مجالات الحياة، ثقافة المجتمع، سلوكيات الأفراد، آفاق البحث العلمي، طريقة حل المشكلات

(1) - عبد الرحمن بدوي، فلسفة الدين والتربية عند كانت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980، ص121.

والتعامل معها. ولا يخفى عامل المتغير التاريخي والحضاري الذي يمر به المجتمع في ذلك، نظرا لتأثيره المباشر أو غير المباشر على تربية الأفراد، ونمط سلوكهم وتوجهات ذهنياتهم، فغالبا ما يكون الأفراد نتاج تراكمات تاريخانية في تفكيرهم، وأزمات نفسية أو حوادث اجتماعية أثرت فيهم، فانعكست على تربيتهم وتكوينهم وبالتالي حياتهم بصفة عامة.

كما أن الاختلاف في محتوى التربية يعكس اختلاف المجتمعات والدول في التاريخ، الانتماء، الحضارة، الدين... الخ فتطرح إشكالية المنابع والمراجع التي تستمد من الرؤى التربوية المختلفة باعتبارها امتدادا للإرادة والسيادة الوطنية، فالثورة العلمية وجهت التربية في الغرب نحو الاهتمام بالعلم والتقنية والمنهج، وبقيت فلسفةً للتقدم المادي، في حين التربية الكلاسيكية ركزت على الفعالية التأملية والمثالية، الروحية والأخلاقية، وهذا ما وضع التربية أمام عديد المفارقات لدى المجتمعات فيما يتعلق بالتساؤل عن الذات، الأصالة، الهوية القومية والحضارية ولازالت هذه التساؤلات مطروحة في المجتمعات ذات الموروث الثقافي والديني.⁽¹⁾ إذن فالمعامل التاريخي والحضاري، ومختلف التغيرات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تمر بها البشرية بصفة عامة، وكل مجتمع بصفة خاصة لها وقعها على المنظور التربوي استقلالا أو استلابا، اتفاقا أو اختلافا. وهو ما يستدعي التساؤل حول ضرورة التأسيس للتربية في الدول والمجتمعات التي تعمل جاهدة على إثبات واسترجاع موقعها في التاريخ، وصنع مستقبلها الذي وقف أمامه الآخر المستعمر كعائق أمام المسير قُدما.

ومن خلال حدود البحث الذي يرتبط بالمنظور التأسيسي للتربية لدى الشيخ الإبراهيمي، يكون للمتغيرات السالف ذكرها انعكاسٌ على أسس التربية عند الشيخ. ويحيل ذلك إلى عديد الدلالات والمعاني التي يظهر وقّعها وفعاليتها في تلك الأسس وفي فلسفته التربوية عامة، بداية من المتغير الزماني والمكاني الذي احتضن الإبراهيمي والشعب الجزائري آنذاك، إلى المتغير الثقافي سواء الثقافة التي غلبت على فكر الإمام الإبراهيمي أو الفرد الجزائري، إضافة إلى الثقافة التي كان يفرضها المستعمر وما استتبعها من سلوكات، إلى المتغير والعامل الاجتماعي آنذاك وكيف أثرت الحياة الاجتماعية على التربية (البطالة، الفقر... الخ).

إن الواقع الاستدماري الذي عانته الجزائر وأثر على مرجعيتها الثقافية والتربوية لدى الأفراد ولا زال يؤثر حتى اليوم، يستدعي ويتطلب رؤية تربوية معمقة في الأسس التربوية. ضرورة التأسيس لفكر تربوي متبصر يرتبط

(1) - عبد القادر بليمان، إشكالية التربية والفلسفة، "الفلسفة والتربية وإشكالية البدائل" الملتقى الوطني الأول المؤرخ في 25-26 أبريل 2006، الأعمال الكاملة، مخبر التربية والابستومولوجيا، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2009، ص 7.

بالمرجعية الثقافية والحضارية للمجتمع من جانب، وينطلق من الواقع المعيش ومميزاته، هادفاً إلى بلوغ نموذج الإنسان المنشود الذي يرتبط بفلسفة المجتمع الجزائري حتى يجسّد أهداف المجتمع وفلسفته التربوية.

هذا ما يسعى الباحث إلى استقصائه وتوضيحه في هذا الفصل من خلال التطرق إلى الأسس التي يتمحور ويتأسس عليها المنظور الإبراهيمي للتربية، بعدما تم توضيح مفهوم التربية والمنهج التربوي الذي اعتمده الإبراهيمي في الفصل السابق. ويمكن اختزال أهم هذه الأسس في الأساس الأخلاقي بداية من منطلق تركيز الشيخ الإبراهيمي على ضرورة الإعداد الخُلقي للفرد قبل أي تكوين علمي أو أداء وظيفي، الأساس الديني والصلة القائمة بين الأخلاق والدين. الأساس العلمي للتربية (العلم) من منطلق أن العصر يتطلب قوة معرفية وعلمية، الأساس الوطني من خلال الارتباط بمقومات الشخصية الوطنية الجزائرية، إلى عدة أسس أخرى نفسية واجتماعية ترتبط بالمواطن الجزائري. ونظراً لتعدد الأسس التربوية عند الإبراهيمي وبهدف التعمق فيها كونها محور الدراسة سيتم تناولها في فصلين، يتطرق الأول منهما إلى الأسس الأخلاقية والدينية والعلمية للتربية، والفصل الثاني إلى باقي الأسس الأخرى، فعل أيّ أسس أقام الإبراهيمي مشروعه التربوي؟

أولاً: الأخلاق.

تعدّ الأخلاق أساساً ينبغي أن تحتكم إليه حياة الإنسان والبشرية جمعاء، من منطلق التكريم الإلهي للإنسان واعتباره كائن القيم الأخلاقية، يرتفع ويتسامى كلّما تسامى في خلقه، فقد أكدّ الدين الإسلامي مع بعثة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام على الأساس الأخلاقي في حياة البشرية، فقد كان منطلق وأساس الدعوة المحمدية للإسلام التركيز على الأخلاق في قول الرسول صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » ولما زكّى المولى عزّ وجل رسوله الكريم وصف أخلاقه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁽¹⁾ هذا ما يبرز المكانة التي تحضى بها الأخلاق في التأسيس لأي منظور تربوي أو التجسيد لأي مشروع إصلاحية إذ تحتل الأخلاق بذلك المنطلق والأساس الأول غالباً، بداية من الرسالة الربانية لهداية العباد وتربيتهم أولاً، إلى تربية الإنسان للإنسان ثانياً، لأن أداء فحوى تلك الرسائل وصلاح ونجاح أي مشروع مرهون بالتأسيس الأخلاقي له، وصلاح الإنسان مرتبط بصلاح أخلاقه وسلوكه. فقد أكّدت التربية الإسلامية على هذا الأساس في تنشئة الأفراد وتربيتهم، والسّموا بهم إلى مكارم الأخلاق ومن ثمة النهضة بهم. "والحقّ أن الأخلاق القويمة هي الدّعمة القوية التي تقوم عليها النهضات الكبرى في كل مجتمع، من هنا كانت التربية الأخلاقية

(1) - سورة ن، الآية 04.

ذات أهمية قصوى في بناء كيان الأفراد والمجتمعات وقوتها وتماسكها. والواقع أن المشاكل التي تعانيها الإنسانية تعود في جملتها إلى تدهور الجوانب الأخلاقية بين أفرادها، فقد تقدمت البشرية في العصور الحديثة بالخصوص تقدما هائلا في سائر المجالات العلمية والتكنولوجية والمادية ولكن أخلاقها لم تسير ذلك التقدم. (1) فالتربية لا شك ناقصة إذا اهتمت بكل شيء في شخصية الفرد والمجتمع وأهملت الأخلاق، فالتربية الكاملة كما يقول المربون هي ما اتخذت الأخلاق أساسا ونبراسا لها في عملية تكوين الشخصية الإنسانية للفرد والمجتمع، فإن لم ترم التربية إلى تهذيب الأخلاق فلا كانت. وتزيد التربية الإسلامية حرصا وتأكيدا على الجانب الأخلاقي في عملها، ولذلك فهي تقيم كل دعائمها وأساس بنائها في بناء الشخصية الإنسانية على الأخلاق الفاضلة. (2)

ومن منطلق المرجعية الفكرية الإسلامية للشيخ الإبراهيمي فإنه يؤكد على ضرورة التأسيس الأخلاقي للتربية، والمرجعية التي يقيم عليها الأساس الأخلاقي للتربية يستمدتها من هدي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. فالأخلاق التي يرنو الإبراهيمي التأسيس التربوي عليها هي الأخلاق الإسلامية المحمدية التي كانت منطلقا في تربية الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه فكّون رجالا وأجيالا صالحين. فلن تصلح هذه الأمة إلا بما صلّحت به الأمة الإسلامية في بداية عهدها بالقرآن الكريم، ولن تستقيم أخلاقهم إلا بالأخلاق الإسلامية ومهداية القرآن الكريم. "إنّ هذه الأمة استقامت في مراحلها الأولى على هدي القرآن وعلى هدي من أنزل على قلبه فينبه بالأمانة... فالذي صلّح به أول هذه الأمة حتى أصبح سلفا صالحا هو هذا القرآن الذي وصفه منزله بأنه إمام وأنه موعظة." (3)

يؤكد الإبراهيمي في هذا السياق على الأخلاق الإسلامية فهي تتفاوت مقارنة مع ما نظرت له العديد من الاتجاهات الفلسفية والفكرية، من منطلق أن الأخلاق الإسلامية ارتبطت بفطرة الإنسان وقامت بتنميتها أخلاقيا. في حين أن العديد من التوجهات الفلسفية قد تأثرت بالآثار المادية التي كان وقعها على العديد من الفلسفات فأثرت سلبا على المفاهيم الأخلاقية وفي بنائها. فجعلت من المفاهيم الأخلاقية المتعالية متغيرة بتغير المصالح ومتجهة نحو الماديات. "فما زادت بحوث الفلسفة ماضيها وحاضرها في الأخلاق شيئا على ما جاء به الإسلام وأقرته الفطرة السليمة، ويزيد الإسلام على هذه الفلسفات ويشق بقوة العرض للفضيلة والتشويق لها وشرح آثارها في الفرد والجماعة وبيان صلتها الوثيقة بالأقانيم الثلاثة الحق والخير والجمال. وإن شعراء العرب

(1) - تركي رابع عمارة، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ص 452.

(2) - تركي رابع عمارة، دراسات في التربية الإسلامية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1987، ص 37.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 94.

الفطرين لأدق تصويراً للفضائل وأصدق تعبيراً عليها وتفسيراً لآثارها وحثاً على التحلي بها من جميع الفلاسفة النظريين، وقد أثرت الماديات في هذا العصر على عقول الفلاسفة و رانت عليها العصبية الجنسية والإقليمية حتى انعكس نظرهم في فهم الفضيلة فسّموها بغير اسمها فأصبحت القوة فضيلة يُدعى إليها بدل الرحمة، والاستعباد فضيلة يتغنى بها بدل الحرية، وكل هذا يدلّ على أن الفضيلة في نظر الفلسفة العملية الجديدة هي لباس للعقل لا نبع منه وأنها خاضعة للحُكم لا للحكمة أما الفضائل في نظر الإسلام وحكمه فلا تُصبغ لا تتحوّل وحقيقة لا تتغير ولا تتبدّل.⁽¹⁾ وفي هذا ينتقد الإبراهيمي الفلسفات التي مجّدت القوة على حساب الرّحمة، والمادّي على حساب الرّوحي ممّا جعلها فلسفات تابعة لأيدولوجيات وعصبية توجّهها نحو مصالح وغايات معينة مبعدة إياها عن الأخلاق الفاضلة.

ومن آثار السّيطرة المادية على الأخلاق وعلى الإنسان أن توجّه الناس إلى الماديات مقابل إهمال الرّوحانيات، وما الصراعات التي شهدتها العالم خصوصاً الحروب إلا نتاج للأخلاق المادية وسيطرتها على الإنسان، لأن القيادة لم تُحتكَم إلى الأخلاق والبُعد الخيّر في الطبيعة الإنسانية بل إلى المادة والمطامع. فالعالم اليوم نتيجة لذلك في نظر الإبراهيمي: "في احتراب وحبله في اضطراب، وقد ملكت عليه المادة أمره وقد جفّت الروحانية فيه فضوّلت، فلم يبق لها سلطانها الأمر الناهي، وانطمست فيه البصائر المادية فهو يتخبط في ظلمات، وتجمّست المطامع الشوهاء فتولت القيادة، وقد جرّ على نفسه في ثلاثة عقود من السنين حربين عاتيتين أهلكتنا الحرث والنسل... فما زالت المطامع و فشوّ الإلحاد، وشيوع الفلسفة المادية، والاعتزاز بالعقل حتى أصبح مقسماً إلى كتلتين قويتين عظيمتين متضادتين تدور كل واحدة منهما على مبدأ اتخذته دينا ودعت الناس إليه، فانضم كل ضعيف إلى واحدة مكرها كطائع. وكلا المبدئين لا رحمة فيه ولا خير وكلاهما ينطوي على شرور."⁽²⁾ فإنسان هذا العصر اتخذ من المادة دينا، وركّز على العقل وأهل النقل وهما مرتبطان في توجيه الإنسان في حياته وبناء أخلاقه، وما الحروب التي شهدتها غالباً إلاّ نتاج المادية المتوحشة التي داست على الأخلاق.

ومنه اتجه العمل الإصلاحى والتربوي للإبراهيمي مع جمعية العلماء بناء على ذلك إلى الدّعوة والربط بين الأخلاق التي يدعو إليها الدّين الإسلامى والعقل لتكاملهما، رابطة إياهما بالحياة وأسبأها. ويتضح ذلك في توضيح عمل الجمعية كونها جمعية دينية تهذيبية، فإضافة إلى دورها الدّيني والعلمي فهي "تدعو إلى مكارم

(1) - المصدر السابق، ج4، ص222.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 68، 69.

الأخلاق التي حضّ الدّين والعقل عليها لأنّها من كمالهما. وتُحارب الرّذائل الاجتماعية التي قَبّح الدّين اقتراها ودمّ مقترفيها، وسلكت في هذه الطّريق أيضا الجادة الواضحة. وبهذه الصّفة تعمل لتربية فكر المسلم بما استطاعت وترشده إلى الأخذ بأسباب الحياة الزمنية، وتريه ما يتعارض منها مع الدّين وما لا يتعارض... أداة من أدوات الخير والإصلاح، وعامل لا يستهان به من عوامل التربية الصالحة والتهدّيب النافع، وعون صالح لأولي الأمر على ما يعملون له من هناء وراحة."⁽¹⁾

يضع الشيخ الإبراهيمي الأخلاق كمنطلق أساس للتربية، بل يجعلها الأصل الذي تقوم عليه التربية القويمة للأمة مثلما قامت عليه التربية المحمدية. فالأخلاق تشكّل الأساس والقاعدة التي يبدأ منها البناء، والأصل الذي تقوم عليه مختلف الفروع المتعلقة بالتهضة والإصلاح. يؤكّد على ذلك الإبراهيمي في قوله: "إن الأخلاق العالية هي الأصل."⁽²⁾ وهو يقصد الأخلاق الإسلامية التي لن يتأتّى التخلّق بها إلا بفضل علماء الدّين الإسلامي فهم ورثة الأنبياء في أداء رسالتهم، وهم أنفذ أثرا في هداية الناس وإرجاعهم إلى "هدى محمد وأصحابه والتخلّق بأخلاقهم المتينة التي سعد المسلمون بالتخلّق بها قديما، وشقوا بالتخلّي عنها حديثا، حتى وصلوا إلى هذه الدّركة التي لا يُحمدون عليها ولا يُحسدون، وما دخل عليهم الشّر إلا من هذه الثغر الأخلاقية التي فتحتها التحلّل من القيود ووسعها الاسترسال في شهوات العقول والجوارح."⁽³⁾ فشقاء المسلمين وسعادتهم يرتبط بمدى التزامهم الأخلاقي، وأن التخلّف الذي لحق بهم حديثا يرجع في أساسه إلى تلك الثغرات في أخلاقهم التي لم تُسدّ في سلوكياتهم وحلّت محلّها تحكّم النزوات والشهوات. فغابت هداية العقل والدّين ليحلّ محلّها زيغ النزوات. فتشريح الإبراهيمي لواقع المجتمعات الإسلامية حديثا أبرز له أنّها تعاني من أزمة أخلاقية ترجمت في ذلك الانحلال الخُلقي الذي تشهده مجتمعاتنا، وانعكست هذه الأزمة سلبا على باقي مجالات الحياة فلحقها ما لحقها من تخلف لا زالت آثاره مستشرية إلى اليوم. لأن التأسيس الأخلاقي للتربية وإعداد الأجيال بناءً على الأخلاق الفاضلة ضمان لتوجيه المجتمع ودفع أبنائه للعمل مستقبلا وحمايتهم أخلاقيا.

فلا يصلح المجتمع ويحقق أهدافه إلا من خلال التسامي في سلوكياته، وامتلاكه مختلف الفضائل، هذه الأخيرة ترتدّ إلى سمو أخلاق أفراد المجتمع، فسمو المجتمعات وتحضّرها ورفقيها يقاس بسمو أخلاق وفضائل أفرادها. " لأن مردّ الفضائل في شعب هو سمو أخلاقه، وترامي هذه الأخلاق فيه إلى الكمال، بما يكفله من

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 199.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 115.

(3) - المصدر نفسه، ج4، ص 60.

استعداد للخير والرحمة وتقوية النوازع الإنسانية الكامنة في طبعه وجبلته. ⁽¹⁾ فالأخلاق القويمة هي سُمُوُّ بالفرد وبالجموع، وسير به إلى الكمال الإنساني وتنمية فطرته الخيرة التي جُبل عليها. من خلال تقوية نزعته الإنسانية، فالأخلاق تقود إلى الفضيلة، والفضيلة تقود إلى الإنسان والجموع إلى الكمال وهذا الأخير هو كمال إنساني.

وتجدر الإشارة هنا إلى فحوى الكمال الذي يعنيه الإبراهيمي، فإن كان الكمال صفة لله عزّ وجل يتفرد بها، فقد هيأ الله للإنسان سبلاً للكمال الإنساني جُبل عليها فالإنسان "العاقل خلق مستعداً للكمال، وقد هيأ له خالقه الحكيم أسبابه ومكّن له وسائله، ونصب له في داخل نفسه وخارجها أمثالاً يحتذيها لبلوغ الكمال، ووضع بين عينيه صور الموجودات وعوارض الكمال والنقص فيها، لينتزع من قوانين الكمال فيها قانون كماله، وليجتنب من علمه بأسباب نقصها أسباب نقصه، وإن كانت أصول الكمال والنقص في العالم الإنساني تختلف عن أصولها في غيره من العوالم، لأنّ لاختيار الإنسان مدخلا كبيرا وأثرا قويا في كماله ونقصه، والاختيار من خصائص هذا الإنسان. ⁽²⁾ فالكمال الإنساني سمة أخلاقية يكتسبها الإنسان بأخلاقه وعمله، من خلال تنمية فطرته الخيرة ونزعته الإنسانية، ولن يبلغ الإنسان ذلك إلا من خلال العمل والسعي والتعاون بين الأفراد وتجسيد معنى الإنسانية فإن غاب الكمال حلّت محلّه النقائص، وتركّ الفضائل مدخلًا للزّذائل.

إن طبيعة الكمال الإنساني أنه كمال نسبي متوقف على أسبابه من عملٍ وتحلٍّ بالأخلاق الفاضلة. وهو كمال متفاوت بين المجتمعات والأفراد لن يتأتى إلا بتوفر أسبابه، ليس كمالا مطلقا فهذا لا يكون إلا للمولى عزّ وجل، هذا ما يبينه الإبراهيمي من خلال استقرائه للمجتمع البشري مبينا ذلك قائلا: "ومما علمناه في شؤون الاجتماع البشري أن الكمال فيه نسبي إضافي، فما من كمال إلا وفوقه كمال، وأن الكمال في المجموع متوقف على الكمال في الأفراد، وإن النقص في المجموع متوقف على النقص في الأفراد، فمتى أخذ الأفراد بأسباب الكمال وسلوكوا له وسائله كمل المجموع. ومتى قعد الأفراد عن تعاطي أسباب الكمال فشت النقائص في المجموع." ⁽³⁾

فالكمال الذي يرنو الإبراهيمي تحقيقه من منطلق التأسيس الأخلاقي للتربية هو كمال نسبي مكتسب بإمكان الإنسان تحقيقه بالهمة العالية والعمل وتنمية فطرته السليمة. وتحقيقه يكون في البداية من خلال استشعار معنى الكمال في النفوس، فثشخّد همها فتندفع إلى العمل. ويكون بإزالة نقيضه وهو شعور الفرد

(1) - المصدر السابق، ج5، ص 233.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 201.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 201.

بالتقص والقصور ما يجعله يتقاعس ويتقاصر في القيام بواجبه مستشعرا عقدة التقص وتفوق الآخر عليه. "نحن نريد من الكمال هنا الكمال المكتسب الذي في مُكِنَّة الإنسان الوصول إليه بالتعمّل والتهمّم والمزاولة، ولسنا نعني الكمال الخلقى التكويني الذي لا يَدَ للمخلوق فيه، ذلك الكمال الذي يتفاوت فيه العاملون... إن سنة الله في الأمم أنها تتقاعس عن الفضائل وتتناعس عن الكسب وتنغمس في النقائص فتتدهور إلى الحد الذي تقتضيه قوة تلك النقائص وأشعرها بمعنى الكمال، وأيقظ في نفوسها دواعيه فيأخذ أفرادها بأسباب الكمال، متعاونين أو متنافسين حتى يصلوا إلى أقصى مراتبه. فإذا شعروا ولم يعملوا لبلوغ الكمال مع القدرة على العمل باءوا بالعيب الفاضح." (1) فإن كان الكمال يرجع للخالق قُدْرَةً وِخْلَقَةً، فقد خلق كمالا نسبيا للإنسان في حياته يرتبط بالاكتساب، يتنافس عليه الناس بالعمل والتزام الفضائل متى استشعروه في أنفسهم، وما تنافس المجتمعات اليوم للتطور والرقى إلا تنافس نحو بلوغ الكمال الإنساني من منظور معين.

لذلك فالمجتمعات المتقدمة هي مجتمعات حققت قدرا من الكمال الإنساني في المجال العلمي والعملّي، فزادها حيوية ونشاطا، على نقيض الأمم المتخلفة التي زادت النقائص والتقاعس تخلفا وتدهورا، فالتكامل سيرٌ نحو تحقيق الحياة، والتناقص سقوط نحو الفناء. "فالكَمالات كلما زادت في الأفراد كانت مزيدا في قوة حيوية الأمم، كذلك النقائص هي نقص في حيوية الأمم وقد تنتهي بالأمة إلى الفناء والعدم." (2) وقس على ذلك المجتمعات المعاصرة اليوم، فالأمم المتقدمة تتنافس لبلوغ العديد من الكماليات محققة ما ينبغي من ضروريات الحياة في حين لا زالت الشعوب المتخلفة لا تراوح مكانها. ومرّد تحقيق الكمال والنهضة بالمجتمع استقامة الأخلاق "لأن الأخلاق إذا استقامت فتفتح البصائر إلى الوعي وتهيأت الشّواعر لليقظة وانبعثت القوى للنهضة، فكان الوعي بصيرا وكانت اليقظة عامة وكانت النهضة شاملة وكانت الحياة لذلك كلّها كاملة." (3) إذ يهدف الإعداد الخلقى إلى تحقيق الكمال في حياة الفرد والمجتمع معا من خلال بناء وعي ذاتي وإعداد روحي يدفع إلى النهضة بمختلف قوى المجتمع لتحقيق كمالها في الحياة.

ونظرا للدور البارز للأخلاق في المشروع النهضوي والتربوي للإبراهيمي، ونظرا لعمق الأزمة الأخلاقية التي خلّفها المستعمر. فقد تناسلت النصوص الإبراهيمية جاعلة من مفردة "الأخلاق" مقولة محورية فاعلة، فمفردات من قبيل: إصلاح، تربية، تركية، تقويم، تهذيب، بناء، أخوة، إنسانية، وحدة، تآزر...علامات دالة

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 202.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 202.

(3) - المصدر نفسه، ج4، ص 220.

في بناء منضد منظم يعكس نسقا فكريا ووعيا للذات الإبراهيمية التي استشرفت المآزق الأخلاقي في حقبة من حقب طمس الهوية والقضاء على ثوابت الأمة ومقوماتها، فالإصلاح يقتضي الأخلاق، والأخلاق تقتضي التربية وتقوم السلوك، بناء الفكر وتثقيف العقل من أجل بلوغ الكمال الإنساني.⁽¹⁾

فالتأسيس لأخلاق فاضلة هو الكفيل بنهضة المجتمع أو بمعنى آخر دفعه إلى تحقيق الكمال، لذلك يدعو الإبراهيمي للتركيز على إعداد الأجيال إعدادا أخلاقيا، وهذا ما يبرزه من خلال سعي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى غرس الأخلاق الفاضلة في نفوس أبناء الأمة الجزائرية، فقد علّمت الجمعية "الأمة خلق التضحية في الصالح العام، وخلق الصبر عليه ومطاولته وخلق القصد في الاعتقاد والتفكير وخلق الاعتماد على النفس، وخلق الصراحة في القول والجرأة في الرأي والكلام إلى ما يتصل بهذه الأخلاق من فروع ولوازم."⁽²⁾ فمجموع هذه المكارم الأخلاقية يهدف إلى تنشئة جيل جديد قوامه الأخلاق التي تغلب مصلحة الوطن والمجتمع على المصالح الفردية، مع ضرورة الاعتماد على الذات فلن ينهضَ بالمجتمع إلا أبنائه، فإن بدت هاته القيم الأخلاقية في ظاهرها عادية فإن لها مرامي مستقبلية للنهضة الذاتية بالمجتمع الجزائري، كمجتمع تسوده الأخلاق الإسلامية الفاضلة.

يعتبر الإبراهيمي أن الأمة الجزائرية رغم ما مرت به من ظروف فإنها لم تعدم من لطف الله، ما يبين لها السداد في أوجه الرأي المختلفة ويهديها إلى سلوك النهج الواضح، على بصيرة - من قديم ديني مستقيم وجديد دنيوي واضح- إذ لا تستقيم نهضتها وعملها ولا يواتيها نجاح فيما هي مقدمة عليه في حياتها إلا مع تنقيح لكل ما ورثته من أخلاق لا تنهض بصاحبها في عصر النهوض.⁽³⁾ وإقامة أخلاق ترتبط بالنهضة. فالتأسيس الأخلاقي من منظور جديد يقتضي إحداث قطيعة مع كل ما ارتبط بالمواطن الجزائري والمسلم من سلوكات غير سليمة، خصوصا ذلك الانحلال الذي كان يعمل الاستعمار على إشاعته وسط الشباب خصوصا، إضافة إلى مختلف الأفكار التي تدعو إلى الاستكانة والعزلة بدل النهضة، فعلى الإنسان عزلها بدل أن تعزله هي من الحياة. إن الأخلاق هي ما يحكم سلوكيات الأفراد في المجتمع ومعاملاتهم، فتقف سدا منيعا أمام نقيضها من سوء الأخلاق التي تهدد القيم والمجتمعات، خصوصا في عصر اتسم اليوم بكثرة العوامل الهدامة

(1) - فريدة مولى، المشروع النهضوي الإبراهيمي، قراءة في خطابه الأخلاقي، (مقاربات في نصوص محمد البشير الإبراهيمي - المنجز الفكري والأدبي) مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة برج بوعريش الجزائر، ع2، مارس 2020، ص249، 250.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص286.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص242.

للقيم الخيرة. " أحوج ما نكون إليه في هذا الزمان الذي كثرت فيه المبادئ العاملة على هدم الأخلاق الخيرية، وكثرت فيه الأذواق المتطرفة التي تستمرئ الرذيلة على الفضيلة. وإذا كان عقلاء الأمم التي هي أرقى منا بكثير تشكو فساد الأخلاق في أممها فمن نحن وأين نكون؟" ⁽¹⁾ فإن كانت الأمم المتقدمة تبين ضرر الفساد الأخلاقي على مجتمعاتهم الراقية والمتطورة فذلك يدل على القيمة التي تحظى بها الأخلاق في الحفاظ على رقي المجتمعات وتطورها. وإن كانت للأخلاق ضرورتها البالغة في المحافظة على الرقي وزيادته، فهي أكثر ضرورة حين يتعلق الأمر بالتأسيس للمجتمعات الراقية أو بلوغ ما بلغته. فلها دورها التأسيسي أولاً ثم المحافظة على ما تم تأسيسه ودفعه قدماً.

لذلك يؤكد الإبراهيمي على استثمار الأخلاق الخيرة كعامل أساس في بناء مجتمع جزائري جديد، إذ يبين أن الاجتماع الجزائري المنشود يقتضي درجة عالية من الأخلاق بداية من الفرد والأسرة، مع ضرورة العودة إلى المرجعية الإسلامية والعربية في التأسيس لها من خلال إحياء مختلف القيم الخيرة التي بينها القرآن الكريم، والأخلاق التي تضمنتها الآداب العربية النقيسة. "فالواجب على اجتماعنا الذي ننشد تكوينه أن يبذل مجهودات قوية لرفع درجة الأخلاق عندنا، ومن فكري الخاص أن هذه الناحية من أمراضنا هي أيسر معالجة من جميع النواحي إذا أحسنّا تسيير الجهود الفردية في التربية المنزلية. لأن لنا أساساً نبي عليه ولا يعسر جد العسر إحيائه وهو الأخلاق الإسلامية المتوارثة في الجملة والتي نجد معظمها في القرآن في أوضح عبارة و أوضح بيان، ثم الأخلاق العربية المأخوذة من آدابهم التي هي أنفس ما خلفوه من تراث." ⁽²⁾ فالأمر ليس بعسير في بناء هذا المجتمع الأخلاقي إذا تكاثفت الجهود نحو هاته الغاية، نظراً لأن المجتمع الجزائري توارث الأخلاق الإسلامية عبر تاريخه، وهي ترجمة لمقومات أمته وشخصيته الوطنية الضاربة في جذور التاريخ التي لا يزال يجاهد في الحفاظ عليها رغم محاولات الاستعمار اجتثاثها.

وقد ركزت السياسة الاستعمارية على محاربة الأخلاق الإسلامية ونشر الانحلال الخلقي يقينا منها أن استعمار الحديد والنار لا يفلح ما لم تُحطّم الروح الأخلاقية والمعنوية للشعب الجزائري، والتي يستمدّها من الدين الإسلامي، لذلك اتجه المستعمر إلى تسطير برنامج طويل وعريض لإفساد معنويات وأخلاق الشعب بعدة طرق وأساليب فعمدت إلى حماية الدّجالين والمضللين باسم الدين من شيوخ الطرق الصوفية، إضافة إلى نشر الفجور وحمائته ونشر الخمر لإتلاف الأموال وإفساد العقول فخربت الرّذيلة العديد من البيوت، وأتت

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 52.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 52، 53.

على كثير من الثروات والأراضي ناقلة إياها من المسلمين إلى المستعمرين.⁽¹⁾ فكان همُّ المستعمر إذن تحطيم البنية الأخلاقية التي تمثل قوة ضاربة لدى الشعب لا يمكن إزالتها بالسلح المادي. وقد كان ذلك ديدن الاستعمار الأوربي عامة في سياسته الاستعمارية اتجاه دول الشرق وبالخصوص المسلمين والعرب منهم. "إن أوروبا ما استعبدت الشرق إلا بعد أن أفسدت أخلاقه وأضعفت روحانيته، وهيهات أن ينقذ الشرق نفسه من العبودية لأوروبا إلا بعد أن ينقذ نفسه من نفسه." ⁽²⁾ فخلاص المسلمين بين أيديهم من خلال التأسيس الأخلاقي مقابل الانحلال الذي يتعرضون له، وتركيز المستعمر على المعامل الأخلاقي يؤكد أهمية هذا العامل في المقابل بتوظيف الإبراهيمي له ودعوته إلى ضرورة التأسيس الأخلاقي لمجابهة المستدمر وبناء مجتمع جزائري جديد.

فتحقيق المشروع الإبراهيمي التربوي والنهضوي يتطلب محاربة الانحلالات الأخلاقية التي يعتبرها بمثابة الجرائم التي تنخر جسد المجتمع وتفسد تكوينه، فإذا تمت إزالتها استبدلت بمكارم الأخلاق التي تسهل التشييد وتضع أولى الثمار لتأسيس مجتمع راقى. "فإذا تمكنا بالتدرج من قمع هذه الجرائم الأخلاقية التي أفسدت مجتمعنا، وتكوين أفق أخلاقي صالح نكون قد جنينا من اجتماعنا شيئا هو ثمرة الثمرات وفائدة الفوائد." ⁽³⁾ ويحيل تركيز الإبراهيمي على التأسيس الأخلاقي إلى ضرورة الاستثمار في العنصر البشري والمكانة التي يحتلها الإنسان في التغيير والبناء. فتكوين الإنسان المتخلق الذي يسعى إلى تحقيق - الكمال الإنساني - كما تبين سابقا هو الكفيل ببناء المجتمع على صخرة الفضائل الأخلاقية.

تعدّ الأخلاق في نظر الإبراهيمي الروح التي يتماسك بها بناء الأمة فتبني بناءً صحيحا. ولا سبيل إلى ذلك إلا بتنشئة الأجيال على الأخلاق الفاضلة تأسيسا متينا، فتكون الأخلاق بمثابة الأساس والدعامة التي يقوم عليها بناء المجتمع وتربية الأجيال. هذه المهمة التي يقع حظها الكبير على كاهل العلماء والمربين والمعلمين، فكانت وصية الإبراهيمي وضع الأساس الثابت لها، ويصرّح بضرورة التأسيس الأخلاقي في بناء الأمة والمجتمع قائلا: "إن البناء لا يعلو قويا صحيحا متماسك الأجزاء متعاصيا على الهزات والزلازل إلا إذا كان الأساس متينا، متمكنا ركيئا، وإن هذا الجيل الذي بين أيديهم هو حجرة الأساس في بناء هذه الأمة من

(1) - الإبراهيمي، صوت الإمام الإبراهيمي في الثورة، ص 132، 133.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 171.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 53.

جديد، فليثبتوا الأساس.⁽¹⁾ فمثلاً يُجهزّ البناء بالأسس والدعائم التي تعمل على حفظه من العوامل الطبيعية التي قد تهدّه وتدمره فالإنسان هو الآخر بحاجة إلى أسس أخلاقية تحفظ بناءه من مختلف الهزّات التي يتعرض لها حتى يضمن حياة الأجيال والأمة لأمد بعيد.

يتضمن التأسيس الأخلاقي للتربية لدى الإبراهيمي مدلولاً استشرافياً لا ينحصر في نطاق الماضي من خلال التغيّ بأخلاق الماضيين أو في نطاق الحاضر فقط إنما يؤسس بها للمستقبل. "لئن قال لنا أقوام إنكم تعيشون في الماضي القديم، لنقولن: إننا نعيش بالاستمداد من الماضي، والعمل للحاضر والاستعداد للمستقبل."⁽²⁾ حيث يبدأ هذا التأسيس من خلال إصلاح الفرد لينتهي إلى إصلاح الدولة أو الأمة، إذ يسعى الإبراهيمي للتأسيس لدولة جزائرية أو بالأحرى التأسيس للأمة الجزائرية من جديد على أساس تربية تقوم على الأخلاق التي تعصم الأبناء والبنات من مختلف الانحرافات، تأسيس أمة جوهرها المواطن الصالح في بواطنه، المستقيم في ظاهره، يجمع بين صلاح الضمير وصلاح السلوك، فيكون مجموع هاته الشمائل الأخلاقية الإسلامية سمة الأمة الجزائرية، هذا ما حمّله بيان الإبراهيمي في 16 أبريل 1964 في ختامه، إذ يختتمه الإبراهيمي قائلاً: "قد آن أن يحتشد أبناء الجزائر كي يشيدوا جميعاً مدينة تسودها العدالة والحرية، مدينة تقوم على تقوى من الله ورضوان."⁽³⁾ فالأخلاق هي التي تصلح النفس والروح ومنه صلاح كيان الفرد كلية، وهذا ما يؤدّي إلى صلاح المجموع المتمثل في صلاح المجتمع والأمة. إذ يتشارك في هذه النقطة مع زميله الشيخ ابن باديس حينما يؤكد على ضرورة إصلاح الأفراد من خلال إصلاح الأخلاق والنفس، إذ يؤكد أنه إذا صلحت النفس "صلح البدن كلّه بجريان الأعضاء كلها في الأعمال المستقيمة، و إذا فسدت النفس من ناحية العقائد أو ناحية الخلق أو ناحية العلم أو ناحية الإرادة فسد البدن وجرّت أعمال الجوارح على غير وجه السداد، فصالح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفس."⁽⁴⁾ فالإصلاح عملية متدرجة متكاملة تبدأ من الجزء وتنتهي إلى الكل، بداية من الفرد نهاية بالمجموع قوامها التربية الأخلاقية.

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 110.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 380.

(3) - المصدر نفسه، ج5، ص 317.

(4) - تركي رابع عمارة، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التربية في الجزائر، ص316.

ومنه أولى الإبراهيمي في مشروعه التربوي عناية فائقة للأسس الأخلاقية في إعداد الناشئة، حيث يتلقى المتعلمون مختلف القيم الأخلاقية في صغرهم، خصوصا التي تتناسب مع سنهم، نظرا لأثرها الكبير في النفوس في ذلك العهد مما يجعل المتعلمين يشبّون عليها فلا يزيغون عنها في كبرهم، إذ تمثل هذه الفترة في نظر الإبراهيمي - عهد الصبا - العهد الذي يندفع فيه المتعلم إلى الحياة والعلم والفضائل من جهة فيجب استثمار طاقاته وتنميتها وتلبية رغباته المعرفية، كما أنه على النقيض تَتَنَبَّه وتتحرك لديه مختلف الغرائز فوجب تزويده بالوسائل التي يكبح بها جماحها. فيكون الصبي في هذا العهد، الذي يعتبره الإبراهيمي "عهد الإحساس بجمال الحياة- مزودا بإحساس آخر، وهو الإحساس بجمال العلم وشرف الفضيلة والدين، ويتلقى في هذا العهد الذي هو أيضا عهد النزوات وتنبه الغرائز الفطرية، مسلحا بما يدفع غوائلها، ويشذب زوائدها، ويهدّب حواشيها."⁽¹⁾ فالأخلاق هي من توجهه وتتحكم في دوافعه وطاقاته، فتوجهها لما هو مفيد بدل إضاعة تلك الطاقات في النزوات و اتباع الغرائز.

وفي سياق تأكيد الإبراهيمي على أهمية الأخلاق في تكوين المجتمعات يورد مقارنة أخلاقية تتضمن نوعا من المقارنة بين الأخلاق في الحضارة الغربية التي تدّعي الإنسانية وبين نظيرتها الحضارة الإسلامية العربية، إذ يُبرز أن أخلاق الغرب هي محض ادّعاء في كثير من جوانبها خصوصا في تعاملها مع المجتمعات الغربية عنها، لأنها قائمة على فكرة إقصاء الآخر واستغلاله وقد تجسد ذلك في مختلف الممارسات الاستعمارية الغربية. ففعل الاستعمار وحده يلغي مصداقية أخلاق الحضارة الغربية التي داست على قيم الإنسانية، وعلى مختلف المقدسات وأهمها الدين لدى مختلف الشعوب، بل ووظف الدين الذي يدعو إلى السّماحة ومكارم الأخلاق إلى معول هدام لها، من خلال توظيف واستثمار الدين المسيحي في محاربة الدين الإسلامي، يبين الإبراهيمي ذلك قائلا: "قد يبغى الوحش على الوحش فلا يكون ذلك غريبا، لأن البغي مما ركب في غرائزه، وقد يبغى الإنسان على الإنسان فلا يكون ذلك عجيبا لأن في الإنسان عرقا نزاعا إلى الحيوانية وشيطانا نزاعا بالظلم، وطبعا من الجبلّة الأولى ميالا إلى الشر. ولكن العجيب الغريب معا والمؤلم المحزن معا أن يبغى دين عيسى وروح الله وكلمته على دين محمد الذي بشر به عيسى روح الله وكلمته."⁽²⁾ فإذا اعتدى إنسان على آخر فمن الممكن أن يفسّر ذلك بوقوعه تحت إمرة غرائزه وأهوائه، لكن من غير المعقول وغير الإنساني أن يُوظّف الإنسان الدين من أجل الاعتداء، فالديانات كلها تكمل بعضها بعض ووجدت من أجل هداية الإنسان.

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 109.

(2) - المصدر نفسه، ج5، ص 307.

غير أن أخلاق المسلمين اليوم قد اختلت لأنهم ابتعدوا بها عن حقائق دينهم حتى كادوا أن يضيّعوه، وتهاوت مجتمعاتهم بحلول الرذيلة مكان الفضيلة، فبناء مجتمع أو هدمه مرهون بأخلاقه، وما الأخلاق إلا شعبة من شعب الدين، فلا يستقيم التدبّر وشؤون الحياة إلا عليها. يوضح الإبراهيمي ذلك بالنسبة للمجتمعات الإسلامية التي تهاوت وتخلّفت يوم تدنّت أخلاقهم إذ يخاطبهم: "اختلت الأخلاق وفي اختلالها البلاء المبين، وإن الأخلاق في دينكم هي شعب الإيمان، فلا يختل خلق إلا وتضيع من الإيمان شعبة، وقد أجمع حكماء الأمم على هذه الحقيقة التي قرّرها الإسلام بدلائله وأصوله وهي أن الأمم لا تقوم ولا تحفظ وجودها إلا بفسوخ الأخلاق الفاضلة في نفوس أفرادها. ولهذا نرى الإسلام يأخذ في شرطه على أبنائه أو يتأمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر، ويُبدئ في هذا المعنى ويعيد، ويضرب الأمثال ويبين الآثار، ويلفت النفوس إلى الاعتبار بمن مضوا وإلى سنن الله الخالية فيهم."⁽¹⁾ فالسبب الرئيس في اختلال أخلاق المسلمين يتمثل في بعدهم عن تعاليم الدين حيث تشكّل الأخلاق ركيزة أساسية من ركائز الدين فإذا اختلت اختلت حياة الإنسان واختلت معها مختلف القيم الأخرى في حياته.

فالإقدام على الحياة في نظر الإبراهيمي يكون من خلال الاستعداد لها و أولى الأسس في ذلك التسلّح بالأخلاق الفاضلة هذا ما يتضح في إحدى وصايا الإبراهيمي قائلا: " لا نرجوا أن نحيا من غير أن نستعدّ إلى الحياة، وإنما نرجو أن يوفقنا الله إلى هذا الاستعداد، وأوصيكم باستكمال هذا الاستعداد الكسبي من نفوسكم ... فكونوا رجال اليوم والغد وتسلّحوا بالأخلاق الإسلامية الحقيقية لا هذه المظاهر التي غرّنا بها الغرور."⁽²⁾

كما ينتقد الإبراهيمي موقف المستيحيين للمحرمات من الشرقيين المقلّدين للحضارة الغربية باسم الحرية، بأن مسلّكهم هذا لن يغيّر من طبيعة الأشياء، فالخير يبقى خيرا والشرّ يظلّ شرّا، والفضيلة فضيلة والرذيلة رذيلة، فالسارق يسرق وهو مؤقن بأنه يعتدي على مال غيره، والمتّبّع لخطوات الشيطان بارتكاب المعاصي والفواحش لا يقول لا رضي الله عن إبليس وإنما يلعنه، وهي إحدى أسرار الفطرة الإلهية في الخلق التي اقتضت أن مرتكب الجرم أو المعصية، لا يُقرّ في ذاته أن ما قام به فعل خير فيشهد بذلك على نفسه إلا من فقد الشعور والإحساس ومات في نفسه الضمير.⁽³⁾ فتوجه الإنسان المسلم نتيجة لذلك توجهات عديدة

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 134.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 39.

(3) - بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان، دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، رسالة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري قسنطينة، 1430-1431هـ، الموافق ل 2009-2010م، ص 239، 240.

بفقدانه التوجه الدّيني الصحيح، وانعكست على توجهاته العامة في حياته. فتضيع ذاته بين مختلف الرؤى ولن يدرك ذلك إلا وقد تأخر وتخلّف فكان ذلك سبب تخلّفه عن الرّكب. فما "أخّر المسلمين إلا هذا الشرك الذي أبعده المسلمين عن عبادة الله، لأنّ الإنسان إذا تَلَقَّتْ إلى جهات متعدّدة فإنه يصبح بلا إرادة، وما الإنسان إلا إرادة وعزيمة، فإذا صلحت إرادته صلحت عزمته، وإذا أراد الإنسان شيئاً وسعى لتحقيقه فإنّ إرادته تؤدي به إلى نيل مبتغاه، ومن أصبح بلا إرادة أصبح مُسَيِّراً مثل ما هو حالنا اليوم." (1) وينعكس ذلك سلبياً على إرادته فيثبّط من عزمته نحو تحقيق آماله، فينتهي به ذلك إلى أن يكون مُسَيِّراً من طرف الآخر تابعا له. في هذه النقطة يتساءل الإبراهيمي عن سرّ تملّك الغرب لمجتمعاتنا قائلًا: "أندرون لماذا ملكنا الغربيون؟ لقد ملكونا لأننا انغمسنا في الكماليات السخيفة التي غمرونا بها والتي تملأ الشوارع والمحلات ليضعفوا بها اقتصادنا ويمتصّوا ثروتنا." (2) السبب في ذلك إذن البُعد عن تعاليم الإسلام وأخلاقه، والتوجه نحو الكماليات دون تحقيق الضّروريات فكان ذلك إيذاناً بتردي أخلاق المسلم وتخلّفه.

إن دعوة الإبراهيمي إلى التأسيس الأخلاقي تحمل في ثناياها منظورا دينيا وفلسفيا، من خلال الأهمية التي تحظى بها الأخلاق الفاضلة في كِلا المنظورين. إذ يلتقي رجل الدّين والمصلح والفقهاء والفيلسوف في رؤية أخلاقية للوجود لا مكان فيه للشرّ ولا للردّيلة، لأن الدعوة إلى الأخلاق والفضيلة يحقّقان المنفعة الفردية والجماعية ويسهمان في ترقية المجتمعات ويقلّلان من وطأة الشرور المنتشرة جراء انتهاك حرمة القوانين والثواب الدينية والمقدسات ومبادئ الدين والأخلاق، فالكمال الأخلاقي يكون باكتساب الفضائل والأخلاق الكريمة وهو أعلى ما يكمل الإنسان وأعظم ما يمتدح به، فالمعروف في الديانات السماوية أن الأخلاق هي من تخلص البشر من كدر الجهل وعفن الفساد وأنه من الفضيلة يأتي حبّ الخير وينشأ حبّ الخير وحبّ الحياة. (3) فالبناء الأخلاقي الذي يؤكّد عليه الإبراهيمي يجمع بين منظور الفقيه الإسلامي من خلال التأكيد والتوكيد على النّهل من الأخلاق الإسلامية، وبين منظور المصلح الديني والاجتماعي من خلال الدعوة إلى إصلاح المجتمع من خلال تقويم أخلاقه واستبدال الرذيلة بالفضيلة، والسيئة بالحسنة، ويتضمن رؤية فلسفية قوامها التأسيس لمنظور تربوي ذي مرجعية تحكمها فلسفة المجتمع الجزائري ومقوماته الضاربة في جذور التاريخ مع ربطها بما يرنو المجتمع تحقيقه بداية من تحقيق الاستقلال الذاتي والفكري من برائن المستدمر والتخلف.

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 210.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 211.

(3) - فريدة مولى، المشروع النهضوي الإبراهيمي - قراءة في خطابه الأخلاقي، ص 253.

ومنه تشكّل الأخلاق أصلا وأساسا ترتبط به مختلف الأسس التربوية الأخرى، فالمجتمع نسيج بشري مختلفٌ من حيث العادات والفئات والمؤسسات لا ينتظم إلا بالأخلاق الفاضلة التي تعكس إنسانية الإنسان، ولا يمكن أن يحلّ أساس آخر محلّها ولا أن يُقدّم العلم على الأخلاق لأنها هي التي توجّه العلم وتهدّب العالم، فيكون العلم في خدمة الإنسانية وموجّها بالأخلاق، فأوّل وظيفة ينبغي أن يقوم بها المجتمع هي ضرورة تربية أفراده على الفضائل الأخلاقية فتكون بمثابة القاعدة التي ينطلق منها في بناء المجتمع. يتضح ذلك جلياً في توجيه الإبراهيمي للمعلمين في تربية الأجيال قائلاً: "رّبّوهم على الفضائل - وأكرّر القول وأعيده - وقدّموها على العلم. إن الأخلاق العالية هي الأصل، وإن العلم لا يغني عنها، ولا يأتي بها، وكم رأينا من عالم يعظ الناس وينهاهم عن المنكر ثم يخالفهم إلى ما نهاهم عنه، وكم رأينا من طبيب بيّن مضارّ الخمر للناس وهو يعاقرها." (1) فإذا اتجه المجتمع إلى التأسيس والتربية الأخلاقية لأفراده فهذا يُحيل إلى الوسائط التي يعتمد عليها في ذلك، فما أهم وسائط التأسيس الأخلاقي التي اعتمدها الإبراهيمي في هذا التأسيس؟

1. وسائط التأسيس الأخلاقي للتربية:

تبين في الفصل الثالث مختلف الوسائل التي اعتمدها الإبراهيمي في منهجه التربوي خاصة فيما تعلّق بالتأسيس للمدرسة الجزائرية والمهمة الموكلة إليها، إضافة إلى الدور الذي تقوم به كل من المساجد، النوادي، الجمعيات والصحافة... الخ إذ تدخل ضمن الأساليب والوسائل التربوية، وتعدّ من جهة أخرى وسائط تربوية بصفتها تابعة للمجتمع كوسيط تربوي يشملها. غير أنه في هذا العنصر المقصود بالوسائط التربوية في التأسيس الأخلاقي هو: تلك الوسائط التي تُقوّد وتكرّس للتربية الأخلاقية لدى الأجيال والأطفال خصوصا، وبالأحرى ترسّخها لدى الطفل فيحتضنها. ومن وجهة أخرى تمثل مجالات ودوائر التربية الأخلاقية. وأهم هاته الوسائط ذات الأثر البالغ ثلاثة وسائط يرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا من حيث وظائفها التربوية والتعليمية، متمثلة في: الأسرة، المدرسة و المجتمع. وإن كان الفصل بين هاته الوسائط ميسّرا نظريا، فإنه قد يكون متعذرا من الناحية العملية نظرا للتداخل الكبير والتأثير المتبادل بين هذه الأطراف الثلاثة.

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 115.

الأسرة:

تشكّل الأسرة الحاضن الأول للطفل فهي الجماعة الإنسانية الأولى التي يتعامل معها، حيث تؤدّي دوراً هاماً في تكوين شخصيته وغرس مختلف القيم الأخلاقية لديه. من منطلق أن الطفل يعيش معظم سنواته الأولى المشكّلة لشخصيته فيها، فيتعلم من أفراد أسرته مختلف المبادئ والتعاليم التي من خلالها يبدأ في تكوين شخصيته. "إذ يستحيل التفكير بالتربية خارج الحيز الذي يولد فيه الطفل ويُستقبل ويتعرّع: الأسرة، فلطالما اعتبر هذا الضرب من المجتمع الطبيعي الذي يتمتع بخصوصية التأليف بين البيولوجي والاجتماعي، منبعاً وأساساً لكل جماعة منظمة... باعتبار أن الأسرة هي أصل الرباط الاجتماعي ودعمته."⁽¹⁾ لذلك أولى الإبراهيمي عناية كبيرة للأسرة في منظوره التربوي إذ يؤكد على دورها البالغ خصوصاً في التكوين الأخلاقي للفرد. وحقائق الإشارة هنا إلى الدور الذي شكّلته الأسرة الجزائرية في المحافظة على مختلف القيم الأخلاقية وغرس مبادئ التربية الإسلامية لدى الأجيال في ظل انعدام التربية والتعليم للغالبية العظمى من الأطفال الجزائريين بفعل سياسة الاحتلال، أو بفعل ما كان يتلقاه الجزائريون في المدارس الفرنسية من قيم مخالفة لمعتقداتهم وثقافتهم وتربيتهم الإسلامية. فتولت الأسرة نتيجة لذلك مهمة التربية والتعليم، خصوصاً لدى الأسر التي توفر لديها حظاً من العلم. وإن انعدم التعليم فيها، فعلى الأقل لا تغيب التربية الأخلاقية الإسلامية التي تضمن صلاحهم وعدم التنكر لقيمهم كموروث ثقافي متوارث بين العائلات الجزائرية.

وقد أكّدت التربية الإسلامية على علاقة الأسرة بالمدرسة، وأهمية الدور الذي تؤدّيه في تربية ونجاح الطالب. فقد ورد أن الطفل صورة لعائلته، فكل ما فيها من خير أو شر، وكل ما سمعه وراه ينطبع فيه. ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور في تربية الأبناء، ومن ربّ ماله ولم يربّب ولده فقد أضاع الوالد والثروة. فتربية الفضائل لا يمكن أن تكتسب في المدارس بل تجب ممارستها مع الطفل من يوم يعي ويفهم الكلام، وأول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعاً الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة. والذين يؤثرون عليه بأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم، ثم إذا أضفنا ما تحتاجه هذه التربية من العناء والصبر، والعقل والحنو، والمحبة الخالصة حكمنا بأنها لا تتم إلا بواسطة من أنتجتهم الفطرة الإلهية لهذه المأمورية العالية وهم الوالدان.⁽²⁾

(1) - مارسيل غوشيه، ماري كلود بليه، دومينيك أوتافي، أوضاع التربية و شروطها، ت نصير مروة، مؤسسة الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ص 11.

(2) - أحمد شلبي، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، جوانب التاريخ والنظم والفلسفة - موسوعة الحضارة الإسلامية ج5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8، 1987، ص 213.

حظيت الأسرة بموقعها المحوري في التربية لدى الإبراهيمي، فهي قرينة المدرسة من خلال الأهمية والوظيفة، لذلك وجب العناية بتعليم القائمين على الأسر أو بما يسميهم الإبراهيمي - قواعد البيوت - المتمثلين خصوصا في الأمهات. يؤكد على دور التربية الأسرية قائلا: "إن البيت عند الأمم الحية هي أخت المدرسة. كلتاهما مكتملة للأخرى، فالتلميذ بينهما يتقلب بين عاملين من عوامل التنقيف والتهديب. أما البيت عند أمتكم فهي ضرّة المدرسة، ما تبنيه هذه تخدمه تلك، وما تزرعه هذه تقلعه تلك، لأن قعائد البيوت جاهلات، وقعائد البيوت هنّ قواعدها، وويل لبيوتنا من هذه القواعد ما دمن جاهلات." (1) يؤكد الإبراهيمي على تكامل وظيفتي الأسرة والمدرسة، وكيف تخدم الواحدة منهما الأخرى. لذلك ينبّه من الآثار السلبية التي تنجم عن تربية الأبناء إذا كانت الأمهات في الأسر غير متعلمات، لأنهم يشكلون القاعدة الأخلاقية والتربوية التي ينهل منها الطفل. وفي السياق ذاته يبرز دور الأسرة في التربية عامة والتأسيس الأخلاقي خصوصا، بعقد مقارنة لحال الأسرة في الأمم الحية حيث تهيم الطفل للمدرسة تهديبا وثقيفا، بينما الوضع على النقيض في الأسرة التي استشرى فيها الجهل فتعدّ نقيضا في ثقافتها وتهديبها للمدرسة. ولعلّ ما نلاحظه من نفور بعض الأطفال من المدارس من آثار ذلك بنسبة معينة. لذلك يؤكد الإبراهيمي على تربية المرأة نظرا لدورها الكبير.

تربية المرأة تفعيل لدور الأسرة.

طرحت قضية تربية المرأة وتعليمها العديد من الآراء المختلفة، خاصة مع الوضع الذي كانت تعيشه المرأة الجزائرية في ظل المستدمر الغاشم، وكذلك الحرمان والتجاهل الذي ميّز حياتها فقد حُرمت من التعليم في بعض المجتمعات لعدّة دواعٍ. ونظرا لتداعيات ذلك على أداء دورها التربوي والأسري حظيت بعناية فائقة في الطرح الإبراهيمي. ونفس الشيء بالنسبة للعديد من المفكرين في العالم العربي والإسلامي.

فقد برزت عدة دعوات لتعليم المرأة العربية المسلمة وتحريها، هذا ما يظهر مثلا مع آراء قاسم أمين الداعية إلى تحرير المرأة من خلال كتابيه «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة». فقد دعا إلى تحريرها مبينا أن منطلق ذلك التربية والتعليم، فتربية المرأة هي الأداة التي تمكّنها من القيام بدورها في المجتمع والعائلة، ولا يمكن أن تقوم بدورها على أتم وجه إلا بتعليمها القراءة والكتابة، ويساعدها ذلك في طرح الخرافات والتحرر من الأوهام "فإذا تعلّمت المرأة القراءة والكتابة، واطلعت على أصول الحقائق العلمية، وعرفت مواقع البلاد، وأجالت النظر في تاريخ الأمم، ووقفت على شيء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية، وكانت حياة ذلك كله في نفسها، عرّفانها

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 114.

العقائد والآداب الدينية، واستعد عقلها لقبول الآراء السليمة، وطرح الخرافات والأباطيل التي تفتك الآن بعقول النساء.⁽¹⁾ غير أن رؤية قاسم قد تجاوزت هذا النطاق ليخوض في بعض النقاط المتعلقة بالمرأة والدين الإسلامي، والتي واجه فيها عدة انتقادات لا يتسع المقام إلى ذكرها.

أما من حيث المنظور الإبراهيمي فإن "المرأة المسلمة موضوع ذو شعب: جهلها، تربيتها، تعليمها، حجابها، وظيفتها."⁽²⁾ إذ يبين الإبراهيمي الحالة العامة للمرأة المسلمة والجزائرية على وجه الخصوص في عصره، فقد كانت محرومة من التعليم، وبالأخص قواعد البيوت من النساء بتعبير الإبراهيمي فقد عانين الجهل والأمية بفعل الاستخراب الفرنسي، أما النساء اللواتي التحقن بالتعليم فاقتصر تعليمهن وتربيتهن على بعض التعاليم البسيطة. فقد كانت المرأة الجزائرية "محرومة من كل ما يسمى تعليماً إلا شيئاً من القرآن يؤدي إلى معرفة القراءة والكتابة البسيطة... ولا يجاوزون البنت فيه الثانية عشرة من عمرها، هذه الحالة السائدة في الجزائر منذ قرون وتشاركها فيها جميع الأقطار الإسلامية على تفاوت بسيط بينها."⁽³⁾

عن أسباب ذلك يبين الإمام الإبراهيمي قائلاً: "أن السبب في هذه الحالة نزعة قديمة خاطئة راجت بين المسلمين وهي أنّ تعليم البنت مفسدة لها، ويلوئك أصحاب هذه النزعة آثاراً مقطوعة الأسانيد، مخالفة لمقاصد الشريعة العامة وتربية محمد (صلى الله عليه وسلم) العملية لنسائه ونساء المسلمين العالمات، ثم يؤيدون تلك الآثار الضعيفة الإسناد... ولا سبب لانحطاط المرأة عندنا إلا هذا الضلال الذي شوّه الدين وقضى على المرأة بالخمول."⁽⁴⁾ فقد كان منعها أحياناً من منظور وفهم خاطئ للدين، إضافة إلى العامل الأكبر وهو غاية السياسة الاستعمارية من تجهيل الجزائريين نساءً ورجالاً.

يبين الإبراهيمي أن للمرأة قيمتها ودورها البناء في المجتمع وإعداد الأجيال، والأم لها إسهام كبير في العلوم والخدمة الإنسانية. ويبين أن الإسلام هو الذي حرّرها من العبودية وتغييب الذات الذي شهدته طوال تاريخها، فقد كانت لا تتمتع بأي حق، وإنما اعتبرت مجرد وسيلة لتحقيق غايات بيولوجية لا غير، "فقد حرّ الإسلام المرأة من ظلم الرجال وتحكمهم، فقد كانت المرأة في العالم كله في منزلة بين الحيوانية والإنسانية، بل هي إلى الحيوانية أقرب، تتحكم فيها أهواء الرجال وتتصرف فيها الاعتبارات المجردة من العقل... وجاء الإسلام

(1) - قاسم أمين، تحرير المرأة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دط، 2012، ص 18.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 263.

(3) - المصدر نفسه، ج 4، ص 263، 264.

(4) - المصدر نفسه، ج 4، ص 264.

فنبه على منزلتها وشرفها وكرم جنسها، وأعطاهما ما يناسب قوتها العقلية وتركيبها الجسمي وسوى بينها وبين الرجل في التكاليف الدينية، وخاطبها بذلك استقلالاً تشريعاً لها، وإبرازاً لشخصيتها.⁽¹⁾

فقد أيد الإسلام المرأة بأحكام قطعية، فإن ظلمتها التشريعات الوضعية الإنسانية، فقد حماها بتشريع سماوي عادل، فلم يكلها إلى طبائع الآباء الذين يلبنون ويقسون، ولا إلى الأزواج الذين يرضون ويغضبون، ولا إلى نزعات الأبناء الذين يبرّون أو يعقّون، وإنما هي أحكام إلهية واجبة التنفيذ، لا تدور مع الأهواء والعواطف والنزعات وجوداً وعدماً.⁽²⁾ ولقد اختار الإسلام للمرأة الموضوع الأنسب لها في الميزان الاجتماعي فجعلها العنصر الفاعل في التربية و أكرمها بأن جعل نبي الرحمة يوصي بها دوماً ويشدد في خطبه وأحاديثه على أنه من الواجب والشرف إكرام النساء، «اسْتَوْضُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»⁽³⁾ فأولاها الإسلام بذلك مكانة عالية ومتميزة باعتبارها إنساناً كاملاً إنسانية، له حقوقها الكاملة فيما يتعلق بحياتها الخاصة شرط أن لا يتعارض ذلك مع أصول الشريعة وأحكام الإسلام.⁽⁴⁾

ومما يؤكده الإمام الإبراهيمي أن تكريم الإسلام للمرأة لم يكن بإذلالها وإسقاطها في نوازع الشر التي تحيط بها، والمتثلة في دعوات الكثيرين إلى الحرية المزيفة التي تعني السفور والتبرج والانحلال الأخلاقي الذي يتعارض مع الفطرة التي خلق الله عليها المرأة من حياء وحشمة، فهؤلاء يريدونها أن تتعري كاشفة مفاتها لتصبح سلعة وضيفة في ميزان السوق والتجارة، وبالتالي فقدان كرامتها وعفتها وأنوشتها التي جعلها الإسلام عنوان المرأة المسلمة، فالإسلام أقرّ بإنسانية المرأة كاملة غير منقوصة في الدنيا والآخرة، هذه الإنسانية تكرسها حقوقها الممنوحة لها مثلها مثل الرجل كحقّ الامتلاك والتصرف، وحقّ التّعلم وحقوق أخرى تؤكد أن الإسلام هو الذي كرم المرأة وحرّرها.⁽⁵⁾

وعلى هذا الأساس فإنه يرفض رفضاً قاطعاً الطريقة التي انتهجها الغرب في قضية تحرير المرأة، حين أطلق لها العنان في جميع الميادين دون قيد ديني أو أخلاقي يعصمها من السقوط في الرذيلة ويجولان دونها ودون

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 360، 361.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 361.

(3) - رواه البخاري في (كتاب النكاح) باب الوصاية بالنساء، حديث رقم (4787) ورواه مسلم في (كتاب الرضاع) باب الوصية بالنساء، حديث رقم (2671). [2] رواه البخاري واللفظ له، في (كتاب الحيض) باب ترك الحائض الصوم، حديث رقم (293) ورواه مسلم في (كتاب الإيمان) باب نقصان الإيمان بنقصان الطاعات، حديث رقم (114).

(4) - الجيلاني ضيف، بناء المجد - محمد البشير الإبراهيمي، ص 68.

(5) - المرجع نفسه، ص 70، 71.

الانقياد للغرائز، حتى خرجت عن حدودها الطبيعية، مما أفرز مضاعفات خطيرة أصبحت تهدد المجتمع الإنساني بالتفكك، وهو بذلك لا يرى للمرأة الجزائرية سبيلا تنال به حقوقها، ولا يحصل لها حريتها إلا بالإسلام، حتى تتمكن من المساهمة الفعالة في البناء الحضاري لأمتها.⁽¹⁾ وإذا كان الإسلام أكد على ضرورة تعليم المرأة وتربيتها التربوية الإسلامية، فإن الإبراهيمي سيؤكد على ذلك مع الكثير من العلماء، خصوصا الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي وضع تعليم المرأة ضمن سياسة محاربة الاحتلال الفرنسي مدركا لدورها في ذلك، وكونها تمثل مصدرا وروحا للشخصية الوطنية التي وجب المحافظة عليها، حتى لا يستغلها المستعمر لصالحه، ويحاول مسح مقومات شخصيتها. فأول شيء وجب القيام به تربيتها وإصلاحها حيث يقول: "والطريق إلى هذا هو التعليم: تعليم البنات تعليما يناسب خلقهن، ودينهن، وقوميتهن... وقد تفتنت لهذا بعض الأمم المالكة لزاما غيرها فأخذت تعلم بناتهم تعليما يوافق غايتها فمن الواجب علينا ولنا كل الحق في المحافظة على ديننا وقوميتنا، وأن نعني بتعليم بناتنا تعليما يحفظ علينا مستقبلنا ويكون لنا الرجال العظماء، والنساء العظيمات، وإلا فالمستقبل ليس كالماضي فقط بل شر منه." (2)

أكد الإبراهيمي على ضرورة تعليم المرأة وتكوينها لتقوم بوظيفتها في تربية الأبناء على أكمل وجه، لأن المرأة أو الأم هي المدرسة الأولى والمربي الأكبر للأطفال يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس موضحا أهمية التربية الأخلاقية للطفل: "البيت هو المدرسة الأولى، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتدئين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتها في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن." (3) وهنا تظهر حكمة الإسلام في ضرورة إحاطة الأسرة أخلاقيا بداية من لحظة إقامتها باختيار الأصلح للأصلح في الزواج فيساهم ذلك في نظر الإبراهيمي في بناء المجتمع الصالح: "يتزوج الرجل الصالح بالمرأة الصالحة فيلدان الولد الأصلح، وإذا كان الطفل يتقلب بين أحضان الصالحين وحجور الصالحات، ويرجع من أجدان صباه وعشراء داره وزملاء ملاعبه إلى طفولة طاهرة راشدة تحرسها أعين المجتمع كله، فأخلق به أن يكون مثالا للإنسان الكامل." (4) فالأسرة الصالحة مهد لنشأة

(1) - محمد زرمان، معالم الفكر السياسي والاجتماعي عن الشيخ البشير الإبراهيمي، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، دط، 1998، ص 203.

(2) - تركي رابح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، دار موفم للنشر، الجزائر، ط1، 2007، ص 175، 178.

(3) - تركي رابح عمامرة، دراسات في التربية الإسلامية، ص 41.

(4) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 150.

وتكوين المواطنين الصالحين. ومنه فالإعداد السليم يبدأ من البيت الذي يولد فيه الفرد وينتقل إلى البيئة والمجتمع اللذان يحتضنانه عبر مختلف مراحل عمره.

إن تربية المرأة وتحليلها بالأخلاق الفاضلة ترجمة لتربية الأسرة وأخلاقها، لذلك سعى الإبراهيمي إلى التربية والعناية الأخلاقية بالبيوت الجزائرية ومحاربة ما استشرى فيها من جهل وفساد للأخلاق حتى يساهم في محاربة الفساد الأخلاقي الذي عمل الاستعمار على إشاعته وسط الشباب ذكورا وإناثا، وإنقاذهم من الخطر الثقافي والأيدولوجية الاستعمارية، فإن نَقَر الطفل من تربية الأسرة احتضنه الشارع أو المدرسة الفرنسية ذات البرنامج اللائكي الموجه، نظرا لمحاربة المستدمر المدارس العربية الإسلامية على الرّغم من ندرتها. يؤكد الإبراهيمي على هذا الخطر المحدق بتكوين الأطفال في هذه المرحلة الحساسة. "إذا كانت بيوتنا على ما نرى من فساد في الأخلاق، وجهل بالتربية الصالحة، وإهمال وفوضى، وكانت ناشتتا في هذا الطور - طور التكوين - تتقلب بين بيوت هذا حالها، وبين مكاتب فرنسية لائكية- إنْ قَدَّر لهم الوصول إليها- وهي ذات برنامج استعماري يوجههم إلى غايات استعمارية، ويعددهم عن دينهم ولغتهم وقوميتهم." (1) فسيزداد عبء المهمة التربوية رغم صعوبتها وكثرة أعبائها في حالتها العادية على المربين والمعلمين، فما بالك إذا كانت الأسرة بتربيتها نقيضا لتربية وأخلاق المدرسة، دون نسيان سياسة الحكومة الاستعمارية بقيودها وعراقيلها اتجاه بناء مدرسة جزائرية، واعتقالاتها المتكررة للمعلمين والمصلحين المناهضين للمستدمر.

إن الإبراهيمي لا يُلفت الأنظار إلى أهمية دور الأسرة في تربية الأبناء تربية إسلامية فحسب، بل يؤكد على ضرورة أن يكون هذا الدور متكاملا مع ما تقوم به المدرسة وغيرها من وسائط التربية، فالأسرة تصنع البذور وتتعهد بها بالنماء، وتواصل المدرسة التعهد نحو الغايات المرسومة، ولا يتوقف دور الأسرة في هذه النقطة فقط، إنما يمتد ليساند المدرسة ويعززها سعيا لأداء رسالتها التربوية توكيدا لدور الأسرة التربوي المستقى من هدي الإسلام. (2) هذا ما يتجسد في تربية الأنبياء لأسرهم وللناس جميعا، من خلال أمرهم وحثهم على الطاعة والتزام الأوامر الربّانية. إذ يقول الله تعالى واصفا نبيه إسماعيل عليه السلام: ﴿وَأذُكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿125﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 114.

(2) - محمد جبر السيد عبد الله جميل، الفكر التربوي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - دراسة تحليلية في ضوء رسالته الموسومة "مرشد المعلمين" مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة برج بوعريّج، ع02، مارس 2020، ص 23.

مَرْضِيًّا⁽¹⁾ فالتأسيس لتربية أخلاقية للمجتمع يبدأ من التزام كل أسرة أخلاقيا اتجاه ذاتها من الوالدين إلى الأبناء.

وفي مذكرة إيضاحية لعمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يعرض الإبراهيمي خلاصة لأهم النتائج الإيجابية لأعمال الجمعية في مجال المعنويات، ومن بين أهم تلك النتائج التي تضمنتها النقاط (5-6-7):

- إحياء الفضائل والأخلاق المتينة وعقد جملتها بالقلوب لا بالألسنة.
- خطوات شديدة في بناء الأسرة على المحبة وبناء المجتمع على التعاون.
- وضع المرأة المسلمة في موضعها من الفطرة ومنزلتها في الإسلام.⁽²⁾

يتضح من خلال ذلك الترابط بين الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية الفاضلة وإحيائها في القلوب وترسيخها في النفوس، وربط تلك الأخلاق بالأسرة على أساس من المحبة حتى ينشأ الأفراد نشأة أخلاقية صحيحة، ويبنى المجتمع تبعا على ذلك الأساس، ولا يكون ذلك إلا من خلال الاهتمام بتربية المرأة، لذلك أكد الشيخ الإبراهيمي على ضرورة إعادتها للمنزلة التي كرمها بها الإسلام وتعليمها وتربيتها تربية إسلامية. والملاحظ أن الإبراهيمي في ذكره لهاته النتائج أوردتها متسلسلة تسلسلا منطقيًا ووظيفيًا بداية من إحياء الفضائل والأخلاق في قلب ونفس كل فرد، فيكون كل فرد ملتزما أخلاقيا في ذاته منتقلا بعد ذلك إلى بناء الأسرة على الأخلاق ومن ثمة المجتمع. وهذا التسلسل والترتيب ليس تسلسلا اعتباطيا إنما له دلالة في عملية الإصلاح التي تبدأ من الفرد في ذاته لتنتهي إلى المجتمع فالأمة.

وبذلك تتجلى أهمية الوسيط الأسري في الإعداد الأخلاقي للأفراد والتأسيس للتربية، ليتدرج هذا التكوين عبر مختلف مؤسسات المجتمع وعبر مختلف المراحل العمرية للإنسان. مع مراعاة مختلف التغيرات التي تطرأ على المجتمع وظروف النشأة. فإعداد المواطن الصالح "يبدأ من البيت الذي فيه وُلِدَ، والقرية التي فيها درج، والمحيط الذي فتح فيه عينيه، والمضطرب الذي اضطرب فيه طفلا وشارحًا، والنشأة التي عليها نشأ."⁽³⁾ فمنطلق التربية الأخلاقية البيت و ما يكتسبه الطفل من أول جماعة بشرية يتفاعل معها ليتدرج بعد ذلك إلى الجماعات الأخرى، فأخلاقه وسلوكه يكتسبان بشكل كبير إلى هذه النشأة وما يكتسبه فيها.

(1) - سورة مريم، الآيتان 54، 55.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 178.

(3) - المصدر نفسه، ج4، ص 149.

لم يهمل الإبراهيمي في تأسيسه التربوي الأخلاقي فئات المجتمع الأخرى خصوصا كبار السن والأولياء الذين يعتبرون أيضا الفاعلين في أسرهم، لذلك حدّد الإبراهيمي برنامجا للقضاء على الأمية وتعليم الكبار حتى تنعكس تربيتهم إيجابا في تربية الأبناء، فيكونون بذلك معينين للمدرسة لا معيقين لها، وموجهين أبناءهم للعلم لا إلى الحياة العملية دون علم، إذ من مخاطر الأمية على الإنسان أنها تنزل به من إنسانيته إلى مستوى الحيوانية نظرا لانتشار الجهل وتدني الأخلاق وتغييب العقل والتفكير في مختلف العلاقات والمعاملات وشؤون الحياة، هذا يؤدي إلى الانحطاط والاستعباد، فالأمية "لا تفشو في أمة وتشيع بين أفرادها إلا فتكت بها وألحقتها بأخس أنواع الحيوانات ومكنت فيها للجهل والسقوط والذلة والمهانة والاستعباد." (1)

بناءً على مخاطر الأمية وأثرها على المجتمع، قام الإبراهيمي بتسطير برنامج للقضاء عليها، خصوصا لدى الكبار والراشدين لأنها أكثر تفشيا فيهم. وترتبط محاربة الأمية بالتأسيس العلمي والاجتماعي للتربية، وكونها عبارة عن ظاهرة اجتماعية ارتأى الباحث إدراج هذا العنصر ضمن الأساس الاجتماعي للتربية كاستتباع للتغيير الاجتماعي الذي سعى الإبراهيمي إلى إحداثه. مع التنويه إلى ارتباط كل هاته الأسس مع بعضها البعض، تداخلها وتكاملها إلى حدّ قد لا يمكن الفصل فيما بينها إلا نظريا غالبا.

المدرسة:

يتمثل الوسيط الثاني من الوسائط الأخلاقية في «المدرسة» فقد أنشأ المجتمع المدرسة لكي تُعدّ الأجيال اللاحقة للاشتراك في النشاطات الإنسانية التي تسود حياة الجماعة وللتكيف معها، فشخصية المدرسة تتحدد بأبعادها بأبعاد المجتمع الذي تحده، فيتضمن إعدادها القدرة على تجديد الحياة وبعث الحركة والنمو، وعلى هذا الأساس تستجيب المدرسة لمطالب التغيير الاجتماعي وتحدياته. (2) ولا يقتصر دورها في ذلك فقط بل تساهم في بناء أخلاق المجتمع وتحديد انطلاقتها من تعهدها للإنسان منذ طفولته، فتقوم المدرسة بدور كبير في تشكيل أخلاق الطفل وسلوكه العام - فهي أول مجتمع يتصل به الطفل بعد أسرته، ويتلقى فيه التراث الثقافي من علوم وآداب وتربية دينية وأخلاقية واجتماعية بطريقة مقصودة، لذلك تنادي التربية الإسلامية وتوافقها التربية الحديثة بوجوب جعل المدرسة مجتمعا نظيفا ومصفاة لعيوبه ونقائصه حتى ينشأ الطفل نشأة أخلاقية سليمة. (3)

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 72.

(2) - محمد لبيب النجحي، الأسس الاجتماعية للتربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1971، ص 7.

(3) - تركي رابع عمارة، دراسات في التربية الإسلامية، ص 41.

وقد انصبت معظم جهود الإبراهيمي في إنشاء المدارس الجزائرية عبر الوطن وقد تبين ذلك في الفصل الثاني حيث شكّلت المدرسة وسيلة أساسية في منهجه التربوي. وما جهوده وسعيه الحثيث في دعوة الجزائريين إلى بناء المدارس وتمويلها لدلالة بالغة على تلك الأهمية. فالمدرسة في نظره: "جنة الدنيا والسجن هو نارها، والأمة التي لا تبني المدارس تُبنى لها السجون، والأمة التي لا تصنع الحياة يُصنع لها الموت،.... والأمة التي لا تكرم شبابها بالعلم والتثقيف مضیعة لرأس مالها، والأمة التي لا تجعل الأخلاق ملاكها، أمة تتعجل هلاكها." (1) فحياة المجتمع من خلال مدارسها التي تحتضن العلم منشأً لأبنائه والأخلاق منبئاً لهم، توجههم وتشرف عليهم، فإن قصرت الأسرة في تربية أبنائها وتزويدهم بمختلف القيم الأخلاقية فإن المدرسة تعوض ذلك التقصير من خلال سدّ مخلفات الشّرخ التربوي والأخلاقي الذي لازمهم، فيكون المعلّم والمربيّ في المدرسة بمثابة الأب والأم في الأسرة يحتضنون الأبناء ويقومون بتربيتهم.

فالإعداد الأخلاقي للأجيال لا يكون إلا بالمدرسة. إذ تتولى مهمة الإعداد الخُلقي للأفراد بعد الأسرة، فتحفظ الناشئة من مختلف الانحلالات الأخلاقية وتوجههم للمعرفة ومكارم الأخلاق، فالمدرسة هي: "السبيل القويم الذي يؤدي إلى حفظ الجيل الجديد من هذه الشرور المتوارثة، وإلى توثيق عرى الأخوة بين أفرادها، وإلى توحيد أفكاره ومشاربه واتجاهاته، وإلى تصحيح فهمه للحياة، وتسديد نظره إليها وتشديد عزمته في طلبها - هو المدرسة العربية التي تصقل الفكر والعقل واللّسان وتسيطر عليها، وتوجيه الجيل الناشئ إلى الإسلام والعرب، وإلى الشرق والروحانية، فعلى هذه المدرسة يتوقف جزء كبير من ذلك الواجب الثقيل، وعليها يتوقف حظ كبير مما نرجوه لهذا الجيل." (2) فالمدرسة هي المسؤولة عن تهذيب السلوك وتصويب أخلاق المتعلمين وتوجيهها بناءً على فلسفة المجتمع ورؤيته في الحياة، كما تمثل تصويبا للمسار الذي قد يحدّ عنه الآباء في توجيه أبنائهم لذلك يعتبرها الإبراهيمي بمثابة تكفير عن مختلف السيئات التي اجترحتها الأجيال الماضية في حق الأجيال اللاحقة.

يشير الإبراهيمي في هذا السّياق مشكلة «صراع الأجيال» والدور المنوط للمدرسة وللمربين في تجاوزه أخلاقيا وتربويا. فرسم طريق الأجيال في الحياة وتحقيق نهضتها وتقويم سلوكها يتأتى من المدرسة التي تحفظ الأجيال، وينبغي أن تنقل لهم الأخلاق الفاضلة وتربّهم على المهمم العالية. "إن المدرسة هي طريق الحياة وطريق النجاة وطريق السعادة، وإن الوطن أمانة الإسلام في أعناقنا وودیعة العرب في ذمنا، فمن بين حقّه علينا أن

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 430.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 274.

نحفظ دينه من الضياع وأن نحفظ لسانه من الانحراف، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالمدرسة التي تبنيتها الأمة بمالها وتحوطها برعايتها وتجعلها حصوناً تقي أبناءها الانحلال الديني والانهيار الخلقي وتحفظهم من ترف الغنى ودلّ الفقر. وتربّيهم على الرجولة والقوة وتوحيد النزعات وتصحيح الفطرة وتقويم الألسنة وتمتين الإرادات والعزائم، وتغرس الفضيلة في نفوسهم، وتُصلح فيهم ما أفسده الشّارع وتروضهم على حب الوطن وبنائه.⁽¹⁾

فالموروث الأخلاقي والتربوي والفكري المتوارث، غالباً ما يشكّل صراعاً بين الأجيال، فالأخلاق في نظر الإبراهيمي هي متاع وإرث ترثه الأجيال بعضها عن بعض، فتتحكم في الشخصية العامة للمجتمع عبر تاريخه، ففي مقاله: « حقوق الجيل الناشئ علينا » يبين أن الجيل الحالي ورث عن الأجيال السابقة ركوداً على جميع الأصعدة تقريباً، خصوصاً في مجال الآداب والأخلاق. وفي هذا ينتقد الإبراهيمي بعضاً من الموروث الأخلاقي السلبّي الذي ورثه جيله عن الأجيال السابقة، إذ يتساءل عن الإرث الأخلاقي الذي ورثته الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة وموقعه من الحياة المعاصرة. فإذا كانت "الأخلاق والآداب والأفكار والإحساسات والاتجاهات العامة والمشخصّات الخاصة هي الأمتعة التي يرثها جيل عن جيل، ومنها يتكون مزاجه صحة واعتلالاً، فماذا ورثنا عن آبائنا؟ وماذا نورث أبناءنا منها... من الإنصاف لهم أن نقول: إنهم ورثونا هذه الصّفقة الخاسرة التي هي رأس مالنا اليوم، من أخلاق لا تزن جناح بعوضة."⁽²⁾

لا تخفى قيمة الموروث الفكري والأخلاقي الذي انتقل بفضل الآباء إلى الأبناء، خصوصاً ما يتعلق بالقيم التربوية والأخلاقية الإسلامية، غير أن ذلك الإرث لم يسلم في كثير من جوانبه من بعض العِلل التي تمّ تناقلها إلى الأجيال اللاحقة. إذ ينتقد الإبراهيمي تلك العِلل التي تمّ تناقلها، مبيناً أن الجيل الذي عايشه وجد نفسه أمامها، أمام انحطاط أخلاقي وفكري، وآداب لا يمكن أن تؤدي إلى استقامة الحياة بالمعنى الإنساني، فمثلت شروراً ورثها جيله فزادت من عمق أزمتها وعطلت مسار النهضة. فالإبراهيمي ينتقد بعض الأخلاق والأساليب التربوية التي جعلت الأجيال غرباء في عصرهم بتعبيره، تلك الأخلاق المتمثلة في الاستكانة وعدم المبادرة والخضوع مما أطال من عمر المستعمر، إضافة إلى مختلف الاتجاهات الفكرية غير الصحيحة، هذا ما شكّل صّفقة أخلاقية خاسرة بين السّابقين واللاحقين، مبيناً ذلك في قوله: "إنهم ورثونا هذه الصّفقة الخاسرة التي هي رأس مالنا اليوم، من أخلاق لا تزن جناح بعوضة، وآداب لا تستقيم عليها حياة، وأفكار بدائية لا تجول في المدار الواسع من الحياة، وعقول تقدر فتخطى، وتدبّر فتبطى وإحساسات مذبذبة واتجاهات خاطئة

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 431.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 273.

مدبرة، وغير ذلك مما تركنا غرباء عن عصرنا وأهل عصرنا، وصير الحياة منا في غير دار إقامة... فهل يحسن بنا أن نورث بنينا هذا القسط من الأمتعة بعد شعورنا وبقيننا بعدم كفايتها للحياة.⁽¹⁾ فهو يعقد مقارنة بين الإرث الأخلاقي التي تزخر به التربية الإسلامية وبين ما ورثته الأجيال السابقة للأحقه في عصرنا من قيم أخلاقية لا تعكس ذلك الموروث الإسلامي في كثير من جوانبه.

هذه الانتقادات تتوجه وتركز على جملة الأخلاق والرؤى التي تشكل مدعاة إلى الارتهان والخمول ورفض الإقبال على الحياة ووسائلها مما جعل الأجيال خارج عصرها، هذا ما يرتبط ببعض ما كانت تدعو إليه بعض التوجهات الطرقية الفاسدة التي وظفت من طرف المستدمر كغسل للعقول وشراء الذمم. إضافة إلى بعض الأفكار وطرائق التربية التي لا تتناسب وذهنيات الأجيال الجديدة وتغيرات العصر، فيتولد عنها صراع الأجيال بدل مواصلة المسار. لأنه "يزداد عصيان الجيل اللاحق للجيل السابق ورفضه توجيهاته، كلما كان المجتمع أقل استقرارا وثباتا، وكلما كان الاطمئنان للمستقبل مهددا أكثر، فالجيل الجديد ينقم على الجيل الذي يكبره لأنه نقل إليه شروطا من الحياة لا ترضيه أبدا، ويدعي إذ ذاك منكرًا جميع التقاليد، متعاميا عن سائر أمثلة التاريخ، إنه لن يكمل أمره إلا لنفسه ليحقق وجوده وسعادته."⁽²⁾ فالأجيال الحالية في نظر الإبراهيمي استلمت التركة العامة معطلة الأدوات، بأسلحة مفلولة وأجهزة بالية، من جيل انتهى به زمنه إلى درجة من الإفلاس المادي والأدبي، صيرته في غير زمنه، ولكنه لا يعذر إذا سلمها إلى الجيل الآتي ويقترف جريمة غش لا تغتفر إذا حمى أوزاره و أوزار أجيال قبله، فعلى الجيل الحالي إذن أن يوقف ذلك الامتداد لكل إفلاس لحقه وأن لا ينقله مثلما تناقلته الأجيال السابقة له.⁽³⁾

إن انتقاد الإبراهيمي لما ورثته بعض الأجيال السابقة للاحقة لا يبرر حالة المجتمع وأخلاقه والأزمات التي أضحت تميزه، إنما نقده من أجل إيقاظ جذوة المسؤولية والأمانة التي ينبغي أن يحملها كل فرد، وكل أب لابنه، وكل جيل للأجيال التابعة له، حتى لا تقترف نفس الأخطاء التي وقع فيها السابقون. مبينا أنه: "حرام علينا أن نرضى للجيل الآتي بما لم نرض لأنفسنا... وأن نبليهم بما ابتلانا به آباؤنا من أدوات التفرق المهلك، والأنانية الكاذبة، والغرور المدلي، والتنكر للقريب والخضوع للغريب. حرام علينا أن نقلدهم هذه الأسلحة المسمومة

(1) - المصدر السابق، ج3، ص273.

(2) - روني أوبير، التربية العامة، ص73.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص273.

فيتفانون كما تفانينا، ويدوق بعضهم بأس بعض، ويشقون جميعا ويسعد بشقائهم الغير.⁽¹⁾ إن نظرة الإبراهيمي في هذا السياق تبرز موقع التربية والأخلاق بين الأجيال، فكل جيل له نظرته الخاصة للوجود، ويحكم على التربية التي تلقاها على ضوء تجربته في الحياة، فإذا كانت التجربة موفقة سعيدة، رجا للجيل السابق بقاء القواعد التربوية التي أدت إلى ازدهاره فيكون محافظا، أما إن كانت التجربة أقل توفيقا حاول أن يقوم بالإصلاحات ليهب لنفسه الصفات التي تعوزه، وبديهي أن الجيل الصاعد يخالف الجيل السابق، لأنه يطمح أولا في أن يحل محله، ولأن يرى من بعيد حاجاته المقبلة لا ذكرى حاجاته الماضية.⁽²⁾

ومنه تشكل المدرسة وسيلة لتجاوز ذلك الصّراع وتجسيد التربية الصحيحة، وبهدف تحقيق النهضة في أي مجتمع ينصح الإبراهيمي قاداته من مربّيين ومسيرين ومصالحين بأن يبدؤوا عملهم من البيت والمدرسة فهما منطلق النهضة. ولكي تتسم النهضة بالعمليّة والفعالية لا بد من التركيز على تربية الأجيال تربية أخلاقية دينية تنعكس في حياة الأفراد عمليا، يوضح ذلك في قوله: "فإن كانوا فاعلين فليبدؤوا العمل في ميدانين: في البيت الذي هو معمل التكوين، وفي المدرسة التي هي معمل التلوين، وليتعاهدوا البيت بالتطهير وتقوية التربية الدينية في من يلي تربية هذا الجيل من آباء و أمهات، وليحملوا القائمين على المدارس التي يضطرب فيها الجيل على إقرار الدين فيها علماً وعملاً إلى جانب الدنيا."⁽³⁾ ومن ناحية أخرى يتضح جليا تأكيده على ذلك التكامل الوظيفي بين الأسرة والمدرسة المؤكد عليه سابقا. فالنهضة بالمجتمع وتربية أفراد تربية أخلاقية إسلامية لا يتأتى إلا إذا هيأت الأسرة الأبناء مسبقاً للمدرسة، وأتمت المدرسة ذلك التكوين مُكتشفة طاقات ومواهب الأبناء منمّية إياها في سياق واحد مع تربيتهم على مكارم الأخلاق، إضافة إلى حرص قادة المجتمع على تنوير الآباء والأمهات أخلاقيا ودينياً لضمان التربية الإسلامية للأبناء في الأسر.

يبين الإبراهيمي أنه مثلما تحاط المدن بالقلع والحصون لحمايتها من العدو فالأولى أن تحاط بالحصون المعنوية والروحية من خلال إقامة المدارس فيها لأنها بمثابة الحصن لتلك المدن والروح للأمم، فالمدينة بغير مدرسة عقْد بلا واسطة وجسم بلا قلب لا تنبض فيه الحياة، لأن المدرسة هي المسؤولة عن تهذيب السلوك وإنارة العقول بالمعارف، والتحكم في الغرائز لساكنة المدينة من خلال ما تقدمه من قيم، فإذا ابتغيت: "إرواء العقل والروح، وإرضاء الميول الصاعدة بهما إلى الأفق الأعلى، فالتمسها في المدرسة لا في القصر ولا في

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 274.

(2) - روني أوبر، التربية العامة، ص 72.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 27.

المصنع، ولو تباهمت الأبنية المشيدة بغاياتها، وتفاخرت بمعانيها لأسكتت المدرسة كل منافس.⁽¹⁾ فالأمم تتفاوت وتتعالى بالعلم والأخلاق والروحيات لا التعالي في القصور والبنيات، ولا توظف المادي إلا في خدمة المعنوي والروحي، فلم تُبن المساجد إلا للعبادة وتربية النفوس، ولم تبين المدارس إلا للتربية والتعليم فنالت الأمم حظها منها. يبين الإبراهيمي سر ذلك التفاضل بين المجتمعات: "والأمم تتفاضل وتتعالى بالبناء للخير والمنفعة والجمال والقوة، وما عدا هذه الأربعة فهو فضول عابث، لا يدخل في قصد العقلاء، وقد بنى أسلافنا لكل أولئك مجتمعة ومفترقة، بنوا المساجد مظهرًا للخير، وشادوا المدارس مظهرًا للجمال، وأعلوا الحصون مظهرًا للقوة، وسكّوا القصور مظهرًا للجمال، فضمّوا أطراف الفخر، وجمعوا حواشي المجد، وحازوا آفاق الكمال، وقادوا الحياة بزمام، وأنشؤوا بذلك كلّهُ للحضارة الإنسانية الشاملة نموذجًا من المدينة الفاضلة التي تحيلها حكماء اليونان، ولم يحققها ساسة يونان، وإنما حقّقها من ساد بالعقل وقاد بالعقل."⁽²⁾

يحدّد الإبراهيمي العديد من القيم الأخلاقية والروحية التي ينبغي على المرّين والمعلمين الحرص عليها في تربية الأبناء. كترية كفيّة بإعداد المواطن المتسامي في أخلاقه، القوي في شخصيته، كخلق الصبر، الشجاعة، التضحية، الأمانة، العفة، المروءة، التسامح، الاعتماد على النفس... مشكّلة في مجموعها قيّمًا أخلاقية سمحة أكدت عليها التربية الإسلامية. تتضح هذه القيم من خلال مخاطبته للمعلّمين: " ربّوهم على الرجولة وبعد الهمة، وعلى الشجاعة والصبر، وعلى الإنصاف والإيثار، وعلى البساطة واليسر، وعلى العفة والأمانة، وعلى المروءة والوفاء، وعلى الاستقلال والاعتداد بالنفس وعلى العزة والكرامة، وعلى التّحابب والتسامح وعلى حبّ الدّين والوطن والوالدين والمعلم."⁽³⁾

ويتبين من خلال هذه القيم الأخلاقية التي مثّلت أهدافا تربوية يسعى المعلّمون إلى تكوين المتعلمين عليها، أنه ينبغي أن تكون متجاوبة مع طبيعة الإنسان، كما ينبغي أن تشمل على الأهداف الإيمانية والخلقية كما تشمل على الأهداف العلمية، مع ضرورة تقديم الأولى على الثانية من خلال التربية على الفضائل الأخلاقية وتركية النفوس، فتقدم الأهداف الإيمانية والخلقية هو ما يتوافق مع التصور الإسلامي للأهداف التربوية، فهما يحتلان الصدارة نظرا لتحكّمهما في جوانب الشخصية الأخرى فالأخلاق هي من تضبط العلم

(1) - المصدر السابق، ج3، 258.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص260.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص115.

وتوجهه وهي من تهدّب الغرائز. ⁽¹⁾ وفي سبيل تحقيق ذلك عمليا عمدت جمعية العلماء بجهود علمائها وبالدمع المادي للأمة إلى توفير أسباب ذلك بداية من تشييد المدارس وتوفير المعلمين الأكفاء، وأن تضع المدارس والمعاهد نصب أعينها الالتزام الأخلاقي للمتعلمين فهو رأس مال المدرسة والأمة. وفي هذا يبين الإبراهيمي النمط العام لتربية المدرسة قائلا: " المدرسون أكفاء بارعون، والإدارة رشيدة، والدروس حيّة مفيدة والمراقبة على الأخلاق - وهي رأس المال - شديدة والخطوات إن شاء الله موفقة سديدة والعزائم على تعليم أبناء الأمة مشدودة والنتيات ببلوغ الآمال معقودة والله المستعان." ⁽²⁾ مؤكدا في السياق ذاته على ترابط عمل الأستاذ الذي ينبغي أن يتحلّى بالكفاءة، إلى الإدارة التي يشترط فيها حسن التدبير والرشاد في التسيير إلى طبيعة الدروس التي وصفها بالحية، أي ترتبط بواقع المتعلمين وتساير التطور الحاصل معرفيا وعالميا فتعكس بالفائدة على المتعلمين، مع التركيز على التربية الأخلاقية للمعلمين والمتعلمين التي يعتبرها رأس المال بين كل ما ذكر إذ وجب على المدرسة مراقبة أخلاق المتعلمين وتوجيهها. فنجاح المدرسة مرتبط بهذه العناصر المشكلة فيما بينها معادلة للنجاح يمكن صياغتها كآتي.

نجاح المدرسة = المعلم الكفاء + الإدارة الرشيدة + المعرفة الحية + الأخلاق العالية

ومنه لم يكتف الإبراهيمي بالتركيز والدعوة إلى تشييد المدارس فقط، إنما انصب تركيزه أيضا على تسييرها، وعلى بعدها المعنوي والروحي المتمثل في العنصر البشري الذي تحتضنه من معلمين ومتعلمين ومسيّرين، إضافة إلى المعارف والعلوم التي يتم تدريسها من خلال توافقها وقيم الأمة والأخلاق الإسلامية، حتى تساهم في التربية الأخلاقية للناشئة. إضافة إلى مساندة هاته العلوم قدر الإمكان لتطورات الحياة المعاصرة خصوصا في جانب العلوم والمعارف قدر الإمكان حتى يساهم الأفراد في تحقيق النهضة بالمجتمع والأمة. ففي افتتاح مدرسة بمدينة بسكرة مخاطبا الإبراهيمي الجموع الحاضرة: " لأنتم في زمن سافر عن فضائله وذرائله، فأنتم أقدر على الاحتياط منهم، وكما يحتاج ما تفرسونه بأيديكم إلى التعهد بالسقي والإصلاح يحتاج ما تبونونه بأيديكم إلى التعهدّ بالحفظ والرعاية." ⁽³⁾ متضمنا خطابه التنويه بقيمة المدرسة أخلاقيا وتربويا إضافة إلى الدعوة للمحافظة على المدارس وتمويلها ماديا أيضا مثلما حافظ عليها الأسلاف قديما بالأوقاف

⁽¹⁾ - محمد جبر السيد عبد الله جميل، الفكر التربوي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، دراسة تحليلية في ضوء رسالته مرشد المعلمين، ص 15،

16.

⁽²⁾ - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 175.

⁽³⁾ - المصدر نفسه، ج 2، ص 382.

المخصصة لها. نظرا لعدم وجود ميزانية خاصة بالمدارس إلا من خلال التبرعات التي يتبرع بها المواطنون للمدارس.

فالسمة الغالبة للمدارس التي سعى إليها الإبراهيمي التركيز على التربية الأخلاقية للناشئة، هذا ما يتّضح في نموذج المعهد الباديسي من خلال تشديد المراقبة على التلاميذ من الناحية الأخلاقية حتى عُرف المعهد بذلك. "إن التربية الفاضلة هي الغرة اللائحة في جبين المعهد الباديسي، وهي الميزة التي يمتاز بها على جميع معاهدنا من أعلاها إلى أدناها، ولو تكاملت وسائلها ومنها توحيد السكنى لأخرج المعهد في بضع سنين للأمة الجزائرية جيلا مسلّحا بالفضائل، زعيما بإحياء الدّين و الدنيا، ولقدّم لجامع الزيتونة نموذجا من خريجي السنة الرابعة يجمع بين حياة الفكر و متانة الخلق." (1) إذ تمثل الأخلاق أساسا ضروريا تقام عليه التربية في المدارس التي لا ينبغي أن تقتصر في تركيزها على الجانب الفكري والعلمي فقط بل تجمع بينهما، كما تجمع بين تعاليم الدّين والدّنيا، بين العلوم الدّينية وعلوم الحياة. وبذلك تشكّل المدرسة وسيطا تربويا ضروريا للأساس الأخلاقي للتربية عند الإبراهيمي.

المجتمع :

يتمثل الوسيط والمجال الثالث من وسائط التربية الأخلاقية في المجتمع بمختلف مؤسساته الاجتماعية والثقافية من جمعيات وهيئات ومؤسسات، بل حتى نمط الحياة السائد في المجتمع وطبيعته يؤثّران في تربية الأجيال، فمن المعروف أن الأفراد والأطفال خصوصا أنهم "يمتصون من هذا المجتمع أساليب السلوك الذي يتعاملون به فيما بينهم ومع غيرهم، ومن هنا تُلحُّ التربية الإسلامية وتسيرُ على خطاها التربية الحديثة على وجوب التعاون بين المنزل والمدرسة في التربية الأخلاقية للناشئين - والعمل بكل وسيلة ممكنة من أجل توفير البيئة الاجتماعية الصالحة - التي لا تخدم ما يقوم المنزل والمدرسة ببنائه. لذلك يجب إصلاح المجتمع من مظاهر الاعوجاج والانحراف حتّى لا يكون عاملا معوقا للتربية الأخلاقية المنشودة للأطفال والشباب." (2)

لذلك يتوجه الإبراهيمي إلى ضرورة إصلاح المجتمع وجعله مدرسة للحياة تتحلّى فيه صور الإخاء والإحسان والتعاون، كترجمة للمجتمع الإسلامي الحقيقي الذي تتحلّى فيه أخلاقيات الإسلام، فوجب على رواد الإصلاح من مصلحين ومرّبين ومعلمين و مثقفين بناء المجتمع على أسس أخلاقية متينة وإقامة سياق من

(1) - المصدر السابق، ج3، ص214.

(2) - تركي رابع عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ص 464.

الأخلاق تحيط بالمجتمع وتحميه داخليا وخارجيا، أو كما عبّر عن ذلك الإبراهيمي - التلقيح بالمصل الوافي - مثلما يلقح الجسم بلقاح يحميه من مختلف الفيروسات والأمراض كذلك فالمجتمع في حاجة إلى ما يحميه من الإنحلالات، ولا سبيل في ذلك إلا الأخلاق الراشدة التي هي بمثابة لقاح للأرواح، لقاح لمختلف الفئات صغارا وكبارا فعلى: "المصلحين أن يبادروا بتلقيحهم بالمصل الوافي وما هو إلا التربية الإسلامية الصحيحة الكاملة، فإن المحافظة على الأرواح ليست أقل شأنًا من المحافظة على الأبدان، وأن يصرفوا عنايتهم واهتمامهم كله إلى هذه الناحية، ولا يتشاغلوا بالآباء ووعظهم فإن هذا عمل لا غناء فيه في مسألتنا، وحسبهم من هذه الطبقات - التي جفت على عوج، وانطمست فيها آية الفطرة - إصلاح يمنع انتشار العدوى، ويجول دون استئراء الداء وتعطيل الإصلاح." (1)

وإن شكّلت المدرسة وسيطا مهما للتربية الأخلاقية فإن المجتمع إضافة لدور المدرسة يستثمر مختلف مرافقه ومؤسساته الأخرى بداية من المساجد، وقد تبين أنها وسيلة مهمة في التربية الأخلاقية، خصوصا لمن لم يتلقوا التعليم في المدارس من خلال التربية على الفضائل الإسلامية، هذا ما يظهر في توجيهات الإبراهيمي لأبناء الأمة عامة وللمعلمين خاصة في تربيتهم للناشئة، فعليهم الحرص في دروسهم وخطبهم على تنمية وتربية الفضائل الإسلامية للمتعلمين، يظهر ذلك من خلال توجيهه لهم قائلا: "أن تطبعوهم على التآخي والتعاون على الخير، وأن تروّهم على الفضيلة الإسلامية التي هي مناط الشرف والكرامة والكمال، وأن تأخذوهم بممارسة الشعائر الدينية صغارا حتى نأمن عدم تضييعهم لها كبارا، وأن تزرعوا في نفوسهم حبّ العلم والمعلم، وحبّ الأب والأم، وحبّ بعضهم بعضا، وحبّ الله ورسوله والإسلام قبل ذلك ومعهم وبعده." (2) فمن شأن هذه التربية أن تزيد في اللّحمة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، فتكون المحبة والفضيلة، ومكارم الأخلاق الإسلامية رابطا وثيقا بين مختلف شرائح المجتمع في انتقالهم من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد.

كما يجب التنويه في هذا السياق بأن معاهد التعليم في المجتمع الإسلامي كانت دائما هي معاهد للتعليم والعبادة في وقت واحد ما يدل على متانة العلاقة بين الدين الإسلامي والأخلاق. فقد بدأ المسلمون تعليمهم بالمساجد ثم بنوا معاهد للتعليم تمثلت في الكتاتيب والمدارس والزوايا فلم تختلف عن المساجد إلا بوجود مساكن للمعلمين والطلبة فيها. وقد كانت معظم معاهد التعليم المشهورة في التربية الإسلامية تتمثل في

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 27.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 268.

الجوامع، كجامع الزيتونة في تونس والجامع الأزهر في القاهرة وجامع القرويين في المغرب والجامع الأموي في دمشق.⁽¹⁾

كما يدخل ضمن وسائط المجتمع التربوية مختلف المناسبات الاجتماعية والدينية. إذ وجب استثمارها في التربية فعلى سبيل المثال: مثلت دروس الوعظ والإرشاد في رمضان سبيلا وسيلة هامة في تربية الأمة على مكارم الأخلاق من خلال تخصيص المواضيع والدروس لهذا الهدف، فهي تدخل ضمن الفرائض الدينية والاجتماعية. مخاطبا الإبراهيمي الأئمة والمشايخ في ذلك قائلا: "لا تفرطوا في ليلة واحدة من ليالي هذا الشهر وأن تخصصوا بالعناية المواضيع الراجعة إلى إصلاح الأخلاق، فمن فساد الأخلاق أُتيت أمتكم ومن ثغور الأخلاق دخل شياطين الإنس والجن إلى نفوسها فأفسدوها... والعلم العلم فإنه عماد الدين والدنيا." ⁽²⁾

فاختيار الوقت المناسب للتربية واستثمار المناسبات لم يكن اعتباطيا بل مدروسا من قبل الإبراهيمي، إذ من المعروف الأثر الكبير الذي يخلّفه شهر رمضان في النفوس، وكيف تغلب التسامحة ومكارم الأخلاق على سلوكات أغلب الناس، فيزيد ذلك من قابليتهم للتعلم والتخلّق إذا أحسن المعلمون والأئمة استثمار ذلك، ما يفسّر دعوة الإبراهيمي إلى عدم التفريط ولو في ليلة واحدة من ليالي رمضان.

والأمر سيان بالنسبة إلى المناسبات الدينية والاحتفالات بها، فهي إحياء لمعاني التربية الإسلامية والأخلاق المحمدية وتذكير بالهدي المحمدي. وجب استثمار هذه المناسبات باعتبارها «مواسم تربوية» تتكرر في فترات محدّدة من السنة. فذكرى المولد النبوي الشريف على سبيل المثال يجب أن تتضمن: "تذكيرا بكل ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم من هدى وما كان عليه من كمالات نفسية، فعلى المتكلمين في هذه الذكرى أن يذكروا المسلمين بما كان عليه نبيهم من خلق عظيم وبما كان لديهم من استعلاء بتلك الأخلاق. لهذه الناحية الحية نجيز إقام هذه الاحتفالات، ونعدّها مواسم تربية ودروس هداية." ⁽³⁾

فالأهم في المناسبات الدينية هو الجانب التربوي، لما فيها من تذكير بسير القدماء والتأسي بهم في الحياة، هذا ما يعكس جانب التربية بالقدوة الذي طالما أكد عليه الشيخ الإبراهيمي. ومنه فالاحتفالات الدينية أسلوب ومناسبة للتربية الجماعية، تجمع مختلف الفئات والفصائل والتوجهات مبينا فضلها وأهميتها، فما شرّعت

⁽¹⁾ - تركي رابع عمارة، دراسات في التربية الإسلامية، ص 180، 181.

⁽²⁾ - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 294.

⁽³⁾ - المصدر نفسه، ج2، ص 343.

من لدن الله عزوجل "هذه الشعائر عبثا وإنما شرّعها لحكم جليلة أعلاها جمع الأمة على الدين، لتجتمع في شؤونها الدنيوية، وتوحيدها في عبادة الله، لتترقى على الاتحاد في مصالحها العامة المشتركة." (1)

والشواهد كثيرة في استثمار الإبراهيمي لهذه الحكم الربانية في عمله التربوي، إذ لم يكن يدعُ مناسبةً دينية إلا وعرج على ضرورة الدعوة إلى التحلي بأخلاق القادة السابقين وهمم العالية، نلمح ذلك على سبيل المثال لا الحصر في إحدى كلماته في شهر رمضان بمركز جمعية العلماء عن ذكرى «غزوة بدر»، مبرزا أن النصر المحقق آنذاك يرتبط بتلك القيم المعنوية والأخلاقية التي تأسست عليها حياة الرجال والصحابة الكرام قائلا: "إن القيم المعنوية في الرجال من زكاء النفس وعلو الهمة وإطاعة أوامر الله هو الجانب المعتبر في حياة الرجال، وذلك ما أتاح النصر للمسلمين يوم بدر وهم قلة." (2) حتى يبين للجزائريين آنذاك أن القلة ليست عائقا أمام التحرر والنهضة. بل العائق الأكبر في التحرر غياب الهمة والرغبة في ذلك، والابتعاد عن مكارم الأخلاق التي يجب أن يتحلّى بها الناس. موظفا العديد من العبر من هذه الغزوة: فمن حافظ على الأوطان كتب الله له الخلود ومن ضيع الأوطان وبخس عظماءه ذهب في الذاهبين. بل وتعتبر هذه المناسبات الدينية فضلا عن بعدها التربوي أياما من أيام الله، فقد قال تعالى لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ (3) فمن حَكَمَ الله تذكير الأمم بأيام الله لتتعظ وترجع إلى الله وتتدرّع بالعبر و المثالات وحسن الاقتداء. فدراسة أسباب سقوط الدول، وأسباب عزّتها، ومؤلفات العلماء حول ذلك خير معوان للأجيال المقبلة لتتنكّب (تتجنب) طرق الشر والشقاء، وتسلك مسالك الرشد والهدى. والمؤرخون الحقيقيون هم الذين يعنون بذكر جانب الاعتبار من الأحداث التاريخية الكبرى لا سرد الوقائع فقط. (4) فينبغي استثمار الجانب التاريخي سواء في نكباته أو انتصاراته لهذا المسعى الأخلاقي.

ومن طرائق التأسيس الأخلاقي وتثبيت مختلف القيم الأخلاقية لدى أبناء الأمة تنظيم برامج للوعظ الديني والإرشاد على أسس صحيحة وواسعة، وتجاوز طرق الوعظ والتدريس التي يغيب فيها التأثير والتأثير من طرف الخطيب والمدرس في المستمعين. إذ ينبغي مراعاة التركيبة الاجتماعية للمجتمع والتركيز على البعد الروحي والتفاعلي للخطاب حتى يقع أثره على القلوب والأرواح فعلى الوعظ الديني أن يكون "طريقة فنيّة

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 163.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 298.

(3) - سورة إبراهيم، الآية 05.

(4) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 298.

تقتبس من حقائق الدّين وحقائق النفس وسنن الله الواقعة في كونه، وتمتّز فيها روحانية الدّين بأرواح البشر فتؤثر فيها وتقودها إلى الخير، لا على هذه الطريقة الموجودة في المساجد في أيام الجمع فإنها ترغيب لا يرغّب، وترهب لا يرهب... وأكبر الأسباب في فشل الوعظ الديني بصورته الحاضرة أنه لا يصدر عن تأثر قائله، وإنما تعود قائلوه أن يقولوه قولاً من غير حكمة، وتعود سامعوه أن يسمعوه حكماً من غير حكمة، والوعظ كالطعام يقدّم ألواناً وبقدر الحاجة، ولا يؤثر في السّامعين إلا إذا كان خطاباً من القلب إلى القلب، ومن الروح إلى الروح، وكان الشيء المأمور أو المنهي عنه مقروناً ببيان آثاره وحكمه. " (1)

يوضّح الإبراهيمي أن المسعى المتمثل في التأسيس للقيم الأخلاقية التربوية كان ديدن جمعية العلماء المسلمين في عملها من أول أيام تأسيسها فقد أخذت على عاتقها إعادة بعث الأخلاق الإسلامية خصوصاً لدى طلبة العلم والعلماء حتى يتيسر التخلّق بها فيما بعد من طرف أبناء المجتمع ككل، فكان "أول مقاصد الجمعية طائفة العلماء والطلبة باستعمال كل الوسائل لحملهم على التخلّق بالأخلاق الإسلامية، وتذكيرهم بما غفلوا عنه وأهمّوه من الأخوة الدينية والأخوة العلمية وما تقتضيانه من واجبات وحقوق، وحملهم على الاتحاد والتعاقد ونبد الشقاق والتقاطع حتى يكونوا مظهرًا للفضائل الإسلامية عاملين هداة به دعاة إليه، فهم من الأمة بمنزلة القلب من الجسد: تصلح إذا صلحوا وتفسد إذا فسدوا." (2)

ويقدّم الإبراهيمي بعض الفضائل الأخلاقية التي نجحت الجمعية في بعثها في الأمة الجزائرية كالتضحية والصّبر والاتحاد وغير ذلك، فقد نجحت في: "جمع طوائف عظيمة من الأمة الجزائرية على الحق بعد أن كانت كلها متفرقة على الباطل، واستطاعت أن تُعلّمهم معنى الاجتماع على الحق وكيفية الاجتماع على الحق والخير، وتجنّب إلى نفوسهم كلمة الاجتماع وحضور المجتمعات... وإذا رجعنا إلى الأخلاق أيها الإخوان، وجدنا نجاح الجمعية ظاهراً في جمهرة من الأخلاق الفاضلة غرستها في نفوس الأمة الجزائرية، فجمعية الأمة هي التي علّمت الأمة خُلق التضحية في الصالح العام، وخُلق الصّبر عليه ومطاولته وخُلق الصراحة في القصد في الاعتقاد والتفكير وخُلق الاعتماد على النفس، وخُلق الصراحة في القول والجرأة في الرأي والكلام إلى ما يتصل بهذه الأخلاق من فروع لوازم." (3)

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 73.

(2) - محمد البشير الإبراهيمي، القانون الداخلي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الفصل الثالث: مقاصد الجمعية وغاياتها وأعمالها، المادة 66، (من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، مصدر سابق، ص 50.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 286.

فتركيز الإبراهيمي على التأسيس الأخلاقي وعلى التربية الأخلاقية للطلبة والعلماء خصوصاً لأنهم يمثلون حلقة فاعلة في المجتمع ويمثلون النخبة الرائدة فيه، فلا يتحرك المجتمع إلا بتحريكها، لكونهم يمثلون طبقة المجتمع المثقفة، حيث يعتمد المجتمع عليهم في إرساء ثوابت الأخلاق أو دفع مسار التغيير. كما يقع على عاتقهم حل مختلف المشكلات التي تعترض المجتمع كل حسب تخصصه ومجاله، فالمتقنون: "في الأمم الحية هم خيارها وسادتها وقادتها وحرّاس عزّها ومجدها. تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير، ويقومون لها بواجب القيادة والتدبير، وما زالت عامة الأمم من أول التاريخ تابعة لعلمائها وأهل الرأي والبصيرة فيها، تحتاج إليهم في أيام الأمن وفي أيام الخوف. تحتاج إليهم في أيام الأمن لينهجوا لها سبيل السعادة في الحياة، ويغذونها من علمهم وآرائهم بما يحملها على الاستقامة والاعتدال، وتحتاج إليهم في أيام الخوف ليحلوا لها المشكلات المعقدة ويخرجوها من المضائق محفوظة الشرف والمصلحة." (1)

وتأكيد الإبراهيمي على التكوين الأخلاقي لطلبة العلم والعلماء أولاً ومن ثمة أفراد المجتمع ككل، نابع لإدراكه أن مختلف ما يعترض المجتمع من تخلف وفساد نابع من إهمال التأسيس الأخلاقي للإنسان، خصوصاً في مجتمع أصبح عرضة لمختلف العوارض اللاأخلاقية، الأمر الذي خيم على المجتمع الجزائري في كثير من الأحيان أين أصبح عرضة للتخلف رغم وجود عوامل وبوادر النهضة لديه. وأهم عامل لتجنب ذلك التدهور الأخلاقي والتخلف يتمثل في التنشئة الأخلاقية والقيادة الرشيدة للأجيال. يعبر الإبراهيمي عن ذلك قائلاً: "إن عوارض الموت وأسبابه كلها موجودة فيها من الجهل والفقر والتخاذل وفساد الأخلاق واختلاف الرأي وفقد القيادة الرشيدة، وقلنا مع ذلك وما زلنا نقول: إنها مرجوة الحياة ما دام مناط الرجاء فيها سليماً صحيحاً، ومناطق الرجاء هو نقطة من الإيمان ما زالت لائطة بالقلوب، وصلة بالقرآن ما زالت مرعية في الألسنة، وإن هذا الرجاء معلق بخيط دقيق لا نقول إنه كخيط العنكبوت ولكننا نقول إنه أقوى من السلاسل الحديدية، إذا أمده الاستعداد والتدبير الرشيد." (2) فإن تفتت العوارض اللاأخلاقية في المجتمع الجزائري، فإنه لا زال محافظاً على اللبنة الأولى التي ينطلق منها العمل الإصلاحية المتمثل في ملكة الإيمان القائمة في القلوب، والصلة التي تربط الأفراد بدينهم وقرآنهم، هذا ما يرتبط بالأساس الثاني من الأسس التربوية وهو الدين.

لذلك توجه الإبراهيمي في الكثير من خطاباته إلى المتعلمين بأنهم رجاء الأمة في النهضة، والتي لا تكون إلا بالمزاوجة بين الإعدادين الروحي و البدني. مركزاً على ضرورة الإعداد الروحي لأنفس إذ لا جدوى من

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 126.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 350.

الإعداد البدني دون الروحي، وهذا ما تتضمنه رسالة الإسلام. مؤكداً ذلك في قوله: "إن أمتكم تعول عليكم شرط أن تعدوا أنفسكم إعداداً روحياً لا بدنياً، فإذا أشرقت أنوار الإسلام وغمرت هدايته كل المجتمع البشري، فإن هذا المجتمع سينعم بالخير العميم وتحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، والإعداد الروحي يجعل المسلم موقناً بأنه إذا مات في سبيل الله ينتقل من حياة بعضها شقاء إلى حياة كلها سعادة." (1) فالإعداد الروحي يرتبط بغاية وهدف لا يتوقف على الحياة التي يعيشها الفرد فقط بل يتعداها إلى الحياة الأخرى فيجمع الإنسان بين غايتين هما: الإعداد للحياة والإعداد للآخرة من خلال تربية أخلاقية دينية، فنفس المؤمن مهياًة لهما معاً. إذ يرى الإبراهيمي أن "نفس المؤمن تتسع للدين والدنيا، وأن وجودها مرتبط ببعضه ببعضه، وأن وجود أحدهما رهن بوجود الآخر، وأن كمال أحدهما كفيل بكمال الآخر، وأن طروق الضعف لأحدهما مؤذن بطوقه للآخر، ويوم كان الدين كاملاً في النفوس كانت الدنيا مملوكة لتلك النفوس، ويوم أضعنا الدين أضعنا الدنيا." (2)

وسبيل تحقيق نهضة المجتمع لا يتأتى إلا بالتأسيس الأخلاقي، إذ تتأسس النهضة في مشروع الإبراهيمي على المهتم الأخلاقية العالية التي تصنع المستقبل بكونها تؤمن بما في يد الإنسان من إمكان لاجتراح سبل قويمه للحضور المستخلف في الكون بما يحفظ إنسانية الإنسان ويضمن اكتمالاته المتعددة والمحددة، فهو يعتبر الأخلاق عمدة في أي مشروع نهضوي. (3) فالمشروع الإبراهيمي النهضوي يؤسس لحوارية أخلاقية تعتمد عقلانية مفتوحة على إمكانات التوسع، ويستمد في ذلك طرائق المنطق ومناهج التدليل الأخلاقي في التذكير بالواجب. مؤمناً بقدرة الإنسان على صنع تاريخه وتحويل مصيره وكل ذلك معقود على الهمة الأخلاقية فهي التي تصنع القيم بوصفها جسراً بين عالم الواقع والفعل الإنساني الذي يؤثر في هذا الواقع. (4) جامعاً الإبراهيمي في هذا السياق بين الإرث الحضاري والثقافي للأمة من جهة، وبين متطلبات الواقع ومتغيراته من جهة أخرى، إضافة إلى المهتم و الطموحات التي يسعى إلى تحقيقها بهدف بناء وتأسيس أخلاقي تربوي.

وبالنسبة للتأسيس التربوي الأخلاقي لأبناء الوطن الجزائري يبين الإبراهيمي أن الأمة الجزائرية تتوفر على مختلف المقومات التي تؤهلها للقيام بهذه الوظيفة بداية من الإرث التاريخي المتضمن للموروث الديني والثقافي

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 210.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 295.

(3) - علي خذري، أسئلة النهضة في فكر البشير الإبراهيمي، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، برج بوعريش، ع2، مارس 2020، ص96.

(4) - المرجع نفسه، ص 96.

المشكل لمقومات الأمة، فاستقت منه أخلاقها لتشكيل رؤية مستقبلية تبنى وتنطلق منه، مع ربط تلك الرؤية وعملية البناء بمتطلبات الواقع والعصر من خلال تنقيح الموروث الأخلاقي فيتناسب مع مقومات الأمة ومع طموحاتها في التاريخ ونظرتها المستقبلية. "فالأمة الجزائرية لم تعد من لطف الله...ألهمها رشدًا ووفقها لبناء حياتها -على بصيرة- على قدم ديني مستقيم وجديد دنيوي واضح، ورأت على ضوء ذلك الإلهام أنه لا يستقيم لها عمل ولا يواتيها نجاح فيما هي مقدمة عليه من تجديد في حياتها إلا مع التنقيح المعجل لكل ما ورثته من أخلاق."⁽¹⁾ إذ يشكل المجتمع دورا بارزا في تأهيل الفرد لإنجاز وظيفته التاريخية، فهو الإطار الذي من خلاله يحقق الفرد ذاته. والقراءة المتأنية للقرآن الكريم تقود إلى الاعتقاد بأنه كلما تمت الإشارة إلى وظيفة الإنسان التاريخية في الحياة كان السياق الاجتماعي الفضاء الذي يستغرق الاضطلاع بهذه الوظيفة والمجال الذي يتحرك فيه الفرد لأدائها، وهذا الإنجاز يقع على عاتق الأمة بأكملها لا على فرد بعينه على الرغم من أن الإنسان هو العامل المركزي في هذه الوظيفة.⁽²⁾ فمن هذا المنطلق شكّل المجتمع ككل مرتكزا ووسيطا مهما للتربية، وعاملا مهما في تحقيق النهضة بداية من النهضة الأخلاقية في سلوك أفرادها. فالأمة الجزائرية إذا تتوفر على كلّ موجبات التحضر وأداء وظيفتها بداية من العامل التاريخي المتمثل في إرثها الحضاري والثقافي إلى التطلعات المستقبلية بداية من تحقيق استقلالها وإثبات مكانتها في الوجود والحضارة البشرية.

العناية الأخلاقية بالشباب:

يولي الإبراهيمي عناية فائقة بالشباب، خاصة فيما يتعلّق بضرورة التحلّي بالأخلاقيات الإسلامية، كونهم في مرحلة يحتاجون فيها إلى نوع من التكوين الروحي والأخلاقي الذي يربطهم بتاريخهم، كردّ على السياسة الاستدمارية التي تعمل على تحريف مسارهم وتعطيل أدوارهم اتجاه وطنهم بإغراقهم في ملذّات الحياة. وأكد الإبراهيمي على ضرورة التربية الدينية الأخلاقية للشباب كونها تمثّل البناء الروحي والمعنوي الذي يحمي الأمة. "إن التربية الدينية والأخلاقية ضرورية لشبابنا لأننا في معركة متواصلة هي معركة البناء والتشييد بعد أن كسبنا معركة الكفاح المسلّح ضد الاستعمار الفرنسي، ولا يمكن للشباب اكتساب هذه المعركة إلا إذا كان مزودا -زيادة على العلم والمعرفة- بطاقة دينية وخلقية هائلة. إن العلم لوحده ليس كافيا لأنه بدون أخلاق قوية ومتينة ليس شيئا مذكورا. كما أنه بدون إيمان وتقوى وضمير حي قد يقود إلى الشر كما يشهده العالم

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 242.

(2) - عمر نقيب، النموذج القرآني للتربية - نحو مقتضيات منهجية للفهم والتطبيق، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013، ص90، 91.

اليوم. إن التربية الأخلاقية والدينية تشمل مختلف العبادات والمعاملات.⁽¹⁾ وستحدد وظيفة الدين التربوية بتفصيل أكثر في الأساس الثاني للتربية لدى الإبراهيمي المتمثل في الدين.

إن أهم وظيفة تؤديها التربية الأخلاقية للشباب تسليحهم بالإيمان والإرادة في مواجهة مشاكل الحياة وتعمل على حماية الشباب من الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية، فالتربية الكاملة للشباب هي ما اتخذت الأخلاق أساساً، واعتبرت الخلق نبراساً، لذلك احتلت التربية الأخلاقية مكانة رفيعة في مجال التربية الشاملة للفرد والمجتمع.⁽²⁾ ويظهر التأكيد على الأساس الأخلاقي في تكوين الشباب وتربيتهم عندما يحثهم الإبراهيمي على أن يتخلقوا بالأخلاق الإسلامية، فيكون الشاب في نظر الشيخ الإبراهيمي مقتدياً ومستلهماً من «الشماثل المحمّدية» بمعنى متحلّياً بالأخلاق المحمدية و الإسلامية، في رؤية ذات تصوّر بديع لما ينبغي أن تكون عليه تربية الشباب وأخلاقهم. فيكون الشباب بذلك: "محمدي الشماثل غير صحّاب ولا عيّاب، ولا مغتاب ولا سبّاب، عفاً عن محارم الخلق ومحارم الخالق، مقصور اللسان إلا عن دعوة الحق، أو صرخة الباطل... قوي الإيمان بالحياة، صحيح النظر في حقائقها، ثابت العزيمة في المزاخمة عليها مقدّماً لدينه قبل وطنه، ولوطنه قبل شخصه، يرى الدين جوهرًا، والوطن صدفاً، وهو غواص عليهما."⁽³⁾ فالأخلاق الفاضلة إذا هي التي تحبس النفوس وتضبطها، وتوقظ الضمائر وترفع الهمم، فيتجنب الشاب مصارع السوء ومواطن الرذائل، فتكون تطلعاته شريفة ووسائله في الحياة مشروعة، ومبادئه عالية، وتكون خدمة شعبه مدار اهتمامه، وتحرير وطنه قضيته.⁽⁴⁾

يوظّف الإبراهيمي عديد الدلائل والشواهد لضرورة الأساس الأخلاقي الروحي للتربية، ودوره البارز كأساس تقوم عليه التربية والإعداد لمعترك الحياة: فتورة التحرير الجزائرية مثلاً قامت من طرف الشعب رغم أنه كان مغلوباً على أمره، يعاني مخلفات الاستعمار الذي سلبه معظم أسباب القوة المادية، وأثر على معنوياته، رغم ذلك ثار على الاستعمار بأسلحته وجيوشه وأفلسه أما الرأي العام والسبب الفاعل في ذلك أن المجاهدين: "يننون أمرهم على سمو المعاني التي يقاتلون من أجلها، وأنهم على الحق، وأن عدوهم على الباطل، ذلك لأنهم قوم جدّدوا صلّتهم بالله وغيروا ما بأنفسهم من استكانة... يعلمون منزلتنا في الروحيات ومدى تأثير

(1) - تركي رابع عمارة، دراسات في التربية الإسلامية، ص 178، 179.

(2) - المرجع نفسه، ص 184.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 511.

(4) - محمد زمران، معالم الفكر السياسي والاجتماعي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، ص 209.

الروحيات فينا." (1) فحينما كافح الجزائريون الاستعمار كافحوا تلك المعاني والأخلاق الحبيثة التي ابتلاهم بها الاستعمار وشرها ضعف الأخلاق ووهن العزائم.

والمسار التربوي الأخلاقي للشباب ينطلق من عهد الطفولة، حتى يتم العمل على تجاوز مختلف النقائص التي ميّزت تربية الأجيال السابقة، أو ما اكتسبوه نتاج انتشار عديد الأفكار غير الصحيحة في المجتمع، خاصة تلك التي ارتبطت بالشائع من الخرافات وما عمل المستعمر على نشره منها، ومنه وجب أن "تربي الأحداث من الصبا على غير ما ربانا آباؤنا، وأن نحجب عليهم نقائصنا، فإن اطلعوا عليها سميناها باسمها، وأنها نقائص وأنها سبب هلاكنا وحدّرتناهم من التقليد لنا فيها، فإذا شئوا على هذه الهداية سلكنا بهم سبل الحق الواحدة ووجهناهم بتلك القابلية إلى وجهة واحدة، وحينهاهم من هذه التيارات الفكرية التي تتجاذبهم ومن الذئاب الغريبة التي تتخطفهم. إن شبابنا اليوم يتخبّط في ظلمات من الأفكار المتضاربة والسبيل المضلة، تتنازعه الدعايات المختلفة التي يقرأها في الجريدة والكتاب ويسمعها في الشارع والمدرسة ويرى مظاهرها في البيت وفي المسجد." (2) فمن هاته التوجيهات نستخلص ضرورة توحيد التربية الأخلاقية والتوفيق بين وظيفة الأسرة والمدرسة ومختلف وسائل ووسائط التربية والتعليم، بهدف السير بالناشئة إلى ما يرنو المجتمع تحقيقه من خلال فلسفته في الحياة.

وأهم ما يمكن استنتاجه في ختام عرض وتحليل الأساس الأخلاقي للتربية، أن البشير الإبراهيمي أكد على ضرورة العناصر الآتية:

- تنمية البعد الأخلاقي والروحي لدى الأفراد، ومختلف أطياف المجتمع خصوصا الأطفال والشباب.
- الأخلاق الإسلامية هي الأصل الأول للبناء التربوي للأجيال والنهضة بالإنسان .
- الأخلاق الفاضلة هي الكفيلة بتحقيق الكمال الإنساني.
- الأخلاق عامل أساس لتحقيق التماسك بين الأفراد، وأساس لوحدة المجتمع.
- الجمع بين المنظورين الديني و الفلسفي في التأسيس التربوي الأخلاقي.
- صلاح الأمة وأخلاقها يتحقق بمثل ما صلح به أول الأمة مع ربط ذلك ومستجدات العصر وتجاوز الرّاكد منها.

(1) - الإبراهيمي، صوت الإمام الإبراهيمي في الثورة، ص 148.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 221.

ثانياً: الدين:

للدين الإسلامي مكانته الهامة لدى الإمام البشير الإبراهيمي، إذ لا تستقيم حياة البشر بدون اتباع تعاليم الدين ولا يخلو مجتمع بشري من ظاهرة التدين. فالدين الإسلامي يمثل أساساً هاماً تقوم عليه التربية عند الشيخ الإبراهيمي، بل التربية الشخصية للشيخ في حد ذاتها تربية دينية إسلامية، وذلك ما تحدده حياة البشير الإبراهيمي وتكوينه بداية من صباه.

وبنظرة عامة للتدين فإنه من الأمور التي لا تحتاج إلى دليل لإثبات صحتها، لأنها قضية فطرية وغريزة إنسانية وحاجة نفسية، فالله تعالى قد فطر الإنسان على محبة الخير ومحبة الحق وتحصيلهما، لذلك نجد كل إنسان يسعى لما يظنه خيراً له وما يعتقد أنه الحق. فقضية الاعتقاد في الرب الخالق فطرية، فطر الله جميع الناس عليها. وقد يضل الإنسان أو يتوهم كما هو الشأن في أصحاب الأديان الوضعية. ومنه كانت مهمة الأديان تصويب هذا الاعتقاد وتصحيح مساره نحو الحق الكامل، وليس ذلك إلا لأن التدين أصيل في النفس الإنسانية وهو مطلب العقل الصحيح.⁽¹⁾

فقد بين فليسيان شالي في كتابه: «موجز تاريخ الأديان» أن الأديان موضوع يستأثر بالتأمل لدى كل عقل يميل إلى التاريخ وعلم الاجتماع والفلسفة، وعلى كل إنسان مثقف أن يطلع على معلومات دقيقة بخصوصها، فإن أثرت الأديان تأثيراً سيئاً أو حسناً، سعيداً أو مزعجاً، لكنه عميق في مختلف الحضارات.⁽²⁾ فتاريخ الحضارة الإنسانية هو تاريخ للتدين البشري ومعتقداته، أيًا كان هذا التدين ونوع الاعتقاد، رُقياً أو انحطاطاً، مقبولاً في منطق العقل أو مردولاً، قد توجد أمم بلا فنون أو بلا آثارات أو بلا علوم، لكن لا نجد أمة بلا مظهر يعبر عن تدينها.⁽³⁾

ومنه فالتدين يرتبط بحياة البشر، سواء تمثل في الديانات السماوية أو تلك الديانات التي أوجدها الإنسان بنفسه كديانات وضعية، من خلال اتباعه لتعاليم وطقوس ابتكرها بنفسه، ومن هذا المنطلق نتساءل: ما مفهوم الدين؟

(1) - محمد السيد الجليند، من قضايا الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب واستلاب الهوية، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، 2008، ص 94، 95.

(2) - فليسيان شالي، موجز تاريخ الأديان، ترجمة حافظ الجمالي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، ط 1، 1991، ص 15.

(3) - محمد السيد الجليند، من قضايا الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب واستلاب الهوية، ص 104، 105.

1. مفهوم الدين:

مفاهيم الدين متعدّدة، فالدين في اللغة العادة والحال و السيرة والسياسة والرأي والحكم والطاعة والجزاء. ويطلق لدى الفلاسفة القدماء على وضع إلهي يسوق ذوي العقول إلى الخير. كما أن الدين منسوب إلى الله تعالى، والملة منسوبة إلى الرسول، والمذهب منسوب إلى المجتهد. ويطلق لفظ الدين على الشريعة وهي السنة، أي ما شرّعه الله لعباده من السنن والأحكام⁽¹⁾ كما يتحدد مفهومه في معجم لالاند الفلسفي بأنه أداء بعض العبادات المنتظمة واعتماد بعض الصيغ، بالاعتقاد في قيمة مطلقة لا يمكن وضع شيء آخر في كفة ميزانها، وهو اعتقاد تهدف الجماعة إلى حفظه، بتنسيب الفرد إلى قوة روحية أرفع من الإنسان ينظر إليها إما كقوة منتشرة أو إما كثيرة وإما وحيدة هي الله. ويمثل نسقا فرديا لمشاعر واعتقادات وأفعال مألوفة موضوعها الله.⁽²⁾ معتبرا أن "أي دين هو منظومة متماسكة من المعتقدات والممارسات المتعلقة بأمور مقدسة أي منفصلة، محرّمة، وهي معتقدات وممارسات تجمع في إيلاف أخلاقي واحد، يدعى جامعا كل الذين ينتمون إليه."⁽³⁾

كما يتمثل الدين في كل "ما كان لله وما كان عند الله... ومفهوم الله ليس شخصا وجد في زمن من دون زمن، وتأثر بيئة دون أخرى، إنما مفهوم الله حقيقة أبدية خالدة ترتفع فوق المستويات وتتجرد عمّا للكائنات جميعها من صفات... هو الكمال المطلق بذاته... والدين بعد ذلك هو ما أنزل من عند الله للناس جميعا وما طلب من الرسول إبلاغه إليهم."⁽⁴⁾ فالدين بذلك يشمل كل ما حملته كل رسالة سماوية من الله للناس عن طريق الرّسل.

ومن منطلق أن البشير الإبراهيمي أحد أهم رجال الدين الإسلامي في عصره، وقد ارتبطت رؤيته التربوية بالدين الإسلامي، ومن منطلق أن الإسلام هو الديانة التي يعتنقها غالبية الشعب الجزائري، يحقّ التساؤل: كيف شكّل الدين الإسلامي أساسا للتربية عند البشير الإبراهيمي؟

(1) - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص 572.

(2) - أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مج 1 A-G، ص 1204.

(3) - المرجع نفسه، ص 1204.

(4) - محمد البهي، الدين و الحضارة الإنسانية، دار الفكر للطباعة و النشر، لبنان، ط2، 1974، ص 74.

2. الدين الإسلامي أساس للتربية:

يتطرق البشير الإبراهيمي إلى الدين الإسلامي مبينا أنه دين فطري روعي يحمل في طياته نهاية الكمال الإنساني، وأن أصوله بنيت على حكمة خالق الحكمة، فتجد في عقائده غذاء العقل وفي عبادته تربية النفس، وفي أحكامه رعاية المصلحة، وفي آدابه خير المجتمع، يرسخ للأخلاق الشريفة ويغرس أصول الفضائل الإنسانية، دين يوفق بين مطالب الروح والجسم.⁽¹⁾ مشكّلا الدين الأساس الثاني من الأسس التربوية لدى الإبراهيمي.

ومن المتعارف عليه أن التربية الإسلامية تتأسس في مجملها على ما جاء به الدين الإسلامي من تعاليم، وأن التربية التي أحاك معلمها الشيخ الإبراهيمي لا تخرج عن إطار التربية الإسلامية في الكثير من معالمها. لذلك أكد على دور الدين في تربية الناشئة وتحقيق نهضة جزائرية على مختلف الأصعدة. نهضة ذاتية على مستوى كل فرد، ونهضة عامة للمجتمع والأمة. فإن شكل الدين الإسلامي منطلقا لبناء الحضارة الإسلامية قديما من خلال مختلف تعاليمه وأحكامه التي عمل الرسول عليه الصلاة والسلام على تربية أصحابه وتربية الأمة الإسلامية عامة بناء على ذلك. فلا زالت تعاليم الدين الإسلامي إلى اليوم تتضمن ذلك البعد التربوي والأخلاقي الذي مثل سراً للتربية النبوية التي ينهل منها الكثير من المفكرين إلى اليوم. بل ويمثل الإسلام بذلك تربية للإنسان بغض النظر عن انتمائه وثقافته بعد أن طغت على الحياة الإنسانية الكثير من النزعات المادية، واجتاحت الغرائز الحيوانية المريضة على الفطرة الإنسانية السليمة فجاء الإسلام ليهدّتها. مبينا الإبراهيمي "أن الإسلام في جوهره لإصلاح عامٍّ من الله به على العالم الإنساني بعد أن طغت عليه غمرة حيوانية عارمة اجتاحت ما فيه من فطرة صالحة ربّها رب العالمين. وما فيه من أخلاق قيّمة وشرائع عادلة قرّرها الهداة من الأنبياء والمرسلين والحكماء المصلحين." ⁽²⁾ فشمل الإسلام إصلاح الجانبين الروحي والمادي لدى الإنسانية نظرا لما اعترأها من نقائص. فالإسلام في روحه عقيدة بناءة مُنشئة ترتكز على (المادة) كما ترتكز على (الروح) فهو دولة ودين، سيف وكتاب - جامعة وجامع جسد وروح - توكل و عمل - إيمان بالعمل المادي من أجل الدنيا - وإيمان بالعمل الديني من أجل الآخرة، إيمان بالمنطق وإيمان بالغيب. فهو يبدأ في ضمير الفرد وينتهي في محيط الجماعة، وهذا هو سرّ خلوده.⁽³⁾

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 108.

(2) - الإبراهيمي، الطرق الصوفية، مقتطفات من تصدير نشرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بقلم محمد البشير الإبراهيمي، ص 19.

(3) - تركي رابع عمارة، دراسات في التربية الإسلامية، ص 180.

لذلك أكد الإبراهيمي على الدين وأعاد له الاعتبار في ترتيب البناء الفكري والتربوي ونظام الحياة عامة لدى المجتمع الجزائري مدركا الدور الذي شكّله قديما ولازال كفيلا بذلك الدور، خاصة مع تمسك أبناء الأمة بروحه رغم تكالب الاستعمار عليه في ذلك الوقت. فمن الحقائق الثابتة أن ضعف الوازع الديني في أي شعب سيؤدي به لا محالة إلى طغيان النزعة المادية على نواحي الحياة، ويحلّ عرى الأخلاق بين أفراد عروة بعد عروة، أما إذا انعدم الوازع الديني انعداما كليًا فسوف يترتب عليه انطلاق الغرائز البهيمية من عقلاها، ولن يقف بين الإنسان وبين الإقدام على تدمير كل شيء في سبيل مآربه. فطغيان المادة على القيم الروحية وانهايار الوازع الديني من شأنه أن يغري كل فرد وكل شعب باستغلال ما لديه من قوة وسلطان ويؤدي إلى شقاء مواطنيه.⁽¹⁾

وإن شكّل الأساس الأخلاقي عاملا محوريا في الأسس التربوية للإبراهيمي فإن الأساس الأخلاقي يرتبط بالأساس الديني. من منطلق أن الدين منبع لأغلب القيم الأخلاقية وما سلوكيات الأفراد ونظام حياتهم إلا انعكاس لتديّنهم من جهة. كما أن علاج الكثير من العوارض اللاأخلاقية التي استشرت في المجتمع يُستقى مما تضمنته تعاليم الدين الإسلامي. يبين الإبراهيمي ذلك قائلا: "إن علّتكم التي أعيت الأطباء، واستعصت على حكمة الحكماء، هي من ضعف أخلاقكم ووهن عزائمكم، فداووا الأخلاق بالقرآن تصلح وتستقم، وأسوا العزائم بالقرآن تقوّ وتشدّد. وإن الذي فعد بأمتكم عن الصالحات وأعدّها لها في أخريات القافلة هو اختلاف قلوبها وتشتّت أهوائها. فاجمعوا آخرها على القرآن كما جمع محمد صلّى الله عليه وسلم أولها، ينتج لكم هذا الآخر ما أنتجه ذلك الأول، من عزائم شداد وألسنة حداد وهم كبيرة وعقول نيّرة." ⁽²⁾ فحال المجتمع والأمة في هذا ليس بحالة جديدة متفردة عن تاريخ المجتمع الإسلامي قديما، بل يتقاطع ويتشابه معه في كثير من الحيشيات والإحداثيات، خاصة فيما تعلق بالإقدام على الفضائل أو الانغماس في الرذائل. المساهمة في تحضير المجتمع ونقله من الجاهلية إلى التحضر أو على العكس. فلا يزال المجتمع متخلفا كلما شاع الانحلال الأخلاقي وسادت البهيمية بدل الإنسانية، واستشرى الفساد بين أفراد المجتمع وداخل مؤسساته. فهذه الحالة يشترك فيها المجتمع في قديمه وحاضره.

ومنه يستقي الإبراهيمي العلاج التربوي من استقرائه للتاريخ الإسلامي حيث مثل القرآن وتعاليمه مخرجا للأمة من الضلالة إلى الهداية. مبينا أن أول الأمة شبيهة بآخرها ما ينبغي اتباع تعاليم الدين الإسلامي. "إن أول

⁽¹⁾ - محمد عبد الله العربي، ديمقراطية القومية العربية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1961، ص146، نقلا عن: تركي رابع عمارة، دراسات في التربية الإسلامية، ص 185.

⁽²⁾ - الإبراهيمي، الطرق الصوفية، مقتطفات من تصدير نشرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بقلم محمد البشير الإبراهيمي، ص 23.

أمتكم شبيهة بآخرها عزوفاً عن الفضائل وانغماساً في الرذائل فلم يزل بها هذا القرآن حتى أخرج من رعاة النعم رعاة النعم، وأخرج من خمول الأمية أعلام العلم والحكمة. فإن زعم زاعم أن الزمان غير الزمان، فقولوا: ولكن الإنسان هو الإنسان.⁽¹⁾ فإن تغيرت الظروف والعوامل المؤثرة في حياة الإنسان، وتغيرت الذهنيات فإن الإنسان هو ذاته، فالتربية هي من توجهه وتكونه حديثاً ومستقبلاً مثلما كونته قديماً.

فالإبراهيمي يؤكد على دور الدين الإسلامي في تأسيس تربية وحدانية إسلامية لها مظاهرها الخلاقية وأثارها في الواقع من خلال تطبيق مبادئه الصحيحة، من أجل تحقيق الحرية الفكرية للأمة الجزائرية بتحرير الإنسان قولاً وعملاً من التبعية الغربية، بحيث يقدر المثقف الجزائري إنشاء منظومته المعرفية وابتكار آلياته ومفاهيمه بنفسه، وإيجاد الجواب الجزائري الحض لمشاكله.⁽²⁾ وهذا ما يرتبط أيضاً بالغايات من إنشاء جمعية العلماء المسلمين وهي أولاً: «إحياء مجد الدين الإسلامي» و ثانياً: تحقيق «نهضة جزائرية» قائمة على التربية والتعليم حتى يتيسر تحقيق النهضة الشاملة، ولن يكون ذلك إلا من خلال تصحيح أركان الدين في نفس كل مسلم فهو الأساس في تربيته، ومن أهم تلك الأركان الأخلاق، أخلاق المسلم التي اختلت فكانت سبباً في الكثير مما لحق به من تخلف وآفات. فإحياء الدين الإسلامي كما أمر به الله يقام "بتصحيح أركانه الأربعة: العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق".⁽³⁾ فقد اختلت عقيدة المسلم لما لابسها من شوائب، فقد التبست العقيدة بكثير من الممارسات الطرقية غير الصحيحة، وغاب البعد الروحي في الكثير من العبادات فأصبحت مجرد طقوس وممارسات تخلو من بواعث الكمال الروحي، كما انتهكت مختلف الحرمات والمحرمات ما أدى إلى عدة انعكاسات سلبية في البنية والحياة الاجتماعية، من تفكك أسري، قلة الوازع الديني، العداوة، فاستبدلت الأخوة الاجتماعية بالصراع الاجتماعي ويقطع صلة الرحم، فخرجت الفضيلة الإسلامية وأخلاق الإسلام من عقل المسلم وروحه فاسحة المجال لمختلف الرذائل ومختلف عادات الأجنبي التي رماه بها عنوة، هذا ما يستلزم إعادة تصحيح للعقيدة ومراجعة أخلاق المسلم وبعث الأخلاق الإسلامية فيه من جديد.⁽⁴⁾

فالتأسيس الديني للتربية عند الإبراهيمي يكون من خلال الأخذ بمرجعية الدين وتعاليمه وهديه في تربية الأجيال وربط المجتمع بالحياة بعد أن فصله المستعمر عنها، وحتى يدفعه إلى تحقيق مجده التليد ويعيد الاعتبار

(1) - المصدر السابق، ص 23، 24.

(2) - علي خذري، أسئلة النهضة في فكر البشير الإبراهيمي، مرجع سابق، ص 100.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 133.

(4) - المصدر نفسه، ج 1، ص 133، 134.

للدين الإسلامي بعد ما لابسته العديد من الممارسات والشوائب التي أرجعته إلى مجرد طقوس جافة وعادات لا تعكس حقيقته كدين ورسالة سماوية جاءت لهداية البشر وخلصهم.

2. القرآن الكريم والسنة النبوية أصلان وأساسان أولان للتربية الإبراهيمية :

يعدّ القرآن الكريم اللبنة الأولى في تأسيس التربية الإسلامية. ويؤكد الإبراهيمي على الأسرار التربوية التي تضمنها القرآن الكريم. مبينا أن إصلاح الإنسان لا يتأتى إلا بالعودة إلى تعاليمه السمحة، ويبين في ذلك مختلف التغيرات التي حدثت للبشرية، خصوصا المجتمع المسلم عند اتباعه لتعاليم القرآن وكيف غير نمط الحياة وحزّر الإنسان من العبودية والاستغلال. فلم يبلغ الإنسان في العصر النبوي تلك الدرجة العالية من التربية إلا بتعاليمه، فالقرآن الكريم "هو الذي أصلح النفوس التي انحرفت على صراط الفطرة، وحزّر العقول من ريقه التقاليد السخيفة وفتح أمامها ميادين التأمل والتعقل ثم زكى النفوس بالعلم والأعمال الصالحة وزينها بالفضائل والآداب، والقرآن هو الذي أصلح بالتوحيد ما أفسدته الوثنية، وداوى بالوحدة ما جرحته الفرقة واجترحته العصبية، وسوى بين الناس في العدل والإحسان... والقرآن هو الذي بلغ بهم تلك الدرجة العالية من التربية ووضع الموازين القسط للأقدار... وأفرغ في النفوس من الأدب الإلهي ما صير كل فرد مطمئنا إلى مكانه من المجموع.... القرآن إصلاح شامل لنقائص البشرية الموروثة... هذا القرآن هو الذي صلح عليه أول هذه الأمة وهو الذي لا يصلح آخرها إلا عليه، فإذا كانت الأمة شاعرة بسوء حالها، جادة في إصلاحه، فما عليها إلا أن تعود إلى كتاب ربّها فتحكمه في نفسها وتحكم به."⁽¹⁾

فهو باختصار «التربية الإلهية للإنسان» لقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾ ومن الغايات الأساسية التي جاء القرآن الكريم لتحقيقها: تعليم الناس وتربيتهم، فمن غاياته تكوين النفس الإنسانية وتطهيرها وفق موازين الشريعة الإسلامية حتى تكون جديرة بتكريم الله لها من بين سائر مخلوقاته في هذا الكون. فالقرآن الكريم هو الأصل الأول من أصول التربية الإسلامية، جاء لهداية الناس، فرسم قواعد العمل الصالح الذي ينبغي أن يسيروا عليه، كما رسم لهم أنواع السلوك المستقيم الذي ينبغي عليهم أن يهتدوا به في علاقاتهم الاجتماعية والفردية.⁽³⁾

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 94، 95.

(2) - سورة البقرة، الآية 151

(3) - تركي رابع عمارة، دراسات في التربية الإسلامية، ص 55، 63.

فكل تعاليمه ذات بُعد تربوي وأخلاقي وإنساني لم تختص بجنس معين، فهو موافق لكل فطرة إنسانية، وملائم لكل نفس، يسري بها من النقصان إلى الكمال، يهذب الحيوانية وينمي الإنسانية. فمثل ذلك قاعدة أساسية متكاملة تتأسس عليها التربية، والسرّ في ذلك أنه: "دين فطري روحي، يحمل في طياته نهاية الكمال الإنساني، وأن أصوله بُنيت على حكمة من خالق الحكمة، فتجد في عقائده غذاء العقل وفي عباداته تزكية النفس، وفي أحكامه رعاية المصلحة، وفي آدابه خير المجتمع، وإن دينا يأخذ من شرطه التخلّق بالأخلاق الشريفة، ويعمد إلى الأرواح مباشرة فيغرس فيها أصول الفضائل الإنسانية، ويعمد إلى الحيوانية فيهدب في حواشيتها، ويكسر من حدّتها، ويفل ما فيها من شره وشراسة، ويعمد إلى ما بين المستضعفين والمستكبرين من حاجز وفروق فيجعلها جذاذا، لحقيق بأن ينتظم تلك الأمم ومثلها معها، بلى وإن التاريخ لم يشهد دينا جمع بين مطالب الروح والجسم إلا هذا الدّين." (1)

فالإسلام يتوجه إلى المسلم بآداب تهدف إلى تربيته عليها، يتمثلها الإبراهيمي قاعدة يتخذها المصلحون والمرّبون هيكلا للتربية والإصلاح، بداية من إدراك المسلم أن الإسلام يهدف إلى السّير به نحو الكمال فهو "يريد تكميلك فلا تنقصه، ويريد أن تكون حجّة به فلا تكن حجّة عليه، وأنت منسوب للإسلام فهل يسرّك ممن ينتسب إليك العقوق وتضييع الحقوق فصحّ العقيدة، وروّض جوارحك على التكاليف، وقف عند حدود الشرع، وخذ نفسك بالصّالحات، واقض لأخيك ما تقضي به لنفسك، فإذا أنت المسلم الكامل، وإذا أنت عبد الله وحده." (2) ويكون ذلك التأسيس من خلال تصحيح عقيدة المسلم، واتباع تعاليم الدّين وأحكامه بأن يروّض الإنسان نفسه وجوارحه على أوامره ونواهيه فيقف عند حدوده فكل تعاليمه زكاة وتربية للنفس.

وفي التأكيد على أهمية الأساس الدّيني في تكوين الناشئة يدعو الإبراهيمي إلى تبني التربية الدّينية القائمة على تعاليم القرآن فهي المبتغى الذي يسعى إلى تحقيقه، لأن السّياق التاريخي يثبت فوائدها الكثيرة وفعاليتها ونجاحتها في بناء أجيال شكّلت قادة الفكر الإسلامي فيما مضى، إضافة إلى أنها تربية قليلة التكاليف تتناسب وخصوصية راهن الإبراهيمي آنذاك، حيث كان الدّعم المادي يقف عائقا أمام تطوير التربية والتعليم. كما تتناسب وحاضرنا اليوم في كثير من جوانبه خصوصا أمام الطغيان المادي على الرّوحي. فالتأسيس الدّيني من هذا المنطلق يهدف إلى تنمية البعد الرّوحي لدى الإنسان وكبح جماح المادية في عصر سيطرت عليه المادة. من خلال التنظيم النفسي وآداب القرآن الذي به يملك زمام النفوس، يصرّح الإبراهيمي: "أن هذا النوع من التربية

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 108.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 112.

الدينية هو الذي نريده للأمة، وهي تربية كثيرة الفوائد قليلة التكاليف، وقد جُرِّبت فصحت. فهل من مُعين لنا على تثبيتها وتعميمها؟" (1)

وإن أبانت سلوكات النَّاس عن تعارض وقيم التربية الدِّينية التي يؤسس لها القرآن الكريم فمرجع ذلك أنهم لم ينهلوا بعد من حقائقه ومعانيه وأن انتسابهم له ليس انتسابا تاما. "لو صدقت نسبة المسلمين إلى الإسلام، وأشربوا في قلوبهم معانيه السامية ومثله العليا، واتخذوا من كتابه ميزانا ومن لسانه العربي ترجمانا، واتجهوا إلى هذا الكتاب الخالد بأذهان نقية من أوضار المصطلحات، وعقول صافية لم تعلق بها أقدار الفلسفات لسعدوا به كما أراد الله." (2) فالانزياح الملاحظ هو نتاج عدّة عوامل بداية من الاستعمار ومخلفاته إلى اللاأخلاقيات المنتشرة في المجتمع. كما أن التوجه نحو القرآن في نظر الإبراهيمي كان مزيجا عند البعض برؤى وتوجهات فكرية أخرى معبرا عنها ب «أكدار الفلسفات» ولعلّه يشير هنا إلى أثر الفلسفات المادية على الأخلاق، أو الفلسفات المعارضة للدِّين وتعاليمه، بحكم أنه يقيد حرية الإنسان وإرادته غير أن حقيقة الدِّين والتربية الإسلامية غير ذلك، فالاتباع "الذي يدعو إليه القرآن هو عين الاستقلال التام للفكر والإرادة والعقل والوجدان لأنه يحميها من شرور الأهواء ويؤوبها إلى جمى الحق وحده والاحتماء بالحق الذي قامت به السماوات والأرض واستقر عليه تدبير الكون ونظامه - استقلال ما وراءه استقلال." (3) فإن كان انتظام الكون في تسييره وفق ما بيّنته العديد من الدلائل القرآنية وفق نظام بديع، فكذلك الأمر بالنسبة للإنسان عند اتباع تعاليمه تحتكم حياته إلى مثل ذلك النظام، وكأن الإبراهيمي يعقد نوعا من المقارنة بين نظام الكون في سيره باحتكامه إلى قوانين تبين قدرة الخالق، ويبيّن ضرورة احتكام الإنسان إلى هذه التعاليم حتى يحاكي ذلك النظام في حياته وتدبير شؤونها. فتكون التربية هنا تربية كونية للإنسان.

ومنه على المرّين والمصلحين توجيه النَّاس إلى هذه التربية وإلى الدِّين وإلى القرآن بعد إهماله وتعاليمه، حتى تنعكس وتبرز فضائل القرآن في حياتهم فما لحقهم من نكبات وأزمات تربوية وأخلاقية إلا نتاج إهماله، "فمن التسديد في الرّأي والمقاربة في العمل أن ترشد الأمة الإسلامية إلى معرفة ما ضيّعت من خير وما خسرت من هداية بتضييعها للقرآن، وإنما تعرف ذلك ويبلغ مكامن الوجدان من نفوسها من وصفه والإشادة بشأته والتنويه بجلاله وخطره والتنبيه على ما يحتوي عليه من العلوم الكثيرة بألفاظ قليلة، وتقريب ما ينطوي عليه من

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 340

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 60.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 322.

المرامي المفيدة بالكلمات القريبة، وشرح ما فيه من الحقائق المتفرقة بالجمال الجامعة، فإن ذلك يكون أدعى لرجوع النفوس الجالحة عنه إليه." (1) ولا تقتصر أهمية الدين الإسلامي وضرورته في تنظيم حياة الناس التربوية والأخلاقية وسلوكهم إنما يعدّ أصلح نظام لقيادة العالم الإنساني. مبينا ومبررا الإبراهيمي السرّ في ذلك، دون الالتفات لسخرية ساخر، ولا دهشة المندهبش من دعوته هاته، فالإسلام: "عقائد وعبادات وأحكام وآداب، وكل هذه الأجزاء رامية إلى غرض واحد وهو إصلاح نفس الفرد الذي هو أصل لإصلاح النفسية الإجتماعية، فعقائد الإسلام مبنية على التوحيد. والتوحيد أقرب لإدراك العقل الإنساني من التعدد، وأدعى لاطمئنانه وارتكازه وتسليمه، والعقل إذا اطمأن من هذه الجهة انصرف إلى أداء وظيفته مجموعا غير مشتت." (2)

متضمنا القرآن الكريم والدين الإسلامي أصليين هامين تقوم عليهما عملية القيادة والتربية ما مكن الإسلام والمسلمين من اعتلاء القيادة لما التزموا أحكام الدين الإسلامي، يتمثل هذان العنصران في: القوة والرحمة وهما أصلان مقتبسان من صفات الله تعالى فهو: القوي والرحيم إضافة إلى العدل والإحسان. ما يبينه قول الإبراهيمي: "تولى الإسلام في أول مراحلها قيادة العالم الإنساني العامر للأقاليم المعتدلة، فقادته إلى السعادة والخير بأصليين من أصوله وهما القوة والرحمة، وبوسيلتين من وسائله في القيادة وهما العدل والإحسان، وبأحكامه المحققة لحكمة الله في عمارة هذا الكون." (3) لأن نظام حياة البشر لا بدّ له من هاتين الخاصيتين فالرحمة تحقّق الإنسانية، والقوة تحفظ النظام.

فالقيادة التربوية الرشيدة ينبغي أن تتضمن على هذه الأصول كأصول مستقاة من التسيير الرباني للكون، ولم يعتل المسلمون ركب الحضارة والقيادة إلا حين ساروا على هذا الهدى الرباني في تربيتهم وأخلاقهم وتعاملاتهم. وإن بدت القوة والرحمة كضدين لا يجتمعان فإن الإسلام جمع بينهما فيكون القائد قويا ورحيما، ويجمع المربي بين هاتين الخاصيتين بين الرحمة والرغبة، يبين الإبراهيمي أن القوة في غياب الرحمة تنقلب إلى طغيان واستبداد، وأن الرحمة في غياب القوة قد تفهم على أنها ضعف واستكانة، فاقتضت الحكمة الإلهية الجمع بينهما منتجة نظاما بديعا في التسيير والتربية مثلما تنتج العديد من المركبات من المتناقضات، فما الكهرباء مثلا إلا نتاج للشحنات السالبة مع الموجبة. "فالقوة والرحمة صفتان موجودتان في كل زمان، ولكنهما متنازعتان لم تجتمعا قط في ماض ولا حاضر، حتى جاء الإسلام فجمع بينهما وزوج، وخلط بينهما ومزج،

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 323.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 68.

(3) - المصدر نفسه، ج4، ص 65.

فجاء منهما ما يجيء من التقاء السالب بالموجب في عالم الكهرباء، حرارة وضوء وحركة، وما زال معروفا عند العقلاء، قريبا من مدارك البسطاء، أن القوة وحدها لا خير فيها لأنها جبرية واستعلاء، وأن الرحمة وحدها لا خير فيها لأنها ضعف و هُؤَيْنا، وأن الخير كل الخير في اجتماعهما. ولكن الجمع بينهما ليس من مقدور الإنسان المسخر للأهواء والعوائد، المنساق للأمانى والمطامع.⁽¹⁾

وكشاهد تاريخي يبرز مدى الحكمة من اعتماد الأخلاق والعدل والإحسان في التربية والتسيير، أن النفوس لم تُقبل النفوس على الإسلام في الشمال الإفريقي وفي الوطن الجزائري إلا من خلال مكارم الأخلاق التي تضمنها الإسلام، وهو ما فشلت فيه العديد من الأديان سابقا ذلك لأن الإسلام تضمن خُلق العدل والإحسان والرحمة والقوة موقفا بين مطالب الروح والبدن، فلم "يؤثر الفاتحون المتعاقبون على الشمال الإفريقي، ولا أثرت الأديان الراحلة إليه جزءاً مما أثر الإسلام وأثرت العروبة، ذلك لأن الفاتحين لهذا الوطن قبل الإسلام إنما جاؤوه بدين القوة وشريعة الاستغلال، أما الإسلام فقد جاء بالعدل والإحسان، وجاء وافيا بمطالب الروح ومطالب الجسم. وجاء لإقرار الإنسانية بمعناها الصحيح في هذه الأرض، لذلك كان سريع المدخل إلى النفوس لطيف التخلل إلى الأفكار، قوي التأثير على العقول، ولذلك طال في هذا الشمال أمده، وسيبقى ما دامت الفروق قائمة بين الإنسان والحيوان." ⁽²⁾ مبينا الإبراهيمي في هذا السياق السمة التربوية الجماعية التي يتضمنها الإسلام حيث ساهم في بناء مجتمع جزائري يمزج بين مختلف فئاته وتوجهاته، مذيبا كل الفروق والتعصبات، مُنميا ومُدعما الخصال الحسنة والروح القوية التي ميّزتهم، من الأنفة والذود في سبيل الوطن وغيرها فكانت الأمة الجزائرية بذلك مزيجا متناغما بين البربر والعرب "والأمة الجزائرية هي بعض جزء من البربر في القديم، وبعض جزء من العرب في الحديث، وكلتا الأمتين لها خصائص متقاربة في الإباء والحفاظ و الأنفة واعتبار الحمى عرضا تجب الموت دونه، وهي بمعنى السخاء الذي يتدنى بالمال ويعلو فينتهي بالروح، والجدود بالروح أقصى غاية الجدود، وجاء الإسلام فأخرج من المزاج المشترك بين العنصرين مزاجا ثالثا أقوى." ⁽³⁾

وما يؤكد أيضا التأسيس التربوي على الدين الإسلامي: الدور التربوي والقيادي الذي احتله الإسلام وغير به مجرى الحياة في الشرق، ناقلا إياه من الضعف إلى القوة، ومن الخمول إلى النشاط فهو بمثابة الإمام المرشد والموجه الذي يوجهه، ففي حديث للإبراهيمي عن دور الدول الإسلامية في أحد المؤتمرات الآسيوية - الإفريقية،

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 65، 66.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 467.

(3) - المصدر نفسه، ج5، ص 77.

كانت دعوته بأن تتحد الدول الإسلامية وأن تكون آراؤها حكيمة، وأن تكون مثلما يريد الإسلام في القيادة والإرشاد، "فليكن دور الدول الإسلامية فيه كما يريد منهم الإسلام، وكما تملي عليهم روحانيته السماوية وعظمته التاريخية... دور الإمام الموجه لا دور التابع المقلد، لأن الإسلام هو الذي عرّف هذا الشرق كما يجب أن تكون المعرفة، ثم عرّفه كما يجب أن يكون التعريف، والإسلام هو الذي هدّب الروحانية الشرقية. كانت خمولا فصيرها نشاطا، وكانت ضعفا ففتح فيها قوة و اعتزازا، وكانت منفصلة عن الحياة فوصلها بالحياة."⁽¹⁾

إن السر في الاعتداد بالقرآن الكريم والإسلام عموما في الإرشاد التربوي وبناء القيادة الرشيدة هو ربط الشعوب بالحياة، بعدما كانت منفصلة عنها. كون الإسلام يتوافق مع أسباب الحياة وسبلها الأخلاقية والصحيحة، ولا يتعارض مع العقل ولا مع الواقع بل يتوافق معها من خلال أحكامه وتشريعاته، ومنه وجب فهمه جيدا والعمل به وتحكيمه، فالإسلام "لم يبن قواعده وأحكامه على الخوارق وإنما بناها على الأسباب والمسببات، وعلى السنن الثابتة التي يتعايش معها البشر وتدخل في إمكاناتهم، ولو بناه على الخوارق لبطل العقل، وشتت الإرادات، وفلّت العزائم، هذه الثلاثة هي التي يجعلها الإسلام أدوات لفهمه وتثبيته."⁽²⁾ فجاءت أحكامه مراعية للعقل منمّية للإرادات مركزية للنّفوس.

ولا ينفصل القرآن الكريم عن هدي السنة النبوية الشريفة إذ يكون الالتزام الأخلاقي بالرجوع إلى هدي القرآن والسنة، فتكون "الهداية على عقائد صحيحة، وتحفظ علائق العبد برّبّه وتحدّدها، وأخلاق متينة تحفظ العلائق بين العباد وتحدّدها، وتزن المصالح بالميزان القسط، وتقرر للفضيلة وزنها وقيمتها، وللرذيلة وزنها وقيمتها وتجعل بينهما حدا كآنه منطقة حياد."⁽³⁾ والطريقة الأمثل في التربية الدّينية الاعتداد بالطريقة النبوية في دعوته وإصلاحه، فإن كان المرثون والمصلحون والمعلمون هم المسؤولون على تربية الناشئة فعليهم الإحاطة بتعاليم الدّين والسنة النبوية، فالدعوة إلى الله وظيفه أهل الحق من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وإذا لم يتعاهدوا عقائد الناس بالتصحيح داخلها الشك، ثم دخلها الشرك، وإذا لم يصونوا أخلاقهم بالمحافظة والتربية أصابها الوهن والتحلل، وكل ذلك لا يقوم ولا يستقيم إلا بقيام الدعوة واستمرارها واستقامتها على الطريقة التي كان

(1) - المصدر السابق، ج5، ص 81.

(2) - المصدر نفسه، ج5، ص 84.

(3) - المصدر نفسه، ج4، ص 63.

عليها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الهداة من العلم، والبصيرة في العلم، والحكمة في الدعوة والإخلاص في العمل وتحكيم القرآن في ذلك كله.⁽¹⁾

فاتباع الطريقة النبوية يكون من خلال إعادة إحياء الدّين في نفوس الناس وغرسه لدى الأجيال، وفي هذا اختصار لطريق التربية وطريق النهضة عامة، لأن تمكين الإسلام في النفوس هو إحياء لها ودفع لها للعمل، فإن أراد المسلمون تجاوز تأخرهم في نظر الإبراهيمي، "وأرادوا أن يكونوا كغيرهم من الأمم فعليهم أن يقتدوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولكم أن تطلقوا على هذه الدعوة ما تشاؤون من تعبير: فسموها بحركة أخوة أو حركة إحياء، لا إحياء الإسلام لأن الإسلام حي بل إحياء الإسلام في نفوسنا، وإن الإسلام لا يقوم بالكم بل بالكيف."⁽²⁾ مع التركيز على البعد الكيفي في الإعداد لا الكمي، فإعداد ثلّة قليلة إعدادا سليما صحيحا يتأتى بنتائجه مستقبلا، فتعلّم هذه الثلّة غيرها وتقودها، لا الاعتداد بالكم فيضيع (الكيف) في الكل (الكم)، ويمكن ربط هذا بالتربية في واقعنا الجزائري المعاصر، أين اتجه العمل على النقيض تماما وهو الاعتداد بالكم لا بالكيف هذا ما يظهر في كثرة الجامعات والخريجين دون التركيز على طبيعة تكوينهم وإعدادهم.

ولا يعني اتباع الطريقة النبوية والهدي القرآني في التربية التعارض والتناقض بين الطرائق القديمة والحديثة، بل بُجّد تلك الطرائق وتُصحح، وقد تبين ذلك سابقا في ثورة الإبراهيمي على التلقين والتعليم القديمين من حيث طرائقه وأساليبه وعلاقة المعلمين بالمتعلمين، ولا يعني أيضا الإقبال على الطرائق الجديدة رفض الطرائق القديمة كلياً بل تصحيحها، كما لا يمكن لكل معرفة جديدة إلغاء كل معرفة قديمة، وهو شأن الإسلام الذي لا يتنافى والحضارة الإنسانية الجديدة خاصة، وأنه يرتبط وأسباب الحياة الإنسانية، فليس "كلّ قديم ينبذ و لا كلّ جديد يأخذ، و إن مستقبل الأمة إنما يبني على ماضيها، وإنه لا تنافي بين الإسلام والمدنية الصّحيحة بل هو روحها وخلاصها إذا أقيم على وجهه الصحيح، وإن نواميس الكون هي سنن الله فيه، و إن الأخذ بأسباب الحياة هو تحقيق لحكمة الله في تلك السنن، و إن تجديد الأمة إنما هو في غير ما هي به مسلمة و في غير ما هي به عربية."⁽³⁾ بمعنى فيما استجد في الحياة لا في مقومات الأمة من إسلام وعربية.

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 201.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 210.

(3) - محمد البشير الإبراهيمي، القانون الداخلي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الفصل الثالث: مقاصد الجمعية و غاياتها وأعمالها، المادة 66، (من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، مصدر سابق، ص 49، 50.

ويمكن أن نستخلص أن المقصد العام من التربية على أساس الدين الإسلامي لدى الإبراهيمي يتمثل في: الإعداد لنهضة جزائرية تربطه بالحياة، كما أنه استعداد للحياة الأخرى من منظور موازي، وهو شأن التربية على الهدي القرآن عامة. "فالمقصد العام للتربية في القرآن الكريم هو هداية الإنسان إلى طريقة محددة في الحياة الدنيا، استعدادا للحياة الأخرى، وأي حديث عن مقاصد التربية بعد ذلك سيكون تفصيلا لهذا المقصد، واجتهادا في التعبير عن هذا التفصيل، وتنزيله في النظام التربوي العام الذي تتوزع مهامه على مؤسسات المجتمع الإنساني: الأسرة، المدرسة والجامعة، والفضاء الإجتماعي العام بفعالياته ونشاطاته ومؤسساته الإعلامية والسياسية والقانونية وغيرها." (1) وبذلك تتأسس التربية الإسلامية على الدين الإسلامي من منطلق اتباع هدي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة التي تعدّ ترجمانا للقرآن الكريم.

4. الابتعاد عن الدين أهم أسباب ضعف تربية المسلمين وتخلفهم:

التأسيس لمنظور تربوي قائم على أحكام الدين الإسلامي يمثل أهم العوامل في تربية المسلمين وتحقيق نهضتهم لدى الشيخ الإبراهيمي، وعلى النقيض تماما فإن الإعراض عنه مدعاة للتخلف والترفقة، فإن كان الإسلام أحسن نظام لتسيير العالم كما أكد عليه الإبراهيمي في مواطن كثيرة، فالأولى بالمسلمين الاعتداد بأحكامه وبتربيته، فما ضعف أخلاق المسلمين إلا بالإعراض عن أخلاق القرآن والإسلام، وما الفرقة بينهم إلا نتاج العصبية وإهمال رسالته للإنسانية جمعاء. فالقرآن الكريم يؤلف بين الأرواح على مختلف شواربها ولغاتها وأوطانها، كما ألفت بين الأرواح في أول عهدها بالإسلام، فالأخوة الإسلامية تتجاوز نطاق اللسان والوطن والجنس ليشمل جميع البشر لأنه دين الإنسانية جمعاء.

من منطلق تساؤل الإبراهيمي عن أسباب سقوط المسلمين وتخلفهم في معرض حديثه عن «داء المسلمين و دوائهم» يبين أن المسلمين رغم امتلاكهم كل موجبات التحضر والتطور، من دين ولغة وتاريخ وفضائل ومكارم أخلاقية إلا أن انقطاعهم عن دينهم ومآثر سابقهم مثل أحد أهم الأسباب في تخلفهم. فمن "السنن الكونية المقررة في سقوط الأمم وعدم امتداد العزة والرفي فيها أن ينسى آخرها مآثر أولها فينقطع التيار الدافع فيتعطل التقدم، والمسلمون لم ينسوا مآثر سلفهم، بل هي بينهم مدونة محفوظة مقطوع بها بالتواتر، بل هم أكثر الأمم احتفاظا بمآثر سلفهم وتدوينها لها، ولا يعرف بين أمم الأرض أمة كتب علماءها

(1) - فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية، المعهد العالي للفكر الإسلامي - هردن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2020، ص227.

فيما يسمونه الطبقات والسيّر كما كتب المسلمون في ذلك⁽¹⁾ لكن رغم ما يتضمنه الدّين الإسلامي من موجبات التّقدم والتحضّر، ومن آثارٍ ومآثر، إلا أن الأمة تعاني التخلف وفساد الأخلاق وسوء التربية.

فالنهضة والتخلف في نظر الإبراهيمي، أو التطور والتدهور من السّمات الملازمة لمختلف الحضارات والثقافات فهي بمثابة القانون الذي يحكم حركة التاريخ. إذ أن للدولة أعمارًا طبيعية كما للأشخاص تمر بمرحلة النشأة والتطور ثم السقوط وقد عبّر عن ذلك ابن خلدون في المقدمة قائلا: "وأما أعمار الدّول أيضا وإن كانت تختلف بحسب القرانات، إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته."⁽²⁾

فكل مجتمع أو دولة معرّضة لهذه المراحل، معرضة لأسباب التخلف والتطور، النشأة والتدهور، كما تتضمن أيضا موجبات التحضر والتطور، ما عبّر عنه الإبراهيمي باسم «عوارض الموت في الأمم» و «أسباب الحياة». "إن موت الأمم وحياة الأمم لفظان مطروقان مستعملان في نصابهما من الوضع اللغوي، كموت الأرض بالقحط، وحياتها بالغيث، لا يثنو بهما ذوق ولا منطق ولا فهم، وإن معناهما لأوسع وأجل من معنى حياة الفرد وموت الفرد، هذه الحياة محدودة وموت لا رجعة بعده إلا اليوم الآخر، وتلك حياة ممدودة الأسباب ينتابها الضعف فتعالج ويعرض لها الانتفاض فترمم وتظلم آفاقها بالجهل فتتار بالظلم."⁽³⁾

فإن كان موت الأفراد من غير عودة إلا يوم البعث فإن حياة الأمم والشعوب على العكس يتعلق بعثها بأسباب موجودة فيها وآمال مرجوة منها، فإذا أخذت بما عادت إلى الحياة. وهو الشأن بالنسبة للأمة الجزائرية وللمسلمين عامة. فقد قال الاستعمار بموت هذا الوطن وتشيع جنازة الإسلام فيه لكنّها عادت. و الأمة في حقيقتها مريضة يرجى لها الشفاء إن حضر الطبيب وأحسن استعمال الدواء، وأذن بالإصلاح في آذانها. إن عوارض الموت وأسبابه موجودة في الأمة من فقر وجهل وفساد الأخلاق وفقد القيادة الرشيدة، إلى أن أسباب الحياة ورجاءها موجودان فيها من الإيمان والصلة بالقرآن وهذا مبعث القوة ومكمن السيادة والعزة. فعرق الإيمان في الأمة لا يبلى وإن تطاولت القرون.⁽⁴⁾

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 309.

(2) - عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار يعرب، دمشق، سوريا، ط1، 2004، ص 322.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 350.

(4) - المصدر نفسه، ج2، ص 350، 351.

غير أن المسلمين تأخروا عن ركب الحضارة والحياة في نظر الإبراهيمي، عاملين على تحقيق هذه الغاية وهم مستدبرون لها، ويلتمسون سبل التقدم والهداية من مطالع الآخر والسبيل معهم، ويطلبون الشفاء من أسباب المرض، ويبحثون عن الدليل الهادي وهو معهم، ذلك لأن الإسلام والقرآن على ألسنتهم لا في قلوبهم. "فلو صدقت نسبة المسلمين إلى الإسلام، وأشربوا في قلوبهم معانيه السامية ومثله العليا، واتخذوا من كتابه ميزانا ومن لسانه العربي ترجمانا، واتجهوا إلى هذا الكتاب الخالد بأذهان نقية من أضرار المصطلحات، وعقول صافية لم تعلق بها أكدار الفلسفات لسعدوا به كما أراد الله." (1) فشرط بلوغ الركب الحضاري إذن الانطلاق من الدين الإسلامي وأخلاقه، ومن خصوصية الذات والمجتمع لا التماس ذلك في الآخر. ومن تكاتف جهود أبناء الوطن الواحد ما ينتج ويحقق التطور.

يتفق الإبراهيمي في معرض تساؤله عن سبب تخلف المسلمين إلى حد بعيد مع الأمير شكيب أرسلان في كتابه «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟» والسبب في ذلك يرجع إلى الابتعاد عن تعاليم القرآن الكريم، فمن أعظم أسباب تأخر المسلمين الجهل الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخل، فيتقبل السفسطة قضية مسلمة ولا يعرف الرد عليها، ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين العلم الناقص الذي هو أشد خطرا من الجهل البسيط، لأن الجاهل إذا قيض الله له عالما أطاعه ولم يتفلسف عليه، أما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري، ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الأخلاق، بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن، والعزائم التي حمل عليها سلف الأمة و بها أدركوا ما أدركوه من الفلاح، والأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف." (2) ومن أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير العقلية الانهزامية، وفقدتهم كل ثقة بأنفسهم، وهذا من أشد الأمراض الاجتماعية وأحبت الآفات الروحية، لا يتسلط على إنسان إلا أودى به، ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء، إذ أصبح المسلمون يعتقدون في العصور الأخيرة أنه ما من صراع يخوضه المسلم سينتهي بمصرعه، وكان أثر هذه الفكرة أكثر وقعا لدى الطبقة التي تزعم أنها الطبقة المفكرة العاقلة فما زالت تنفخ في بوق التشبيط وتبث في سواد الأمة دعاية العجز. (3) ولا سبيل إلى التطور إلا بالعودة إلى القرآن والتضحية كما أمرهم بها، فلن يتم للمسلمين نجاح ولا رقي إلا بالتضحية، فيها تدين سائر العلوم والمعارف لأن هذه الأخيرة فروع لا أصول، فالمسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما دعاهم إليه كتابهم القرآن

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 60.

(2) - الأمير شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، دط، 2012، ص 37.

(3) - المرجع نفسه، ص 89.

أن يبلغوا مبالغ الدول المتطورة، ويُبقوا على إسلامهم كما بقي أولئك على أديانهم، فليعلم المسلم أن مبلغ كل أمنية العمل والدأب والإقدام وتحقيق شرط الإيمان. (1)

إن تخلف المسلمين بدأ بتفرقهم في الدين، وما تفرقهم إلا بابتعادهم عنه. ويرجع ذلك أيضا في نظر الإبراهيمي إلى الاختلاف حول الآراء الدينية والخوض في الصفات والغيبيات، والمسائل التي امتزجت فيها الرؤى الدينية بالرؤى الدنيوية، وما حملته الفتوحات بدخول العديد من المقالات والتأويل، كل ذلك وفر بيئة خصبة للاختلاف والتفرق، خاصة مع ما حملة كل منتسب لمذهب أو اتجاه قديم من أفكار وربطها بالدين وما هي بالدين. "فتوفرت الدواعي لظهور المذاهب الفقهية والمذاهب الكلامية والمذاهب الصوفية في أزمنة متقاربة، وكان لترجمة الفلسفة اليونانية والحكمة الفارسية والهندية أثر قوي في تعدد المذاهب الكلامية والصوفية، بما أتت به الأولى من بحث في الإلهيات على الطريقة العقلية الصرفة، وبما غدّت به المتكلمين من الأنظار المختلفة وأمدتهم به من طرائق الجدل وقوانينه، وهذا هو مبدأ التفرق في الدين، لأن المتكلمين يزعمون أن علومهم أساس الدين، والصوفية يقولون إن علومهم هي لباب الشريعة وحقيقتها." (2)

فأسباب التفرق ترجع إلى ما خلّفته العصبية العمياء للمذاهب، وجعل أقوال ممثل المذهب ورائده أصلا، واستخدام التأويل حتى توافق تلك الرؤى كلام الله ورسوله، إضافة إلى آثار ذلك في العلوم الإسلامية فلم تمدّها إلا بأنواع من الجدل. ويستثني الإبراهيمي المذاهب الفقهية من ذلك فحدوثها ضروري وطبيعي ما دامت السنّة لم تجمع، وبعدها جمعت لم تكن وافية بالتنصيص على الوقائع الجزئية فتفاوتت مدارك المجتهدين. أما الفرق الكلامية فقد كان أثرها ضعيفا في تفرق المسلمين، واقتصرها على طبقات مخصوصة زالت بزوالهم، نظرا لما يحتاجه منتحل علم الكلام من براعة و مران على المنطق ومقدماته ونتائجه و أقيسته وأشكاله. (3) فكثر الاتجاهات الفكرية والفرق مع ادعاء كل اتجاه امتلاكه الحقيقة، توجهت مختلف الجهود والدراسات إلى هاته الجدالات التي حالت دون التوجه إلى ما ينفع الأمة في واقعها ومستقبلها. إضافة إلى ما خلّفته من انقسامات في الوسط الاجتماعي بين أنصار هاته الاتجاهات والتعصّب لرأي كل اتجاه، ولا زالت تلقي بآثارها إلى اليوم لدى فئات معينة من المجتمع.

(1) - المرجع السابق، ص 105، 106.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 164.

(3) - المصدر نفسه، ج 1، ص 164، 165، 166.

إن كان التخلف من منظور الإبراهيمي يرجع إلى سبب الابتعاد عن الدين الإسلامي، فإن تحقيق النهضة لا يكون إلا بالعودة إلى هدي الإسلام وإلى النهضة بالقرآن، ولكي يعود المسلم إلى المكانة التي كان عليها سابقوه عليهم الأخذ بأسباب الحياة مستلهمين إياها من الهدي الرّباني، فيغيّر الفرد المسلم من ذاته منتقلا من الاستكانة إلى الحركة، مدركا موقعه وأهميته كإنسان معاصر يضفي على الحياة المعاصرة بعدا روحيا سمحا إضافة إلى بعدها المادي. فلا "يعود المسلم إلى العزّة والسيادة حتى يغير ما به فيرجع إلى حقائق القرآن يستلهمها الرشد، ويستمد منها تشديد العزيمة، وتسديد الرأي وإصابة الصواب ومثانة الأخلاق، فيأخذ دينه بقوة تهديه إلى أن يأخذ ديناه بقوة، ويقوده كل ذلك إلى أخذ السعادة بأسبابها... لو كان المسلم مسلما حقا، لعرف نفسه، ولو عرف نفسه لعرف أخاه، ولو عرف أخاه لكان قويا في المعنى، كثيرا به في المادة. ويوم نصل إلى هذه الدرجة نكون قد أعدنا تاريخ الإسلام من جديد، ونكون قد أضفنا إلى هذا العنصر المادي العصري الفوار عنصرا روحانيا فوارا يلطف في حدّته ويخفف من شدّته، فيتكون منهما مزاج صالح يصلح عليه الكون كله لا المسلمون وحدهم." (1) فرغم وجود المسلمين في كل قطر إلا أنهم متفرقون في زمن يمثل التكتل فيه شرطا للحياة، والتقارب أساسا للقوة. فعلاقة المسلم بدينه علاقة تلازمية، وجوده مرهون به، والأخذ به يستلزم معرفة ذات المسلم الحقيقية التي تدرك ما لها وما عليها، وتقيم من الأخوة قوة معنوية ومادية. فالقوة الدّينية والقوة المعنوية والروحية هي الكفيلة بتحقيق القوة المادية.

ومن الأساسيات التي يؤكد عليها الدّين في التربية وتحقيق النهضة «رابط الأخوة» كقيمة أخلاقية وإنسانية، لأن وجودها يؤدي إلى الاتحاد والعمل وغياها يجرّ إلى الخلاف والتفرق، هذا ما يميز راهن المسلم اليوم من فتن وصراعات حيث لا تكاد تخلو رقعة جغرافية من العالم الإسلامي والعربي خصوصا من آثار التخلف والاختلاف، وإن كان هذا الأثر سلبيا في سيرورة المجتمع التاريخية، كما يعدّ من منظور آخر مرحلة طبيعية في حركة المجتمع نحو التحضر في رأي الإبراهيمي، معتبرا أن "الرّباط الجامع للأمم هو المحبة فإذا خلصت المحبة بين الأفراد تمخّض الخلاف إلى أحسن ثمراته... كل ما هو موجود بين المسلمين من خلاف وفتن وشور هو مرحلة طبيعية للأمم في الأطوار الأولى من نهضاتها، فلا يهولنا أن هذا الشيء خصصنا به، ولا يثبّطنا هذا عن الاستماتة في علاجه والعمل متضافرين على إزالته بالتدرّج، لأن أول مراحل النهضة هو آخر مراحل الانحطاط." (2) وكأن حركة التاريخ في شقّها المتعلق بتخلف الشعوب ونهضتها يحتكم إلى مبدأ التناقض،

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 385، 386.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 79.

فالانحطاط أو التخلف قد تتبعه النهضة والتطور، والتحطيم يتبعه البناء، وإن تحقيق الأخوة والنهضة هو نتاج لمرحلة ساد فيها التخلف و اللأخوة.

يستلهم الإبراهيمي العبر من السلف الصالح، فقد أدرك السلف وظيفة القرآن الحقيقية حينما أقام شؤونه عليها، فطبّق أحكامه في معاملاته، بعد أن تمكّنت في قلوبهم وشعورهم فحرّكتهم، لذلك يؤكّد الإبراهيمي أن "الوظيفة القرآنية خالطت أرواح سلفنا فرفعتهم من الحضيض إلى الأوج، توشك أن تحالط منا نفوسا خدرتها الأحداث ولم تصل بها إلى الموت وإن تلك النفحات التي هبّت على القلوب الغلف فحرّكتها، وعلى العيون العمي ففتحتها قد داعبت نفوسنا فبدأنا نشعر ونحس، وأصبحنا نعي ونفكر، و أن التفكير هو أول مراتب العمل."⁽¹⁾ وينوّه الإبراهيمي إلى دور الأساس الأخلاقي -خصوصا الأخلاق الإسلامية - في تحقيق النهضة، فالنهضات الحقيقية منطلقها أخلاقي ومنتهاها أخلاقي، وإن الأخلاق الإسلامية تتجاوز ما نظرت له الفلسفات والاتجاهات الفكرية مثلما تم الإشارة إليه في الأساس الأخلاقي. "النهضات الصادقة تبدأ من الأخلاق وتنتهي إلى الأخلاق، وما زادت بحوث الفلسفة ماضيها وحاضرها في الأخلاق شيئا على ما جاء به الإسلام وأقرّته الفطر السليمة."⁽²⁾ فمن سبل تربية الناشئة على الاعتزاز بالتاريخ وتعليم الناس أمجاد ماضيهم ومعالمهم يؤكّد الإبراهيمي على ضرورة مراعاة تعليم تاريخ الشخصيات الإسلامية وأهم المحطات التاريخية البارزة، وإبراز فضل الإسلام والعربية في الحدث العلمي والنهضة العالمية، منتقدا تلك الأفكار التي سعى الغرب وخصوصا الاستعمار إلى إشاعتها، ووجدت بعض الصدى لها خصوصا وسط الشباب، والمتمثلة في أنّ سبب تخلف المسلمين مقترن بدينهم ولغتهم ولا نهضة لهم إلا بما حققه الغرب متناسين أهمية وموازنة المعادلة الاجتماعية لتحقيق النهضات لدى المجتمعات.

يدعونا الإبراهيمي في هذا السياق للوقوف وقفة مقارنة بين إجلال المستعمر لتاريخه وثقافته من جهة واحتراف ثقافة الآخر والمسلمين خصوصا، فالمستعبر يعتبر أن المسلم يقدّس الماضي ويعيش فيه ويتغنى به، هذا ما يحول دون بلوغه التطور الذي شهده الغرب. فهو من جهة يتغنى بماضيهِ وبيني حضارته وحياته عليه ويعيب من جهة أخرى على المسلمين تغنيهم ماضيهم حتى يبقوا دون تاريخ، دون ثقافة ودون هوية فينسلخ المسلم عن ذاته. "يقول المستعمرون عتّا : إننا خيالون وإننا حين نعتز بأسلافنا نعيش في الخيال ونعتمد على الماضي ونتكل على الموتى، يقولون عتّا هذا في معرض الاستهزاء بنا، أو في معرض النصح لنا... إنهم يريدون أن

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 64.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 222.

نسى ماضيها فنعيش بلا ماضٍ. حتى إذا استيقظنا من نومنا أو من تنويمهم لنا لم نجد ماضيا نبي عليه حاضرنا، فاندمجنا في حاضرهم، وهو كل ما يرمون إليه...هل نسوا ماضيهم؟ إنهم يبنون حاضرهم على ماضيهم، إنهم يعتزّون بأبائهم وأجدادهم إنهم يخلدون عظماءهم في الفكر والأدب والفلسفة والحرب والفن، إنهم لا ينسون الجندي ذا الأثر فضلا عن القائد الفاتح وهذه تماثيلهم تشهد وهذه متاحفهم تردد الشهادة " (1) فينكرون على المسلمين حاضرهم الذي ساهموا في تربيته ويعيقونهم في بنائه على أسسهم التاريخية ومقوماتهم. ملقّين أبناءهم بماضيهم وسير أجدادهم، مستغلين تأثر أبناء المسلمين بعلومهم وصناعاتهم. فيوهمون عقولهم وبلؤونها بتفكيرهم وما يطمحون إليه فتزول الذاكرة التاريخية من أبناء المسلمين وتضيق لذلك قد ترى اليوم العديد من الرّؤى تشكك في الشخصيات التاريخية في الجزائر، فتحوّثهم أحيانا أو تنزل بهم من دون المقام الذي يليق بهم، وما ذاك إلا انعكاس لما بثّه المستدمر ولا زالت آثاره إلى اليوم.

وبقراءة في كتاب روني أوبر «التربية العامة» يبرز مدى استثمار الغرب لأسس الدين والتاريخ والسلطة أو بالأحرى مختلف المقومات الثقافية الخاصة بهم في التربية، موردا ما قاله أحد الوزراء الألمان - وزير المعارف البافاري «Schemm شيم» - ومّا يقوله في هذا السياق: "إن العرق والدّفاع ومبدأ السلطة والتدين هي الأسس الضرورية للعمل التربوي، فلنُشج بوجهنا إذن عن الموضوعية السائدة حتى الآن، تلك الموضوعية المصطنعة والمصابة بفقر الدم." كذلك مما نقرؤه في عدد أيلول 1933 من مجلة المدرسة الألمانية Deutsche schule السطور التالية: "إن الموضوعية في تعليم التاريخ ليست إلا واحدا من الأخطاء الكثيرة التي يجر إليها مذهب الحرية المطلقة. إننا لن نعرض التاريخ أبدا كمحايدين و إنما نعرض له دوما كألمان." (2) فالتربية تتجسد على أسس ضرورية تشكل مقومات الأمة الأساسية عبر تاريخها، حتى تضمن تشكيل أجيال تضمن مسارها عبر التاريخ، وتزيدها اعتزازا بماضيها وشخصها.

ومّا وظّفه الآخر في هذا الشأن واستغله بغير وجه حق في نظر الإبراهيمي، إلحاقه الثقافة الإسلامية بالثقافة الغربية في الكثير من جوانبها، خصوصا ما تعلق بالبعد العلمي والمعرفي، بل وتغيير الأسماء من عربية إلى غربية دون أن تدرك الأجيال حقيقتها، يؤكد الإبراهيمي أنهم "حرفوا أسماءنا لتشبهه على أبنائنا، فلا يعرفون أن «فيرويس» هو «ابن رشد». وأن «افيسن» هو «ابن سينا»، وأن «جبيرال طار» هو «جبل طارق»، وهكذا يتكلم أبنائنا اليوم بهذه الأسماء وهكذا ينطقون بها ولا يهتدون إلى أصحابها. حتى يقبض الله لهم من يكشف

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 468.

(2) - روني أوبر، التربية العامة، ص 77.

لهم الحقيقة، ثم يبقى أثر الشك في نفوسهم لما يصحب تثقيفهم الأجنبي من تحقير لجنسهم وحكم على تاريخهم بالعمق الفكري. " (1) يعتبر الإبراهيمي أنّ هذا بمثابة المصيبة التي حلتّ بالأمة من خلال مساس المستعمر بأصلها وتاريخها، وعلى المرين تدارك ذلك، إذ وجب أن تنتبه إلى خطرهما ونبادرها بالعلاج، من خلال تسطير برامج وموارد تقدمها المدارس والمؤسسات التربوية عامة من تعليم وثقافة إسلامية وعربية، تتجاوز مختلف التعصبات والانقسامات التي أحدثتها الانشقاقات السياسية أو التوجهات الفكرية من خلال بناء تعليم موحد يعبر عن الهوية والجنسية الجزائرية. مبينا الإبراهيمي ذلك في قوله: "وأن دواءها الوحيد هو تثقيف أبنائنا تثقيفا عربيا شرقيا موحدا، وأقول موحدا لأنني أعتقد أن الخلافات السياسية التي مني بها الشرق، يرجع معظمها إلى اختلاف الثقافات فالمثقف ثقافة إنجليزية يحترم إنجلترا، والمثقف ثقافة فرنسية يحترم فرنسا وهكذا وزعنا الاحترام على الغير، فلم يبق من احترامنا لأنفسنا شيء. وكأننا استبدلنا بجنسيتنا الواحدة جنسيات متعددة كلها غريبة عتّا، وكلها مجمعة على اهتضامنا وهضمنا، ولولا نزعات موروثه عن الأجداد الذين قهروا الرومان في إفريقيا، ودفعوا الصليبيين عن الشرق لم يبق لنا من ذلك التراث الغالي شيء بفعل التجهيل الذي هو غاية الاستعمار فينا، وبفعل هذه التعاليم الغريبة عتّا. (2)

فعلى المسلم إذن والجزائري في نظر الإبراهيمي أن يعترف بتاريخه، مستثمرا إياه في تربية النشء جاعلا إياه دافعا قويا للتقدم. وذلك من خلال العمل على "نشر سير عظماء الإسلام الحقيقيين الذي قاموا بحمله والذين قاموا بنشره والذين قاموا بتمثيل هديه وتطبيق قواعده و أصوله في النفوس بالتركيز والتهديب، وفي العقول بالتنوير والتأديب، وفي الأمم بالتعليم والرفق والتسوية وفي الأرض بالتعمير والبناء وفي الحكم بالعدل والإحسان وفي الملك بالعزة والقوة. (3) فمآثر القرآن الكريم وأدواره التربوية والإصلاحية والتثقيفية والتنظيمية تظهر من خلال الممارسات التي انطلقت من الفهم الصحيح له، وتجسيدها واقعا وهذا ما يظهر في سير الكثير من العظماء المسلمين، من منطلق نشرهم لرسالة الإسلام وهديه. وإلى العدالة التي تجسدت به، بداية من العدالة التي أرسى معالمها الرسول الكريم في بداية هجرته، إلى عدالة الصحابة في حكمهم كالفاروق عمر بن الخطاب. إضافة إلى آثار الإسلام في البناء والتعمير والتي لا زالت العديد من آثارها تشهد على تلك الوثبة التي كان منطلقها الإسلام. لذلك يتعجب الإبراهيمي كيف للأمة الإسلامية بتاريخها الحافل أن تحتفي بأسماء لم تنل من

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 468.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 468.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 285.

التاريخ إلا العريضة والجنون، بل وقد تصبغها بالتقديس وجعلها أعلاما للولدان والبُلدان متغافلة عن سير أعلامها. "فمن العجب أن الأمة الإسلامية - وهي أغنى الأمم في باب الأسماء العظيمة- كانت وما تزال الكثرة منها تحتفي بأسماء نالت - في جنون من الدهر وعريضة من التاريخ واضطراب من العقل - حظًا من الشهرة بما لا يشرف قدرا ولا يعلي منزلة ولا يثير ذكرى حية، وأفاضوا على هذه الأسماء الرائجة بيننا ترديدا فاحشا لهذه الأسماء المنومة، وقلَّ أن تجد بيننا اسما من الأسماء التي تعدّ تواريخنا مستقلة وبدءًا في الخلق وتجديداً في الحياة، والتي تثير عند سماعها معاني العزة وذكريات الشرف والرفعة." (1)

إضافة إلى ذلك يدعو الإبراهيمي إلى ضرورة الاعتبار والمواساة من خلال التذكير بمآثر المصلحين والصالحين للاعتبار بهم بدل الانزواء والتأثر بفقدهم. فبدل أن ننعي فقدان العلماء والقادة البارزين وجب الاعتبار بحياتهم والأخذ من تجاربهم، والاحتفاء بأسمائهم "فكل فجيلة لم يمسخها السُّلو تحكّم فيها الغلو، لأن السُّلو يفرغ المجال للتعاط والتأمل، والغلو يفتح الباب للانتحال والتعمّل... والجانب المفيد في هذه الذكريات أن تكون درسا لخصائص الرجال، وتحلية لمناشئ ذلك فيهم، ووضعاً للأيدي على الذخائر الخلقية المودعة في نفوسهم وإعلانا للمميزات العالية التي كانوا بها رجالا، وإذاعة لما يجهله الناس أو يغفلون فيه من موازين الرجولة أو يبخسونه من قيمها." (2) ففي الذكرى الثامنة لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس بيّن الإبراهيمي أن الذكريات الماضية لم تكن إلا لإثارة الشجون الراكدة وتعدد فضائل الشيخ، وتبيين مواقع الأسوة للشباب، فهذه الذكرى تميزت بتأسيس معهد ابن باديس بقسنطينة و عودة البصائر إلى الظهور من جديد. (3) فقد مثلت ذكرى وفاة الإمام ابن باديس رحمه الله دافعا قويا للشباب للاقتداء به، فعمل الإبراهيمي على استثمارها وتحليل هاته القامة العلمية فتعاطم لدى الناشئة ويقفون بها بدل الاقتداء بالآخر والانبهار بشخصياته التي عظّمها.

يبرز الإبراهيمي دور الأساس الديني في تربية الأمة الجزائرية، وكيف استثمرت جمعية العلماء القرآن الكريم في هداية الأمة، بعد أن كانت "معرضة عن القرآن مشغولة عنه بما لا يُفيد، معتقدة فيه العقائد السخيفة مستغنية عن فهمه بحفظه مع تقصيرها في أداء لفظه، مُستعيضة عن تلاوته بتلاوة الأوراد والأذكار، وعن دراسته بدراسة كتب جافة من وضع المخلوق لا تبعث في النفس نشاطا ولا تنشر في القلوب حياة ولا تغرس

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 285.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 184.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص 194.

في الأئدة فضيلة ولا تقتلع منها رذيلة ولا تشرف على القلوب المظلمة بنور، ولكنها بدأت اليوم ترجع إلى القرآن وتستجلي أنوار الهداية وأسرار الكائنات من آياته، وتأخذ الحياة قوية من تعاليمه، وكأنها برجعوها إلى القرآن تجدد نفسها وتستأنف في الحياة تاريخها." (1) موضّحاً انعكاس التربية القرآنية على الفرد والأمة بهدايته وتحقيق الشرح العملي للدين وتوضيح طريق السعادة من خلاله إلى الدارين الدنيا والآخرة.

وخلاصة القول إن رقي المسلمين وازدهار حياتهم، وتحقيق التربية الفاضلة للناشئة لا يكون إلا من خلال التربية على قيم الدين الإسلامي وتعاليمه، والإقبال على الحياة وعلومها جاعلين من القرآن الكريم هادياً لهم في طريق البناء. "الخير للمسلمين أن يسيروا إلى الأمام دائماً بأبدانهم وعقولهم مع الأمم الزاحفة إلى الحياة، المتزاحمة على مواردها، أو أمام الأمم الزاحفة المتزاحمة، مندفعين بهدي القرآن إلى الحق الذي تؤيده القوة، وإلى القوة التي يؤيدها الحق." (2) فتركيز الإبراهيمي على الأساس الديني لأنه يقوي النزعة الروحية لدى الناشئة، ويقوم سلوكياتهم ويرتقي بهم إلى مكارم الأخلاق، حتى يتغلب على الصراع الذي يتجاذب النفس بين غريزة الشر، وفطرة الخير، ويتغلب على النزعات المادية التي يمكن أن يغترّ بها الشباب إن لم يكن مسلّحاً بالقيم الروحية والأخلاقية، فالتحكم في الذات والتغلب على الأهواء أولى مراتب بلوغ الفضيلة. فالإنسان يعيش في صراع مع أهوائه ورغباته. صراع يعيشه مع نفسه التي يتجاذبها طرفان، طرف يشدها إلى الخير والفضيلة وبالتالي إلى السعادة الدائمة، وطرف يجذبها إلى الشرّ والخضوع لأهواء الجسد وشهواته المادية وبالتالي إلى اللذة المؤقتة ولكنها اللذة المشينة والمرفوضة على جميع المستويات. هذا ما أراد الإبراهيمي إيصاله إلى الشباب الراضخ لمغريات الحياة المادية الغربية التي استهوتهم وأنستهم أصول دينهم وأساس سعادتهم، هذا ما أراد أن يغرسه في عقول الشباب حينما استشعر بلاء موت نخوتهم وذوبانهم في حضارة الغرب المستمر حينما تفتن إلى تقاعسهم عن أداء الواجب وابتعادهم عن هداية الدين. (3)

فمن خلال الأساس الديني للتربية يتضح دور هذا الأساس في تدعيم الأساس الأخلاقي، وربط الإنسان المسلم في حياته بغاياته من خلال سعيه للرفي والتطور، واستثمار هذا الأساس في تربيته من خلال استشعار مآثره في التاريخ ومختلف الحلول التي قدّمها، والحرية التي منحها للإنسان في فكره وعقله دون مغالاة ولا تعدّ على حريات الآخر. وربط كل ذلك من جهة أخرى بنظرته للدّار الآخرة فيوفق بين متطلبات دينه ودنياه.

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 284.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 144.

(3) - فريدة مولى، المشروع النهضوي الإبراهيمي - قراءة في خطابه الأخلاقي، ص252.

سعيًا إلى تجسيد مدينة أو دولة تجمع بين متطلبات الحياة والآخرة تسودها العدالة ومختلف القيم الأخلاقية الدينية والإنسانية، تجسيدا لرسالة القرآن في ربطه بين السماء والأرض. أو كما عبّر عنه الإبراهيمي أصدق تعبير: "قرآن وصل السماء بالأرض وآخى بين الروح والمادة وحرّر الفكر والعقل، وحلّ المشكلات الاجتماعية بالعدل والإحسان."⁽¹⁾

إن الأساس الديني يرتبط بالأساس الأخلاقي ويدعمه، بل القول بالتربية الإسلامية أو الأخلاق الإسلامية لأن منطلقهما الدين الإسلامي، لذلك أكد الإبراهيمي على الأخلاق الدينية في التأسيس للتربية هذا ما يظهر في العديد من وصاياه للأمة وللشباب خصوصا، مؤكدا مرارا على أنهم بناء المستقبل وحملة الأمانة مبيّنا أن كل ما يتعلق من مشاكل لحقت بهم، وغياب الحلول إنما يرتبط في أساسه الأول من ضعف الأخلاق، والبعد عن التربية الإسلامية، داعيا إلى التخلق بأخلاق الإسلام، والاعتبار بحوادث التاريخ وما مرّت به الأمة من تشتت أبعدها عن هداية القرآن وأخلاقه، فآفة المسلمين وعلتّهم من أخلاقهم. "إن علتكم التي أعيّت الأطباء واستعصت على حكمة الحكماء هي من ضعف أخلاقكم ووهن عزائمكم، فداووا الأخلاق بالقرآن تصلح وتستقم، وأسوا العزائم بالقرآن تقو وتشتد. وإن الذي قعد بأمّتكم عن الصالحات وأعدّها لها في أخريات القافلة هو اختلاف قلوبها وتشتت أهوائها. فأجمعوا على القرآن آخرها كما جمع محمد - صلى الله عليه وسلم - أولها، ينتج لكم الآخر ما أنتجه ذلك الأول من عزائم شداد وألسنة حداد، وهمم كبيرة وعقول نيرة."⁽²⁾

فحاجة الشباب اليوم إلى أساس روحي يجمعهم ويتجاوز الأسس الضيقة الظرفية من وطن ولغة، هذا ما يحقّقه الدين من خلال الفهم الحقيقي لرسالته، "إن الأوطان تجمع الأبدان، وإن اللغات تجمع الألسنة، وإنما الذي يجمع الأرواح ويؤلفها ويصل بين نكرات القلوب فيعرفها هو الدين، فلا تلتمسوا الوحدة في الآفاق الضيقة، ولكن التمسوها في الدين والتمسوها من القرآن تجددوا الأفق أوسع، والدار أجمع، والعديد أكثر والقوى أوفر."⁽³⁾ وإن قيل إنّه رغم توفر هذا الشرط وهو: الدين الواحد اليوم بين أبناء الأمة الواحدة في عدة أقطار إسلامية في دول الشمال الإفريقي أو المشرق العربي إلا أنه لم تتحقق تلك الأخوة والوحدة، وهو الملاحظ والمعاش اليوم في العديد من هذه الأقطار، فيمكن تقدير سبب ذلك إلى توظيف الدين سياسيا ومذهبيا

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 321.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 163.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 163.

وطائفا، والخروج به عن مفهومه ورسالته الحقيقية، والحيلولة دون تحقيق وظيفته الحقيقية، وتغليب التوجهات والمصالح الذاتية على المصلحة الدينية والإنسانية، وتوظيف الدين واستثماره في زوايا معينة في خدمة الأيديولوجيات المختلفة، ما انعكس على التربية وعلى مختلف القيم فيما بعد فتحت أجيال وطوائف متصارعة لا متوافقة. وإن شهدت الأجيال أن هذه الاختلافات الدينية والتعصبات والصراعات وما خلّفته من تدهور وصراع فإنها لا شك تبحث عن البديل، بحكم أن كلّ جيل يخالف وقد يثور على سابقه.

ذلك أن كل جيل ينظر إلى الوجود نظرة خاصة به، ويحكم على قيمة التربية التي تلقاها، على ضوء تجربته في الحياة. فإن كانت التجربة موفقة سعيدة، رجا للجيل السابق بقاء القواعد التربوية التي أدت إلى ازدهاره، وإذ ذاك يغدو محافظا، وهذه الحال هي الحال الغالبة. أما إذا كانت هذه التجربة التي أصابها في الحياة أقل توفيقا حاول أن يقوم بالإصلاحات، وبديهي أن الجيل الصاعد يخالف الجيل اللاحق لأنه يطمح أولا في أن يحل محله، ولأن الشبيبة بعد ذلك ترى من بعيد حاجاتها المقبلة لا ذكرى حاجاتها الماضية، وهي تشعر إذ ذاك بالرغبة في تأكيد استقلالها وشخصها اتجاه القدماء، وفي التخلص من دروسهم. فهي إذن نزاعة بطبعها إلى التجديد.⁽¹⁾

وينوّه الإبراهيمي إلى حاجة الجالية الجزائرية بالخارج إلى التربية الدينية والمعارف الإسلامية، نظرا لتعدّد كيفية تجسيد تلك التربية الدينية لهم، فاستثمر عمل النوادي والمساجد في ذلك، مع التحفيز والرغبة في أبناء الأمة المتواجدين بالخارج بتربية أبنائهم على قيم الدين الإسلامي، ما تضمنته إشارته إلى أن: "كثيرا من الأمهات صالحات في الحياة معينات على تديورها، وهنّ لا يمانعن في تربية أولادهن تربية دينية إذا وجد من يقوم بها، وهل يقوم بها الآباء وهم أنفسهم في حاجة إلى هذا النوع من التربية."⁽²⁾ فالطفل أو الشاب عندما تحتضنه ثقافة غير ثقافته، وقيم غير قيمه فإنها تُرسّخ فيه منذ صغره، ويهدف ترسيخ قيم التربية الدينية الإسلامية لدى الأجيال المغتربة عن أوطانها على الأقل ينبغي أن تكون هناك تربية أسرية أو مسجدية ترسّخ تعاليم الإسلام للمغتربين بالموازاة مع ما يتلقونه في المدارس الغربية، فتحافظ على هويتهم، وتضمن عدم تنكّرهم لها ولقيمهم بإرادتهم أو بغير إرادتهم. وبهذا ترتبط الأجيال المغتربة عن أوطانها بدينها فتربّي تربية إسلامية مساهمة هي الأخرى في النهضة بالمجتمع.

(1) - روني أوبر، التربية العامة، ص 72، 73.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 388.

5. ضرورة القيادة التربوية الدينية للأمة :

أكد الإبراهيمي على ضرورة الرجوع إلى القيادة الدينية في الأمة إلى العالم الديني والقائد الذي حدّد شمائله الدين الإسلامي، مبرزاً مواصفات ذلك القائد، فالأمة الإسلامية لم تفلح في القيادات التي تولتها بعد ابتعادها عن القيادة الدينية الرشيدة، فقد "جرّبت الأمم الإسلامية - بعد الصدر الفاضل - أنواعاً من القيادة فما أوقعتها إلا في المهالك والبلايا، وما كانت عواقبها إلا عقوبات وقد أفلست جميع التجارب واستشرف المسلمون إلى هُدأةٍ وحُدأةٍ من علماء الدين يستردّون ما أضاعوه من سلطان... إن في العالم الديني الموفق شمائل من الدين ونفحات من روح الله وآثار من قوته، وفي الإسلام القوة والرحمة، العدل والحكمة، الصدق والنصيحة، العفة والأمانة، الإيثار والتضحية، وهذه لعمركم هي جوامع المؤهلات للقيادة حتى في هذا الزمن الظافر وفي العالم الكافر، وقد أصبحت الأمم التي جافت الدين وصدّت عنه تلتمس شعاعه تهتدي به في ظلمات الحياة." (1) وفي هذا توضيح للصفات التي ينبغي أن تتوفر في القائد الذي ينبغي أن يتولّى قيادة الأمة، صفات تعكس التربية والأخلاق الإسلامية من حكمة وصدق ورحمة وعفة وأمانة وغير ذلك. وإن أكّد الإبراهيمي على القيادة الدينية الرشيدة نظراً لفشل المسار الذي شهدته قيادة الأمة بعد القيادة الدينية في الفترات المزدهرة للحضارة الإسلامية بداية من العهد النبوي. غير أنه تجدر الإشارة إلى أن العديد ممّن اتبع المسار الديني في القيادة اليوم جعل من الدين ذريعة لتحقيق مصالح ذاتية كالتملك والسلطان، دون أن تتوفر فيهم صفات القيادة الرشيدة التي حدّدها الدين الإسلامي.

فالقيادة الدينية العامة للأمة تتأتّى ضرورتها لدى الإبراهيمي من الدين والعقل. من الدين لأن وظيفته إرشاد وقيادة الأمة وهدايتها وذلك من وظائفه الأساسية، فقد عمل الأنبياء والمصلحون على إرشاد أممهم وإن كانت هناك معارضة لهم. ومن العقل لكون أغلب القيم التربوية التي تضمنتها الديانات تدخل ضمن مجال علماء الدين واختصاصهم بشرط التزامهم بها. ما يبيّن الإبراهيمي في قوله: "إن قيادة علماء الدين الأمة هي وظيفتهم الأصيلة وهي وظيفة يفرضها الدين ويرتضيها العقل، وتوجبها مصلحة المسلمين، وقد فرّط علماءنا في القيام بهذه الوظيفة منذ أزمنة متطاولة فخرجت القيادة من أيديهم إلى أيدي لا تحسن القيادة، وتحسنها في سبيل غير سبيل الدين، ومدار غير مداره فانتهدت الأمة بقيادة هؤلاء إلى ما ترون وتشهدون، وليس ما ترون

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 308.

وتشهدون بالذي يرضاه الله ودينه، أو ترتضيه الحياة الشريفة." (1) وعلى النقيض تفتقد الإمامة الدينية شرعيتها بمجرد الانزياح عن المسار الذي حدده الشرع، وهو خدمة الأمة من طرف الأئمة. وقيادتها إلى صلاح دينها وديناها، "فإذا لم يخدموا الأمة الإسلامية في جميع الميادين النافعة ولم يقودوها بقوة في المقاصد الصالحة ولم يصرفوها في نواحي الخير والمصلحة، ولم يوجهوها إلى شرف الحياتين وسعادة الدارين، وإذا لم تتوجه الأمة إلى حيث وجهوها ولم تستقبل الوجهة التي استقبلوها فلا معنى للإمامة." (2) وبذلك يزول حق القيادة والتوجيه وبالتالي التربية.

ومنه فالتربية من خلال اعتمادها الأساس الديني شملت مختلف الأفراد، حتى الحاملين للواء التربية والقيادة بأن تتوفر فيهم خصال التربية الرشيدة التي تضمنها الدين الإسلامي. وأهم ما يُستخلص من هذا الأساس:

- الدين الإسلامي كفيل بالتأسيس لتربية توفّق بين حياة الإنسان في دنياه وفي آخرته.
- الابتعاد عن الدين سبب تخلف المسلمين وضعفهم، وأن النهضة مرتبطة بالعودة إلى تعاليمه خصوصا التربوية والأخلاقية منها.
- التأكيد على الرابط الروحي والأخوي الذي يؤسس له الدين كمتغير تربوي مهم لوحدة المجتمع.
- القيادة التربوية الرشيدة للأمة ترتبط بمدى مراعاة القيم الدينية لدى الأئمة وإعداد القادة بناء عليها.
- التأسيس الديني للتربية إنما يكون بالأخذ بمرجعية الدين الإسلامي، وصلاح الأمة يكون بما صلح به سلفها من الصالحين.
- الاعتبار بمآثر العلماء ومن خلدهم التاريخ من المسلمين، فيكونوا قدوة تربوية تقتدي بها الأجيال وتعتزّ بها.

ثالثا: العلم.

يؤكد الإبراهيمي على الأساس العلمي في التربية، فهو لا يقلل أهمية عن الأسس الأخرى، فإن كانت تربية الحيوانات في نظره تحتاج إلى علمٍ بكيفية تربيتها ومعيشتها وكل ما يتعلق بنموها وحياتها، فإن الإنسان أحوج منها إلى التربية، بحاجة إلى تربية تليق بمقامه، كإنسان كرمه الله عزّ وجل وهذا يتطلب دراية بمختلف

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 308.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 308.

العلوم في تكوينه من جهة، وتربية الإنسان لنهل مختلف العلوم في نفس الوقت، فإذا "كانت تربية النحل والدود تفتقر إلى العلم، فكيف لا تفتقر إليه تربية الإنسان؟" (1) فلا يمكن تصور تربية إلا من خلال تأسيس علمي لها. وتأسيس علوم التربية في الفترة الحديثة والمعاصرة دليل قوي يبرز مدى قيمة هذا الأساس. ويرتبط التأسيس العلمي للتربية عند الإبراهيمي من خلال الدعوة إلى التعلم والنهل من العلوم كافة. وبذلك يتمثل الأساس العلمي في التربية في تبيان الإبراهيمي لكيفية تحصيل العلم وضرورة هذا الأخير ودوره في الرقي بالأمّة. مع ضرورة إرفاقه بالتربية الصالحة والأخلاق الفاضلة.

وفي هذا السياق لا يمكن أن نتصور علما دون تأسيس تربوي وأخلاقي له، إذ يرتبط كل علم بفن تربيته وتعليمه، فمن مفاخر المسلمين في مجال التربية والتعليم أنهم أدركوا أن العلم وحده لا يكفي ليكون سلاح المعلم، وعرفوا أنه لا بدّ أن يضاف إلى العلم فن التربية، ليتمكن المدرس من دراسة نفسية الطفل، والنزول إلى مستواه، والاتصال العاطفي به، ليكون ذلك جسرا يوصل من خلاله العلم إلى عقل التلميذ. (2) هذا ما يبرز الترابط الكبير بين التربية والعلم والأخلاق، فلا تربية إلا بالعلم، ولا يمكن تعليم العلوم واكتسابها إلا من خلال فنون التربية وأساليبها. وقد اتضح ذلك جليا في تأكيد الإبراهيمي على أولوية وأسبقية التربية على التعليم في معرض الحديث عن علاقة التربية بالتعليم في الفصل الثاني، فقد أكد الإبراهيمي مُرشداً المعلمين: "احرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، واجعلوها حاديكُم في تربية هذا الجيل الصغير، وهاديكُم في تكوينه، وهي أن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في خيته في الحياة من نقص في العلم، وإنما خاب أكثر ما خاب من نقص في الأخلاق، فمنها كانت الخيبة ومنها كان الإخفاق." (3)

فلا يمكن الفصل بين التربية والعلم، لأن هذا الأخير لا يكون نافعا للإنسان إلا حينما توجهه التربية إلى ما ينفع الإنسانية. لذلك يرى الإبراهيمي ضرورة الربط بينهما مع أسبقية التربية، يتضح ذلك في المنهج الذي تبنته جمعية العلماء في عملها بأنها "تسلك طريق التربية قبل طريق التعليم، لأنها تعلم أن العلم المجرد من التربية لا ينفع، وقد يكون بلاءً على صاحبه ووبالا على الناس كما هو مشهود في آثار العلوم الغربية في أصحابها وفي مقلديهم منّا ... وأن العلم وسيلة من وسائل الدين، وحسبه شرفا أن الإسلام دعا إليه، ونوّه به، وحضّ

(1) - المصدر السابق، ج4، ص50.

(2) - أحمد شلبي، التربية و التعليم في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص 212.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 264.

عليه".⁽¹⁾ ويشير الإبراهيمي ضمناً إلى ذلك الحصاد البشري الذي جناه الغرب نتاج تغييب الأخلاق عن العلم، فرغم منتجاته، والتطور والرفي الذي بلغه بالحياة البشرية، إلا أنه سيطر على حياة الإنسان، فكان نتاج ذلك أن تهاوت مختلف القيم الإنسانية والأخلاقية أمام تطوراتها، وما يؤكد ذلك توجيه العلم من طرف الدول المتقدمة مستغلين الدول المتخلفة ونزف مواردها وطاقاتها، إضافة إلى ذلك الدمار الذي خلّفته الصراعات الناجمة عن التطور العلمي.

فالعلم في نظر الإبراهيمي وسيلة من وسائل الدين والحياة، هذا ما يؤكد فرضية ارتباطه بالأخلاق واستثماره في تحقيق الوظيفة والغاية التي وجد من أجلها الإنسان في الأرض وهي إعمارها. ومن منظور آخر فإن مختلف الجهود المنصبة لتطوير الحركة العلمية في الجزائر وتعليم الأفراد التي قادها الشيخ الإبراهيمي، ومختلف أعمال جمعية العلماء في هذا المجال تؤكد على الأساس العلمي للتربية، فالمجتمع المتعلم والمتقف يختلف عن المجتمع الجاهل، وإلا لما ارتبطت الحضارة بالعلم والمعارف والأخلاق. ومنه فالأساس العلمي للتربية يشمل كل ما تعلق بإذكاء الحركة العلمية في الجزائر من طرف الإبراهيمي وغيره من العلماء، وتبيين أهمية العلم في بناء وتربية أجيال مثقفة كفيلة بتحقيق استقلالها ونهضتها، وكل ما ارتبط بذلك من طرق التعليم وأساليبه، وكل ما يدخل ضمن حلقة التربية والتعليم.

وبالنسبة إلى تقديم الأساس الديني على الأساس العلمي، فهو ضرورة اقتضاها الواقع، إذ يمكن تقديم بعض الأسس السالف ذكرها عن أخرى لضرورة قد يفرضها متغير الزمن أو الواقع ومتغيراته. وما الإصلاح الديني هنا إلا إصلاح علمي في كثير من جوانبه، غير أن المظهر الذي ظهرت به عديد الإصلاحات والأعمال التي قادها الإبراهيمي وجمعية العلماء المسلمين يطغى عليها البعد الإصلاحي العلمي. فنظراً لشيوع فساد العقائد لدى الناس بفعل الاستعمار أو الطريقة المنحرفة، خاصة بعض الرؤى التي تزهد في طلب العلم وتقتصره على فئات معينة أو في مجالات محددة كالعلوم الدينية وغيرها من الأسباب، هذا ما أدّى إلى تقديم الإصلاح الديني على الإصلاح العلمي.

يعلّل الإبراهيمي ذلك: "إن تقديم الجمعية للإصلاح على الإصلاح العلمي ضرورة اقتضاها طغيان الفساد على العقائد حتى أصبح من آثاره اللازمة التزهيد في العلم. وليس معنى هذا أن الجمعية لم تحم حول الإصلاح العلمي، فدروس رجالها وأسلوبهم في دروسهم كل ذلك أمثلة من الإصلاح العلمي ونهج جديد

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 329.

نُهجوه وطريقة تحتذى فيه. وإنما نريد أن المظهر الممتاز الذي ظهرت به الجمعية وتجلّت آثاره واشتهرت أخباره حتى غطّى على جميع مقاصدها هو الإصلاح الديني. " (1) فكان من آثار فساد العقائد عدم الترغيب في العلم وأنه مقتصر على فئة معينة أو أنه يقتصر على معارف معينة.

كما يثير وينتقد الإبراهيمي في السياق ذاته غلق باب الاجتهاد في العلم، ممّا أشاع العديد من المفاهيم الخاطئة، فقد انتهى الأمر بالعديد من المشايخ إلى: "سدّ باب الفكر بالتقليد، وتناول حقائق الدين بالنظر الخاطئ والفهم البعيد، والفكر كالعقل نعمة من نعم الله على هذا الصنف البشري، فالذي يعطلّه أو يحجر عليه جان مجرم كالذي يعطلّ نعمة العقل. ولعمري إن سدّ باب الاجتهاد لأعظم نكبة أصابت الفكر الإسلامي، وأشنع جريمة ارتكبتها المتعصبون للزعات المذهبية." (2) فتعطيل الاجتهاد تعطيل للعقل الإسلامي، فأصابه ما أصابه من الركون، منعكسا على التربية والتعليم وما لحقهما من تلقين وتقليد.

ويدعم رؤية الإبراهيمي العديد من العلماء الجزائريين الذي انتقدوا الحُجر على العقل والتشبّث بالطرائق القديمة مما حال دون تطور التربية والتعليم في الجزائر، من بينهم الشيخ عبد القادر المجاوي* الذي انتقد واقع التعليم العربي الإسلامي في الجزائر المترتب عن الاستعمار، وتشبّث المدرسين الجزائريين بالمناهج القديمة ورفض أي تجديد في طرق التدريس والبرامج، متحدّثا أيضا عن فضل العلم والتعلّم، وما يجب على كل إنسان أن يتعلمه من علوم دينية وإنسانية وطبيعية، مع ضرورة حسن اختيار المعلّم الذي يجمع بين الكفاءة ومراعاة حقوق المتعلم، إضافة إلى التنويه بفضل دراسة العلوم الشرعية، وفضل تعلم العربية التي اعتبرها أفضل اللغات، فإنه يؤكّد على دراسة العلوم الحديثة كالطب والكيمياء وعلم الطبيعة، دون إهمال الجانب العملي للعلم من خلال الربط بين النظري والتطبيقي، فالعلم النافع هو الذي يوظّف أسراره عمليا، ولا يمكن لأيّ نهضة أن تقوم إلا بإصلاح التعليم وتكوين المعلم وربط العلم بالحياة. (3)

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 144.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 114.

* - عبد القادر المجاوي: من أعلام الإصلاح في الجزائر، ولد بتلمسان في عام 1266هـ الموافق ل 1848م، انتشرت شهرته بالبلاد واقبل على دروسه في قسنطينة من كل أرجاء الوطن. له مجموعة من المؤلفات في مجال التعليم والتربية والأدب والشريعة تبلغ ثلاثة عشرة كتابا ورسالة أهمها إرشاد المعلمين، نصيحة المريدن، نزهة الصّرف فيما يتعلق بمعاني الصّرف... بقي وفيا للدعوة والتدريس إلى أن وافاه الأجل في قسنطينة يوم السبت 26 سبتمبر 1914م.

(3) - مولود عويمر، الفكر الإصلاحية المعاصر وقضايا التنوير، منشورات مؤسسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، سلسلة البحوث والدراسات، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2017، ص 14، 15.

فالحجر على العقل في نظر الإبراهيمي كان سببا في انطفاء جذوة العقل الجزائري والعربي عموما، فعُيِّب الابتكار والنقد ليحلَّ محلَّه التقليد والتلقين، لذلك يعتبر أن التقليد والتلقين علّتان من علل التخلف. "فالعلة المشؤومة التي هي عائقنا الأكبر أمام الإنتاج الفكري والخصب العقلي، بل هي السبب الوحيد في موت ملكة الابتكار فينا، تلك العلة هي التقليد الذي أصبح ظاهرة من ظواهر العلوم الإسلامية وتاريخها. وإن المفكرين ممّا لينشدون نهضة تقضي على التقليد وتغرس ملكة الاستقلال."⁽¹⁾ فمختلف العلوم لم تتطور نتاجا للتقليد بل لجرأة العقل والفضول المعربي لاكتشاف المجهول، وإن ركّز الإبراهيمي هنا- على العلوم الإسلامية وتاريخها نظرا لسد باب الاجتهاد فيها- فالآفاق العلمية لا تفتح إلا من خلال باب الابتكار، فتنبع العلوم والمعارف لدى الناشئة والشباب أكثر إذا واتتهم الظروف والوسائل.

فالدعوة إلى التجديد وفتح المجال للابتكار في العلوم واستثمار الطاقات والمواهب يصبّ ضمن التنشئة التربوية العلمية. من خلال تربية الناشئة منذ الصغر على طلب العلم والبحث عن الوسائل والأساليب المتجددة فيه، حتى تبقى هذه الأجيال مسيرة لروح العصر وعلومه. وهذا ما يقتضيه الأساس العلمي، فعلى الأمة أن تأخذ بعين الاعتبار أنه مثلما يتكاثر الأفراد بفعل عوامل معينة، فمن الواجب عليها أن توفر أسباب الحياة لهم من خلال تعليمهم ودفعهم إلى العلوم. فلن توجد الأمة دون توفير أسباب الحياة لأفرادها، لذلك يخاطب الإبراهيمي الأمة الجزائرية: "بوركت أيتها الأمة... أنت أمة ولود للذرية، فالواجب أن تكوني ولودا لأسباب الحياة لهذه الذرية. وفي مقدمة أسباب الحياة المدارس والمصانع، فإن كنت تلدين الأحياء ولا تلدين الحياة فبئس الأمة أنت."⁽²⁾ فالتربية على العلم تقترن بوسائله والمتمثلة مبدئيا في المدارس والمصانع بعد أن توفر العنصر البشري، فالأولى للتعلّم والتنظير، والثانية للعمل والتطبيق، فمناشدة الإبراهيمي الجزائريين إلى توجيه جلّ جهودهم وأمواهم آنذاك إلى ميدان العلم، نابعة من كون أنه لن يتحقق وجود الوطن الجزائري، وتربية أبنائه إلا من خلال دعم الحركة العلمية في الجزائر، مبينا أن ما تزرعه الأمة اليوم من تعليم ستجني ثماره غدا، فلن تنجح التربية العلمية إلا من خلال احتضان الأمة للعلم ودفعها له، ولن تكفل جهود العلماء وإرشاداتهم بالنجاح ما لم تساهم الحاضنة الاجتماعية المتمثلة في الشعب باحتضانهم ودعمهم ماديا ومعنويا.

وإن ركّز الإبراهيمي على الدّعم المادي أكثر نظرا لكشّح الموارد المادية في بناء المدارس وتوفير وسائل التعليم، مقارنة بالدّعم المعنوي حيث كان هذا الأخير متوفرا لدى مختلف العلماء ولدى أبناء الأمة من خلال

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 47.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 222.

رغبتهم في تعليم أبنائهم. إضافة إلى الرغبة الذاتية التي لمسها الإبراهيمي لدى المتعلمين حيث كانت المدارس لا تستطيع تلبية ذلك الكم الهائل من الوافدين والمقبلين عليها. بيّن الإبراهيمي ذلك في قوله: " أيتها الأمة قلنا لك أن العلم هو عمارة الوطن وأساس الوطنية ومنشئ الوطنيين، وأرشدناك إلى أن العمل بالتعلم، وحشناك على تكثير مدارس، وما غششناك في نصيحة ولا دليّناك بغرور ولا استهويناك بخيال، في حين تألّب عليك الغاشون والغازون والمستهوون. لك علينا البناء والتشييد، ولنا عليك العون والتأييد ... أنت الدافعة وأنت القابضة وأنت الصارفة وأنت المتصرفة."⁽¹⁾

كما ينبغي أن ترتبط العلوم بثقافة الشعب وتاريخه وتطلعاته مجسدة فلسفته في الحياة، فعلى المجتمع المسلم أن ترتبط منظومته التربوية بعلومها ومعارفها بثقافته الإسلامية إضافة إلى معارف العصر. غير أن الإبراهيمي يعتبر أن المناهج التي تدرس لدينا لا تعكس مظاهر الثقافة الإسلامية. فإذا كان "المظهر البارز للثقافة الإسلامية هو كتبنا وعلومنا ومناهج الدراسة عندنا وأساليب البحث وطرائق التربية. من الكذب على الله وعلى الحق أن نزعم أن الكتب التي ندرسها والمناهج التي نسلكتها تحقق المعنى العالي للثقافة الإسلامية."⁽²⁾ فالمنظومة التربوية والتعليمية تحتاج إلى إعادة هيكلة وصياغة لمختلف الأساليب والبرامج والمناهج حتى تحقق هذه الغاية، وهذا ما استدعي بناء رؤية جديدة للمدرسة، وهي المدرسة العربية الإسلامية التي أكد عليها الإبراهيمي في أكثر من مناسبة والتي ينبغي أن ترتبط بقيم الشعب وهويته الوطنية والدينية وعلوم العصر ومستجداته.

وما يجسّد الأساس العلمي للتربية في آثار الإبراهيمي رسالته «مرشد المعلمين» مبينا فصولا في التربية العلمية، من خلال تحديده لعدة فصولٍ عمليةٍ للتعليم الابتدائي، عندما طلب منه مجموعة من المعلمين وضع برنامج لهذا التعليم مثلما تم الإشارة إليه في الفصل الثاني من خلال شهادة محمد الغسيري، حيث وضع البشير الإبراهيمي برنامجا حافلا للتعليم العربي وضمنه أصولا عظيمة من علم التربية، وقد كان مخالفا للبرامج المعتادة، مجسدا «معلم مكتوب» من خلال إرشاد المعلم إلى كيفية العمل، لذلك سمي ب: «مرشد المعلمين».⁽³⁾ ويتضح من خلال هذه الشهادة أن هذا الفصل بمثابة تأطير بيداغوجي للمعلمين يسهل عليهم أداء وظيفتهم،

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 222، 223.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 309.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص 108.

مثله مثل تلك التوجيهات والإرشادات لدى مفتشي التعليم وواضعي برامج التربية والتعليم، وهذا ما يمكننا من استنتاج عدّة إرشادات تربوية علمية تتعلق بهذه الرسالة وبآثار الإبراهيمي عامة في العنصر التالي.

1. إرشادات في التحصيل العلمي:

من أهم الإرشادات التربوية والعلمية التي نستقيها من رؤية الإمام الإبراهيمي خصوصا فيما يتعلق بالتربية والتعليم في السنوات الابتدائية وفي كيفية تحصيل العلوم لدى الأطفال وطلبة العلم عامة ما يلي:

صحة الأداء للقراءة و الكتابة: على المتعلم أن يكون ملماً إماما صحيحا بمبادئ القراءة والكتابة، بالحد الذي يضمن له مواصلة التّعلم والمطالعة والكتابة ذاتيا دون أخطاء بحيث يكون: «صحيح التأدية للقراءة، طبع اليد والقلم بالكتابة.»⁽¹⁾ فالتحكم في اللغة قراءةً وكتابةً يساهم في فتح آفاق العلم للمتعلمين، ويسهل عليهم التعلّم إما في المدارس أو ذاتيا اعتمادا على أنفسهم، خصوصا لمن قد ينقطع عن الدّراسة نظرا للظروف التي كان يمرّ بها الجزائريون آنذاك. كما أن التحكم في هذه الآليات في هاته المرحلة من شأنه أن يزيل مختلف الصعوبات التي نشاهدها عند تلامذتنا اليوم في تعلّمهم للقراءة والكتابة.

تحصيل مبادئ الدّين الإسلامي: إضافة إلى التحكم الصحيح لمبادئ القراءة والكتابة، يؤكد الإبراهيمي على ضرورة التحصيل الجيّد لمبادئ الدّين الإسلامي علما وتعلّما. فيُحصّل المتعلم المعارف الأولية عن الدّين الإسلامي من أحكام العبادات والمعاملات علما وعملا. إذ لا يكفي تعلمها كمبادئ نظرية فقط، بل ينبغي ممارستها عمليا فتترجم في سلوكات المتعلمين. وما يدخل ضمن تحصيل مبادئ الدّين الإسلامي يجملها قوله: "محصلا لمبادئ الدّين الإسلامي علما وعملا، ولمبادئ التاريخ الإسلامي الذي يعدّ جزءا من الدّين، وأول تلك المبادئ، السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين، وذوي الآثار الخالدة في الإسلام من الصحابة والتابعين. ويحفظ في هذه المراحل أجزاء من القرآن حفظا متقنا مع فهم المفردات الغريبة وخلاصة المعنى، ومبادئ التجويد دراية بكيفية تّوهله للتوسع في هذه المواد وبلوغ الدرجات العليا فيها إن لم ينقطع عن التعليم."⁽²⁾ وما يدخل ضمن مبادئ تعلم الدّين بناء على ذلك ما يلي:

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 109.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 109.

- تعلم السيرة النبوية الشريفة: بهدف الاقتداء بسيرة -الرسول عليه الصلاة والسلام- فيكون نعم المعلم والمرشد والمؤدّب للمتعلمين، ما يضمن ارتباطهم بدينهم وتعاليمه والصبر على ذلك.
- الإمام بسيرة الصحابة والتابعين: يؤكد الإبراهيمي على ضرورة تحصيل سير الصحابة والتابعين حتى يدرك المتعلمون أمجاد ماضيهم ورجاله، فيدخل ذلك ضمن مبادئ التاريخ الإسلامي، حتى لا يتغنى المتعلمون بأمجاد الآخرين على حساب أمجاد شخصياتهم التاريخية والوطنية، إضافة إلى تنمية الاعتزاز والثقة بالنفس حتى ينشأ المتعلمون عليها.
- حفظ أجزاء من القرآن الكريم حفظاً صحيحاً متقناً، وينبغي أن يرتبط ذلك بفهم مفرداته الواضحة والغريبة منها، مع تكوين معنى لها. وأن يرتبط الحفظ أيضاً بمبادئ التجويد والتلاوة.

إن تعلم هذه المبادئ يمكن المتعلم من التوسع المعرفي وبلوغ أعلى المراتب وتحصيل أعلى الدرجات إن واصل تعليمه، ما يضمن تكوينه تكويناً علمياً وتربوياً تاماً. أما إن انقطع عن التعليم فإنه يستطيع من خلال هاته المبادئ أن يكون نفسه بنفسه لأنه يتحكم في مختلف المبادئ الأولية الضرورية للعلم وأهمهما: القراءة والفهم الصحيحين، لأن المتعلم ينبغي أن يقرأ قراءة صحيحة، ويفهم فهماً صحيحاً.

توحيد المناهج والبرامج: بهدف تربية الأجيال على مقومات الشخصية الوطنية وعدم التنكر لها، إذ لا بد أن تتوحد مناهج التربية في برامجها بين المتعلمين. "فالغاية من توحيد البرامج هي توحيد التعليم والتربية حتى ينشأ هذا الجيل مطبوعاً بطابع واحد في لسانه وبيانه وقلمه، وفي تفكيره ومشربه، وفي آرائه في الحياة ونظراته إليها وأحكامه عليها." (1) فتلك الاختلافات والصراعات لا ترجع إلى قلة المعلومات أو كثرتها بقدر ما ترجع إلى اختلاف أصل التعليم والتربية وعدم توحيد مناهجهما. فاختلاف التربية في الأمة الواحدة وفي ظروف كظروف الأمة الجزائرية آنذاك يؤدي إلى تشتت الأجيال بدل توحيد أفكارهم وتصحيح اتجاههم إلى العلم ونظرتهم الحياة. ويحيلنا الإبراهيمي إلى قاعدة تكتب بماء من ذهب في تسطير المناهج التربوية والعلمية في قوله:

«خير المناهج لأمة كأمنا في ظرف كظروفنا ما خرج سالكه بفكر صحيح وإن لم يخرج بعلم كثير»

إن بناء أي منظور تربوي وفقاً لرؤية الإبراهيمي لا بد أن تكون قاعدته نابعة من طبيعة المجتمع والأمة، من خلال ارتباط المناهج التربوية والتعليمية بالأمة، ومعناه ارتباطها بمقوماتها الدينية والتاريخية ومختلف خصائصها التي تميزها، أو بالأحرى الارتباط بالفلسفة التي تتبعها الأمة أو المجتمع في حياته. واستثمار ذلك في

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 111.

بنائها ما يضمن عدم الخروج عن الغاية التي تسطرّها الأمة من تربيتها. إضافة إلى ذلك ينبغي مراعاة الظروف والمتغيرات التي يمرّ بها المجتمع، ففي رهن الإبراهيمي أين كانت الجزائر في صراع مع المستعمر، ارتبطت المناهج التربوية بذلك الصّراع من خلال بناء أجيال تتشبّث بمقوماتها الوطنية لكي تنتصر لقضيتها. فالمهم وفق نظرة الإبراهيمي في بناء المناهج ليس كثرة المعلومات والمعارف التي يخرج بها المتعلم بقدر ما يهم بناء الفكر السليم والفهم الصحيح، ما يمكن المتعلم من بناء ذاته بذاته، كما يضمن ولاءه لدينه ووطنه وقضيته.

لا تقتصر التوجيهات التربوية للإبراهيمي في رسالته مرشد المعلمين فحسب بل تضمها مختلف آثاره، كما أنّها تتضمن أبعاداً أخرى نفسية وعقلية. إضافة إلى ما تم ذكره يحدد الإبراهيمي الكيفية التي من خلالها يتم تحصيل العلم مُستتبعا في ذلك تربيته العلمية. مع مجموعة من الإرشادات و التوجيهات العلمية للطلبة تحدد كيفية طلب العلم، وأهم تلك الإرشادات يتمثل فيما يلي:

الانقطاع لطلب العلم: يوجّه الإبراهيمي الطلبة إلى ضرورة الانقطاع للعلم بمعنى جعله أعلى ما يسعى إليه المتعلمون، فهو الغاية الأولى من جهودهم، وينبغي عدم الانشغال بما يعيق تحصيل العلم، مبيّنا ذلك في قوله: "إنكم لا تضطلعون بهذه الواجبات إلا إذا انقطعتم لطلب العلم، وتبتلتم إليه تبتيلاً، وأنفقتم الدقائق والساعات في تحصيله، وعكفتهم على أخذه من أفواه الرجال وبطون الكتب، واستترتم كنوزه بالبحث والمطالعة، وكثرة المناظرة والمراجعة، ووصلتم في طلبه سواد الليل ببياض النهار."⁽¹⁾ وتمثل هذه الصفة «الانقطاع للعلم» خاصيةً لازمة للمسلمين في طلبهم للعلم حيث يؤكدون في تربيتهم العلمية على ضرورة ارتباط المتعلم بالمعلم، فما يقدّمه المعلم قد لا يقدّمه ويتضمنه الكتاب، فقد عني المسلمون بتلقّي العلم عن المدرسين عناية ملحوظة، وكرهوا كراهة شديدة أن يتلقّى الطالب العلم عن الكتاب وحده.

وقد أورد أحمد شلبي* في موسوعته عن الحضارة الإسلامية بعض الأقوال التي تؤكّد على ذلك، فكان بعضهم يقول: "من أعظم البلية تشييح الصحيفة، أن يتعلم الناس من الصحف. كما ورد في كتاب (الشكوى) «من لا شيخ له فلا دين له، ومن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان." وروي عن مصعب بن الزبير أنه قال: أن

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 202.

* - أحمد شلبي: أحمد جاب الله شلبي مؤرخ مصري، صاحب كتاب موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ولد عام 1915 بإحدى قرى محافظة الشرقية (مصر)، حفظ القرآن والتحق بمعاهد الأزهر، وتخرّج 1945 بدار العلوم القاهرة، تحصل على الماجستير من جامعة لندن، والدكتوراه من جامعة كامبردج، درّس بعدة جامعات بمصر، أندونيسيا،... الخ. من أهم مؤلفاته: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية في 10 أجزاء، موسوعة النظم والحضارة الإسلامية (10 أجزاء) وله عدّة دراسات: تاريخ التعليم الإسلامي، الحكومة والدولة في الإسلام... الخ.

الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويكتبون أحسن ما يسمعون، فإذا أخذت الأدب فخذ من أفواه الرجال، فإنك حينئذ لا تسمع إلا مختاراً ولؤلؤاً منثوراً. وروي عن الإمام الشافعي قوله: من تفقه في بطون الكتب ضيع الأحكام، وجاء في رسائل إخوان الصفا ما يلي: ليس في وسع أي إنسان معرفة العلوم وحده ومن أجل هذا يحتاج كل إنسان إلى معلم أو مؤدب أو أستاذ في تعلمه وتحلقه وأقوابله واعتقاده وأعماله وصنائه. " (1) وفي كتاب: «تعليم المتعلم طرق التعلم» ل: برهان الدين الزرنوجي أكد أنه في التعلّم والتفقه لا بدّ من جدّ ثلاثة: المتعلم والأستاذ والأب. وأن طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله، ومن تعظيم العلم تعظيم الأستاذ وتوقيره. (2) فيكون الانقطاع في طلب العلم من خلال:

- الاعتكاف على تحصيل العلم والمداومة عليه، والإعراض عن كل ما يشغل عنه أو يعيق طلبه.
 - مصاحبة العلماء والأخذ من تجاربهم وسيرهم، فالمعلم يقدّم ما لا يقدمه الكتاب.
 - تعظيم العلم وأهله، فعلى المتعلم توقير معلّميه وتوقير رجال العلم.
 - الإقبال على المطالعة والنهل من الكتب. مع ضرورة إرشاد المتعلمين إلى الكتب التي يطالعونها حتى لا يتوجهون إلى ما لا يفيدهم منها. إضافة إلى تكوين فكرة المكتبة والمطالعة للأطفال منذ صغرهم. "لأن التجارب انتهت بي إلى أنه ما أفسد العلم ورجاله إلا الكتب الفاسدة. وبما أن الحرص على استقامة الإنسان يبدأ بتقويم الطفل، ولا يستقيم الطفل إلا إذا غرس عقله في «مكتبة الأطفال» وقد تكون هذه التغييرات نافرة أو متنافرة." (3)
- كما ترتبط التربية والتعليم في هذا السياق بتوجيه المتعلم إلى ما يفيد من العلوم، كما يوجّه إلى المفيد من الكتب، إذ "لا يرى العلم علماً حتى يكون مفيداً، ولا يرى الرأى رأياً حتى يكون سديداً ولا يرى الكتاب وسيلة للتعلّم حتى يظهر عليه أثر العقل المستقل ويلوح عليه بئسّم الفكر الولود وينفض عليه صبغ القريحة الحيّة." (4) فتظهر إفادة الكتاب من خلال اتساع فكر المتعلم ونقاء عقله من خلال المعارف التي يقدمها له، مما يزيد في نباهته وإنتاجه.

(1) - أحمد شلبي، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي جوانب التاريخ والنظم والفلسفة - موسوعة الحضارة الإسلامية ج5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8، 1987، ص211، 212.

(2) - برهان الإسلام الزرنوجي، تعليم المتعلم طرق التعلم، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، السودان، ط1، 2004، ص25.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص203، 204.

(4) - المصدر نفسه، ج4، ص224.

■ المناظرة والمراجعة لأنهما كفيلتان بترسيخ العلم من جهة وتصحيح وتوسيع المعارف من جهة أخرى. والإقبال على مطالعة الكتب التي هي بمثابة مصاحبة أفضل العقول عبر التاريخ. وعدم الاكتفاء بالمقررات الدراسية، ويؤكد الإبراهيمي على ضرورة الإقبال على الكتب المفيدة التي لا تشوش الفهم، وتفادي الصعبة منها التي لا تُفهم، وتتجاوز قدرات إدراك المتعلم. إذ يقول: "لا تقنعوا بالكتاب المقرر، و اقرؤوا غيره من الكتب السهلة المبسطة في ذلك العلم، تستحكم الملكة ويتسع الإدراك... فوطّنوا أنفسكم على ذلك من الآن، وروّضوها على اختيار النافع المفيد من الكتب."⁽¹⁾ ويظهر دور المراجعة في ترسيخ المعارف، وتثبيت العلوم لدى الطلبة من جهة، واكتشاف أفكار جديدة، وتحقيق فهم أوسع من خلال مُذاكرتها، معتبرا أن المراجعة والمذاكرة بمثابة لقاح العلم. مرشدا الطلبة: "لا تعتمدوا على حلق الدروس وحدها، واعتمدوا معها على حلق المذاكرة، إن المذاكرة لقاح العلم، فاشغلوا أوقاتكم حين تخرجون من الدرس بالمذاكرة في ذلك الدرس، إنكم إن تفعلوا تفتح لكم أبواب من العلم، وتلخ لكم آفاق واسعة من الفهم."⁽²⁾ مع الإشارة إلى أن المذاكرة لا تعني المراجعة فقط، إنما تدل على المحاور والمناقشة والتداول وإعادة فهم الدرس لذلك أكد الإبراهيمي عليها.

تخصيص فسحة للاسترجاع الفكري و النفسي: من المعروف أن طالب العلم يحتاج إلى إعادة شحن طاقاته من جديد، وبذلك فلا بدّ له من فسحة فكرية أو نشاط بدني يستعيد من خلاله نشاطه ويجدّد به طاقته. فالإبراهيمي يأخذ ذلك بعين الاعتبار فاتحا المجال للنشاط البدني، والترويح عن النفس لبعث النشاط من جديد لدى الطلبة في طلبهم للعلم. إضافة إلى ضرورة الاتصال بالحياة اليومية ومواكبتها ومعرفة ما ميّزها من تغيّرات ومستجدات، فلا يبقى الطالب في عزلة عن واقعه المعيش. موجهها إياهم قائلا: "لا تقطعوا الفاضل من أوقاتكم في ذرع الأزقة إلا بمقدار ما تستعيدون به النشاط البدني، ولا الجلوس في المقاهي إلا بقدر ما تدفون به الملل والركود، ولا في قراءة الجرائد، إلا بقدر ما تطلعون به على الحوادث الكبرى، وتصلون به مجاري التاريخ."⁽³⁾ غير أن ذلك المتنافس يكون بمقدار معين لا أن يكون على حساب العلم، بل مجرد فاصل لإزالة ما

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 203.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 203.

(3) - المصدر نفسه، ج3، ص 203.

يلحق من تعب فقط. فتأكيد الإبراهيمي على هذا الجانب ينم عن وعي بضرورة التركيز على العامل النفسي في التربية على العلم، وبضرورة الارتباط بالواقع وأحداثه لا الانعزال في طلب العلم والتجرد من الواقع.

الإيمان بأن منطلق النهضة وأساس الحياة العلم: قد لا يفيد الانقطاع للعلم إلا من خلال الإيمان الجازم برسالته وبأهميته في الحياة فهو أساس أي نهضة، ولا يمكن أن تتحقق حرية الشعوب إلا من خلاله، فبعد ترسيخ أهمية العلم ودوره لدى الطلبة من خلال إيمانهم به يأتي الانقطاع للعلم وتحمل كل المشاق المترتبة عن السعي في تحصيله، إذ يجب على طلبة العلم أمران: إقبال على العلم يصحبه إيمان بضرورته وتحمل لمتاعبه، وانقطاع إليه يصحبه اعتقاد جازم بشرفه وأنه نور الحياة وأساس الوطنية ورائد الحرية. فمن لم يكن من الطلبة على هذه الصفات فليزِم داره، وليقطع في الأمان ليله وفي الغرور نهاره. وعلى جمعية العلماء الرأي والتنظيم، والتربية والتعليم.⁽¹⁾

منوها الإبراهيمي إلى دور جمعية العلماء المسلمين في التخطيط التربوي العلمي، من خلال دورها في الرأي والتنظيم، فهي تسعى للعلم وتربية الأمة، فتهتج بكل الجهود التي تبذلها الأمة في سبيل العلم لإدراكها أنها ستجني مستقبلا ثمرات ما تزرعه اليوم، إضافة إلى دور الأمة في دعمها المادي والمالي في سبيل تجسيد مختلف المشاريع التربوية من مدارس ومعاهد. فما تأخير المشاريع العلمية إلا إطالة لمرض الجهل وتأخير لشفاء الأمة، والتعجيل به تعجيل لشفائها وإنقاص من المرض ومدته، فكل عامل للعلم يسعى في تعليم الأمة يعتقد أن العلم وحده هو سلاح الحياة وسبيل النجاة، ولا ينبغي الاتجار بالعلم والتزوير على الأمة باسمه.⁽²⁾ إذ يرفض الإبراهيمي مختلف الممارسات التي قد تُتاجر بالعلم بهدف تحقيق مآرب شخصية مستغلة الأمة، كما يظهر في بعض الممارسات السياسية أين يوظف الدين أو الوعود بالتربية والتعليم وبناء المدارس بهدف تحقيق مصالح ذاتية كنبيل مناصب حكومية ومقاعد برلمانية لا غير.

في التأكيد على أهمية العلم يبين الإبراهيمي أن مختلف الأشياء معرضة لقانون انتهاء الصلاحية أو قد يتم الاستغناء عنها، غير أن ذلك لا يصدق على العلوم لأنها دائما في تجدد ما يؤكد على ضرورة مواكبتها. فإن كانت " الأشياء كلها في هذا الوجود تروج وتكسد، وتصلح وتفسد، وتقبح وتحسن إلا القلم، فإن سوقه دوما في رواج، ولا يصح في الأذهان أن يأتي يوم تستغني فيه الأمم عن القلم، إلا إذا صحّ في تلك الأذهان أن

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 198.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 198.

يأتي يوم تقلب فيه الحقائق ويخرج فيه الكون من تدبير الله إلى تدبير الشيطان، والإنسان من تدبير العقل إلى تدبير البطن... القوة اليوم بالأقلام، وبالجواري المنشآت في البحر كالأعلام، فإذا فاتتكم القوة الثانية فلا تفوتنكم القوة الأولى... إن كريمة كرائم الشعوب هي القلم المحرّر، واللسان المعبر، والعقل المدبّر، فإذا ضاعت هذه فالوجود هو العدم.⁽¹⁾ فعصر اليوم تحكمه قوة العلم والمعرفة ولا يمكن أن تتحرر الشعوب روحياً ومادياً إلا من خلال السعي للعلم وطلبه. وإعراضها عن العلم إعراض عن الحياة وسبب لفنائها، أو بتعبير الإبراهيمي يصبح وجودها عدماً. فالإعراض عن العلم وتغييبه هو العدمية في عصر القوة فيه للعلم بمنظور الإبراهيمي.

يوظف الإبراهيمي نماذج حية في التربية والتكوين العلمي لبعض العلماء الجزائريين، مستشهداً بتكوين «الشيخ مبارك الميلي» فإن اختلفت الأسباب في التكوين والتعلم بين القائلين أنها ترجع إلى المواهب والحظوظ، وبين المسدّدين المقارنين الذي يرجعونها إلى استعداد فطري يعين على الدرس وقوة القراءة، بينما الباحث المعلّل لأسباب ذلك يتبين له أنه نتيجة لأسباب مترتبة في نفس طالب العلم: الاستعداد للعلم والإيمان به، والاعتقاد بشرفه ومنزلته والاجتهاد في تلقيه والانقطاع لتحصيله والإخلاص في ذلك، فتصرف المهمة كلّها إلى الاستزادة بالمطالعة والقراءة. فمعظم الأسباب لطلب العلم كسببية إن قلّ منها طالب العلم قلّ، وأن أكثر منها عظم. فالطلبة يتفاوتون في شيئين: (الاستعداد وبعد المهمة) فهناك من الطلبة من قوي استعداده وأسباب العلم لكنّه بارد المهمة ضعيف الإرادة.⁽²⁾ وهذا ما تفتقده الأجيال الحاضرة الذين أهدتهم الملهيات عن تحصيل العلم، فالنظر في سير الكاملين ذكرى للمقصرين والخاملين بتعبيره. بل وقد أصبح العلم لدى بعضهم من الكماليات إذ قلّ ذلك الشغف في طلبه، خصوصاً مع توجه الأغلبية العظمى نحو منتجات الحضارة التقنية من آلات ووسائل تقنية، فأصبح التسابق في اكتسابها لا في اكتساب المعارف لدى المتعلمين، إضافة إلى التوجه نحو المعلومة الجاهزة دون عناء البحث عنها، غير أن ذلك العناء والجهد في حقيقته هو لذّة البحث والمعرفة عند التتويج.

كما لا يُغفل الإبراهيمي ضمن هذا السياق ضرورة تتبع المسار التعليمي وحالة المعلمين المعنوية والمادية، لأنّ لهما حيزاً كبيراً ودعماً في عطائهم المعرفي. يتضح ذلك من خلال رسالته إلى المشايخ المعلمين المتضمنة لبعض قرارات العمل على ضبط البرامج، وترتيب درجات المعلمين من خلال مراعاة الكفاءة والأقدمية، مع العمل على التكفل المادي بمختلف النقائص من سكن و أجور، والتنبيه من افتتان بعض المعلمين بالنزعات

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 208.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 184، 185.

الحزبية.⁽¹⁾ فإن عدم انشغال المعلمين بالجانب المادي يجعل لجلّ جهودهم منصباً نحو التربية والتعليم ممّا يزيدهم إنتاجية ونشاطا واهتماما بالطلبة واستزادة علمية ومعرفية، أما إن كانوا على النقيض فسينصبّ جلّ اهتمامهم على توفير الجانب المادي وينحصر في توفير متطلبات الحياة الاجتماعية.

وبهدف تطوير الحركة العلمية في الجزائر فإن جلّ الإصلاحات التي مسّت التربية والتعليم تصبّ في هذا السياق. ومنه كان سعي الإبراهيمي وطموحه متوجّها إلى تجسيد جامعة جزائرية وعدم الاكتفاء بالمعاهد والمدارس فقط، لذلك عمل على جعل معهد ابن باديس كُليةً، وقد اقترح أن يضع برنامجا جامعا لدروس الكلية وكتبها ودرجاتها ومناهج التربية فيها وطرائق التعليم العالي مع الإمام عبد الحميد بن باديس، وقد قال له ابن باديس مبرزا أهمية البرنامج في التعلّم: «إن البرنامج يذكّي النشاط ويغري الهمم بالعمل» فوضع الإبراهيمي برنامجا حافلا بالتدقيقات الفنية في التربية والاعتبارات العملية في التعليم، والكتب القيّمة للدراسة، ومعه تخطيط للكلية ومرافقتها.⁽²⁾ وقد تجسّد هذا التخطيط في مدارس جمعية العلماء ومعهد ابن باديس، الذي يعتبره الإبراهيمي بمثابة الكلية حيث كانت دروسه مشابحة لما يدرسه الطلبة في الزيتونة فلا تشبه عليهم المسالك ولا يضل بهم الدليل. مع العمل على توحيد المناهج والكتب والبرامج والإشراف والإدارة، والتدعيم بما تتطلبه علوم الحياة.⁽³⁾

ويرتبط التأسيس العلمي للتربية عند الإبراهيمي ويقترن بعدة عناصر تتمثل في تربية الأجيال على نهل المعارف والعلوم، وتبيان دورها في تطوير المجتمع، وأهم ما يدرج ضمن هذا التأسيس التأكيد على علاقة الأخلاق بالعلم إضافة إلى التأكيد على قيمة العلوم الإنسانية والتطبيقية لا الاقتصار على العلوم الدينية فقط، وإن كانت العلوم الدّينية تمثل الأساس الذي يعدّ عليه الفرد المسلم وتتحدد من خلاله نظرتة إلى الوجود ودوره فيه، فإنه لا يمكن إهمال العلوم المتعلقة بالحياة والتي كان إهمالها سببا من أسباب التأخر والانحطاط أيضا. فتركيز الإبراهيمي على العلوم في التربية من منطلق نظرة متكاملة تحاول الجمع بين العلوم الدينية والدّنيوية مع أسبقية العلوم الدّينية نظرا لوظيفتها في بناء الإنسان.

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 244

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 196.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص 196، 197.

2. ارتباط العلم بالأخلاق:

يرتبط الأساس العلمي بالأسس السابقة وبالعديد من العناصر المكمل له، إذ لا تتحقق الغاية من طلب العلوم إلا بها. حيث يؤكد الإبراهيمي أن الدعوة إلى العلوم وتحصيلها لا يتم إلا من خلال ربطها بالأخلاق. فهذه الأخيرة ترشد العالم وتوجهه في علمه، كما تحمي المتعلمين من أي انحراف في مسارهم العلمي، إضافة إلى ذلك فإنها تضمن ربط العلوم وتوظيفها لخير الإنسانية، فتكون سبيلا للبناء والنهضة لا وبالاعلى صاحبها إذا وظفها في غير محلها. لأن "الأخلاق هي التي تكوّن الضمير الحي في الإنسان، فتوجه سلوكه نحو غايات سامية، وتحول دونه ودون الانسياق إلى أهوائه وشهواته على حساب واجبه، وعلى أساس أن العلم إذا تجرد من الأخلاق أصبح سلاحا خطيرا في يد صاحبه تتحكم فيه النزوات وتسخره المصالح الشخصية، فلا يترتب عنه إلا الفساد والموبقات.⁽¹⁾ فالعالم اللامتخلك قد يكون أخطر من الجاهل إذا تجرد علمه من الأخلاق، فقد يكون سببا في إيذاء غيره، لأن علمه موجه من خلال رغبات ومصالح. فقد يوظف منتجاته في تحقيق مآرب ومصالح ذاتية أو توظف من أطراف أخرى لتشارك المصلحة، إن لم تكن تلك المنتجات في أصلها فاسدة. مقارنة بالجاهل الذي غالبا ما تعود عواقب جهله على نفسه. لذلك ينوّه الإبراهيمي ويحرص على ضرورة ملازمة الأخلاق للعلم خصوصا لدى طلبة العلم بداية من مراحلهم الأولى بلوغا إلى مراحلهم المتقدمة، ويخص بالذكر البعثات الطلابية العلمية خارج الوطن. فتوجيه الأخلاق للسلوك الإنساني توجيه للعلم الناتج عن الإنسان. لذلك يمكن اعتبارها بمثابة الضمير الذي ينبغي أن يصاحب طالب العلم في شتى مراحل ومجالاته.

يؤكد الإبراهيمي على ضرورة ارتباط العلم بالأخلاق نظريا وعمليا، ويبرز ذلك من خلال الممارسات التربوية الإبراهيمية، ففي اختيار الطلبة الذين يشكلون البعثات العلمية إلى الخارج، يتضح أن اختيارهم يرجع إلى عدة اعتبارات ومقاسات، تتمثل الاعتبارات الأولى في: الدين و الأخلاق والسلوك الاجتماعي، وتأتي بعدها مقاييس متعلقة بالذكاء والتحصيل العلمي، نظرا لرجوع العديد من الطلبة بعقول مريضة وأخلاق شاذة باتين إياها لدى الطلبة والأجيال الأخرى. إضافة إلى ذلك وجود لجان علمية تربوية وظيفتها تتبّع وتعاهد الطلبة وإرشادهم ومراقبتهم، فأعضاء هذه اللجان بمثابة أساتذتهم الحقيقيين، يرجع إليهم أمر التدبّر والتخلّق وحسن السلوك.⁽²⁾ فالتأكيد على التربية الدينية والأخلاقية قبل نهل العلوم كفيل بضمان عدم تأثر الطلبة

(1) - محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 422.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص331، 332، 333.

بمنتجات الحضارة الغربية، خصوصاً المادية منها تفادياً لطغيان سلبياتها عليهم. ولكي يتبين لهم الغرض الأسمى من طلب العلم فيوظفونه فيما يعود بالمنفعة عليهم وعلى الوطن والمجتمع، لا أن يكون وبالاً على أخلاقياتهم وسلوكياتهم، كما يضمن ذلك ضمان عدم التنكر لمقوماتهم الوطنية ولغايتهم من هجرتهم العلمية.

في السياق ذاته أكد الإبراهيمي على ضرورة تحلّي المعلمين بالأخلاق الفاضلة، إذ لا يقتصر ذلك على المتعلمين فقط، خصوصاً في تأكيده على أهمية التعليم بالقُدوة، إذ يشكّل المعلم صورةً وأُموذجاً يحتذى به من طرف المتعلمين. فمن "تصب نفسه إماماً للناس في الدين أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والرأي واللفظ، فإن تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه، ومعلّم نفسه ومؤدبها أحقّ بالإجلال والتفضيل من معلّم الناس ومؤدبهم."⁽¹⁾ فبعد تحقّق الشرط الأخلاقي لدى المعلمين وما صاحبه من شروط أخرى، يتوجه الإبراهيمي مخاطباً إياهم بضرورة تربية الفضائل لدى المتعلمين وتقديمها على العلم. في قوله: "رتّبهم على الفضائل - وأكرر القول وأعيده - وقدّموها على العلم. إن الأخلاق العالية هي الأصل، وإن العلم لا يغني عنها، ولا يأتي بها، وكم رأينا من عالم يعظ الناس وينهاهم عن المنكر ثم يخالفهم إلى ما نهاهم عنه، وكم رأينا من طبيب بيّن مضار الخمر للناس وهو يعاقرها."⁽²⁾ فلن يجديهم التعليم نفعاً ما لم تكن الأخلاق حارساً لعلومهم وأنفسهم.

مؤكّداً الإبراهيمي على ضرورة الاعتناء بالموضوعات المتصلة بالجانب الإيماني وبتنمية الفضائل في المحتوى التعليمي، بل وتقديمها على الموضوعات العلمية، وهذا ما يتفق مع الغاية التي تسعى إليها التربية الإسلامية، في استهدافها بناء الإنسان العابد المتمثل لتعاليم دينه، فاستلزم ذلك توجيه المهمة نحو الدين والفضائل الأخلاقية كونها العاصم للإنسان من الزلل والزيغ.⁽³⁾ فعلى العالم وطالب العلم على حدّ سواء أن لا يغترّ بعلمه، لأن من آفات العلم اغترار صاحبه به حتى تسوّل له نفسه أن ما حصله من علوم كافٍ لوقايته من مختلف الأضرار، إذ تبّه الإبراهيمي في خلاصة تفسير المعوذتين (سورتي الفلق والناس) من درس الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي ختم به تفسير القرآن أن في العلم والحكمة مسألة وهي أن العالم: "مهتما امتدّ في

(1) - أحمد شلبي، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، ص 260.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 115.

(3) - محمد جبر السيد عبد الله جميل، الفكر التربوي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ص 18، 19.

العلم باعه واشتدّ بالحكمة اضطلاعاً، فإنه لا يستغني عن الله ولا بدّ له من الالتجاء إليه والاعتصام به، يستدفع به شرّ الأشرار وحسد الحاسدين، وكفى بهذه التربية قامعا للغرور.⁽¹⁾

3. التأكيد على دور العلوم التطبيقية والتجريبية.

إنّ لكل فرع علمي دوره في حياة البشرية، وقد تعتلي بعض العلوم أولوية على أخرى حسب الحاجة التي يفرضها الواقع أو المجتمع. فمن خلال التأسيس العلمي للتربية يدعو الإبراهيمي توجيه المتعلمين إلى العلوم التي تفيد في الحياة، ويقصد بها العلوم التطبيقية والتجريبية، نظراً لحاجة الجزائريين لتلك العلوم في ظرفهم آنذاك ولحاجتهم الاقتصادية، لذلك كان يشجّع الطلبة على الإقبال على هاته التخصصات. لكن لا يعني ذلك إهمال دور العلوم الدّينية والإنسانية فهو يؤكد على قيمتها أيضاً. ويتمثل منطلق أي علم في الإقبال على التعلّم بداية من السنوات الأولى بتعلم الحروف فلا يمكن التقليل من شأن أي علم، ويُرجع الإبراهيمي تطور الأمم في جوانب معينة من خلال تركيزها على العلوم التطبيقية. "إنّ الأمم الحيّة في وقتنا ما حييت إلا بالعلم الاختباري التطبيقي، وأساس هذا العلم - وإن علا- القراءة والكتابة. ولما انتهى العلماء منهم إلى أبعاد غاية في العلم وتسّموا منه أعلى ذروة، التفتوا يتبينون الطريق التي وصلوا منها إلى هذه الغايات البعيدة، فرأوا أن مفتاح الباب الذي منه دخلوا ومبدأ الطريق الذي منه ساروا هو «ألفبا» (يقصد بداية التعلّم بالحروف الأبجدية) وأن أول منعم عليهم بهذه النعم الجليلة هو أول من علّمهم هذه الحروف الضئيلة. لذلك نرى من آثارهم وأخبارهم نشر العلم ومحاربة الجهل ما يفوق الوصف."⁽²⁾ ويتأكد من خلال قول الإبراهيمي ضرورة التركيز الكبير على تعليم المتعلمين وتربيتهم في المراحل الأولى بداية من تعلّم الحروف في السّنات الابتدائية، مستشفاً رؤيته هاته من التركيز الكبير لعلماء الأمم المتطورة أو الحية بمفهومه على تعليم وتربية هاته الفئات بعد ما بلغوه من تطور علمي. فالمنهج المتبع ومفتاح بلوغ تلك الغايات هو بداية التعلّم، ومحاربة الأمية والجهل.

يصرّح الإبراهيمي في أكثر من مناسبة بضرورة العلوم التطبيقية داعياً الطلبة إلى الإقبال على هاته العلوم: "ندعو إلى العلم التطبيقي العملي ونأخذ به أنفسنا قبل كل أحد، وأن تطبيق الجزئيات على الكليات ليس من الاجتهاد في شيء، وإنما هو روح العلم ولا علم بدونه."⁽³⁾ مشيراً إلى أن الانتقال من الجزئيات إلى الكليات

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 347.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 203، 204.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 148.

من روح العلم. وفي هذا إشارة إلى الاستقرار في انتقاله من الجزء إلى الكل، واستخلاص النتائج العامة من التجارب الجزئية. وفيه إشارة ضمنية إلى مختلف العلوم القائمة على التجريب. إذ يعتبر أن الأعمال والعلوم القائمة على الأساس التجريبي هي من أنفع العلوم التي تعود بالمنفعة على الإنسان، وهذا ما تؤكدته نتائج العلوم التجريبية من حيث ما قدمته للإنسان من حلول عملية بيّنت ارتباطها بالواقع وحلّ مشكلاته، إضافة إلى المقدار الذي يميّزها من الصحة والدقة. إذ يعتبر الإبراهيمي أن: "أقرب الأعمال إلى التمام والنفعة والإثمار ما بني منها على التجربة الاستقرائية الممحصة."⁽¹⁾ ومن المعروف أن العلم الحديث قام على أساس المنهج التجريبي الذي كان منطلقاً للعلوم العصرية. فالتجريب من هذا المنطلق أصبح سمة ملازمة للبحوث لدى الأمم المتقدمة، واصفاً الإبراهيمي موقعه لديها بمثابة العادة الملازمة للبحوث والدراسات فإذا "تمت التجربة صارت عادة عند العقلاء وغريزة فيمن سواهم."⁽²⁾

ففي برقية للطلبة الزيتونيين أكد الشيخ الإبراهيمي على ضرورة وأهمية العلوم العصرية وتجاوزها للعديد من الأفكار القديمة التي أثبتت عدم صحتها أو أصبحت مجرد عادات غير صالحة بتعبيره: "إن العصر عصر الأجدد الأنفع من النظم والعلوم، لا عصر الجمود على العادات الموروثة، وإن تباطؤ الحكومة في تنفيذ مثل هذه الرغائب معناه ربط الشعوب بقديم من تلك العادات أثبت الزمان عدم صلاحيته ووقوفه في طريق التطور وقد كانت هي من النابذين له."⁽³⁾ فما الإعراض عن هاته العلوم إلا تعبير عن خلل عقلي أو تقليد أعمى يُعيق مسار تحقيق النهضة والتطور. لذلك كان من غايات المعهد الباديسي تكوين أبناء الأمة من التلاميذ في مختلف التخصصات العلمية والعمل على تهيئتهم لكي يصبحوا قادة حركاتها، مسيرين لنهضاتها في جميع الميادين الحيوية، حتى يضمن تخرج البعثات العلمية والصناعية من صفوفهم، ويضمن تخرّج الوعاظ والمرشدين والخطباء والكتاب.⁽⁴⁾ فالمعهد لا يهدف إلى تكوين في مجال الدين أو الآداب فقط، إنما مختلف الميادين الحيوية في الحياة بالإقبال على مختلف التخصصات العلمية والتقنية والصناعية.

إن دعوة الإبراهيمي إلى العلم التطبيقي لم تكن نظرة نابعة من فضول ذاتي أو تقليداً كلياً للآخر المتطور في العلوم التطبيقية. بل كانت الحاجة ملحة إلى مثل هكذا تخصصات، إذ أن أغلب المتخرجين من الطلبة

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 209.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 47.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص 346.

(4) - المصدر نفسه، ج2، ص 446.

الجزائريين كانوا ضمن تخصص العلوم الإسلامية والآداب العربية. فإن كان معهد ابن باديس لا يختلف عن برامج الزيتونة في أصله، فإنه يزيد عليها بفائدة محققة أو راجحة، مع نية التوسع في مبادئ علوم الحياة وتوجيه النوابع فيها إلى استكمال معلومتهم في معاهد غير الزيتونة، بنفقة المعهد وإشرافه ليأخذوا من العلوم التطبيقية بنصيب فينفعوا الأمة وتنتفع بهم. وقد عمل الإبراهيمي على استدعاء " ما يمكن استدعاؤه من أبناء الجزائر المغتربين في طلب العلم، الناهلين من ينابيعه الصافية المحصلين على أعلى درجاته علما وشهادة، لينفخوا في المعهد من أرواحهم القوية ويثثوا فيه نشاطا أقوى من نشاطنا ونظاما أكمل من نظامنا. هذا وإن الشرط الأساسي لنجاح المعهد وسيره من كامل إلى أكمل هو استقلاله في إدارته ونظامه وماله." (1) لذلك كانت إدارة المعهد تحت إشراف وتسيير مديره ومستشاريه من العلماء المشايخ.

يؤكد الإبراهيمي على ضرورة العلوم العصرية والحاجة الماسة إليها في عصرنا، إذ لا يمكن الركون إلى العلوم الدينية لوحدها، إما من ناحية دورها في مقارعة الاستعمار أو من ناحية مساندة الأمم المتطورة. ففيما نقله عبد الرحمن شيبان عن الإمام الإبراهيمي في أحد الاحتفالات بمناسبة اختتام السنة الدراسية بمعهد ابن باديس قوله: "أن لكل عصر سلاحه، فلنتقدم لعصرنا بسلاح عصرنا، فإن العلوم التي عندنا لا تكفي، ولا يقول خلاف ذلك إلا جهول أو جحود، فإن سلفنا الصالح لم يقتصر على العلوم الدينية وحدها، إلا مع التحقق بأن لكل ميدان من ميادين حياتهم، رجاله القائمين بشؤونهم، فنحن إذا أردنا الحياة فلا مناص لنا من الجدّ في طلب العلوم التي بها تكون الحياة." (2) فإن كانت العلوم الدينية تركز على البعد الروحي والذاتي لدى الإنسان، فهي تدعو أيضا إلى العلوم الأخرى التي ترتبط بحياة الإنسان المادية. وهي من الأسباب التي تمكن الإنسان في الأرض، وتجعل الإنسان مسائرا لتطورات عصره فاعلا فيها.

4. ضرورة العلوم الإنسانية والاجتماعية.

لا يركز الإبراهيمي على العلوم المادية فقط، بل للعلوم الإنسانية دورها البالغ في بناء الإنسان وتربيته، وقد احتلت موقعا هاما في التربية الإبراهيمية، حيث تدخل ضمن سياق التأسيس العلمي للتربية، فإن كان للعلوم المادية دورها البارز بتأكيد الإبراهيمي على العلم التطبيقي وتنويعه بضرورته، فهو لا يغفل دور العلوم الاجتماعية والإنسانية فإن كان تركيز الأغلبية منصبًا على العلوم المادية في الظرف الجزائري آنذاك، فالإنسان

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 222.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 313.

ليس بعدا ماديا فقط، وإنما هو أبعاد نفسية، اجتماعية وعقلية وغيره من الجوانب المكونة لشخصيته. إذ وجب مراعاة كل ذلك في التربية والتعليم، بهدف أن يُعدَّ الإنسان الجزائري إعدادا تاما مستقبلا، فالعلوم الاجتماعية هي التي تُهيئ الفكر وتوجه التطلّعات، يوظف الإبراهيمي مثلا يبرز به ضرورة هذه العلوم وأهميتها حيث يفضل "بلدة فيها عشرة مرشدين دينيين وعشرة أدباء وعشرة أطباء على بلدة فيها ثلاثمائة طبيب، لأن الأدباء يرققون عواطفها فتميل إلى الروحيات فتقل الأمراض، والمرشدون يعلمونها القصد في الأكل واللذات ويحضونها على النظافة، فهؤلاء أطباء لكنهم يداوون المرض قبل وقوعه فإذا أفلتت وَاِحْدُ ذَاوَاهُ الْأَطْبَاءُ الْمَعْرُوفُونَ." (1)

فالعلوم الإنسانية والآداب كفيلة بمعالجة العديد من الأمراض قبل وقوعها، إضافة إلى دورها في البنية الاجتماعية للمجتمع، وتحرير فكره وتجنّبه مختلف الآفات قبل وقوعها، مع حسن توجيه وإرشاد الأفراد. وفي هذا إشارة إلى دور المربين والمعلمين في معالجة المرض قبل حدوثه، وفي هذا تركيز على الأمراض المعنوية والاجتماعية وغيرها التي تلحق بالمجتمع والتي يعجز الأطباء عن علاجها، إضافة إلى

فالمعلّم والمرّي بمثابة عالم الاجتماع والمحلل النفسي يخلّان الظروف الاجتماعية والنفسية التي يعيشها المتعلمون، ويدركان تأثيراتها فتكون كل خطوة يقومون بها مدروسة سلفا، إذ لا بد من معرفة البيئة الاجتماعية التي تحتضن المتعلمين من وضع اجتماعي وأسري وحالاتهم المادية وعلاقاتهم الاجتماعية والأسرية. فمن المعروف أن لكل ذلك تأثير كبير على التربية والتعليم، وأن الأسرة هي منطلق التربية، فعلى المرّي أن يراعي تلك الظروف ويحيط بها حتى يحسن التصرف في تربيته، بل ويجعلها سلاحا في صالحه. وفي تأكيد الإبراهيمي على مراعاة البعد العقلي يؤكد أن العلم يبدأ في مرحلته الأولى من البسائط منتقلا إلى المركب والمعقد، ومن الحسّي إلى العقلي وفق تدرّج متناسق، يوضح ذلك للمعلمين قائلا: "ربوهم على بناء الأمور على أسبابها، والنتائج على مقدماتها علما وعملا، واعلموا أن العلم يبدأ مرحلته الأولى من هذه البسائط التي تقع عليها حواسكم في الحياة كل لحظة فتحثقرونها ولا تلقون لها بالا، مع أن مجموعها هو العلم إذا وجد ذهننا محلّلا، وهو الحياة إذا وجدت عقلا مفضّلا." (2) فهي كأساس ضروري يكمل التربية الدّينية والروحية لدى الإنسان.

لذلك تشهد الدول المتطورة في المجال التقني والتكنولوجي اهتماما كبيرا بتنشيط دراسة العلوم الإنسانية، والاجتماعية كالفلسفة والأخلاق والفن والدين وعلم الاجتماع، ويسمونها فنون «حكمة الحياة» لأنها تعمق البصر إلى طريق كبار العلماء في التفكير وفي أسلوب الحياة ونشر المنهج العلمي في التفكير، وتنمية الخصب

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 129.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 272.

الثقافي من العلوم الإنسانية على اختلافها.⁽¹⁾ كما أن العلوم التي وجب أن يربى عليها الإنسان هي التي تظهر نتائجها في الواقع والأنفس فتغيرهما نحو الأفضل، وإلا ما كان العلم علما، وإن العلماء والمتعلمين وجب أن يقودوا غيرهم بعلمهم. وفي هذا يتساءل الشيخ الإبراهيمي عن دور العلماء وبصمتهم في الحياة، إذ يقول: "أعندنا علم؟ فأين الحياة؟ إن العلم الذي لا يُجِي، جهلٌ مسمّى بغير اسمه، أعندنا علماء؟ فأين قيادتهم للأمة؟ وأين آثارهم في توجيه الأمة وتوحيد الأمة؟ إن العالم إذا لم يُقَدِّ انقِاد، فإن انقِاد، جاءت الفتنة والفساد."⁽²⁾ فالدور الكبير للعلوم الإنسانية والاجتماعية يتمثل في تكوين قادة الأمة ومرشديها وحكامها ومحاربة الجهل والأمية، وربط العلم بالحياة وإحياء الشعوب ودفعها للحياة والإقبال عليها، فهذه العلوم هي التي تذكي الروح القيادية، وتنمي مشاعر الإنسانية، وتنظم السلوكات وتشمل مختلف المجالات الروحية والنفسية والاجتماعية في البناء الاجتماعي، وتوضّح كيفية التعامل معه ومع الجماهير وغير ذلك مما تستدعيه الحياة الإنسانية والاجتماعية. ومنه كانت دعوة الإبراهيمي للعلماء بأن يقوموا بدورهم الذي يعكس مكانتهم كعلماء.

إن الفكر التربوي الإبراهيمي بتركيزه على دور العلوم الإنسانية والاجتماعية يسعى إلى إعداد وبناء الإنسان الصالح، فهو يدرك أهمية بنائه لأنه منطلق أي بناء آخر. فالتغيير منطلقه الإنسان، ومن المتعارف عليه أن العلوم الاجتماعية تعمل على ذلك من خلال رفع المستوى الفكري والخلقي لأفراد المجتمع، ومن ثمة تزويدهم بسلوكيات واتجاهات تعمل على بناء مجتمع قادر على تغيير واقعه، بداية من التحرر من المستعمر، فالتحرر من الاستعمار المادي يقتضي التحرر من الاستعمار الفكري والروحي أولا، لأن "تحرير العقول أساس لتحرير الأبدان، وأصل له، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا."⁽³⁾

وتحيل هذه الرؤية مباشرة إلى رؤية مالك بن نبي في تأكيده على دور العلوم الاجتماعية والأخلاقية والنفسية مثلما تم الإشارة إليه في الفصل الثاني عندما أكدّ على دور العلوم الاجتماعية للإنسان. ففي هذا السياق يتأسف الإبراهيمي كون أن العديد من الطلبة لا يدركون أهمية هاته العلوم متجهين إلى العلوم المادية فقط رغم أهميتها البالغة أيضا، من خلال قوله: "من المؤسف أن أبناءنا في التعليم الجامعي انكبوا على الجانب المادي أكثر من الروحي الأخلاقي، فتخرج في جيلين بضع عشرات تناهز المائة من الأطباء، والصيدالدة ومثلها من المحامين، ودون العشرة من المهندسين، وإلى جانب ذلك كله دون العشرة في الآداب، ولم نر إلى جنب هذا

(1) - عبد الله شريط، نظرية حول سياسة التعليم والتعريب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 81، 82.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 412.

(3) - المصدر نفسه، ج3، ص 56.

العدد واحدا تخصص في الفلسفة أو في علم النفس أو في الأخلاق أو في فلسفة الاجتماع والتشريع.⁽¹⁾ وتعليل ذلك أن الحالة المادية للأمة قد تكون سببا رئيسا في ذلك التوجه، إضافة إلى الأثر الكبير للتقليد في هذا الاتجاه شأنها شأن الأمم المتخلفة. ومن هنا تبرز دعوة الإبراهيمي إلى ضرورة الإقبال على الفلسفة، علم النفس، القانون، التشريع، الفلسفة الاجتماعية، الأخلاق وغير ذلك مما يرتبط بالعلوم الإنسانية والاجتماعية.

فقد أدرك الإبراهيمي بعمق الأهمية والخطورة التي تكتسبها العلوم الإنسانية والاجتماعية في تحصيل الفقه الاجتماعي، الذي يمكّن العمل التغييري من الوقوف على أرض صلبة من الدراسة العلمية الدقيقة التي تضمن النتائج وتبتعد عن التعميم والعفوية والارتجال، ومن الملاحظات الهامة التي يجدر الإشارة إليها أن جمعية العلماء اعتمدت على مقدّمة ابن خلدون ضمن الكتب المقررة على الطلبة في برامجها التعليمية، وهي من أنفس الكتب التي تحدثت بلغة علمية عن قوانين الاجتماع والعمران البشري، فاختيار المقدمة للتحصّل الدراسي إدراك واع لخطورة هذه العلوم وأثرها العميق في فهم المجتمعات واكتشاف القوانين التي تحكمها، وفيه توجيه رشيد لطلبة العلم حتى يقبلوا على هذه العلوم ويستفيدوا منها.⁽²⁾

ففي ظل مجتمع جزائري عانى ويلات الاستعمار، لا بد أن تتجه جهود المرين نحو إعداد إنسان مدرك لذاته وهويته، لا مشتتا بين التيارات الفكرية المتضاربة، أو خاضعا للرؤية الاستعمارية الماسخة له، فمن شأن هذه العلوم الاجتماعية أن تعرّف الإنسان بذاته، وتحدّد له المسار الذي يمكنه من إحداث التغيير، وتقوم بصقل فكره، كما أنّها كفيلة بتوحيد الرؤى نحو هدف واحد، فيشكل ذلك أساسا ومنطلقا يتم الانتقال منه إلى الممارسة العملية والتركيز على المقتضيات المادية بل صناعة هذه المقتضيات. وإن سارت السياسة الجزائرية بعد الاستقلال عكس ذلك باعتمادها على الآلة الجاهزة والمصنع الجاهز وإهمال الإنسان، كما بيّنه عبد الله شريط فأصبح السلاح أهم من الجندي، والإنسان الذي يدير الآلة أهم من الإنسان الذي يكون البشر، فضحينا بالإنسان في سبيل الآلة والأصح أن يكون السلاح الأول هو الإنسان نفسه، وأن السلاح الذي يحمله في المعركة هو فقط مجرد امتداد لقوته الإنسانية، والمعروف أن الإنسان الراقي المتعلم بالآلة القديمة أكثر

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 129.

(2) - محمد زمران، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 107، 108.

مردودية من الإنسان المتأخر بالآلة الحديثة.⁽¹⁾ نظرا لاعتماد هذا الأخير على ذاته وقدراته أكثر من اعتماد الأول عليها، حيث تطغى نتيجة لذلك الآلية على الفهم، و الماكنة على الذات فيعتم الاتكال والتقاعس.

وكتأكيد لقيمة العلوم الإنسانية فإن شخصية الإبراهيمي كانت جامعة لعديد المعارف في هذا المجال، ولعل ذلك ما يفسر سداد رأيه في العديد من القضايا، إضافة إلى قيادته الرشيدة سواء في المجال التربوي أو الإداري. ففي كلمة تقديمية ل «أحمد بن ذياب» لإحدى مقالات الإبراهيمي التي كانت بمناسبة افتتاحه أحد المساجد وصف الإبراهيمي بأنه ممن جمع بين الأدب والفلسفة والدين والتربية وعلم الاجتماع وعلم النفس فكان عالما دينيا وأديبا وفيلسوبا ومربيا. وذلك في معرض قوله: "نحن نرى أن كل فلسفة - أيا كان نوعها- عاطل إذا لم يجلها الأدب، وإن كل أدب - مهما علا- رخيص إذا لم تُعل الفلسفة قيمته. ومن هنا كان الإبراهيمي مفخرة الجيل وآية الدنيا، ومنة القدر على العربية وأدبها وفلسفتها وأحد العباقرة الذين يفرضون خلودهم على الأيام فهو العالم الديني الممتلئ الجوانب من روح الشريعة وفقه أسرار الدين، وهو الفيلسوف الاجتماعي الذي لا يشق له غبار، وهو المربي الخبير بمواطن الرشد ومزالق الغي، أما التاريخ وقصصه وعبره، وأما الأدب وعصوره وشعره ومنشوره، وأما اللغة وغريبها ومأنوسها وتاريخ أطوارها فهو في هذه كلها كما قيل (حدّث عن البحر ولا حرج) وتم الله عليه نعمته فأتاه حافظة موعية وذاكرة واعية، وأكمل له أدوات العالم الأديب الفيلسوف." ⁽²⁾

وتظهر ضرورة هذه العلوم ومناهجها في إمكانية تشريح بنية المجتمع ومختلف ظواهره الاجتماعية وحوادثه التاريخية، إذ يحلل الإبراهيمي على سبيل المثال الظاهرة الاستعمارية فاضحا حقيقتها، كاشفا مختلف أسبابها وأساليبها، وكيف تعامل المستعمر من خلالها مع المجتمع الجزائري، وكيف ينبغي لهذا الأخير أن يتعامل ويكافح المستعمر، فالظاهرة الاستعمارية كالظاهرة المرضية التي تسعى إلى أن تفتك بالجسم فتُميته، مينا أن الاستعمار الفرنسي جاء "إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت... والاستعمار سُئل يجارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد وحارب الإيمان بالإلحاد والفضائل بحماية الرذائل والتعليم بإفشاء الأمية والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير." ⁽³⁾ فاعتمد المستعمر على الجندي والراهب والمعلم والطبيب

(1) - عبد الله شريط، نظرية حول سياسة التعليم والتعريب، مرجع سابق، ص 83، 84.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 348.

(3) - المصدر نفسه، ج3، ص 46، 47.

ليحقق أهدافه ويسعى إلى مسخ مقومات الشخصية الوطنية. فإن كانت مهمّة هؤلاء في أساسها مهمة إنسانية خيرة وفق الشكل المتعارف عليه إنسانيا وعالميا، فقد وظّفهم المستدمر كأدوات لتحقيق مآربه الاستعمارية فترجموا بذلك نواياه الخبيثة.

فمعرفة الإبراهيمي الدقيقة بالاستعمار مكنته من تحديد آثاره في الواقع الجزائري وسهّلت له تفسير الكثير من الظواهر التي تميز بها هذا الواقع والتي كانت من صنع الاستعمار، هذا ما يظهر أيضا في تحليله للقوانين الجائرة التي أدارها بهدف احتقار الفرد الجزائري وإذلاله وقتل إحساسه بجزائريته وإنسانيته وحرّيته.⁽¹⁾ فكان "الاحتقار هو الأساس الخلفي الذي وضع عليه الاستعمار قواعده و بنى عليه قوانينه، وإنّ ملكة الاحتقار هي الغاية في العالم الاستعماري، ينتهي إليها عالمه، وحاكمه ومشرعه، ومنفذه ... ابدأ بما شئت واختم بما شئت من النظم والقوانين التي تُسّاس بها الجزائر، تجدها كلّها دائرة في مبادئها وغاياتها على محور واحد، وهو احتقار المسلم الجزائري وبغضه."⁽²⁾

من هنا تتأتى قيمة وضرورة العلوم الإنسانية والاجتماعية، من خلال تأكيد الإبراهيمي عليها كما تبين، ومن خلال تجاربه وتحليلاته التي أبرزت دراية عميقة بخبايا الاستعمار وحقيقة قوانينه وأساليبه وفضحه لها، إضافة إلى تشريح الإبراهيمي للمجتمع الجزائري، كل فئة على حدة، وعلى حسب ظروفها وموقعها، ولا يمكن تبرير النجاح الذي حقّقه جمعية العلماء بقيادته أو بقيادة الشيخ ابن باديس إلا من خلال الفهم العميق للواقع الجزائري وقيمته، وإلى فهم منظومة المجتمع الاجتماعية والتاريخية والثقافية والسياسية، خاصة النجاح في المستوى الإصلاحية والتربوية التعليمية، فمنطلق ذلك فهم الموجود وإمكان السير به في سبيل تحقيق المنشود.

ومنه نستخلص أن الأساس العلمي للتربية عند الإبراهيمي يهدف إلى:

- إقامة تربية علمية تهدف إلى مواكبة التطور العلمي لدى الدول المتقدمة.
- ضرورة التوجيه الأخلاقي للعلم من خلال تربية علمية أخلاقية،
- ربط طلبة العلم بمقومات الشخصية الوطنية تمكينا لتسخير علمهم في خدمة وطنهم.
- ضرورة العلوم الإنسانية والمادية (التطبيقية) في التربية العلمية وعدم الاقتصار على العلوم الدينية فقط.
- تكوين نخبة علمية في مختلف العلوم والاستفادة من تجارب الآخر من خلال البعثات العلمية.

(1) - محمد زمران، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 116، 117.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 362.

■ ضرورة التعلّم بالقدوة والنهل من سير العلماء، إضافة إلى دور التحليل والمذاكرة في التربية على العلم.

خلاصة:

وكخلاصة لهذا الفصل فالأسس التربوية عند الإبراهيمي من أخلاق ودين وعلم، لا تشكّل أسسا منفصلة عن بعضها البعض، بل تتكامل فيما بينها، فالأخلاق هي من توجّه العلم وترشده، فلكل علم أخلاقيات ولكل ممارسة أخلاقيات تحكمها، وأغلب الأخلاق التي أقرّ بها الإبراهيمي مستمدة من الدين الإسلامي، ما يبين ارتباط الأسس فيما بينها، ولا يقتصر الإبراهيمي على هاته الأسس فقط بل هناك أسس أخرى لها مكانتها البالغة في رؤيته التربوية، يتطرق إليها الباحث في الفصل الموالي، وما الترتيب الذي اعتمده الباحث إلا من باب الأولويات وكترتيب منطقي لهاته الأسس، فما أهم الأسس الأخرى التي ارتبطت بها التربية عند البشير الإبراهيمي؟

الفصل الرابع

الأسس الاجتماعية والنفسية

للتربية عند الإبراهيمي

الفصل الرابع: الأسس الاجتماعية والنفسية للتربية عند الإبراهيمي.

تمهيد

يرتبط التأسيس التربوي الإبراهيمي إضافة إلى الأسس الثلاث الأولى المتطرق إليها في الفصل السابق المتمثلة في الأخلاق والدين والعلم، بأسس أخرى، لها موقعها في المشروع التربوي الإبراهيمي، ولها ضرورتها في التشكيل التربوي للأفراد، جامعة هذه الأسس بين الصبغة الاجتماعية والنفسية، ومرتبطة بمختلف الأبعاد المشكلة للفرد من عقلية، نفسية، اجتماعية، فهي مرتبطة بالإطار الاجتماعي والبيئي الذي يحتضن الأفراد، ما ينم عن النظرة المتكاملة للإبراهيمي إزاء التكوين التربوي للأفراد من خلال تركيزه على عدّة أسس في تربيته. ما يبيّن أن تربيته نتاج عوامل متعددة لا تنحصر في زاوية محددة فهي تأخذ بعين الاعتبار الفرد في حدّ ذاته والمجتمع الذي يكتنفه. وبناءً على ذلك فسيتطرق الباحث في هذا الفصل إلى الأسس المكملّة للأسس السابقة. مركزا في ذلك على الأسس الاجتماعية من خلال علاقة التربية بالمجتمع، إضافة إلى مراعاته للبعد النفسي والعقلي في تربية الأفراد، وربط التربية بالأساس الوطني، جاعلا من الوطنية أساسا تربويا يرتبط بالراهن الذي يعايشه الفرد الجزائري ورباطا إياه بمستقبله.

أولا: التربية و المجتمع :

إن الرؤية التربوية للإبراهيمي لا تخرج عن سياق المجتمع الذي احتضنه وعاشه، ولا عن واقعه وعصره، إذ ترتبط رؤيته أشد الارتباط بالمجتمع، لذلك يؤكد الإبراهيمي على دور التربية في بناء الاجتماع الإنساني، ويوضح العديد من الأفكار بخصوص العديد القضايا من التي يطرحها المجتمع، بحكم أن القضايا الاجتماعية في صيرورة وتغيّر مستمرين، نتيجة لمختلف المستجدات التي تطرح على الساحة الاجتماعية، إضافة إلى مختلف الثقافات والخصوصيات المختلفة باختلاف الفئات الاجتماعية، ما يفرض ضرورة بناء اجتماعي يُوفّق بين الاختلافات والخصوصيات، ويفتح مجالا لتحقيق العيش المشترك وبناء المجتمع الحيوي بالإصطلاح الإبراهيمي.

1. بناء المجتمع الحيوي :

المجتمع الحيوي بمعنى الإبراهيمي هو المجتمع الفاعل في الحياة، الذي يجمع بين خصوصياته الثقافية كامتداد ثقافي وهوياتي يعبر عن مقوماته المتجذرة عبر تاريخه، وبين المتطلبات والمتغيرات التي تستجد في الحياة،

كاستجدات علمية واجتماعية واقتصادية. بمعنى بناء اجتماع بشري يتصف بالحيوية والإنتاج الفكري والعلمي والاقتصادي مع المحافظة على القيم الدينية والأخلاقية والثقافية التي تشكل البعد المعنوي للمجتمع. فيتوافق المجتمع مع الحياة العامة في عمومياتها، ويتوافق مع الحياة الخصوصية في خصوصياتها. منتجا بذلك نهضة منظمة على المستويين الحياة العامة والحياة الخاصة. ⁽¹⁾ فالتوافق مع الحياة العامة يرتبط بالحياة العلمية والفكرية والاقتصادية التي تحكم العالم فيساريها المجتمع في تطوراتها، أما الخصوصيات فتربط بخصوصية كل مجتمع كقيم ثقافية تحكم هويته وتميزه عن غيره من المجتمعات. فيكون بذلك المجتمع الحيوي بمعنى الإبراهيمي «المجتمع المنتج للحياة بذاته لا المتلقي لها» فيكون ذاته بذاته، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال فاعلية أفراده.

ويدخل الطرح الإبراهيمي ودعوته لبناء المجتمع المنتج والحيوي من زاوية معينة ضمن سؤال الحداثة وعلاقته بالفكر الإسلامي، من منطلق دعوته لبناء المجتمع الحيوي وفق خصوصيات المجتمع التاريخية من جهة والتطور الحاصل في العالم فكريا وماديا من جهة أخرى. من منطلق أن الحداثة تعدّ من أهم التحديات التي تواجه الوعي العربي الإسلامي في القرن الحادي والعشرين، من خلال طرح "إشكالية بناء مجتمعات حديثة متقدمة اقتصاديا ومتوازنة سياسيا واجتماعيا... إذ الملاحظ أن هناك تساؤلات كثيرة وباستمرار حول كيفية صياغة مشروع تحديثي نهضوي عربي ينهض بالبلدان العربية والإسلامية ويدخلها في مسيرة الحداثة." ⁽²⁾ غير أن الطرح الإبراهيمي في فحواه وجوهره يركّز على كيفية بناء الاجتماع الحيوي ويبيّن فضائل الاجتماع الإنساني وكيفية بناء المجتمع الجزائري الحيوي.

ففي دعوة الإبراهيمي إلى بناء المجتمع الحيوي، يبيّن فضائل الاجتماع الإنساني وضرورة قيام كل فرد من المجتمع بوظيفته خصوصا المربين منهم، بأداء الواجب التربوي والاجتماعي اتجاه الآخر الذي يشاركهم في الحياة والوطن. فيدعوهم إلى تقوية الألفة والأخوة وكل ما يزيد في الترابط الاجتماعي، كالعامل المشترك والتعاون على الصالحات ومجاعة تجارب السابقين في الحياة، الإقبال والأخذ بشؤون الحياة وبأسبابها المعقولة. معتبرا أن ذلك من أهم العوامل في تكوين الرضا الجمعي والفردى، وإذكاء الفاعلية في مختلف عناصر المجتمع أفرادا ومؤسسات. فمنطلق البناء يتأسس على فضيلة الاجتماع الإنساني. إذ يعتبر الإبراهيمي أنه "من أبعج ساعات العمر ساعة يقف فيها أضحى يحدث إخوانه على بساط الشعور المشترك والإحساس الصادق والإخلاص في

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 50، 51.

(2) - عبد الجليل أبو المجد، عبد العالي حارث، تجديد الخطاب الإسلامي وتحديات الحداثة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2011، ص75.

القول وحسن الإصغاء يتلو عليهم ما فيه العبرة من ماضيهم وحاضرهم، يذكّرهم ما ليسوا عنه بغافلين من أخذ الأهبة إلى المستقبل المحجوب، يدعوهم إلى الجدّ في العمل المشترك ... فيفوز الداعي بفضيلة الدّعوة والإرشاد إلى الحق والتنبيه إلى الواجب، ويفوز المدعو بفضيلة الاسترشاد والعمل بالنصيحة، ويلتقي الكلّ عند أشرف غاية في هذه الحياة وهي أداء الواجب الاجتماعي.⁽¹⁾ فيشكل أداء الواجب الاجتماعي فضيلة من الفضائل الأخلاقية لأفراد المجتمع. فيمارس الأول « المرشد الداعي » فضيلة التربية والإرشاد إلى الفضائل بحكم الدّين والضمير، بينما تتشكل لدى المتلقي والمتعلم « المرشد » فضيلة العمل فيكون أنموذجا لغيره و محرّكا فاعلا في تغيير المجتمع وتركيبته من خلال المساهمة في بناء مجتمع حيوي فاعل في الحياة لا مجرد منفعل فيها فقط.

يشكّل التعاون الاجتماعي أحد أهمّ اللّبنات في بناء المجتمع الحيوي، كما تتمثل فضائله في ثمراته الناجحة التي تعجز القوة الفردية عن تحقيقها وإتمامها، كتلبية وقضاء مختلف الحاجيات الإنسانية في شتى المجالات المتعلقة بإعمار الأرض واستثمار الطبيعة والتفوق عليها، لكن ليس المهم بيان تلك الفوائد في نظر الإبراهيمي التي أصبحت من البديهيات، وإن كانت تبرز قيمة التربية الاجتماعية والحاجة إلى مجتمع متكاتف، إنما الحاجة والضرورة تلخص في كيفية بناء اجتماع حيوي يرتبط بخصوصيات المجتمع ومقوماته ويتوافق مع شؤون الحياة العامة. ما يعبرّ عنه الإبراهيمي قائلا: "نحتاج في الدرجة الأولى إلى تكوين اجتماع حيوي منتج يتفق مع الحياة العامة في العموميات ويلتئم مع حياتنا الخاصة في الخصوصيات، هذا النوع من الاجتماع هو ما نسعى إلى تكوينه إن كان مفقودا، أو نسعى في ترميمه إن كان موجودا."⁽²⁾ فمن خصائص المجتمع الحيوي عنده أنه مجتمع منتج لمتطلبات الحياة المتغيرة من جهة، وهو مجتمع محافظ على قيمه وخصوصياته الاجتماعية من جهة أخرى.

إن بناء مثل هذه المجتمعات هو مطلب إنساني يرنو إلى تحقيقه كل إنسان عاقل، فالإنسان ككائن حي عاقل لا تقتصر إرادته على الحياة فقط بل تهدف إلى تكوين اجتماع إنساني يصنع وينتج موجبات تلك الحياة، وإن كانت فوائد وثمرات الاجتماع الإنساني من البديهيات التي لا تحتاج إلى بيان فهي تشمل كل ما بلغته الإنسانية من معارف وحقائق وانتصارات في مختلف أطوارها التي مرّت بها. وإذا كان لكل مجتمع خصوصياته وقيمه التي تميّزه عن المجتمعات الأخرى، يؤكد الإبراهيمي على أن البناء لا يكون على حساب تلك الخصوصيات والتجرّد منها، إنما يكون بها ومن خلالها. "نحن محتاجون إلى تكوين اجتماع خاص، تنتج عنه

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 50.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 51.

نهضة منظمة في جميع لوازم حياتنا القومية والخاصة وألزم هذه اللوازم أربعة: الدين والأخلاق والعلم و المال.⁽¹⁾ فلا بد أن ترتبط التربية أو النهضة الاجتماعية التي يسعى المصلحون لإقامتها بمهاته الأسس خاصة، والتي شكّلت أسسا للتربية عند الإبراهيمي بصفة عامة والتربية الاجتماعية بصفة خاصة. فإن كانت التربية في نظره تركز إلى أسس ومقومات فإنها تشكل في نفس الوقت مقومات وعوامل ينبغي مراعاتها في التأسيس الاجتماعي للتربية ويتضح ارتباطها بمعادلة التكوين والبناء الاجتماعي لأفراد المجتمع بهدف بناء الاجتماع الحيوي و المنتج بتعبيره، مُتمثلةً في الدين و الأخلاق والعلم و المال كما تحدّد في قوله السابق.

2. نحو بناء مجتمع جزائري حيوي :

إن تساؤل الإبراهيمي عن بناء المجتمع الحيوي وكيفية تحقيقه، تجسّد من خلال السعي إلى بناء المجتمع الجزائري الحيوي، إذ يتساءل الإبراهيمي إن كنا نشكل مجتمعا حيويا؟! وهل تتوفر موجبات هذا الاجتماع وأسباب الحياة فيه؟ وهل بالإمكان تحقيقه؟ يبين الإبراهيمي أن المجتمع الجزائري يفتقد الوجود الاجتماعي الحيوي المنتج، كاجتماع يعكس تطلعات الأمة وآمال مفكريها، فيربطها بمقوماتها الخاصة وبأسباب الحياة التي تشمل الحيوية والإنتاج، كمجتمع ينتج مقومات الحياة بنفسه. إذ أصبح المجتمع الجزائري مجرد تابع لحياة الآخر وما فاض عليه من إنتاج، ما عبّر عنه الإبراهيمي بحياة قائمة على - الباقي من الصرف- أو الباقي من السوق في عالم الاقتصاد والمال. "الحق الذي لا مرء فيه أنه لا يوجد عندنا اجتماع بالمعنى الذي نريده ويتمناه العقلاء منّا والمفكرون، والذي نشاهد آثاره عند غيرنا وندرك أنها نتيجة ذلك الاجتماع. والحقيقة التي لا مرء فيها أن حياتنا الخاصة-بصفتنا أمة ذات مقومات ممتازة- قد قدّر لها أن تصبح تابعة لحياة عامة هي صرف السوق كما يقولون - هذه الحياة العامة كما يقولون فرقت القبائل والشعوب من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون فكنا من غرقاها، وطغى تيارها حتى دخل على الحضري في قصره وعلى البدوي قفره." ⁽²⁾ لكن رغم عدم تحقيق البناء الحيوي فإن موجبات الحياة والبناء موجودة لدى المجتمع الجزائري. فقد أعلن الإبراهيمي على الحاجة إلى تكوين اجتماع حيوي ينتج ويحقق نهضة منظمة في جميع جوانب الحياة القومية والخاصة، مبينا دور اللّوازم الأربعة: "الدين والأخلاق والعلم والمال" في تحقيق حيوية المجتمع والنهضة به. ويتحدد دور هذه اللّوازم على النحو الآتي:

(1)- المصدر السابق، ج1، ص 51.

(2)- المصدر نفسه، ج1، ص 51.

2. 1. اللازم الديني ودوره في بناء الاجتماع الحيوي :

شكّل الدين أساسا تربويا هاما في تربية الناشئة، كما يعدّ أيضا أساسا هاما في تكوين الاجتماع الإنساني عبر التاريخ، ويثبت التاريخ الإسلامي خصوصا كيف مثل الدين أهم عامل في بناء المجتمع الإسلامي وبالأخص في عهد الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ولا زال دوره قائما إلى اليوم. غير أن الدين في نظر الإبراهيمي أُلصقت به العديد من الشوائب والمحدثات والبدع التي ليست من الدين في شيء، إذ أنها تبتعد بالدين عن بساطته الأولى فأولى لبنات بناء الاجتماع المنتج والحيوي: "الرجوع بالدين إلى بساطته الأولى، وأنه دين الفطرة، وأنه لا يرجع في أحكامه إلا إلى النص القطعي من كتاب محكمٍ أو سنة قولية أو عملية أو متواترة... فمن المفيد في اجتماعنا أن نعير هذه المسألة جانب الاهتمام ونسعى في تقريب حقائق الدين من أذهان الأمة على السنّة الأولى في نشره وهي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة." (1)

فالبناء الاجتماعي يقتضي إصلاحا دينيا اجتماعيا، ما يعكس الرسالة الأولى التي سعت إليها جمعية العلماء المسلمين من أول أيامها، فهي: "تعمل من أول يوم من تكوينها للإصلاح الديني وللإصلاح الاجتماعي." (2) نظرا لارتباط هذين الإصلاحين، وسيوضح ذلك في تحديد ارتباطهما مع التطرق إلى اللوازم الأخرى، فمن أدوار اللازم الديني: تربية الناشئة على مختلف القيم والأخلاق الإسلامية الفاضلة، والمساهمة في تحديد فلسفة المجتمع وتوضيح الغاية التي وجد من أجلها الإنسان وتنظيم الحياة الاجتماعية، إذ أنها انعكاس وتطبيق لتعاليم الدين وغير ذلك من الممارسات التي تنعكس في الحياة الاجتماعية للأفراد. ويظهر دور اللازم الديني في بناء المجتمع الحيوي وتربية أفراد المجتمع على ذلك من خلال:

ترسيخ المفهوم العملي للدين وتفعيله :

لتحقيق شرط الإنتاج وتحقيق المجتمع المنتج ينبغي تكريس المفهوم العملي للدين، وتوضيح أن الإسلام دين عملي، يدعو أفراد المجتمع إلى العمل، فالعمل عبادة وقد ارتبط الإيمان بالعمل، فالدين لا يقتصر على طلب العلم دون العمل، أو الإيمان دون عمل بل ترتبط أحكامه بضرورة ترجمتها عمليا، وهذا ما ينبغي أن يرسّخه المربّون المصلحون في الوعي الجمعي. فتحقيق الحيوية والإنتاج يكون من خلال "إقناع الأمة أن هذا الدين دين عملي لا تستغرق معرفة أحكامه هذه العشرات من السنين التي يبدها طلاب العلم الديني منّا،

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 51، 52.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص283.

وأنة يجب الرجوع في طريق الاستدلال على العقيدة إلى طريقة القرآن وهي إلفات النفس وتوجيهها إلى الاستدلال بالمخلوقات على الخالق، وأن هناك فرقا عظيما بين العقيدة والعبادة والمعاملة.⁽¹⁾

تحكيم أحكام المعاملات في مجال العلاقات الاجتماعية :

أما في مجال العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع فيرجع إلى الدين في جانبه: العقيدة والعبادة، وما بينه القرآن من أحكام وما شرّعه من قوانين، والحرص في المعاملة بين أفراد المجتمع على مراعاة اجتماعهم ومصالحهم ومختلف ظروفهم المكانية والزمنية التي يمرون بها. مبيّن الإبراهيمي أن القرآن الكريم في أحكامه المتعلقة بالمعاملات أن أحكامه جاءت كلية حتى تتوافق والحوادث الجارية ومستجداتها، مستشهدا في ذلك بتاريخ النظام الاجتماعي لدى المسلمين الأوائل في سياستهم وإدارتهم لشؤونهم الاجتماعية ومعاملاتهم. موضّحا "أن المعاملة مبنية على مراعاة مصالح البشر ونظام اجتماعهم العمراني، ولذلك كان أغلب أحكام المعاملات المأخوذة من القرآن كلية قل أن نعثر فيها على التفصيل، وأن الأنسب لسماحة الدين وبقائه وصلاحيته لكل زمان ومكان أن يكون للزمان والمكان والعرف والعادة والبيئة مدخل في تكييف أحكام المعاملات وتطبيقها على الحوادث الجارية. وأن التاريخ شهد بأن أسلافنا كانوا يراعون هذا المعنى في إدارتهم الإسلامية وفي سياستهم للشعوب الأخرى."⁽²⁾

نشر اللغة العربية وتعميمها :

يؤكد الإبراهيمي على العامل اللغوي في بناء الاجتماع الحيوي والتربية عليه، إذ تمثل اللغة العربية لغة الدين وآدابه ولغة التاريخ القومي للمجتمع الجزائري، ومنه فلا بد من مراعاتها في عملية البناء. وأن يرتبط السعي إلى نشر تعاليم الدين وأحكامه ومعاملاته بنشر اللغة العربية. فيقترن الدين بها، وقد وضّح ذلك الإبراهيمي في قوله: "يصحب هذا السعي سعي آخر ملازم له وهو السعي في نشر اللغة العربية التي هي لغة الدين ولغة الآداب القومية ولغة التاريخ القومي."⁽³⁾ فإضافة إلى الوظائف الحيوية التي تؤدّيها اللغة في حياة الشعب كونها أداة تواصل وتفاهم، وأداة للتعبير عن النفس، ووسيلة لتحصيل العلم، فإنها تعدّ أداة لتوثيق

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 52.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 52.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 52.

الروابط بين أبناء الشعب الواحد والأمة الواحدة. فاللغة العربية تمثل مقوّمًا أساسيًا من مقومات الشخصية الجزائرية ومن ثمة الاجتماع الحيوي الجزائري، فتربط بين ماضي الشعب وحاضره ومستقبله.⁽¹⁾

وما يبرز ارتباط اللغة بالمجتمع الحيوي هو أنه لا يمكننا أن نجد في العالم سواء في القديم أو في الحديث لغة متطورة في مجتمع متأخر حضاريا وصناعيا، كما لا يمكن أن نجد من ناحية أخرى مجتمعا متقدما حضاريا وصناعيا وفي نفس الوقت ولغته التي يتكلم بها ويثقف أبنائه بها ويسير شؤونه الاقتصادية والاجتماعية والإدارية متأخرة أو بدائية، لأن التقدم والحضارة والصناعة تقوم كلّها باللغة، لأن اللغة هي مرآة كل حضارة وثقافة. فاللغة كظاهرة اجتماعية تصعد بصعود المجتمع وتهبط بهبوطه.⁽²⁾

فاللغة بذلك امتداد تاريخي للمجتمع تتطور بصحوته ونخضته، وتتأخر بنكسته، وترتبط بها مختلف مقوّمات الاجتماع البشري لأنها هي التي تعبّر عنها، وهي التي تحفظها من الزوال، لذلك يعتبر الإبراهيمي "اللغة هي المقوّم الأكبر من مقوّمات الاجتماع البشري، وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقوّمات الأخرى."⁽³⁾ ويستحضر الإبراهيمي في هذا السياق الوظيفي للغة، الدور الذي قامت به اللغة العربية في حفظ الموروث التاريخي الإنساني وفي ترجمته وتطويره، شاملة مختلف العلوم والمعارف من علمية ودينية وفلسفية. حيث "قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن من ترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع، وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة، وهذا هو التراث العقلي المشاع الذي لا يزال يأخذه الأخير عن الأول، وهذا هو الجزء الضروري في الحياة، إما أن تنقله إليك فيكون قوّة فيك، وإما أن تنتقل إليه في لغة غيرك فتكون قوّة لغيرك. وقد تفتن أسلافنا لهذه الدقيقة فنقلوا العلم و لم ينتقلوا إليه. وقد قامت لغتهم بحفظ هذا الجزء الضروري من الضياع بانتشاله من أيدي الغوائل وينقله إلى الأواخر عن الأوائل."⁽⁴⁾

(1) - تركي رابح عمامرة، التربية و الشخصية الجزائرية، ص11.

(2) - تركي رابح عمامرة، كيف أصبحت اللغة العربية لغة عالمية بعد ظهور الإسلام بقليل، المجلة الجزائرية للتربية، المعهد التربوي الوطني، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، س2، ع5، الفصل الأول، 1996، ص18.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص134.

(4) - المصدر نفسه، ج1، ص376.

ويُجبل دور اللغة في بناء الاجتماع الحيوي إلى ارتباطها بالحضارة الإنسانية بصفة عامة، فلا توجد حضارة دون لغة، ولم تكن الحضارات الإنسانية القديمة التي وصلتنا اليوم لتصل إلا من خلال اللغة، فقد ازدهرت حضارات الأمم القديمة من العرب وفارس والهند والصين ومصر واليونان والرومان وزخرت علومها، وكانت كلها مبنية على أصول عامة متشابهة، وكان لكل حضارة لغتها المعبرة عن محاسنها والكاشفة عن حقائقها، وكان لتلك اللغات أثر يبين في بقاء الحضارة وانتشارها، وكلّ من بقاء الحضارة و انتشارها يتوقف على ما في اللغة من قوة وحيوة واتساع، فاللغة من الحضارة جزء لا كالأجزاء، كاللسان من البدن عضو لا كالأعضاء. ثم اندثرت تلك المدنيات والعلوم إلا ما بقي من آثار الأولى منقوشاً على الأحجار، وما بقي من الثانية مكتوباً في الأسفار، ولولا اللغات لم نتبين من الحضارات ما تبيناه.⁽¹⁾ فقوة اللغة تزيد من قوة الحضارة وبقائها، وتزيد من قوة المجتمع وتوسّع موروثه وتقويه، وتزيد قوة اللغة هي الأخرى بزيادة قوة المجتمع.

وفي سياق ارتباط اللغة بالحضارة يبيّن الإبراهيمي أن الحضارة الإنسانية نتاج لمزيج لغات الإنسان، وفي تأكيده على دور اللغة العربية حتّى تأخذ موقعها في بناء المجتمع الحيوي يبين الإبراهيمي أنه: "من العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساند في تكوينها وفي تلوينها عدة لغات مختلفة الأصول، ولم تستطع أن تقوم لها لغة واحدة على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان ولم تستعر من اللغات الأخرى إلا قليلاً من المفردات." ⁽²⁾ ففي نظره أن اللغة العربية ساهمت في بناء حضارة إنسانية راقية خاصة بها دون الاستعانة من اللغات الأخرى. والسبب الأساس في ذلك ثراء هذه اللغة وقوتها، إضافة إلى ارتباطها بالدين الإسلامي كونها اللغة التي أنزل بها القرآن الكريم.

وما يؤكد الدور الذي تؤدّيه اللغة في إحداث التوافق الاجتماعي أو بالأحرى التربية الاجتماعية مقارنتها بين التوجهات رغم اختلاف الأجناس، وهذا ما ساهمت به اللغة العربية لدى الأمم التي دخلت الإسلام فقد كانت سبباً في: "تقارب تفكيرهم وتشابه عقلياتهم وتمازج أذواقهم وتوحيد مشاربهم، وإن هذا لمن المناهج السديدة في توحيد الأمم المختلفة الأجناس، ولولا العربية لاختلفت الأمم الإسلامية في فهم حقائق الدين باختلاف العقليات الجنسية... إن الأمم دخلت إلى الإسلام متفاوتة الدرجات في الانفعالات النفسية وأنماط التفكير، متفاوتة الإدراك والذكاء متفاوتة في القابلية والاستعداد، متفاوتة في التصوير والتخيّل، لكن العربية

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 375.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 374.

فتحت عليها آفاقا جديدة.⁽¹⁾ فمثلا يساهم الدين في تقوية الرابطة الاجتماعية بغض النظر عن اختلاف الأجناس، تساهم اللغة هي الأخرى في زيادة تلك الرابطة وتقويتها، فهي تشكل إحدى الوسائل التي تحقق الوحدة الاجتماعية من جهة وتوحد الأمم على اختلاف مشاربها، مستشهدا بالدور التاريخي الذي ساهمت به اللغة العربية في توحيد المجتمعات التي اعتنقت الدين الإسلامي كامتداد لدور الدين في هذا المجال، كونها اللغة لغة القرآن الكريم. فقد قاربت بين عدّة شعوب رغم اختلاف لهجاتها ولغاتها. ويشكل الشمال الإفريقي أنموذجا وشاهدا على ذلك.

ناهيك عن وظيفة اللغة كوسيلة وأداة تربوية توظّف على حسب الحاجة إليها، إضافة إلى تنوعها وراثتها باستعمالاتها، وقد وظّفت اللغة العربية أدبها لدى العرب قديما كوسيلة تربوية من خلال: "وضعهم أشياء على السنة الحيوانات إيغالا في الحكمة و تطرقا لتربية النفوس البشرية، و سوقها لفضيلة أو صدّها عن رذيلة، فإن هذا النوع من الأدب السامي هو نمط من التربية كما في كتاب كليلة ودمنة."⁽²⁾ إذ يتشكل البعد التربوي للغة من خلال أنها مقوم من مقومات الشخصية الوطنية التي ترتبط بتاريخ الأمة، ناهيك عن وظائفها التربوية الأخرى، وبذلك مثلت اللغة ولا زالت تمثل شرطا في التربية وبناء المجتمع الحيوي نظرا لوظائفها المتعددة، ما يفسّر التأكيد الإبراهيمي على دلالتها ودورها.

نشر تاريخ الإسلام الصحيح وما يتضمنه من ثقافة إسلامية :

يرتبط اللازم الديني أيضا بنشر تاريخ الإسلام الصحيح وما يتضمنه من ثقافة إسلامية، فيشكل بذلك قدوة للمجتمع تقتدي به الأجيال، وتجربة اجتماعية ناجحة تجسدت واقعا لدى تجارب السابقين، ومنه ينبغي السعي إلى إكمال المسار الذي تم رسمه سابقا مع تجديده. إذ يرتبط العامل الأول للتربية الاجتماعية وتكوين المجتمع المنتج بالدين وما يرتبط به من تاريخ وثقافة، حيث يؤكد الإبراهيمي هنا على مراعاة ثلاث اعتبارات، تتمثل في: تقريب حقائق الدين لأفراد المجتمع وإبراز البعد العملي فيه، أي أنه دين عمل، وفي نشر لغة الدين وتاريخه، إضافة إلى نشر التاريخ الإسلامي الصحيح. ما عبّر عنه في قوله: "وسعي ثالث لازم لهما وهو السعي في نشر التاريخ الإسلامي الصحيح بلغته المتضمن للثقافة الإسلامية العربية."⁽³⁾

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 378.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 46.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 52.

فقيمة المجتمع الجزائري ترتبط باجتماع هذه اللوازم المتمثلة في الدين الإسلامي ولغته وتاريخه. ولا تتحقق اجتماعيته إلا من خلال القيم التي يدعو إليها الدين، والعبر التي تأخذ من التاريخ الإسلامي "فإذا اشتمل اجتماعنا على هذه المساعي كُنّا قد عرفنا للاجتماع قيمته، وأخذنا بثمرة من ثماره وفائدة من فوائده، وقلنا وقال الناس إنه «اجتماع منتج.»" (1) فالعامل الديني وما يرتبط به يحدّد البعد القيمي للمجتمع، ويمثّل ركيزة روحية ومعنوية يتأسس عليها، ما يمكن من تحقيق الأبعاد العملية له بعد ذلك باعتبار أنه دين عمل.

و في سياق حديث الإبراهيمي عن التاريخ الإسلامي وعن الثقافة الإسلامية، يتطرق إلى المآل الذي آلت إليه الثقافة الإسلامية وإلى الركود الذي أصابها في عصره، بعد أن كانت تمثل إشعاعا ثقافيا وفكريا. فبعد أن كان ماضيها مشرقا أصبح حاضرها مظلمًا، لذلك يدعو الإبراهيمي إلى ضرورة تجديد الثقافة الإسلامية، وربطها وما يتناسب مع تطورات العصر، لا الارتكان الجأمة للماضي والتغني به فقط، ما ينقر الأجيال الحالية منه، بعد أن استهوتم الثقافة الغربية بزخارفها وما انطوت عليه من مستجدات ومغريات مادية. هذا التجديد وبالأحرى التنوير يقع على عاتق المثقفين والمصلحين بالدرجة الأولى إذ يخاطبهم الإبراهيمي ويناشدهم بالتركيز على حاضر ومستقبل الثقافة الإسلامية في بحوثهم: "فهل لكم يا أنصار الثقافة أن لا تقصروا جهودكم وأبحاثكم على ماضيها، وهل لكم أن تعطوا مستقبلها الحظ الأوفر من عنايتكم، فتخطوا مستقبل الثقافة الإسلامية معالم جديدة يهتدي بها الجيل الجديد ... أعيدكم بالله وبشرف الثقافة و بروح الحدّ من عصركم أن تهتموا بالماضي دون الحاضر، أو بالحاضر دون المستقبل، صلوا مستقبل الثقافة الإسلامية بماضيها البعيد." (2) فالطرح الإبراهيمي للتجديد لا يعني إحداث قطيعة مع تاريخ الثقافة الإسلامية إنما يقيم حلقة تواصل وامتداد يصل تاريخ الثقافة الإسلامية بالحاضر ومن ثمة بالمستقبل من خلال إصلاح كل ما تقادم وتكيفه مع الحاضر.

أما الجمود الثقافي الذي ارتبط بالثقافة الإسلامية فهو وليد عدّة عوامل أهمها الاستعمار، ولا يتحمّل مسؤولية التخلف والركود فئة معينة، بل كل أفراد المجتمع مشاركون فيه بنسب معينة، فنفور الجيل الجديد من الثقافة الإسلامية يرتبط خاصة بطبيعة الثقافة في حدّ ذاتها، وبطرائق تربية الأجيال عليها. حيث يبين الإبراهيمي أن الثقافة الإسلامية التي هي أحقّ بأن يتبعها الجيل الجديد، وهو أحقّ بما بعد ما قد أصابها من الجمود والركود ما جعلها بعيدة عن عقله، غريبة عن ذوقه، نافرة من إحساسه، وما ذلك كلّه إلا من سوء ما صنع الآباء، وما صنعت الأمهات ومن أثر الكتاب، وما طبع المعلم وما اقرّف المجتمع، حتى أصبح الناشئ

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 52.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 309.

يحتقر أبويه.⁽¹⁾ فالجمود الثقافي والنفور من الموروث الثقافي عموماً يعبر عن أزمة اجتماعية وفكرية لا بد من تداركها من خلال تجديد يربط ذلك الموروث بالتطورات العلمية، ومن خلال إصلاح للمسار التربوي والتعليمي وتجديد طرائقه وأساليبه بإضفاء روح جديدة في ذلك التراث بهدف تحقيق الحيوية في المجتمع.

2.2. اللّازم الأخلاقي كأساس وأفق للمجتمع الحيوي :

يرتبط الاجتماع الحيوي بالأخلاق الفاضلة، حيث يبين الإبراهيمي أن تحقيق المجتمع المنشود يشترط بلوغ الفضائل الأخلاقية الإسلامية، ومعالجة مختلف ما استشرى في المجتمع من تدهور أخلاقي، لأن الأخلاق هي بمثابة الدعامة المعنوية التي يرتكز عليها إما بناء المجتمعات وحمايتها أو هدم هاته المجتمعات من خلال هدم الأخلاق، خاصة في عصر تميز بكثرة التوجّهات الثقافية والرؤى المتطرفة التي قد تستمرى الرذيلة على الفضيلة. "فالواجب على اجتماعنا الذي ننشد تكوينه أن يبذل مجهودات قوية لرفع درجة الأخلاق عندنا، ومن فكري الخاص أن هذه الناحية من أمراضنا هي أيسر معالجة من جميع النواحي إذا أحسنّا تسيير الجهود الفردية في التربية المنزلية. لأن لنا أساساً نبي عليه ولا يعسر جد العسر إحيائه وهو الأخلاق الإسلامية المتوارثة في الجملة والتي نجد معظمها في القرآن." ⁽²⁾ لذلك يؤكد الإبراهيمي على ضرورة التحلي بالأخلاق الإسلامية وبناء الأجيال في كنفها. وقد اتضحت الأهمية الأخلاقية في التربية من خلال التطرق إلى الأساس الأخلاقي للتربية. وأن صلاح المجتمع المعاصر يكون بمكارم أخلاق السلف وإتباع هدي القرآن الكريم، فمن خلال التربية الأخلاقية للأفراد يتم استيفاء شروط أخلاقيات الاجتماع الحيوي كمجتمع قوامه الفضيلة. فالأخلاق هي من تحفظ أفراد المجتمع وحيويتهم.

2.3. اللّازم العلمي :

يقتضي الاجتماع الحيوي أساساً علمياً يقوم عليه، ويكفل له الاستمرارية لمسيرة مختلف تطورات الحياة، وقد تبين أنّ العلم شكّل أساساً مكيماً للتربية عند الإبراهيمي، لذلك انتقد الإبراهيمي الوضع التعليمي والتأخر العلمي للمجتمع الجزائري، مبيناً أن بلوغ الاجتماع الحيوي للمجتمع الجزائري يتطلب تربية علمية لكل شرائحه، إضافة إلى الدين والأخلاق يشكّل العلم اللّازم الثالث في الاجتماع الحيوي: "أما اللّازم الثالث وهو العلم بمعناه العام، فالحقيقة الواقعة أننا لا زلنا فيه في مؤخرة الأمم، وغاية ما نبي عليه الأساس في هذا الباب

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 309.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 52، 53.

هو هذا الشعور الذي نشأه في جميع طبقاتنا وأوساطنا بلزوم العلم، وهذه الرغبة المتأججة في صدور الناشئين منّا للعلم. ⁽¹⁾ منوها الإبراهيمي بضرورة الاستثمار في الشعور العام للأمة، ورغبة المجتمع في العلم خاصة الأجيال الناشئة.

ويدخل ضمن تجسيد هذا اللازم مختلف الجهود التي يقوم بها العلماء والمصلحون، مع ضرورة التدعيم المادي لهذا التأسيس العلمي، خاصة مع الافتقار إلى الهياكل والمنشآت المادية للتعليم. لذلك يدعو الإبراهيمي إلى ضرورة التجديد في مجال التربية والتعليم وإلى الدعم المادي لهما، حتى يتسنى تحقيق اللازم العلمي في بناء المجتمع الجزائري. "تعلمون أنه وجد في هذا القطر في عهده الأخير جماعة من أبنائه البررة حاولوا التعليم بأسلوب قريب وطريقة منظّمة، كل في دائرة اختصاصه، وجعلوا أعمالهم وأوقاتهم تضحية وطنية متّكلين على التضحية الوطنية من جانب الأغنياء وما جاوزوا مبادئ العمل حتى أعوزهم المال... إن كنّا نحَبّ -أيها السادة- أن يكون لنا أثر محمود في سبيل العلم وخطوة واسعة فيه فلنحرم على أنفسنا عقيدتين: عقيدة الاتكال على الأعمال الفردية من فريق المعلمين أو من فريق الأغنياء وعقيدة الاتكال على الحكومة." ⁽²⁾ منوها في السياق ذاته إلى ضرورة العمل الجماعي، فتكاتف الجهود بين العلماء والمصلحين والمربين هو ما يحقق هذا اللازم، إضافة إلى الدعم المادي للمشاريع العلمية وهذا لا يكون إلا من خلال الاهتمام أيضا بالجانب الاقتصادي والمالي، ما يشير إلى لازم آخر يرتبط باللازم العلمي وهو لازم المال «اللازم الاقتصادي المادي».

فهناك علاقة وطيدة بين التربية والاقتصاد، فمن وجهة النظر النفعية للتربية في نمو العلم والصناعة، أن التقدم التكنيكي يتطلب حاليا معرفة علمية، والاختراعات الجديدة هي مصدر لكل من الثروة والعظمة الوطنية، فهناك تأثير كبير للعوامل الاقتصادية على التربية على حسب الظروف المادية للدولة وعلى حسب أهداف التربية ودخل الأفراد على حسب طبقاتهم. ⁽³⁾ ومن هذه العلاقة القائمة بين التربية والاقتصاد ركّز الإبراهيمي على العامل الاقتصادي في بناء المجتمع الحيوي، وعلى ضرورة الاستثمار في مختلف المجالات الاقتصادية وتكوين رأسمال يضمن تحقيق الحيوية المادية في المجتمع.

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 53.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 53، 54.

(3) - برتراند رسل، التربية و النظام الاجتماعي، ت سميح عبده، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط2، د س، ص 191 - 196.

2. 4. اللازم الاقتصادي :

ترتبط فاعلية المجتمع وحيويته بمعامل آخر وهو المال، إذ أن مختلف المشاريع العلمية التي تنهض بالمجتمع يرجع تحقيقها وتجسيدها إلى الدعم المادي المتمثل في المال. هذا الأخير الذي يفتقر إليه الاجتماع الجزائري رغم ما يمتلكه من ثروات. فقد سارت الأمم في مناهج العمران عنقاً فسيحاً في هذا المجال، أما المجتمع الجزائري فقد بقي في نومه في نظر الإبراهيمي، غافلاً عن أخذ الأهبة للتزاحم الاقتصادي، فأدركه سيله الجارف وسدّت عليه منافذ الحياة، وشتان بين الكيلان (المتكلم على الآخر) والعامل، فالداعي من الأمم الحية العارفة بقيمة الحياة يدعو قومه إلى عمل يكسبهم عزاً ويفيدهم قوّة ويدفع عنهم ضرراً فيستمعون لقلوبهم ويمثلون لأمره بهدف تجسيد الفعل وصولاً إلى المطلوب، أما الداعي في مجتمعاتنا إلى الخير فتكون دعواه محلاً للسخرية لا العمل.⁽¹⁾

لذلك يؤكد الإبراهيمي على ضرورة اللازم الاقتصادي لتحقيق حيوية الاجتماع الإنساني خاصة في شقّها المتعلق بالإنتاج واستثمار طاقات المجتمع المادية والبشرية. مبيناً ضرورة ذلك في قوله: "أما اللازم الرابع فهو المال، فلا ننكر أنه أقرب نواحي نهضتنا إلى التحقيق، ولا ننكر أن صلتنا بالمال لم تنقطع، وفي القطر ثروات هي نتائج جهود فردية وثرورات هي بقية مما ترك الأولون، ولكن رغماً عن هذا فلا مطمع لنا باللحاق بالأمم الغنية المعتزة بغناها ولم نبلغ أن تكون لنا قيمة مالية في أسواقها الكبرى."⁽²⁾ ونظراً لشمولية مفهوم المال في نظر الإبراهيمي لمختلف الثروات وما يتعلق بالجانب المادي، عبّر الباحث عنه باللازم الاقتصادي.

يرسم الإبراهيمي أفقا اقتصاديا ينبغي بلوغه وهو الدخول في عالم السوق العالمي واللاحق بالأمم المتطورة والغنية إذا أحسن استثمار مختلف الثروات. مؤكداً في هذا المسار أن شرط بلوغ النمو الاقتصادي يقوم على نقطتين هامتين وهما: «الاحتفاظ» و«الاستثمار»:

الاحتفاظ: بمعنى ضرورة المحافظة على ما هو موجود من ثروات وطاقات من جهة.

الاستثمار: استثمار ذلك الموجود وتنميته من جهة أخرى لبلوغ الاقتصاد المنشود.

نظراً لأن الصراع السائد في العالم اليوم صراع اقتصادي وصراع مصالح، لذلك وجب التسيير الجيد لهذا الجانب، وهو بهذا يرسم قاعدة اقتصادية ينبغي أن يتبناها المجتمع الحيوي. يعبر عن ذلك قائلاً: "نحن في هذا

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 57.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 54.

المقام نتحمل واجبين: واجب الاحتفاظ بما هو موجود، وواجب استثمار الموجود حتى ينمو، وإذا أردنا القيام بالواجبين فلا بدّ لنا من اعتبار الأصول المرعية في كل من الاحتفاظ والاستثمار، وكلنا يعتقد أن الثروات التي بين أيدينا إنما نمت بعد أطراح أساليب التنمية العتيقة واستعمال الأساليب الجديدة... إن المال ليس كبقية مقومات الحياة بل يفارقها في نظر جوهري وهو التأثير بالمزاحمة. فالزّحام الشديد لا يكون إلا عليه، والتكالب العنيف لا يكون إلا لأجله، وقد تموت في هذا الزّحام أمة أو أمم لا تعرف كيف تراحم.⁽¹⁾

ويتضح في نصائحه المقدمة لمجلس جمعية العلماء، الكثير مما يرتبط بفن الإدارة والتسيير، ويستفاد منه في التسيير المالي والاقتصادي أيضا. مؤكدا على الدّراسة المتأنية قبل اتخاذ أي حكم، وعلى عدم الارتجالية في التسيير ووضع القرارات، مع التأكيد على ضرورة الحفاظ على الموجود والانطلاق منه لتحقيق المنشود الذي لا يزال مفقودا ما دام لم يحقق بعد. "أوصيه الرّوية والأناة في الحكم على الأشياء فإن الارتجال مجلبة ندم... وأوصيه بإتقان القديم وتصحيحه، قبل التفكير في الجديد، فإن تشعب الأعمال مضيعة لجميعها، وإن إصلاح الموجود خير وأجدى من السّعي للمفقود. وأوصيه بالانسجام، فإن لا يكن طبيعيا اكتسبه، وإن لا يكن موجودا اجتلبه. وأوصيه بالتضامن في السّراء و الضّراء و التعاضد في الآراء والأعمال، فإن التخاذل أول مراتب الخيبة. وأوصيه بالصدق في الحال وأن يكون ظاهره كباطنه."⁽²⁾ بحيث يتطلب التسيير الاقتصادي من هذا المنطلق ضرورة التسيير الجماعي من خلال التعاون وتبادل الآراء في العمل أو في التوجيه والتنظيم، مع ضرورة صدق النّوايا والصدق والإخلاص في العمل.

كما يدعو الإبراهيمي إلى ضرورة تكوين شركات للتعاون بين الفلاحين والتجّار وتأسيس مصارف مالية ومستودعات للأموال المعطلة وصناديق للتوفير والاحتياط، مماثلة لما يحكم عالم المال والأعمال في عالمنا المعاصر، وذلك بهدف تجنب تحكم أصحاب المؤسسات الكبرى في الصغرى وتجنب تحكم الأجانب فيهم. مع ضرورة نشر ثقافة العمل الجماعي من خلال المرتبطين بالمجتمع من أقلام الصحافة والمعلمين.⁽³⁾

إضافة إلى ذلك ينبغي الربط بين عاملي العلم و المال، فهما قرينين في تكوين الحضارة الوقتية - في رهن الإبراهيمي- إذ ينبغي الاستثمار في رأس المال الموجود، مع الأخذ بعين الاعتبار أن معترك المال والاقتصاد فيه أمم أشدّ قوة في الاستثمار والمزاحمة، وهناك طوائف لديها نظرة استشرافية لمواقع المال، وكل أمة

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 54.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 444، 445.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 56.

توظف في سبيل ذلك ما تملكه من مقومات الاقتصاد، فمن تخونها القوة البدنية والجانب المادي عوضته بالجانب العقلي والكيميائي، فالعلم والعقل هما الموجهان للاستثمار، وليس من الحكمة الوقوف في الاستثمار على طرائق الأجداد، ففضى الله أن يصبح المال والعلم سلاحين لكل مقبل على الحياة.⁽¹⁾

فالمجتمع الجزائري يمتلك بوادق قيام الاجتماع الحيوي، وهناك العديد من الإرهاصات التي بدأت تدل على الوعي بالإقبال على الحياة، فمثلا يبين الإبراهيمي الشعور بالحياة الذي انتشر وسط الأمة، فدفعها إلى الإصلاح والتغيير، بداية من شعورها بالفساد الذي يعدّ أول مراحل الإصلاح إلى العمل على مجابهته، وتجلّى هذا الشعور بالعمل في مختلف مناحي الحياة العامة التي ترتبط باللوازم التي أكد عليها، "فتجلى في الناحية الاقتصادية بالدخول في ميادين الكسب التي كانت وقفا على غير المسلم الجزائري. وتجلّى في الناحية الأدبية بتأسيس النوادي والجمعيات المختلفة، وتجلّى في الناحية العلمية بالإقبال على القراءة والتعلم باللغتين العربية والفرنسية، والبذل على العلم والتّغرب في سبيله. وتجلّى في الناحية الدينية بتشديد المدارس في القرى، وتجلّى في الناحية النفسية بالتفكير الجدّي المستقيم. ومن مظاهر الاعتماد على النفس في الأعمال التي ذكرنا والإيمان بوجود شيء اسمه الأمة." ⁽²⁾

فالأمة الجزائرية تمتاز بكل مقومات الاجتماع الحيوي، تلك المقومات التي تقوم عليها الاجتماعات الإنسانية والأمم كـمقومات تشكل رابطا روحيا لأفرادها، مُتمثلةً في مقومات الشخصية الوطنية، من وطن ودين ولغة. فالأمة الجزائرية "تحمل ما تحمله الأمم من المقومات الكلية، وإن كانت لا تحمل ما تحمله الأمم من المؤهلات للحياة، وقد أخذت تشعر بنقائصها الاجتماعية وأخذت تتلمّس سبيل الهداية لسدّ تلك النقائص، وتجلّى هذا الشعور في رغبتها الصادقة في العلم، ورغبتها الصادقة في التعارف و الاجتماع." ⁽³⁾ فامتلاك هذه المقومات هو الدافع للإقبال على العمل و على الحياة.

ونظرا لامتلاك موجبات الاجتماع الحيوي على الجهود أن تتضافر لإحداث تغيير اجتماعي في مختلف الأصعدة التربوية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لتحقيق الفاعلية والحيوية. دون إغفال عامل آخر وهو "العامل الإنساني" أو "عامل التآخي" بتعبيره في بناء هذا الاجتماع الحيوي. فإذا كان: "الاجتماع أمنية كل عاقل، والتآخي طلبه كل مخلص، والعلم نشيدة كل حي، فكيف إذا اجتمع العلم والتآخي فيه و الاجتماع

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 54، 55.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 187.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 141.

على استثماره.⁽¹⁾ فبالإضافة إلى اللوازم السابق ذكرها لا بدّ من مراعاة البعد الإنساني المتجسد في عامل التأخي الاجتماعي، فالتعاون الاجتماعي سبيل لتحقيق التعاون الاقتصادي وسبيل لتحقيقه في المجالات الأخرى، ومن ثمّة إمكانية تجسيد الاجتماع الحيوي الجزائري.

3. تحقيق التغيير الاجتماعي :

إن تحقيق التغيير الاجتماعي واجب جماعي، لا يقتصر على فرد واحد أو فئة معينة بل يشمل كل فئات المجتمع، كل بدوره المنوط له حتى يتم بلوغ الهدف وإحداث التغيير المنشود. ونظرا لأن التغيير الاجتماعي ينطلق من الفرد ليشمل جميع أفراد المجتمع، يؤكد الإبراهيمي على دور العمل والتعاون الاجتماعي في تحقيقه، مبرزا فائدته مقابل العمل الفردي. "فالعمل الفردي ينتج عملا فرديًا فقلنا هو مفيد في الجملة إذ لا يتألف المجموع إلا من الفرد، ونظرنا إلى أعمال التعاون والاجتماع عند غيرنا فوجدناها تفيد فائدة اجتماعية فاستحسنّاها... لماذا لا ندخل هذا الباب بالتّروّي".⁽²⁾ فتغيير الفرد لذاته تغيير للمجتمع، لأن الفرد سيؤثّر على أفراد آخرين، وبذلك ينبغي تتمين أي عمل فردي وتنميته ليغدو جماعيا فيشمل كل المجتمع.

والعمل الجماعي كفيل بنقل المجتمع من حالة النقصان الذي يعانیه إلى حالة من الكمال النسبي، وإن أكد الإبراهيمي على العمل الجماعي، فالمنطلق يبقى مرتبطا بأداء كل فرد لوظيفته الاجتماعية على أكمل وجه. لأن عمل المجموع متوقف على عمل الأفراد. استنادا إلى قاعدة وقانون عام يحكم الاجتماع البشري تتمثل في: «نسبية الكمال البشري» فالدول والأمم تتفاوت في نسبة هذا الكمال نظرا لاختلاف درجة تطورها في أسباب الكمال المرتبطة بمختلف المجالات العلمية والاقتصادية والأخلاق وأساليب الحياة وأسبابها مما يدخل ضمن الكمال المكتسب، محددا ذلك في قوله: "ومما علمناه في شؤون الاجتماع البشري أن الكمال فيه نسبي إضافي، فما من كمال إلا وفوقه كمال، وأن الكمال في المجموع متوقف على الكمال في الأفراد، وأن النقص في المجموع متوقف على النقص في الأفراد، فمتى أخذ الأفراد بأسباب الكمال وسلوكوا له وسائله كمل المجموع. ومتى قعد الأفراد عن تعاطي أسباب الكمال فشت النقص في المجموع... ويتضح من هذا كلّه أن كل ما يسمّى من أحوال الأمم تطورا هو في الحقيقة عبارة عن مداورتها بين النقص والكمال صعودا وهبوطا."⁽³⁾

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 186.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 55.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 201.

مما يؤكد دور العمل الجماعي في تحقيق التغيير الاجتماعي وبلوغ الكمال الإنساني المكتسب، تعاون الجهود نحو القضاء على الأمية وإحداث تغيير علمي في المجتمع، لنقله من حالة الجهل والامية إلى حالة العلم والمعرفة، إذ تعدّ الأمية آفة اجتماعية مهلكة تسعى مختلف الأمم إلى تجاوزها. ما يتطلب تضافر جهود العلماء والمثقفين في ذلك، مع الأخذ بتجارب الأمم الحية في محاربتها. يدعو الإبراهيمي إلى ذلك متسائلا في نفس الوقت عن دور العلماء والمثقفين في ذلك: "أين خطباؤنا؟ لما لا يحملون على الأمية حملة شعواء؟ و لما لا يعطونها من الاهتمام ما أعطوه لقرن الثور وفضائل الشهور؟ وأين شعراؤنا؟ لما لا يشاركون في حملة منظمة ويدعون إليها بقصائدهم المثيرة المحركة؟ وأين علماءنا الذين برّاهم الله من داء الأمية؟ لماذا لا يسعون في تطيب غيرهم منها... وأين أغنياؤنا؟ يخرجون الأموال ويشيدون المدارس ويقفون في مكافحة هذا الداء؟" (1) فتحقيق الكمال العلمي مقترن بكل شرائح المجتمع والأمر سيان بالنسبة للمجالات الأخرى. ويتحدد ربطه بين العلماء والشعراء الذين يمثلون الأدباء والأغنياء، مع تكاتف جهودهم جميعا للقضاء على الأمية، فإحداث التغيير المنشود لا يقتصر على جماعة دون أخرى بل يشمل الجميع.

كما يشترط تحقيق التغيير الاجتماعي مراعاة التدرج والمرحلية في الانتقال من كمال إلى كمال، ومن مرحلة إلى مرحلة، "فمن عوامل نجاح أي حركة هو أن ترتب جميع مراحلها وتضبط أطوارها، بحيث لا تسبق مرحلة مرحلة، ولا يجاوز طور طورا، ولا تستعجل نهاية فترة قبل أن تستوفي أمدها، ويحين أجلها، ولا تحترق سنن الله في النمو الطبيعي لأي كائن." (2) فالاجتماع البشري في سيرورته ينحوا منحى الكائن الحي في نموه، إذ لا بد له من أن يستوفي نموه في كل مرحلة حتى ينتقل لمرحلة أخرى، وهذا ما ينعكس بشكل خاص في تربية الأجيال وتعليمها، بأن تكون التربية متدرجة على حسب نمو الفرد وقدراته العقلية والجسمية مثلما أكد عليه الشيخ الإبراهيمي في أكثر من مقام، ويؤكد عليه في الأساس النفسي للتربية.

كما يرتبط التغيير الاجتماعي بالنهل من تجارب الآخرين، فمعظم الأزمات التي تقع فيها المجتمعات قد تكون مشتركة بينها إلى حد كبير، غير أن الحلول قد تختلف من مجتمع إلى آخر خاصة مع اختلاف مقوماتها وبيئتها الاجتماعية والطبيعية، وكل ما تعلق بالتغيير الزماني والمكاني. فالعديد من النقائص التي ارتبطت بعديد من الأمم نجدها موجودة في المجتمع الجزائري والإسلامي عامة، فتحقيق التغيير يستلزم الاعتبار والاستفادة من تلك التجارب. فما "من نقيصة كانت سببا في هلاك الأمم قبلنا إلا وهي موجودة فينا على اختلاف تقتضيه

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 204.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 9.

طبيعة الزمان والمكان، وإن تغافل الإنسان عن عيبه لمن دواعي الغرور، والغرور من دواعي التماذي في الغي، والتماذي في الغي من موجبات الهلاك... تمر الحوادث بنا تباعاً فلا نعتبر ولا نزدجر، ويسير العالم بما فيه سيره إلى الأمام ونحن في موقف لا نتبين فيه موقع أقدامنا، فكأن القطعة التي نحن عليها من هذه الأرض واقفة لا تتحرك أو كأن الأمم كلها ورثت من الأرض التحرك إلا نحن.⁽¹⁾

يبين الإبراهيمي أن حالة المجتمع في صيرورته التاريخية تشبه إلى حد كبير أعمار الأفراد في جوانب معينة، وكذا مختلف التغيرات والحالات التي قد تطرأ على حياتهم، من لحظات السعادة إلى لحظات الحزن، أو من مشقة التعب إلى لذة الراحة والفائدة، وعلى الإنسان أن يحسن استثمار نكباته وأزماته لتحقيق نهضته وإحداث التغيير الاجتماعي. "فالأمم تعرف في هذه الحياة بأيامها، والأيام أفرح وأتراح، الفرد فيها كالجماعة، وإن أعمار الأمم منها ما كان كله كالصفحات البيضاء نقاءً وإشراقاً، ومنها ما كان مظلماً حالك السواد، وإذا درسنا بدايات الأمم ونهايات الأفراد سواء بسواء، وإذا أمعنا النظر في أيام الجميع السارة لم نلقها إلا قليلة جداً، وكذلك كانت أيام المسلمين السعيدة... إن أيام النكبات عند العقلاء أعظم من أيام الرخاء والهناء، وأيام البلاء في حياة المسلمين أزهى أيامهم، وأجدى عليهم نفعاً وأبقى ذكراً وأخلد أثراً."⁽²⁾ فعلى المجتمع أن يحسن التعامل مع مختلف المواقف والمشكلات التي تعترضه ويجعلها أداة للتغيير والتطوير، لا مصوغات لتبرير النكبات والسقوط، فالهمم العالية تولد من تلك الأزمات، التي هي مجرد امتحان للإنسان ومدى صبره ومقاومته.

ومنه فإن تحقيق التغيير الاجتماعي وبلوغ مرتبة المجتمع الحيوي الذي يتمتع بكماله الإنساني المكتسب يقترن بعدد العوامل التي ترتبط بالتربية الشاملة لمختلف الأفراد وفق الأسس التربوية لكل أمة، مع ربطها بمنتجات الحضارة ومسايرتها. وتحقيق ذلك يكون من خلال المشاركة الجماعية القائمة على أداء كل فرد لوظيفته، ومراعاة مختلف العوامل أو اللوازم الدينية العلمية والأخلاقية والاقتصادية من طرف الفرد والمجموع. ويتضح من منظور الإبراهيمي أن أي اجتماع حيوي لا يتأتى إلا من خلال احترامه لمقومات المجتمع التاريخية والثقافية التي تعبر عن الشخصية الوطنية، لأنها الكفيلة بتقوية الرابطة الروحية والاجتماعية بين أفراد المجتمع وإلى تجديد حيويته مع إضفاء الحيوية عليها متى تم ركودها. مع ضرورة التجديد المستمر فيما يتوافق و التطور العلمي الحاصل. وهذا ما يرتبط ذلك باللازم العلمي.

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 57.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص297، 298.

وقد أخذ الإبراهيمي بعين الاعتبار الانطلاق من الواقع الاجتماعي في عملية التغيير، فقد أبدى اهتماما كبيرا بتصحيح موازين الإدراك لدى المجتمع، ولا يكون ذلك إلا من خلال بثّ روح الثقة فيه وربطه بماضيه وحاضره ومستقبله، مع مراعاة الحال والمآل، فالأوضاع التي كان عليها المجتمع الجزائري جعلته منقطعا بحدّ معين عن تاريخه بفعل الإجماع الفرنسي، لذلك عمل الإبراهيمي على توعية المجتمع بميراثه العريق وتمييزه الحضاري، مستعملا مصطلح «الإرشاد الاجتماعي» بدلا من «النقد الاجتماعي» في التقرير الذي رفعه إلى أعضاء جمعية العلماء سبتمبر 1951، ما يبين البعد التربوي لديه، إذ أن غاية النقد الإرشاد.⁽¹⁾ فتحقيق التغيير الاجتماعي عند الإبراهيمي ينطلق من نقد الواقع الاجتماعي ويأخذ بعين الاعتبار أهم المتغيرات التي يمر بها المجتمع ناهيك عن المقومات التي تميزه، ما أبرزته اللوازم الأربعة التي أكد عليها في بناء الاجتماع الحيوي.

ولم تكن نظرة الإبراهيمي في هذا الصدد جزئية إنما هي نظرة كلية في عملية التغيير الاجتماعي، إذ شملت توجيهاته وإرشاداته الاجتماعية مختلف الفئات وشرائح المجتمع، المغتربون منهم والمقيمون، الأغنياء والفقراء، المثقفون والأميون، العمال والبطالون، الأطفال والراشدون، كما شملت كل ما يرتبط بالمجتمع من ظواهر وقضايا، كالقضايا التي تتعلق بالأسرة والزواج على سبيل المثال، إضافة إلى الظواهر الدينية وما ارتبط ببعض رجال الدين ولدى بعض الطرقية الفاسدة، وكذا الكثير من العادات السلبية السائدة في المجتمع ومختلف الانعكاسات التي أفرزها النشاط السياسي على الشرائح الاجتماعية وتوجهاتها، إضافة إلى تأثير التعليم والأيدولوجية الاستعمارية على الدّهنيات في مقابل ما حقّقه مدارس التعليم العربي من وعي. ما يؤكد على ضرورة الإمام الواسع والمتكامل بالواقع الاجتماعي من أجل العمل على تحقيق تربية اجتماعية وتحقيق تغيير اجتماعي يكون نتاجه المجتمع الحيوي.

كما يرتبط التغيير الاجتماعي بتغيير وحل العديد من القضايا والمشكلات الاجتماعية، ومن بين ما تطرّق إليه الإبراهيمي في هذا الصدد قضايا الأسرة. إذ يتناول الإبراهيمي في السياق التربوي الاجتماعي عديد القضايا التي تعلّقت بالأسرة الجزائرية كصورة مصغرة للمجتمع الجزائري، ومن أهم تلك القضايا التي عالجها ما يتعلق بالزواج، ومسألة تحقيق الوحدة الاجتماعية بين أفراد المجتمع، بعد محاولات المستعمر المتكررة على إحداث شرخ عنصري وقبلي في المجتمع الجزائري وغير ذلك من المشاكل الاجتماعية.

(1) - محمد بو عبد الله، النزعة النقدية عند الإبراهيمي، العلامة محمد البشير الإبراهيمي وآفاق الحداثة، ص 327، 328.

ففي القضايا المتعلقة بالأسرة يعرّج الإبراهيمي على قضية الزواج في المجتمع الجزائري، وقد طُرحت هذه القضية خصيصاً لدى الشباب الجزائري كظاهرة متمثلة في عزوف الأغلبية من الشباب عن الزواج لعدّة دواعي وأسباب، عمل الإبراهيمي على توضيحها ونقدها في نفس الوقت مبرزاً آثارها السلبية. مقابل إبراز الدور الإيجابي لتكوين الأسرة والبعد التربوي في ذلك. ففي مقاله «من مشاكلنا الاجتماعية»⁽¹⁾ المنشور بجريدة البصائر يبين أن لهذه الظاهرة تأثيراً كبيراً في الأمة، في ضياع نبات الأمة، فثمرة الزواج أنه يزيد من الألفة والحمية في خدمة الوطن والدّود عنه، إضافة إلى تنمية حسّ المسؤولية المترتبة عن الزواج، خاصة المسؤولية الاجتماعية اتجاه الأسرة أو المجتمع أو المسؤولية اتجاه الوطن. فالزواج في حدّ ذاته تربية اجتماعية للفرد من خلال دخوله معترك الحياة وتحمل مسؤولية الآخرين، يوضّح الإبراهيمي هذه الفكرة للشباب: "أيها الشبان! إنكم لا تخدمون وطنكم وأمتكم بأشرف من أن تتزوجوا، فيصبح لكم عرض تدافعون عنه، وزوجات تحامون عنهن، وأولاد يوسّعون الآمال، هنالك تتدربون على المسؤوليات، وتشعرون بها وتعظم الحياة في أعينكم، وبذلك تزداد القومية قوة في نفوسكم، إن الزوجة والأولاد حبال تربط الوطني بوطنه، وتزيد في إيمانه، وإن الإعراض عن الزواج فرار من أعظم مسؤولية في الحياة."⁽²⁾

إذ يحدد الفوائد المترتبة عن الزواج رابطاً إياها بغاية الوطن والأمة، فمن خلاله تتضح قيمة الحياة للأفراد، كما تمثل الأسرة وأفرادها الرابطة القوية بين الفرد والوطن وتزيد في انتمائه الوطني، فإن شكّلت مقومات الشخصية الوطنية من دين ولغة وتاريخ مشترك رابطاً اجتماعياً ووطنياً يربّي عليه الأشخاص، فإن الأسرة تزيد من قوة تلك العلاقة والرابطة، خاصة من خلال الرابطة التّفسية القوية الناتجة بين الأبناء والآباء. فمتى ازدادت وانتظمت الروابط الأسرية ازدادت الرابطة الاجتماعية وبالتالي الرابطة الوطنية والقومية لذلك جعل الإبراهيمي الزواج عاملاً مهماً في تنمية الحس الوطني عند الشباب.

فتكوين الأسرة يمثّل عاملاً تربوياً باعتباره تربية على المسؤولية، إضافة إلى كون الأسرة تشكّل الوسط الطبيعي والأول لتربية الأبناء وبالتالي الأجيال، فإذا تمّ تكوين الأسرة على أسس سليمة تمّ ضمان تربية الأجيال وفق أسس سليمة، وفي هذا الصّدّد بيّن الإبراهيمي أن سبب عزوف البعض عن الزواج يرجع إلى الفاقة وما يستتبع الزواج من عوائد مادية، مرجعاً السبب في ذلك إلى المجتمع الذي نَبَدَ هداية الدّين وإرشاد العقل مستتبعا العادات السيئة، لذلك دعا إلى ضرورة الإقلاع عن هاته العادات، أما البعض من المثقفين العازفين عن

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 293. (المقال نشر في العدد 6 من جريدة البصائر، 12 سبتمبر سنة 1947).

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 296.

الزواج فيرجعون تأخرهم فيه للاحتياط للمستقبل إما مبالغة من طرفهم أو أنهم لا يستطيعون الزواج ممن لا يساووهم ثقافة وهي أعذار واهية، وقد انتشر في مقابل ذلك الزواج بالأوروبيات من طرف بعض المثقفين الذين أفسدت أذواقهم الثقافة الغربية، ما قد يؤثر على حياتهم.⁽¹⁾

لذلك يؤكد الإبراهيمي على ضرورة اعتماد الأحكام الإسلامية في الأمور المتعلقة بالزواج وبناء الأسرة، بمراعاة فطرة الإنسان وظروفه الاجتماعية، والاعتداد بالأساس الأخلاقي، فقد "راعى الإسلام وهو دين الفطرة- كل ذلك فندب إلى الزواج وحضّ عليه وسّمّاه إحصانا، وشرع له الأحكام ما هو أقرب إلى التيسير والفطرة والتسامح ... إن مقاصد الإسلام في هذه السنّة أعلى من كل ما يعلمه الناس، فهو يرمي بما شرع إلى بناء البيوت على المحبة والتعاون وتربية النسل وتعليمه وتقوية الأمة به."⁽²⁾ فالهدف من الزواج تأسيس أسرة أولا، ومنه تربية الأجيال لتقوى بها الأمة، وليس الهدف منه تلك العوائد من التقاليد والعادات التي صرفته عن غاياته الأساسية وجعلته حملا يثقل كاهل الكثير من الشباب اليوم مما قد يؤدي إلى انعدام القيم مستقبلا.

ومنه كان تأكيد الإبراهيمي على التيسير في الأمور الاجتماعية لا التعسير فيها، مراعاة لمصلحة الأجيال والوطن، واستتباعا للأحكام الإسلامية المؤكدة عليه. ويشير الإبراهيمي إلى ضرورة التعامل مع الطبيعة البشرية كما بينته هاته الأحكام لا مغالبتها، لأنه ستعود الغلبة في الأخير للطبيعة البشرية، منبها في هذا السياق إلى تأثيرات الظرف والواقع على الشبان والشابات خاصة، حتى لا يكونوا لقمة صائغة للاستعمار ومغرياته واستفزازاته، أو أن يكونوا ضحية للنزوات والغرائز. "أيها الآباء يسروا ولا تعسروا، وقدرّوا لهذه الحالة عواقبها وارجعوا إلى سماحة الدين ويسره، وإلى بساطة الفطرة ولينها... إنكم لا تغالبون الطبيعة البشرية إلا غلبتكم، ولا تشادّون سنن الله إلا قهرتكم، وإن الدواء في أيديكم."⁽³⁾

فالزواج أحد السنن الكونية التي وضعها وبينها الخالق سبحانه وتعالى. وهو قانون من قوانين الحياة الطبيعية الاجتماعية اقتضته الحكمة الإلهية كقانون يحكم حياة الناس وباقي المخلوقات. فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 293، 394.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 294، 295.

(3) - المصدر نفسه، ج3، ص 296.

لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.﴿١﴾ فالطبيعة البشرية إذن من وجهة نظر الإبراهيمي لا يمكن مغالبتها، بل يجب تهذيبها وتحكيم العقل فيها، من خلال اتباع التشريع الديني الإسلامي. ويتضح بذلك أنّ الزواج عند الإبراهيمي تربية للنفس، وتهذيب للغريزة الإنسانية والتحكّم فيها، وتنمية لحسّ المسؤولية ونقلها من الحسّ الفردي إلى الحسّ الجماعي، بأن يكون الفرد مسؤولاً عن أسرته، مستتبعاً ذلك بأن الشعور بالمسؤولية الأسرية ينمي المسؤولية اتجاه الوطن وقيام الأفراد بواجباتهم ويزد في انتمائهم للوطن.

وضّح الإبراهيمي في عرضه لقضية الزواج الجانب التربوي والإيجابي فيه، إضافة إلى عرض الجانب الذي شكّل مشكلة اجتماعية فيما تعلق بعزوف الشباب عن الزواج، ولا يغفل في سياق حديثه عن الزواج موضوع الطلاق، فإن كان الزواج يزيد في لحمة المجتمع ووحدته، فإن الطلاق على النقيض من ذلك قد يخلّف شرخاً اجتماعياً كبيراً، ويفسد الوحدة القائمة فيهدّد المجتمع. رغم أنه أحد الحلول التي شرّعها الإسلام بناء على أسباب معقولة. غير أن الظاهرة التي يعالجها الإبراهيمي ويركز عليها هي كثرة هذه الظاهرة وارتباطها بقضايا قد لا تتعلق بالحياة الزوجية إنما بأسباب خارجة عنها. والمتمثلة خصوصاً في كون الزوجة أصبحت أداة لليمين، فقد يحلف الزوج بالطلاق في مجلس ما لقضية معينة قد تكون تافهة، ويوظّف الإبراهيمي أمثلة عن ذلك: فقد يختلف الرجل "مع آخر في شأن جليل أو حقير، فيحلف أحدهما أو كلاهما بالطلاق حانثاً فتكون النتيجة خراب بيت وتمزيق أسرة وتشريد بنين... ويتنازع اثنان الحديث في السياسة أو التفضيل بين شخصين أو في الغيم أو الصحو، فتجري ألفاظ الطلاق متناثرة متعدّدة، كأنها لازمة الحديث، وكأن الكثير منهم لم يتزوّج إلا ليجعل الزوجة أداة يمين، أو ليصدقه الناس حين يحلف أنه متزوج." (2) وما النزول بهذا الميثاق بين الزوجين إلى مستوى المناقشات الفارغة إلا جهل بحقيقة هذه الرابطة التي شرّعها الله سبحانه وتعالى، كما أنه جهل بقيمة هذا العقد بين الرجل والمرأة ودوره في بناء المجتمع.

لذلك يؤكد الإبراهيمي على ضرورة الحفاظ على هاته الصلّة حفاظاً على الأجيال لأن: "الأمة لا تنعم بأطفالها صغاراً، ولا تنتفع بهم كباراً، إلا إذا نشؤوا متقلبين في أحضان الآباء والأمهات، متلقين لدروس العطف والحنان من قلبين متعاطفين، لا من قلب واحد." (3) فيشكل الزواج وبناء الأسرة حاضنة تربية تبني عليها الأجيال الصاعدة، ومن ثمة تساهم في تحقيق التغيير الاجتماعي، ما يفسّر تركيز الإبراهيمي عليه كأهم

(1) - سورة الروم، الآية 21.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 299.

(3) - المصدر نفسه، ج3، ص 300.

القضايا التي تطرح في المجتمع، والتي ينبغي معالجة مختلف ما يتعلّق بها من مشكلات، تحقيقاً لبناء أهم مؤسسة تربوية والتي تتمثل في الأسرة، وضماناً لمسيرة المجتمع في تربية أجيال تحقّق التغيير المأمول.

4. الإصلاح الاجتماعي امتداد للإصلاح الديني :

إن مسعى التربية لدى الإبراهيمي يأخذ بعين الاعتبار التربية الاجتماعية وما يستتبعها من إصلاح اجتماعي، وهذا ما يتبين من التوجه الذي قامت عليه جمعية العلماء في عملها الإصلاحية من أول عهدها، "الحقيقة أن هذه الجمعية تعمل من أول يوم من تكوينها للإصلاح الديني وللإصلاح الاجتماعي، وكل ذلك يسع الإسلام، وكل ذلك يسعه مدلولها وموضوعها وقانونها، فالإسلام دين واجتماع، فإذا كانت دائرة الأول محدودة فإن دائرة الثاني واسعة الأطراف، وإن الإصلاح الديني لا يتم إلا بالإصلاح الاجتماعي".⁽¹⁾ إذ يظهر أن الإصلاح والتغيير الديني ما هو في حقيقته إلا تغيير وتربية اجتماعية، نظراً للتلازم بين الديني والاجتماعي، لأن الدين يؤكد على جانب المعاملات والعلاقات بين الناس. وبذلك يكون الإصلاح الاجتماعي امتداداً للإصلاح الديني.

فالتربية الدينية يجب أن تنعكس كسلوك اجتماعي من خلال تجسيد القيم الدينية خاصة في شقّها المتعلق بالأخوة الإنسانية. فالمسلم في نظر الإبراهيمي: "لا يكون مسلماً حقيقياً مستقيماً في دينه على الطريقة حتى تستقيم اجتماعيته، فيحسن إدراكه للأشياء وفهمه لمعنى الحياة وتقديره لوظيفته فيها وعلمه بحظه منها وينضج عقله وتفكيره ويلمّ بزمانه وأهل زمانه ويتقاضى من أفراد المجموعة البشرية ما يتقاضونه منه من حقوق وواجبات، ويرى لنفسه العزّة والقوّة ما يروونه لأنفسهم، وترتبط بينه وبينهم رابطة الأخوة والمساواة والمصلحة لا رابطة السيادة عليه والاستئثار دونه".⁽²⁾ ما يؤكد على الترابط بين الديني والاجتماعي. وفي هذا الشق ترتبط رؤية الإبراهيمي إلى حد بعيد برؤية مالك بن نبي حينما اعتبر أن إحياء الوظيفة الاجتماعية للدين من المفاصل الأساسية لمشروع الإصلاح التربوي في العالم الإسلامي، نظراً لطبيعة الدين وموقعه في حياة الإنسان المسلم، ولأن ظاهرة التدين هي حقيقتها فطرية في الطبيعة البشرية، إذ لا يمكن للدين أن يتحلّى باستقامة في حياة الإنسان إلا إذا أخضع الإنسان ذاته لعملية تربوية بشكل يمكن للدين من تبوّء موقعه كعامل توجيه وتقييم

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 283.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 283.

للسلوك البشري.⁽¹⁾ ويتضح ذلك في اقتران الاستقامة الدّينية بالاستقامة الاجتماعية لدى البشر الإبراهيمي، ولا تتحقق حقيقة الإسلام والمسلم إلا بإعادة تشكيل اجتماعية الإنسان المسلم بناءً على إصلاح تربوي يأخذ بعين الاعتبار الأساس الدّيني كمنطلق أساسي في عملية بناء الإنسان والمجتمع معاً، وتحقيق عامل الأخوة الاجتماعية التي تمّ التأكيد عليها سابقاً.

ونظراً لأن التربية الدّينية تركز على البعد الروحي، فذلك يؤكّد على ترابط الدّيني بالاجتماعي، فقد شكّلت الحياة الاجتماعية وسيلة لبلوغ الحياة الروحية، والحياة الروحية هي الشرط الأولي للحياة الاجتماعية، فالعلم يتطلب الكتب والمختبرات، والأخلاق تتطلب المؤسسات الاجتماعية والأعراف والتقاليد، والفن يستلزم المتاحف والآثار، والأدب يحتاج إلى المكاتب والمسارح، وهكذا يتضح أن العمل والأخلاق والفهم والدين لا يمكن أن يستمروا إلا عن طريق التربية التي هي نقل يقوم من خلاله ناقل القيم الروحية بإشراك الآخرين، فهي إذن عمل اجتماعي من الطراز الأول.⁽²⁾

ومنه كان سعي جمعية العلماء المسلمين إلهام الأمة المعاني الاجتماعية وتوجيهها إلى مجارة السابقين وتميئتها لأن تكون أمة عزيزة الجنب، وأن الدّين لا يقتصر على مجرد عبادات وطقوس جوفاء يؤدّيها المسلم، إنما يتحلّى وينعكس في معاملاته وسلوكياته وكلّ حياته، كثقافة ووعي متجسدين في مختلف مجالات حياته. "نقول للمسلم إذا فصلنا: كن رجلاً عزيزاً قوياً عالماً هادياً محسناً كسوباً، معطياً من نفسك آخذاً لها عارفاً بالحياة سباقاً في ميادينها، صادقاً صابراً هيئناً إذا أريد منك الخير، صلباً إذا أردت على الشر." ⁽³⁾ هذا ما انعكس في التوجيه العملي التربوي للإبراهيمي، ودعوته إلى ضرورة تغيير مختلف العوائد الاجتماعية السلبية، ومختلف ما لامس المجتمع من عقائد باطلة، وتوجيه الأمة نحو الفضائل، وتطهير نفوس أبنائها بقوة الأخلاق وسمو التفكير الذي كان منطلقه تعاليم الدّين، ما يؤكّد جلياً الترابط بين الإصلاحين الدّيني والاجتماعي في عملية الإصلاح التربوي الإبراهيمي.

(1) - عمر نقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، نحو نظرية تربوية جديدة للعالم الإسلامي المعاصر، شركة الأصاله للنشر، الجزائر، ط3، 2017، ص417.

(2) - روني أوبير، التربية العامة، ص318.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص283.

5. الحد من الأمية كظاهرة اجتماعية :

تضمنت اللوازم التي دعا إليها الإبراهيمي لإقامة الاجتماع الحيوي التأكيد على اللازم العلمي، فهذا الأخير يشكل أساسا تربويا ينبغي أن يُعدّ عليه الأفراد. ونظرا لأن الرّاهن الجزائري آنذاك كان يعاني من نقص فادح في التربية والتعليم أدّى إلى استفحال ظاهرة الأمية خصوصا لدى الفئات الكبيرة في السن أو الفئات التي تشغل قواعد البيوت من النساء. فإن كان الأطفال يزاولون تعليمهم في المدارس والكتاتيب القرآنية ولو بصفة مؤقتة لفئات قليلة، فإن فئة كبار السن كانت مغيبة تماما إضافة إلى النساء. لذلك يعرّج الإبراهيمي إلى ظاهرة الأمية وإلى ضرورة الحد منها، لأن هذه الظاهرة تنعكس سلبا على المجتمع كافة، وكذا على تعليم الأطفال، نظرا لأن القائمين على البيوت لم يتوفر لهم الحظ الوافي من التربية والتعليم، مما انعكس سلبا في تربيتهم لأبنائهم وفي تسييرهم لحياتهم.

إذ يبين الإبراهيمي بعض مخاطر الأمية على الفرد والمجتمع وعلى حياة الأمم بصفة عامة، إذ أنها تقضي على صفة الحياة لدى المجتمعات، فلا يمكن لمجتمع يعيش تحت سداد الأمية أن يساير الحياة وتطوراتها. ومن أهم أضرار الأمية على المجتمعات من منظور الإبراهيمي ما يلي:

القضاء على صفة الحياة في المجتمعات وخصائصها: فالمجتمعات التي تنفّس في الأمية تصبح مجتمعات خاملة راكدة، تتصف بالجمود لا تتمتع بالحياة ولا بخصائصها من تفكير وعمل وإنتاج وتطور، وبعبارة أخرى المجتمعات التي تسود فيها الأمية هي مجتمعات اعتزلتْها الحياة. وفي هذا يقول البشير الإبراهيمي: "لا تفشو الأمية في أمة إلا أفقدتها معظم خصائص الحياة."⁽¹⁾ بل تقف الأمية حائلا دون تحقيق التواصل بين أفراد الأمة وبين الأجيال، وبينهم وبين باقي الشعوب نظرا للجهل بوسائل الاتصال وعدم امتلاكها، فيعجز الأمي عن القيام بأبسط الوظائف في حياته. خاصة التي تتطلب ندرا قليلا من التعلم. "ف نجد الإنسان منهم إنسانا في صورته ونطقه، ولكنه ليس بإنسان إذا لزمه وضع خطة في وثيقة، أو كتابة حرفين لأهله الغائبين أو قراءة ورقة استدعاء حاكم أو قراءة تاريخ تتوقف على أجله المسمى مصلحة من مصالحه وتترتب على فواته مفسدة ومضرة."⁽²⁾ فالأمية بهذا تؤدي إلى تعطيل وتأخير مسار التنمية والنهضة بالمجتمع، فتعد بذلك عائقا في مساء بناء المجتمع الحيوي.

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 202.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 206.

القضاء على التفكير والحس النقدي لدى الأفراد: من المعروف أن الإنسان حي وموجود بتفكيره، فقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة من خلال الحثّ على ضرورة التعلّم والتدبّر والتّفكر وإعمال العقل. يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾ وتؤكد الفلسفة هي الأخرى على ضرورة التفكير وتجعله ركيزة في الوجود الإنساني، فقد كان ذلك المنطلق في فلسفة ديكارت في إثباته لوجوده عندما أكد على حقيقة ذلك قائلا: "أنا أفكر إذن أنا موجود."⁽²⁾ فمن منطلق ملكة التفكير لدى الإنسان يرى الإبراهيمي أن التفكير هو الذي يرتقي بالإنسان في سلم الوجود البشري وأن الأمية على النقيض تقوم بالقضاء تهوي به من سلم الحياة والوجود. وإن التفكير والعلم هما الميزان اللذان توزن بهما الأمم في الوقت الراهن، ومن خلالهما يتحدّد موقع الأمم في الحياة وفي مسار التاريخ. "وأكبر جناية تجنيها الأمية على الأمم هي القضاء على التفكير، والتفكير هو المعيار الذي توزن به القيم العقلية في الأمة سمو وإسفافا، ومحال أن يسموا تفكير الأمي لأن فكره في فقص من أميته، وهو كالمطائر الذي قص جناحاه فلا يغنيه عن ذلك أن يكون اسمه (طائر)." ⁽³⁾ فالتفكير يجرّ الإنسان ويحطّم الأغلال التي تكبّله أما الأمية فتصنعها وتكبّله.

تدني مستوى التفكير وعدم الانفتاح نحو آفاق جديدة: وذلك من خلال تضيق الأمية الخناق على التفكير، فإنها تحول دون اتساع هذه الملكة وانفتاحها على آفاق ومعطيات علمية جديدة، لأنها لا تفتح إلا بالتربية والتعليم والمطالعة والمذاكرة، وقد لاحظ الإبراهيمي أثرها السلبي في المجتمع الجزائري خاصة لدى عامة الناس مبينا أن الحلّ يكمن في ضرورة التربية والتعليم، إذ يقول: "أما آفاق التفكير الفسيحة التي تسبح فيها أفكار المفكرين فإنها لا تفتح إلا بالقراءة والكتابة... وإن فيما نراه سائدا في أوساطنا الجزائرية من بساطة التفكير وتدليه خصوصا في الشؤون العامة." ⁽⁴⁾ وينعكس أثرها السلبي على المجتمع بصفة عامة من خلال تأثيرها على الوعي الجمعي وكل ما تعلق بشؤون الاجتماع الإنساني.

تقضي على المواهب: إن التفكير ينمي ملكة العقل ويدكّي القرائح مما يفتح مجالات أوسع للإبداع، أما الأمية فتعمل على النقيض، فهي تحدّ من المواهب لأن هذه الأخيرة لا تجد من ينميها ويطورها، وهذا ما يؤدي إلى تعطيل العقل الإنساني بعد ذلك لأنه قد تنقص لديه القابلية للبحث، أو قد ينقطع عنه، خصوصا

(1) - سورة النحل، الآية 44.

(2) - روني ديكارت، مقالة الطريقة، ت جمال صليبا، تقدم عمر مهيل، دار موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص 44.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 202، 203.

(4) - الإبراهيمي، تقرير محمد البشير الإبراهيمي عن الأمية، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 73.

البحث في القضايا الجديدة أو السعي في تغذية الفكر بالمعرفة، فمن المعلوم أن غذاء الفكر هو: المعرفة، وهنا يضع الإبراهيمي الأمية في منزلة مساوية للوثنية من حيث أثرهما على العقل الإنساني أي تعطيله عندما يقول: "إن هذه الأمية هي أخت الوثنية في الفتك بالعقول وتعطيل مواهبها."⁽¹⁾

تنقص من إنسانية الإنسان: قد تؤدي الأمية إذا تحولت إلى جهل إلى النزول بالإنسان من إنسانيته إلى مستويات من الحيوانية، نظرا لانتشار الجهل وتغييب العقل والتفكير، لأنه لا تقوم العلاقات والمعاملات إلا على أسس عقلية وإنسانية، ونفس الأمر بالنسبة لشؤون الحياة الأخرى، ومنه قد تؤدي الأمية إلى الانحطاط والاستعباد. وفي ذلك يقول الإبراهيمي واصفا الأمية بأنها "لا تفسو في أمة وتشيع بين أفرادها إلا فتكت بها وألحقتها بأخس أنواع الحيوانات ومكنت فيها للجهل والسقوط والذلة والمهانة والاستعباد."⁽²⁾ ومن علامات الانحطاط أنك ترى الناس ولقد بلغ بهم ضعف التعليم وانحطاطه، أنهم قلما يتناقشون على وجه الإطلاق في المفاضلة بين القيم النسبية للمعارف المختلفة وهم في المناقشة في هذا الصدد أشدّ تقصيرا، وكأنهم لا يجدون حاجة في أنفسهم إلى تحديد قيم المعارف.⁽³⁾

ازدياد أثرها السلبي بازدياد تطورات الحياة: حياة الشعوب تقوم على العلم والمعرفة خاصة وأن الحياة أصبحت تحتكم إلى قوة المعرفة في عصرنا الحالي، وكلما ازدادت الحياة تطورا ازدادت الحاجة إلى المعرفة والتطور العلمي، فالأمم التي أقامت حياتها على أساس العلم تطورت وانتظمت في حياتها، على عكس الأمم التي تسود فيها الأمية فلا زالت تحت كمها الفوضى والاضطراب، كما تبقى شعوبها منعزلة تعاني التخلف. يبين الإبراهيمي ذلك قائلا: "ويتجلى قبورها وشاعتها وغضاضتها في عهود الحضارة كحالنا اليوم، فإن الحياة في عهدنا اليوم تتطلب... تفكيراً منظماً يبني عليه عمل منظم،... أما الأمية فإنها تطبع المصابين بها بطابع حيواني ساذج فنراه حياً كميّ، ومتحركاً كساكن... يقف عند حدود تفكيره وقفة الجبان الهيوب المتردد، وتمرّ عليه مواكب الحياة المجددة في السير والتنقل... وحظه من ذلك التفرج والاستغراب."⁽⁴⁾ فالأمم المقبلية على العلم تزداد إقبالا على الحياة وتزدان بالعلم والمعارف، أما الأمم التي تعاني من الأمية فتزداد إدبارا عن الحياة

(1) - المصدر السابق، ص 73.

(2) - المصدر نفسه، ص 72.

(3) - هربرت سبنسر، التربية، ت محمد السباعي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص 12.

(4) - الإبراهيمي، تقرير محمد البشير الإبراهيمي عن الأمية، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 74.

والمعارف. وبذلك يظهر بأن للأمية مخاطر عديدة على الأفراد والمجتمعات، وقد بين الإبراهيمي بعضها قبل انتقاله إلى كيفية علاجها.

6. تربية الراشدين (الكبار) والحد من الأمية :

بعد تحديد الإبراهيمي لبعض أضرار الأمية يتطرق إلى سبل الحد منها خصوصا لدى الكبار، نظرا لاستفحال هذه الظاهرة لديهم بشكل كبير ومقلق، ويرجع أول جهد في القضاء والحد من الأمية إلى الإمام عبد الحميد بن باديس الذي تطرق معه إلى موضوع الأمية وكيفية مقاومتها، وكان ذلك قبل تأسيس جمعية العلماء، إذ أن من أهداف الجمعية بصفتها هيئة علمية منظمة القضاء على الأمية. وقد كان التقرير الذي ألقاه الإبراهيمي عن الأمية باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مؤكدا على هذا الدور.⁽¹⁾

مبينا الإبراهيمي أن أول خطوة للحد من ظاهرة الأمية تتمثل في تقديم نصائح عامة للمواطنين الجزائريين، على أن تلامس هذه النصائح والإرشادات المشاعر والأحاسيس وهذا من شأنه إيقاظ الوعي لدى الأميين بأضرار الأمية مقابل إبراز أهمية العلم والتعلم لهم ولأبنائهم. فتزداد الرغبة في التربية والتعليم. كما ينبغي على كل متعلم أن يساهم في القضاء عليها، إذ يجب على الجمعية "أن تبدأ بتقديم نصائح عامة ونداءات صارخة تستفز بها شعور الأمة وتثير نخوتها وحماسها لتحمل على الأمية... وأقل ما يكون لهذه النصائح من التأثير أنها تهيب الأذهان وتشجع الطرق وتجعل لنا من الخامل الكسلان عوننا لنا."⁽²⁾ وإن ركز الإبراهيمي على عامل التوعية بمخاطر الأمية نظرا لأن هذه الأخيرة أضحت كداء ومرض نفسي واجتماعي استشرى في المجتمع، وأصبح ينهش كيانه، "فالأمية بالنسبة إلينا صارت مرضا نفسانيا، والأمراض النفسانية لا تداوى إلا بما يوافق المزاج الخاص."⁽³⁾ ومعالجة هذا الداء تستدعي التوعية بمخاطره في البداية حتى يساهم كل فرد في علاج نفسه وغيره منها فيمثل عوننا للجمعية في القضاء على الأمية.

ينتقل الإبراهيمي بعد التوعية بمخاطر الأمية وبعد التبصير بأهمية التربية والتعليم إلى العمل على ضرورة تعميم التعليم حتى تضيق دائرة الأمية، مؤكدا على ضرورة الاهتمام بتعليم كبار السن من القائمين على الأسر الجزائرية، يتحدد ذلك في قوله: "وإذا بذلنا كل ما نستطاع أن يبذل في تعليم الناشئة من أقوال وأفعال، رجعنا

(1) - المصدر السابق، ص 75.

(2) - المصدر نفسه، ص 76.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 205.

البصر إلى الكبار الذين فاتهم سن التعليم بحكم أعمارهم وشلت الأمية مواهبهم... فهذا القسم أحق بالشفقة والرحمة من سابقه. ⁽¹⁾ فهؤلاء هم المشرفون على الأسر من جهة ولهم تأثير كبير عليها وعلى توجيهها، كما أنهم أحق بالتعليم أيضا نظرا لظروفهم التي حالت دون تعلمهم.

إضافة إلى ضرورة الاعتماد على الجهد الفردي بشكل أكبر في تعليم الكبار، وذلك بأن يخصص كل متعلم أو مثقف فترة من وقته يعلم فيها أقرابه عندما يتسنى له الوقت لذلك، وهذا ما دعا إليه جمعية العلماء أن تأخذ نصب عينها وتعمل عليه. إضافة إلى ضرورة مراعاة عامل السن وما يتبعه من آثار لدى هذه الفئة فقد كانت الجمعية تراعي ذلك من خلال تيسير عملية التعلم وتسهيلها، بأن يساهم كل فرد متعلم في تعليم أقرابه بالنذر المتيسر له، وكان من "أهم ما تعلمه الجمعية في حق هؤلاء هو الجهود الفردية، فيجب أولا أن تتقدم لكل أعضائها العاملين وتأخذ عليهم عهد الله وميثاقه على أن يعلم كل واحد منهم أميا أو أكثر من أقرابه: مبادئ الكتابة والقراءة والعمليات الأربعة في الحساب ويحفظه سورا من القرآن على صحتها. وتتوسل الجمعية لهذا بطبع حروف الهجاء مركبة ومفردة على صحائف من المقوى ويطبع الأرقام الحسابية كذلك، ويطبع سور من القرآن الكريم بالحرف الغليظ ويطبع جمل تتضمن معاني مستقلة في العبادات والعقائد والفرائض." ⁽²⁾

ويؤكد الإبراهيمي على ضرورة تفاعل المعلمين والمتعلمين والمثقفين عموما مع المجتمع، والاختلاط بطبقاته ومختلف فئاته حتى تتم عملية التعليم على أكمل وجه. ويكون ذلك من خلال المشاركة الاجتماعية في مختلف القضايا، فيكون المعلمون والمثقفون فعالين في مجتمعاتهم، لا ذوات مثقفة منعزلة منفية في عالم فردي، أو متعالين في أبراج عاجية لا تلامس الحياة الاجتماعية ومشكلات الواقع. ويتحدد ذلك من خلال تأكيد الإبراهيمي على ضرورة نزول المثقف إلى عامة الناس، عاملا على كسب ثقتهم وتثقيفهم، فإذا اكتسبها أمكنه نفعهم وإنارتهم، رافعا الجهل والأمية عنهم لا أن يعرض عن وظيفته، ويجب أن يتحرى الوقت والمكان المناسبين لعمله، يقول الإبراهيمي محذرا طريقتهم في ذلك: "يكون بتنزّل المثقف في مخاطبة العامي واستدراجه في كل اجتماع إلى بيان ما يجهله أو يغلط فيه، ويتخير لذلك المناسبات وأوقات الفراغ، وقد شاهدنا المثقفين إذا اجتمعوا بعوام الأمة وسمعوا سخافاتهم يقابلونهم بالضحك أو بالاحتقار، وهذه نقطة من نقط تضييع الواجب

(1) - الإبراهيمي، تقرير محمد البشير الإبراهيمي عن الأمية، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 77.

(2) - المصدر نفسه، ص 77.

حيث يجب أداؤه.⁽¹⁾ فعلى المرين والمتقنين أن يغتنموا مختلف المناسبات التي تتاح لهم للاجتماع بالعامّة من الناس فيقوموا بتصحيح موازين أفكارهم ومعارفهم لا جعلها مدعاة للسخرية.

أما بالنسبة إلى فئة العمال الذين يمارسون أعمالهم في أوقات قد لا تتناسب وأوقات التدريس، وغالبا ما يجتمعون في ساعات معينة في المساء يكون أغلبها ليلا، يحدّد الإبراهيمي كيفية تعليمهم، وذلك بأن يجتمعوا في أماكن أو نواحي معينة، ويتولى مهمة تعليمهم بعض الطلبة في تلك الأوقات مع دفع قسط من المال كمستحقّات نظيرا لذلك شهريا. مبينا ذلك في قوله: "وكيفية العمل مع هؤلاء أن تلزمهم بدفع مبلغ معين من المال في كل شهر، ثم تلزم طالبا من الطلبة أن يعلمهم مبادئ القراءة و الكتابة و أرقام الحساب و بسائط عملياته في ساعتين من كل ليلة في مقابلة ذلك المبلغ الذي يجمعونه."⁽²⁾ ومن خلال هذه العملية تتحقق فائدتان، الفائدة الأولى: تعليم هؤلاء العمال وإخراجهم من سجن الأمية. والفائدة الثانية: توفير مدخول مالي للطلبة يعينهم في شؤون حياتهم.

وفي ختام ذلك يؤكد الإبراهيمي أن هذا التعليم والقضاء على الأمية لن يكون إلا برفع المهتم والإيمان بالقدرة على تحقيق هذه الغاية، وإن وسائل القضاء على الأمية وتعليم الكبار تختلف باختلاف الأمم والوسائل والأوضاع، فكانت مقترحات الشيخ بخصوص ذلك على حسب ما تقتضيه حالة الجزائر، ووفق ما تيسر من وسائل وما توفر من رجال وطلبة العلم رغم صعوبة الظرف ومضايقات الاستعمار لكل ممارسة تربوية وتعليمية عربية. وفي ذلك يقول الإبراهيمي: "هاتان الطريقتان اللتان بسطناهما لتعليم الكبار هما أقرب الطرق للتحقيق وإذا كان في تنفيذ الثانية صعوبة ففي كل عمل صعوبة... وقد جربنا هذه الصعوبات فوجدناها دروسا نافعة لنا وشاحذة لعزائمننا."⁽³⁾ فلا قيمة لحياة الإنسان إذا لم تُسخر في طلب العلم والمعرفة وفي نشرها ونصرة الوطن، لأنه بدونهما يعيش الإنسان دون هدف أو غاية يصبو إلى تحقيقها، وقد أكد الإبراهيمي ذلك للشباب مرارا، وأكدده للكهول والمشايخ أيضا عندما تساءل: "ما قيمة الكهولة؟ وإن استمسك ببنائها، واعتدل ميزانها... ووضعت على قواعد الحكمة والأناة أركانها، بل ما قيمة المشيب؟ وإن جلله الوقار بملاءته، وطواه الاختبار في عباءته، وامتألت من حكمة الدهور، وغرائب العصور حقائبه... ما قيمة ذلك كله؟ إذا لم تنفق

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص130.

(2) - الإبراهيمي، تقرير محمد البشير الإبراهيمي عن الأمية، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص77.

(3) - المصدر نفسه، ص78.

دقائقه في تحصيل علم ونصر حقيقة، ونشر لغة ونفع أمة وخدمة وطن.⁽¹⁾ فعلى الإنسان أن يستثمر كل مرحلة من مراحل حياته لتحقيق الغاية التي وجد من أجلها، وأن يؤدي دوره في التاريخ مستثمرا تجاربه وخبراته ومعارفه في ذلك.

إن تركيز الإبراهيمي على تربية الراشدين ومختلف الفئات الاجتماعية تحاكي العديد من التجارب العالمية التي نجدها لدى العديد من الدول في تلك الفترة في سعيها نحو تعليم الراشدين، تربية أنفسهم بأنفسهم بالاعتماد على العديد من الوسائل خاصة الاستثمار في وسائط الميديا. فعلى سبيل المثال كانت تنظم فرنسا دروسا مسائية قامت بها في البداية جمعيات التعليم الشعبي بدعم من الدولة، كرابطة التعليم Ligue de L'Enseignement، ونفس الأمر في الدنمارك أين تم إنشاء مدارس خاصة بمن لا تقل أعمارهم عن سن الثمانية عشرة عاما، ومثل هذه الحركة شهدتها بريطانيا أين قامت بعض الجامعات بتنظيم صفوف للكبار ومحاضرات اختيارية للجمهرة الكبرى من أبناء الشعب، من خلال وضع دائرة خاصة تهتم بذلك تدعى (الدائرة الخارجة عن النطاق) وفي ألمانيا اتجه التعليم اللاحق للمدرسة شيئا فشيئا إلى شطر الإعداد المهني.⁽²⁾

هذا ما بين أن تربية الراشدين تربية عالمية وأنها تكتسي أهمية بالغة فهي لا تختص بمجتمع دون آخر، خاصة وأنها تربية مفتوحة الحدود لا تقتصر على نطاق معين فهي تشمل عدّة مجالات كتعليم المعارف، الحرف الصناعات وغيرها، وإن ارتبطت لدى الإبراهيمي في بدايتها بالقضاء على الأمية. إذ أن من أهم الغايات التي تهدف إليها تربية الراشدين في المناهج التي تم تسطيرها لهم: "تقوية المعاني والمفاهيم المكتسبة وتنمية مبادئ الأخلاق وقواعدها، ومعرفة قوانين الدولة، والتبصير بالاكتشافات العلمية والتجارب والطرائق النافعة في مختلف الفنون والصناعات، وعدم استئثار العلماء والشبيبة وحدهم بالخبرات المباشرة التي يمكن أن تنجم عن التقدم العلمي. وتعليم الراشد أخيرا فن تثقيف نفسه بنفسه."⁽³⁾ فمن أدوار تربية الراشدين إذن مجابهة الأمية والحد منها، وهذا ما يدخل ضمن نطاق التربية العامة، وضمن التربية الاجتماعية خاصة، بهدف تفعيل كل فئات المجتمع للمساهمة في بناء الاجتماع الحيوي.

وما يمكن استخلاصه من خلال التأكيد على الأساس الاجتماعي للتربية عند الإبراهيمي العديد من

العناصر والملاحظات يمكن تلخيصها فيما يلي:

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 512.

(2) - روني أوبير، التربية العامة، ص 814، 815.

(3) - المرجع نفسه، ص 817.

- ضرورة الانطلاق من الواقع الاجتماعي بهدف تحقيق التغيير الاجتماعي.
- إن بناء المجتمع الحيوي يتوقف على الأخذ بعين الاعتبار المقومات والأسس التي يقوم عليها المجتمع، نظرًا لدورها التأسيسي وفي بث روح الوعي وتصحيح المدركات الفكرية والتاريخية لدى أبناء المجتمع.
- إن أي تغيير اجتماعي يستلزم نظرة متكاملة للمجتمع وللمختلف العوامل المؤثرة فيه فتأخذ موقعها في عملية البناء.
- تحقيق التغيير الاجتماعي وبناء المجتمع الحيوي عملية تربوية ينبغي أن تقوم على فلسفة تربوية تراعي أبعاد المجتمع ومقوماته التاريخية والحضارية، كما تستدعي وضوح المنطلقات والأهداف المرجو تحقيقها.
- المجتمع المثقف والمتعلم هو المجتمع الأقرب إلى تجسيد المجتمع الحيوي، ما يؤكد على ضرورة الاهتمام والاستثمار أكثر في حقلَي التربية والتعليم.

ثانياً: الوطنية.

من خلال التأكيد على الأساس الاجتماعي للتربية، وضرورة الأخذ بخصوصية المجتمع في العملية التربوية والسير به نحو تحقيق الاجتماع الحيوي، ومن ثمة بناء الوطن الحيوي بتعبير آخر، فإنه يبرز معامل وأساس آخر في التربية الإبراهيمية متمثلاً في الوطنية، فمن المعروف أن الإنسان جُبل على غريزة الانتماء، فهي غريزة فطرية فيه، فهو ينتمي إلى أسرته ووطنه وعقيدته، وقد دلت النصوص الشرعية على ذلك مثبتة هذا الانتماء الفطري في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾⁽¹⁾ وتؤكد السيرة النبوية على ذلك أيضاً، فرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يهيم بالهجرة المباركة من مكة المباركة إلى المدينة المنورة، يبرز ذلك الموقف المؤثر في تعبيره عن مدى حبه لوطنه وتعلقه ببلده في قوله عن مكة: " والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولو أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت."⁽²⁾ فقد دلت النصوص الشرعية على الحق البشري في الانتماء والمواطنة. فعلى الفكر التربوي ومختلف المؤسسات من تربوية وتعليمية أن تساهم في تعزيز ثقافة الانتماء والمواطنة كسلوك حضاري، وأن تستغل الروح الوطنية كعامل مهم يربط الفرد بوطنه، فتجعله يذود عنه ويضحي من أجله بأعز ما يملك من نفس ومال، لذلك يشكّل هذا الارتباط الطبيعي بين الفرد ووطنه وهاته الروح لدى الأفراد عاملاً

(1) - سورة الحجرات، الآية 13.

(2) - نقلاً عن جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزبيلي، تخرّيج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، الحديث الرابع عشر، ج3، تحقيق عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط1، 2003، ص 21.

مهما يمكن استثماره في تربية الأجيال وتوجيهها، سواء في تنمية الروح الوطنية لديهم، أو من خلال جعل هاته الروح قاعدة وعملا لتحقيق غايات وأهداف مستقبلية خاصة في بناء مجتمع تكتنفه ثقافة المواطنة والعيش المشترك.

من خلال هذا يتبين أهمية الوطنية وضرورة التربية على المواطنة لقيام مجتمع جديد، ومن خلال ربط فكرة المواطنة بموضوع البحث يتبين للناظر في المسار الإصلاحى والتربوي للإبراهيمي، أن رؤيته كانت تتماشى وقيم المواطنة من خلال دعوته إلى التآخي والتكافل والذود عن الوطن، وبذلك فقد شكّلت الوطنية أحد الأسس الهامة التي يبني عليها رؤيته التربوية، مستثمرا الوطنية كعامل روحي ونفسي واجتماعي يربط الأفراد بوطنهم ويدفعهم إلى النهضة به وعدم التكر لمقومات شخصيتهم الوطنية. يظهر ذلك جلياً في استثمار الإبراهيمي لمختلف الوسائل والأساليب التربوية التي حدّدت في منهجه التربوي من مدارس ومساجد وجمعيات ونوادي لتكريس قيم المواطنة لدى الأفراد وتفعيل الروح الوطنية لديهم. وحتى تتضح رؤية الإبراهيمي أكثر نعرّج على مفهومى الوطنية والمواطنة بإيجاز.

1. مفهوم الوطنية :

الوطنية تعني تلك الروح والشعور الذي يربط الفرد بوطنه، وهي عبارة عن علاقة فطرية طبيعية تتمثل في حب الإنسان لوطنه وتعلقه به، والعمل من أجل رقيه والنهضة به مقدّما مصلحة الوطن على مصلحته الذاتية فتعكس بذلك انتماء الفرد للوطن. ويعرّف الانتماء للوطن بأنه: "اتجاه إيجابي مدعم بالحب يستشعره الفرد اتجاه وطنه، مؤكدا وجود ارتباط وانتساب نحو هذا الوطن باعتباره عضوا فيه، ويشعر نحوه بالفخر والولاء ويعتز بهويته وتوحيده معه، ويكون منشغلا بقضاياها محافظا على مصالحه وثرواته، ومشجعا ومساهما في الأعمال الجماعية ومتفاعلا مع الأغلبية، ولا يتخلّى عنه حتى وإن اشتدت به الأزمات."⁽¹⁾ فيتلخص الانتماء للوطن في تلك الروح والوجدان اللذان يربطان الفرد بوطنه فيجعلانه مخلصا له.

وعرّفت الوطنية في الموسوعة العربية العالمية بكونها: تعبير قومي يعني حُبّ الشخص وإخلاصه لوطنه. ويشمل ذلك: الانتماء إلى الأرض والناس والعادات والتقاليد، والفخر بالتاريخ والتفاني في خدمة الوطن،

⁽¹⁾ - عطية بن حامد بن ذياب، دور تدريس مادة التربية الوطنية في تنمية قيم المواطنة لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية " دراسة من وجهة نظر معلمي التربية الوطنية بمحافظة الليث"، مذكرة مكملة لنيل درجة الماجستير في المناهج وطرق التدريس، جامعة أم القرى، كلية التربية، السعودية، ص 11.

ويوحي هذا المصطلح بالشعور بالتوحد مع الأمة. ⁽¹⁾ ويتضح من خلال هذا التعريف أن الوطنية تتضمن أربعة أبعاد محورية باجتماعها يكتمل نسيجها ويعلو هرمها متمثلة في: ⁽²⁾

- البعد الجغرافي المعبر عنه في التعريف "بالأرض".
- البعد الاجتماعي وهو المعبر عنه " بالناس".
- البعد الثقافي والمعبر عنه: "بالعادات والتقاليد والفخر بالتاريخ".
- البعد العملي والمعبر عنه "بالتفاني في خدمة الوطن".

2. مفهوم المواطنة :

للمواطنة عدة مفاهيم تطورت عبر التاريخ، بحيث تصب كلها في علاقة الفرد بوطنه، إذ تشير مثلا إلى علاقة الفرد بالدولة التي يعيش في كنفها ويكرّم لها ولاءً عمليا ووجدانيا، مقابل ضمان الدولة لعدم المساس بكرامته الإنسانية وصيانتها لحقوقه الأساسية المتمثلة في حق العمل القائم على مبدأ تكافؤ الفرص بين جميع المواطنين، وحق الاعتقاد الديني والحزبي والمشاركة السياسية، أما ولاء الفرد للدولة يكون عن طريق تأدية الفرد لواجباته من خلال مشاركته في بناء المجتمع وحماية بلاده. ⁽³⁾ وهي اصطلاح يشير إلى الانتماء إلى أمة أو وطن حيث تصبغ المواطنة حقوقا و واجبات على المواطنين وقد تختلف تلك الحقوق من دولة إلى أخرى حيث تكفلها هذه الحقوق دساتير الدول وتطلق عليها الحقوق المدنية، فتكفل لهم امتيازاتهم كحق التصويت، حرية التعبير، الحماية وغيرها من الحقوق والواجبات كالاتثال للقانون والعمل في إطاره. ⁽⁴⁾

وتدل كلمة المواطنة على طبيعة العلاقة العضوية التي تربط بين الفرد والوطن الذي يكتسب جنسيته، وما تفرضه هذه العلاقة من حقوق وواجبات تنص عليها قوانين وأعراف وتحقق بها مقاصد حياة مشتركة يتقاسم خيراتها المجتمع. مع أن المواطنة تتسع باتساع الدولة، إلا أن الدولة باعتبارها كيانا معترفا به جغرافيا وسياسيا قد تضم مواطنين ومقيمين من جنسيات أخرى وليست لهم نفس التزامات المواطنين، ولا ينتفعون

⁽¹⁾ - الموسوعة العربية العالمية، مجموعة مؤلفين، مج24، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 2، 1996، ص110.

⁽²⁾ - مسعود فلوسي، الظاهر براخلية، أسس الوطنية ومعالها ومقوماتها في فكر عبد الحميد ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي رحمهما الله، مجلة الدراسات الإسلامية ع9، جوان 2017، ص506.

⁽³⁾ - مسعود موسى الرضي، أثر العولمة في المواطنة، المجلة العربية للعلوم السياسية، ع19، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008، ص115.

⁽⁴⁾ - مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، ص 320، 321.

بنفس الامتيازات التي ينتفع بها المواطنون، ولم تُعدّ المواطنة محصورة في ولاء عشائري أو قبلي أو طائفي أو عرقي بل يتجاوز الولاء هذه الأطر الضيقة ليرتبط بالوطن الأم الحاضن للجميع.⁽¹⁾

كما تعرّف المواطنة بأنها تمثل شعورا بالانتماء إلى الوطن كفضاء مشترك، يوحد بين أفراد ينتمون لمجموعة بشرية واحدة، يمكنهم من التمتع بحقوق فردية ومدنية واقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية متساوية، ويلتزمون بواجب خدمة وطنهم بما يضمن رقيه ونمائه، مشاركين في تسيير شأنه العام ما يجعلهم يكتسبون صفة المواطنين، كما تتضمن المواطنة مكونات تتمثل في: الانتماء، الحقوق، الواجبات، المشاركة المجتمعية والقيم العامة، أما التربية على المواطنة فهي التنشئة التي تستهدف كل ذلك.⁽²⁾ وبذلك يظهر جلياً من خلال التعريفين الارتباط الكبير بين الوطنية كروح وعاطفة تربط الفرد بوطنه، وبين المواطنة التي تعكس علاقة الفرد بوطنه، إضافة لشاملها الجانبيين الوجداني و العاطفي ومحددة الحقوق و الواجبات بين الفرد والدولة.

في حين تشير التربية الوطنية (أي تربية الأجيال على الوطنية) إلى المفهوم الأخلاقي الذي يحقق صفة المواطنة للفرد وينميها إلى أن تتحول إلى صفة الوطنية، فصفة الوطنية تكون أكثر عمقا من المواطنة أو أنها أعلى درجات المواطنة، فالفرد يكتسب صفة المواطنة بمجرد انتسابه إلى جماعة أو دولة معينة لكنه لا يكتسب صفة الوطنية إلا بالعمل الصالح في هذه الجماعة أو الدولة مقدّما المصلحة العامة على المصلحة الفردية.⁽³⁾

بعد تحديد معنى الوطنية نتساءل عن المعنى الذي يخصّصه إبراهيمي لها، وكيف مثّلت أساسا تربويا في

مشروعه التربوي والإصلاحي

3. مفهوم الوطنية عند إبراهيمي :

يتلخص التحديد إبراهيمي لمعنى الوطنية في معنيين، أحدهما يمثل مفهوما ضيقا للوطنية يقتصر على الوطن الواحد فقط، بينما المعنى الثاني يتجاوز الإطار الوطني الواحد، خاصة في مجاله المادي إلى البعد الروحي والمعنوي الذي لا يقف عند الحدود المادية والجغرافية.

(1) - محمود قمبر، التجديد في الفكر التربوي - تقييم ونقد، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2013، ص 302.

(2) - عبد الله صحراوي، موجّهات تربية المواطنة بالمدرسة في ظل التحولات المعاصرة بين المواطنة والوطنية، الخيارات المتاحة، مجلة تنمية الموارد البشرية، ع 11، ديسمبر 2015، ص 280، 281.

(3) - المرجع نفسه، ص 282، 283.

3. 1. المفهوم الضيق للوطنية :

يتحدد هذا المعنى من خلال منظور واقعي لمفهوم الوطنية، إذ لا تبرز الوطنية كمفهوم وشعور فقط وإنما كمارسة فعلية وميدانية، أي لا بد أن تتجسد الوطنية في الواقع وترتّب عليها الناشئة، فالوطنية ليست مجرد شعارات جذابة يتم التغيّي بها في المحافل، أو ذلك الحماس الزائد الذي نشهده في مواقف واحتفالات معينة فقط، بل الوطنية هي عبارة عن روح وشعور بالانتماء للأرض والشعب يتجسد مفهومها من خلال الممارسات العملية والفائدة المحققة للوطن. فالوطنية عند الإبراهيمي تشمل كل من له يدٌ في خدمة الوطن، في أي مجال يعود بالمنفعة عليه، ويؤكد على جانبين أساسيين هما العلم والعمل، فالوطني هو الذي ينفع وطنه بعلمه ومعارفه وأعماله، وليس من يحمل ذلك كشعار فارغ ويتغنى بوطنيته دون أن يكون له أثر نافع للوطن، فالفلاح وطني بإتقانه لفلاحته، مجاريا فيها الأوروبي الدّخيل الناهب لأرضه، والوطني كل مستثمر بماله يستغل أرضه فيما ينفع وطنه وأبناء وطنه، وليست الوطنية تلك التي يتغنى بها في المقاهي والخطابات، فما ذاك إلا إضاعة للأوقات في كلام فارغ، هذا ما لاحظته الإبراهيمي في واقعه كما قد ميّز العديد من الممارسات السياسية الطامحة لمقاعد في النيابة، فالوطنية عند الإبراهيمي تحتكم لأحكام و موازين معينة، يبيّن ذلك في قوله: "عندنا للوطنية موازين، فالوطني كل الوطني هو الذي ينفع وطنه بعمل، وأبناء وطنه بعلم: فالعامل المبرز في الاقتصاد، المزاحم للغريب عن خيراته، الذائد له عن موارده وطني كامل الوطنية، وهذه الجيوش المرابطة في ثغور المدارس من المعلمين الذين ينزعون العصي من أبناء الأمة، ويضعون الأفلام - هم الوطنيون الصادقون... أما الأقوال بلا أعمال، والدعاوي بلا بيّنات، فاسم الإجرام بها أولى."⁽¹⁾

إذ يتضح من خلال الموازين التي حددها الإبراهيمي للوطنية أنه لا ينبغي المجازفة بكلمة الوطنية، بأن توظف في غير موضعها فذلك انتقاص من قيمتها، واستغلال لها في غير وظيفتها وبالتالي النزول من قيمتها المتسامية، فموضعها مشرف كشرّفها لا ينبغي العبث به، وهذا العبث الذي نوه الإبراهيمي به أصبح الغالب على معظم الممارسات السياسية أو الجموعية في راهننا، أين أصبحت الوطنية محض ادّعاء وكلام يتنافى مع ممارسات مدّعيتها، تظهر كشعارات جوفاء في مناسبات وطنية أو في استحقاقات انتخابية، ما تنفك تخنفي باختفاء تلك المناسبات والاستحقاقات. والنزول بها من موضعها المشرف يدخل ضمن سوء استخدام الوطنية. "فالوطنية كغيرها من المشاعر، أحيانا يكون مبالغا فيها أو قد تكون مشوّهة، فالناس المغالون في شدة انتمائهم

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 572، 573.

لمجموعة معينة أو بلد معين قد يسمّون المغالين في الوطنية، ويسمى الحماس غير المسبب للتفوق العسكري والمجد لوطن الشخص الشوفينية أو النعرة الوطنية.⁽¹⁾ فالإبراهيمي يرفض أن تكون الوطنية وسيلة لتحقيق أغراض شخصية. لذلك يؤكد على المعنى الذي ينبغي أن تحظى به الوطنية فيتوافق معناها النظري مع تجسيد ما يؤكدها من ممارسات عملية. وأن تكون كروح وكضمير مصاحب للفرد في تفكيره وسلوكاته وأعماله حتى لا تنزل من موضعها المشرف.

3. 2. المفهوم الواسع للوطنية :

رغم التأكيد على قيمة الوطنية وموضعها المشرف الذي ينبغي أن تحتله، إلا أن هذا المفهوم يبقى ضيقا إذا ما قورن بالمفهوم الثاني الذي يحدده الإبراهيمي في مناسبات أخرى. متجاوزا في معناها الإطار المحلي الضيق وصولا إلى البعد العالمي والإنساني من خلال التأكيد على الأبعاد المعنوية فيها أكثر، إذ يرتبط معناها الواسع بالإنسانية، إذ لا تعني الوطنية غلق الحدود والامتناع عن مدّ يد العون للآخر، إنما هي خدمة لأنفسهم ووطنهم والإنسانية جمعاء، معتبرا أن التركيز على الوطنيات الضيقة هي السبب الفاعل في العديد من الانتكاسات التي شهدتها الدول الإسلامية والعربية وأضعفتها. مينا ذلك في قوله: "أليست هذه الوطنيات الضيقة هي التي أضعفت الحمية الإسلامية حتى قتلتها في النفوس، أليست هذه الوطنيات الضيقة بمثابة تقسيم الخبزة إلى لقم سهل مضغها وازدادها وهضمها... لا تقوم لنا قائمة حتى نرجع إلى الوطنية الكبيرة الجامعة الواسعة، اللامعة النافعة وهي وطنية الإسلام.." ⁽²⁾ إذ يؤكد بذلك على ضرورة الانتقال من الوطنيات الضيقة إلى الوطنية الواسعة المرتبطة بالإسلام كديانة عالمية وشاملة للبشرية جمعاء.

ومنه يتحدد المعنى الواسع والحقيقي للوطنية عند الإبراهيمي من خلال رسالة الإسلام الإنسانية والعالمية. فالإسلام هو: (الوطنية الكبرى) التي تجمع كل المسلمين مهما كانت أجناسهم وثقافتهم وأماكن تواجدهم، ومنطلق ذلك كون أن (الوطنيات الضيقة) هي السبب الرئيسي في إضعاف الحمية الإسلامية حتى قضت عليها في النفوس، وفي سقوط الأقطار الإسلامية بما فيها العربية في يد الاستعمار الأوروبي الحديث فاقتسمها مثلما تقتسم الخبزة الواحدة إلى لقم سائغة سهل مضغها، فالوطنيات الضيقة صنيعه الاستعمار لا الإسلام وجب محاربتها، ومنه فالإبراهيمي ينشد تحقيق وحدة سياسية بين المسلمين فلا تتصرف بلدانهم بشكل منفرد

(1) - مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، ص 114.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 102.

خاصة في علاقاتهم الخارجية تفاديا للاختلاف إزاء القضايا الكبرى كالاستعمار. ⁽¹⁾ ويظهر موقف الإمام محمد البشير الإبراهيمي أكثر صراحة في التعبير عن الوطنية الحقيقية التي تبناها في رفضه للوطنيات الضيقة فهي التي أدت إلى ضعف المسلمين وقسمتهم إلى دويلات متصارعة فيما بينها، متناسية أن الإسلام كديانة لا يعترف بهذه الحدود إنما يبني وطنية كبيرة جامعة للجميع هي وطنية الإسلام.

فالنهضة الوطنية لا يمكن تحقيقها من خلال الوطنيات الضيقة، بل تستدعي التأسيس والعودة إلى الوطنية الواسعة التي تقام وتتأسس على أساس الإسلام الذي يتجاوز تأثيره - عندما يحتكم في النفوس والأرواح - تأثير الوطنية المرتبطة بالانتماء للوطن. موضحا الإبراهيمي ذلك الفرق في قوله: "الوطنية مكرومة لكن وطنية الإسلام أكرم، وميدانها أوسع، وصاحبها أعزّ نفرا، وأقوى ناصرا وأكثر عديدا." ⁽²⁾ فالوطنية الواسعة القائمة على الإسلام تكون منطلقا تربويا و نخبويا، للاعتبارات التي حددها الإبراهيمي في قوله السابق، فهي مكرومة وفضيلة أخلاقية تتجاوز الوطنيات الضيقة، إضافة إلى المجال الواسع الذي تشمله فهي لا تقتصر على وحدة الوطن بل تشمل كل من تجمعهم وحدة الدين الإسلامي، ويستمدّ أفراد هذه الوطنية عزّهم وعدهم وقوتهم من الإسلام.

ونظرة الإبراهيمي هذه تمثل أحد الرؤى التي تطرقت لمفهوم الوطنية، فقد تبلور مفهومها مع التطور الحاصل في الدول والمجتمعات، وقد كثرت النقاشات حول الوطنية بمفهومها الحديث الذي يحدد الحقوق والواجبات والولاء، فقد انقسم النقاش إلى ثلاثة أصناف: صنف يحذّر من فكرة الوطنية ويجارحها، ويرى الدّعوة إليها فسوقا قد يصل إلى حدّ الكفر لأنه في نظره فكرة جاهلية ذات خلفية علمانية لا تراعي الدين. وصنف آخر من الناس يقدّسها ويجعلها معقد الولاء و البراء، يؤصّل لها من النصوص الشرعية محمّلا إياها ما لا تحتمل، وقسم ثالث وسط بين الصنفين لم يكن يقبلها أو يرفضها مطلقا، بل يتعامل معها بإنصاف، مجردا إياها من الثقافة الغربية التي عُلفت بها ومن الهوية العلمانية التي علّبت بها بإخضاعها للقيم الإسلامية والمبادئ الرّبانية التي دلّت عليها النصوص الشرعية، فارتبطت الوطنية بالهوية الإسلامية وهو الرّأي الذي تبناه الإبراهيمي وصنوه الإمام عبد الحميد بن باديس إذ لم يجر ذكرهما للوطنية إلا موصوفة بكونها إسلامية. ⁽³⁾

(1) - بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان، ص 408.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 328.

(3) - مسعود فلوسي، الظاهر براخلية، أسس الوطنية ومعالمها ومقوماتها في فكر عبد الحميد ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، ص 509،

ولما كانت الوطنية الحقيقية في نظر الإبراهيمي هي: المحكومة بالإسلام و المضبوطة بتعاليمه، استلزم الحال توسيع دائرتها من الوطنيات الجغرافية الضيقة التي لا تعدُّ أن تكون انتماءً شكلياً إلى جنسيات معينة، إلى الوطنية الإسلامية الواسعة التي تجمع بين الوطنيات الضيقة والجنسيات المختلفة بالعقيدة الإسلامية الجامعة، وبهذا تتمهد الطريق إلى قلوب الناس لبطس مواطنة الشريعة الإسلامية على جميع الأفكار والمبادئ التي كان الاستعمار يصدّرها معلبة نحو الجزائر ومنه تمّ التمييز بين الوطنية الحقيقية والوطنية التي يتشدّق بها أساطين الغرب.⁽¹⁾ وتظهر دعوة الإبراهيمي رحمه الله إلى الوطنية الحقيقية التي لا تقف على الحدود الجغرافية ولا التمييز العنصري الذي ميّز حقيقة الوطنيات الغربية بل ترتبط بالإسلام كديانة عالمية في قوله: " وأنا بصفتي عالماً مسلماً لا أقول بالعصبيات الجنسية والوطنيات الضيقة إنما أدعو إلى الوطنية الواسعة والعقيدة الروحية الجامعة، فإذا تمّت ورسخت أصولها في النفوس فإنها لا تنافي التمسك بالجنسيات من غير تعصب." ⁽²⁾

ومنه فتحديد الإبراهيمي للوطنية يشمل التحديد المحلي لها، والذي يرتبط بالوطن وحدوده ومقوماته، فيكون مفهوماً ضيقاً لها، ويبني مفهوماً واسعاً لها مستمداً من الإسلام مؤسساً بذلك لوطنية الإسلام. ولا يعني ذلك أن الإبراهيمي يرفض الوطنيات الضيقة في منظوره التربوي إنما يؤسس لها ويدعو إليها أيضاً من خلال الدعوة إلى التشبث بالوطن ومقومات الشخصية الوطنية. وهذا ما يضمن التوسيع من دائرتها لتحقيق الوطنية الواسعة. وهي الوطنية الإسلامية التي لا تقف على الجنسيات أو الحدود الجغرافية أو العادات والتقاليد وإنما تتأسس على روح الإسلام التي تذوب فيها مختلف العصبيات والوطنيات الضيقة. وفي معالجة هذه النقطة لا يتم الوقوف على هذا التقسيم لمعنى الوطنية إنما يشمل الوطنية بصفة عامة (الضيقة والواسعة) دون تمييز، والذي كان الغرض من تبيان ذلك التقسيم توضيح وتحديد التعريف الإبراهيمي لها.

4. دحض المفهوم الاستعماري للوطنية :

يتطرق الإبراهيمي في معرض حديثه عن الوطنية إلى مفهوم الوطنية الذي يسعى المستعمر إلى تجسيده، سواء المستعمر الفرنسي في الجزائر أو باقي المستعمرين للدول الأخرى، وهدف الإبراهيمي من هذا تصويب رؤية الأفراد والناشئة لمعنى الوطنية الحقيقية من جهة وفضح الاستعمال المزيف لها من قبل المستعمر، خصوصاً تركيزهم على فكرة تكوين وطن جزائري يتمتع فيه المواطنون بحقوقهم، تعتيماً منهم وتغافلاً عن مساعيهم في

(1) - المرجع السابق، ص508، 509.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص102.

القضاء على الوطن ومقوماته. "إن معنى قولهم الجزائر وطن وليس وطنًا سويًا أنه لا وطن في أذهانهم ولكنهم خافوا الجبهه بالتكذيب فنزلوا درجة وأبقوا للوطن شيئًا من معناه تعميةً وسترا على شيء في أذهانهم، ومن عاش خمسين سنة آتية وسألهم هل تمّ التكوين؟ يجيبونه بأنه في طور التكوين ما دام لم ينتبه إلى المعنى الذي يريدونه لكلمة وطن." (1) فقولهم بتكوين الوطن في حقيقته يتضمن تهديما لا بناءً وتكوينًا، من خلال تمييز الإبراهيمي بين القول بالوطن وبين قولهم: تكوين الوطن.

كما تجدر الإشارة إلى أن الفكر الغربي في جوانب معينة في نشره لفكرة المواطنة وتكريسها، قد يضئها دلالتين يمكن فهمهما، دلالة إنسانية من خلال محاولة إزالة كل التعصبات وتحقيق العيش المشترك بين مختلف المواطنين على اختلافاتهم، فيضمن ذلك قيام كل مواطن بواجباته ونيله لحقوقه دون تمييز أو إقصاء. كما قد تتضمن دلالة غير إنسانية من خلال محاولة توظيفه مفهوم المواطنة لضرب المقومات الخصوصية لبعض الشعوب، فيزول ما كان يربطها من قيم وطنية وتنقص تلك الرابطة الروحية التي تربط الأفراد بوطنهم. هذا المعنى الثاني هو ما تبناه المستدمر ناشرا لأوهام المواطنة ومغيبا لروح الوطنية لدى الشعوب التي استعمرها والتي يريد استغلالها بطريقة أو بأخرى.

ويتضح أن من أبرز معاني الوطنية التي قامت على أساسها الدول الغربية الحديثة: القضاء على كل الانتماءات القديمة، سواء كانت دينية أو قبلية أو حزبية والإبقاء على انتماء واحد فقط، يعقد عليه الولاء والبراء، وتتحدد بموجبه الحقوق والواجبات، وهو "الانتماء الجغرافي" وبهذا عرفت فكرة الوطنية تقهقرا في تبلورها وتطورها الدلالي، حيث رجعت إلى النقطة التي بدأت منها، لكن بخلفيات سياسية أو قانونية محكومة بذهنيات منظرها. (2) إن هذه المعاني المؤكدة على قيم المواطنة وتغيب الوطنية في الكثير من الجوانب، لها دلالاتها الأيديولوجية والسياسية التي تنم عن محاولات للسيطرة على الآخر من خلال تغيب ثقافته وخصوصيته. ففي حين تدعو هكذا مجتمعات ودول لنشر هذه الأفكار المتعلقة بالمواطنة فإنها تسعى حثيثة في جانب آخر إلى لتغني بموروثها الثقافي والتاريخي بغية زيادة الانتماء والوطنية لدى مواطنيها وتقوية الروح الوطنية التي تسعى إلى إضعافها لدى الآخر. فقد بين برتراندرسل «Bertrand Russell» 1872 / 1970 أنه في جميع أرجاء العالم الغربي يعلم الأولاد والبنات على أن إخلاصهم الاجتماعي يجب أن يكون للدولة التي هم مواطنوها، ومن واجبهم أن يعملوا على حسب توجهاتها، وخشية تساؤلهم عن هذه العقيدة فإنهم يعلمونهم تاريخًا كاذبًا،

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 379.

(2) - مسعود فلوسي، الطاهر براخلية، أسس الوطنية ومعلمها ومقوماتها في فكر عبد الحميد ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، ص508.

وسياسة كاذبة واقتصادا كاذبا، ويخبرون عن الأعمال الشنيعة للدول الأجنبية وعلى حروبهم العدوانية لا على دولتهم الخاصة التي كانت حروبها دفاعية، فهم يعلمونهم ليؤمنوا أن الدول الأجنبية ليس عندها أي سلوك اجتماعي، وكما تؤكد المعزوفة البريطانية على أن العناية الإلهية تدحض ألعيبهم الشيطانية. فالوطنية من النوع القومي عند تدرسيها في المدارس يجب أن تذكر كشكل من الهستريا الجماعية.⁽¹⁾ فكل أمة إذن تؤكد على عامل التربية الوطنية والقومية، وأن البلد الأصلي هو الأحسن لزيادة تلك الرابطة والانتماء بين الفرد ووطنه.

5. الوطنية و تربية الناشئة :

تشكّل الوطنية أساسا يُنطلق منه في التربية الإبراهيمية وهدفا في نفس الوقت يجب بلوغه بالعمل على ترسيخها لدى الأجيال، إذ تمثل الوطنية أساسا تربويا من خلال استثمار تلك الصلّة الفطرية بين الفرد ووطنه من أجل توجيه الفرد وتربيته على أساس يضمن ولاءه لوطنه. وتكون الوطنية هدفا من خلال بناء أجيال ترسخ لديها فكرة -أنه لا يمكن أن تتحقق الوطنية التامة إلا بمنفعة الوطن والتفاني في خدمته- كما تبين في مفهومها عند الإبراهيمي، لا مجرد التغني بها كاتنماء فقط، بل ضرورة تكريس الانتماء الفعلي عن طريق تجسيد البعد العملي في معناها.

ويراد بالترسيخ التثبيت والتمكين لقيم المواطنة والوطنية من خلال العمليات الضمنية التربوية التي ينهض بها التعليم، وهذا يعني أن قيم المواطنة كائنة و موجودة غير معدومة أو مجهولة، ولكن تفيد كلمة الترسخ أن قيم المواطنة والوطنية في حالة ضعف واهتزاز، ومن ثمة فهي بحاجة إلى تدعيم وتقوية بأساليب مناسبة كما تقوى في الاستنبات الجذور في الأرض، أو يقوى في البناء الأعمدة الحاملة لكل ما يحتويه البناء ارتفاعا وامتدادا، ويكون الترسخ مطلوبا أكثر في حال وجود أي اهتزاز قيمي أو غزو همجي وبمعنى آخر طغيان ثقافي يؤثر بشدة في منظومة القيم الوطنية.⁽²⁾ فما بال هذا الطغيان إذا كان معرّزا ثقافيا، معنويا وماديا مثلما هو الحال مع الاستعمار الفرنسي للجزائر. لذلك يتحدّد مع الإبراهيمي في رسالته للمعلّمين في عملهم التربوي تأكيده على ضرورة تربية الناشئة تربية تربطهم بوطنهم وترسخ لقيمه. وذلك في قوله: "ربّوهم على ما ينفعهم وينفع الوطن بهم، فهو أمانة الوطن عندكم، وودائع الأمة بين أيديكم."⁽³⁾

(1) - برتراند رسل، التربية والتظام الاجتماعي، ص 131، 132.

(2) - محمود قمبر، التحديد في الفكر التربوي، ص 301.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 271.

فمن أوجب الواجبات التي تقع على عاتق المصلحين ربط الأجيال ومختلف فئات المجتمع بوطنهم خصوصا الشباب منهم، والحرص على حمايته من جميع ما يعترضه من التيارات والأفكار الهدامة، والوقوف ضد كل ما يحول بين الشباب ووطنيته، فيجب تعميق حب الوطن في أنفسهم، وتمتين صلتهم به وتحسيسهم بالمسؤولية الملقاة عليهم للحفاظ على هذا الوطن، والعمل الجاد لتخليصه من عدوه وتطهير أرضه من دنس الاستعمار.⁽¹⁾

ويجب على الشباب بالمقابل أن يتفادى كل ما يحول بينه وبين وطنه وبين خدمته، خصوصا ممارسات الاحتلال الذي لم يدع وسيلة إلا ووظفها من أجل القضاء على الوطنية في نفوس الجزائريين من خلال محاولة نشر ثقافة الازدراء للوطن وللشعب في أساليب حياته وثقافته، والتشكيك في مقوماته. "لا يعدلكم في حب وطنكم إلا ظالم، ولا يصرفكم عن إتقان وسائل النفع له إلا أظلم منه، أنتم اليوم جنود العلم فاستعدوا لتكونوا غدا جنود العمل، إن وطنكم مفتقر إلى جيل قوي البدن، قوي الروح، مستكمل الأدوات من فضائل وعزائم، وإن هذا الجيل المنتظر تكوينه منكم."⁽²⁾ فقوة الوطن مكتسبة من قوة الوطنية من عزيمة وولاء، وهذا لا يكون إلا بتربية أجيال قوية في وطنيتها وإرادتها.

من هنا تتوجه رؤية الإبراهيمي التربوية إلى كافة أبناء الأمة بضرورة تكريس البعد الوطني للتربية لدى الناشئة، وخصوصا الشباب منهم، دون استثناء أي فئة من المجتمع، مستثمرا في ذلك مواطني الشعور القومي لدى الأمة من خلال التركيز في خطابه التربوي على ضمير الأمة العام وما يحرّك شعورها. "نخاطب من الأمة ضمايرها، ومواقع الإيمان منها، ومكامن النخوة والغيرة فيها، ونعمم الخطاب إلى جميع الطبقات من تجار وفلاحين وأصحاب مهن حرة وصنائع وعمال ونذكرهم بأن الله عليهم حقًا، وأن للوطن عليهم حقًا وأن للإسلام والعروبة عليهم حقوقًا، وأن لهذا الجيل الناشئ المتطلع إلى حياة العلم والعز والسعادة عليهم حقوقًا فليعدّوه لذلك كما تعدّ الذخائر للمستقبل... إن من الدّين نشر علم الدين وتثبيته، وإن من صميم الوطنية تعليم أبناء الوطن، وإن من أصول القومية إحياء اللغة العربية."⁽³⁾ فالتربية على الوطنية لا تقتصر على فئة معينة بل تشمل كل فئات المجتمع، إذ كلّ يجسدها من موقعه وعمله. فرجل الدّين تظهر وطنيته من خلال السّعي الحثيث في نشر الدّين وعلومه وهداية النّاس وإصلاحهم، وتثبيتهم على العقيدة الصحيحة وإصلاحهم

(1) - محمد زرمان، معالم الفكر السياسي والاجتماعي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، ص 210.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 204.

(3) - المصدر نفسه، ج 2، ص 448.

وكل ما ارتبط بوظيفته من تعليم وهداية ونصح وموعظة، والمرتون وطنيون من خلال تربيتهم وتعليمهم والأخذ بيد الناشئة وإرشادها في الحياة بناءً على التطورات العلمية والمعرفية، ووفق فلسفة المجتمع ومقومات الشخصية الوطنية، لذلك أكدّ الإبراهيمي على أن إحياء اللغة العربية أصل من أصول القومية لأنها تمثل أحد مقومات الشخصية الوطنية والقومية للمواطن الجزائري.

فالتربية على قيم الوطنية، واستثمارها - كمنطلق وهدف في نفس الوقت - فالوطنية أساس وغاية في حدّ ذاتها، ولا بد أن يسعى كل فرد على نشر قيم الوطنية في المجتمع من موقعه وعلى حسب وظيفته وتأثيره، فليست الوطنية حكراً على فئة دون أخرى، بل هي بمثابة ضمير جمعي يحكم المجتمع ويحركه، كما يشدّد الإبراهيمي على دور الطبقات المثقفة وعلى وظيفة الأئمة المصلحين بضرورة التركيز على الأساس الوطني في تربيتهم وإصلاحهم فالدور الأكبر في ذلك يقع على عاتقهم، لكنّه لا يستثني شرائح المجتمع الأخرى من ذلك، فركز على العمال والفلاحين والتجار فهم عموماً يعكسون الرأى العام للأمة ويساهمون في بناءه. فالتربية على الوطنية مرتبطة بكل فئات المجتمع، ومرتبطة بمقومات الشخصية الوطنية من دين ولغة وثقافة، فمن الوطنية نشر الدين الإسلامي وتثبيته، ومن الوطنية تعليم لغة الأمة وتجيئها إليهم.

إدراكاً من الإبراهيمي لأهمية البعد الوطني في التربية على الوطنية والمواطنة وتكريس قيمهما. من منطلق أن الانسان يولد مواطناً بالقوة، أي إنساناً اجتماعياً متقبلاً لصورة المواطن، فدور التربية المواطنتية أنها المسؤولة عن تحويل المواطن بالقوة إلى المواطن بالفعل، أي المسؤولة عن تشكيله كمواطن وتنمية وعيه وشعوره وإرادته كمواطن، فدورها يتأتى في عملية تكوين المواطن شعوراً وسلوكاً، من منطلق أن المواطن كائن معنوي غير معطى طبيعياً في الوجود الاجتماعي السياسي، إذ ينبغي صنعه من خلال عملية تحويل داخلي يكتسب من خلالها الأفراد صفات وخصائص المواطنة.⁽¹⁾

يولي الإمام الإبراهيمي عناية فائقة بالشباب في فكره التربوي عاملاً على تنمية البعد الوطني لديهم، إذ اختصهم الإبراهيمي بعدد المقالات التي تؤكد على دورهم في ذلك، دالاً بها على الموقع الذي يمثله الشباب في المجتمع كطاقة بشرية لها تأثيرها البالغ في إحداث التغيير وتحقيق النهضة المنشودة. كما يتوجه إلى الطلبة المهاجرين في سبيل طلب العلم، بأنهم ممثلون للوطن في الخارج، فعليهم أن يدركوا الواجب الذي يمليه عليهم

(1) - ناصيف نصّار، التربية على المواطنة، كيف نمهد لقيامه الجيل العربي الجديد، دروس ومحاضرات في التربية القومية، منشورات الطليعة العربية، تونس، أكتوبر 2002، ص 3، 4.

الوطن، وأن لا يفارق ذلك مداركهم، فالغاية من هجرتهم طلب العلم وخدمة الوطن، فإن: "الوطن - وهو أبو الجميع - يتطلع من وراء هذه الهجرة إلى إحياءٍ وتعميرٍ وإعادةٍ مجدٍ وبناءٍ تاريخ... وأن الوطن حين يرضى بخلوه من أبنائه أنهم ما أخلوه إلا ليعمره، وما قطعوه إلا ليصلوه، وما فارقه شابنا عزلاً إلا ليعودوا إليه كهولا مسلحين بقوة التفكير، تظاهرها قوة العلم، تظاهرها قوة العمل... جعلكم رواده إلى القطر، وأرسلكم وانتظر، ورجا من إياكم الحيا والحياة." (1) فلا يفارق الإنسان وطنه إلا بهدف ضخ دماء جديدة فيه، وإفادته بعلم وفكر لم يتيسر بلوغه في الوطن أو لم يتوفر فيه، حتى تزيد الهجرة للعلم قوة إلى قوته وتدفعه قدما، وإلا لما اعتبر ذلك هجرة، إنما هروبا من الواجب وانتفاءً من الحياة لأن الشعور بها مرتبط بالوطن وخدمته، ولكانت الجهود المبذولة آنذاك فارغة من أي معنى أو شعور يملبه الوطن ودون هدف يسعى إلى تحقيقه.

ولا قيمة للفرد في المجتمع ولا قيمة للشباب إذا انسلخ عن وطنيته، وطُمت شخصيته و تُحقت مقوماته، فما الغرض من العلم عند الشباب إذا لم ينتفع به وطنه وهو في أمس الحاجة إليه، وما الفائدة من قوة الشباب وطاقته إذا لم تستثمر في خدمة الأمة وتحقيق غاياتها، إذ يتساءل الإبراهيمي عن قيمة الشباب والعلم إذا لم يرتبطا بالوطن؟ "وما قيمة الشباب إذا لم تنفق حياته في تحصيل علم، ونصر حقيقة، ونشر لغة، ونفع أمة، وخدمة وطن." (2) فالوطنية تشكل دين الأمة، وكل ما يدخل ضمن الذود عنها وعن حياض الإسلام، ونصرة حقائقه وقضايا الوطن وبعث الحياة فيه، والانتصار للغة الوطن وتطويرها، تدخل كمقومات وسمات ترتبط بوطنية الفرد.

ففي هذا السياق يواصل الإبراهيمي المسار الذي رسمه وخطّه مع الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان يؤمن في هذا المجال بشعار «الحق فوق كل أحد - والوطن قبل كل شيء» فقد كانت من أهداف تربيته العمل على بناء جيل قائد في الجزائر، ينتشلها من التأخر والانحطاط ويجررها من الاستعمار. (3) فعلى الشباب الجزائري أن يدرك تماما رسالة الشيخ الإبراهيمي حين قال: "لا حقّ لكم على الوطن، بل الحق كله للوطن عليكم، وإن أوكّد حقوقه عليكم أن تحققوا بالعلم مطالبه، وتعمروا بالعلم جوانبه." (4) وعلى الشباب أن يضع نصب عينيه خدمة وطنه بفضل السعي الجاد لتحقيق المصلحة العامة التي تنتج عظماء التاريخ، والابتعاد عن

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 201، 202.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص512.

(3) - تركي رابح عمارة، الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ص428، 429، 446.

(4) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص315.

المصلحة الخاصة التي تجعل من العظيم صغيراً، أما الذي يخدم الإنسانية يموت عظيماً، فعلى الشباب أن يتخلص من أنانيته ويلتفت وراء خدمة أمتهم ففي ذلك نفع لها وله، فالوطنية قبل كل شيء هي شعور ينبغي أن يتمتع به الشباب.⁽¹⁾

ويؤكد الإبراهيمي في نصائحه للمجلس الجديد للجمعية على العديد من القيم التي ينبغي مراعاتها في تربية المواطنة لدى الأجيال، بداية من التأكيد على تنمية الروح الوطنية وقيم الشخصية الوطنية والاعتزاز بها من جهة. والتأكيد على قيم المواطنة المتمثلة في المحبة والاتحاد وأن الأمة الجزائرية لن تكون إلا بتلك القيم. إذ يوصي الأعضاء والحضور "بالشباب فإنهم ذخر الغد، وأمل الأبد ورأس مال هذه الأمة، فليلا بسهم وليغرس فيهم حب دينهم ولغتهم ووطنهم وتاريخهم، وليقوّ فيهم ملكة الاعتزاز بها، ولييسط في آمالهم الوطنية ... وليحملهم على التحابب فإن الحب رباط القلوب، وإن الحب يثمر الاتحاد. وأوصيه بالأمة الجزائرية المسلمة، فليكن لها تكن له." ⁽²⁾

ومن أدوار التربية تكوين الشخصية الوطنية والقومية للجماعات والشعوب فعن طريقها يتم نقل تراث الأمة إلى أبنائها، وتنشئتهم على لغتهم القومية ونقل خصائصها الحضارية من عادات وتقاليدهم وأخلاقهم، حتى تضمن لنفسها التماسك الاجتماعي والشخصية المتميزة عن الأمم الأخرى. لذلك كانت روح التربية والتعليم مستمدة من عقيدة كل أمة وفكرها ونظرتها الخاصة إلى الحياة والكون، وكذلك تلجأ إليها المجتمعات المغلوبة والمتخلفة للمحافظة على شخصيتها وتحقيق قفزة حضارية وتجاوز سلباتها. ⁽³⁾ فالتربية على الوطنية إذن تجسيد لمعناها لدى الأفراد، وانعكاس لفلسفة الأمة وترسيخ لنظرتها لدى كل جيل، فالتربية أساس لبناء الأمة والوطن، إذ " لا بناء لكيان الأمة إلا بالتربية الصالحة والتعليم النافع." ⁽⁴⁾

وفي توضيح حقّ الشباب على الأمة، وحقّ الأمة على الشباب يبين الإبراهيمي ذلك التلازم: "لا يحسن الشباب إلى أمتهم كلها إلا إذا تبنته كلّهم، حتى لا يقول كبير: حسبي ولدي، ولا يقول صغير حسبي ولدي. ولا ينفع الشباب أمتهم إلا إذا جمع بين صحة العقل، وبين صحة الجسم. أما صحة العقل فإن علينا بنائها وفي

(1) - أحمد عصماني، الشباب الجزائري في مخيال الشيخ الإبراهيمي، جريدة البصائر، ع705، 19-25 رجب 1435هـ، 19-25 ماي 2014م، ص15.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 445.

(3) - محمد زمران، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 392، 393.

(4) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 209.

ذمنا ضمائها، وأما صحة الجسم فمن المسكن الصالح مبتدأها وإلى الغذاء النافع منتهاها وكلا هذين دين على الأمة واجب الأداء.⁽¹⁾ فالأمة تتبنى مختلف فئات المجتمع، وعليها أن تحتضن الجميع، وبالتركيز على الشباب لا بد أن تعمل الأمة على تحقيق خاصيتين و غايتين أساسيتين من خلالهما ينفع الشباب وطنه، تتمثل الغاية الأولى في: «صحة العقل» من خلال التربية والتعليم وهو ما يتكفل به المرثون والمصلحون، أما الخاصية الثانية تتمثل في: «صحة الجسم» من خلال العمل على ضمائها ويرتبط ذلك بالجانب المادي من غذاء ومسكن وعلى الأمة توفيره. مع ضرورة الربط بين هاتين الخاصيتين حتى تحصل المنفعة التامة. فبناء الأمة والوطن إذن يرتكز على تكامل مقومات وعوامل مادية ومقومات وعوامل فكرية روحية لا على أحدهما دون الآخر، فالعقل والشعور يعكسان البعد الروحي والفكري، والجسم والاعتناء به يعكس البعد المادي.

وقد اعتمد الإبراهيمي في ترسيخ قيم الوطنية على الصحافة إضافة إلى وسائل التربية من مدارس ومؤسسات، لذلك احتلت الصحافة دورا رائدا في تكريس قيمة الوطنية وقيم المواطنة لدى الأفراد خصوصا الشباب منهم، فالدور التربوي للجريدة البصائر اتجاه الشباب كان شاملا للجميع، فإن كان التعليم في المدارس والموعظة والخطب تقتصران على الفئة الحاضرة فقط، وتبقى رهينة زمنها دون تدوين أو تسجيل، فإن المقالات الصحافية تصل لكل من توصل إليها وكان متعلما، كما أنها تبقى متوفرة لمدة زمنية، ففي إحدى مقالاته يوضح الإبراهيمي دورها (الصحافة) قائلا: "وقفت من الشباب المسلم الجزائري موقف الأب الناصح تدعوه إلى تعاليم دينه وبيان لغته ومعرفة تاريخه والمحافظة على ميراثه الجنسي وخصائصه وأخلاقه، وأن يفهم الحياة بواجبها بحقائقها وأن يجمع شمله على الشبيبة وحب الوطن ونفعه، وأن يزاحم الأجنبي في علمه وعمله بالمنكب القوي، وأن لا يكون فارغا في هذا الزمان الملائن ولا عابثا في هذا العصر الجاد، وأن يكاثر شباب العالم علما بعلم وعملا بعمل، وأن يتجه إلى سمت ويعمل له في صمت... ووقفت من الحضارة الغربية موقف المحترس الحذر، تدعوا إلى ما فيها من علم وقوة وتنتهي عمّا فيها من قشور وتوافه ورذائل."⁽²⁾ فكانت الصحافة المكتوبة من خلال المقالات والأشعار التي تضمنتها مختلف المجالات والجرائد دور كبير وهام في تذكية البعد الوطني للناشئة، وإيصال صوت المصلحين والعلماء إليهم، ومنه لم يغفل الإبراهيمي البعد الوطني في التربية بتكريس هذا البعد لدى الأجيال أو جعله محركا ودافعا لهم بهدف التربية وخدمة الوطن.

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 453.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 439، 440.

6. مقومات ودعائم التربية الوطنية عند الإبراهيمي :

تقوم التربية على الوطنية لدى الإمام الإبراهيمي على العديد من الدعائم والمركبات، إضافة إلى الأسس التي يقيمها للتربية بصفة عامة، وفيما يتعلق بالأساس الوطني فإنه يربطه خاصة بكل ما يدّكي روح الوطنية والمواطنة لدى الناشئة ويصلها بمقوماتها الوطنية، لذلك مثلت هذه المقومات من دين ولغة أهم الدعائم في تربية الإبراهيمي عامة وفي التربية على الوطنية خاصة إضافة إلى دعائم أخرى وأهم هذه الدعائم تتمثل فيما يلي:

6. 1. مقومات الشخصية الوطنية.

تشكل مقومات الشخصية الوطنية من دين ولغة أحد أهم الركائز الأساسية في التربية على الوطنية لدى الإبراهيمي، إضافة إلى ما يستتبعهما من ثقافة المجتمع وتاريخه وتقاليده. نظرا للدور الذي يشكله كل من الدين واللغة في زيادة الصلة واللحمة بين الفرد ووطنه. خاصة بالاعتماد على مؤسسات المجتمع كالمساجد والمدارس، إذ تسهم المدارس على سبيل المثال في: "تعميق الروح الوطنية بخلق نوع من التقدير للذكريات و الآمال والتقاليد، فمن خلال دراسة التاريخ على سبيل المثال يتعلم الكثير من الطلاب حب بلادهم و يقدرون أبطالها العظام، وتحافظ المنظمات الوطنية وتعمل على ترقية بعض الرموز الوطنية و الفخر القومي مثل عَلم الوطن و المزارات الوطنية والنصب التذكارية، كما يظهر ذلك في تمجيد الأعمال الأدبية إخلاص الناس لبلادهم واستعدادهم للموت دفاعا عن حريتها وكرامتها.⁽¹⁾

فمقومات الشخصية الوطنية تعكس التراث الروحي للأمة، ومن المعروف أن هذا التراث بمثابة الوعاء الذي تنصهر فيه المثل الاجتماعية والمقومات الخلقية التي تضمن للمجتمع كيانه الروحي، ويجوي القواعد والقوانين التي تنظم علاقة الأفراد فيما بينهم، وبذلك فقد أدى التراث الروحي الجزائري دورا قياديا في تغذية الشخصية الوطنية، وهذا ما تبلور مع جمعية العلماء ممثلة في روادها ابن باديس ومبارك الميلي والبشير الإبراهيمي من خلال عملهم لرد الاعتبار لشخصيتنا الوطنية المكلمة والتحرر من تصارع التيارات المذهبية العالمية وجدها العميق وقد اتخذت من بعض الدول النامية أوكارا لها حتى تبقىها في ذلك العقم والجمود.⁽²⁾ ومنه لا بدّ من إحياء هذا الموروث الروحي. والمتمثل في مقومات الشخصية الوطنية، وأهم هذه المقومات:

(1) - مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، ص113.

(2) - محمد السويدي، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، تحليل سوسيوولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 42، 43، 44.

الدّين الإسلامي:

يشكل الدّين ضرورة أساسية في ترسيخ روح الوطنية لدى الناشئة وتربيتهم عليها، سواء بالنسبة للوطنية في مفهومها الضيق أو في مفهومها الواسع، فالوطنية الصالحة المحكومة بقيم الإسلام وأحكامه لا تعني جعلها حكراً على المسلمين فقط ولكنها وطنية واسعة النطاق ومتنوعة المعالم، تحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها، وتحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها وعلى الأمة بجميع مقوماتها. مقررّة التضامن الإنساني العام، فالإحسان إلى الفرد الواحد إحسان للجميع، والإساءة للواحد إساءة للجميع، فالمواطنة الصالحة هي مزوجة بين انتماءين، الأول جغرافي، والثاني انتساب إلى قيم ومعتقدات هي من تحدّد الوطنية الصالحة.⁽¹⁾ يؤكد الإبراهيمي على ضرورة الشق الثاني من الوطنية، وأنه لا يمكن اعتبار الوطن وطناً إلا من خلال ذلك الموروث الثقافي معتبراً أن الوطن إذا جرّد من ذلك الموروث خاصة اللغة والدّين يصبح وطناً ميتاً، لا يعدّ أن يكون قطعة أرض ميتة يجوزها من طلب أو من غلب. " فالوطني الصميم هو المدافع عن دين وطنه ولغة قومه، حتى يثبت أن هناك وطناً يشرف الانتساب إليه، وقومية يحسن الاعتزاز بها." ⁽²⁾ فإن كان الوطن قطعة جغرافية مادية فلا بدّ له من روح تخرج من صلب المادة الحياة تلك الوطنية التي تستثمر مختلف طاقاته وإمكاناته فتجعل الوطن يثمر نهضة ويجسد حضارة. وقد اتضح دور الدّين كأساس تربوي في الفصل السابق، ومن هذا المنطلق يشكّل أساساً تعدّد عليه تربية البعد الوطني لدى الأجيال.

اللغة العربية:

تشكل اللغة هي الأخرى دعامة أساسية ترتكز عليها الوطنية، فلن يصعب ويتصف الفرد بصفة الوطني إلا من خلال ارتباطه بوطنه ومقوماته التي من بينها اللغة. إذ يدخل ضمن التربية على الوطنية محاربة كل ما اعترض هدم مقومات الشخصية الوطنية. لذلك شكلت مختلف الجهود المنصبة من طرف الإبراهيمي وغيره إزاء مجابهة سياسة الفرنسة والإدماج والتنصير تأسيساً للتربية الوطنية، فتحقيق الإيمان بالشخصية الوطنية ومقوماتها الدّينية واللغوية يعدّ الدّافع الأكبر للنهضة والدّود عن الوطن، فيصبح الأساس الذي انطلق ودافع عنه الإبراهيمي هدفاً ودافعاً تربوياً تقوم عليه التربية وتغرسه في النفوس. فكل المساعي في مجال التربية، التعليم،

⁽¹⁾ - مسعود فلوسي، الطاهر براخلية، أسس الوطنية ومعالمها ومقوماتها في فكر عبد الحميد ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، ص 510،

511.

⁽²⁾ - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 160.

الأعمال الخيرية، النشاطات الجموعية تصبّ في هذا المجال. وهي الحفاظ على: اللغة، الدّين والوطن أمام الفرنسية، التنصير والادماج. وتمثل الدعوة إلى الاعتزاز بالوطنية الجزائرية ردًا على محاولة تحطيم هذه المقومات.

وقد عمل الإبراهيمي ضمن تربيته للبعد الوطني لدى الناشئة على المحافظة على اللغة العربية، ودحض وفضح انتهاكات المستعمر لها حينما اعتبرها لغة دخيلة وأنها لغة ميتة موظفا شتى وسائله في محاربتها، حيث يبيّن الإبراهيمي أن "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة بل هي في دارها، وبين حماها وأنصارها وهي ممتدة الجذور مع الماضي مشتدة الأواحي مع الحاضر، طويلة الأفتان في المستقبل." (1) فاللغة تشكل امتدادا للرابطة الروحية التي تربط الشعب بوطنه فهي امتداد للدّين، وتمثل مكوّنًا أساسا في بناء شخصية المواطن المسلم إذ يؤكّد الإبراهيمي أن: "اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية ومن ثم فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية، وهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقّان أكيدان، كل منهما يقتضي وجوب تعلمها، فكيف إذا اجتمعا حقّ من حيث أنها لغة دين الأمة بحكم أن الأمة مسلمة، وحقّ أنها لغة جنسها." (2)

وترتبط اللغة بالدّين في التربية على الوطنية، فلا يمكن تحقيق التنشئة الدّينية إلا من خلال التنشئة اللغوية العربية، فبناء الأمة يتلقون تعليما منطلقه هذه التربية اللغوية والتربية الدّينية، موضحا الإبراهيمي أن الوطنية الحقيقية تتطلب ارتباط مبادئ الدّين بمبادئ اللغة وهو ما يكتسبه المتعلمون من تربيتهم وتعليمهم. فيتلقون "مبادئ الدّين الصحيح عقيدة وأعمالا، ومبادئ العربية الفصيحة نطقا وكتابة وإنشاء، ويتربون على الوطنية الحقيقية وعلى الهداية الإسلامية والآداب العربية ويتكون منهم جيل مسلح بالعلم، ثابت العقيدة في دينه ووطنه، قوي العزيمة في العمل لهما." (3) مع التنويه بضرورة الممارسة والإتقان والتحكم في مبادئ اللغة العربية، حتى يمكن ذلك من ضمان نتائجها، واللغة لا تقتصر على تعلّم مفردات وقواعد لغوية فقط، إنما تعلمها يكون شاملا لما تتضمنه من علوم وآداب وأخلاق وحكم. فيكون ذلك التعلّم كتنقيب للمعارف وتنقيح للعقول. إذ يحرص الإبراهيمي على توجيه الطلبة إلى الإبحار والتوسّع فيها: "أمامكم اللغة وعلومها وآدابها فابحثوا ونقّبوا، واسعوا لبيان فضلها سعيكم لتعليمها..." (4)

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 206.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 48.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص 234.

(4) - المصدر نفسه، ج1، ص 211.

يشكل الدين واللغة أهم مقومات الشخصية الوطنية وإن ركز البشير الإبراهيمي عليهما في التربية على الوطنية فلأن الأمة بتعبيره لا تحيا إلا بهما. فبعث فعالية الأمة يكون بفضل تفعيل وبعث فعالية الشخصية الوطنية ومقوماتها، وما ارتبط بها من قيم وعادات وتقاليد. إذ تعدّ هذه المقومات شرطا لوجود الأمة، والمعروف أن المشروط مرهون بوجود الشرط، ومنه لا توجد أية أمة إلا من خلال: "تثبيت مقوماتها من جنس ولغة ودين وتقاليد صحيحة وعادات صالحة وفضائل جنسية أصيلة، وتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغلاة بقيمتها وبميراثها والإمعان في ذلك كله، حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها، وتموت في سبيلها، وترى أن وجود تلك المقومات شرط لوجودها فإذا انعدم الشرط انعدم المشروط."⁽¹⁾ فانعدام المقومات وموروث الأمة الثقافي انعدام للأوطان والوطنيات، لذلك تتسابق الأمم في الحفاظ على إرثها الثقافي والفكري وتلقنه وتعلمه وترسخه للأجيال فتتفاخر به فيزيدها انتماءً ومفخرةً.

6. 2. العلم و الأخلاق :

تبين في الفصل السابق أهمية وضرورة الأساسين الأخلاقي والعلمي في التأسيس للتربية لدى الإبراهيمي، ويستتبع دورهما في تحقيق الوطنية الحقيقية لدى الأجيال، كامتداد للتأسيس التربوي، لذلك نشير بإيجاز إلى هذين العاملين ضمن مقومات التربية الوطنية تفادياً للتكرار، إذ يؤكد الإبراهيمي على ضرورتهما في تحقيق الوطنية، فلا منفعة للفرد ولا للوطن إلا بامتلاك الأخلاق الفاضلة، ولا ينفع العلم إلا إذا احتكم إلى الأخلاق. هذا ما يتضح في توجيهه للشباب بكيفية تمتين عرى الوطنية لديهم، ولكيفية تحقيق خدمتهم لوطنهم قائلاً: "لن تستطيعوا أن تنفعوا وطنكم وأمتكم إلا إذا ملكتم سلاحين هامين بدوئهما لن تفلحوا في الحياة، ولن يستفيد منكم وطنكم شيئاً هاماً: «الأخلاق القويمة المتينة» و «العلم القوي المتين أيضاً»."⁽²⁾ ويظهر في رؤيته هاته الارتباط بين الحياة والوطن، فإن النجاح في الحياة يتطلب هاتين الوصيلتين الأخلاق والعلم. ولا نجاح في الحياة بل ولا حياة للإنسان إلا بالوطن وخدمته. خاصة وأنه يشكّل دفعا روحيا معنويا للأفراد، ومن جانب آخر يدعو الفرد إلى العمل من أجله ومضاعفة مجهوداته. وقد ظهر للباحث في نقاشات مع بعض المغتربين ممن كان يزاولون أعمالهم بالوطن وانتقلوا إلى الخارج، أنهم يفتقدون إلى هذا الجانب الروحي والمعنوي في أعمالهم وكأنّ جلّ عملهم ينصب على تلبية الحاجيات البيولوجية والاجتماعية ومختلف ما تتطلبه الحياة من أغراض مادية، دون شعورهم بوجود فائدة يقدّمونها لأوطانهم أو غاية نبيلة يسعون إلى تحقيقها، حتى يتساءل

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 64.

(2) - تركي رابع عمارة، البشير الإبراهيمي في المشرق العربي، محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص232.

أحدهم هل هو مجرد آلة أو مآكنة في خدمة الآخر؟ يحكمها دوام ونظام معين، لا غايات وأهداف روحية يسعى إلى تحقيقها وبلوغها، خصوصا ما تعلق بتوجيه جهده اتجاه إفادة وطنه و أبنائه.

يبين إبراهيمي أن السير في طلب العلم وتحقيق الوطنية الحقيقية تجاهه مطبات وعوائق، وليس طريقا مفروشا بكلمات رتانة مثلما يزعم الكثير من المدّعين حين يستبدلون وسائلها العلمية والعملية بلفظ الوطنية تجريدا لا تطبيقا، ومن بين العوائق التي يسوقها التوجهات والتفرقات الحزبية -أو بما يعرف ب: (لصوص الوطنية)- التي تحول دون طلب العلم وتحقيق غاية الوطن مينا إياها إبراهيمي في قوله: "إن الأقدار وضعت في طريقكم إلى العلم عائقا جديدا، وهو شر العوائق وأضرها... هو هؤلاء الدعاة الغاشون، والسماسة المضلون، يدعونكم إلى السياسة ليضلوكم عن العلم، وإلى الحزبية ليفرقوكم عن الجماعة. وإلى الوطنية ليشغلوكم باسمها عن حقيقتها، ويلهوكم بلفظها عن تحصيل أقوى وسائلها وهو العلم، إنهم يملؤونكم بالخيالات صغارا لتفرغوا من الحقائق كبارا، وإنه لنوع من التسميم المرجأ، لا يشعر به المصاب إلا بعد فوات الوقت." (1)

فتأسس الوطنية الحقيقية منطلقه علمي عملي، فبالعلم نكتسب الأخلاق الفاضلة من أخلاق دينية وإنسانية ووطنية، وبالعلم ينتفع الوطن، وبالعلم تتجسد الوطنية على أرض الواقع. لذلك يؤكد إبراهيمي على قيمة العلم وعلاقته بالوطن. "إن العلم هو عمارة الأرض وأساس الوطنية ومنشئ الوطنيين، وأرشدناك إلى أن العلم بالتعلم، وحثناك على تكثير مدارسه." (2) فلا تتأسس الوطنية لدى الأجيال، ولا تُدكى روح الانتماء لدى المواطنين إلا إذا علمناهم، وما الدعوة إلى بناء المدارس والمساجد وتطوير الحركة العملية والتربوية في العديد من جوانبها إلا إدكاء وتنمية للبعد الوطني، خصوصا وأن النهضة لا تتأتى إلا بالعلم والأخلاق كمبادئ أولية لها. وأكد على هاته الرؤية في أكثر من مقام ومقال نظرا للأهمية البالغة التي يحتلها العلم، منوها بأن العلم هو المركز والأساس في دائرة الوطنية. "العلم إن كنتم لا تعلمون هو أساس الوطنية وقطب رحاها، ومركز دائرتها ودليل سيادتها، لا حق لكم على الوطن، بل الحق كله للوطن عليكم، فإنّ أوكده حقوقه عليكم أن تحقّقوا بالعلم مطالبه، وتعمروا بالعلم جوانبه، وتنبروا غياهبه." (3)

(1) - إبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج3، ص315.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص315.

(3) - المصدر نفسه، ج3، ص315.

6. 3. المنطق العملي النافع :

تقتزن الدّعائم والمقوّمات الأنف ذكرها (الدّين، اللغة، العلم، الأخلاق) بضرورة الممارسة العملية لكل ما يترجمها واقعيًا، فتتجسد سماحة الدّين في المعاملات والعلاقات الاجتماعية، فتكون سلوكيات الأفراد معيّنة عن الأخلاق الفاضلة، وتتجسد معارفه والعلوم التي تمّ تعليمها على أرض الواقع فتساهم في بناء الوطن وحل مشكلاته، هذا ما يدخل ضمن إطار العمل النافع، إذ لا يمكن الحديث عن الدّين أو العلم أو الأخلاق إلا من خلال ترجمتهم عمليًا وتفعيلهم في الممارسات الفردية لدى كل مواطن لينتفع بها الوطن، ولا يمكن تحقيق منفعة الوطن والفرد إلا من خلال نقل هذه المقومات من النظري إلى العملي، وربط هذه العوامل مع بعضها البعض، وتأكيد الإبراهيمي على ضرورة المنطق العملي النافع من مطلق نظريته للحياة على أنها قسمان: "حياة علمية، وحياة عملية، وإن الثانية منهما تبنى على الأولى قوة وضعفاً، وإنتاجاً وعمقاً، وإنكم لا تكونون أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم."⁽¹⁾ فالوطنية بذلك تقتضي العلمية والعملية فكلما ازدادت الأمة والوطن في علومها وجسدتها واقعيًا، واحتكمت إلى الأخلاق الفاضلة كسياج يحمي أفرادها ازدادت الأمة والوطن قوة وإنتاجاً في عملها.

وبالتالي فإن التربية على الوطنية تقتضي تدعيم وتربية الأجيال على العمل والممارسة الميدانية. إذ تشكل كل من التجربة والممارسة العملية دوراً كبيراً في بلوغ الغايات التي يروم الوطن تحقيقها، فلا يكفي معرفة الدور الحضاري ومصالحة الوطن فقط بل وجب خوض غمار التغيير والتحصير عملياً في أرض الواقع، لذلك يتوجه الإبراهيمي إلى كل من حمل روح الوطنية وأمانة الوطن أن يختبرها واقعيًا. "إننا نزيد عليكم بعد الاشتراك في حمل الأمانة العامة، باستحكام التجربة وعراك الأيام."⁽²⁾ لأن الواقع والحياة العملية تعتبر محكا حقيقيا لمعرفة صدق النوايا، وصدق الوطنيات وتمييز الحقيقية من المزيفة منها، وتصويب مختلف الأفكار والنظريات التي تتوافق ومصالحة الوطن. إذ تبقى مختلف الآراء والنظريات مجرد رؤى وفروض حتى يثبت الواقع صِدْقِيَّتْها وفعاليتها أو ملاءمتها له، من خلال هذا اقتضت الوطنية ضرورة التأسيس لمنطق العلم والعمل لدى المواطنين.

ويؤكد الإبراهيمي على ذلك في أكثر من مقام، حاثًا الشباب على العمل جاعلا من العلم موجّها له في حياته. ويظهر ذلك جليا في مقاله: «الشباب الجزائري كما تمثله لي الخواطر». أين يوضّح تصوره

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 203.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 266.

للشباب الجزائري متمثلاً إياه: "حلف عملٍ لا حليف بطالة، و جِلس معمل لا جِلس مقهى، وبطل أعمال لا ماضغ أقوال، ومرتاد حقيقة لا رائد خيال... أتمثله مقبلاً على العلم والمعرفة ليعمل الخير والنفع، إقبال النحل على الأزهار والثمار لتصنع الشهد والشمع، مقبلاً على الارتزاق إقبال النمل بجدُّ لتجد، وتدّخر لتفتخر."⁽¹⁾ فلا مكانة للشباب الجزائري إلا بالعلم و الأخلاق والعمل والتشبث بمقومات الشخصية الوطنية.

ويضاف إلى هذه المقومات العديد من الدعائم التي ترتبط بالوطنية، فالوطنية تقتضي حب الوطن والمحافظة عليه والدفاع عنه والتفاني في خدمته، وإن حب الوطن يترجم عملياً في المقومات السابق ذكرها فيتحلّى بها كل فرد، فيجسد لأنموذج المواطن الحقيقي وتصدق عليه صفة الوطني، فيعكس السلوك المواطناتي مع أفراد المجتمع، مازجا بين جنسيته وانتمائه الجغرافي، وبين ولائه لوطنه وخدمته والتمسك بقيمه، وممارسته لواجباته مطالباً بحقوقه، وكل ما يدخل ضمن دائرة المواطنة اليوم. ومن خلال ما سبق تحليله نخلص أن التربية على أساس الوطنية عند الإبراهيمي ينبغي أن تترجم وتراعي العديد من العناصر أهمها:

- تتجسد التربية الوطنية والمعنى الحقيقي للوطنية واقعيًا وعمليًا، من خلال العمل على ترجمتها على أرض الواقع، لا أن مجرد التغيي بها كشعارات جوفاء.
- ضرورة تجاوز الوطنيات الضيقة إلى الوطنية الواسعة القائمة على أساس الدين الإسلامي.
- ترسيخ دعائم التربية الوطنية لدى الناشئة خصوصاً ما يتعلق بمقومات الشخصية الوطنية من دين ولغة.
- إحياء الموروث الروحي للأمة وتجاوز الصّراعات المذهبية والجمود الذي لحق بذلك الموروث.
- تنمية المنطق العملي لدى الأجيال وعدم الاكتفاء بالمنطق النظري في تربية البعد الوطني لديهم.
- نشر ثقافة المواطنة وقيام كل مواطن بما تمليه عليه هذه الثقافة دون التكرار لما يتعلق بالمقومات الوطنية.
- التربية على الوطنية ليست مسؤولية فردية، بل تقع على عاتق كل أفراد المجتمع، وبممارستها كل فرد من موقعه.

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 509.

ثالثاً: الأساس النفسي ومراعاة البعد الفطري للإنسان.

من الضروري قبل التربية معرفة طبيعة الطفل وخصوصياته وإمكاناته والاطلاع عليها من قبل المربي، وبناءً على ذلك يتحدد نوع التربية والطريقة التي ينبغي استخدامها، فقد تكون فطرة الإنسان حيادية لا هي حسنة ولا هي سيئة، وهذا ما يتحدد مثلاً مع «تولستوي L.Tolstoi» وقد تكون فطرة ظاهرة خيرة غير أنه قد تفسد تلك الفطرة بفعل المجتمع مثلما يتحدد في طرح «روسو J-J.Rousseau» وقد تكون فطرته غير سليمة فيكون فاسداً أو شريراً بطبعه رابطين هاته الفكرة بفكرة الخطيئة في الفكر المسيحي عند «مونتاني Montaigne» و «هوبز T.Hobbes» وقد تكون فطرته سليمة ولكنه يولد راغباً في الشر. أما الرؤية الإسلامية تربطه بالحسن والخير مع وجود ميل إلى الشر بفعل تأثير الغرائز.⁽¹⁾

وتتحدد الرؤية الإسلامية في العديد من الآيات القرآنية التي بينت ذلك كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾⁽²⁾ ورؤية الإمام الإبراهيمي لا تخرج عن سياق الرؤية الإسلامية حول الطبيعة البشرية، إذ تبرز رؤية الإبراهيمي حول طبيعة الإنسان من خلال توجيهاته للمربين، حيث يرى أنه لا ينبغي النظر إلى المتعلم باعتباره خيراً بطبعه، فنتهاون في تربيته، ولا باعتباره شريراً بطبعه، فنأخذ بأسباب التعسف والقهر، وإنما ينبغي أن ننظر إليه باعتباره مجبولاً على الخير والشر معاً كي تتوازن عملية تربيته بين اللين، وبين الحزم، بين لين من غير ضعف وبين حزم من غير عنف.⁽³⁾ ويرتبط ذلك جلياً بمعرض حديث الإبراهيمي عن نقل الإنسان إلى الكمال الإنساني معتبراً أن الكمال والنقص وصفان يتعاقبان على الفرد كما يتعاقبان على المجموع، وأن الإنسان العاقل خلق مستعداً للكمال، وقد هيأ له خالقه الحكيم أسبابه ومكن له وسائله، ونصب له في داخل نفسه وخارجها أمثالا يحتذيها لبلوغ الكمال مثلما تم توضيحه في الأساس الأخلاقي، ومن خلال ذلك تشكل معرفة الطبيعة البشرية عنصراً هاماً ينبغي مراعاته في التربية لدى الإبراهيمي.

1. مراعاة الطبيعة الإنسانية في التربية:

يرى البشير الإبراهيمي أن الإنسان لا يولد بأي أفكار مسبقة فطرية أو موروثية، ويجري اكتساب أفكاره ومعتقداته من احتكاكه بالعالم الخارجي، عاكساً التصور الإسلامي للطبيعة البشرية من منطلق أن المولود

(1) - علي القاسمي، أسس التربية، تحقيق عبد الكاظم لوبادي، دار النبلاء، بيروت، ط1، 1995، ص 59، 60، 61.

(2) - سورة التين، الآية 04.

(3) - محمد جبر السيد عبد الله جميل، الفكر التربوي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ص 14.

البشري يولد على الفطرة، وولادته تكون صافية خالية من أي اكتساب خلقت وطبعاً وهيئة، ليس فيهما إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة. (1) وتتضح رؤيته حول الطبيعة الإنسانية من خلال توضيحه للمربيين كيفية تعهد الأطفال إذ أنهم: "مفطورون على غرائز ناقصة يزيد بها الإهمال وفقدان التربية الصالحة نقصاً وشناعة، وتعالجها التربية الحكيمة كما تعالج الأمراض، فإذا لم تعالج في الصغر اندملت نفوسهم عليها كما يندمل الجرح على فساد، و جفت كما يجف العود على عوج، فضعوا أيديكم على تلك النقائص وتعمدوها بالإصلاح والتقويم أو بالتشذيب والتعديل." (2) فعلى المربين تنمية كل قيم الفضيلة والأخلاق الكريمة وتدارك مكامن النقص بالمعالجة منذ بدايتها لا بعد أن تستعص على ذلك مستقبلاً في كبرهم.

يقدم الإبراهيمي أمثلة عن تلك النقائص التي ترجع في أغلبها إلى حالات نفسية كالخوف، الحسد، سرعة التأثر والانفعال وسرعة التصديق بكل شيء وإفشاء ما تسمعه آذانهم وتراه أعينهم. مبرزا أسباب ومنشأ أغلب هاته النقائص وكيفية تجاوزها من طرف المعلمين. فالخوف قد يرجع إلى تلك الأوهام التي تحوكمها الأمهات الجاهلات لصغارهم منذ الرضاعة، تستعين بها الأم لإسكات الطفل أو تسكين حدته دون دراية منها بعواقب تلك الأوهام في كبره. والسبيل في اجتنائها من نفوسهم يكون بتقوية الإرادة وتنمية الحقائق في أذهانهم. فتعالج كل نقيصة بتقوية ضدها وبيان أضرارها بصورة عملية على حسب قدرات الأطفال العقلية. (3)

ولا ينبغي أن يفهم من كلام الإبراهيمي عن الغرائز الناقصة أنه يرمي إلى القول بأن الإنسان شرير بطبعه، بل يريد أن يلفت نظر المربيين إلى ضرورة الاعتناء بهذا الجانب. لأنه إذا ترك الإنسان لشأنه فإنه يكون أكثر ميلاً للاستجابة لدوافعه الشريرة وغرائزه الناقصة مخالفاً الفطرة السوية. لأن هاته الغرائز الناقصة ليست ثابتة إنما قابلة للتغير إذا ما تعهدتها التربية الصالحة. (4)

ومنه تبرز ضرورة تربية النفس ومراعاة العوامل النفسية في التربية. معتبراً أن النفس البشرية كسائر النفوس لدى الكائنات الحية لا بد أن يتم تعاهدها "بالتربية الصالحة وتراض على الفضائل والكمالات وإن شئت، حتى ترجع قابليتها للخير على قابلية الشر، وكل هذا يفترق إلى جهود، فهو جهاد فيه كل خصائص الجهاد بمعناه الضيق، ويزيد عليه أنه أصله وأساسه، وقد ورثت الآثار بتسميته الجهاد الأكبر، والمعلم والمربي لا يغنيان

(1) - المرجع السابق، ص 12.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 114.

(3) - المصدر نفسه، ج 2، ص 114، 115.

(4) - محمد جبر السيد عبد الله جميل، الفكر التربوي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ص 13، 14.

في هذا الباب ما يغني صاحب النفس، فهو أقدر على كبح جماحها، ومراقبة دخالها وضبط أنفاسها وتنظيم خواطرها وقمع نزعاتها الباطلة وحفظها السافلة ونزواتها الشهوانية، وإفاضة النور المبدد للظلام في جوانبها.⁽¹⁾ فتربية النفس على الخير منطلقها نفسي من خلال تحكم كل فرد في ذاته ونفسه فيكون ضميرا لذاته ورفيقا على نفسه فيقودها نحو القيم الخيرة.

فالأصل في التربية النفسية إذا يرجع إلى الإنسان المعني بالعملية التربوية، فهو من يتحكم في نفسه، وما المرتبون إلا موجهون ومرشدون في هذه العملية. لهذا تعدّ التربية النفسية عند إبراهيمي فصلا من فصول الجهاد، وهو جهاد النفس أو بالأحرى تربية النفس على الفضائل. لذلك يعتبر جهاد النفس أعلى مراتب الجهاد حتى تستقيم النفس على صراط الحق والفضيلة ومكارم الأخلاق، ويدخل ضمن نطاق التربية الداخلية للإنسان أو الجهاد الداخلي الذي يعدّ أساسا لجهاد العدو الخارجي. ولأن نظرة إبراهيمي للطبيعة الإنسانية والنفس البشرية انعكاس للتربية المحمدية والنظرة الدينية الإسلامية حيث أصلحت وقومت سلوكات الصحابة من خلال التربية المحمدية وتم تجاوز تلك النقائص التي لازمتهم قبل التربية النبوية لهم.

كما يرتبط الحديث عن الطبيعة الإنسانية بالأساس النفسي للتربية، إذ يشكّل هذا الأخير دورا بالغ الأهمية، في الكثير من النظريات التربوية والتعليمية التي ترتبط بهذا العامل من حيث نجاحها أو فشلها. مستوحيا إياها إبراهيمي من الدين الإسلامي كما أشرنا إلى ذلك معتبرا أنه مصدر للتربية الروحية والنفسية والعقلية للإنسان، وأنه يتضمن منظورا وفلسفة تربوية تحيط بالطبيعة والنفس الإنسانية بدقة، وهي الكفيلة بنقله إلى مرتبة الكمال الإنساني وإصلاح نقائصه. معبرا عن ذلك في قوله: "وإن في الإسلام لكنوزا من الفلسفة الروحية والكمالات الانسانية."⁽²⁾

2. تحكيم الضمير الإنساني «وازع الله في نفس الإنسان» وتنميته لدى الناشئة :

يؤكد إبراهيمي على عامل الضمير الإنساني كأهم أساس من أسس التربية النفسية. فهو الموجه للإنسان غالبا والمتحكم في سلوكياته، معتبرا إياه «وازع الله في نفس المؤمن» محمدا ذلك في قوله: "وإن يقظة الضمير الذي أسماه النبي عليه الصلاة والسلام- وازع الله في نفس المؤمن، ومراقبته لأعمال صاحبه لهي أعلى وأسمى ما جاء به الإسلام من أصول التربية النفسية، وهي أقرب طريق لتعطيل غرائز الشر في الإنسان،

(1) - إبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج4، ص 305، 306.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 32.

وفرق عظيم بين من يمنعه من السرقة مثلا خوف من الله، وبين من يمنعه منها إلا خوف القانون، فالأول يعتقد أنه بعين من الله تراقبه في السرّ والعلن، والثاني لا يمنعه من السرقة إلا قانون يؤاخذ على الذنب بعد قيام البيّنات عليه.⁽¹⁾ ومنه فتنمية الضمير لدى الفرد واستحضار الوازع الإيماني في نفس كل إنسان تجعل من الضمير كفيلا بتنظيم حياة الإنسان وتهذيب الغرائز وتكملة النقائص. ويوضح الفرق بينها وبين القانون، فالضمير الإنساني أو وازع الله في الإنسان يمنعه من ارتكاب الشرور سرًا وعلنا استحضارا لوجود الله وامثالًا لأوامره. بينما يكون الامتثال للقوانين الوضعية تجنّبًا للعقوبات المفروضة وقد يتم ارتكاب العديد من الشرور في غياب القانون أو مراقبة الوازع الخارجي نظرًا لغياب الوازع الداخلي وهو الضمير.

3. مراعاة الجانب النفسي في تربية الأطفال :

تظهر ضرورة الإمام بالجانب النفسي في تربية الطفل لدى الإبراهيمي من خلال حاجة الطفل إلى الإحاطة والرعاية النفسية أكثر من غيره، ويكون ذلك من خلال الرفق في تربيته وتجنب القسوة وديكتاتورية التعامل معهم، فالأصح هو كسب محبتهم لأن من طباع الأطفال أنهم يحبون من يتحجب إليهم، ويميلون إلى من يحسن إليهم، ويأمنون بمن يعاملهم بالرفق، ويقابلهم بالبشاشة والبشر، فواجب المربي الحاذق المخلص، إذا أراد أن يملك نفوسهم من أقرب طريق، وأن يصلح نزعاتهم بأيسر كلفة، وأن يحملهم على طاعته وامتثال أمره بأسهل وسيلة، هو أن يتحجب إليهم، ويقابلهم بوجه متهلل، ويبادلهم التحية بأحسن منها، ويسألهم عن أحوالهم باهتمام، ويضاحكهم ويحادثهم بلطف وبشاشة، ويسيطر لهم الآمال، ويظهر لهم من الحنان والعطف ما يحملهم على محبته، فإذا أحبوه أطاعوه، وامتثلوا أمره، وإذا أطاعوا أمره وصل من توجيههم في الصالحات إلى ما يريد، وتمكن من حملهم على الاستقامة وطبعهم على الخير والفضيلة.⁽²⁾

فالإبراهيمي من خلال هذا الأساس يطالب المرّين بضرورة دراسة تلاميذهم دراسة نفسية تتناول تفكيرهم وعقولهم ونفسيّتهم وعاداتهم وكيفية نظرهم للأشياء، وما يحبون وما يكرهون، والعمل على البحث على كيفية تشويقهم واستمالتهم. فيكون المرّي من خلال ذلك تلميذا ومرّيّا في نفس الوقت فيختصر المسار التربوي في أداء رسالته.

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 67، 68.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 112، 113.

كما ينبّه إلى ضرورة مراعاة القدرات والمواهب لدى المتعلمين، فإذا ما تم استثمارها وتوجيهها بطريقة حسنة كانت نتائج التعلم عجيبة. "فالذكاء والاستعداد يأتيان مع القليل من التعليم بالعجائب." (1) كما أن المناهج التي اعتمدها مدارس الجمعية في تربيتها تراعي الجانب النفسي للطفل، من خلال توافق المناهج مع قدرات التلاميذ ومداركهم العقلية، ويتجلى ذلك التلاؤم والتوافق من خلال الحجم الساعي للمادة الذي يختلف من مستوى إلى آخر، ومن مادة إلى أخرى كلما تدرج التلميذ إلى مستوى أعلى. إضافة إلى إعطاء التلاميذ القسط الوافي من الراحة الجسمية والعقلية، الأمر الذي من شأنه أن يعمل على تجديد النشاط فيه، كما يرغبه في العودة إلى مزاولة الدرس بعد ذلك بعيدا عن الضجر الذي غالبا ما يسببه العمل المتواصل. (2)

وبهدف تحقيق تلك النتائج المتوخاة من التربية والتعليم يؤكد الإبراهيمي على أسلوبين تربويين يرتبطان بالطبيعة الإنسانية وبنفسية الأطفال. حيث يدعو المربيين إلى ضرورة اتّباعهما في تربية الناشئة عموما والأطفال منهم خصوصا، يتمثل هذين الأسلوبين في أسلوب الترغيب وأسلوب الإقتداء.

4. الاعتماد على أسلوب الترغيب :

يتضح أسلوب الترغيب من خلال إشارة الإبراهيمي إلى ضرورة التقرب من الأطفال، وتمكّن نفوسهم بالرفق والإحسان. فيختصر المربي المسافة التربوية التي قد تفصله عن الطفل فتسهّل من مهمته، ويدخل هذا الأسلوب ضمن مراعاة الأبعاد النفسية والعقلية لدى الأطفال. "ويعدّ أسلوب الترغيب أحد الأساليب التربوية التي يقوم عليها المنهج الإسلامي، فقد استخدم هذا المنهج في تحريك نزعة الخير لدى الإنسان وتنميتها بالترغيب فيما أعدّه الله لمن امتثل أوامره وانتهى عمّا نهى عنه. وفي ذلك دلالة صريحة على أن للترغيب أثره الكبير في التربية الصالحة وغرس الفضائل." (3) فإذا ما ملك المربيّ أو المعلم نفوسهم بهذه الطريقة - طريقة الترغيب - حبّب إليهم الدّراسة والقراءة والعلم، وإن الصغير لا يفلح في التربية ولا ينجح في القراءة إلا إذا أحب معلمه كحبه لأبويه أو أعظم، وأحب المدرسة كحبه لبيت أبويه أو أشد، وكثيرا ما رأينا الصغار الذين يريهم معلمهم على هذه الطريقة الحكيمة يباهي أحدهم تربه بقسمه ومعلمه، و يباهي زميله في مدرسة أخرى بمدرسه. كما يتباهون في العادة بالآباء والبيوت. وما ذلك إلا أثر من آثار المعاملة من المعلم." (4)

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 219.

(2) - علي ديدونة، المنظومة التربوية في الجزائر بين الأصالة والاستقلال، منشورات دار نوريد، بوزريعة، الجزائر، ط1، 2006، ص 222.

(3) - محمد جبر السيد عبد الله جميل، الفكر التربوي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ص 20، 21.

(4) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 113.

مستشهدا الإبراهيمي بأمثلة واقعية تجسد تجارب واقعية لأطفال صغار حيث يزداد تقربهم وحبهم لمعلمهم وللمدرسة، فينقلون ويجسدون تربيتهم وما تلقوه من مربيهم إلى أسرهم، كقولهم: أن المعلم قال لنا كذا ومن يجب القيام به أو الامتناع عنه. والواقع التدريسي يثبت ذلك من خلال التجارب الشخصية مع المتعلمين (الأطفال) وموافقهم من معلمهم خاصة أثناء التدريس.

يحدّر الإبراهيمي في السياق ذاته على ضرورة الابتعاد عن الطرق التقليدية العتيقة القائمة على الترهيب لا الترغيب في تربية الأطفال، لأنها تنفّرهم من التعلم والمدرسة، فيغدوا المعلم في نظر الطفل عدوا له بدلا أن من يكون مرشدا له، أو قد يربّي فيهم الترهيب صفات الخوف والقسوة. "ليحذر المعلمون الكرام من سلوك تلك الطريقة العتيقة التي كانت شائعة بين معلّمي القرآن، وهي أخذ الأطفال بالقسوة والترهيب في تحفيظ القرآن، فإن تلك الطريقة هي التي أفسدت هذا الجيل وغرست فيه رذائل مهلكة. إن القسوة والإرهاب والعنف تحمل الأطفال على الكذب والنفاق، وتغرس فيهم الجبن والخوف، وتبغض إليهم القراءة والعلم، وكل ذلك معدود في جنایات المعلمين الجاهلين بأصول التربية."⁽¹⁾ وقد بين محمد الغزالي في هذا السياق أن التربية في الصغر تحتاج إلى الرحمة والأناة وسعة الصدر، فإن الاعتماد على العصا عبث ضار، وقد يحتاج إلى شيء من الصرامة، لكن هذه الصرامة لا تعني الجفوة والإرهاب، فقد كان الناس في الجاهلية يعاملون أبناءهم بجفوة في حين كان يعاملهم الرسول عليه الصلوة والسلام بالرحمة، وفي الإسلام أحاديث طويلة عن تربية الأبناء وعلاقة الوالدين بالأبناء يجب فيها تبادل البرّ والرحمة، وهي أساس لأسرة متماسكة ومجتمع مكنين حصين.⁽²⁾

والتركيز على الترغيب والتحييب لأن الحب يعدّ من أهم الحاجيات التي يجب إشباعها عند الأطفال، لأنه عندما يمنع الطفل من إشباع هذه الحاجة يفقد عنصر تكامله النفسي والإنساني، ولا سيما في مراحل الأولى من حياته، فالتنشئة الأولى للطفل تقتضي أن ينهل من حب الآخرين من جهة، وإلى أن يغدق حبّه على الآخرين من جهة أخرى، إذ يعدّ الحب مبدأً وقيمة إنسانية من القيم التربوية.⁽³⁾ ونظرا لطبيعة الطفل ونفسيته ركز الإبراهيمي على أسلوب الترغيب في تربيتهم.

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 113.

(2) - محمد الغزالي، جرعات جديدة من الحق المر، ج4، نخصة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط6، 2005، ص 74، 75.

(3) - علي أسعد وطفة، علي جاسم الشهاب، علم الاجتماع المدرسي - بنوية الظاهرة المدرسية ووظيفتها الاجتماعية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2003، ص 124.

5. الاعتماد على أسلوب الاقتداء «القدوة الحسنة» :

الأسلوب الثاني في التربية لدى الإبراهيمي يتمثل في: الاقتداء الحسن، أو أسلوب «القدوة الحسنة» لأن العديد من السلوكيات التي يكتسبها الأطفال تكون عن طريق الاقتداء بالآخر والأخذ من أفعاله أكثر من الأخذ بأقواله. ولأن الأطفال في صغرهم ميّالون إلى تقليد ما تراه أعينهم أكثر، وإلى محاكاة معلمهم، فتكون التربية على الفضيلة من خلال تحلّي المرّبيّ بالفضائل، وتجسيدها في سلوكياته، وقس على ذلك من مكارم الأخلاق. "إن المعلم لا يستطيع أن يربّي تلاميذه على الفضائل إلا إذا كان هو فاضلاً، ولا يستطيع إصلاحهم إلا إذا كان هو صالحاً، لأنهم يأخذون منه بالقدوة أكثر مما يأخذون منه بالتلقين." (1)

كما يتطلب أسلوب القدوة أيضاً الإمام بنفسية و ميول المتعلّمين، و لا يتأتى ذلك إلا إذا كان المعلم أو المرّبيّ كفرد وطفل منهم، من خلال مخالطتهم والتقرّب إليهم، ومن خلال الرفق في معاملتهم كما تبين في اتباع طريقة الترغيب، لذلك يدعوا الإبراهيمي المعلمين إلى دراسة "ميول الأطفال بالاختلاط بهم، وليكن بينهم كأخ كبير لهم يفيض عليهم عطفه، ويوزع بشاشته ويزرع بينهم نصائحه، ويردّ النّاد منهم على المحجة برفق. إن درس الميول يمكن المعلم من إصلاح الفاسد منها، و من غرس أصدادها من الفضائل في نفوسهم." (2) يشير الإبراهيمي إلى ضرورة مراعاة هذا الأسلوب بداية من البيت، حيث يعكس الطفل التربية التي يتلقاها في أسرته، وبعد ذلك تربيته في المدارس كتكملة لدور الأسرة، من خلال توجيه المرّبين إلى الفاعلية فيهما. "فإن كانوا فاعلين فليبدؤوا العمل في ميدانين: في البيت الذي هو معمل التكوين، وفي المدرسة التي هي معمل التلوين، وليتعاهدوا البيت بالتطهير وتقوية التربية الدينية في من يلي تربية هذا الجيل من آباء و أمهات، وليحملوا القائمين على المدارس التي يضطرب فيها الجيل على إقرار الدين فيها علماً وعملاً إلى جانب الدنيا." (3) مركزاً على ضرورة التربية الدينية التي لا تقتصر على الصّبيّة فقط، بل تشمل أيضاً الشباب وأمّهات البيوت والآباء والتركيز على البعد الروحي، من منطلق أن الحفاظ على الأرواح حفاظ على الأبدان.

وفي هذا إشارة إلى أهمية وآثار سبق التربية الإسلامية إلى النفوس، مع لزوم الأخذ بالتربية الدينية، والتاريخ الإسلامي من أول مرحلة في العمر، فهما الكفيلان بتكوين الشخصية وحماتها. وقد انتقد الإبراهيمي

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 113.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 113.

(3) - المصدر نفسه، ج4، ص 27.

في ذلك المثقفين محدودي المعرفة بتاريخ الإسلام، ونَسَبَ زُهدهم فيه إلى تنفير المدارس الابتدائية منه، لأنها لا تذكر نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم إلا بما ينفر النفوس البدائية منه مثل أنه كان يتيماً، وكان يرعى الغنم وتزوج امرأة كبيرة غنية، إذ لم تفسر هذه الجمل بمعانيها العليا بل بمعانيها السفلى لدى الصغار. ⁽¹⁾ وفي هذا دعوة إلى ضرورة إعادة قراءة المناهج والمضامين المعرفية التي تدرّس، وأن تسطّر مواطن العبر والاقتداء بسير العلماء وقادة التاريخ المسلمين خصوصاً، فالأطفال في مستقبل عمرهم يحتاجون إلى نماذج للتأسي بهم. مبيناً أن شعراء العرب قديماً كانوا يتولون قيادة النفوس كما كان العلماء في الإسلام يتولون قيادة العقول، وبتلك القيادة استطاع الشعر أن ينشر فيهم مكارم الأخلاق ومحمد الشّيم. وبذلك انتشر صيتهم وضربت بهم المثل بين الأمم في سخاء اليد وشرف النفس وكرم الطبع وقوة العزيمة. ⁽²⁾

وقد بين الإسلام أهمية هذا الأسلوب من خلال دعوة التنزيل الحكيم إلى ضرورة أن تطابق الأفعال الأقوال، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ. ﴾ ⁽³⁾ ويؤكد على ذلك الإبراهيمي في أكثر من مقام، منوها إلى ضرورة الاحتراس خصوصاً فيمن يتم الاقتداء بهم، مع تجنب سلوك الاغترار أو الاحتقار، فليس كل من يرتدي عمامة إمام، ولا كل من يمتنن الخطابية خطيب، إنما القدوة تشترط ثلاثة أمور أساسية متكاملة فيما بينها، يجب أن تميز من يتم الاقتداء بهم متمثلة في:

- **الأعمال:** في عملهم وتربيتهم من خلال التفاني في أداء عملهم وإتقانه وأن تصدّق أعمالهم أقوالهم.
- **الأحوال:** في سلوكياتهم وتصرفاتهم في أي حالة اعترضتهم، مع التعامل بحكمة و رويّة.
- **الأقوال:** الصّدق في الأقوال وارتباطها بالأفعال. ومراعاة الصّدق كأمانة كمبدأ إيماني وكأمانة علمية.

يبين الإبراهيمي ذلك في قوله: "كونوا لتلاميذكم قدوة صالحة في الأعمال والأحوال والأقوال، لا يرون منكم إلا الصالح من الأعمال والأحوال، ولا يسمعون منكم إلا الصادق من الأقوال، وإن الكذب في الأحوال أضّر على صاحبه و على الأمة من الكذب في الأقوال، فالأقوال الكاذبة قد يحتز منها، أما الأحوال الكاذبة فلا يمكن منها الاحتراز... وكم أهلك هذه الأمة المتظاهرون بالصلاح، والمتظاهرون بالزعامة، والمتظاهرون

⁽¹⁾ - المصدر السابق، ج2، ص 377، 378.

⁽²⁾ - المصدر نفسه، ج2، ص 380.

⁽³⁾ - سورة الصف، الآيتان: 2، 3.

بالإمامة. ⁽¹⁾ لذلك ينبغي أن تكون أخلاق المرّين وعزائمهم مرآة للناشئة وقدوة صالحة لهم، لينطبع هذا الجيل الذي هو باكورة النهضة على أخلاق متينة وعزائم قوية لا على أقوال فارغة أو مظاهر خداعة.

فيكون المرّبي أو المعلّم أسوة حسنة فعلا وقولا، وأنموذجا يحتذى به في تعليمه وتربيته وسلوكه، فالطفل دقيق الملاحظة، خاصة فيما يبدو للمربين من أمور صغيرة لا تثير الاهتمام، يبين الإبراهيمي ذلك قائلا: "أحرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال منطبقا على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال، فإن الناشئ الصغير مرهف الحس، طلعة إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها، ولا ينالها اهتمامكم، وإنه قوي الإدراك للمعانيب والكمالات، فإذا زينتم له الصدق كونوا صادقين، وإذا حسنتم له الصبر فكونوا من الصابرين، واعلموا أن كل نقش تنقشونه في نفوس تلامذتكم من غير أن يكون منقوشا في نفوسكم فهو زائل." ⁽²⁾ فالمعلّم صورة لتربية أسرته ومدرسته فعلى الوالدين والمرّين أن يحسنوا رسم هاته الصورة مركّزين على العامل النفسي في عملية التربية.

6. الألفة و الانسجام كأهم عاملين للنجاح التربوي :

من عوامل النجاح التربوي لدى الإبراهيمي ضرورة التوافق والألفة في البناء التربوي عامة، سواء في شقه المتعلق بالعامل البشري والمعنوي من المعلمين والمتعلمين والمعارف، أو في شقه المادي فيما يتعلق بالهياكل التربوية. فما المعضلات النفسية والمشكلات الأخلاقية والتعاكس والتشاكس بين المعلمين أو بين الطلبة إلا بقايا من آثار التربية المضطربة السابقة التي لم يهدّ بها العلم وسيهدّ بها التأسّي (الأسوة والقدوة). فقد عمل الإبراهيمي على تجسيد هذا التوافق والانسجام في تربيته، وقد كان هذا الانسجام من سمات المعهد الباديسي، مبينا أن "الانسجام البديع بين مشائخ المعهد سيكون درسا عمليا نافعا لتلاميذهم يأخذونه بالتأسّي لا بالتلقين. وسيكون أثبت أساس لتربيتهم الأخلاقية وأعزّ ميراث يرثونه عن مشائخهم، وأن الانسجام بين التلامذة سبب خطير من أسباب النجاح، فليعلم أبناؤنا التلامذة هذا وليفقهوه." ⁽³⁾

فالنجاح في المسار الدّراسي في المدارس يرجع إلى عدة عوامل أهمها أن يُبنى النشاط على الحق والصدق أولا فيكون النجاح وليد ثلاثة أمور:

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 115.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص264.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص218.

- حزم الإدارة.
- نشاط الأساتذة.
- اجتهاد الطلبة.

ويقتضي ذلك أيضا ضرورة تكييف الطلبة تكييفاً موحداً في الغاية والاتجاه، منسجماً في المظهر والسلوك، وتجاوز الاختلافات التي كانوا عليها في الأخلاق والميول والأهواء. وإن كان هناك شذوذ في الأفكار فهذا من شأنه رفع للقواعد العلمية فما هو إلا دليل صحتها.⁽¹⁾ فهو دلالة على تنوع الأفكار وراثتها.

وعلى المرينين بناء التربية على الأساس الروحي أولاً وتمكينه لدى المرينين ولدى الناشئة، فهو الكفيل بتحقيق الألفة والتوافق، لأن تفشي البعد المادي قد يزيغ بالتوجهات عن غايات التربية أو يجعلها آنية لحظية فقط، مرتبطة بغايات وبمصالح مادية متغيرة، وقد تنعكس فيما بعد في شراء الدمم والأشخاص مقابل إغراقهم بالماديات: "لا تتركوا للسلطان المادي مجالاً للتسرب إلى محيطكم، حتى لا يعثب بإيمانكم، ويحبط جهادكم، بل الواجب أن تكون علاقاتكم بضعكم ببعض، وعلاقاتكم بمهتكم الشريفة علاقات روحية، أسمى ما تكون الروحيات ظاهراً وباطناً فبذلك تستطيعون أن تؤدوا رسالتكم العظمى التي هي: بناء الحق وهدم الباطل."⁽²⁾

إن من شروط البناء القويم التناسق والتكامل والانسجام وهذا ما يشترطه تكوين الإنسان وبنائه، فكثير من المشاريع والبرامج التربوية والتعليمية وُضعت ولم تكتمل، وفي هذر هدر للجهد والأوقات وتغيير لوجهة البناء خصوصاً على مستوى الأفكار. وبسبب عدم التوافق بين التخطيط والتنفيذ، أو أن تلك الرؤى الإصلاحية لم تنبع من صميم المشكلات التربوية وواقعها فلم تحقق النجاح. يبين الإبراهيمي سبب ذلك: "ما شلّ عبقرات الرجال إلا عروض هذا الخيال، وهم أنهم يبدؤون العمل على تدبير وتقدير، ثم يخلفهم عليه من لا يرى فيه رأيهم ولا يفكر تفكيرهم، ولا يوافق ذوقه ذوقهم، ولا يكون له من الهمة في إنجازهم من لهم الهمة فيه، والأعمال هم وذمم وقيم."⁽³⁾ كما يظهر من هذا تغيير الأعمال في المشاريع أو عدم اقتناع من يكملها بعدهم أو نقص همتهم فيها، هذا ما يؤثر سلباً على إنجازها. وتحاكي هذه الصورة صورة العديد من الإصلاحات التي تقوم بها الجزائر على سبيل المثال، في إصلاحاتها التربوية أين تتعدد البرامج والإصلاحات دون أن تكتمل غالباً، نظراً للتغير الحاصل على مستوى السلطة القائمة على الأعمال أو المسيرين وغير ذلك

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 312، 313.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 313.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص 429.

من الأسباب. وقد شهد العقد الأخير العديد من الإصلاحات والأنظمة دون أن تكتمل، سواء تعلق ذلك بإصلاحات المنظومة التربوية في نطاق المدارس أو الإصلاحات التي مسّت التعليم العالي في الجامعات.

7. التدرج و التكامل في البناء التربوي :

البناء التربوي عمل و بناء متدرج و متكامل منطقيا و زمنيا، تبنى فيه المعارف و الحقائق على أسبابها، و النتائج على منطلقاتها، ولا يجب إهمال أي مرحلة، فكل مرحلة تربوية تمهّد و تحمّد المرحلة التي تليها، و يكون التسلسل على المستويين النظري و العملي، فينبغي أن تتم التربية وفقا لهذا النسق، و يتحدد ذلك من توجيهات الإبراهيمي للمربيين حيث يدعوهم إلى مراعاة التدرج و الأخذ بالأسباب و بناء النتائج عليها. "رؤهم على بناء الأمور على أسبابها، و النتائج على مقدماتها علما و عملا، و اعلموا أن العلم يبدأ مرحلته الأولى من هذه البسائط التي تقع على حواسكم في الحياة كل لحظة فتحثقرونها و لا تلقون لها بالا، مع أن مجموعها هو العلم إذا وجد ذهنا محملا، و هو الحياة إذا وجد عقلا مفصلا."⁽¹⁾ و بذلك يتم الانتقال بالناشئة من الأمور البسيطة عن طريق تربية يسيرة ترسخ مختلف المبادئ التربوية لديهم إلى ما يتجاوزها من قيم و أفكار قد تكون أكثر تعقيدا و تركيبا. و منه يتم الانتقال في تربية الأجيال: "من مرحلة كاملة في التربية إلى مرحلة أكمل."⁽²⁾

فتتم التربية وفق تدرج و تسلسل متكاملين. و كمثال يبين ذلك، توضيح الإبراهيمي لكيفية التدرج و الانتقال في ترسيخ فلسفة المجتمع و قيم الأمة لدى الأجيال في توجيهاته للمربيين بخصوص تربية الناشئة: "أفهمهم من الصغر معنى الأسرة و روابطها و واجباتها، و تدرجوا بهم من معنى الأسرة إلى معنى الأمة، و أشربوا قلوبهم أنهم فروغٌ من دَوْحَةٍ واحدة ذات خصائص طبيعية ليحافظوا عليها."⁽³⁾ أي أن ترسيخ مقومات الشخصية الوطنية و قيم الأمة يبدأ عن طريق الأسرة فالمدرسة من خلال توضيح أهم ما ينبغي أن تقوم عليه الأسرة الجزائرية و ما يميزها من أخلاق، فيتم ترسيخ ذلك لدى المتعلمين تمهيدا للوصول بهم إلى معنى الوطن و الأمة، و نفس الأمر بالنسبة لمراحل التعليم و التربية في المجالات المتعددة فهي تشترط التدرج و التسلسل وفق نظرة متكاملة.

ومنه نستخلص أن التربية على الأساس النفسي ارتكزت على العديد من العناصر أهمها:

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 272.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 112.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص 115.

- استثمار الطبيعة الخيرة في تربية الإنسان وتوجيهه.
- تفعيل وازع الله في نفس الإنسان (الضمير الإنساني) كموجه تربوي.
- الاعتماد على أسلوب التريغيب والاقتداء وتفادي الترهيب والتسلط التربوي.
- مراعاة التدرج والتسلسل في التربية مع مختلف الأبعاد المشكلة للمتعلم وفق نظرة تربوية متكاملة.
- التركيز على البعد النفسي في تربية الأجيال.

رابعاً: الحياة كأساس و مبدأ تربوي.

ترتبط تربية الإنسان بالحياة من منطلق إعدادها لها، لذلك تشكل الحياة بمفهومها الواسع أصلاً وأساساً للتربية لدى كثير من أساطين وفلاسفة التربية، فقد اعتبر «جون ديوي John Dewey» (1859-1952) "أن التربية ليست إعداداً للحياة وإنما هي الحياة ذاتها، وهذا يعني أنها لا تضحى بالحاضر من أجل مستقبل غامض، وإنما تهتم بالحاضر بالدرجة التي تهتم بها بالمستقبل، فلا يمكن عدّ مرحلة من حياة الإنسان وسيلة لمرحلة أخرى." ⁽¹⁾ ويرتبط ذلك أيضاً بتعريف التربية لدى «هربرت سبنسر Herbert Spencer» (1820-1903) حينما اعتبر أن: التربية هي كل ما نقوم به من أجل أنفسنا، وكل ما يقوم به الآخرون من أجلنا بغية التقرب من كمالنا الطبيعي. والمثل الأعلى للتربية هو أن نزود الإنسان بإعداد كامل للحياة بكاملها، لا أن نحاول التربية تنمية جانب واحد من المعرفة على حساب سائر الجوانب الأخرى مهما تكن أهمية ذلك الجانب، وعلى العموم إن غرض التربية ينبغي أن يكون الحصول بأكمل وجه ممكن على المعرفة المهيأة لإنماء الحياة الفردية والاجتماعية في جميع وجوهها. ⁽²⁾ وبذلك تتضح قيمة هذا المبدأ «مبدأ الحياة» سواء في إعداد الإنسان للحياة أو في جعل الحياة وسيلة للتربية في نفس الوقت.

يرتبط هذا الأساس بالمنظور التربوي للإبراهيمي حيث يبرز كمبدأ وأساس هام في تربيته، التي تعمل على إعداد الإنسان للحياة من خلال ربطه بمجالاتها المختلفة، وذلك ما بينته أسسه التربوية من علم وأخلاق وربطهما بالمجال العملي، إضافة إلى العناصر والوسائل التربوية كالمدارس والمساجد. لكي تكون التربية فاعلة

(1) - عبد الله المجيدل و آخرون، فلسفة التربية، ص 137.

(2) - عبد الله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص 381.

بأدوارها في الحياة وفي إعداد الأفراد لها. يوضح الإبراهيمي رؤيته في ذلك من خلال تحديده لمعنى الحياة للمتعلمين والمربين، معتبرا أن الحياة حاصل تكامل بين جانبيين، جانب نظري، وآخر عملي، وإن الأساس الثاني فيها لا يقوم إلا بإعداد الأساس الأول - النظري - إعدادا سليما صحيحا، فيكون بذلك تابعا له، يوضح الإبراهيمي هذا الترابط مخاطبا طلبة العلم قائلا: "إن الحياة قسمان: حياة علمية، وحياة عملية، وإن الثانية منهما تبنى على الأولى قوة وضعفا، وإنتاجا وعمقا، وإنكم لا تكونون أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم." (1)

ومنه فهناك ترابط وثيق بين الحياة العلمية و الحياة العملية ولا حياة للإنسان إلا بهما. والتوجيه والتركيز على إحداهما دون الأخرى له آثاره على حياة الفرد والجماعة، وتكون أضراره أكبر من منافعه، نظرا للتركيز على شق واحد فقط، فالاعداد التربوي السليم هو الذي يهتم بالحياتين معا في عملية التخطيط من أجل إعداد الإنسان الصالح المجابهة لمتطلبات الحياة الإنسانية. (2) من هنا كان تأكيد الإبراهيمي دوما على مراعاة مزج العلم بالعمل أو بالأحرى مزج العلم بالحياة وما تطرحه من انشغالات ومشاكل فيحسن توظيف قدراته العلمية في الواقع ومعالجة قضاياها فتزداد خبرته، وهذا ما يعكس دمج التربية بالحياة. إذ يقول: "امزجوا لهم العلم بالحياة، والحياة بالعلم، يأت التركيب بعجبية ولا تعمروا أوقاتهم كلها بالقواعد." (3) مؤكدا في هذا الطرح على أن الحياة لا معنى لها إلا بالعلم، وعلى الإنسان أن يساهم بعلمه في حلّ المشاكل التي تعترضه في الحياة، وأن يدرك كيفية توظيف ما تعلمه في حل مشكلاته، ولا يكون ذلك إلا من خلال الربط بين التربية والعلم والحياة الواقعية التي يعيشها الفرد.

فتربية الشيخ الإبراهيمي مرتبطة بالحياة، بل مثلت الحياة التي عاشها وما ميز واقعه وسائل في تلك التربية، من خلال تشخيصه للأزمة التربوية في الجزائر، فلم تكن نظرتة نابعة من برج عاجي بل من صميم الواقع، إضافة إلى اهتمامه بالمستقبل، أو بمنظور آخر كانت له نظرة استشرافية للتربية، معتبرا أن تربية الناشئة وإعدادهم للحياة أمانة في حق كلّ مصلح ومربّ قائلا في ذلك: " أن للجيل الآتي علينا حقوقا لا تبرأ ذمنا منها عند الله ولا تسقط شهادة التاريخ علينا بها، إلا إذا أديناها لهم كاملة غير مبخوسة، وملاك هذه الحقوق

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص203.

(2) - عبد الرزاق ببي، الفكر التربوي عند محمد إقبال و محمد البشير الإبراهيمي، ص254.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص272.

أن نعددهم للحياة على غير الطريقة التي أعدنا بها آباؤنا. ⁽¹⁾ فإعداد الأفراد للحياة ينبغي أن يتجاوز مختلف النقائص التي ارتبطت بتربية الأجيال السابقة، فيعمل المرثون على تفاديها.

وهذا الإعداد يتطلب تضافر جميع الجهود واستثمار كل الطاقات والخبرات في الأمة، بداية من تجارب الشيوخ وخبراتهم إلى حماس الشباب ودافعيتهم. فلا يمكن للتربية أن تستغني عن: "حنكة الشيب وتجاربهم، ولا عن اعتدال الكهول وحكمتهم، ولا عن نشاط الشبان وفتوتهم، وإن تكافل هذه القوى الثلاث سيخرج للأمة الجزائرية جيلا مزودا بالإسلام الصحيح وهداياته، والبيان العربي وبلاغته، عارفا بقيمة الحياة سباقا في ميادينها متحلّيا بالفضائل عزوفا عن الرذائل، عارفا بما له وما عليه واقفا في مستقر الحقيقة الواقع، لا في ملعب الخيال الطائر.... في مقاصده عدم التحجير، على العقول أن تفكر وعلى الأيدي أن تعمل وعلى الأرجل أن تسعى وعلى الألسن أن تتفق بكل مفيد. " ⁽²⁾ فمن شأن التربية على الحياة أن يدرك الفرد قيمتها من خلال الارتباط بالواقع وحقائقه لا الابتعاد عنه والإغراق والتعلق بالخيالات وبالتمنيات. وفي ذلك دعوة إلى إعمال العقول وتربيتها على التفكير وإيجاد الحلول، فالتربية على الحياة تقتضي إعمال الفكر وعدم التحجير على العقل حتى يبقى حيّا بتفكيره وأفكاره، وأن يترجم التفكير عمليا، وهذا ما دلّ عليه الإبراهيمي بعمل الأيدي وسعي الأرجل، فمن خلال ذلك تبرز التربية بالحياة.

وفي ارتباط التربية بالحياة وفي شموليتها وحاجتها للشباب والكهول والشيوخ يفهم أنها عملية تتميز بالاستمرارية فهي لا تتحدد بفترة زمنية معينة وبمرحلة محددة من العمر الإنساني، وتمثل الاستمرارية أحد أهم الأسس التي تقوم عليها التربية الإسلامية، ونزول القرآن الكريم موزعا على الفترة التي امتدت فيها بعثة ودعوة الرسول عليه الصّلاة والسلام مرشدا ومربيا ومعلما طيلة حياته دلالة على ذلك. ⁽³⁾ وحتى في الفكر الغربي التربية المستمرة ينبغي أن تمتد على طول الحياة، ومناهج التربية فيها يجب أن تعتبر كمحاولات تساعد الفرد على التعلم وعلى وضع قدراته موضع الفعل حسب متطلبات البيئة الاجتماعية والثقافية التي يحيا فيها، وعلى تقدير تجاربه في المجتمع الذي يدعو للمشاركة فيه مع أقرانه. والنظام التربوي كقطاع من النظام الاجتماعي يجب أن يتبع التطور السياسي والاقتصادي والثقافي والتكنولوجي، والمؤسسة التعليمية مكلفة في هذا بإنماء الثروة البشرية بأي شكل من الأشكال، وبهذا فهي المسؤولة عن النمو العام للمجتمع وعليها أن تكون أول

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 273.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 135.

(3) - مصطفى محمد الطّحان، التربية ودورها في تشكيل السلوك، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص 90.

الدعاة إلى الإصلاح. ⁽¹⁾ فالتربية عند الإبراهيمي إذا تحمل في مزاياها الاستمرارية على طول الحياة، وحاول ربطها بمختلف جوانب الحياة، خاصة في الإعداد لبناء المجتمع الحيوي من خلال لوازمه الدينية والاقتصادية والعلمية، كما أن سيرة الإمام الإبراهيمي ومسيرته التعليمية وجهوده التربوية طيلة حياته دليل على ذلك أيضا، فلم يتوقف المسعى التربوي للإبراهيمي بالاستقلال، إنما استمر بعد ذلك في أداء رسالته فالتربية ملازمة حياة كل فرد منا ومستمرة بوجوده.

والمتبع للمسار التربوي الإبراهيمي يكتشف ويلاحظ أن رؤيته التربوية وبتركيزها على الحياة قد ارتبطت بالحاضر والمستقبل خاصة في تأكيده على ضرورة الاهتمام الكبير بالناشئة والشباب. فالتركيز على الأجيال اللاحقة أكثر من غيرها ما هو إلا تركيز على المستقبل الذي أراده. بإعداد جيل ينتظر الكل قدومه ويأمل الخير كل الخير في كبره، ويبرز ذلك أيضا من خلال خطابه النهضوي وإيديولوجيته التقدمية، التي رست على مقولة مركزية الطفل العربي المسلم الناهض كحل للأزمات حاضرا ومستقبلا، فمثل الصبي عند الإبراهيمي المرجع الذي اتجه به نحو المستقبل. ⁽²⁾

يؤكد عبد القادر فوضيل في مقاله «التربية عند الإبراهيمي» أن هذا الهدف -إعداد الأفراد للحياة- هو لبُّ العملية التربوية الذي يؤكد ويشدّد عليه الإبراهيمي ويشرح الخطط والأساليب التي تستطيع تحقيقه، إذ لا فائدة من علم لا يتحول إلى عمل أو سلوك، و لا أهمية لعمل لا يكون أساسه العلم. ⁽³⁾ ويتقرر ذلك أيضا في دعوة الإبراهيمي الصريحة ونصيحته للقائمين على مسجد الأزهر بأن يجاروا الأحياء في الحياة، فمن واجبات الأزهر الأخذ بأسباب الحياة، فعليه: "أن يزاوج بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وأن يهيئ أبناءه ليكونوا عقبان جؤ وسباع دوّ، وأن يكونوا أحلاف حرب و أحلاس محارب، وأن يكونوا دعاة أجرياء إلى دينهم الحق، وأدهم الحي وفضائلهم الروحية وأن يعرفوا أنفسهم ثم يتعارفوا ثم يتعرّفوا." ⁽⁴⁾ وفي ذلك تنويه بعدم الاقتصار على تدريس العلوم الدينية لوحدها، بل تدريس علوم الحياة أيضا نظرا لحاجة الإنسان إليها في حياة، وفي ذلك إعداد للإنسان لحياتين حياة الدنيا وحياة الآخرة. لأن الحياة في هذا العصر تتطلب ممن يريدونها ويسعون إليها "تفكيراً منظماً يبنى عليه عمل منظم، وتتطلب منهم اضطراباً في سكون، وسلماً في حرب وحرماً في سلم

(1) - آتا بونوار، التربية المستقبلية، ت مورييس شريل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1983، ص 76، 159، 160.

(2) - عبد الله بن صفيّة، الفكر التربوي و سؤال المرجع عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 49.

(3) - عبد القادر فوضيل، التربية عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 44.

(4) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 502.

وأنواعا شتى من المصارعات بين الهوى والعقل في الحي الواحد وبين الحي و الحي في الميدان الواحد وعلى المطلب الواحد، فهذا ما تفرضه الحياة على الأحياء و تعدّه من شروطها. " (1) فالإنسان يعيش في هذه الحياة وسط معترك من الصّراعات والمجاهات، فعليه أن يقدم عليها ويقتحمها بالعلم والعمل حتى يحقّق شرط الحياة ويكون من الأحياء لا من الأموات.

وإن انعكست نتائج التربية عمليا في الحياة فذلك يبين الارتباط الحقيقي للتربية و المدرسة بالحياة، كتجسيد لشعار «التربية هي الحياة» أو «المدرسة هي الحياة» على أرض الواقع كتمارسة فعلية. وقد بين أوليفي روبول بخصوص هذا الشعار أنه صيغة أكثر سحرا مثلما هو صيغة فارغة، فقد تكون المدرسة في أغلب الأحيان خارج الحياة، ولا توجد مواضع الحياة في المدرسة، لذلك يدعو إلى مناقشة هذا الشعار، فالمدرسة هي الحياة إذا كانت مدرسة حية تسمح بالتجارب وتأخذ بها، وإذا كانت مدرسة لا تفصل بين العمل الفكري واليدوي والتطبيقي، إضافة إلى ملاءمة برامجها لمتطلبات العالم المعاصر، بأن يعني تعليمها تهيئة حقيقية للحياة. إن الحياة هي عالم العمل والراحة، عالم الاقتصاد والسياسة، عالم الأسرة والجماعات، فالحياة هي كل ما ليس في المدرسة وفي المدرسة في نفس الوقت. (2)

ومنه فالمدرسة في نظر الإبراهيمي ينبغي أن تتحول إلى مجتمع حقيقي يمارس فيه الطفل الحياة الاجتماعية بأوسع معانيها فتمثل مجتمعا حيا يساهم في التربية، وهو ما ركزت عليه التربية الحديثة فالمدرسة بُنيان ينتج فنّ البناء، ومشكاة تغذي النشء بفاكهة العقل التي جذورها في التاريخ وعنائها في المستقبل وأصلها ثابت، والعملية التعليمية عند الإبراهيمي التي أساسها المجتمع والمدرسة هي وجه المجتمع في حضارته ورقبه وقد تكون عكس ذلك ، هي تبني عن طريقه أملا في أن تكون صورته ومنقذه من الظلام والتخلف. (3)

فعلى الفرد أن يتفاعل مع مختلف متغيرات الحياة والواقع، وكل المستجدات التي يفرضها العالم فهي المحكّ الحقيقي للتربية ومدى فاعليتها في الحياة، سواء من حيث المساهمة في حلول المشاكل و النهضة بالوطن أو من حيث المحافظة على القيم والأخلاق. إذ يشير طه عبد الرحمن في هذا السياق إلى أهمية «مبدأ الحياة» كأحد مبادئ التربية الإسلامية إذ يساهم في حفظ السمات الجوهرية للفرد، لأن الحياة تجعل المرء يحتفظ بكل فاعليته الأصلية وقدرته على خلق حركية إنتاجية تخص الأمة، لا من حيث اختياراتها وقراراتها التربوية فحسب،

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 203.

(2) - أوليفي روبول، لغة التربية - تحليل الخطاب البيداغوجي، ت عمر أوكان، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2002، ص 124 - 127.

(3) - ولهة حسين، نحو فهم أعمق للأسس التعليمية عند البشير الإبراهيمي، ص 204، 205.

بل أيضا من حيث رؤيتها الخاصة للعالم، كما يجعل المرابي أو المقوم بتعبيره يقوى على النهوض بمتطلبات العصر المستجدة والتصدي لإشكالاته وتحدياته المختلفة.⁽¹⁾

وبذلك تظهر ضرورة التربية على الحياة كأساس تربوي يربط الفرد بحياته من جهة ويعدّه للحياة الأخرى من جهة أخرى لأن الثانية مرهونة بالأولى. وهذا ما لم يغفله الإبراهيمي حين جعل من الحياة والتعلم أساسا تربويا في منظوره التربوي. وما يمكن استخلاصه من هذا الأساس ما يلي:

- ضرورة الجمع بين الحياة العلمية والحياة العملية في تربية الإنسان.
- استثمار تجارب السابقين في الحياة من خلال النهل من إيجابياتهم وتجاوز نقائص تربيتهم وتجاربهم.
- تفعيل أي منظور تربوي في الواقع المعيش للأفراد حتى يتجسد كحلول لمختلف المشكلات.
- ربط المتعلمين بالحياة من خلال بناء وضعيات عملية يساهمون في حلّها، وتدريبهم على حل مشكلاتهم بأنفسهم.

خلاصة:

وكخلاصة عامة لهذا الفصل فإن الإبراهيمي أقام منظوره التربوي على مجموعة من الأسس والمبادئ التربوية، تحدّدت من خلال عرض وتحليل الأسس الدينية والأخلاقية والعلمية إضافة إلى الأسس الاجتماعية والوطنية والنفسية، وبذلك فقد أقام مشروعه التربوي وفق رؤية تراعي التكامل بين هاته الأسس، وقد استمد رؤيته التربوية من تجاربه في الحياة وممارساته التربوية، إضافة إلى ثقافته وتكوينه وتربيته الإسلامية، التي شكّل فيها الدّين الإسلامي قاعدتها ومنهجها.

وإن لم تكن هاته الأسس بشيء من التفصيل وفق ما نجده في الرؤى التربوية الحديثة والمعاصرة إلا أن نتائجها كانت ناجحة عمليا، ومثمرة على عدّ أصعدة، من خلال آثارها في الأجيال التي تربّت وفقا لهاته المبادئ والأسس، ومن جانب آخر يرجع عدم التفصيل فيها إلى المتغير الزماني والواقعي الذي كان يستلزم ممارسات عملية أكثر من تقديم تصورات نظرية، ويهدف إلى بناء الأفراد وتربيتهم أكثر من تأسيس نظريات، فلم يكن هناك وقت للتنظير أو لتدوين تلك النظريات والرؤى، وهو ما صرّح به الإبراهيمي في أكثر من

⁽¹⁾ - طه عبد الرحمان، من الإنسان الأبتري إلى الإنسان الكوثر، جمع وتقديم رضوان مرحوم، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، لبنان، ط2، 2016، ص 32.

مناسبة. إضافة إلى ما تعرضت له مختلف آثاره من تلف عمدي خاصة بفعل الاستدمار الفرنسي، أو نتيجة الإهمال الذي تعرضت له الكثير من المصادر التاريخية ومنابعها، إضافة إلى عوامل الطبيعة في ذلك. فهناك احتمال وارد بأنّ العديد من الرؤى التي قدّمها تضمنت تفصيلات تربوية، خاصة في مرشد المعلمين غير أن إتلاف المستدمر للعديد من آثاره حال دون بقائها.

يتضح من خلال المنظور والمشروع التربوي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ارتباط رؤيته التربوية وأسسها بالعديد من متغيرات الحياة الراهنة والعديد من مجالاتها الثقافية والسياسية و التربوية، ما يقيم حلقة وصل بين الفكر التربوي الإبراهيمي والعديد من المتغيرات الراهنة و قضايا الحياة المعاصرة، ما يضيف دلالة وصبغة راهنية لطرحه التربوي. هذا ما يدفع إلى التساؤل عن: ما مدى راهنية الطرح التربوي الإبراهيمي؟

الفصل الخامس

التربية عند الإبراهيمي

وراهنية الطّرح

الفصل الخامس: التربية عند الإبراهيمي و راهنية الطرح.

تمهيد :

ترتبط التربية عند الإبراهيمي بالعديد من القضايا التي نعيشها في الفترة المعاصرة، خصوصا في الراهن الجزائري، كون العديد من تلك القضايا لا زالت مستجدة إلى اليوم في واقعنا ولها تأثيرها على التربية فعلا وانفعالا، إذ من المعلوم أن الرؤى التربوية تتحدد بتحدد المعطيات السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، نظرا لما ينتج عنها من متغيرات وإشكاليات جديدة، وجب على الفكر التربوي أن يتحدد بتجدها أو يتكيف معها، فيكتسي بذلك صبغة راهنية من حيث الطرح والمعالجة. هذا ما يدفع إلى التساؤل الآتي: ما مدى راهنية الطرح التربوي لدى الإمام البشير الإبراهيمي؟ وأين تتجلى أهم تلك القضايا المعاصرة والراهنة التي تضمنها فكره التربوي ويّين صلتها بالتربية؟ ومن أجل البحث في هذا الإشكال يعرّج الباحث على أهم ما ركز عليه الإبراهيمي من قضايا أخذت موقعها بقوة في عصره وارتبطت بمنظور استشرافي، يُعدّ الإنسان لممارسات وقضايا مستقبلية، بمعنى أنه لا زال لهاته القضايا موقعها وبعدها الرّاهني في عصرنا، ومن أهم تلك القضايا التي تنمّ عن راهنية الطرح التربوي الإبراهيمي نوردنا في هذا الفصل على النحو الآتي:

أولا: التربية و السياسة.

للسياسة موقعها الهام في فكر الإبراهيمي بصفة عامة، إذ تعكس جهوده الإصلاحية ممارسات سياسية تتم عن رؤى استشرافية لواقع السياسة في الجزائر، وترتبط السياسة عند الإبراهيمي بمنظوره التربوي، مُشكّلة علاقة وطيدة بينهما يمكن الإصطلاح عليها بالتربية السياسية لدى الشيخ الإبراهيمي، وتظهر رؤيته التربوية السياسية من خلال ممارساته التربوية والسياسية وفق طرح وممارسات راهنية من ناحية الطرح والمعالجة، يحاول فيها الباحث التطرق إلى ما يجمع التربية والسياسة عنده من خلال ما يلي:

1. التربية السياسية:

قبل تحديد معنى التربية السياسية لدى الإبراهيمي، لا بد من ضبط معنى التربية السياسية أولا، فهذه الأخيرة تتخذ معان عديدة وأوصاف ارتبطت بأنظمة الحكم السائدة عبر العصور، واختلفت باختلاف الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي ميزت المجتمعات، هذا ما تُبينه أمثلة عديدة. فقد أشار كونفوشيوس إلى أهمية و دور الأسرة وأساليب التنشئة الاجتماعية الثقافية في أوساط التربية وفي تكوين

الاتجاهات السياسية، كما طرح أفلاطون فكرة قيام الدولة القوية، والتي تقوم على تقسيم الأفراد والجماعات على الأدوار الاجتماعية التي حُدِّدت لهم سلفاً، وفق التسلسل الذي وضعه لإعداد مجتمع الفضيلة، معتبراً التعليم الوسيلة الأساسية لإجراء ذلك التقسيم الاجتماعي وذلك بتصنيفهم، وانتقاء النخبة التي ستقود الدولة والمجتمع. وقد ذهب أرسطو إلى أن الإنسان لا يعيش ولا يتمدّن إلا داخل دولةٍ تحميه ويحميها مبينا في كتابه «السياسة» أن التربية مرتبطة بالسياسة بالضرورة، ويبرز ذلك الارتباط من خلال العلاقة بين الدولة والتعليم، فلما كان من واجبات التربية أن تخدم النظام السياسي وجب أن تشرف عليها الدولة؛ بإقامة نظام تعليمي حتى تكوّن المواطنين الأحرار الذين يساهمون في قيام دولة قوية ترعى مصالحهم.⁽¹⁾

وتعرف التربية السياسية: بأنها الجهود المبذولة من طرف مؤسسات التربية الرسمية وغير الرسمية التي تعمل على تكوين وتنمية شخصية سياسية تتطابق مع الثقافة السياسية للدولة، وتكوين وعي سياسي بحيث يكون المواطن واعياً وقادراً وراعياً في المشاركة السياسية بفعالية في قضايا مجتمعه العامة بكل الصّور المتاحة والتي تؤدي إلى التغيير نحو الأفضل.⁽²⁾ والفكر العربي والإسلامي حافل بمفكرين وفلاسفة اهتموا بالسياسة وصلتها بالتربية، وهو ما تثبته تجاربهم ومؤلفاتهم فعلى سبيل المثال: نجد «الفارابي» في كتابيه «أراء أهل المدينة الفاضلة» و«السياسة المدنية» و إسهامات كل من «أبي حامد الغزالي» في كتابه «أيهما الولد» و«ابن سينا» في كتابه «السياسة»، وفي مقدمة ابن خلدون وغيرهم ممن ربطوا بين السياسة و التربية، ومنه: فذلك الارتباط ليس غريباً عن صميم الفكر الإسلامي والعربي سواء في شقّه السياسي أو التربوي.

2. مفهوم السياسة عند الإبراهيمي:

يتشكل مفهوم السياسة لدى الإمام البشير الإبراهيمي من خلال مختلف ممارساته السياسية، من رئاسته لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى التجارب السياسية التي خاضها في الجزائر أو خارجها مدافعاً عن القضية الوطنية الجزائرية، خاصة رحلاته ولقاءاته بالعديد من المفكرين والسياسيين في الوطن العربي والإسلامي، مما ساهم في تكوين رؤيته العامة للأوضاع السياسية الوطنية والدولية، ومعرفته بأهم أبعاديات الممارسات السياسية، إضافة إلى اطلاعه على الشأن السياسي العام الذي يجري في الجزائر وفي العالم قاطبة، نظراً لارتباط القضية الجزائرية بالقضايا الدولية التحررية. وما زاد من بصيرته السياسية رئاسته لجمعية العلماء

(1) - أحمد علي الحاج، أصول التربية السياسية، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2013، ص141.

(2) - فتحي شهاب الدين، أوراق في التربية السياسية، تقديم عصام العريان، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، 2011، ص17.

المسلمين وعمله على تجسيد مشروع الجمعية للنهضة بالأمة الجزائرية، وتعامله بحكمة مع مختلف المضايقات والتهديدات الاستعمارية من القوانين الجائرة والاعتقالات في وجه كل نشاط مناهض للمستدمر الفرنسي، هذا ما كان له الوقع الأكبر في تصوره لمفهوم السياسة والتربية السياسية، إذ هي نتاج واقعي لما كانت تعانيه الجزائر ويشهده العالم من وقائع ومتغيرات.

وفي تحديد الإبراهيمي لمفهوم السياسة يضع معنيين لها على حسب استعمالها وتوجيهها، وبهذا يتضمن معناها بُعدين، أحدهما نظري والآخر عملي.

البعد النظري: يتمثل فيما ينبغي أن تكون عليه الممارسة السياسية الحقّة، وفيما ينعكس على ما تشهده الأمم المتحضرة من ممارسة سياسية في نظره، وتدل عليه مختلف التعاريف النظرية للسياسة.

البعد العملي: يتمثل في العمل على تجسيد ذلك المنظور النظري واقعا وما ارتبط به من مساعي وجهود، فيكون تجسيدها إما محاكاة حقيقية لها أو مجرد مقارنة للبعد النظري، وإما أن تكون السياسة على النقيض من معناها فتتغلب عليها الأيديولوجيات والمصالح الذاتية، حيث توظّف بهدف إقصاء الآخر واستغلاله وفي هذا خروج عن معناها الحقيقي.

ويجّد معناها في قوله: "إن أعلى معاني السياسة عند الحاكمين هو تدبير الممالك بالقانون و النظام، وحياطة الشعوب بالإنصاف والإحسان، فإذا نزلوا بها صارت إلى معنى التحيل على الضعيف ليؤكل، و قتل مقوماته ليهضم، والكيد للمستيقظ حتى ينام، والهددة للنائم حتى لا يستيقظ."⁽¹⁾

تحدّد رؤية الإبراهيمي المعنى العام والحقيقي للسياسة كإطار مفاهيمي نظري أو نموذج يسعى إلى تحقيقه عمليا على شكل ممارسات سياسية تحاكي المعنى الحقيقي لها، أين تسعى السياسة فيه إلى الصالح العام للشعوب، وهذا ما تدور حوله الكثير من المفاهيم التي عجت بها القواميس على أن السياسة هي حسن التدبير، فن إدارة الدولة والصالح العام وغير ذلك من مفاهيمها.

غير أن هناك معنى آخر يتضمنه مفهوم الإبراهيمي للسياسة في شقها العملي وهو: إنزال السياسة من المعنى الأساسي لها - كقيمة عليا يسعى السياسي إلى بلوغها مثلما يسعى الإنسان إلى بلوغ القيم الأخلاقية الفاضلة وتحقيقها في سلوكه - فينزلها و يربطها بممارسات لا أخلاقية ولا إنسانية ترتبط بأهواء الأفراد وميولاتهم

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 60.

فبدل أن توظف في صالح الشعوب تكون وسيلة تحايل وخديعة. والبعد الثاني من صميم رؤية الإبراهيمي للسياسة النابعة من تشخيصه وترجمته للممارسات السياسية الاستعمارية اتجاه الشعب الجزائري.

فالساسة عند الإبراهيمي في معناها العام يتجاوزها طرفان أساسيان: طرف أعلى وطرف أسفل، فالطرف الأعلى هو: الذي يتولى ممارسته كبار النفوس وأصحاب الهمم و العزائم الذين يتطلعون دائما إلى الكمال، وبينون الدول على أساس العدل والنظام الذي يتيح للشعوب مجالا واسعا من الحرية والأمن والرفاهية. أما الطرف الأسفل فهو: الذي يأخذ به أصحاب الضمائر الميتة والنفوس المريضة، التي تتوسل بالسياسة لتصل إلى أغراض خسيسة ومصالح شخصية وتجعلها وسيلة للسيطرة والاستعباد، وفي هذا إشارة إلى بعض المعاني السلبية التي علققت بمفهوم السياسة، والتي تعني الدس والتحايل ومخادعة الناس للاستيلاء عليهم.⁽¹⁾ مبينا أن الاستعمار الفرنسي تبى المعنى الثاني السلبي، وأنشأ عليه أتباعه وسياسته في التعامل مع القضية الجزائرية وأنصارها، وعمل من جهة أخرى على توريث وتكريس المعنى السلبي للسياسة لدى الشعوب المستعمرة باعتماده في انتخاباتهم وإداراتهم وتعاملاتهم مع شعوبهم.

لعلّ هذا ما يفسر تلك التوجّهات والممارسات التي لاحظها الإبراهيمي لدى بعض الأحزاب السياسية الجزائرية التي اتجهت غايتها نحو تحقيق مصالح ذاتية مُغلّبة إياها على مصلحة الوطن، فنشأ عنها التسابق نحو الظفر بمقاعد في البرلمان بدل التسابق في خدمة الوطن، ونتج عن ذلك انشقاقات وتصدّعات في المجتمع جزاء تلك الاختلافات السياسية، ما يفسر توجه هاته الفئة نحو المعنى الثاني السلبي للسياسة، موضّحا آثار هذه الممارسات المهابطة للسياسة في قوله: "فإذا نزلوا بها صارت إلى هذا التحاسد على الرئاسة، وهذا التهافت على كراسي النيابة، وهذه المنافسات الفارغة في القشور، وهذا الجدل الشائم السّبّاب، وكل ذلك نراه على أقبح صورته في المجتمع الجزائري، في حين أن ذلك ليس كله من مصلحة الأمة الجزائرية، ولا فائدة في قضيتها، بل هو كله في فائدة الاستعمار."⁽²⁾

هذه الصورة السلبية التي ارتبطت ببعض الممارسات السياسية لدى بعض الأحزاب الجزائرية، هي التي عمل الاستعمار على تكريسها لدى الجزائريين، ناقلا ومجسدا للسياسة لديهم بصورتها ومعناها المنحط بهدف عدم بلوغهم معناها الحقيقي، وحتى لا ترقى الممارسة السياسية الجزائرية إلى ممارسات سياسية حقيقية تهدد

(1) - محمد زرمان، الأسس النظرية للتغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 446، 447.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 60.

كيان الاستعمار ووجوده. "وهذا المعنى الأخير (المعنى المنحط للسياسة) هو الذي جرى عليه الاستعمار، ووضعه في قواميسه، وأقرّه في موضعه من نفوس رجاله ودعاته، بحيث إذا أطلق بينهم لفظ السياسة لا يفهمون منه إلا هذا، وتراهم يحرمون على الشعوب الخاضعة لهم - الخوض في هذا المعنى السافل، لئلا يجرّهم إلى الخوض في المعنى العالي. وتراهم يهيئون لتلك الشعوب من قشور ذلك المعنى وفتاته." (1)

تنعكس الرؤية السابقة لمعنى السياسة بشقها الأكبر على مستوى الحكام الذين يتولون تصريف شؤون المواطنين وإدارة دواليب الحكم. غير أنها لا تقتصر على هذه الفئة فقط بل ترتبط السياسة أيضا بالحكومين، بحيث لا يستثنيهم الإبراهيمي في تحديده لمعناها، مقاربا فيه بين معناها لدى الحكام ولحكومين. فبالنسبة للمحكومين الذين لهم حق المشاركة في سياسة شعوبهم فإنّ الأمر لا يختلف أيضا عن معنى السياسة العام، فهناك من يمارس السياسة في مستواها العالي وهناك من لا يأخذ منها إلا القشور. فالمستوى العالي الذي يريده الإبراهيمي هو الاهتمام بإحياء مقومات الشعوب، والعمل الجاد على ربطها الواعي بتاريخها وميراثها الثقافي، والسير بها نحو المستقبل على هدى من هويتها الحضارية وأخلاقها العالية، والمطالبة بحقوقها الضائعة. (2) يشير إلى ذلك قائلا: "هذا معنى السياسة عند الحاكمين عاليا ونازلا، أما عند المحكومين فأعلى معانيها إحياء المقومات التي ماتت أو ضعفت أو تراخت، من دين ولغة و جنس وأخلاق وتاريخ وتقاليد، وتصحيح قواعدها في النفوس، ثم المطالبة بالحقوق الضائعة في منطق و إيمان." (3) كما تنحصر السياسة لدى عامة المحكومين في المطالبة بحقوقها المهضومة، والسعي نحو إحياء مقومات الشخصية الوطنية التي سلبها المستعمر، فالممارسة السياسية ومعناها لدى الشعب الجزائري ارتبطت بعامل المستعمر كموجه لها من جانب وكند لها من جانب آخر. فتتشكل الممارسة السياسية في الجزائر شكل مفارقة بين الحاكم والمحكوم. فيجعلها الأول أداة مساومة وإخضاع، وفخ اقتناص للمذبذبين، وسلاح تخويف وترهيب للمخلصين، ويجعلها الثاني وسيلة جاه، وذريعة تضليل للأمة لأن هدفها نيل المناصب لا غير. (4)

وما ينبغي التأكيد عليه أن الإبراهيمي في تحديده لمفهوم السياسة ينطلق من الواقع الجزائري الذي عايشه بكل أبعاده، حيث تميز هذا الواقع بوجود قوة حاكمة طاغية تسعى إلى إزالة مقومات الشعب، وأغلبية مقهورة

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 60.

(2) - محمد زمران، الأسس النظرية للتغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 447.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 60.

(4) - المصدر نفسه، ج3، ص 61.

ومغلوقة يناضل بعضها لإثبات الهوية الحضارية، ويجاري بعضها الآخر الاستعمار في أساليبه المتلوية، وهذا التوجه يتناسب مع توجه الإبراهيمي الذي كان يرمي إلى بعث الأمة بإحياء مقوماتها، لا احترام السياسة بمفهومها الاصطلاحي.⁽¹⁾ وفي هذا السياق حاول توضيح الحدود بين السياسة الحقيقية والسياسة الزائفة، فالممارس للسياسة الحقيقية بمثابة الصانع للتاريخ، المجدد لحياة الأمة، فيحيي مقوماتها ويثبته، ويصحح عقيدتها حتى تكون مصدر طاقة نفسية لأبنائها ويعرفها بحقوقها ويربّيها على الاعتداد بنفسها حتى تقف في وجه عدوها قادرة على التعامل معه من موقع قوي.⁽²⁾ إذ يتضمن المعنى الحقيقي للسياسة عديد الدلالات والأبعاد، فهو يتضمن غاية سامية ترتبط بسمو الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه، وبالغايات النبيلة التي تسعى إلى تجسيدها، هذا ما يتضح في جلّ المطالب السياسية التي دعا إليها الإبراهيمي، المتمثلة في ضرورة إحياء مقومات الشخصية الوطنية، وعدم المساس بها، والذود عن الإسلام ولغته، ومن ثم العمل على نيل مختلف حقوق الشعب الجزائري، وتربيته على الاعتداد بنفسه، والعمل على تحرير الجزائر وإيقاظ الرأي العام.

وبعد تحديده لمعنى السياسة لدى الحكّام والمحكومين، يحدّد الإبراهيمي المعنى الجوهرية لها، وما ينبغي أن تعمل على تحقيقه، إذ يتمثل جوهرها حسبه في: إقامة وطن يتمتع بمقوماته، وبناء دولة لها كيانها المستقل، يتمتع فيها أفرادها بمقوماتهم الشخصية والثقافية التي تميزهم، وقد جمع هذا المعنى أهم الغايات التي تهدف إلى تحقيقها السياسة عند الإبراهيمي ويختصر التحديد الجوهرية لمعنى السياسة في عبارة واحدة متمثلة في قوله:

" فلبّ السياسة بمعناها العام عند جميع العقلاء هو عبارة واحدة: (إيجاد الأمة)."⁽³⁾

إن ماهية وجوهر السياسة كمفهوم عام و كهدف أسمى، ينبغي أن يدركه كل مقتحم لدهاليز السياسة إذ يتمثل في: إقامة الدولة أو إيجاد الأمة بتعبير الإبراهيمي، وفعل «إيجاد الأمة» هو تأسيس للأمة الجزائرية التي تم العمل على إقصائها من حركة التاريخ، وتم تغييبها عن الوجود بفعل الاستعمار. ويتطلب فعل الإيجاد استحضارًا للتاريخ، ومقومات الشخصية الوطنية، فتكرس قيم المواطنة على أسس ضاربة في جذور التاريخ، تكون حاضنة وحصنا معنويا منيعا كعقيدة يتبناها ويناضل من أجلها أبناء الأمة الذين يعكسون ركنها الأساسي كمواطنين بالمعنى الكامل للكلمة.

(1) - محمد زرمان، الأسس النظرية للتغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 448.

(2) - محمد زرمان، معالم الفكر السياسي والاجتماعي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، ص 37.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 64.

فالتأسيس للدولة كمشروط نتاج لمقومات تمثل شرطا للنشأة، عاكسة من منظور معين العصبية التي تؤدي إلى نشأة الدول، فكلما قويت وتعززت مقومات الشخصية الوطنية لدى الأفراد زادت حظوظهم في بناء الدولة، وعلى النقيض من ذلك إذا ارتفعت إلى الوهن والضعف فمآلها الزوال، لأن المقومات الوطنية تعكس الهيكل المعنوي والروحي الذي تتأسس عليه الأمة، فإذا التحمت هاته المقومات فيما بينها وآمن بها الأفراد صبروها وجودا واقعيًا فتوجد الأمة والوطن، أما إن تلاشت انتقلت إلى العدم تاركة خرابا. وما يلاحظ اليوم أن أمما ودولا قد لا تجد لها مآثر وآثارا عبر التاريخ، تحاول صناعة تاريخ ومجد ولو كانا مزيفين، ولو على حساب الآخر، لكي يمثل مرتكزا روحيا ومعنويا لشعوبها نظرا لوعيتها بأهمية هذا المعامل في معادلة التاريخ وحركته، بينما همّشه أمم أخرى بدل الاستثمار فيه، وما التهميش إلا احتقار للذات وخصوصياتها بوعي أو دون وعي وهذا ما يعكس المكانة التي احتلتها مقومات الشخصية الوطنية في نضال الشيخ الإبراهيمي الإصلاحية والسياسية. هذا التأكيد يتضمنه قوله: "ولا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس، ولغة، ودين، وتقاليده، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة، وتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغالاة بقيمتها وتراثها، وبالإمعان في ذلك كله حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها، وتستमित في سبيلها، وترى أن وجود تلك المقومات شرط لوجودها، فإذا انعدم الشرط انعدم المشروع، ثم يفيض عليها من مجموع تلك الحالات إلهام لا يغالب ولا يرد، بأن تلك المقومات متى اجتمعت تلاقحت، ومتى تلاقحت ولدت وطنا."⁽¹⁾

تتبين مما سبق نظرة الإبراهيمي المتبصرة للسياسة، من خلال تركيزه على الأساس الذي تقوم عليه الأمة إن أرادت أن تتخلص من براثن الاستعمار. ففي الوقت الذي كانت الأحزاب تسعى مع اختلاف مطالبها السياسية للنيل من الاحتلال، وكان المكر الاستعماري يُدخلها دوامة الانتخابات حتى ينسيها عن قضيتها الأصلية جاعلا إياها متطاحنة فيما بينها، اتجه الإبراهيمي إلى توجيه السياسة إلى بناء الوطن، جاعلا من إحياء المقومات الوطنية أعلى مراتب السياسة، ولم تغب جمعية العلماء لحظة عن رصد القضايا السياسية فكان لها في كل موقف من جانب الأحزاب أو من حكومة الاحتلال كلام و رأي صريح.⁽²⁾

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 64.

(2) - أحمد ظريف، من معارك الحق ضد الباطل في جهاد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، دار المجدد للنشر والتوزيع، سطيف، 2015، ص 120،

ومنه فالسياسة حسب رؤية الإبراهيمي تتمثل في إحياء مقومات الشخصية الجزائرية، والدفاع عن حقوق الشعب والتصدي للعدو الذي يستهدفه، وعلى الرغم من أن المفهوم الذي أعطاه الإبراهيمي للسياسة يبدو غريبا نوعا ما عمّا هو متداول في الفكر السياسي العربي والعالمي، إلا أن المتفحص للمرحلة التاريخية التي طرح فيها الإبراهيمي أفكاره، يدرك العلاقة المتينة التي تربطها بالواقع الجزائري آنذاك، وإن القصد منها هو توجيه التيار السياسي نحو خدمة الأهداف الوطنية وقضية الأمة المصيرية.⁽¹⁾ ولهذا تعدّ الممارسة السياسية عملا طبيعيا لدى كل إنسان يهدف إلى الإصلاح وخدمة شعبه، وإن كان هذا الأخير يعاني من استبداد المستعمر، فالسياسة تعد واجبا لخدمة الوطن. وما على الإنسان إلا توجيه هذا العمل والجهد في سبيل ذلك، ولن يتحقق هذا الجهود والتوجيه إلا من خلال تربية سياسية، من خلال تنوير و تنوير العمل السياسي حتى يستهدف الغاية الأساسية وهي إيجاد الدولة وبناء الأمة. هذه الغاية التي أكد عليها الشيخ الإبراهيمي مرارا. "نحن نعدّ السياسة عملا طبيعيا معقولا ووسيلة من وسائل خدمة الوطني لوطنه ولبني جنسه."⁽²⁾

فإذا كان الجانب الديني هو المهمة الحقيقية لجمعية العلماء المسلمين، فليس من المستبعد اهتمامها بالقضايا السياسية، فهي لم تحجم في أداء واجبها السياسي وفق برنامج خاص لا ينتسب لأي حزب أو إلى أي هيئة أخرى على قدر التزامها بالثلاثي: الإسلام - العلم - الشخصية الوطنية الجزائرية، في عملها وإصلاحها، وبما أن الشعب الجزائري متشعب بروح هذه العقيدة فهو يريد أن يرى كرامته محفوظة، وأن القيام بجميع الواجبات يعطي حق الحضوة بجميع الحقوق، لذلك كان من مطالب البشير الإبراهيمي التسريع والتحقيق في: إصلاح المحاكم الإسلامية، الحالة التي تتعلق بالمساجد وأوقافها ورجالها، وأخيرا إصلاح التعليم العربي.⁽³⁾

وفي شأن اللغظ الذي أثير حول النشاط السياسي للمصلحين وجمعية العلماء، وردت فتوى للأستاذ عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي الكبير حول الكثير ممن ينقم على جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دخولها في السياسة فكان من جوابه: "الناس طبقتان: علماء وجهلاء فإذا لم يشارك العلماء لم يبق إلا الجهلاء، وذلك هو الداء العضال الذي تشن الأمم المغلوبة على أمرها تحت أثقاله، فلو نفّض العلماء على اختلاف طبقاتهم

(1) - محمد زرمان، معالم الفكر السياسي و الاجتماعي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، ص 50.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 76.

(3) - إبراهيم مهديد، الدور الإصلاحي والنشاط السياسي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي على نخب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بين 1931-1944، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ط 1، 2011، ص 186، 187.

ثوب الكسل والطمع والتزلف لأرباب المناصب لكان للأمم المستضعفة ولنا ولكم شأن وأي شأن، ولكننا في مصاف الأمم الحية الراقية.⁽¹⁾ هذا ما يثبت دينيا وعقليا ومنطقيا ضرورة المشاركة السياسية للعلماء خصوصا فيما يتعلق بالمحافظة على الدين الإسلامي وبكل ما يتعلق به، وما يرتبط بالتأوهات الوطنية واستقلال الوطن. ومن هذا الاعتبار مثلت السياسة عند البشير الإبراهيمي نشاطا طبيعيا ووسيلة يتم من خلالها خدمة الوطن.

3. التربية السياسية عند الإبراهيمي:

إن التربية السياسية عند الشيخ الإبراهيمي تظهر من خلال ممارساته الإصلاحية بصفة عامة، وما تضمنته من أعمال في النشاط الدعوي والدفاع عن الإسلام، وما تعلق أيضا بالتربية والتعليم بمختلف فروعهما، إضافة إلى النشاطات السياسية التي ارتبطت بجمعية العلماء أو تلك التي أشرف عليها الإبراهيمي كمثل لثورة التحرير خارج الجزائر. وما يثبت تلك الرؤية السياسية - التي غالبا ما كانت في نظر الكثير خصوصا المستعمر تحت ستار إصلاحي أو ديني - هو تتبع المستعمر لحركات المصلحين ونشاطاتهم، معتبرا أن أعمالهم تدخل ضمن نطاق العمل السياسي، وهذا ما تضمنته العديد من التقارير الفرنسية في مراقبتهم لشيخ الإصلاح على غرار الإمامين عبد الحميد بن باديس و البشير الإبراهيمي رحمة الله عليهما.

فلم تغفل الإدارة الاستعمارية في تقاريرها عن العلماء وصلتهم الوطيدة بالسياسة، فعلى سبيل المثال التقرير الذي حرّره مصلحة الإعلام والدراسات في باريس وعادة ما يرد ضمن نشرة رسالة الجزائر، إذ يحدد ملامح شيخ الإصلاح في الجزائر على النحو الآتي : الشيخ ابن باديس درس في الزيتونة وخالف قادة الحزب الدستوري الفرنسي، كما كانت له صلة بحزب الوفد المصري، وعرف عنه أنه مناصر قوي لتيار وحدة شمال إفريقيا والوحدة العربية، أما الشيخ الطيب العقبي فنهل من معين الإسلام في الحجاز بمكة التي لبث فيها مطولا، وكان مقربا من الملك حسين، وشارك معه في حرك المؤامرات، وعرف بصلته بالسوفيات، وللشيخ الطيب العقبي أخ هو مصطفى، وتتناقل أخبار كثيرة ضلوعه في الألاعيب السياسية في المشرق العربي. وأما ثالثهم فهو الشيخ الإبراهيمي الذي درس وتعلم وعلم في المشرق (دمشق) مركز النزعة القومية، وموطن الأمير شكيب أرسلان، داعية العروبة ووحدة الأمة العربية. ثم يعلق التقرير بأن رجال الإصلاح هم في نشاط محموم

(1) - محمد الطاهر فضلاء، دعائم النهضة الوطنية الجزائرية: التعليم الديني، الإصلاح الديني، جمعية العلماء، دار البعث للنشر، قسنطينة، ط1، 1984، ص151.

مع السياسة والسياسيين، ولا يمكنهم التخلص منها إلا بعد استعادة الوطن الجزائري من براثن الاستعمار.⁽¹⁾ فهذه التقارير هي الأخرى تبرز المكانة التي اكتسبها رجال الإصلاح في عالم السياسة، وقد تضمن التقرير الإشارة إلى الإبراهيمي منوهاً إلى نزعته وتعلّمه وتعليمه وفي هذا تحذير منه، ويبيّن التقرير أن مكانة العلماء وإصلاحاتهم أصبحت تخرج المستعمر وتثير مخاوفه أكثر مما تثيره الأحزاب السياسية، نظراً لأن نشاطهم الاجتماعي والديني والتربوي يرتّب لأوضاع وأهداف سياسية، وهنا تتّمظهر التربية السياسية بشكل واضح، كترتبية ونشاط إصلاحي ارتبطا بخصوصية الواقع آنذاك.

ويتضح ذلك جلياً في تحديد الإبراهيمي للنشاط السياسي لجمعية العلماء المسلمين بأنها تعمل لما يسميه ب: «سياسة التربية» وذلك في قوله: "إن جمعية العلماء تعمل لسياسة التربية لأنها الأصل، وبعض ساستنا مع الأسف يعملون لتربية السياسة، ولا يعلمون أنها فرع لا يقوم إلا على أصله. وأي عاقل لا يدرك أن الأصول مقدمة على الفروع؟!"⁽²⁾

ويتضمن تصريحه التأكيد على ارتباط السياسة بالتربية، فالسياسة في أصلها ترتد إلى التربية التي تغرس الأصول، وقوله جمعية العلماء تعمل لسياسة التربية معناها: عمل وخلق وعي بالممارسة السياسية والتأسيس لهما بفعل التربية، باعتبار أن السياسة محتواة في التربية وما المطالب السياسية إلا مطالب تربوية في أصلها وتعد بمثابة فروع لها. وتاريخ الفكر السياسي والتربوي يبرز ذلك الترابط بينهما، فلم تكن جمهورية أفلاطون إلا كتاباً في التربية في أصله، جامعاً بين السياسة والتربية، ولم يكن العقد الاجتماعي إلا دعوة ومطالبة بالحقوق الطبيعية التي بينها جون جاك روسو في كتابه «إميل». وما يدل على ذلك الترابط التربية السياسية اليوم وإنشاء مدارس ومعاهد خاصة بها. فالتنشئة على قيم واضحة وترسيخها لدى الناشئة هو ما يجعلهم يتبنونها ويزودون عنها مستقبلاً، وهو ما تهدف إليه التربية السياسية لدى الإبراهيمي من خلال التنشئة على مقومات الشخصية الوطنية كما أشير إليه في تحديد مفهومه للسياسة، كما يتضمن الدفاع عنها من جهة أخرى، وعدم الخروج عن أخلاقياتها التي تحكم ممارستها.

⁽¹⁾ - نور الدين ثنيو، إشكالية الدولة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، مارس 2015، ص333.

⁽²⁾ - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص65.

لا يهمل الإبراهيمي الشرط الأخلاقي في التربية السياسية، إذ يؤكد على ارتباط السياسة بالأخلاق أو ما يمكن أن نصلح عليه - أخلقة الممارسة السياسية - أو - أخلقة السياسي - كشخص حتى لا يجيد في ممارساته عن القيم التي نشأ عليها. ولا يتأتى هذا إلا بالتربية على ذلك، خصوصا في عالم السياسة الذي تتجاذبه الاختلافات وتعدد التوجهات، وشراء الذمم وتقديس الأشخاص والمصالح، كممارسات لا ينبغي إهمالها مع العمل على تفاديها. فقد ارتبطت الممارسة السياسية بالمكر والخديعة، وكفن للتحايل، وتبادل التهم بين الأشخاص والمساس بهم بدل التركيز على الأفكار والتوجهات والعمل على نقدها وبنائها مع ما يتوافق وصالح الأمة. وهنا يؤكد الإبراهيمي قائلا: " إن وراء السياسة شيئا اسمه الكياسة، وهي خلق ضروري للسياسي وإن السياسي الذي يحترم نفسه يحترم غيره مهما خالفه الرأي، ومهما كان الخلاف جوهريا، فإذا لزم النقد فلا يكون الباعث عليه الحقد، وليكن موجها إلى الآراء بالتمحيص، لا إلى الأشخاص بالتنقيص."⁽¹⁾

وتأكيد الشيخ الإبراهيمي على ضرورة التربية السياسية منبثق مما آلت إليه السياسة التي انتهجتها عديد الأحزاب، وما ارتبط بممارساتها من صراعات غيّبت القضايا المصرية للأمة، ووقعت في التوجه الذي رسمه لها المستدمر وهو « السخافة السياسية » أو المعنى النازل للسياسة الذي حدده الإبراهيمي كمفهوم آخر لها، عندما تحيد عن شرعيتها ويتم النزول بها من معناها المتسامي. وبذلك لن تتمكن هذه الأعمال والأحزاب من بلوغ الهدف الأسمى للسياسة وهو: إيجاد الأمة الجزائرية. "إننا لا نتصور كيف يخدم السياسي أمته بتقطيع أوصالها، وشتم رجالها وتسفيه كل رأي إلا رأيه، ولا نتصور أن ما تخدم به الأمة هذه الدروس (العالية) في أساليب السب التي يُلْقنها بعض الأحزاب لطائفة من شباب الأمة في (معاهد) المقاهي والأزقة، إن تضربة الشبان على الشتم والسباب جريمة لا تغتفر."⁽²⁾

فمع انتشار الوعي بالممارسة السياسية لدى الشعب الجزائري عمل المستعمر على احتواء العمل السياسي وتوجيهه إلى صالحه، إما عن طريق شراء ذمم بعض السياسيين وإغرائهم بالمناصب وبالوعود الكاذبة، أو عن طريق إثارة الكثير من الصراعات بين الأحزاب التي انساق نحوها الأغلبية من قادتها، فبدل توجيه الأمة والتأليف بينها كوظيفة أساسية لهم شكلوا أداة للانقسام وشرخا بين أفراد المجتمع نتاجا لتعصبات حزبية. ولن يف الاستعمار بوعوده لهم فذلك هو ديدنه على مر التاريخ، هذا ما يشبهه في نظر الإبراهيمي كتاب الواقع لا

(1) - المصدر السابق، ج3، ص67.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص67.

وثائق العهود. محددًا ذلك: "لو أن رجالنا السياسيين، ورؤساء الأحزاب بصفة خاصة، والمثقفين منهم ثقافة عالية بصفة أخص، صرفوا غايتهم إلى تربية الأمة تربية سياسية وطنية صحيحة عملية لكانت أعمالهم أعود بالخير والنفع على الأمة الجزائرية... ورأيت أن الزعيم السياسي المثقف في أمة كأمتنا الشرقية... أنه يجب عليه أن يترفع عن الميادين التي تشغله عن المهم، وتلهيه بالصغائر، وتفتنه بالحقرات و تخلق له الخصوم من الأمة التي يعمل لها ولخيرها. وأن يصرف همه كله إلى تربية الأمة وجمع صفوفها على حقها الوطني وتحريك الساكن منها، و إيقاظ النائم وتبنيه الغافل وتأليف الشارد، فإذا تم له ذلك أصبح مرهوبا في الحكومة وأصبح محبوبا عند الأمة."⁽¹⁾

لا يُغفل الشيخ الإبراهيمي في تربيته السياسية عن استثمار ما وظفه الاستعمار من أدوات هدم كأدوات بناء خصوصا في إحداث التنوير السياسي للشعب والأحزاب، فكل تلك المضايقات والممارسات والرقابة السياسية المفروضة، أدت إلى تشكيل وعي سياسي لدى الجماهير، وبيّنت أن الممارسات الفرنسية خالية من المعنى، فهي مجرد شعارات تُصير السياسة إلى مجرد سخافة، إلى مفردة خالية من المعنى، أو مرتبطة بالتحايل والإجرام لا الحكمة وتسيير الدولة بالقانون والنظام. هذا ما نبه الناس إلى رفض كل نشاط سياسي بمعناه الساذج من طرف المستعمر، وعمل على أن لا يتطلع الشعب إلى السياسة في معناها العالي بل إغراقه في العنصرية والصراعات من انتخابات وتحزبات. فالسياسة هي التدبير بقوانين ونظام، ورعاية الشعوب بالإنصاف والإحسان كما حدده الإبراهيمي. "أما إن السياسة تكون خيرا لأقوام، وشرا لآخرين، وتكون عقود حلية، كما تكون عُقدَ خنق، فهذا ما قرأناه من قاموس الاستعمار وعلمناه من مذهب، وهو على علانته - مقبول، إذا كان للسياسة معناها المعقول، ولكن السخافة كلّها في هذا التبذل الذي أصبحت معه كلمة السياسة كلفظ "البيع" يخوف به الصغار ولا حقيقة له، وتلك يخوف بها الكبار ولا معنى لها."⁽²⁾

فالممارسة السياسية التي يرنو الشيخ الإبراهيمي إلى تحقيقها كانت ممارسة سياسة أقل ما يقال عنها أنها سياسة تربوية تنويرية، تربية على ممارسة ثورة وحراك سياسي يسترد حقوق الأمة المغتصبة من خلال: "إحياء المقومات التي ماتت، ضعفت أو تراخت من دين ولغة وأخلاق وتاريخ وتقاليد، وتصحيح قواعدها في النفوس، ثم المطالبة بالحقوق الضائعة في منطق وإيمان، ثم الإصرار على المطالبة في قوة وشدة، ثم التصلب في

(1) - المصدر السابق، ج5، ص 135، 136.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 59، 60.

الإصرار في استماتة وتضحية، مع اختيار الفرص الملائمة لكل حالة.⁽¹⁾ ويبرز الإبراهيمي من خلال هذه الفقرة كيفية الممارسة والتصعيد السياسي كممارسة هادفة إلى استرجاع الحقوق في نوع من التدرج العقلاني المنطقي بداية من وضع أساس وقاعدة للممارسة السياسية في نفوس الأفراد إلى العمل على تحقيق مختلف الحقوق واستردادها.

4. مراحل الممارسة السياسية:

يمكن استقصاء بعض المراحل والقواعد للتربية والممارسة السياسية الهادفة إلى استرجاع الحقوق المغتصبة من خلال دعوة الإبراهيمي في قوله السابق إلى ضرورة تنظيم العمل السياسي والإيمان بمقومات الأمة واستثمارها في تحقيق ونيل حقوقها، ويمكن تلخيصها في ثلاثة مراحل هي كالاتي:

المرحلة الأولى: التأسيس لقاعدة سياسية وتصحيح ما زاغ عنها.

قبل أي مطلب سياسي أو حقوقي لا بد من تأسيس وتصحيح القاعدة التي تقوم عليها الممارسة السياسية بناءً صحيحاً كمبدأ تؤمن به النفوس وتضحى من أجله. أي لا بد من وضوح المنطلق والفكرة المطالب بها وإيمان الشخص بنجاحها فكرياً وذاتياً، فيتبناها قبل أن يطالب الآخر بتبنيها والتضحية من أجلها. ولعل هذا ما اتضح في تحديد معنى السياسة عند الشيخ الإبراهيمي كفن في التدبير وفق قانون ونظام، ورعاية الشعب بالعدل والإحسان. وفي تحديده لمعنى السخافة السياسية كمفهوم يجسد الظلم والتهافت على الرئاسة أو التبرير لأي ممارسات تسلطية، فعلى الشعب تجنب الانجرار في شرك السخافة السياسية والوعي بمتطلباته السياسية. وتتحدد هذه المرحلة أيضاً في التوعية بتاريخ الأمة وكيانها الضارب في جذور التاريخ، والرسالة التي لا بد لها أن تؤديها وأن تكون لها الريادة فيها. فاعتناق مقومات الشخصية الوطنية والذود عنها هو طريق للانعقاد والتحرر. وما لم يُبَنَّ على مقاصد صحيحة لن يأت بنتائج صحيحة، وترتبط هذه المرحلة بالإعداد والتربية.

يؤكد الإبراهيمي في ذلك على تربية قيم المواطنة ومقومات الشخصية الوطنية، وربط السياسة بالعلم والمعارف، ويظهر في تحذيره من الصراعات الحزبية الفارغة التي قد تفسد ما تم بناؤه وتعليمه للأجيال التي يعقد عليها الآمال في تحرير الوطن، وهو ما يجمله نصّه في عيون البصائر: "يا قومنا إننا نخشى أن تفسدوا هذه الأمة

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 60.

بهذه الدروس جيلا كاملا كنا نجهد أنفسنا في تربيته على طهارة الإسلام، وهمم العرب ومجد العروبة والإيمان بحقوق الوطن والعمل على استقلاله وحرية وبنية طبقاً عن طبق، ونعلي أخلاقه خلقاً عن خلق، نخشى أن تضيعوا على الأمة هذا الجيل وتفسدوا مواهبه وتلهوه بالمناقشات الحزبية عن الحقائق القومية... هذه الطلائع هي آمال الأمة ومناطق رجائها، والتي لا تحقق رجاء الأمة إلا إذا انقطعت إلى العلم وتخصصت في فروعها، ثم زحفت إلى ميادين العمل مستكملة الأدوات تامة التسليح، تتولى القيادة بإرشاد العلم، وتحسن الإدارة بنظام العلم، فتأثر لأمتها من الجهل بالمعرفة ومن الفقر بالغنى، ومن الضعف بالقوة، ومن العبودية بالتحريم، وتكتسح من ميدان الدين بقايا الدجالين، ومن ميدان السياسة والنيابة بقايا السماسرة والمتجرين، ومن أفق الرياسة بقايا المشعوذين والأُميين." (1)

وفي مجرى حديثه عن التأسيس الصحيح يبرز كيف وقعت الأحزاب السياسية لعبةً في يد المستعمر من خلال نزولهم بالممارسة السياسية إلى التحاسد والتهافت على كراسي النيابة بدل تبصير الشعب بمصيره وتصحيح رؤيته للحياة بتربيته على قيم الوطنية والمواطنة لا جزئه نحو الصراعات والتفاهات، وبذلك لم تصل هذه الممارسات لنتائج تعود بالنفع على الأمة وتكون في مصلحتها، لأن: "هذه السفاسف لم تبني على مقاصد صحيحة، فلم تأت بنتائج صحيحة. ولم تنشأ عن إيمان راسخ، فلم تظهر لها ثمرة ناضجة." (2)

المرحلة الثانية: المطالبة بالحقوق بمبدأ الإيمان و المنطق.

بعد تهيئة النفوس وشحذ الهمم وبناء قاعدة سياسية في المرحلة الأولى. تأتي مرحلة المطالبة بالحقوق المغتصبة بمبدأ الإيمان والمنطق، الإيمان بحق الشعب في الممارسة السياسية، وإيمانه بمختلف حقوقه وقدرته على تحقيقها، والمنطق من خلال التخطيط والتسيير لا الاحتكام إلى قانون الفوضوية واللامبالاة، فكل مطلب وكل حركة تكون مدروسة ومؤسسة مسبقاً، فتحدد نتائجها سلباً أو إيجاباً مع تحديد كيفية التعامل مع ذلك. كأن تقدم لائحات المطالب لمختلف الجهات، وتبلغ إذا كان الظرف يفيد أو يُبْأ عن ذلك إن لم تكن الظروف مواتية، وكل ما يدخل ضمن نطاق الحراك السياسي المنظم في الممارسات المعاصرة يعبر عن ذلك. ولا شك أن مطالب الشعوب سواء من حكوماتها ككيانات مستقلة أو شعوب مستعمرة، يكون مصير مطالبها اللامبالاة

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 68.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص60.

بداية، ما يستوجب التصعيد إلى مرحلة أخرى عبّر عنها الإبراهيمي مثل ما تبين سابقا بالتصعيد من خلال المطالبة بقوة وشدة وهذا ما يرتبط بمرحلة أخرى تشمل التضحية والاستماتة.

المرحلة الثالثة: مرحلة التضحية والاستماتة (التصعيد السياسي).

يكون ذلك من خلال المطالبة في قوة وشدة، قوة المطالبة والتضحية ولو بالأنفس من أجل استرداد الحقوق ونيلها، ويتلخص ذلك على سبيل المثال في حوادث الثامن ماي خمسة وأربعين تسعمائة وألف، ومختلف الأحداث والمظاهرات والمراسلات وهو ما يعكس التروح الإيمانية والتحررية للفكرة، من خلال الانتقال من مرحلة الوعي والمطالبة إلى مرحلة التضحية والاستماتة، أين ينتصر الجسد للفكرة، ويجسد هذه المرحلة المطلب الثوري التحرري، فتتحول الممارسة التنويرية التربوية السياسية إلى فعل تثويري. والتثوير إلى تحرير فتكون الثورة أفقا لتحقيق الحرية واسترداد الحقوق التي أخذت غلابة. وكأتمودج يعكس هذه الحركة السياسية التاريخية ثورة التحرير الجزائرية فالإيمان بالتحرر، وتحرير العقول كان أساسا لتحرير الأبدان كما أشار إليه الإبراهيمي في أكثر من مناسبة، وهو ما تجسد في الواقع.

لقد أدرك الاحتلال الفرنسي جليا التنوير التربوي السياسي الذي تجسد من خلال النشاط التربوي الذي نادى به الإمام الإبراهيمي على لسان جمعية العلماء المسلمين، ظنا منه في بداية تأسيسها بأنها جمعية دينية فقط تهتم بالشعائر الدينية، ولا يخرج نشاطها عن الصلاة و المسجد. وإذ به يكتشف تلك النظرة الاستشراافية الثويرية التي يحملها المدلول التربوي لها من خلال غرس قيم الحرية، المطالبة بالحقوق لدى الفرد بداية من صغره، إلى أن يكون مواطنا راشدا يعمل على استرداد حقه وحرية المسلمة عاملا على توفير أسباب ذلك. ويعتبر الإبراهيمي أن الاستعمار فهم نشاطات جمعية العلماء بعد ملاحظة نتائج تربيتها، وأنه أفق وأقوى زكّانة وأصدق حدسا، عندما اتهم نشاطاتها بالسياسية في مقابل المنتقدين للجمعية من بعض الأحزاب على أنها تحوض في أمور تتجاوز صلاحياتها وعليها اعتزال العمل السياسي لأنها لا تفقه فيه والاكتفاء بالارشاد الديني و الدور التعليمي. غير أن المستعمر ولدرايته بخطورة ما تقوم به الجمعية و رواها سمي: "أعمال جمعية العلماء سياسة، و ما هي بالسياسة في معناها المعروف و لا قريبة منه، ولكنه يسميها كذلك لأنه يعرف

نتائجها و آثارها. و أنها اللباب وغيرها القشور، ويعرف أنها إيجاد لما أعدم، و بناء لما هدم، و زرع لما قلع، و تجديد لما أتلّف. ⁽¹⁾

فقد سعى المصلحون بعد تأسيسهم جمعية العلماء، إلى التحدث باسم الأمة الجزائرية، و تنصيب أنفسهم مدافعين شرعيين عن مقومات الأمة، و هذا في حدّ ذاته ممارسة سياسية واضحة تنفي اعتبار العلماء خارج السياسة. على الرغم من تصريحاتهم المتكررة بأنهم يمثلون جمعية غير سياسية، فإن لديهم مذهباً سياسياً ينطوي على إيديولوجيا منسجمة التمسستها الأحزاب الأخرى، لأنها تمثل الأساس الأيديولوجي للنزعة الوطنية الجزائرية باستنادها إلى مفهومي الوطن والقومية، و عمّم المصلحون ذلك من خلال التربية و التعليم في المدارس و الأناشيد الوطنية، و الكشافة و سرعان ما دخلت هذه المفاهيم في الخطاب الشعبي اليومي، و أظهرت بعده قدرة هائلة على الدعاية و التجنيد. ⁽²⁾

ووقف المستدمر اتجاه هذه الممارسات السياسية الصادقة التي تضر به بتأليب الرأي العام ضدها عاملاً على جعل العدمية حاضناً لها. هنا بينّ البشير الإبراهيمي ما كان يحاك ضد الجمعية من طرف المستعمر، محاولةً منه تعميم نشاطها التنويري و اعتباره مجرد وسيلة لتحقيق غايات و مصالح سياسية ذاتية تحت رداء الدين. و أنها تستغل عاطفة الشعب و مقومات الشخصية الوطنية. هذا ما يجعل الرأي العام يتألب ضدها بدل أن يكون حاضناً لها، و قد حمل المستدمر أحياناً صليب الرحمة لاستدراج قادتها، و استخدم مطرقة التهديد أحياناً أخرى لتخويفهم، فیتهم جمعية العلماء بأنها: "جمعية سياسية في ثوب ديني، و إنها تستر القومية بستر الدين، و تخفي الوطنية بخفاء العلم و العربية... إنها تخدم سياسة أجنبية أو تعمل للجامعة العربية الإسلامية، و قد يلبس مسوح الرهبان تارة فيتبدل التهديد بالوعظ فيقول إن جلال العلم لا يتفق مع السياسة، و تغلب عليه طباع السوء فيقذف بأعضاء الجمعية في السجون." ⁽³⁾

و قد كان ردّ البشير الإبراهيمي صريحاً في هذا السياق من خلال عقد اجتماع مجلس إدارة الجمعية يوم 05 أوت 1945 لتقديم أخطر تقرير إلى حكومة الاحتلال الفرنسي و ممّا جاء فيه: "يا حضرة الاستعمار إن جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده و تفهيم حقائقه، و إحياء آدابه و تاريخه و تطالبك بتسليم مساجده

(1) - المصدر السابق، ج3، ص65.

(2) - نور الدين نينو، إشكالية الدولة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ص 332.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 61.

وأوقفه إلى أهلها، وتطالبك باستقلال قضائه وتسمي عدوانك على الإسلام ولسانه ومعايده وقضائه عدوانا بصريح اللفظ، وتطالبك بحرية التعليم العربي وتدافع عن الذاتية الجزائرية التي هي عبارة عن العروبة والإسلام مجتمعين في وطن... فإذا كانت هذه الأعمال تعدّ في فهمك ونظرك سياسة، فنحن سياسيون في العلانية لا في السر وبالصرحة. ⁽¹⁾

يؤكد الشيخ الإبراهيمي في نطاق التربية السياسية على ضرورة استقصاء الواقع والنهل من التجارب الماضية التي تبين حقيقة الممارسات الاستعمارية، مبرزاً بعض الهفوات والأخطاء التي وقع فيها الكثير من الأحزاب والشخصيات بتصديقتهم وعود المستعمر، مبيناً أن "علتهم في ذلك: أنهم يفهمون النيابة فهما جمهورياً مما يقرأونه في الكتب، لا فهما استعمارياً مما يقرأونه في كتاب الواقع." ⁽²⁾ ولقد بدأت القراءة من كتاب الواقع والنهل منه بعد التجارب التي خاضها الجزائريون في كفاح المستعمر وفي مشاركتهم في الحروب العالمية، مما أنتج تطوراً فكرياً وعملياً ملحوظاً، وبدأت "آثار هذا التطور الفكري تظهر بجلاء على إثر انتهاء الحرب (العالمية) ورجوع الجنود الجزائريين إلى ديارهم، وكثير منهم يحمل الأوسمة العسكرية، وشهادات البطولة ويتقاضى المرتبات الوافرة طول عمره، و أهم من هذا كله أنه يحمل فكرة جديدة عن نفسه وعن الفرنسي زميله في الحرب وجاره في السلم، وسيد الموهوم بالأمس، وكأن لسان حال الجندي الجزائري يقول لزميله الفرنسي: قد عرفناكم... فلا سيادة بعد اليوم." ⁽³⁾ فمثل الواقع السياسي والحربي الذي شارك فيه الجزائريون خير تجربة تعلّموا منها دسائس السياسة الفرنسية ومكرها خاصة بالوعد التي وعدتهم بما نظير مشاركتهم في الحرب العالمية ثم أخلفتها، كما أفادت تلك المعارك التي خاضوها في الحرب العالمية في مجال الممارسة السياسية، والإطلاع على تجارب بعض الشعوب الأخرى وكيف استردّت حقوقها رغم اختلاف همجية المستعمر وشراسته وهجيته في الجزائر مقارنة مما تعرّضت له دول أخرى من استعمار، ما يؤكد ضرورة الانفتاح على الآخر في مجالات معينة للاستفادة من تجاربه.

⁽¹⁾ - إبراهيم مهديد، الدور الإصلاحي والنشاط السياسي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي على نهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 197، 198.

⁽²⁾ - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 5، ص 135.

⁽³⁾ - المصدر نفسه، ج 5، ص 127.

5. العلاقة بين رجل السياسة و الشعب:

لا يغفل الشيخ الإبراهيمي في منظوره السياسي مشكلة أساسية تتمثل في علاقة السياسة والسياسيين بالشعب، إذ تصح بأن تكون هذه العلاقة من الأسس التي تقوم عليها التربية السياسية، ويحلل الإبراهيمي تساؤلاً يتمثل أساساً في ماهية العلاقة وجوهر التفاعل بين السياسيين و الشعب، رابطاً إياهما بواقع وطبيعة الشعب والسياسيين على حدّ سواء، وإن كان منطلق هذا التساؤل الحالة السياسية في الجزائر آنذاك، بداية من نشاط بعض القادة السياسيين إلى حركة ونشاط بعض الأحزاب، وفحوى ذلك التساؤل: هل الشعور العام للشعب هو الذي يؤثر في السياسيين ويحركهم؟ أم أن السياسيين هم الذين يؤثرون في الشعب؟ فتكون حركتهم استجابة لدعواتهم؟ هل الشعب يتحكم في السياسة؟ أم السياسة تتحكم في الشعب؟

وهو التساؤل ذاته الذي طرحه الشيخ الإبراهيمي في خضم بدايات الحركة السياسية في الجزائر بعد نهاية الحربين العالميتين، وقد خص بالذكر الأمير خالد الذي أصدر أول جريدة لخدمة سياسته (جريدة الإقدام) باللغتين العربية والفرنسية، والتي كانت لها آثار إيجابية في تنبيه الأذهان والتخطيط الأول لمنهاج التربية السياسية. إضافة إلى الشيخ الحاج محمد بن رخال* والدكتور موسى** اللذين كان لهما صوت مؤثر في التكوين السياسي بالجزائر. وهنا يشير الإبراهيمي أن المفكر "يختار لأول وهلة في نقطة تبدو غامضة: أيهما كان المؤثر في الآخر والمغذّي له؟ هل شعور الشعب هو الذي يحرك السياسيين؟ أم أن أصوات السياسيين هي التي كانت تحركه وتهمّه فتثير إحساسه وتنبّه شعوره؟" (1)

وفي حلحلة هذه المفارقة السياسية بين رجل السياسة و الشعب وإزالة غموض التأثير، يربط الشيخ الإبراهيمي ذلك بطبيعة المجتمع والشعب من جهة، وطبيعة القادة السياسيين من جهة أخرى، إذ يظهر التفاعل والتأثير متبادلاً بين الطرفين، وهو ما يبيده استقصاء التجارب السياسية لدى الأمم على اختلافها ولدى التجربة الجزائرية والمشرقية بالخصوص. فالشعوب المتقدمة - الرشيدة - بتعبير الإبراهيمي يظهر فيها التفاعل والتجاوب في تأثير متبادل بين شعور الساسة وشعور الشعب، وقد يتغلب أحدهما على الآخر، ففي حال

*- الشيخ الحاج محمد بن رخال: من ذوي البيوتات العريقة في ندرومة (تلمسان) وقد كان زميلاً للأمير خالد في النيابة بالمجلس المالي الجزائري.

**- الدكتور موسى: دكتور في الطب بمدينة قسنطينة، لم تكن له شهرة كالأمر خالد ولا سمعة ابن رخال بل اشتهر بجراته في المطالبة بحقوق الجزائر السياسية.

(1)- الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص 131.

خروج السّاسة عن جادة الصواب يظهر تأثير الشعب بردهم إلى الطريق الصائب المحدد بداية. "والحق أن الشعوب التي كمل نضجها أو قارب، يتفاعل فيها إحساس السّاسة بإحساسها ويتجاوبان، وقد يطغى أحدهما على الآخر حينما يندفع الشعب إلى مهواة على غير هدى فيرده السّاسة الصالحون إلى الجادة، أو ينزلق السّاسة في عمايتهم وضلالهم فتردهم صيحات الشعب إلى الصواب، وإنما نقول هذا في الساسة الناضجين الذي لا تختلف بهم السبل ولا تعمى عليهم وجوه الرأي والمصلحة إلا قليلا وعن اجتهاد وفي الشعوب الرشيدة أو المراهقة للرشد." (1) وهذا ما يمكن استقراؤه من تجربة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عند توليه الحكم لحظة اعتلاء المنبر مخاطبا الناس: «أيها الناس فإنني قد وُليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.» (2)

أما بالنسبة إلى الشعوب المتخلفة البدائية في الممارسة السياسية، فإن الأمر قد يكون على النقيض، إذ تغيب ازدواجية التأثير وتقلب إلى أحادية التحكم، إذ لا أثر لذلك التفاعل والتجاوب بين الشعب وقادته، ويحل محل ذلك تقديس الأشخاص، فتكون حركة الشعب استجابة لتحركاتهم، لا استجابة لمبادئ الوطن ومصالحته، لأن هذه الشعوب لا زالت غارقة في التخلف والجهل والتقليد، وقد كانت هاته السمة الغالبة على الشعب الجزائري آنذاك في نظر الإبراهيمي كمثل عن الشعوب البدائية في الممارسة السياسية، وذلك في معرض قوله: "أما شعبنا وأمثاله من الشعوب البدائية التي هي في عقابيل من أمراض اجتماعية، ولم يتم صحوها من سكر الجهل وسكر الغفلة وسكر التقليد، فإن هذا التفاعل والتجاوب بينها وبين قادتها السياسيين يكون مفقودا في هذه الفترة، وليست هذه الفترة فصل نباته، والغالب على الشعوب البدائية في السياسة أن تكون على بقية من وثنية، أصنامها الشخصيات، فيكون إحساسها تابعا لإحساسهم وحركاتهم منوطة بتحريكهم ولو إلى الضياع والشر وهذه الحالة السائدة في شرقنا." (3) هذا ما يظهر في العديد من الممارسات السياسية الحزبية النيابية، فيكون أساس الانتخاب الأشخاص وانتماءاتهم لا برامجهم ومبادئهم، ولعل هذا الداء لازال مستشرى في الممارسة السياسية الجزائرية ويظهر للعيان مع أي استحقاقات سياسية في راهننا اليوم.

(1) - المصدر السابق، ج5، ص 131.

(2) - ابن كثير، البداية والنهاية، ج5، (قصة سقيفة بني ساعدة، اعتراف سعد بن عبادة بصحة ما قاله الصديق يوم السقيفة)، مكتبة المعارف، بيروت، ط6، 1988، ص 248.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 5، ص 131.

هذا التقديس للشخصيات الذي ميز الشعوب البدائية في ممارساتها السياسية وعملها على النهضة وحتى على نمط تفكيرها، لا يمكن إغفاله في ظل الوجود الاستعماري، فمثلت هذه الثغرة حبل اللجام الذي تنقاد منه هذه الشعوب، ما تفتن له المستعمر والغربيون في نظر الإبراهيمي وظهر في التحكّم في الشعوب، خصوصا العربية منها. "قد تفتن الغربيون لهذه النقيصة فينا، بل إلى هذه الثغرة الواسعة في نفوسنا، فأصبحوا ينصبون لنا التماثيل من الرجال ويحكموننا بها ويصرفون حياتنا من ورائها لمصلحتهم."⁽¹⁾ غير أن واقع الحال تغير مع وجود أشخاص وطنيين نبهوا الأذهان وشكلوا وعيا سياسيا لديها، وهنا يبرز تأثير السياسي على الشعب، وإن كان في أولى مراحل مع الشعب الجزائري بعد الحربين العالميتين غير أنه أكسب الجزائريين وعيا بحقوقهم السياسية، فانتقلت الحركات السياسية من نطاق الأشخاص إلى نطاق المبادئ، ومن مجرد رؤى ومقالات إلى حركات وطنية وممارسات عملية، فتشكلت أسماء الأحزاب الوطنية لتحل محل أسماء الأشخاص.

وقد شكلت الممارسة التربوية السياسية للشيخ الإبراهيمي وعيا لدى أبناء الأمة، وأصبح محركا لضمير المجتمع، وهذا ما لم تغفله فرنسا في تقاريرها العديدة وعراقيلها لحركته ونشاطه، فحاكت للإبراهيمي التهم مرارا نظرا لتأثيره الكبير في الوسط الجزائري، وكان من نتاج ذلك النفي إلى مدينة أفلو، وصدور عديد التقارير للحكومة الاستعمارية التي كانت تحذر وتتعبق حركته ففي: "تقرير مكتوب سنة 1940 جاء فيه أن الإبراهيمي قد أصبح في حوالي منتصف سنة 1935 ليس فقط "محركا للضمير العام" ولكنه أصبح المحرك لكل الأنشطة السياسية المحلية الأهلية ذات الطموح المضاد لفرنسا، بينما كان يخطط في كل فرصة ومناسبة ومكان لتوحيد الأهالي لأجل نهضة الإسلام."⁽²⁾

ولا يغفل الإبراهيمي عن هذه العلاقة بين السياسي والشعب لدى الاستعمار الفرنسي للجزائر، أين استثمر تلك العلاقة في سياسته، دون إهمال ذلك التطور الحاصل لدى الشعب في مجال الوعي السياسي. "وكان الحكومة الاستعمارية التي تدرس نفسية الشعوب قبل كل شيء لتبني معاملتها لها على أساس نفسي، كأنها درست النفسية الجزائرية العامة، وعرفت مواطن الضعف ومداخل الشر إليها، فرأت أن الانتخابات النيابية هي الفتنة الكبرى للزعماء وأتباعهم معًا، ومدعاة لتنافسهم و مجلبة للحزابات بينهم، فنصبتها صنما

(1) - المصدر السابق، ج5، ص131.

(2) - (تقرير من والي وهران إلى الوالي العام-الديوان- 15 مارس 1940، رقم 4282) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 64.

يضطرون حولته ويتعصب كل فريق منهم لصاحبه.»⁽¹⁾ وعمل بذلك الاستعمار على وقف هاته الحركة السياسية بفتح المجال للمشاركة السياسية دون أي شرط علمي أو معرفي بهدف أن تحلّ الصحافة السياسية محل الممارسة السياسية الحقيقية، وأن يستبدل المعنى العالي للسياسة بالمعنى النازل لها، وقد استشرى هذا الداء في الكثير من السياسات في راهننا، من شراء لدمم بعض النواب، وعدم وضع شروط لممارساتهم وترشحاتهم، فلم يشترط لديهم مثلاً أدنى شهادات دراسية وعلمية، ونشاهد نماذج هؤلاء النواب اليوم بكثرة، وكثير منهم لا يفقه ما تتطلبه النيابة والتمثيل والحياة السياسية من دراية ومعرفة.

وفي سياق التفاعل والتجاوب بين السياسيين والشعب لدى الأمم والشعوب - كأمتنا - الجديدة في الممارسات السياسية يدعوا الشيخ الإبراهيمي المثقف السياسي إلى العمل على تربية الأمة وتحقيق وحدتها الوطنية، وأن يعمل السياسيون على تجاوز كل ما يرتبط بالمعنى النازل للسياسة، وبهذا يجمعون بين فغات الشعب فيشكلون قدوة له، وينال السياسي بذلك الرهبة من الحكومة لفعاليتها وجرأته وحنكته. يحمل الإبراهيمي ذلك في قوله: "ورأبي في الزعيم السياسي المثقف في أمة كأمننا الشرقية- ولا أحاشي الأمة المصرية- أنه يجب عليه أن يرفع عن الميادين التي تشغله عن المهم، وتلهيه بالصغائر، وتفتنه بالحقرات وتخلق له الخصوم من الأمة التي يعمل لها ولخيرها. وأن يصرف همه كله إلى تربية الأمة وجمع صفوفها على حثها الوطني وتحريك الساكن منها، و إيقاظ النائم وتنبيه الغافل وتأليف الشارد، فإذا تم له ذلك أصبح مرهوبا في الحكومة وأصبح محبوبا عند الأمة." ⁽²⁾ ومنه تبرز ضرورة بناء القاعدة والحاضنة السياسية من طرف السياسي حتى يحتضنه الشعب ولا يكون ذلك إلا بتوعيته وتربيته مع ما يتوافق وخصوصيات الأمة وطموحاتها، فيساير التطورات من جانب آخر، و يشترط في الشعب أن يكون على قدر من الوعي والثقافة، مدركا لمقوماته و آماله حتى يكون بمقدوره أن يقول للسياسيين - لا- في حال زاغوا عن الطريق الصحيح.

فرؤية البشير الإبراهيمي تدخل ضمن الممارسة السياسية للمصلحين و إن كانت رؤيته تنم عن باع كبير في مجال السياسة شأنه في ذلك شأن العديد من المجالات الأخرى، ولولا انهماك الشيخ بالقضايا الوطنية لألف ونظر فيها الكثير، لكن انصبّت جهوده في تكوين الرجال. وإن المصلحين وإن كانت ممارساتهم للسياسة قد لا تصل إلى معناها الاحترافي لدى المؤسسات والحكومات، فإن قيمة نشاطهم برزت في قدرتهم على الإفصاح

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص 132.

(2) - المصدر نفسه، ج5، ص 135، 136.

عن ملامح الأمة الجزائرية في مقوماتها الأساسية. والأمة هي حجر الزاوية التي تقوم عليها الدولة الحديثة التي تحدت بالدولة - الأمة. ويصعب أن نستعمل الاستقلال السياسي والمطالبة بالدولة في غياب واضح لملامح الأمة و خصائصها.⁽¹⁾ ولعل هذا ما يستخلص من التجربة الكبيرة التي قام بها الشيخ البشير الإبراهيمي سعيًا منه نحو وضع أسس أمة ووطن جزائري مستقل، كنموذج عن الحركة الإصلاحية في تاريخ الجزائر الحديث.

6. شمولية المنظور السياسي للشيخ الإبراهيمي:

لا تتمحور الرؤية التربوية السياسية لدى الإبراهيمي في حلحلة المتغير السياسي في الجزائر المنهكة بالاستعمار فقط، بل تتعداه إلى تشخيص الداء السياسي في المشرق العربي وأسباب تخلفه، نظرا للمشارك التاريخي والثقافي، وتعرض هذه المجتمعات للآخر المستعمر العامل على سلب ذاتها بإيقاعها في الاغتراب مع مقوماتها، هذا الداء يرجع في أساسه لغياب تنشئة تربوية سياسية أو بتعبير آخر غياب فعل التنوير السياسي لدى الجماهير، وهذا التنوير لا يتأتى إلا بتربية الجماهير وبناء قاعدة سياسية بالماهية لا بالعرض، فكيف يكون الممارسة السياسية معنى وكيف تأخذ الحقوق إن كان السياسي يتغنى بالوطنية كشعار وفعله يجافيه؟! يرددها دون تثبيت دعائمها! لعل ذلك ما يشهده الراهن السياسي اليوم في الانتخابات من بيع للذمم، وتقديس للأشخاص والمصالح بدل المبادئ، إحياء للطائفية وإثارة أوهام القبيلة من تفاخر وتمييز عنصري بين مواطني المجتمع والوطن الواحد بدل إحياء المقومات الوطنية. إحياء روح القبيلة والعشيرة بدل المطالبة بالحقوق، ما ينتج عنه أن تتحكم في الفرد عصبية ومصالحته الخاصة اتجاه (عرشه وعشيرته) بدل مصلحة وطنه ومجتمعه. "فضعف النتائج من أعمال الأحزاب في هذا المشرق العربي كله آتيا من غفلتهم أو تغافلهم عن هذه الأصول، ومن إهمالهم لتربية الجماهير وتصحيح مقوماتها، حتى تصبح أمة وقوة ورأيا عاما وما شاء الحق، ومن ترويضهم إياها على لفظ الحق قبل اعتقاد استحقاقه، وعلى لفظ الخضم قبل إحضار الحجة، وعلى لفظ العدو قبل أخذ الحيلة، ومن اغترارهم بالظواهر قبل سبر البواطن، وبالسطحيات قبل وزن الجوهريات، وبالأقوال قبل أن تشهد الأفعال."⁽²⁾

فالفكر السياسي العربي في نظر الإبراهيمي موجه و مؤدج بفعل المستدمر كوسيلة يُعَيَّب بها ذوات المجتمع ومقوماته، وموجه من غريزة السيادة لدى المواطن العربي، فإن أخذ هذا الفكر السياسي التعدد في

(1) - نور الدين ثنيو، إشكالية الدولة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ص331، 332.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص65.

الممارسة السياسية من الغرب فإنه لم يتحرر من السادية الفرعية المتنازعة. فإذا كان الفكر الاستدماري بمحق المقومات ويميتها فالصراع بين الأحزاب يهملها وقد لا يلتفت إليها مطلقا. ما يبينه قول الإبراهيمي "إن من الغفلة والبله أن نقيس أحزابنا بالأحزاب الأوروبية، فإن تلك الأحزاب ظهرت في أمم استكملت تربيتها وصححت مقوماتها، بدعوة دعاة جمعوا الكلمة، وعلماء أحيوا اللغة، ومعلمين راضوا الأجيال على ذلك."⁽¹⁾

ويتضح المنظور السياسي الشامل للإبراهيمي في تطرقه للعديد من القضايا العالمية خصوصا الإسلامية والعربية منها، على سبيل المثال لا الحصر الحضور القوي للقضية الفلسطينية في كتاباته، مبينا سر ادعاءات اليهود بالأرض الفلسطينية وفضحه لهم ولوسائلهم في ذلك، داعيا العرب والأمة الإسلامية إلى الوحدة كسبيل للخلاص من اليهود وتحرير فلسطين. وهذا ما يتبين في تخصيص العديد من المقالات في البصائر التي تتناول قضايا فلسطين ك: (تصوير الفاجعة، وقف قرار تقسيمها، واجبات فلسطين على العرب...) مبرزا الدعائم الأساسية للصهيونية: "إن الصهيونية فيما بلونا من ظاهر أمرها وباطنه نظام يقوم على المحام والصرير والتاجر، ويتسلح بالتوراة والبنك والمصنع، وغايتها جمع طائفة قدر لها أن تعيش أوازعا بلا وازع، وقدر لها أن تعيش بلا وطن، ولكن جميع الأوطان لها، فجاءت الصهيونية تحاول جمعها في وطن تسميه قولا فلسطين...فهو في حقيقته استعمار من طراز جديد في أسلوبه ودواعيه وحججه وغاياته."⁽²⁾ فالصهيونية في تبنيتها لمشروع الوطن القومي استندت إلى هذه الدعائم الثلاثة الذين الذي يستلهم تعاليمه من التوراة واستقطبت من خلاله جميع يهود العالم، المال وهو المرتكز الأول لجميع حركاتهم، التجارة التي مثلت على مرّ القرون أحبّ المهن إلى اليهود و استطاعوا بواسطتها أن يحكموا السيطرة على الاقتصاد العالمي.⁽³⁾

ولا يقتصر الإبراهيمي على القضية الفلسطينية فقط، بل يدعو إلى نهضة الشرق عامة وأن يكسر أغلال الاستعمار والأشخاص الذين توانوا و استكانوا في خدمة أوطانهم، من خلال الاقتداء بما حققه الإسلام في هذا الشرق ويحمل ذلك في قوله: "نأسى عليك يا شرق أن تتقاذفك الأقدار، فتتقلب من عبادة الأصنام الحجرية إلى عبادة الأصنام البشرية، فمتى تنهض بمن يكسر هذه في الآخرين كما كسر محمد أخواتها في

(1) - المصدر السابق، ج3، ص66.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص437. (ينظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، (عيون البصائر) طبعة دار الغرب الإسلامي، من ص435 - 463 أو ينظر مقالات الشيخ الإبراهيمي ضمن عيون البصائر، طبعة دار الأمة، من ص489 - 526).

(3) - محمد زرمان، معالم الفكر السياسي والاجتماعي عند الشيخ الإبراهيمي، ص143، 145.

الأولين." (1) فمبدأ الأخوة الإسلامية هو الذي جعل الشيخ الإبراهيمي يضيف إلى اهتمامه بقضايا وطنه اهتماما بقضايا إخوانه المسلمين شرقا وغربا، يستنهض همهم وينير بصائرهم.

كما يدعو إلى الوحدة السياسية ويتضح ذلك من خلال الحيز الذي احتله المغرب العربي في اهتماماته، فقد كان له الفضل في دعوة أحزاب الشمال الإفريقي السياسية إلى الاتحاد، فأسس اتحادا بين أحزاب الشمال الإفريقي الذي تكون من حزب انتصار الحريات الديمقراطية، وحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وحزب الدستور التونسي، وحزب الوحدة من المغرب الأقصى وغيرها من الأحزاب، كما دعا إلى تضامن صحفي بهذا الشمال. واهتمامه بقضية المغرب العربي وقضايا المسلمين ليس من باب السياسة التي قد تغير الظروف صاحبها بل من باب الدين. (2)

فاستقصاء آثار الإبراهيمي وتجاربه يبرز تلك الرؤية الشمولية التي ارتبطت بمساعيه الإصلاحية والسياسية خصوصا العلاقات التي أقامها مع مختلف القادة في البلدان الإسلامية، ما ساهم في شمولية نظرتة. إضافة إلى الاطلاع المعرفي الواسع للشيخ في مختلف المجالات ومنها السياسية تنظيرا وعملا وارتباطا بالأحداث المستجدة. هذا ما يستجليه الباحث من معرض حديث الشيخ عن الديمقراطية، وعلى نقيض ذلك ترى الإبراهيمي مستأثرا بالشورى والمساواة في الإسلام وبالتجربة العمريّة (حكم الفاروق عمر ابن الخطاب) في الحكم، على خلاف الحضارة الغربية التي اعتبرها حاضنة المتناقضات حين آثرت الديمقراطية فأتسعت لرأي ديمقراط و لرأي مكيفيلي ملبسة الديمقراطية لباس المكيفيلية. فقد أبرز أن الديمقراطية "رأي يوناني نظري جميل، منسوب إلى اسم صاحبه، وهو قائم على أن الشعب هو مصدر السلطة، ومن ثمّ فهو صاحب الحق في الحكم والتشريع، وعلى أن الأفراد متساوون في هذا الحق، ويناقضه رأي آخر يوناني النشأة أيضا... أما في التطبيق والعمل فإن هذه الحضارة (يقصد الحضارة الغربية) - وهي حاضنة المتناقضات - اتسعت لرأي ديمقراط ولرأي مكيفيلي صاحب كتاب (الأمير)، فإذا أرادت التلبس ألبست الثاني ثوب الأول." (3)

وإن كانت الديمقراطية في جانبها التأسيسي تُرجع السلطة والحكم إلى الشعب، وتضمن مختلف الحريات والحقوق كحرية الدين والمعتقد، وحرية التعبير والممارسة السياسية، إلا أن أذعياها جعلوا منها مجرد وسيلة

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص 488.

(2) - محمد الهادي الحسني، مقدمة كتاب - مواقف الإمام الإبراهيمي، (6) المغرب العربي الكبير، إعداد وتقديم محمد الهادي الحسني، عالم الأفكار للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007، ص 7-10.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص508.

لتحقيق غاياتهم، موظفين إياها على حسب مصالحهم، خصوصا فيما يتعلق بهيمنة الدول القوية على المستضعفة وبالأخص في السيطرة على الدول المستعمرة منها. وهذا ما كان يدّعيه المستدمر الفرنسي في احتلاله للجزائر، وما وظفته عديد القوى الغربية اليوم لإثارة الفتنة لدى بعض الدول خصوصا الإسلامية منها، أو التي ترى أن في نموها خطر على مصالحها، مدّعين نشر الحريات، والدفاع عن حقوق الإنسان وغيرها من المغالطات، فلم تُظلم الديمقراطية في نظر الشيخ الإبراهيمي بقدر "ما ظلمت في العهود الأخيرة، فقد أصبحت أداة خداع في الحرب والسلم، جاءت الحرب فجندها الاستعمار في كتائبه، وجاء السلم فكانت سراياً بقيعة، ولقد كثر أذعياؤها ومدّعوها والداعون إليها، والمدّعي لها مغرور، والدّاعي إليها ماجور، والدّعيّ فيها لابس ثوبي زور. أصبح استعمار الأقوياء للضعفاء ديمقراطية، وتقتيلهم للعزل الأبرياء ديمقراطية، ونقض المواثيق ديمقراطية." (1) فالكثير من الانتهاكات والاعتداءات مورست تحت ستار نشر الديمقراطية والدعوة إليها.

ومن بين النماذج على ذلك، آراء الإبراهيمي في سياسة أعظم دولة في التاريخ المعاصر، الولايات المتحدة الأمريكية، ففي رؤيته تحليل ووصف واستشراف لسياستها المستقبلية، إذ لم يعبّر لشعاراتها في وقت كان أكثر السياسيين والمثقفين يعتقدون أنها أمل الشعوب الضعيفة، فقد وصفها الشيخ الإبراهيمي بأنها «نبي الديمقراطية الكاذب» فقد اعتبر دخولها في الحربين العالميتين مناصرة منها للاستعمار. "أفكلّمنا رثّ حبل الاستعمار، وتصدّع جداره، وأشرف على الفناء في حربين ماضيتين جاءت أمريكا تُكفكف دموعه، وتنظم جموعه، وترمّم جداره، وتعمّر بالدولار داره." من خلال نصرتها للاستعمار في الحرب العالمية بعد أن كان مآله الزوال. لذلك يلقبها الشيخ «بنصيرة الاستعمار وحاميته» و «حاضنة الاستعمار» (2) وحوادث الحاضر لا تنفك تؤكد على هذه الرؤى من خلال سياسة أمريكا المعاصرة، ومن خلال مناصرتها للمستعمر خصوصا الصهيوني، وما فعلته في العراق وأفغانستان من انتهاكات وجرائم.

وقد كشفت الأحداث الأخيرة في واشنطن ونيويورك (الثلاثاء 2001/09/11) عن الوجه الحقيقي للوجدان الغربي الذي لم ينس أبدا أنه الأقوى وأن يجب أن يكون كذلك في القرن الجديد، وأن القوة لا تكون إلا برؤية حضارية ذات مدلول عقدي، ترى الآخر وخاصة الإسلام عدواً يجب أن يُهزم، وقد جسد الرئيس الأمريكي جورج بوش ذلك حين صرّح أن حرب أمريكا مقدسة وأنها الصليبية الجديدة وأن الحرب معنونة

(1) - المصدر السابق، ج3، ص508.

(2) - محمد الهادي الحسني، أمريكا في رأي الإمام الإبراهيمي، أعمال الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، الجزائر-قصر الثقافة في 13 و14 ربيع الثاني 1426 هـ الموافق ل22-23 ماي 2005م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2006، ص387.

بالعدالة المطلقة ذات الامتداد الإنجليزي، وصرح بعده رئيس الحكومة الإيطالي حين زيارته لألمانيا (2001/09/29) بما يجسدّ لحنين روما الاستعمارية قائلا: إن حضارتنا أحسن من حضارتهم، وأن قيمنا أجدى و أفضل من قيمهم، وأن الإسلام يعجز عن أن يمنح للعالم الخير الذي منحناه.⁽¹⁾

وبمعرض حديث الإبراهيمي عن سياسة أمريكا يعرج الشيخ على هيئة الأمم المتحدة مبينا أنها اتحاد للأمم القوية على المستضعفة، وئصرة للظلم لا للعدالة. "هذه المنظمة التي سميت بغير اسمها، وحلّيت بغير صفتها، وما هي إلا مجمع يقود أقوىؤه ضعفاءه، ويسوق أغنيائه فقراءه، وما هي إلا سوق تشتري فيه الأصوات... وتباع فيه الدم والهمم والأمم بيع البضائع في السوق السوداء، وما هي إلا مجلس نصبوه للشورى فكان للشر، وعقدوه للعدل والتناصف فكان فيه كل شيء إلا العدل والتناصف."⁽²⁾ وهذه حقيقة أخرى أثبتتها الفترة المعاصرة من خلال السياسة الدولية اتجاه العديد من الدول، فلم تنتصر هذه الهيئة لأي دولة مستعمرة إلا نادرا، بل تشرّع للاستعمار وتحميه، فلم تقف موقفا عادلا أمام العدوان الصهيوني على فلسطين، ولا من الحروب التي خاضتها وتخوضها كثير من الدول الأوروبية مع أمريكا ضد الشعوب الإفريقية والإسلامية، متخذة من حلف الناطو والأطلسي وسيلتها في ذلك. هذا ما أثبت استشرافات الإبراهيمي للسياسة العالمية المستقبلية، فأصبحت هذه الحقائق مرئية نعايشها اليوم بوضوح جلي، ما أبرز راهنية الطرح الإبراهيمي في المجال السياسي المحلي والعالمي.

فالنظرة الشمولية السياسية للشيخ الإبراهيمي وحوضه لجحها تعود إلى تفقهه الصحيح في الإسلام الذي وسع العديد من القضايا، و إلى فهمه السليم للسياسة، لذلك خاض فيها قولاً وعملاً وكان آخر نشاطاته في ذلك بيانه المؤرخ في «16 أبريل 1964» بالجزائر، والذي انتقد فيه السلطة الجزائرية المبنية على أسس نظرية مستمدة من مذاهب أجنبية. فكانت اهتماماته السياسية محلية وعالمية، فقد أحصى الباحثون نسبة الكتابات السياسية للإبراهيمي في كتاباته بعيون البصائر فوجدت أنها بلغت حوالي 49.41%.⁽³⁾ خصوصا المقالات التي تتطرق إلى السياسة الفرنسية في الجزائر، وإلى قضية فصل الدين عن الدولة، وترجع هذه الشمولية من باب آخر إلى سعة اطلاعه من جهة و إلى حوض غمار السياسة نظريا وعمليا، كاتباً في مجلة

(1) - عمر أحمد بوقرورة، بناء النسق الفكري عند محمد البشير الإبراهيمي، قراءة في ظل البنية والمتغير، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص 94، 95.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 466.

(3) - محمد الهادي الحسني، أمريكا في رأي الإمام الإبراهيمي، ص 386.

البصائر، ومحملا للسياسة الفرنسية وفاضحا لها، ومفاوضا في العديد من القضايا في سبيل تحرير الجزائر أرضا وشعبا وعقلا، وممثلا للثورة الجزائرية في الخارج.

وما يمكن أن نستخلصه في نهاية هذا العنصر: أن المنظور والمشروع التربوي للشيخ البشير الإبراهيمي حمل في ثناياه معالم تربية سياسية كفيلة بتحقيق ممارسة سياسية حقيقية تتجاوز السخافة السياسية، لمواصلة مسار الجزائر في تحقيق استقلالها، ولم يقتصر منظوره السياسي على الشأن الداخلي فقط، بل تضمن نظرة شمولية استشرافية لمآلات السياسة الداخلية و العالمية، فتضمنت رؤيته صبغة محلية وعالمية في الآن ذاته، وأهم ما يمكن استخلاصه من ذلك يتمثل في:

- العمل على تجسيد تربية سياسية تركز على المعنى الحقيقي للسياسة، وعلى المطالب التي ترتبط بمصلحة الوطن عامة، وعدم تقديس الأشخاص والخضوع للشخصيات بل الانتصار للفكرة و المبدأ.
- أخلاقة الممارسة السياسية من خلال التركيز على التكوين والتربية الخلقية للأفراد في المدارس حتى تمثل إطارا عاما يضمن عدم حيادهم في نشاطهم السياسي تحت طائل الأهواء والإغراءات.
- مراعاة التدرج والمرحلية في الممارسة السياسية، فالحقوق لا تؤخذ دفعة واحدة بل بالمصابرة، وتحكيم العقل والمنطق لا الانجرار وراء العواطف فقط.
- الدعوة إلى قراءة أجدديات السياسة من كتاب الواقع بعد قراءتها من الكتب خصوصا في ظروف مثل ظروف الجزائر، لأن الواقع هو ما يثبت أحقية الرؤى السياسية ويعرّي حقيقتها. وفضح الممارسات السياسية الاستعمارية.
- ربط السياسة بالعلم والأخلاق، فالعلم هو الذي يسلح الممارسة السياسية بأدواتها، فيقف حاجزا أمام الاستغلال، والأخلاق هي التي تحمي الممارسة السياسية وتبقيها في معناها العالي.

ثانيا: التربية و الثقافة.

للثقافة صلتها الوطيدة بالتربية، ولا تقتصر تلك الصلة على حقبة زمنية معينة، إذ تعود أصولها إلى الماضي ولا زالت مستمرة إلى الحاضر من خلال الترابط الوثيق بين وظيفتي التثقيف والتربية. ومن خلال المنظور التربوي للإبراهيمي تبرز الإشارة إلى أهمية الثقافة والمثقفين ودورهم التربوي والإصلاحي، من خلال نظرتهم لوظيفة المثقفين وواجباتهم اتجاه أمتهم، وتدخّل هاته الواجبات ضمن السياق التربوي بصفة عامة، دون الخوض

في مشكلة تحديد العلاقة بين التربية والثقافة، من منطلق أن التربية التي يؤسس لها الإبراهيمي ترتبط بالثقافة الإسلامية والعربية. ومن خلال منظوره يمكن تحديد مفهومه للمثقف وواجباته التربوية من خلال الوظيفة التي ينبغي أن يقوم بها، والموقع الذي احتله المثقف في رؤية الإبراهيمي مقارنة بموقع مثقفي الراهن وراهن الثقافة العربية و الإسلامية اليوم.

1. مفهوم الثقافة و المثقف:

يعدّ مفهوم الثقافة من المفاهيم الشائكة والمعقدة، إذ عملت مختلف الفئات الثقافية بمختلف توجهاتها وتخصصاتها على وضع تعريفات وحدود لها، وتعددت مفاهيمها على حسب اللغات أيضا فتظهر مادة ثقّف في اللغة العربية في جانبين: أولهما حسّي في الأشياء الجامدة كالرمح و السيف، فقد استعمل العرب ثقّف الرمح بمعنى قوم اعوجاجه. واشتقوا الثقافة كمهنة للعمل بالسيف وسموا صاحبها بالثقاف. واشتق العرب الثّقاف وهي آلة يقوّم بها الرماح الشيء المعوج. أما المعنى الثاني فهو: معنى ذهني يفيد الذكاء والفطنة وسرعة التعلم، فقبل غلام تُقّف أي ذو فطنة وذكاء.⁽¹⁾ أما في اللغات الأجنبية فهي ترجمة للكلمة الفرنسية (Intellectuel) مشتق من (Intellect) بمعنى العقل أو الفكر. وبالتالي فهو يدلّ عندما يستعمل وصفا لشيء على انتماء وارتباط هذا الشيء بالعقل كملكة للمعرفة.⁽²⁾

والثقافة في الإصطلاح العربي وغيره تفيد معنى ما يكتسبه الإنسان من ضروب المعرفة النظرية والخبرة العملية التي تحدد طريقة التفكير، ومواقفه من مختلف طرق الحياة من أي جهة حصلت تلك المعرفة وتلك الخبرة، سواء أكانت من البيئة والمحيط والمدرسة والمهنة أم من طرق أخرى غيرها. والثقافة في اللغات الأجنبية (الفرنسية والانجليزية والألمانية) يعبر عنها بلفظة (Culture) وتفيد معنى الزراعة والاستنبات، وقد تطور معناها لتشمل المكاسب العقلية والأدبية والدوقية، وقد غدت هذه الكلمة تطلق على أحوال المجموعات الإنسانية من الأمم والشعوب، وعلى عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات، عاكسة كل مرحلة من مراحل التقدم الحضاري.⁽³⁾ ومنه فكلمة وفكرة الثقافة قد مرّت بصيرورة مفاهيمية أدت بها إلى اكتساب العديد من المعاني من خلال السياقات الاجتماعية والفكرية والسياسية المختلفة التي طرحت من

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مج1، ص492.

(2) - محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية- محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1995، ص21.

(3) - عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1979، ص27-30.

خلالها، منتقلة في مفهومها من فلاحه الأرض إلى ثقافة الفكر، لتقترن بمعاني (التقدم، التطور، التربية العقل...) فترتبط الثقافة بذلك بجملة المنجزات الفنية والفكرية والأخلاقية التي تكوّن تراث أمة ما.⁽¹⁾

كما تمثل الثقافة ذلك النسيج الكلي المعقد من الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد وأساليب التفكير والعمل وأنماط السلوك وكل ما ينبنى عليها من تجديرات ووسائل، وثقافة الأمة تتسع لكل ما أبدعته عبقريتها خلال مراحل التاريخ منذ بدأت تعيش كأمة متحضرة، فالثقافة بذلك تتضمن عناصر معنوية تتمثل في اللغة والفنون والعلوم والآداب والنظم والقوانين والعادات والأخلاق. أما العناصر المادية تتضمن كل مرافق الحضارة المادية التي يستعملها أفراد المجتمع كالمواصلات والمعامل وكل ما تزخر به الحضارة في كافة مجالات الحياة المادية.⁽²⁾

ويختلف مفهوم المثقف هو الآخر باختلاف الباحثين والمصطلحين. فبالنسبة إلى «أنطونيو غرامشي» «Antonio Gramsci» الذي ارتبط المصطلح به كمنظر أول له، فإنه يربطه بالجانب الفكري وصناعة المعرفة والمساهمة في بناء المجتمع تغييره وتطويره. "فكل من يعمل اليوم بأي حقل مرتبط بإنتاج المعرفة أو بنشرها هو مثقف."⁽³⁾ فيمكن لجميع الناس من هذا المنطلق أن يكونوا مثقفين من خلال تعدّد معارفهم بتعدّد المجالات المعرفية غير أنه يبيّن أنه ليس بإمكانهم أداء وظيفة المثقف.

إذ أن المثقف الحقيقي يظهر من خلال الدور القيادي و الإصلاححي الذي يقوم به عاملا على التغيير، واقفا أمام كل سلطة مهيمنة سواء كانت سلطة سياسية أو دينية أو فكرية، و هذا ما بينه غرامشي أيضا في كتابه «دفاتر السجن» "بإمكان المرء القول أن كل الناس مثقفون لكن ليس لهم كلهم أن يؤدوا وظيفة المثقف في المجتمع."⁽⁴⁾ كما يقسم المثقفين بدوره إلى مثقفين تقليديين يقومون بنفس الأعمال في حياتهم مع الأجيال كالمعلمين، رجال الدين... وإلى مثقفين عضويين، وهم أعضاء فاعلون في المجتمع يشاركون فيه بالنشاط والنضال والعمل على التغيير. فهم دائمو التنقل، دائمو التشكل، على عكس المعلمين و الكهنة، الذين يبدوون

(1) - دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ت منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، (ينظر: الصيرورة الاجتماعية لكلمة (ثقافة) ولفكرتها)، ص15-27.

(2) - تركي رابح عامرة، التربية والشخصية الوطنية، المجلة الجزائرية للتربية، وزارة التربية الوطنية، الجزائر، ع1، س1، نوفمبر 1994، ص11.

(3) - إدوارد سعيد، صور المثقف، ت غسان غصن، دار النهار، بيروت، 1996، ص26.

(4) - المرجع نفسه، ص21.

كأنهم باقون في أماكنهم، يقومون بالعمل ذاته عاما بعد عام، وجيلاً بعد جيل.⁽¹⁾ ويطرح «محمد عابد الجابري» في كتابه «المتقفون في الحضارة العربية» عدة تساؤلات حول مسألة المثقف، مقدماً تعريفات متباينة باختلاف الحضارات والثقافات من الحضارة الإسلامية إلى الحضارة الغربية، وتختلف من الخطاب العربي القديم إلى المعاصر، فهو مثلاً: ناقد اجتماعي في جوهره، وهو الشخص الذي همه أن يحدد ويحلل ويعمل من خلال ذلك على المساهمة في تجاوز العوائق التي تقف أمام بلوغ نظام اجتماعي أفضل، أكثر إنسانية وأكثر عقلانية. فيصبح بذلك ضمير المجتمع، كما يعممه على كل الذين يشتغلون بالثقافة إبداعاً وتوزيعاً وتنشيطاً.⁽²⁾

وفي الوسط الثقافي الجزائري نجد بعض الباحثين والمفكرين تناولوا مشكلة المثقف والثقافة. أهمهم المفكر «مالك بن نبي» ويظهر ذلك جلياً في مشكلة الثقافة، مشكلة الأفكار وشروط النهضة ففي هذا الأخير يقدم تعريفاً عملياً للثقافة على أنها: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرسائل أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته."⁽³⁾

2. المثقف عند البشير الإبراهيمي: المفهوم و الوظيفة.

انطلاقاً من نظرية الإنسان ابن بيئته فإن رؤية الإمام الإبراهيمي للمثقف ودوره لا بد وأنها تأثرت بما ميز الجزائر من استعمار ومن مخلفاته على الشعب والوطن، إضافة إلى مختلف الثورات ضد المستعمر، وكذا تلك الإصلاحات والحركات النهضوية والتحريرية التي كان تشهدها أقطار البلاد العربية آنذاك، وكذا النشأة التربوية والفكرية للشيخ الإبراهيمي. وإنَّ تَطَرَّقَ الإبراهيمي للمثقف من حيث المفهوم والأدوار لدليل على الوزن والوظيفة الحساسة التي لا بد أن يشغلها المثقفون في مجتمعاتهم أمام مجامع مفتوحة لمختلف المؤثرات الداخلية والخارجية على الأمة. وأمام حاضر نعيشه اليوم قد يعتبر فيه المثقف إنساناً خارج القانون إذا كان مزعجاً للسلطة أو مارس وظيفته النقدية و الإصلاحية.

(1) - المرجع السابق، ص 22.

(2) - محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، ص 24، 25.

(3) - مالك بن نبي، شروط النهضة، ت عبد الصبور شهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1986، ص 83.

2. 1. مفهوم المثقف والثقافة عند البشير الإبراهيمي:

يورد الإبراهيمي التأصيل اللغوي لكلمة مثقف وهي تتفق مع ما تم الإشارة إليه في التأصيل اللغوي للمصطلح، ويضيف أن مصطلح المثقف لم يكن مستعملا لدى العرب بل كانوا يقولون في مثله رجل لقن وزكن والثقافة الزكانة و اللقانة. أما اصطلاحا: فالمثقف عند الإبراهيمي هو: "الرجل المهذب، المستنير بالفكر، الجوهر العقل، المستقل الفكر في الحكم على الأشياء، الجاري في تفكيره على قواعد المنطق لا على أساس التخريف، المطلع على ما يمكن بشؤون العالم وتاريخه، الملم بجانب من معارف عصره." (1) فتحديده لمفهوم المثقف يرتبط بشروط وخصوصيات، فالمثقف الحق إذن لا بد له من أسس ومقومات تميزه. فالذات المثقفة هي ذات أخلاقية في كيانها تحت رقابة ضميرها قبل الآخر. تحت رقابة الضمير الفردي ووازع الله في الإنسان، وقبل ذلك فهي تحتكم إلى الحكم الرباني المطلع على ما تخفي الصدور، وهذا ما يحكم سلوكياتها ويوجهه ويحدد دور المثقف ووظيفته، مُوجِّهاً أيضا بملكة العقل. فيكون ذو فكر مؤسس ومحكم بمنطق العقل لا بمنطق الأهواء والمغريات متميزا باستقلالية التفكير.

فإن كان هذا ما يميز الجوهر الذاتي للمثقف وجب أن لا يكون منكبا على ذاته في سياج دوغمائي، لأنه لا يستنير الفكر ولا يستقل إلا إذا كان متفتحا على العالم و مجرياته تاريخا و معرفة. كأساس قويم يعتد به المثقفون. إضافة إلى المعرفة بمجريات التاريخ فمن لا يعرف تاريخه يظل في العتمة. مع ضرورة الإمام بأهم معارف العصر حتى يبقى دائم الاتصال بها وإن قل اتصاله، لأن المعارف في سيورورة و نماء. "فرب شيء جديد في مرحلة تاريخية معينة يصبح قديما في مرحلة تاريخية أخرى." (2) فما كان مجهولا قبل قليل قد يصبح معلوما بعد قليل، وما كان مستعصيا على الحل قبل أيام قد يصبح محلولا بعد أيام. هذا ما لا يغفله الإبراهيمي فالحوادث والمعارف تدخل في تكوين العالم تكوينا جديدا. "وإن أول ما تفعله الحوادث طبع الأفكار والعقليات طبعاً جديدا." (3)

فالذات المثقفة تتأسس وتقوم على منطلقات تربوية، على ملكة التفكير والمعرفة. هذا ما تلخصه رؤيته للثقافة بأنها "حسن التربية، وصحة الإدراك والتقدير للأشياء، وسلامة التفكير والاستنتاج العقلي واستقامة

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص125.

(2) - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص37.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص123.

السلوك في معاملة الناس." (1) فالإبراهيمي يعطي الأسبقية للجانب الأخلاقي قبل الجانب المعرفي. ليكون بذلك رقيب ذاته، ولعلّ هذه ميزة أساسية وجوهرية في رؤيته للذات المثقفة وكانت المنطلق لديه. فيكون التكوين الأخلاقي للمثقف متقدما على التكوين المعرفي حتى يوجهه ويضبطه. "لأن الأخلاق إذا استقامت فتفتحت البصائر إلى الوعي وتهيأت الشواعر لليقظة وانبعثت القوى للنهضة، فكان الوعي بصيرا وكانت اليقظة عامة وكانت النهضة شاملة وكانت الحياة لذلك كله كاملة." (2)

أما مفهوم الثقافة عند الإبراهيمي فيبرزها في مدلولها العربي مبينا أن مفهومها يتسع ويضيق نظرا لتعدد المجالات التي يرتبط بها، إذ ترتبط بالأخلاق والسلوكيات والمعارف، وتتعدد بالتعدد الديني واللغوي والجنسي "تتسع الثقافة بوفرة الحظ من الخلاق وكثرة المعلومات وقد تضيق بقلتها وقد تنقسم باعتبارات جنسية أو لغوية أو دينية. فيقال الثقافة العربية أو الفرنسية ويقال الثقافة الإسلامية أو المسيحية." (3) ويبين الأسس التي من خلالها يتحدد معنى الثقافة جامعا بين الالتزام الأخلاقي وحسن السلوك، بين التربية وصحة الإدراك بسلامة التفكير والعقل: "أن أساس الثقافة هو حسن التربية، وصحة الإدراك والتقدير للأشياء، وسلامة التفكير والاستنتاج العقلي واستقامة السلوك في معاملة الناس، ويرمي كذلك إلى اعتبار الأخلاق الفاضلة قبل كثرة المعلومات." (4) ويتقارب هذا التعريف إلى حدّ بعيد مع ما قدّمه مالك بن نبي عندما ركز كلٌّ منهما على الأخلاق والعلم والعمل، غير أن مالك بن نبي يضيف عنصر الجمال فقد خلّص إلى أن "الثقافة هي التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي: الأخلاق، والجمال، والمنطق العملي، والصناعة." (5)

2.2. المثقف شروطه و واجباته التربوية:

إذا كان المثقف من طلائع الأمة وقادتها، وصاحب إبداع فكري وتغيير اجتماعي، وإن كان المثقفون هم الحاملون لرسالة التحضر والحفاظ على الهوية من خلال صوتهم الصادح في المجتمع. لا بد لهم من واجبات وأدوار فعالة تشملها مهامهم. وبالعودة إلى عصر الإبراهيمي وواقعه إبان فترة الاستعمار الفرنسي التي عاشتها الجزائر، فلا شك أن ذلك الواقع الأليم كان له أثره في تحديد الإبراهيمي لدور المثقف و واجباته اتجاه مجتمعه

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 126.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 220.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص 125.

(4) - المصدر نفسه، ج2، ص 125.

(5) - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 67.

وأتمته. مع أنه لا زلنا نعايش الكثير من مخلفات الاستعمار فكريا، سياسيا، ثقافيا، اقتصاديا... وبذلك يحدد الإبراهيمي عدة واجبات وشروط للمثقف نركز على وظيفتين مهمتين وهما: إصلاح الذات و إصلاح المجتمع.

إصلاح الذات:

أول وظيفة ودور للمثقف «إصلاح ذاته» بأن ينطلق من شخصه وذاته عاملا على إصلاحها والرقى بها. فعلى المثقف أن يكون عارفا بذاته وأن يمثل أسوة وأ نموذجاً يُقتدى به من خلال عمله على إصلاح ذاته فكريا وسلوكيا وتغييرها نحو الأفضل. "إن واجب المثقفين إصلاح أنفسهم قبل كل شيء، كل واحد في حد ذاته إذ لا يصلح غيره من لم يصلح نفسه." (1) فصالح الفرد هو صلاح للمجتمع، الذي منطلقه صلاح ذوات المثقفين باعتبارهم المرجعية التي يرجع إليها أفراد المجتمع. أخذنا الإمام الإبراهيمي مرجعيته في التغيير والإصلاح من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (2) فإصلاح الذات في دعوة الشيخ إلى المصالحة مع الذات التي تأخذ عدة دلالات فتعني الوحدة الوطنية والاتحاد، وهي مصالحة الشعب مع أصوله الحضارية من عقيدة وثقافة وانتماء، فما المصالحة إلا تجاوز التقاطع والشتات وتحقيق الوحدة المنشودة. (3) فاشتراط كمبدأ للمصالحة العامة المصالحة مع الذات التي يقودها المثقفون.

ويشترط في ذلك التأهيل الثقافي والاستزادة المعرفية، بأن لا يحمل المثقف من هذه الصفة إلا الاسم، ومن وظيفته إلا الرسم، ويتجلى إصلاح الذات من خلال الرقي بها وإكمال نقائصها، علميا وأخلاقيا، والإيمان بالواجب الموكل إلى كل مثقف وترجمته عمليا في دنيا الواقع، فينطبق مفهوم المثقف عليهم أولا حتى يتسنى لهم القيام بتثقيف الآخر وتكريس ثقافة التقاف بين الأنا والآخر. ما عبّر عنه الشيخ الإبراهيمي مرشدا للمثقفين إلى ضرورة: "إكمال نقائصهم العلمية، واستكمال مؤهلاتهم التثقيفية، حتى يصلحوا لتثقيف غيرهم، وإذا كان المثقفون قبل اليوم في حالة إهمال فحالتهم إذا هيؤوا أنفسهم لتأدية الواجب تستلزم اهتماما آخر واستعدادا جديدا." (4) فدور المثقف يقتضي استعدادا وإعدادا ذاتيا فلا بد أن يدرك كل مثقف لدوره وما

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص128.

(2) - سورة الرعد، الآية 11.

(3) - عبد الرزاق قسوم، الإصلاح والمصالحة في فكر الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الملتقى الدولي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، 23/22 ماي 2005، الجزائر، ط1، 2006، ص372، 373.

(4) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص128.

يستلزمه. فإذا أصح المثقف ذاته يتوجه إلى الآخر من خلال إصلاح اجتماعي يتجه به إلى أفراد المجتمع ومؤسساته.

يؤكد الشيخ الإبراهيمي على ضرورة العلم وتحصيله لدى المثقفين، فهو ما يبيني العقول ويوسع المدارك، هذا ما يظهر في وصيته للشباب طلبة العلم، فهم بمثابة - مثقفي المستقبل - "إنكم لا تضطلعون بهذه الواجبات إلا إذا انقطعتم لطلب العلم، وتبتلتم إليه تبتيلاً، وأنفقتم الدقائق والساعات في تحصيله، وعكفتم على أخذه من أفواه الرجال وبطون الكتب، واستترتم كنوزه بالبحث والمطالعة، وكثرة المناظرة والمراجعة، ووصلتم في طلبه سواد الليل ببياض النهار."⁽¹⁾

إصلاح المجتمع:

بعد الوظيفة الأولى الموجهة نحو الذات وإصلاحها، يحدد الإبراهيمي الدور الآخر للمثقفين ألا وهو «إصلاح المجتمع» بعد أن تستكمل الذات المثقفة إصلاح ذاتها، تغدوا مؤهلة لارتقاء وظيفي يتجه نحو إصلاح الآخر وتوجيهه المتمثل في المجتمع بشرائحه المختلفة. "ثاني واجب هو إصلاح مجتمعهم، كل طائفة مع كل طائفة، بالتعارف أولاً وبالتقارب في الأفكار ثانياً."⁽²⁾ فلكي يرتقي المجتمع اشترط التفاهم والاتفاق في التوجهات، مقارنة الأفكار بعضها مع بعض، والاتفاق حول نموذج منشود يهدف المثقفون على إيجاد حتى وإن اختلفت المشارب والتوجهات. إذ يشترط في عملية الإصلاح أن تكون الرؤية موحدة فتتوحد الأجيال وفئات المجتمع فتقوى شوكتهم، ويتوحد النشؤ الجديد في مشارب معارفه وأفكاره وتطلعاته، فتتكون بذلك فلسفته ورؤيته للحياة أو تصحح بتعبير الإبراهيمي. حينما يرشد المعلمين والمثقفين إلى ضرورة "توحيد النشئ الجديد في أفكاره ومشاربه، وضبط نوازعه المضطربة، وتصحيح نظريته إلى الحياة، ونقله من ذلك المضطرب الفكري الضيق الذي وضعه فيه مجتمعه، إلى مضطرب أوسع منه دائرة، وأرحب أفقا، وأصح أساسا، فإذا تم ذلك وانتهى إلى مداه طمعنا أن تخرج لنا المدرسة جيلا متلائم الأذواق، متحد المشارب، مضبوط النزعات، ينظر إلى الحياة - كما هي - نظرة واحدة، ويسعى في طلبها بإرادة متحدة، يعمل لمصلحة الدين والوطن بقوة واحدة، في اتجاه واحد."⁽³⁾ وهنا تبرز ضرورة العامل الروحي والنفسي في العمل الإصلاحي للمثقف بحيث

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 202.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 128.

(3) - المصدر نفسه، ج3، ص 275.

ينبغي عليه الاستثمار فيه حتى يتيسر عمله إذ يقول: "نحن أحوج إلى صلة القلوب بالقلوب، وتأثر العقول بالعقول، واستقاء الأرواح من الأرواح." (1)

يؤكد الشيخ الإبراهيمي على ضرورة الإصلاح وتكامله بين الذات والفرد والمجتمع، إذ يبدأ من الذات بمختلف جوانبها النفسية والاجتماعية والإنسانية وصولاً إلى الآخر المغاير وهو ما يبينه الأستاذ عبد الرزاق قسوم عن الإصلاح لدى الإبراهيمي. "فالإصلاح كما هو مبثوث في كتابات الإبراهيمي ينطلق من العناية بالذات إلى أدق وأعم مدلولاتها الإنسانية، والاجتماعية والوطنية، والإسلامية ليمتد الصلح إلى بين المتنازعين، قبائل و أحزاباً وأوطاناً، ليصل إلى المصالحة مع الذات الحضارية، سياسياً، ثقافياً وعلمياً." (2) وهذا الإصلاح لا يتم إلا بشروط وأدوار يتم أداؤها و يمكن إجمال بعضها في النقاط الآتية:

- التعارف بين مختلف التوجهات والطوائف في المجتمع أو في الأمة، لأن من شأن ذلك إزالة التعصبات وزيادة الروابط، خصوصاً الروابط القائمة على البعد الروحي و النفسي.
- التقارب في الأفكار: فبعد التعارف والتقارب بين الطوائف والتوجهات يتوجب الانتقال إلى مستوى الأفكار فتتلاقح و تنير بعضها البعض. مما ييسر الاجتماع و يتم تجاوز سيادة الفكر الأحادي الذي أدى إلى إقصاء الآخر وأفكاره.
- التفاهم في إدراك المعنى الحقيقي للحياة وتصحيح وجهات النظر إليها خصوصاً لدى الشباب. فيحدد الهدف منها كمقدمة لإنجاح المشروع الحضاري والنهضة بالوطن، وبناء الإنسان الذي يستطيع تحمل دوره التاريخي المنوط إليه.
- تصحيح المقياس الذي تقاس به درجة الثقافة. ويؤكد الإبراهيمي هنا على تجاوز التباعد والازدواجية بين المثقفين، خصوصاً بين المثقفين ثقافة عربية، والمثقفون ثقافة أوروبية. وذلك لغلق الباب أمام أشباه المثقفين أو المتطفلين كما يسميهم. لأنهم سيصيبون الناس برداءة تفكيرهم فيقومون بالهدم بدل البناء. "فإن التباعد بين المثقفين وخصوصاً بين أهل الثقافة العربية والثقافة الأوروبية، أدى إلى فتح الباب وكثرة المتطفلين.... فأمثال هؤلاء ما دخلوا في عمل إلا أفسدوه لنقص معلوماتهم أو فساد أخلاقهم وقصر أنظارهم وجهلهم بالتطبيق." (3)

(1) - المصدر السابق، ج3، ص279.

(2) - عبد الرزاق قسوم، الإصلاح والمصالحة في فكر الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص361، 362.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص128.

- التفاعل مع أفراد المجتمع والاندماج بمختلف فئاته. ويكون ذلك بالمشاركة الاجتماعية في مختلف قضايا المجتمع، فيكون المثقف فردا ومواطننا فاعلا ومنفعلا ، لا ذاتا مثقفة منتفية في عالم فردي، أو ذاتا متعالية في برج عاجي. وهنا يبرز منطق العمل وأداء الواجب الوطني الذي تنتظره الأمة من مثقفيها. ويؤكد في هذا السياق على ضرورة نزول المثقف إلى العامة من الناس، عاملا على كسب ثقتهم وتنويرهم، فإذا اكتسبها أمكنه نفعها وإنارتها، رافعا الجهل عن الأفراد لا معرضا عنهم ويتحقق ذلك. "بتنزل المثقف في مخاطبة العامي واستدراجه في كل اجتماع إلى بيان ما يجمله أو يغلط فيه، ويتخير لذلك المناسبات وأوقات الفراغ، وقد شاهدنا المثقفين إذا اجتمعوا بعوام الأمة وسمعوا سخافاتهم يقابلونهم بالضحك أو بالاحتقار، وهذه نقطة من نقط تضييع الواجب حيث يجب أدائه."⁽¹⁾ إذ يعمل المثقف على انتهاز واستثمار الوقت والمكان المناسبين لوظيفته التثقيفية، ما ينعكس إيجابا في عملية إعداد أفراد متحضرين.
- حفظ التوازن والدفاع عن الأمة وقيادتها. إذ من أعظم أدوار المثقفين دفع الأمة إلى الركب الحضاري بغير ذوبان في الآخر، والخروج من دياجير الظلامية التي أغرقهم فيها المستعمر. والمحافظة على مقومات الشخصية الوطنية دون تزمّت وانغلاق، أي لا يجتر المواقف فقط كالذي يدور على الرحى ولا يتقدم. وتمثل مساعي الإبراهيمي وجهود علماء جمعية العلماء المسلمين جهدا كبيرا ومثالا عن المثقفين وأدوارهم في إصلاح مجتمعاتهم.

3. نماذج المثقفين عند الإبراهيمي:

إن الأدوار التي حددها البشير الإبراهيمي والمتطرق إليها آنفا تشمل المثقفين الذين يصدق وينطبق عليهم المعنى الحقيقي للمثقف. المثقفون الذين يعكسون معنى المثقف الحق بتعبيره. وقد تساءل الشيخ الإبراهيمي إن كان هذا النموذج موجودا بالمعنى الأحق والكامل للكلمة. لذا يمكن أن نميز بناءً على نظرته للمثقف بين ثلاث نماذج من المثقفين، المتمثلون في: المثقف الحق و المثقف الطفيلي (أشباه المثقفين) والمثقف المنفي وهم على النحو الآتي:

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 130.

3. 1. المثقف الحق:

أول أنموذج للمثقفين لدى الشيخ الإبراهيمي: المثقف الحق، ويقصد به كل مثقف توفرت فيه تلك الشروط التي قدمها في تعريفه له، الجامعة للأبعاد الأخلاقية والعلمية والعقلية، الاحتكام إلى العقل والمنطق، الاستنارة بالمعارف وحوادث التاريخ. فيعمل على التغيير والبناء أمام مختلف العوائق والمطبات المعارضة له خصوصا في واقع يعاني ويلات الاستعمار كواقع الجزائر في عهد الإبراهيمي. فهو مثقف يحمل الجدوية في معالجة الأسقام، ويوسع في آفاق المجتمع، ورؤيته الثابتة والواضحة للعالم وهذا الأنموذج هو ما يميز الأمم الحية. معتبرا إياهم "خيارها وسادتها، وقادتها وحرّاس عزّها ومجدها، تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير، ويقومون لها بواجب القيادة والتدبير... وهم حفظة التوازن في الأمم وهم القومة على الحدود من أن تهدم... وهم الميزان لمعرفة كل إنسان حدّ نفسه يراهم العامي المقصّر فوقه فيتقاصر عن التسامي لما فوق منزلته، ويراهم الطاعني المتحجر عيوننا حارسة فيتراجع عن العبث والاستبداد فإذا كانوا متبوعين فمن حق غيرهم أن يكون تابعا"⁽¹⁾ فيتحدد دور المثقف الحق أو الفاعل كونه يمثل ضميرا خارجيا للأفراد يوجههم ويؤنّبهم كالضمير الداخلي لديهم من خلال التصدي للمفاسد وكل ما هو مرفوض عقلا وشرعا وفيه ضرر للوطن، فدورهم بمثابة العقل المتسامي والناقد الموجه للجسم الممثل في المجتمع، فهم يحتلون واجهة الأمة ويوجهونها.

يتساءل الإبراهيمي عن وجود هذا الأنموذج - المثقف الحق - في الجزائر. "هل فينا مثقفون بالمعنى الصحيح الكامل لهذه الكلمة؟" "يجيب بحق: "الحق أنه يوجد في الأمة الجزائرية اليوم مثقفون على نسبة حالها وعلى حسب حظها من الإقبال على العلم، وعلى مقدار الوسائل التي تهيأت لها في ذلك-ولكن المثقفين منا قليل جدا لا في الكم والعدد، ولا في الكيف والحالة."⁽²⁾ و إن الاستزادة منهم لا تكون "إلا إذا زاد شعور الأمة بالثقيف، وجرت على ما يوافق روح الأمة في دينها وعقائدها الصحيحة وتاريخها ولغتها وجميع مقوماتها، واتحدت الأهواء المتعاكسة واتفقت المشارب المختلفة وصحت نظرتها للحياة وصح اختيارها لطرقها المناسبة لوجودها."⁽³⁾ ولعل تفسير الإبراهيمي لهذا المنظور يتمثل في أن دور المثقفين الفاعلين كان مغيبا، خصوصا فيما

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 126.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 126.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص 126.

يتعلق بالتربية والتعليم والإصلاح. ومن خلال النظر إلى مقارنة الشيخ في مفهومه للثقافة والمثقف، وطبقاها بضوابط المفهوم وحدوده على من يطلق عليهم اليوم (مثقفون) لأتعبنا البحث عن هذه النماذج.⁽¹⁾

3. 2. المثقف الطفيلي.

الصورة الثانية من صور المثقف عند الإبراهيمي تتمثل في « أدعياء الثقافة » أو « أشباه المثقفين » الذين لا تتوفر فيهم شروط المثقف الحق، غير أنهم يدعون ذلك ممارسين طقوسهم وموهمين أنفسهم والناس مستغلين الثغرة بين المثقفين ثقافة عربية والمثقفين ثقافة غربية. عاكسين بذلك صورة المثقف الوهمي. ويقف الإبراهيمي موقفا رافضا لهذه الفئة، أو أن ينتسب هؤلاء إلى زمرة المثقفين قائلا: " أنا من جهتي لا أرضى بحال أن أحشر في زمرة المثقفين كل من يكتب بالعربية الصحيحة مقالة في جريدة ، ولا كل من يستطيع أن يخاطب في مجتمع، وهو مع ذلك عارٍ من الأخلاق أو لا يحسن الضروريات من المعارف العصرية وما أكثر هذا الصنف فينا، وهم يعدون في نظر الناس وفي نظر أنفسهم من المثقفين."⁽²⁾

فالمثقف في نظر الإبراهيمي هو الذي يربط بين منطق الفكر ومنطق العمل، من يجمع بين النظري والعملية، فتوافق سلوكياته وثقافته أعماله فتحكمها الأخلاق الحميدة، فلا علم دون أخلاق. كما لا تعني الثقافة التحكم في الكتابة الصحيحة فقط، وهو ما انتشر في نظر الإبراهيمي لدى بعض كتاب الجرائد، بل ونشهده اليوم في راهنا سواء في الجرائد والمقالات أو بعض الكتب والمؤلفات أين لا تجد مضمونا فكريا جديا إلا نادرا تجد مجرد تلاعبات لفظية، غالبا ما توظف على شكل سفسطة، فضررهم ينعكس في إيهام أنفسهم على أنهم مثقفون قبل إيهام غيرهم.

ويحذر الإبراهيمي من هذه الفئة المثقفة في عملية الإصلاح، فهم النوع الذي يلتقي به الناس بكثرة في حياتهم، يعرفون بسيماهم المنسوبة، ومن لحن قولهم ولغتهم، يدوسون على كل مبدأ في سبيل تحقيق أهدافهم الخسيسة والوصول إلى مصالحهم.⁽³⁾ ويورد الشيخ الإبراهيمي أمثلة عديدة عن هذا النموذج من المثقفين، ففي سياق حديثه عن المثقفين ثقافة عربية والمثقفين ثقافة أوروبية يبرز "أن أمر الدين كله كان موكولا إلى طائفة من

(1) - محمد بو عبد الله، النزعة النقدية عند الإبراهيمي، العلامة محمد البشير الإبراهيمي وآفاق الحداثة-سؤال التنوير- إشراف وتقديم الأستاذ محمد الصادق بلام، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، 2016، ص 318.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 128.

(3) - عبد الرزاق قسوم، الإصلاح و المصالحة في فكر الإمام الإبراهيمي، ص 375.

الفقهاء الجامدين، لا يفهمون من حقائق الدين ولا من أسراره شيئاً، ولا يعلمون من لغته إلا قشوراً، فكانوا يسيئون الظن بالمتقنين ثقافة أوروبية ويحكمون عليهم بالخروج من الدين ويشوهون سمعتهم عند الأمة. يتولد من ذلك في نفوس جمهور الأمة نفور مستحکم منهم وسوء ظن بأعمالهم، وذهب خيرهم في شرهم وحقهم في باطلهم.⁽¹⁾ فيشكلون بذلك خطراً على الأمة من خلال نظرتهم القاصرة، ومعارفهم الناقصة، ويمكن اعتبار بعض الطريقة الفاسدة التي استغلها الاستعمار مثالا على ذلك أين ظهر أثرها السلبي على كثير من فئات المجتمع فأدت بهم إلى موالاة الاستعمار.

3.3. المثقف المنفي.

الصورة الثالثة التي يقدمها الإبراهيمي للمثقف يعبر عنها «بالمثقف المنفي». وتشمل صنف المثقفين الذين قرروا اعتزال الحياة بضمير اختياري رغبة منهم، أو بضمير اضطراري تحت ضغوط معينة. لم يجدوا في الحياة متسعاً لهم فانغلقتوا على ذواتهم مقيمين حاجزاً عليها لا يستطيعون كسره، وفي الحقيقة هم صورة من المثقفين الذين اعتزلت الحياة لأنهم لم يستطيعوا المجابهة. فالتاريخ أخرجهم من حركته إلى هامشه لا فاعلين فيه ولا منفعلين، نستخلص ذلك من وصف الإبراهيمي لهم "طوائف اعتزلت الحياة و ليست هي التي اعتزلت الحياة، هي طوائف منفية من الحياة لا منتفية منها."⁽²⁾

يمثل المثقفون المغيبون لذواتهم ولأدوارهم هذه الصورة للمثقف، فهم الذين لا يوجد لهم أثر فاعل في حياة المجتمع. فنقافتهم حكرٌ على أنفسهم، لم تساهم في عملية الثقاف ولا في إصلاح مجتمعاتهم، ومنه فمآل هؤلاء المثقفين أن تعتزلهم الحياة. فلا أثر لنشاطهم ولا لثقافتهم في الواقع والمجتمع. ولعل واقعنا اليوم يبرز بعضاً من هاته الصور التي تكتفي وتقف موقف المشاهد من الأحداث، بل قد تتجنب المشاهدة غارقة في تأملاتها الذاتية فلا يكاد يكون لها هدف تسعى إليه.

ويمكن إلحاق المثقف المنفي بالمثقف المزيف بحكم تأكيد الشيخ الإبراهيمي على أنهم - طوائف منفية لا منتفية- فكان الحياة اعتزلتهم لأنهم عجزوا عن تحقيق مصالحهم وأهدافهم الذاتية بطرقهم غير المشروعة. وكما يعبر عنهم عبد الرزاق قسوم بأنهم طائفة متسلقة وصولية لا تعترف بالمبادئ. وقد وظف مثال الشيخ

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 127.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 124.

الإبراهيمي عن الذين يسعون إلى النياحة بوسائل سخيصة و أوراق مسروقة.⁽¹⁾ والقاسم المشترك بين الفئتين ضررها بالأمة أكثر من نفعهما لها، واعتمادها على مختلف الوسائل ولو على حساب الوطن بهدف تحقيق غاياتهم الدينية.

4. ازدواجية المثقفين وموقف الإبراهيمي منها:

من واجبات المثقف أن يعيش بروح وطنه ويخدم أمته، فيجدد معارفه على حسب التطور العلمي للمعارف والعلوم والمناهج حتى يساهم في تثقيف مجتمعه وإحداث هبة حضارية فيه. هذا ما يتطلب في نظر الإبراهيمي أن يكون المثقفون فاعلين يجسدون نموذج المثقف الحق في سلوكياتهم، ويتطلب ذلك أيضا توحيد الرؤى بينهم حتى تتكاثف الجهود للنهضة بالوطن لا التشتت والانفصال الذي يكون نتاجه إحداث شرح ثقافي ينعكس سلبا على لحمة المجتمع وبنيته، وهو ما يحدث إن استشرت الصراعات بين الأوجه الثقافية والتحايزات فيما بينها في المجتمع.

يبين الإبراهيمي أن هناك ازدواجية ثقافية تحكم وتحاذب المثقفين في الفترة التي عايشها، تتكون في جانبها الأول من المثقفين ثقافة إسلامية أساسها دين الأمة الإسلام واللسان العربي، وفي جانبها الثاني من المثقفين ثقافة أوروبوية غربية أساسها تمهيش الأديان واللسان الفرنسي. هذا التباين و الازدواجية بين الاتجاهين الثقافيين انعكست سلبا على المجتمع الجزائري بإحداث انقسامات وتناقضات بينهما أحيانا تتغلب على مصلحة الوطن. فيجد الفرد نفسه مشتتا أمام هذه الازدواجية والصراع، خاصة مع تمركز كل اتجاه حول ذاته وادعائه الحقيقة والنظرة الاستشراقية الصائبة، ما قد يؤدي بالفرد إلى انفصام ذاتي، جراء عدم فهم الآخر الموجه له، وبالتالي عدم فهم ذاتي يؤدي إلى انفصال جماعي ثقافي في كيان المجتمع فلا تفيده ثقافتهم. هذا ما انتقده وعابه الإبراهيمي على الاتجاهين مبرزا أخطاءهم وعيوبهم في قوله: "فأكبر عيوب المثقفين بالثقافة الإسلامية جهل مطبق بأحوال العصر ولوازمه، وأكبر عيوب المثقفين بالثقافة الأوروبية جهل فاضح بحقائق الإسلام وأخلاقه وآدابه وتاريخ الأمة وهو مصباحها المضيء، وبلسانها وهو ترجمانها الصادق، ونتج عن اختلاف الثقافتين ما لا يحصى من المضار والمفاسد التي صيرت الثقافة فينا عديمة الفائدة." ⁽²⁾

(1) - عبد الرزاق قسوم، الإصلاح والمصالحة في فكر الإمام الإبراهيمي، ص 375.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 127.

فكل اتجاه منهما يجهل حقيقة الأسس التي ينطلق ويتأسس عليها الاتجاه الآخر، هذا من شأنه أن يقسم المجتمع إلى تيارين متناقضين متصارعين غالباً، ما يؤدي إلى خلخلة البناء الاجتماعي ويؤثر من جهة أخرى على مقومات الشخصية الوطنية، والخوض في صراعات تضرّ الوطن بدل توحيدده وتعرقل العمل على مسابته لتطورات العصر. فليس من أخلاقيات المثقفين إحداث الشرخ في المجتمع. فالحقيقة تتطلب السير وفق أساس واضح، يكون المثقف فيه نبراساً للعقول، محطماً للأوهام، مساهماً في حلحلة مشاكل الواقع، ممثلاً لتوجهات المجتمع. لا أن يصبح عدو مجتمعه وثقافته دون وعي منه. فإذا تحرك المثقفون تحركت الأمة أما إذا استكانوا فالمآل هو السبات. فحركة المجتمع إذن مرتبطة بحركتهم. هذا ما يتبين من قول الإبراهيمي: "فما تزال الأمة في سبات عميق وظلام حالك مادامت لم تعرف صديقها من عدوها، مُصلحها من فاسدها، فإذا أخذت تعرف ذلك وتحسن اختيار رجالها فأبشر بأنها استيقظت من سباتها."⁽¹⁾ ويؤكد الإبراهيمي على أن المخرج لن يكون إلا بالجمع بين المتناقضين والخروج بما هو أصلح للأمة من خلال تجاوز هاته الازدواجية وتغليب مصلحة الوطن.

وقد ساهمت الحركة الإصلاحية بفضل علمائها المدركين لحقيقة الدين ولتقتضيات الحياة والحضارة في تقليص هذه الازدواجية المتناقضة خصوصاً مع الإمام عبد الحميد بن باديس، من خلال اطلاعهم على أسباب التقدم والانحطاط، ومعارفهم العصرية، فأعادوا الاعتبار لكثير ممن أسيء إليهم بحكم ثقافتهم الأوروبية وتغيرت النظرة اتجاههم، "فتولد في الأمة شعور جديد بقيمة المثقفين بالثقافة الأوروبية وبأنهم من أبناء الأمة وأن الواجب الانتفاع من آرائهم والاستفادة من مواهبهم."⁽²⁾ ومن منظور آخر فإن رؤية الشيخ الإبراهيمي تتوافق إلى حد بعيد مع رؤية عبد الله شريط في تساؤله: هل الإزدواجية طريقة ثورية في التعليم؟ مبرزا أن المدرسة التي تستورد نظمها وموادها العلمية وحتى لغتها والرجال الممارسين للتعليم من محيط وآفاق غير محيطها وآفاقها ليست مدرسة ثورية، ولن تغير ذلك المحيط فهي تعودنا الاعتماد على كل شيء مستورد، مؤكداً على الكفاءة فقد كان يفضل لطلبته المراجع الأجنبية في لغتها الأصلية حتى لا يفروا من عناء القراءة باللغة الأجنبية، وبهدف

(1) - محمد ناصر، الشيخ أبو اليقظان ونضال الكلمة، مجلة الثقافة، س4، ع21، جويلية 1974، ص66.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص127.

تجاوز أخطاء الترجمة.⁽¹⁾ ومنه يبين أن "الازدواجية الخطرة هي التي نفرضها، لا حسب الإمكانيات التي تتوفر عليها من المدرسين أو الكتب، بل التي نفرضها كمبدأ وننطلق منها من مسلمة نفسية لا علمية."⁽²⁾

كما يشير الإبراهيمي إلى ازدواجية النظرة إلى مفهوم المثقف بين المنظور الشرقي الإسلامي والمنظور الغربي، فجوهر الاختلاف بينهما يتمثل في عدم التزام المثقف الغربي بالأخلاق. ففي الغرب لا يراعى هذا الجانب الخُلقي، أما في الشرق فالأخلاق هي جوهر الثقافة كلها، أو على الأقل هذا ما ينبغي أن يكون، كما يرى ضرورة تقارب المثقفين وإن اختلفوا لأن ذلك سبيل وضع أرضية تحدّد من هو المثقف وما دوره الذي يضطلع به لإيجاد أرضية عمل مشتركة بهدف إصلاح الأمة.⁽³⁾ وبذلك تتحد صلة الثقافة بالأخلاق كشرط للمثاقفة، ومنه ترتبط الثقافة بالتربية في عديد الجوانب كون التربية من منظور معين هي عملية وممارسة تثقيفية. غير أن الواقع الثقافي اليوم يبرز عديد المثقفين الذين لم تعد الأخلاق مرتبطة بثقافتهم بل أمرا عرضيا عندهم.

هذه بعض المفاهيم والتوجهات التي تبرز رؤية الإمام محمد البشير الإبراهيمي للمثقف، مفهوما وأدوارا رغم عدم الإمام بكل تلك الأدوار لأن المقام لا يسع لذكرها جميعا، ولعمق أفكاره واتساع المنظور الثقافي الذي يشمل عدة مجالات، وما يقتضيه الموضوع من تحليل وأن يوزن بحصافة عقلية ونقد موضوعي. إضافة إلى ذلك الدور والوظيفة ومختلف الأعمال التي ميزت حياة الإمام الإبراهيمي فتجسدت في شخصيته صورة المثقف الأحق. كمثقف جابه المستعمر وعمل على محاربه فكره وعملا. مناديا بضرورة المحافظة على مقومات الشخصية الوطنية من خلال شعار جمعية العلماء الإسلام ديننا و العربية لغتنا و الجزائر وطننا.

5. واجب المثقف بين الإبراهيمي ومثقفي الراهن:

بنظرة عامة لوضع المثقف في الفترة المعاصرة وما يعاينه من تغييب و صراع على مختلف الأصعدة لإسماص صوته، وأداء رسالته، تتراءى لنا قيمة الإمام الإبراهيمي كمثقف حق، مارس أدواره في مختلف الميادين سياسيا، تربويا، تعليميا، اجتماعيا... وقد صرح المؤرخ أبو سعد الله أنه "أصبح من المعروف عند الباحثين والطلبة أن محمد البشير الإبراهيمي من أعيان المثقفين والعرب في القرن العشرين."⁽⁴⁾ ويتجلى ذلك الفرق في الواجب

(1) - عبد الله شريط، نظرية حول سياسة التعليم والتعريب، ص 57-60.

(2) - المرجع نفسه، ص 62.

(3) - محمد بو عبد الله، النزعة النقدية عند الإبراهيمي، العلامة محمد البشير الإبراهيمي وآفاق الحداثة، ص 318، 319.

(4) - أبو القاسم سعد الله، الثقافة التاريخية عند الشيخ الإبراهيمي، مقال بالملتقى الدولي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، ص 115.

والدور بين الإبراهيمي و مثقفي الراهن. فقد قام الشيخ الإبراهيمي بنضال و عمل إصلاحى كبير رفقة ثلة من أمثاله خصوصا في مواجهة الاستعمار. فلم يكن كالمثقف السلطوي الذي أصبح لسانا للسلطة مقابل المنصب، ولا المنفي الذي غاص في غياهب العزلة، بل جسّد مثالا للمثقف الذي استجاب لنداء الوطن و الضمير. ومنه وجب على كل مثقف أن يعمل ويقوم بواجباته من أجل تحقيق معنى المثقف الحق. بهدف النهضة بالمجتمع، خاصة في واقع أصبح يتميز بمختلف الوسائل الكفيلة التي تساعد في ذلك. فمن أسباب التخلف أيضا عدم أداء المثقفين لرسالتهم. هذا ما يؤكدّه أحمد زويل إذ يرى أن التخلف الذي يعانيه العالم العربي ليس مردّه نقص الموارد أو كثرتها، إنما هو عدم وجود نظام علمي متكامل، ولا تتشكل قاعدة المجتمع من العلماء و نوابغ المثقفين والخبراء حيث يبقى إسهامها محدودا.⁽¹⁾

إضافة إلى ذلك لا زال الراهن الثقافي الجزائري يحتكم غالبا إلى تلك الازدواجية الثقافية التي حدّر من مطبّاتها الشيخ الإبراهيمي، بين المثقفين ثقافة عربية إسلامية و المثقفين ثقافة غربية، وقد انتقل صداها للمجتمع فأضحى الكثير من أفراده مغيبى الذات بين نزعتين متعاديتين. وقد ازدادت الازدواجية اتساعا و تأزما بازدياد الاتجاهات و الفوارق الاجتماعية من جهة و متطفي الثقافة من جهة أخرى الذين استثمروا في الوضع، أي أن ذلك الداء الذي شخّصه و عمل على تجاوزه الإبراهيمي لا يزال مستشرياً في الأمة إلى الآن. كمثال على ذلك ما ظهر من مشكلات حول التعريب في الجزائر و قد أشار أبو القاسم سعد الله إلى عدم وجود اتفاق في تطبيق التعريب بين علماء الاجتماع و دعاة القومية، بين تعريب المحيط أو المدرسة أو الإدارة.⁽²⁾

ومنه على مثقف الراهن أن يرتبط بواقعه و بشعبه وثقافته، ويساهم في حل المشكلات التي يواجهها المجتمع، بحيث تكون الحلول متوافقة مع خصائص مجتمعه و مميزات واقعه فيدرك نقائصه، وبناءً على ذلك يبني خططه و مشاريعه، هذا ما بيّنه الإبراهيمي واستخلصه من تجاربه و دراسته لواقع الشعب الجزائري في قوله: "فأزعم أنني جربت و درست، و أنني قرأت هذه الأمة و فهمتها كما أقرأ الكتاب و أفهمه."⁽³⁾ وهو ما يؤكدّه من وجهة أخرى سعيه في الإصلاح و التأسيس لمدرسة و فلسفة تربوية كفيلة بإنشاء أجيال ترتبط بمقومات الشخصية الوطنية و تسائر ركب الحضارة عند تساؤل الإمام حول إمكانية "بناء « فلسفة تعليمية خاصة »

(1) - أحمد زويل، عصر العلم، تقديم نجيب محفوظ، دار الشروق، القاهرة، 2010، ص 192، 193.

(2) - أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج 5، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 156، 157، 158.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 209، 210.

خصوصية الشخص والوضع ! وإمكانية وضع مشروع للتربية، صلب أرضيته، متكافئ في عناصره ومتكامل في وسائله و غاياته.⁽¹⁾

وقد أكد الشيخ محمد الغزالي في معرض حديثه عن تجارب الإبراهيمي أنه "كان يستمد توجيهاته من قلبه، ويصبها في نفوس تلامذته، فيكُون فيالق من أولي الفداء، ويصنع قذائف حية من رجال ينسفون الباطل نسفاً وذلك ما أحسنناه ونحن نستمع إلى الشيخ الإبراهيمي في القاهرة، فعرفنا لما ضاق به الفرنسيون وطاردوه، ومن ثم قررنا الالتفاف به والاستمداد منه."⁽²⁾ فعلى مثقفي الراهن إذن أن ينهلوا من تجارب الشخصيات التاريخية الناجحة لدينا، ولا شك أن الإبراهيمي من خلال آثاره يمثل كتاباً من كتب الواقع، لم يتم استقصاء جميع صفحاته الخالدة، وعلى المثقفين في الفترة المعاصرة أن يستلهموا ويربطوا بين وظيفتهم الثقافية والحضارية وبين الشروط الدينية والأخلاقية والعلمية والمجاهمة السياسية وكل ما أكد عليه الشيخ الإبراهيمي في رسالته للمثقفين مع ضرورة توجيه أفراد المجتمع والأخذ بأيديهم للأصلح.

ونستخلص من علاقة التربية والثقافة أن المثقف يمثل حجر الرchy في أي مجتمع باختلاف الزمان والمكان، فوجوده جدّ ضروري خاصة في الفترة الراهنة، فنحن بأمس الحاجة إلى المثقف الحق بمصطلح الشيخ الإبراهيمي. إذ يمثل دوراً تربوياً وثقافياً. ومنه فدور المثقف ليس بالدور الهين، هذا ما تثبتته تلك المحاولات لنفيه وتغييبه، إجباراً وقسراً أو اختياراً، نظراً لدوره التربوي ومساهمته في توسيع الفاهمة البشرية للمجتمع ودائرة تفكيرها، والمساهمة في وضع الحقائق في أماكنها وتحديد خصوصيات للمثقفين نظراً للتطور الذي تشهده مجالات الحياة.

وأهم ما يمكن استخلاصه من رؤية الشيخ الإبراهيمي إلى الثقافة والتربية ما يلي:

- دعوة الإبراهيمي إلى ضرورة تجاوز كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الانشقاق والتناقض بين المثقفين فينعكس سلباً على المجتمع.
- منطلق الإصلاح الثقافي والاجتماعي التربية، وعملية الإصلاح تبدأ من الذات وتنتهي إلى المجتمع، وأن يسعى كل مثقف إلى تجسيد معنى المثقف الحق عملياً.

(1) - علي زيكي، فلسفة التعليم عند الشيخ البشير الإبراهيمي، محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ط2، دار الأمة، الجزائر، 2012، ص324.

(2) - محمد الغزالي، مع البشير الإبراهيمي في القاهرة، محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، دار الأمة، ط2، 2012، ص96.

- ضرورة اقتحام المثقفين لمجالات الحياة الراهنة، خصوصا المجال السياسي، التنظير التربوي... فإذا كان المثقفون هم ضمير المجتمع الحي، فالواجب عليهم بأن يقوموا بإحياء المجتمع والسمو به، فإن تم تحطيم العديد من الأغلال قديما فلا بد أن تتم مواصلة المسيرة في راهننا.

ثالثا: التربية مسار إلى الإنسانية.

لا تنفك التربية تعمل على تنمية البعد الإنساني لدى الإنسان، فهي ما يجعل الإنسان إنسانا، ما يحدّد أن التربية مسار نحو تحقيق إنسانية الإنسانية، وما يبيّن ذلك أن تفكيك الخطاب الإبراهيمي بمختلف دلالاته يبرز مدى التأسيس لفكر إنساني عالمي منطلقه الدّين الإسلامي وإحداث ثورة فكرية سعى من خلالها إلى تحرير عقل المواطن الجزائري والمسلم عموما. إذ يؤسس العلامة البشير الإبراهيمي مسارا ثوريا، فكريا وإنسانيا، منطلقه تحرير العقل الإنساني من الآخر كنفيس لا كوسيط، بالتأسيس لعيش مشترك بدل صراع هويّاتي من خلال التأكيد على خصوصية الهوية لا مسحها، بإصلاح ينطلق من العناية بالذات في أدق وأعم مدلولاتها الإنسانية والأخلاقية والوطنية ليمتد ويصل إلى المصالحة مع الذات الحضارية، سياسيا، ثقافيا وعلميا، مؤكدا على البعد الإنساني من منطلق أخلاقي، ديني وعقلي، مشكلا بذلك المنظور التربوي الإبراهيمي تجربة تثقيفية ذات مدلول ومقاربة إنسانية علمية.

والإنسانية التي يعنيها الإبراهيمي ليست بذلك المعنى الذي تدل عليه النزعة الإنسانية بأوروبا «الهيومانيزم» «Humanisme»، وإن اشتركت معها في التأكيد على الكثير من القيم الإنسانية، فالهيومانيزم كنزعة إنسانية رؤية فلسفية تمثل ثورة فكرية شاملة على المنظومات الفكرية التقليدية السائدة، والتأكيد على طبيعة الإنسان بما يتضمنه جوهره من حرية وإرادة وقدرة على تحديد المصير.⁽¹⁾ فإن أكد الإبراهيمي على قيم الحرية والعقل والثورة على كثير من الممارسات التقليدية، فرويته تنطلق وتأخذ بالدّين والإسلام كأساس نحو تحقيق الماهية الإنسانية في حين ثارت النزعات والفلسفات الإنسانية بأوروبا على الكثير من القيم الدّينية بدعوى أنّها تقيد الإنسان بل وقد تبنّت العبت أحيانا بدعوى الحرية.

ومنه تتضح الإنسانية عند الإبراهيمي كجملة من الفضائل والقيم الأخلاقية التي تليق بالإنسان ككائن أخلاقي دون تمييز أو إقصاء عرقي أو ديني أو جنسي، لذلك يعتبر الإنسانية على أنّها: البيت العالمي الذي

(1) - علي أسعد وطفة، التربية والحدأة في الوطن العربي، رهنات الحدأة التربوية في عصر متغير، مجلس النشر العلمي لجامعة الكويت، الكويت، 1، 2013، ص 117، 118.

يحتضن جميع الناس وفق مبدأ التآخي، فيأوي إليها المظلوم والمهضوم، تحتضن الفضيلة وترفض الرذيلة. إن الإنسانية في نظره هي: " تلك الأمّ الرؤوم التي لا تحابي واحدا من أبنائها ولا تميّز بين بارّ منهم وفاجر، ولا تفرّق بين مؤمن منهم وكافر."⁽¹⁾ ويقترب في هذا من رؤية الإمام عبد الحميد بن باديس في أبيات له ألقاها في احتفالية جمعية التربية والتعليم الإسلامية بمناسبة المولد النبوي الشريف، مما يقول فيها:

قومي هم وبُنُو الإنسان كلّهم ... عشيرتي، وهدى الإسلام مطلبي.⁽²⁾

ومنه لم يغفل البشير الإبراهيمي في عمله الإصلاحية وتصوره التربوي البعد الإنساني، والعلاقة مع الآخر، فإن تضمنت رؤيته السياسية التربوية نظرة عالمية، فنظرته التربوية تتضمن مدلولاً إنسانياً يستقيه الإبراهيمي من مرجعيته الإسلامية.

1. الإنسانية في الإسلام و موقعها الراهن من منظور إبراهيمي.

تحدد الرسالة الإنسانية للإسلام في مجالات عديدة برزت عبر المسار التاريخي للإسلام، بداية من المعالم التي أرساها القرآن الكريم والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وتجلّت في كثير من المواقف الإنسانية في الأثر. وتتجلى الأبعاد الإنسانية في التربية الإبراهيمية من هذا المنطلق الإسلامي. إذ يرتسم المسار التربوي الإنساني الذي خطّه الإبراهيمي انطلاقاً من الأساس الديني للتربية، من منطلق أن الإسلام دين الإنسانية جمعاء، بفضل ما قدّمه للإنسانية كلّها، حينما وُقّق و أُلّف بين الأضداد التي لم تستطع الفلسفات الإنسانية التوفيق بينها، إلا من منطلق ديني، موفقاً بين الرّوح والجسد وبين قوى النفس الإنسانية ونزعاتها، فالإسلام "«دين التحرير العام»... حرّر الإسلام العقل وجميع القوى التابعة له في النفس البشرية، والعقل هو القوة المميزة للمتضادات والمتناقضات التي بنى عليها هذا العالم، كالسلاح والفساد، الخير والشر والنفع والضرر لذلك جعله الله مناطاً للتكاليف الدينية والدينيوية، وقد يطرأ ما يطرأ على الموازين المادية من الاختلال فيتعطل أو ينعكس إدراكه، والإسلام يعلو بتقدير العقل والفكر إلى أعلى درجة، ويقرّ أن إدراك الحقائق العليا في الدين والكون إنما هو حظّ العقول الراجحة والأفكار المسددة، وأن الأفكار المريضة والأفكار العقيمة تنزل بصاحبها إلى الحيوانية."⁽³⁾

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 62.

(2) - عبد الرحمان شيبان، من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 62.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص357، 358.

إن الدين الإسلامي هو دين الإنسانية، وحاضنها للإسلام "في حقيقته الأصلية مجمع للفضائل الإنسانية."⁽¹⁾ فالفضائل ومكارم الأخلاق التي أقرها، والحلول التي قدّمها للعديد من المشكلات الإنسانية مظهر من مظاهر الفضيلة في عالمنا الإنساني. وإن كانت العديد من الممارسات اليوم لدى الأمم المسلمة لا تمثل مظهرا لتلك الفضائل والقيم الإنسانية فهو في نظر الإبراهيمي مجرد انحراف مزاج سببه سوء فهم، أو غلبة وهم أو دعوى طباع أو هو تقليد و اتباع.⁽²⁾

وما يثبت إنسانيته أيضا أن الدين الإسلامي لم يختص بجنس معين، بل هو صالح لجميع الناس، موافق لكل فطرة و ملائم لكل نفس. فهو رسالة ربانية للإنسان، فالسرّ في ذلك كونه: "دين فطري روحي، يحمل في طياته نهاية الكمال الإنساني وأن أصوله بُنيت على حكمة من خالق الحكمة، فتجد في عقائده غذاء العقل وفي عباداته تركية النفس و في أحكامه رعاية المصلحة وفي آدابه خير المجتمع، و أن دينا يأخذ من شرطه التخلّق بالأخلاق الشريفة، ويعمد إلى الأرواح مباشرة فيغرس فيها أصول الفضائل الإنسانية، و يعمد إلى الحيوانية فيهدبها ... و إن التاريخ لم يشهد دينا جمع بين مطالب الروح و الجسم إلا هذا الدين. و أن السعادة لا تتم في الدارين إلا بالتوفيق بين المطالبين."⁽³⁾ فكثير من الاضطرابات التي عمّت في البشرية في كانت نتيجة عدم التوفيق بين هذين البعدين الروحي والمادي، وبفضل الإسلام تحققت حكمة وجود الإنسان.

مبيّنا أن مختلف الرؤى المتهمة للإسلام كدين يحرض على العنف أو أنه انتشر بواسطته، نابعة من مفهوم خاطئ للدين، وترجع تلك الرؤى إلى عامل آخر متمثل في عدم تقبل الغرب للقيم الإنسانية والأخلاقية التي حقّقها الإسلام والمسلمون مقابل عجزهم في ذلك، إضافة إلى البعد الروحي فيه، أي تلك الروح الإيمانية التي ينميها الإسلام في الفرد مع ما يتوافق مع إنسانيته، ويُغلب فطرة الخير على نزعة الشرّ فيه، وكأنّ الغرب لم يستسغ من منظور الإبراهيمي ذلك التفوق الذي حقّقته التربية الإسلامية فيما يتعلق بتوطيد القيم الإنسانية والعلاقات الاجتماعية مقابل فشلهم في ذلك. "ينقم الغربيون على الإسلام كدين أنه ركّى نفوس أبنائه حتى حقّقوا المثل العليا للإنسانية، وهؤلاء القوم يحاولون أن لا يسجّل التاريخ مثلا أعلى للإنسانية غيرهم، وأن يكونون كذلك والمثل العليا لا تتحقق إلا بالعنصر الروحي وهم مفلسون منه، وينقمون منه كنظام اجتماعي

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 107.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 107.

(3) - المصدر نفسه، ج1، ص 108.

سياسي أنه ساد نصف المعمورة قرونا فهم يخشون أن تنهياً له الوسائل فتعود تلك السيادة كرة أخرى. "(1) إذ يحمل الفكر الغربي بنسبة معينة نظرة استعلاء و إقصاء للآخر، فإن كانت هناك قيم إنسانية فلا بد أن تنسب إليه كمثال أعلى لا تعلوا عليه قيم الآخر. وإن تفوق الغرب في الفترة المعاصرة نظير ما حققه من إنجازات فإنه رغمًا عن ذلك يفتقد إلى تلك الروح التي ساد بها الإسلام زمانيا ومكانيا لفترة طويلة كنظام تربوي، اجتماعي، ثقافي، سياسي، مع تخوفهم من عودة تلك الروح لدى أفرادهم فتنهض همهم محققة سيادة مفقودة.

وما يؤكد على تلك النظرة الاستعلائية و النرجسية في الفكر الغربي بنسب متفاوتة، هو أن الغرب يرجع المدنية وإنجازاتها له منكرًا أغلب الجهود السابقة في ذلك، ففي نظره أن المدنية بدأت معهم وهم الأحق بها، ونفس الشيء بالنسبة إلى المعارف وقس على ذلك، أما نصيب الأمم الأخرى فالهمجية و اللامدنية. "وقد أصبح احتكار المدنية للأمم خاصة تقليدا شائعا متعاصيا عن التمحيص والنقد، ومن هذا الباب احتكار الغربيين للمدنية القائمة اليوم، وما هي في الحقيقة إلا عصارة الحضارات القديمة ورثها الغربيون عمّن تقدمهم، وقاموا عليها بالتزيين و التحسين و التلوين وطبعوها بالطوابع التي اقتضاها الوقت وانتحلوها؟ لأنفسهم أصلا وفرعا، ولا تزال التنقيبات عن مخطّفات الحضارة القديمة تكشف كل يوم عن جديد يفضح هؤلاء المحتكرين ويقلل من غرورهم، ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت في تكوينها وتلوينها عدة لغات مختلفة الأصول." (2) فالمدنية لا ترجع لأمة دون أخرى بل هي نتاج إنساني بعوامل وجهود متفاوتة ومختلفة.

ويبين الإبراهيمي أن الغرب يركز على انتهاك الآخرين -على حسب زعمه- للقيم الإنسانية دون نقد ممارساته اللانسانية، هذا ما يفضحه الإبراهيمي مستدلا بعدد الشواهد من واقعه وراهنه، حيث لا زالت تلك الممارسات لدى بعض الدول الغربية إلى اليوم، وأهم تلك الممارسات الاستعمار بشقّ ألوانه وأساليبه، وانتهاكه لحرية الشعوب ومقدساتهم، متسائلا الإبراهيمي: "ما بال إنسانيتهم انحصرت في الإفراق على عشرات أو مئات أو آلاف من العبيد يملكهم المسلمون بإحسان ولم تتسع رحمتهم وإشفاقهم لمئات الآلاف من الشعوب التي استعبدها في أفريقيا وآسيا... أمن الإنسانية ما تفعله أمريكا مع الزوج إلى اليوم؟ وما تفعله جنوب إفريقيا مع الزوج فيها؟... أمن الإنسانية و التحرير استعماركم لأفريقيا وآسيا؟ وما فعلتموه من فضائح في فتحها،

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 356.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 374.

وما تفعلونه من الموبقات إلى اليوم في استعباد أهلها... إن هؤلاء القوم لم يزيدوا على أن حرّروا العبد زعما واستعبدوا الأحرار فعلا... إذا كان إلغاء الرقيق عملا إنسانيا فاستعباد الأحرار ماذا يسمى؟⁽¹⁾

إن انتقاد الغرب لظاهرة الرّق لدى بعض الشعوب الإسلامية ليس سبّاً عنده، فقد عمل الإسلام على القضاء على هاته الظاهرة قديما، مؤكدا على حرّية الأفراد ومساواتهم، بيد أن الغرب يعمّم هذه الظاهرة مصيّا إياها إلى عبودية اتجاه الشعوب التي استعمرها، فالإسلام حتى في مجال التدين لم يثّم على الإكراه كأصل من أصوله، في حين لم يدع الغرب وسيلة لم يوظّفها بهدف التنصير والاستعمار، وقد بلغ به الحد إلى توظيف الدّين بهدف استعباد الشعوب، وهذا ما يتنافى مع قيم الدين والانسانية، يبين الإبراهيمي أن "من أصول الإسلام أن لا إكراه في الدين... فأين ما تركبه الأمم المتعدنة في حروبها اليوم من الإبادة للكبير والصغير والمرأة والرجل والطفل والجنين، وما تتفنن فيه من وسائل الاستئصال؟ وكفى بواقع هيروشيما اليابانية شاهدا لا يكذب."⁽²⁾ فمارسات الغرب في كثير من جوانبها أدّت إلى إبادة شعوب بكاملها وشكّلت خطرا على الوجود الإنساني، من خلال تلك الحوادث الأليمة التي عاشتها البشرية بفعلهم، كتفجيرات هيروشيما وناخازاكي اليابانيتين من طرف أهم دولة تدّعي أنها حامية الإنسانية، إضافة إلى الإبادات الجماعية التي مارسها المستعمر الفرنسي اتجاه الشعب الجزائري وغيره من الشعوب.

إن الغرب تفوّق في الفترة الحديثة والمعاصرة علميا ومعرفيا، غير أن التطور العلمي لديه قد تعارض في جوانب معينة مع الكثير من القيم الإنسانية ممّا أزال العديد منها، رغم أنه يدعمها في جوانب أخرى، فقد بينت الحكمة التاريخية بيانا لا ينقطع مداه بأن العلم من غير ضمير ليس إلا تدميرا للروح الإنسانية بكل مضامينها الأخلاقية، كما بينت أوجه الحكمة هذه بأن الروح الإنسانية من غير علم هي خواء، لأنه ممكّن الإنسانية من الاستفادة من تجاربها، لكن هذا لا ينبغي أن ينسينا في قبح العقل الأداتي وصولته المدمرة حين وظفت إبداعاته في إيقاف الحروب ضد الإنسان والإنسانية، ما فصّل بين المعرفة وغايتها الإنسانية، أي تفرغ المعرفة والثقافة من المضامين الإنسانية ذات الطابع الأخلاقي.⁽³⁾ وفي هذا السياق انصبت رؤية الإبراهيمي المؤكدة على ضرورة ارتباط العلم بالأخلاق حتى يوظف في خير الإنسانية وإلا أصبح وبالا عليها. وهذا ما

(1) - المصدر السابق، ج4، ص 369.

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص 230.

(3) - علي أسعد وطفة، التربية في معترك الحداثة محاولة للتأصيل الفلسفي، دروس ومحاضرات في التربية القومية، منشورات منظمة الطبعة العربية، تونس، 2010، ص5.

أفرزته الحياة المعاصرة من اقتتال وحروب، فبقدر ما يتغنى الغرب بإنسانيته الزائفة بقدر ما يوجه منتجات العلم في تقويض الإنسانية من حيث يدري أو لا يدري. فالعلم إما يوجه حياة البشر أو إلى انعدامها بحسب توجيهه لذلك. "فالتاريخ يحمّل علماء هذه الحضارة تبعات هذه الشرور كلها بما يخترعون من وسائل التدمير، وكان واجب الأمانة أن يوجهوا علومهم لحياة البشر لا لموتهم."⁽¹⁾

ومن خلال ربط الإنسانية بالتربية لدى الإبراهيمي يتضح كيف تشكل التربية القائمة على الأساس الديني والأخلاقي مسارا نحو تحقيق معنى الإنسانية لدى الإنسان، وإعادة الاعتبار لإنسانيته المقهورة حتى يبلغ مراتب الكمال من خلال الاعتداد بالفضائل الأخلاقية التي يؤكد عليها الإسلام، وضرورة العودة إلى معانيه وتعاليمه السمحة، وتجاوز تلك النظرة المتعالية والإقصائية للآخر الذي يربط الإنسانية بفئات معينة من منظور استعلائي إقصائي يتنافى والقيم التي تتبناها الإنسانية وتؤكدها الديانات السماوية.

2. الإنسانية بين واقعها المتأزم وأفق تحقيقها:

يقدم الإبراهيمي نظرة موجزة إلى ما آلت إليه الإنسانية في عصره، ويبين السبيل إلى كيفية تحقيقها من جديد. فإن كانت الإنسانية في معناها تحتضن الجميع، فقد غدت تبحث عن من يحتضنها في الفترة الزاينة ويعيها، فالإنسانية تستغيث نتيجة ما لحقها من استغلال باسمها، ومن اعتداء الإنسان على الإنسان. "عجيب لهذه الإنسانية ما كفاها من مصائب الدهر تقاطع أبناءها وتدابيرهم، ونصب الحبال وبث المكائد لبعضهم بعضا، ما كفاها من مصائب الدهر أن يكون في أبنائها قوي يستعبد ضعيفا، وشريف يستخدم مشروفا، ما كفاها أن تنقلب الحقائق على أبنائها المارقين العاقين فيركبون مطايا الخير للشر، ويستعملون سلاح التفع للضر، و يتسولون بالدين لجمع الدنيا ... ألا فليرحم الإنسانية من في قلبه رحمة، ألا وإن الإنسانية تستغيث فهل من مغيث؟ وتستنجد فهل من منجد؟"⁽²⁾

مبيناً أن مساعي الأمم تتفاوت حول هاته القيمة التي تميز الإنسان مثلما يميّزه العقل، والتفاوت حيال ذلك يتلخص في جانبي المفهوم - فهم حقيقة الإنسانية - والجانب الثاني يكمن في - حقيقة العمل بها- وتحقيق هذا المفهوم. مرجعا الإبراهيمي علّة ذلك التفاوت إلى ثلاثة أسباب، معتبرا السبب الثالث أصلا للأولين و بمثابة السبب الحقيقي في غياب الإنسانية والأخوة:

⁽¹⁾ - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 363.

⁽²⁾ - المصدر نفسه، ج1، ص 62.

السبب الأول: يتمثل في ما خلفه الاستبداد في الحكم أو التعامل، أكان استبدادا فرديا أو جماعيا، وعبر الإبراهيمي عن هذا السبب قائلا: "السبب الأول: نزعة الاستئثار الطبيعية التي نشأ عنها الاستبداد الفردي و الشعبي، والاستبداد ما سبست به الأمم، وهو الذي طوّح الانسانية في مهاوي الشقاء، وقد مضى الاستبداد غير مأسوف عليه، ولكنه أنتج في العالم نتاج سوء و أثمر ثمرا مرّا." (1) فالاستبداد الذي شهدته القرون السالفة في تاريخ البشرية و ما خلفه من تمايز واستئثار طبقات معينة للحكم و التملك أفرز اللأخوة كمفردة مرادفة للإنسانية اليوم. ولا شك أن الاستبداد ألغى السمة البشرية من الإجتماع الإنساني في كثير من جوانبه. فقد بين الكواكي في كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» حين تطرق إلى علاقة الاستبداد بالتربية أن في الإنسان استعدادا طبيعيا للصالح، واستعدادا للفساد وأن التربية تربوا باستعداد الإنسان جسما ونفسا وعقلا، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فتكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته. (2) فالاستبداد من هذا المنطلق ينتج مناقضات الانسانية ويكون خلافا للإجتماع الإنساني المدني.

السبب الثاني: بينما تتمثل العلة الثانية فيما انتشر من إباحية وما نتج عنها من سلوكات لا تنم للإنسانية بصلة، ولا ترتبط بأبعادها، إنما هي تغليب للطابع الحيواني على الطابع الإنساني. مشيرا إلى مثال حي في ذلك، وهو تلك التعاليم التي أحلها بعض القدماء ودعا إليها بعض المعاصرون اليوم، مستشهدا بالمزدكية * الفارسية القديمة، وما أقرته من تعاليم فاسدة مسايرة لأهواء النفس والغريزة. "ثاني السببين: ذلك النتاج الذي هو الإباحية الخاطئة الكاذبة التي أصبحت تهدد الانسانية بما هو شرّ من الاستبداد. ذلك النتاج الذي قرّر مزدك الفارسي تعاليمه الفاسدة، فكان كمن حلل السم أو نفث الغازات في الهواء والماء العنصرين المقومين للحياة، فلا كان مزدك ولا كانت تعاليمه." (3)

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 60.

(2) - عبد الرحمن الكواكي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 104.

* المزدكية: مذهب ودين وثني منبثق من المانوية يرجع تأسيسه إلى مزدك الفارسي، وتعرف المزدكية بإباحة اللذات و الإنعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمواساة والاختلاط وترك استبداد بعضهم على بعض ولهم المشاركة في الحرم الأهل، لا يتمتع الواحد منهم من حرمة الآخر، ولا يمنع. "فقد أحل (مزدك) النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها، كاشتراكهم في الماء والنار والكلاء، وحكي انه أمر بقتل النفس ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة." وقول المزدكية كقول كثير من المانوية في الكونين والأصلين. ينظر: أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، س1992، ص275-277.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 60.

السبب الأساس: يبرز الإبراهيمي أن السببين الآنفي ذكرهما يرتبطان بسبب آخر هو علتها، معتبرا إياهما من الأسباب العارضة مقارنة بالسبب الحقيقي في تغييب الانسانية والأخوة بين البشر، والمتمثل في تحكيم الهوى النفسي والغريزة وتغليبهما على ملكة العقل، وهذا ما سيسلك بالإنسان مسلكا غريزيا حيوانيا، فيحق الباطل ويطل الحق، "والسبب الحقيقي لهذا البلاء المتناسل هو تحكيم الهوى على العقل، وأهواء النفس إذا غلبت غطت على الحقائق وأحالت النور ظلما واليقين وهما والحق باطلا." (1) ويتضح من خلال رؤيته أن الإنسان أصبح يعيش في جاهلية جديدة، فرغم تقدمه العلمي والمعرفي، إلا أنه لا زال تحت سطوة الهوى واللاأخلاق.

كما يتطرق إلى سببين آخرين ينتهكان الانسانية ويدمران حياة الشعوب، يتمثلان في الحرب و الفقر، فكل منهما يهدد حياة البشر، فالإنسانية "الآن تستغيث من داهيتين وتستجير من غائلتين، ولا تدري متى تغاث، ولا في أي وقت تجاب، هي تستغيث من داهية الحرب وتحكيم السيف في مواقع الخلاف،... وهي تستغيث من غائلة الفقر وشروبه وجيوشه التي يجزها من خراب العالم لتخريب معمره. فمتى يفقه أغنياء الأمم هذا السر فيعملون على اتقاء الشر." (2) فالحرب سلوك يتنافى وقيم الإنسانية، حيث تنزل بها إلى الحضيض نظرا لكل ما يرتبط بها من شرور وانتهاكات لحقوق الإنسان والطبيعة، وتعد سببا رئيسا في العامل الثاني الذي هو الفقر، هذا الأخير الذي يشكل تهديدا على أهم الحقوق الإنسانية وهو الحق في الحياة والعيش الكريم.

ومنه لم يتحقق بعد معنى الانسانية في عصرنا الحالي من منظور الإبراهيمي نظرا لغياب معالمها واقعيها، ولا زالت الأخوة الإنسانية لم تترجم على أرض الواقع رغم التقدم الذي تشهده الأمم في مجال المعارف والعلوم، ورغم تلك الأشواط التي خاضها الانسان في العمل على تحقيق الحرّيات وتكريس القوانين التي تحفظها. يبرز الإبراهيمي أن مسألة التأخي بين البشر لم تأخذ حقيها من التطبيق تمام الأخذ إلى الآن، ولم يعمل بمقتضياتها تمام العمل إلى الآن، من مقتضيات تحكيم العقل وتحقيق سبل العيش المشترك بمشاركة جميع الناس لوازم الحياة وتحقيق مبدأ التعاون والتكافل الإنساني. فبدل اتجاه الانسان إلى تحقيق معاني الانسانية، وقع تحت سيطرة العلم ومنتجاته، متجها نحو الكماليات وهي السمة التي غلبت على الحياة المعاصرة، ممّا نتج عنه أيضا أمم متصارعة نتاج التسابق العلمي والتوجه نحو الماديات على حساب الرّوحانيات والإنسانيات. يجمل ذلك الإبراهيمي في

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 60.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 63.

مواصفات العصر الحاضر قائلًا: "يمتاز عصرنا الحاضر بترقي العلوم والصناعات والتوسع في متمات العمران وكمالياته، والاطلاع على حقائق الكون ومخباته، واستثمار مواهب الطبيعة وخيراتها، ونشأ عن ذلك ترقُّ في الأفكار وشعور عام لجميع الطبقات على تفاوت بمقدار التعلُّق بالعلوم، ونشأ عن ذلك التفاوت رجوع إلى نزعة الاستثثار والامتياز، فنشأ الإكباب على الماديات والمسابقة في ميدانها. فنشأ عن ذلك شعور المقصّر بقصوره، فنشأ عن ذلك تدافع واختلاف في المصالح، فنشأ عن ذلك احتكاك واتصال بين الأمم المتباعدة يسرته سهولة المواصلات التي هي ثمرات العلم."⁽¹⁾ يبين الإبراهيمي كيف انعكست مختلف هذه الظواهر سلبا على الانسانية، وكيف ولدت كل ظاهرة ظواهر أخرى تزيد في التباعد والاختلاف بدل التقارب والتعايش.

إن التطور الفكري أنتج تفاوتًا اجتماعيًا وفكريًا واقتصاديًا بمقياس علمي، فاستأثرت الأمم المتطورة علميًا على نظيرتها المتخلفة وامتازت عليها. ونتيجة للتطور العلمي واحتكام الإنسان إلى الآلة والمادة وتحكيمهما على حساب البعد الروحي والعقلي والإنساني عامة، فغيب البعد الروحي الإنساني ليحل محله البعد المادي، هذا الأخير نتج عنه التسابق والتدافع نحو تحقيق المصالح المادية مما خلّف العديد من الصراعات، فرغم التقارب الذي حققه العالم في قرية كونية إلا أنه شكّل من جانب آخر وبالا على الانسانية، ما حتم إعادة الخطاب الإنساني إلى الواجهة من جديد، والمناداة بضرورة العودة إلى الانسانية وتحقيق مبدأ التآخي. هذا ما يحدده الإبراهيمي بأنه: "نشأ عن ذلك كله وعن هذه المصارعات الاجتماعية شعور آخر بضرورة تآخي البشر، و آل الخلاف إلى وفاق، والتباعد إلى تقرب، والفوضى إلى هدوء وسلام. لا نقول إن المسألة استقرت في نصابها وإنما نقول: إنها تنمو على الأيام شيئًا فشيئًا وإنها سائرة إلى الأمام، ودعاة السلام من كل أمة والعلماء منهم والفلاسفة قائمون عليها بالدعوة إليها ونشرها، وما دام الحال على ما نرى فلا شك في وصولها إلى الأمد المرجو."⁽²⁾

صاحبت الدعوة إلى الإنسانية النهضة العلمية الجديدة والتطور العلمي، غير أنها لم تتقو إلا بعد أن انتقلت من أذهان المفكرين وبرزت في ميدان العمل، ومن الدلائل التي يبرزها الإبراهيمي لنمو الحركات الإنسانية تلك الجمعيات والمنظمات الإنسانية التي تهدف إلى مساعدة الغير دون أي إقصاء جنسي أو ديني، فكانت عاملاً على تآخي البشر وتقرب الشعوب من بعضها البعض، وكانت من أقوى أسباب غلبة الاتصال

(1) - المصدر السابق، ج 1، ص 60.

(2) - المصدر نفسه، ج 1، ص 60، 61.

على الانفصال، والاجتماع على الافتراق، ويقدم الإبراهيمي أمثلة عن دور الجمعيات في خدمة الإنسانية وأهم تلك الأدوار كالتالي: (1)

- أسست الجمعيات العلمية لإنقاذ البشر من نكبة الجهل، ولا مصيبة أكبر من الجهل ولا مرض أفتك منه.
- أسست الجمعيات الطبية لإنقاذ البشر من الأمراض التي هي آفة الإنسانية.
- أسست الجمعيات المالية لإنقاذ البشر من داهية الفقر الذي ماله إتلاف هذا النوع بل هو الجائحة الكبرى للإنسانية ومنبع الشرور.
- أسست الجمعيات الصناعية وهي عبارة عن معامل تخرج آلات لمحاربة الفقر.
- أسست الجمعيات الرياضية لخدمة البشر ماديا ومعنويا، وهي عامل على ترقية المجتمع روحا وجسماً.
- أسست الجمعيات الأدبية لنصرة الحقائق فهي نصية لها عدوة للأوهام والخرافات.

يتضح من معرض حديث الإمام الإبراهيمي عن الجمعيات تدعيمه للنشاط الجمعوي والحث عليه كعامل تربوي وإنساني، وهذا ما نجده في النشاطات العامة لمختلف المجتمعات، أين انتشرت الجمعيات بكثرة فلا تكاد تحصى، من أبسط الجمعيات الناشطة على مستوى الأحياء والمدن إلى الجمعيات الناشطة دولياً. خصوصاً الجمعيات المطالبة بحقوق الإنسان، وإن كان ما أشار إليه الشيخ الإبراهيمي يدخل ضمن جمعيات ومنظّمات عالمية لها فروعها في دول العالم، فلا يمكن إغفال ما لبعض هذه المنظّمات من جنائيات على الإنسانية باسم الدفاع عنها، نظراً لأيديولوجيات ومصالح معينة توجهها فيها الدول القوية تنفيذاً لمطامعها السياسية والمادية والسيطرة على الشعوب الضعيفة.

ولا يغفل الإبراهيمي ذلك التوجّه الذي سارت عليه العديد من الهيئات والجمعيات والمنظمات العالمية، مقدماً أمثلة على ذلك كهيئة الأمم المتحدة، فهي كهيئة دولية تهدف إلى العدل والدفاع عن الحريات لدى الشعوب وترفض الانتهاكات والاستعمار، غير أنّها على النقيض من ذلك، تمثل اتحاداً للأمم القوية على المستضعفة، وتشريه للظلم لا للعدالة. مثلما تحدّد سابقاً في شمولية المنظور السياسي للإبراهيمي. "هذه المنظمة التي سميت بغير اسمها، وحليت بغير صفتها، وما هي إلا مجمع يقود أقوى وأضعف، ويسوق أغنياءه فقراءه، وما هي إلا سوق تشتري فيه الأصوات... وتباع فيه الذمم والهمم والأمم يبيع البضائع في السوق السوداء، وما

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 61.

هي إلا مجلس نصبوه للشورى فكان للشورى، وعقدوه للعدل والتناصف فكان فيه كل شيء إلا العدل والتناصف. " (1)

وبالنسبة للمجتمعات العربية الإسلامية فالملاحظ فيها كثرة مؤسسات المجتمع المدني مع قلة فعاليتها، حيث يُحصي الباحثون عشرات الآلاف من هذه المؤسسات سواء جمعيات أو نوادٍ أو نقابات منتشرة في العالم الإسلامي دون أن يشعر المواطن البسيط بدورها ولا بأهميتها، فغالبا تكون أداةً لخدمة السلطة القائمة، من خلال نشر برامجها والدعاية لها، وإما في خدمة مصالح الأشخاص المهمين عليها، فهي مطالبة بالتحقيق والتنوير وتنمية الوعي النقدي والحس المستنير، ومهمتها نشر الفكر العلمي وثقافة الاختلاف والرأي المخالف وربط المجتمع بالمستجدات العلمية والفكرية من أجل الاحتكاك والتفاعل المنتج. (2) ومقاربة إبراهيمية وواقعية يتضح أن الكثير من الجمعيات في الفترة المعاصرة حادت عن وظيفتها الأصلية مبتعدة عما هو إنساني.

يطرح الإبراهيمي مشكلة الإنسانية من موقع حدثي معاصر، وهذا تشير إليه تساؤلاته الضمنية عن موقع الإنسانية اليوم، في زمن الحداثة الذي لا زال يعاني فيه الإنسان من صدام الإنساني ونقيضه اللاإنساني، مجملا الإبراهيمي ذلك الصراع الذي يثبته التاريخ بين دعاة الانسانية وأعدائها، فالتاريخ البشري على مرّ عصوره يتشكل من ازدواجية الإنساني واللاإنساني، الديني و اللاديني على شكل صراع لا زال ساريا إلى اليوم بين منتهك للإنسانية وبين مدافع عنها، فقد انتهكت بالمادة، وبأعداء العقل وأنصار الجمود، وانتهكت بالاستبداد والظلم فقد "استغاثت الانسانية قديما بأبنائها الصادقين على أبنائها المارقين، استغاثت من المفسدين لنظام الفطرة والعاملين على تفريق هذه الأسرة فأغاثها الأنبياء والمرسلون والعباد الصالحون، واستغاثت من عبّاد المادة الحائدين عن الجادة، فأغاثها أنصار الرّوح والمقدّسون للرّوح، والقائلون بخلود الرّوح، واستغاثت من أعداء العقل المفكّر وعبّاد الحس والمحسوس، فأغاثها الحكماء الرّبّانيون والفلاسفة الإشرافيون، واستغاثت من طواغيت الاستبداد وقيصرة الاستعباد، فأغاثها دعاة الدّيمقراطية وأنصار المساواة والإنصاف." (3) فمسار الإنسانية طويل عريض ارتبط منذ بالوجود الإنساني وكل ما اعترضه، وخاصة الصّراعات بينه وبين أخيه الإنسان.

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 466.

(2) - فارح مسرحي، المواطنة والأنسنة، منشورات الوطن، سطيف، الجزائر، ط1، 2017، ص 42، 45.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 62، 63.

3. مسار تحقيق الإنسانية:

يدعو الإبراهيمي إلى ضرورة تبني قيم الإنسانية التي ترتبط بالتشريع الرتائي والعمل على تجسيدها عمليا من خلال الوقوف اتجاه كل ما يشكل عائقا أمام تحقيقها، ويكون ذلك من خلال التربية الفاضلة للإنسان وفق قيم وأخلاق سمحة. مشيرا في ذلك إلى مبدئين هامين في ذلك وهما: العودة إلى القرآن الكريم من جهة والتأكيد على الرابطة الإنسانية بين البشر معبرا عنها بالأخوة الإنسانية.

3. 1. القرآن الكريم:

يؤكد الإبراهيمي على ضرورة العودة إلى قيم وأخلاق الدين الإسلامي من خلال تعاليم القرآن الكريم، فكما أخرج القرآن الإنسانية من دياجير الوثنية وممارساتها وظلاميتها قديما، فإنه كفيل بإخراجها من انتهاكات الممارسات اللاإنسانية في عصرنا. إذ يعتبر الإبراهيمي القرآن الكريم "كتاب الإنسانية العليا استشرفت إليه قبل أربعة عشر قرنا حين ضامها أبناؤها فعقوها فارتكسوا في الحيوانية السفلى فأخلدوا فيها الفساد فأنزله الله من السماء ليصلح به الأرض... وما أشبه إنسانية اليوم بالإنسانية قبيل نزول القرآن في جفاف العواطف وضراوة الغرائز وتحكم الأهواء والتباس السبيل وتحكيم القوة وتغول الوثنية المالية، وما أحوج الإنسانية اليوم إلى القرآن وهي في هذا الظلام الحالك من الضلال وقد عجز العقل عن هدايتها وحده كما عجز قديما عن هدايتها لولا تأييد الله له بالأمداد السماوية من الوحي."⁽¹⁾ فإن عجز العقل البشري اليوم في كثير من الاتجاهات والمذاهب الإنسانية التي أنتجها في تحقيق الفضائل الإنسانية، فتحقيق المرام يرتبط بتعاليم القرآن الذي أثبت الواقع صدقيته كدستور رتائي يسير عليه البشر، خاصة مع التشابه الكبير الملحوظ في انتهاك حقوق الإنسان بين الماضي والحاضر، غير أنها اليوم بستار ووسائل أخرى ترتبط بمنتجات العلم والمعرفة.

ونظرا لتلك التغيرات التي طرأت على الإنسانية فهذا يستلزم فهما متجددا للقرآن الكريم، يمكن من إيجاد ما يتوافق مع تغيرات العصر، وترجمة ذلك عمليا. "فكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر فإنه حقيق بأن يأتي بتلك المعجزات في كل زمان إذا وجد ذلك الطراز العالي من العقول التي فهمته، وذلك التمت السامي من الهمم التي نشرته وعممته، فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس إلا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف وتولته بالتطبيق العملي نفوس سامية وهمم بعيدة

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 249.

كنفوسهم وهمهم، أما انتشاره بين المسلمين بهذه الصورة الجافة من الحفظ المجرد، وبهذا النمط السخيف من الفهم السطحي، وبهذا الأسلوب التقليدي من التفسير اللفظي - فإنه لا يفيدهم شيئاً ولا يفيد بهم شيئاً، بل يزيدهم بعدا ويزيد أعداءهم استخفافاً بهم." (1) حيث ينتقد الإبراهيمي في هذا السياق الفهم الأجوف والممارسات الفارغة للقرآن الكريم من خلال ربطه بالحفظ فقط أو القراءة السطحية، جاعلين إياه ككلمات تتلى على الموتى أو في مناسبات معينة، إذ يؤكد الإبراهيمي على ضرورة الفهم الصحيح له، إذ يشترط الفهم السليم من لدن عقول وقرائح متقدمة مع التطبيق العملي لذلك الفهم.

كما يشير الإبراهيمي إلى كيفية تدبر وفهم القرآن بناءً على منهج السلف مبيناً أن من أدرك كتاب الله وفهمه على حقيقته، يمكنه ذلك من تفهيمه إلى الآخر وترجمة معانيه والعمل بها، والعكس إن استعصى عن الفهم، محددًا ذلك في قوله: "أنّ التفهيم تابع للفهم، فمن أحسن فهمه أحسن تفهيمه، ومن لم يحسن فهمه لم يحسن تفهيمه وإن كتب فيه المجلدات وأملى فيه ألوف المجالس، وفهم القرآن يتوقف - بعد القرينة الصافية والذهن النير- على التعمق في أسرار البيان العربي، والتفقه لروح السنة المحمدية المبيّنة لمقاصد القرآن، الشارحة لأغراضه بالقول والعمل، والاطلاع الواسع على فهوم علماء القرون الثلاثة الفاضلة، ثم على التأمل في سنن الله في الكائنات ودراسة ما تنتجه العلوم الاختبارية من كشف لتلك السنن وعجائبها، وقد فهمه السلف حق الفهم ففسروه حق التفسير مستعينين على ذلك بما ذكرنا." (2) ويمكن أن نستخلص أهم ما يشترط في الفهم الصحيح للقرآن بناء على قوله فيما يلي:

- القرينة واتساع ملكة الفهم.
- التعمق في اللغة العربية لغة القرآن و في آدابها.
- التفقه في السنة النبوية الشريفة باعتبارها شرحاً للقرآن الكريم وتوضيحاً لمقاصده قولاً وعملاً.
- الاطلاع على تفسير العلماء في القرون الماضية.
- ربط فهم القرآن الكريم بالكون (الكتاب الأكبر والكتاب الأصغر) وما يتضمنه الكون من آيات وكائنات.

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 249، 250.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص 250.

- الاعتماد على ما توصلت إليه العلوم الاختبارية (التجريبية) من كشوفات للكون، مشيراً الإبراهيمي هنا إلى الإثباتات العلمية التي تؤكد الكثير من الإشارات القرآنية وآياته أو ما يعرف اليوم بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم.
- تجاوز الخلافات العصبية والمذهبية في الأمور الغيبية، كالتي خاضت فيها العديد من الفرق الكلامية، والتركيز على الجانب العملي، حتى يساهم في تطور حياة الإنسان ويرتبط بواقعه ويتجسد جانبه العلمي والعملية أكثر. فقد عملت تلك المجادلات على تعطيل العقل الإسلامي فيما يتعلق بدراسة الواقع والطبيعة، فأبعدته عنهما. "ولو لم ينحسر تيار الفهم الإسلامية للقرآن بما وقف في سبيله من توزع المذاهب والعصبية المذهبية لانهى بها الأمر إلى كشف أسرار الطبيعة ومكونات الكون، ولسبق العقل الإسلامي إلى اكتشاف هذه العجائب العلمية التي هي مفاخر هذا العصر." (1) هذا ما تؤكد إلى حد بعيد الفترة المزدهرة في تاريخ الحضارة الإسلامية أين تقدمت في مختلف العلوم من طب وكيمياء ورياضيات. فتركت موروثاً فكرياً مثل قاعدة هامة انطلق منها العقل الغربي في بحثه العلمي ووثبته الحضارية.

ويتطرق الإبراهيمي إلى كيفية العمل على تقويض تداعيات اللانسانية من خلال تجاوز أسباب كل ما لا يمت للإنسانية بصلة. فبالنسبة للفقر الذي يهدد العديد من الشعوب خصوصاً الإفريقية منها، يتسنى القضاء عليه بتعاقد أغنياء العالم لمحاربتة، وبأداء الأغنياء المسلمين لزكاة أموالهم مع تنظيمها والحرص على كيفية توجيهها، بين ذلك قائلاً: "الذي ندره ونقوله ولا نخفيه، هو أنه لو تساند أغنياء الأمم ومدّوا أيديهم متعاضدين، وعرفوا كيف يحاربون الفقر باستجلاب الفقير والأخذ بيده لأحسنوا لأنفسهم وللعالم، ولو فعلوا ذلك لدفعوا عن العالم غارة شعواء تلتهم الأخضر واليابس، وشرّاً مستطيروا يستأصل، بل لو بذل أغنياء المسلمين ما أوجب عليهم الإسلام من الزكاة وعرف عقلاؤهم كيف يستخدمونها لقاموا ببعض من هذا الواجب الإنساني." (2) ونفس الشيء بالنسبة إلى الأسباب الأخرى التي يمكن التحكم فيها بناءً على دراستها واستنباط حلول المشكلات من خلال تعاليم القرآن، غير أن الإشكال يبقى مطروحاً على الصعيد التطبيقي العملي وبكيفية الالتزام بما يُقدّم من حلول وتعميمها.

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 250.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 63.

يشير الإبراهيمي إلى أن كثيرا من الخطابات والرؤى حاليا تشير إلى أن عهد التعاليم الدينية قد مضى، ودخلت الإنسانية معتركا جديدا يقتضي قراءات وتشريعات جديدة، إذ ينتقد الإبراهيمي هاته الرؤى داعيا إلى عقد مقارنة بين ما حققته هاته القيم التي أتت بها المدنية الجديدة وبين ما حققته التعاليم الدينية. مبينا أن تعاليم القرآن تضمنت الدفاع عن حقوق الإنسان التي قد تتشدد بها الأفواه اليوم دون تحقيقها. "فما نسبة هذه الأحكام والآداب التي جاء بها الإسلام من قبل أربعة عشر قرنا إلى ما يجري في حروب هذا العصر الذي يدعونه عصر النور و العلم و الإنسانية و المدنية إلا كنسبة نور النهار إلى ظلمة الليل، أين ما يرتكب في حروب هذا العصر من تقتيل النساء و بقر بطونهن على الأجنة و من قتل الصبيان والعجزة... فالدين فيه رحمة شاملة وما عبّر عنه علماء الإسلام بالكليات الخمس: الدين والعقل والعرض والمال والنسب. (1) فالقرآن أقرّ حقوق الإنسان قديما، وقد شملتها الكليات الخمس التي أشار إليها الإبراهيمي من حفظ للنفس كحق للحياة، والعقل كحرية فكرية وتحريره، الدين وقد أكد الإسلام على عدم الإكراه فيه وغيرها من الحقوق التي أقرّها القرآن الكريم.

3. 2. الأخوة الإنسانية « كمبدأ تربوي يحكم العلاقات بين البشر »

يؤكد الإبراهيمي على مبدأ تربوي أساسي ينبغي أن تقوم عليه الحياة الإنسانية، وتؤسس عليه مختلف العلاقات الاجتماعية بين البشر، يتمثل في مبدأ «الأخوة الإنسانية» مؤكدا على أن: «الإنسان أخو الإنسان» كأساس يحقق معنى الإنسانية أمام تمدّي ظاهرة العداة والصراع بين المجتمعات والدول، سواء في الجانب الاجتماعي للبشر في المجتمع الواحد أو في مجتمعات مختلفة.

فتأكيد الإبراهيمي على أساس الأخوة الإنسانية من شأنه أن يساهم في إزالة مختلف التناقضات والصراعات بين الناس، إذ يبيّن معناها قائلا: "مؤدّي هذه الجملة الصريح: عقد الأخوة بين أفراد البشر بموجب الإنسانية التي هي حقيقة سارية في كل فرد. ومقتضى هذه الأخوة أن يشارك الإنسان الإنسان لوازم الحياة سرورا وحرنا، لذّة و ألما مشاركة معقولة تنتهي إلى حدود لا تتعدّها، بحيث يعلم العالم الجاهل، ويرشد النبيه الغافل ويواسي الغني الفقير ويقع التعاون بين الناس في كل جليل وحقير." (2) إذ يشكل مبدأ «الإنسان أخو

(1) - الإبراهيمي، صوت الإمام الإبراهيمي في الثورة، ص 84، 85.

(2) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 59.

الإنسان» مثابة عقد اجتماعي يجمع بين البشر كمبدأ يحقق العدل والمساواة بينهم، ويفعّل المشاركة الاجتماعية على المستويين المعنوي والمادي للحياة الإنسانية.

يتطلب تجسيد الإنسانية بين البشر ضرورة تجاوز كل تمييز جنسي أو عرقي أو ديني، وهو ما يؤكد عليه الدّين الإسلامي ومختلف الدّيانات السماوية، وما دعا إليه العديد من الفلاسفة الذي اعتبروا الإنسان من نفس الأب والأم مع أخيه الإنسان، ومنه لا بد من المساواة بين الناس فتتحقق قيم الإنسانية، هذا ما يشمله مبدأ الأخوة، فمن مقتضيات الأخوة الإنسانية « المساواة في الحقوق البشرية». إذ يبين الإبراهيمي أنّها: "تلك المسألة التي طالما بذل فلاسفة الأمم قواهم لتقريبها وتمكين دعائمها في الكون، وعملت الشرائع على تنميتها وتغذيتها بالمبادئ الصحيحة حرصاً على راحة البشرية وهناء الإنسانية." (1) فالإنسانية أو الأخوة من المنظور المفاهيمي الإبراهيمي تعمل على تجاوز كل تفاوت أو تمايز أو استئثار اصطنعه الإنسان للاستبداد بإنسان آخر أو الاعتداء على حقوقه الطبيعية.

يتضح من خلال ما تم التطرق إليه أن الإبراهيمي يخط مساراً تربوياً بناءً على تعاليم الإسلام، بتأكيدهِ على أن "الإسلام في جوهره لإصلاح عام من الله به على العالم الإنساني بعد أن طغت عليه غمرة حيوانية، اجتاحت ما فيه من فطرة صالحة ركبها رب العالمين، وما فيه من أخلاق قيمة وشرائع عادلة قرّرها الهداة من الأنبياء والمرسلين والحكماء والمصلحين، وصحبتها غمرة وثنية وقفت في طريق الفكر فعاقته عن التقدم وابتلته بما يشبه الشلل وقطعت الصّلة بين الإنسان وحالقه." (2) فمن خلال تركيزه على البعد الإنساني للتربية وعلى تلك القيم التي احتضنها الإسلام وعلى راهنيتها والحاجة إليها كقيم أخلاقية في حاضرنا نستنتج ما يلي:

- ضرورة ربط التربية بالقيم الأخلاقية التي تؤكد و تجسد لإنسانية الإنسان وتحقق المشاركة الاجتماعية في عالم أصبح يفتقدها.
- ضرورة العودة إلى الإسلام ففي جوهره ما يوافق فطرة الإنسان وما يضمن تحقيق مختلف الأبعاد الإنسانية بتنمية فضائله لدى الأفراد.
- التأكيد على رابط الأخوة كمبدأ تربوي بين البشر بغض النظر عن الانتماءات الجنسية والعرقية والخصوصيات الثقافية والدينية.

(1) - المصدر السابق، ج1، ص 59.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص 161.

رابعاً: التربية عند الإبراهيمي و الأزمة التربوية الراهنة.

لا شك أن النظم التربوية هي انعكاس لفلسفة الأمة في الحياة، وهي وليدة للظروف الثقافية والحضارية والعلمية والسياسية والاجتماعية التي تمر بها المجتمعات، وما يدل على ذلك مختلف الإصلاحات المتتالية التي تشهدها النظم التربوية والتعليمية عالمياً، غير أنه غالباً ما يكون للعوامل السياسية والاجتماعية والتطورات العلمية المتسارعة تأثير أكبر في التأسيس لها. والإصلاحات التي سعى الإبراهيمي إلى تجسيدها، وسعيه إلى تأسيس منظومة تربوية جزائرية ارتبط بمختلف مجالات الرأهن الجزائري آنذاك، خاصة الواقع الاستعماري الذي ارتبط به المجتمع الجزائري، ما شكّل تهديداً للخصوصية الحضارية للمجتمع الجزائري، وخطراً على انتماءاته وميزاته الثقافية التي طالما وقفت سدّاً منيعاً أمام تحقيق أهداف الاستعمار وامتداداته. ومنه كانت الرغبة والوتيرة في الإصلاح متسارعة من جهة ومتأججة لدى النفوس بهدف بناء مجتمع جديد، أو بناء المجتمع الجزائري الحيوي بمفهوم الإبراهيمي والذي يرجع المنطلق في تكوينه إلى التربية، تربية أجيال جديدة فاعلة في الحياة.

غير أن الإبراهيمي كان مدركاً أن عملية الإصلاح لا تتم عفويًا أو ارتجالاً بين عشية وضحاها، إنما هي وليدة دراسات معمقة، تخطيط وسعي حثيثين لتنفيذ كل ما تم تخطيطه مع التقويم والتصحيح، تحديد الأهداف ورسم للآمال مع استشراف للمآلات، ويظهر ذلك في طول المسار التربوي الذي مرّت به الحركة التربوية لجمعية العلماء المسلمين، وفي التخطيط المسبق لبناء منظومة تربوية جزائرية تتماشى مع الخصوصية الجزائرية، وتسائر التطور العلمي الحاصل في العالم. فقد أكد الإبراهيمي في لقاءاته المتكررة مع الإمام عبد الحميد بن باديس خاصة على بتخطيط وبناء وتجسيد مشروع تربوي جزائري. وقد اتضح ذلك في التطرق إلى المنهج التربوي عند الإبراهيمي، عندما بين أنهما كانا يتدارسان ويحلّان الوضع العام للمجتمع الجزائري، وكيفية بناء مشروع تربوي يتوافق ومتغيرات الواقع، ورهانات المستقبل. فكانت هناك لقاءات شبه دائمة بين الشّيخين الجليلين، من خلال التنسيق معا في كل أسبوعين أو كل شهر مثلما ذكره الإبراهيمي، من أجل الظفر بالاستجابة والجودة التربوية من طرف الشعب. ما تضمنه قوله المشار إليه سابقاً: "فنزن أعمالنا بالقسط ونزن آثارها في الشعب، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يخلت أبداً، وكنا نقرأ للحوادث و المفاجآت حساباً."⁽¹⁾

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص 280.

هذا ما يثبت أن إصلاح أية منظومة تربوية ينطلق الأزمة التي يعايشها المجتمع، ما يتطلب الدراسة المنهجية المتعمقة والمتبصرة للمجتمع و لطبيعة أفرادها، وكذا البيئة الإجتماعية والثقافية وتأثيراتها على النظم التربوية، إضافة إلى المتغير التاريخي والسياسي، والمتغيرات العالمية خاصة في معترك العولمة وما أفرزته من تطورات لا تقبل إلا بوجود الأقوى في عالمها. نظرا لتداخل مختلف هذه الجوانب وتأثيرها على أي مشروع يهدف إلى إعداد أجيال للمستقبل. مع التركيز في الإعداد للمستقبل القريب أو حياة مغايرة وأفضل من الحياة الراهنة نظرا للحركة المتسارعة التي يشهدها العالم، ولأنه من المؤكد أن الأجيال ستعيش عالما مغايرا للعالم الحالي.

يؤكد الإبراهيمي على ضرورة الدراسة والتحليل المعمقين لبناء أي منظومة تربوية وتسييرها، هذا ما يتأكد في تجربته الشخصية من خلال قراءته للواقع والمجتمع الجزائري وأفراده، مصرّحا بذلك في قوله: "فأزعم أنني حربت ودرست، وأني قرأت هذه الأمة وفهمتها كما أقرأ الكتاب و أفهمه، وما هذا ببعيد ولا كثير في من خدم أمة ولا بسها عشرين من السنين معلما مدرسا واعظا خطيبا، محاضرا ينتزع مواضيع محاضراته من وجوه الجمهور قبل أعمالهم، وقد خرجت من هذه الدراسة الطويلة بنتائج جليلة يجب أن تدون وأن تكون دستورا للعاملين."⁽¹⁾ ما يبين أن عملية التخطيط والبناء لا تتم إلا داخل المعادلة الاجتماعية لكل مجتمع ولا يمكن أن تنجح خارجها إلا نادرا. ومنه ينبغي فهم طبيعة المجتمع والذهنيات السائدة فيه، مع مختلف الخصوصيات التي تميز الواقع والمجتمع، ما عبّر عنه الإبراهيمي بضرورة «قراءة الأمة وفهمها» وهذه القراءة تكون من خلال معايشة المجتمع، مع ضرورة التخصص في الممارسة التربوية والتعليمية فيه كمجال اختصاص، لأنه لا يكفي عامل المعايشة لوحده. كما تتطلب عملية البناء الزاد المعرفي الواسع فيما يتعلق بتاريخ الأمة وخصوصياتها وديانها وبمستجدات العلم الحديث ومختلف النظريات التربوية والتعليمية.

هذا ما يبيّن أن عملية البناء التربوي وليدة مسار طويل لا وليدة لحظات ظرفية، ونتاج جهود متضافرة ورؤى متبصرة منظمة ترتبط بالمجتمع ومتغيرات الحياة. وبناءً على رؤية الإبراهيمي التربوية يمكن استخلاص العديد من القضايا التي لا زالت تلقي بظلالها على الراهن التربوي اليوم، هذا الوضع التربوي الذي صوّر كواقع مُخيف يستعصي فهمه من جهة، ويصعب حلّ مختلف القضايا العالقة به من جهة أخرى، ومن أهم ما يبرز راهنية الطرح الإبراهيمي للقضايا التربوية ما يلي:

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 209، 210.

1. بناء مناهج دراسية جديدة تتماشى مع فلسفة المجتمع وتساير تطورات العصر:

أكد الإبراهيمي مرارا على ضرورة بناء مناهج تربوية وتعليمية جديدة، من خلال تجاوز الطرائق والأساليب العتيقة في التربية والتعليم، خاصة القائمة منها على التلقين والتقليد، سواء كان تقليدا للطرائق القديمة دون تجديد لها، وهو ما حدّده في انتقاده للأساليب وبرامج التعليم في الزيتونة والأزهر مما أدى إلى الإبقاء على الجمود وعدم مسايرة تطورات العصر ومنتجات العولمة، أو انتقاده للتعليم الاستعماري وفضحه، لتجنب التبعية والمسوخ الثقافي والهوياتي للمجتمع الجزائري. وقد اتضح جليا في تأكيد الإبراهيمي على الأساس العلمي للتربية بأن تتم عملية بناء المناهج من خلال مراعاة واقع الأمة وظروفها. مؤكدا على أنّ خير المناهج هي ما خرج سالكها بفكر صحيح وإن لم يخرج بعلم كثير. إضافة إلى مراعاة مختلف الأبعاد العقلية والنفسية للمتعلمين في صياغتها. فالمناهج التي يدعو إلى بنائها تربط بين الموروث التاريخي للأمة من جهة وبين مختلف التطورات التي تحدث في العالم.

ينبغي أن ترتبط البرامج التربوية حسب الإبراهيمي بفلسفة المجتمع وبالهدف المبتغى تحقيقه من التربية، من خلال مراعاة الكتب والبرامج السهلة في منطلقات الإصلاح لتحقيق ذلك المقصد. ويتضح ذلك في توجيه الإبراهيمي لطلبة العلم قائلا: "لا تقنعوا بالكتاب المقرر، و اقرؤوا الكتب السهلة المبسطة في ذلك العلم، تستحكم الملكة ويتسع الإدراك، وسيتهيئ الإصلاح الذي تقوم به إدارات جامعاتنا على اختيار كتب سهلة ممتعة في كل علم تفرض عليكم قراءتها ومطاعتها، ثم كتب أخرى في المعارف العامة كالتاريخ والأدب والحكمة والأخلاق والتربية فوطنوا أنفسكم على ذلك من الآن." ⁽¹⁾ يشير الإبراهيمي إلى عدّة معارف يجب تدريسها تتمثل في: في الدين، التاريخ، الأدب، الحكمة (الفلسفة) والأخلاق والتربية فمن شأن هذه العلوم أن تكون الإنسان وتربطه بمقوماته الشخصية، وتجعله في صلة مع تاريخه وآدابه، والنشأة على الأخلاق والتربية الفاضلة منذ الصغر.

وبالنظر إلى الراهن التربوي اليوم، فإن المتفحص لبرامج التربية والتعليم في المنظومة التربوية الجزائرية، خصوصا في المرحلة الابتدائية - التي تعدّ ركيزة أساسية في مسار المتعلمين - يلاحظ ذلك الكم المعرفي الكبير والمكثف الموجه لتلامذة السنوات الابتدائية، ويظهر له تعدد البرامج والمواد ناهيك عن صعوبة بعضها، مما يثقل كاهل المتعلم في مراحل تعلّمه الأولى، كما قد ينقّر البعض من التعلّم، وإن كانت قدرة المتعلم على تقبّل

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 203.

المعلومة كبيرا إن أحسن تقديمها، غير أن الملاحظ من خلال التدريس اليوم أن معظم التلاميذ في المراحل التي تعقب المرحلة الابتدائية يعانون من مشكلة التحكم في اللغة والكتابة والتحرير خاصة اللغة العربية، مما ينمُّ على أنهم لم يحققوا كفاءة الاكتساب و التحكم في أساسيات اللغة جيدا في مراحل تعلمهم الأساسية، ولم يحققوا الغاية الأساسية من ذلك. هذا ما سيشكل عائقا لهم فيما بعد، في تكوينهم ومطالعتهم في الأطوال التربوية والتعليمية اللاحقة خصوصا الثانوية والجامعية، وعلى النقيض من ذلك لو انتقلوا من هذه المرحلة الأساسية متحكمين في اللغة وقواعدها، لتجنبوا ما يعانونه مستقبلا من صعوبات، ولفتح لهم اطلاعهم على أساسيات اللغة باب المطالعة والاستزادة المعرفية بأنفسهم، ولتفتح قرائحهم أكثر. فالأساس الأول في التربية والتعليم وبناء المنهج ينبغي أن يتمثل في تنمية الملكة اللغوية والكتابية لدى الناشئة مما يوسع أذهانهم مستقبلا.

يؤكد الإبراهيمي على هذه الفكرة، من خلال دعوته إلى ضرورة أن يكون إمام المتعلمين في السنوات الأولى باللغة العربية على قدر عالٍ بأساسياتها، إضافة إلى تحصيل مبادئ الدين الإسلامي وتاريخه وفهمها. ليمكن المتعلم من التعلّم ذاتيا. "فإن انقطع عن التعليم استطاع بمعرفة حظه من العربية أن يبلغ ما شاء بالدراسة والمطالعة، لأنه يقرأ قراءة صحيحة، ويفهم فهما صحيحا، وخرج - على الحاليين - برأس مال عظيم من دينه وفضائل دينه، وقوميته ولغته وتاريخه. ونتيجة هذا أن يكون عضوا حقيقيا في أمته. صالحا للحياة لها وبها و معها."⁽¹⁾ ويضيف إلى تعلم القراءة وجوب تحصيل قيم الدين الإسلامي حتى ترسخ هاته القيم منذ الصغر لديهم، ولتساهم في بناء البعد الأخلاقي و السلوكي للمتعلمين وتربطهم بثقافة مجتمعتهم وفلسفته.

2. تجنب طغيان البعد السياسي والأيدولوجي على محاولات الإصلاحات التربوية:

حدّر الإبراهيمي كثيرا من تأثير الانتماءات السياسية والحزبية على بناء المنظومة التربوية - فغالبا ما تدل تلك الاختلافات السياسية على اختلافات أيديولوجية في أساسها ولو في جوانب معينة- لأن ذلك سينعكس سلبا على الوحدة الوطنية وبلوغ الهدف من تربية الأجيال من خلال تأثيرات التصدّعات السياسية والحزبية. غير أن هاته الانشقاقات السياسية والإيديولوجية فرضت منطقتها بشكل كبير على حل محاولات الإصلاح للمنظومة التربوية الجزائرية، سواء في شقّها المتعلق بلغة التعليم، أو بمسألة الحداثة والعصرنة في المدرسة الجزائرية. والانفتاح على منتجات العولمة والحياة المعاصرة، أو ما تعلق مسألة الهوية والمرجع الذي تبنى عليه المدرسة الجزائرية. لذلك ينوه الإبراهيمي طلبه العلم بضرورة الابتعاد عن التحزّبات السياسية التي تؤثر على مسار وحدة

(1) - المصدر السابق، ج2، ص 109.

الطلاب ووحدة قضيتهم. ولكونها ستحول دون تحقيق الغاية الأولى من تربيتهم وتعلّمهم المتمثلة في: طلب العلم، يبين ذلك قائلا: "تركوا المناقشات الحزبية والخلافات السياسية لأهلها، المضطّعين بها، المنقطعين لها، ودعوا كل قافلة تسير في طريقها، وكل حامل لأمانة من أمانات الوطن مضطّعا بحملها."⁽¹⁾ فالغاية الأولى للطلبة تتمثل في طلب العلم أولا وفي خدمة وطنهم، لا في الممارسات السياسية والحزبية.

كما ينبّه الإبراهيمي ويحذّر القائمين على المنظومة التربوية من منظرين ومعلمين وأئمة وسياسيين من أن يطغى لديهم البعد السياسي على البعد التربوي في إعداد الناشئة والإصلاحات التربوية، ممّا يجيد بطريق التربية والإصلاح عن مجراه الذي حدّد له. "نخشى أن تضيعوا على الأمة هذا الجيل وتفسدوا مواهبه وتلهوه بالمناقشات الحزبية عن الحقائق القومية... هذه الطلائع هي آمال الأمة ومناطق رجائها، والتي لا تحقق رجاء الأمة إلا إذا انقطعت إلى العلم وتخصصت في فروعها، ثم زحفت إلى ميادين العمل مستكملة الأدوات تامة التسلح، تتولى القيادة بإرشاد العلم."⁽²⁾

إن الراهن الذي نعيشه اليوم وما يشهده العالم من وتيرة متسارعة علميا و عولميا يقتضي تجاوز التصدّعات الأيديولوجية والالتفاف نحو مصلحة الوطن من خلال الوحدة في بنائه على أسس من الحرية والعدالة، وبناءً على مقومات الشخصية الوطنية. "قد آن أن يحتشد أبناء الجزائر كي يشيدوا جميعا مدينة تسودها العدالة والحرية، مدينة تقوم على تقوى من الله ورضوان."⁽³⁾ وتحذير الإبراهيمي من مخاطر هذه الصّراعات وتخوفه منها، نجده قد ألقى بظلاله اليوم على إصلاحات المنظومة التربوية، فغالبا ما يطغى الجانب السياسي على الجانب العلمي والموضوعي، ففي الوقت الذي تغرق فيه منظومتنا التربوية في مشاكل معقدة كغياب الكتاب المدرسي وسوء التسيير التربوي وافتقار المدارس إلى بعض الضروريات الأساسية، نجد المسؤولين يناقشون موضوع لغة التدريس هل هي العربية أم الفرنسية أم الإنجليزية أم الأمازيغية؟ وهل المدرسة الجزائرية مع الحداثة أم مع العصرية؟ وهل نعلّم قيم الأجداد أم أنّها قيم متخلفة ينبغي تجاوزها؟ وغيرها من المسائل ذات

(1) - المصدر السابق، ج3، ص 204.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص 68.

(3) - المصدر نفسه، ج5، ص 317.

الطابع الأيديولوجي والفلسفي.⁽¹⁾ وبذلك ينبغي أن تنفصل التربية وإعداد الناشئة عن كل ما يُعيقها، وأن توضع الخلافات والصراعات خارج دائرة التربية.

3. ضرورة الابتعاد عن التقليد الساذج للإصلاحات الغربية.

العديد من المشاريع الإصلاحية للمنظومة التربوية الجزائرية هي نتاج لمنظومات غربية، أي أنها مجرد نقل وتقليد لها وإسقاطها على الواقع التربوي الجزائري، فهي ليست وليدة بحوث ودراسات عملية وميدانية للواقع التربوي الجزائري، هذا ما أدى إلى تعميق الأزمة التربوية من جهة وزاد من مقدار التخلف والتبعية للآخر. فإن كان نقل الخبرات والنظريات العلمية ضروريا نظرا لتطور العقل الغربي العلمي في هذا المجال، لكن مع ضرورة تكيف تلك الخبرات والتجارب والرؤى مع ما يتوافق وفلسفة المجتمع وقيمه. ما يظهر من تأكيد الإبراهيمي السابق بضرورة أن تقرأ الأمة وتفهم كما يقرأ الكتاب ويفهم.

فالكثير من النماذج توضح دور فلسفة المجتمع في دفع حركة البحث العلمي، إذ تمثل الإطار الذي يحتضنه ويفتح آفاقه، فقد حققت اليابان مثلا نهضتها الكبرى عن طريق التقدم الصناعي الغربي من جانب، وعن طريق القيام بثورتها العلمية بمساعدة القيم اليابانية التقليدية من جانب آخر، لا سيما القيم التي أشاعتها الديانة البوذية والتعاليم الكونفوشيوسية بوجه خاص، وعلى رأسها تقديس العلم والعمل، والتضامن الاجتماعي الذي انتقل من الأرياف إلى المصانع.⁽²⁾ ونفس الشيء بالنسبة إلى القيم الإسلامية التي تؤكد على ضرورة التعلم والتعاون والعمل، فالعلم مفتاح كل باب.

كما تؤكد عديد التجارب التي مرت بها الدول المتقدمة التي تمكنت ونجحت في معالجة ما تعرضت له من أزمات أن منطلق العلاج المجتمع الذي يحتضن تلك الظواهر، على عكس الدول المتخلفة التي غالبا ما تعتمد على برامج بحثية غربية لا تعبر في حقيقتها عن مشكلات هذه المجتمعات المتخلفة، بل عن ما مرت به المجتمعات المتقدمة من تجارب. فلكل مجتمع ودولة خصائص تميزها انطلاقا من البناء الطبيعي إلى التركيبية البشرية والاجتماعية وهذا ما ينبغي مراعاته في البحث العلمي. ففي النموذج الكندي للبحث مثلا تبني

(1)-براهمي براهيم، بادي نواره، النظام التربوي بين إشكالية الإصلاح وواقع الأزمة التربوية (دراسة سوسيولوجية تربوية بالجزائر)، عدد خاص ب: أزمة التعليم في المغرب والعالم العربي "المقاربات"، المغرب، مجلة عالم التربية، ع24، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2014، ص 290.

(2)- عبد الله عبد الدائم، دور التربية والثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة، الثقافة العربية الإسلامية بين صدام الثقافات وتفاعلها، دار الطليعة، بيروت، ط1، ماي 1998، ص185.

الكنديون أساليب البحث من خلال وحدات مركزية تعمل على تقديم نتائج البحوث العلمية للقطاعات المختلفة داخل المجتمع، وتساعد في قيام المشاريع البحثية المشتركة، ومنه تطوير البحث العلمي واستثمار نتائجه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بطريقة تخدم المجتمع والبحث العلمي.⁽¹⁾

وقد انتقد محمد عابد الجابري في هذا السياق الأنظمة التربوية العربية التي لا زالت غارقة في معضلة التقليد واستنساخ تجارب الآخر. فيبين أن "التعليم في الوطن العربي غير متجانس ولا يمتلك الحد الضروري من الوحدة والإنسجام، وهو تأسيسا على ذلك يكرس ظاهرة انفصام الشخصية وازدواجها، إذ لا توجد في أي قطر عربي مدرسة وطنية عربية، بل هناك مدارس تستنسخ هذا النموذج أو ذاك: النموذج الإنجليزي أو الفرنسي أو مزيجا منهما معا من جهة والنموذج الإسلامي القديم من جهة أخرى، ولذلك فإن النظام التربوي في البلدان العربية نظام غريب يطفو على سطح المجتمع ويزيد من تعقيد المشاكل."⁽²⁾

فالفلسفة التربوية والنقدية للإبراهيمي ركزت على هذا الطرح ليس على المستوى التربوي فقط، بل على الصعيد العام في تسيير الوطن وشؤونه، منتقدا الإبراهيمي المرجعية النظرية التي عمد إليها القائمون على تسيير الدولة الجزائرية وشؤونها كونها لا ترتبط ولا تتوافق مع أسس ومقومات المجتمع الجزائري، فهي نابعة وتابعة لرؤى ومذاهب غربية أجنبية. هذا ما تضمنه بيانه في 16 أبريل 1964، ويوضحه قوله: "إن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية، لا من مذاهب أجنبية، لقد آن للمسؤولين أن يضربوا المثل في النزاهة وألا يقيموا وزنا إلا للتضحية والكفاءة، وأن تكون المصلحة العامة هي أساس الاعتبار عندهم."⁽³⁾ فإصلاح المنظومة التربوية لا يقتضي تقليد الآخر كلية و تعطيل خصوصية المجتمع أو العقل المحلي بل ينبغي الأخذ من تجارب الآخر ما يفيد، دون التنكر لمقومات الأمة ولجهود علمائها فهم أدري بمكامن الداء وهم الأجدر على اقتراح الدواء.

(1) - حفحوف فتيحة، معوقات البحث الاجتماعي في الجامعة الجزائرية من وجهة نظر الأساتذة الجامعيين، دراسة ميدانية في جامعات: سطيف - قسنطينة - مسيلة، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الإدارة والتنمية البشرية، جامعة فرحات عباس، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم علم الاجتماع و الديموغرافيا، 2007، 2008، ص99.

(2) - علي أسعد وطفة، السياسات التربوية في الوطن العربي شعارات قومية وممارسات قطرية، (د.ت.د.ط)، ص2.

(3) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص317. (ينظر بيان الإمام الإبراهيمي في 16 أبريل 1964).

4. الدعم المادي للمدرسة و للبحث العلمي:

يؤكد الإبراهيمي على ضرورة الدعم المادي للمدرسة والنظام التربوي عموماً، لأن الهدف الأول في ذلك هو: الاستثمار في العنصر البشري، وقد اتضح جلياً في تأكيده على ضرورة اللازم الاقتصادي في بناء المجتمع الحيوي والذي تمثل المدرسة أحد منطلقاته. فإن كان من أسباب نقص أو غياب الدعم المادي للمدرسة الجزائرية في عهد الإبراهيمي يرجع إلى المحتل الفرنسي، فإن دعمها ارتبط بتبرعات المحسنين وما يبذله الشعب من مال في سبيل تعليم الأبناء. نظراً لأن المال هو الدافع والممول لتطوير المدرسة وتلبية ما تتطلبه التربية والتعليم من وسائل وتجهيزات. إذ يشكل نقص التمويل المادي عقبة في طريق تطوير المدرسة. "ودوننا في الوصول إلى القدر الصالح منه عقبات أكبرها فقدان المال، فلوا اجتمعنا وتظاهرننا ومألنا الدنيا أقوالاً لما أفادنا ذلك من العلم قليلاً و لا كثيراً بدون مال، إذن فالواجب على هيئاتنا المجتمعة محاربة الجهل بالعلم، ولا يتم ذلك إلا بالمال."⁽¹⁾ فإن هذا الوضع لازال يلقي بظلاله على الراهن التربوي في المنظومة التربوية الجزائرية التي لا زالت تعاني من شح الإنفاق مقارنة مع قطاعات أخرى. ومقارنة بدول أخرى تمول مخابر البحث لديها ومختلف مشاريعهم، ولا يقتصر التمويل على الدولة فقط، بل لا بد أن يرتبط بالمؤسسات ورجال الأعمال، ولعل ذلك ما يعكس دعوة الإبراهيمي لأغنياء إلى دعم المدرسة مادياً.

فالتمول لمخابر البحث غالباً ما يقتصر على الدولة فقط في جامعاتنا، مقارنة ببعض الدول في الغرب كفرنسا حيث تمول بعض المخابر عن طريق قروض مالية من طرف المهتمين بمواضيع معينة، ويكون التمويل مباشراً اتجاه المخابر التي تضم باحثين دائمين ومؤقتين، ففي الولايات المتحدة يتم تمويل البحث من خلال وصف الباحثين لمشاريعهم سواء للوكالات الحكومية أو المؤسسات الصناعية، ويتم اختيار المشاريع من طرف خبراء ومن ثمة تمويلها.⁽²⁾ إذ لا يحظى البحث العلمي في الدول العربية بتلك الأهمية التي نجدها في الدول المتقدمة، وهذا ما تبيته التقارير الصادرة عن منظمة اليونسكو حول وضعية العلوم والثقافة في العالم، مثلما تضمنه ملخص التقرير العالمي للعلوم من المنظمة لسنة 2010.⁽³⁾ وهي مشكلة يعاني منها البحث العلمي

⁽¹⁾ - المصدر السابق، ج1، ص53.

⁽²⁾ - Tribune : Qui fait la recherche publique en France?

(www.lemonde.fr/sciences/article/2014/05/05/tribune-qui-fait-la-recherche-publique-en-france_4411829_1650684.html).

⁽³⁾ - RAPPORT, DE L'UNESCO, SUR LA SCIENCE, 2010, Résumé exécutif, L'état actuel de la science dans le monde, Editions UNESCO 2010, France, p 25.

في الجزائر، خاصة في شقه المرتبط بالمنظومة التربوية في المدارس أو في التعليم العالي على مستوى الجامعات. ففي الوقت الذي تدعم وتمول فيه الفرق الرياضية من الشركات الخاصة، تحرم المخابر العلمية من دعمهم وتمويلهم، ما يدل على أنه لم ينتشر بعد الوعي بضرورة الاستثمار في مجال التربية والتعليم والاستثمار في العنصر البشري لدى بعض القائمين على المجتمع الجزائري، ولدى رجال الأعمال الذين يمكنهم توجيه واستثمار أموالهم في هذا المجال.

إن إصلاح المنظومة التربوية الجزائرية يتطلب تكاثف مختلف الجهود، وإشراك الفاعلين في المجال التربوي خاصة لا إقصاؤهم، والابتعاد عن اعتماد القرارات الارتجالية والإصلاحات الظرفية، من خلال حصرها بفترة زمنية وجيزة، فهذه الفترة الزمنية المحصورة لا تكفي غالباً لا للتقييم ولا للتخطيط، ما يبرز أنه لا زالت المنظومة التربوية تعاني من الضبابية في الرؤية، وغياب استراتيجية واضحة في التسيير. فيجب أن توضع الأزمة التربوية في موضعها المحدد، وتوضح حقيقتها حتى يتم معالجتها. يبين الإبراهيمي "أن من كتم داءه قتله، وما دمنا ونحن بمعزل عن الحقائق وفي صمم عن استماع النصائح فنحن بُعداء عن الحق، وما الحق إلا أن نتحد ونسعى بلا فتور، ما الحق إلا أن نتعاون، ما الحق إلا أن ندع التخاذل جانبا ونتصافح على الاستماتة في سبيل الحق، ما الحق إلا أن نزن الأشياء بموازينها، فلا ندع المجال للوهم ينقض ويبرم ويبرز لنا السفاسف في صورة الجبال."⁽¹⁾ فلا يمكن الإبقاء على تلك النظرة المخيفة للأزمة التربوية ولهذا القطاع الحساس، بل لا بد من رؤية نقدية إصلاحية جماعية تضع مختلف التصورات التي من شأنها تعطيل مسار المدرسة الجزائرية أو تزيجها على الهامش.

ومنه نستنتج أن رؤية الإبراهيمي التربوية لم تكن رؤية مثالية حاملة مُغرقة في التجريد، ولم يتوقع الإبراهيمي في نمط معين في طرح القضايا التربوية وتحليلها، إنما اتسم طرحه وتحليله بصبغة واقعية راهنية، لأمس من خلالها العديد مما تعانيه المنظومة التربوية الجزائرية الراهنة، سواء في شقها المرتبط بالتنظير أو في الشق العملي لها المتعلق بالتسيير والتنظيم. وما الأزمة التي تطرحها المنظومة الحالية في أصلها إلا أزمة أسس نظرية بالدرجة الأولى، مع غموض للمنظور المستقبلي المراد بلوغه ما يجعل الرؤى مشتتة والجهود المبدولة غير متناسقة في سبيل تحقيق وبناء منظومة تربوية جزائرية تعكس تطلعات الأمة. وهي أزمة على المستوى العملي في كيفية التسيير والتنظيم و التطبيق لما تم تنظيره، ومن أهم ما يمكن استخلاصه في هذا العنصر ما يلي:

(1) - الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص56.

- إن بناء أي منظومة تربوية يرتبط بضرورة التوفيق بين ثنائيتين، تتمثلان في فلسفة المجتمع وفي التطورات العلمية والمعرفية الحاصلة كإفرازات للعولمة والحدائثة وللتطور العلمي والتكنولوجي.
- متابعة المختصين في المجال التربوي لكل جديد على مستوى النظريات التربوية والتعليمية ومدى تناسبها مع الوضع التربوي السائد في المجتمع ولخصوصياته.
- ضرورة الدعم المادي للمدرسة وللبحوث العلمية الهادفة والعمل على تطويرها، لأنها تعكس الاستثمار في العنصر البشري الذي يُعدّ أساسا أولا في أي بناء أو تغيير.
- تغليب مصلحة الوطن والانتماء إليه عن أي توجهات أيديولوجية أو سياسية.
- تجنب استيراد أي إصلاحات لا تتوافق وخصوصية المجتمع وواقعه، لأنها ستزيد من عمق الأزمة بدل حلّها و العمل على الخروج منها.
- تجديد البرامج التربوية ومناهجها، مساييرًا لمختلف التطورات العلمية الحاصلة، وتجاوز الطرائق العتيقة القائمة على التلقين في التربية والتعليم.

كما تثير رؤية البشير الإبراهيمي العديد من التساؤلات التي ترتبط بالراهن التربوي وتدفع إلى ضرورة استقصائها وتحليلها نظريا وميدانيا ومن بين تلك التساؤلات:

- ما كيفية وما مدى إمكانية رسم مستقبل للمنظومة التربوية الجزائرية في ظل إفرازات العوالم، الحدائثة وما بعد الحدائثة وفي ظل معطيات الواقع المتغيرة؟
- كيف يمكن تحرير المنظومة التربوية من خطر الاستلاب الذي تكاد تغرق فيه نتاجا لاختلاف الآراء في هذا السياق من جهة، ونتيجة لكثرة المورد الغربي وتبنيه بشكل مقلق من جهة أخرى؟
- كيف يتم تفعيل إرادة الفعل في هذه المنظومة التي أضحت في دوامة من المشكلات؟ كما يدفعنا ذلك إلى التساؤل عن أسس التغيير وطبيعته، وهل نغير المجتمع أم نغير التربية؟!

كما لا تقتصر راهنية الطرح الإبراهيمي في الجانب التربوي والتعليمي فقط، بل تشمل العديد من المجالات الأخرى مثلما شملت الراهن السياسي والثقافي. فمختلف الإشكاليات الفكرية والسياسية والثقافية والسلوكية المطروحة في زمن الإبراهيمي مازالت مطروحة إلى اليوم بالعالم العربي الإسلامي، والذي يقابله العالم الغربي الذي ظهر في القرن الجديد بالحلم القديم المائل في إعادة تشكيل جغرافية الأرض بما يضمن سيطرته، وهو التشكيل الخاضع لصراع حضاري لم تتخل عنه أوروبا وإن أولته بعض الأفلام بالحوار. فالمنطق الحضاري

الآتي لم يختلف عن المنطق السائد في زمن الإبراهيمي، وهو الموسوع الكافي الذي يجسد العلاقة القوية بيننا وبين زمن الإبراهيمي.⁽¹⁾ ويضفي الصبغة المعاصرة و راهنية للإبراهيمي طرحا وعلاجا لمختلف القضايا التي تطرق إليها.

خلاصة:

كخلاصة لهذا الفصل يتضح أن التربية عند الإبراهيمي قد طرحت ضمن سياق شمولي وواقعي، فتظهر شموليتها من خلال ارتباطها بالعديد من القضايا التي ترتبط بالمجتمعات المعاصرة على مختلف الأصعدة الاجتماعية والسياسية والثقافية، وترتبط بالقضايا التي لا زالت تشكل مواضيع للدراسة اليوم على الصعيد العالمي، خاصة تلك المتعلقة بضرورة تجسيد القيم الإنسانية، وتعبّر عن الإنسانية التي فقدت الكثير من معالمها في عصر طغت عليه النزعة المادية والصراع بين الدول تلبيةً لمختلف مصالحها خاصة الاقتصادية منها. وتتحدد الصبغة الواقعية للطرح الإبراهيمي كون رؤيته لم تكن منفصلة عن الواقع المعيش ولا عن المجتمع الذي اكتنفه، إنما كانت نابعة من عمق هذا الواقع من خلال القراءة المتبصرة والمستفيضة له، آخذا بعين الاعتبار مختلف المعادلات المتعلقة بالبناء الثقافي والاجتماعي والأخلاقي للمجتمعات، وكل ما يعكس تصورها وفلسفتها في الحياة. وذلك ما انعكس في الأسس التي أقام عليها مشروعه التربوي، إضافة إلى التجديد المرتبط بما تفرضه الحياة المعاصرة من علوم ومتغيرات متسارعة وجب مسايرتها لا الوقوف منها موقف المشاهد.

ومن خلال ما تم التطرق إليه من رؤية الإبراهيمي التربوي وجهوده الإصلاحية، وانطلاقا من مفهومه للتربية والتعليم والعلاقة القائمة بينهما، ومن خلال المنهج التربوي الذي أقامه ومختلف أساليبه ووسائله، وتركيزا على الأسس التربوية التي جعلها قاعدة أساسية تقوم عليها التربية، إضافة إلى علاقة التربية مع العديد من القضايا في الفترة المعاصرة كالسياسة والثقافة وخاصة الراهن التربوي والتعليمي، ما أضفى صبغة راهنية ومعاصرة للفكر التربوي الإبراهيمي. ما يمكن من جانب آخر إلى التوصل إلى العديد من النتائج، يتم الإشارة إليها في نتائج الدراسة، فما أهم النتائج المتوصل إليها من خلال تحليل المنظور التربوي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي؟

(1) - عمر أحمد بوقرورة، بناء النسق الفكري عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 94، 95.

نتائج الدراسة

وتوصياتها

نتائج الدراسة وتوصياتها:

من خلال ما تم التطرق إليه في فصول الدراسة من استقصاء للمنظور التربوي الإبراهيمي الذي جسده كمشروع يهدف إلى إصلاح التربية والتعليم في الجزائر ومن ثمة النهضة بالمجتمع الجزائري من خلال النهضة بأفراده ومؤسساته وإصلاحها، خاصة مؤسسات المجتمع التربوية من مدارس ومعاهد ومساجد لكي تؤدي الدور الحقيقي الذي وجدت من أجله، وارتباط هذا المشروع التربوي الإبراهيمي في مختلف حيثياته وجوانبه بأسس تربوية تضمن إتمام عملية البناء التي سهر الإمام الإبراهيمي رحمه الله على بنائها وفق أسس التربية التي حددها والمتطرق إليها في الدراسة، فتكون تلك الأسس بمثابة القاعدة الصلبة التي تُرَبَّى وتُبنى عليها الأجيال كبناء يسمو ولا يتهاوى. وبذلك توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج نوجزها فيما يلي:

نتائج الدراسة:

توصل الباحث من خلال دراسته إلى عدة نتائج نوردتها على النحو الآتي:

1- إن الأسس التي أكد عليها الإبراهيمي في رؤيته التربوية وجسده مشروعه التربوي الإصلاحية عليها تمثل مرجعية أساسية لمختلف الرؤى والجهود التي تعمل على تأسيس مشاريع تربوية، أو تلك التي تهدف إلى إصلاح واقع التربية والتعليم ومن ثمة النهضة بهما وبالمجتمع الجزائري. نظرا لأن رؤيته التربوية ركزت على الأخلاق، الدين والعلم والوطنية فإذا اجتمعت هذه الأسس خاصة وترسخت لدى الناشئة، ورافقتها الجهود الحثيثة والدعم المادي والمعنوي في سبيل تحقيقها فإنها كفيلة بإحداث التغيير والإصلاح الذي يطمح إليه أي مُربٍّ ومصلح، وما يثبت ذلك النجاح الذي حققته الأجيال اللاحقة لهم، خاصة في استرداد الحرية بفضل جهود المصلحين الجزائريين في تربيتهم وتكوينهم لهم.

2- تركيز المنظور التربوي الإبراهيمي على الأسس التربوية نظرا لموقعها الضروي والأساسي في أي بناء تربوي، خاصة: الأخلاق، الدين، العلم والوطنية.

■ الأخلاق لأنها بمثابة الوعي الفكري الأخلاقي الذي يوجه مختلف الممارسات نحو الفضائل الأخلاقية، فالمجتمع في عصر الإبراهيمي وفي الفترة المعاصرة في حاجة ماسة إلى وعي وحس أخلاقي يُحيي القلوب وينمي البعد الروحي ويرسخ للقيم الأخلاقية الفاضلة.

■ أما الدين فهو ما يمدّ البناء قوته الروحية، ويعدّ الأساس والمنبع الأول للأخلاق الفاضلة الإسلامية، إذ تستمدّ الناشئة قوتها منه.

■ أما العلم فهو ما يمدّ البناء قوته المادية ويضمن الرقي والتطور وبالتالي مسايرة تطورات الحياة والأمم.

■ أما الوطنية فإنها ستضمن الولاء للوطن من خلال توجيه هاته الجهود لخدمة المجتمع والوطن والأمة.

3- الارتباط الوثيق بين التربية ومقومات الشخصية الوطنية يبين أن فلسفة الإبراهيمي التربوية تنطلق من الطابع الواقعي والاجتماعي والتاريخي والثقافي للمجتمع الجزائري، كقاعدة استمد منها أسسه التربوية مقيما عليها مشروعه التربوي الإصلاحي، مع فتح آفاق تدعيمها وتطويرها عندما ركز على الأساس العلمي والانفتاح على العلوم الدنيوية المادية والمعنوية، ما يبرز ضرورة إقامة حلقة وصل بين الجذور التاريخية التي يركن إليها المجتمع كدعامة روحية تضمن تحقيق الامتداد التاريخي والمستقبلي للأجيال، إضافة إلى دور مقومات الشخصية الوطنية في بناء وحدة المجتمع خاصة في ذلك الظرف الاستعماري الذي تشتت فيه الآراء وتعددت خصوصا في ظل الممارسات الاستعمارية التي كانت تستثمر في عامل التفرقة بين أفراد الشعب، بتركيزها على إشغال الرأي العام بمسائل هامشية مبعدة إياه عن قضاياها الجوهرية. إضافة إلى مختلف الصراعات بين الأحزاب السياسية وغيرها من العوامل التي مثّلت حلقة صراع يذكّيها الاستعمار.

4- السبيل إلى تحقيق الوحدة الوطنية يبدأ بتهيئة الأرضية المناسبة له من خلال اعتماد التربية وسيلة إلى ذلك، بتكوين أجيال تؤمن وتتشرب من مقومات الشخصية الوطنية، ومن الأخلاقيات التربوية الإسلامية، فتنشأ على الوحدة منذ بداية تكوينها، لذلك أكد الإبراهيمي كما اتضح في بناء المناهج التعليمية وجلّ ممارساته التربوية على تحقيق الوحدة والألفة، مما يبرّر اعتماد الأسس النفسية والاجتماعية للتربية وربطها بمقومات الشخصية الوطنية.

5- يتأكد مع الإبراهيمي دور العامل الديني في تربية أفراد الأمة وتنمية البعد الروحي لديهم، من خلال تجديده وتفعيله لوظيفة الدين على مختلف الأصعدة التربوية والتعليمية والاجتماعية وحتى السياسية، مع رفض توظيفه في تحقيق مآرب ذاتية أو خدمة لمصلح أيديولوجيات معينة، كتوظيف الدين في خدمة السياسة مثلما كان شائعا ولا زال شائعا إلى اليوم، إنما السياسة تابعة في أصلها للدين والتربية. كما نستنتج أن الخطاب الديني الإبراهيمي لم يكن متحجرا ومنغلقا على ذاته، إنما تضمن دعوة صريحة للتجديد والتغيير والثورة على

ذلك الجمود الذي كبل العقل الإسلامي على مرّ عقود طويلة، ممّا انعكس على واقع المجتمعات الإسلامية فجعلها رهينة الاستكانة وحبسية التقليد.

ومن هذا المنظور أيضا لا يمكن اعتبار أن قيم الدين تتعارض ومعطيات الحضارة والحداثة، وما الصّراعات التي تشهدها الفترة المعاصرة إلا نتيجة تعصّبات لتوجهات فكرية وابتعاد عن سماحة الإسلام الأولى، فقد تبين أن التربية الإبراهيمية كامتداد للتربية الإسلامية تؤكد على نشر قيم الإنسانية، المواطنة والتسامح، كما تؤكد على دور العلوم: من دينية ودينية، علوم مادية أو معنوية، ما يجعلنا نستنتج ونؤكد أن المنظور الديني الإسلامي لا يحول دون إقامة رؤى تربوية تجمع بين قيمه الدّينية والعديد من عناصر الحداثة بل تساهم في بنائها وفق ما يتماهى ويتمشى مع طبيعة الإنسان التي عبّر عنها الإسلام بأبلغ تعبير.

6- تأكيد الإبراهيمي في مشروعه التربوي على أهمية علوم الحياة لا يركز فيها على علم دون آخر، إنما يبين أهميتها كلّها، فإن كان دور العلوم الدّينية واضحا من خلال تربية الأجيال تربية إسلامية والتأسيس الأخلاقي لتربيتهم وربطهم بالآخرة، فالإبراهيمي يؤكد على أهمية العلوم المادية والتجريبية كالطبيعيات والكيمياء إضافة إلى الرياضيات، على حسب الحاجة إليها خاصة فيما يرتبط ببناء المجتمع الجزائري الحيوي. وفي نفس السياق يعرّج على العلوم الإنسانية والاجتماعية كعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة مبينا أهميتها فمن شأنها تهذيب النفوس وترقيتها، كما تظهر أهميتها أكثر كونها تستثمر في الرّأس المال البشري بإعداده فكريا وعقليا ونفسيا واجتماعيا.

7- إن التربية الإبراهيمية تأخذ بعين الاعتبار مواجهة تحديات العصر، فمن خلال لوازم بناء المجتمع الجزائري الحيوي أكدّ الإبراهيمي على: الدين، الأخلاق، العلم والاقتصاد. وبيّن علاقة هاته اللوازم بتطورات العصر على المستوى المحلّي والعالمي نظرا للتغيّرات العلمية الحاصلة، وازدياد المنافسة بين الدّول لتحقيق النفوذ العالمي والسيطرة على الدول الأخرى خصوصا العربية والإسلامية منها أو التي تمثّل منبعا أو سوقا اقتصادية، إضافة إلى التحديات التي تطرح على المستوى الأخلاقي والاجتماعي، والتساؤل عن كيفية بناء مجتمعات تركزس لثقافة المواطنة والعيش المشترك دون التنكر للمقومات الوطنية، إضافة إلى التحديات الاقتصادية نظرا للأزمات التي يشهدها العالم في هذا المجال، ومنه كان تأكيد الإبراهيمي على ضرورة بناء رأسمال واقتصاد وطني يضمن التخلّص من التبعية والهيمنة الاستعمارية من جهة ويسدّ حاجيات المجتمع الأساسية، ويهدف في المستقبل إلى أخذ موقعه داخل اقتصاد السّوق والصّراع الاقتصادي العالمي حتى لا ينعكس ذلك الصّراع سلبا على الوطن.

وقد ارتبط منظوره التربوي بمستجدات العصر السياسية والثقافية ومختلف ما يطرح من أزمات، يتحدد ذلك من خلال سعي الإبراهيمي في مشروعه التربوي إلى تكريس البعد الوطني لدى الأجيال من خلال تربية وطنية دون التنكر لقيم المواطنة، إضافة إلى التأكيد على الطابع الإسلامي الإنساني من خلال مراعاة القيم الإنسانية التي تجسّد لها التربية الإسلامية. وفي الجانب السياسي من خلال المنظور المحلي والشمولي للمنظور التربوي السياسي الإبراهيمي، فهو يأخذ بالسياسي إلى أن يتحلّى بالمعنى الحقيقي للسياسة ويأخذ بعين الاعتبار الممارسات الهابطة للسياسة حتى يفضحها ويتفادها، وبهذا فهو يعدّه للتحديات والصراعات السياسية المطروحة محليا وعالميا.

8- إن الخطاب التربوي الإبراهيمي يرتبط بمراعاة خصائص الواقع وخصوصية الظرف، إذ كانت مواضعه انعكاسا لما يُعايشه الفرد الجزائري والمسلم، وما يكابدانه من تحديات، فالإبراهيمي يزكي الروح الإيمانية والحماسة في الفرد، ويسطر الأهداف وفق أسس محددة، مترجما إياها في الواقع من خلال إصلاحات ومساعي تربوية تعليمية، أي لم تكن رؤيته مجرد خطابات منبرية لا تنفك تغادر مقصورة الإمام دون الخروج من المسجد إلى الشارع، أو أن تكون مقالاته حبيسة في رفوف الكتب والمكتبات، إن أفكار الإمام الإبراهيمي في هذا المجال نصادفها في البيت والمدرسة والمسجد والجامعات، لدى الأطفال والشباب والراشدين، نساءً ورجالا، نظرا لأن ذلك الخطاب والعمل التربوي تجسد واقعا، وشمل جميع أطياف المجتمع ومختلف أعمارهم الزمنية.

9- كما نستنتج أن العمل التربوي و الإصلاحية للإبراهيمي مرّ بثلاث مراحل أساسية، تمثّلت في إدراكه وفهمه للواقع أولا، من خلال الإحساس به وقراءته وفرز كل مميزاته وخصوصياته. وثانيا عن طريق الكشف عن كل الإمكانيات التي يتضمنها والنقائص التي تعوزه، فقد فهم الواقع تقييما ونقدا بفضل نقده لمختلف الممارسات والسلوكيات من طرف الجزائريين أنفسهم أو من طرف المستعمر، ممهدا بذلك للمرحلة الثالثة. والتي تتمثل في معالجة المجتمع ولا يتم ذلك إلا من خلال الكشف عن الأسباب التي أوصلته إلى مستويات التردّي التي شهدها، وتوصيف الطريقة المناسبة للمعالجة مع وضع الحلول للمشكلات المطروحة، وهذا ما تجسّد من خلال عمله الإصلاحية في شقّه التربوي خاصة، من خلال تسطير رؤية تربوية وفق أسس مكيّنة مكّنت من بناء الأجيال على صخرة من الفضائل، وفق مسار تجلّى في منهج تربوي يسير بخطاهم نحو تحقيق عدّة غايات تربوية محدّدة مسبقا وفق فلسفة المجتمع الجزائري الضاربة في جذور التاريخ.

10- بجمع رؤية الإبراهيمي التربوية بين ثناياها منظورا دينيا وفلسفيا، من خلال الأهمية التي تحظى بها الأخلاق الفاضلة في كلا المنظورين، حيث يجمع بين صورتَي المصلح الديني والفيلسوف التربوي، إذ يلتقي رجل الدين والمصلح والفقير وفيلسوف التربية في رؤية أخلاقية للوجود لا مكان فيه لا للشر ولا للذيلة، لأن الدعوة إلى الفضيلة الأخلاقية تحقق المنفعة الفردية والجماعية وتسهم في ترقية المجتمعات. فالبناء الأخلاقي الذي يؤكد عليه الإبراهيمي إذن يجمع بين منظور الفقيه الإسلامي من خلال التأكيد والتوكيد على التهل من الأخلاق الإسلامية، وبين منظور المصلح الديني والاجتماعي من خلال الدعوة إلى إصلاح المجتمع وتقوم سلوكياته واستبدال الرذيلة بالفضيلة، والسيئة بالحسنة، وبين منظور فلسفي تربوي من خلال التأسيس لرؤية ومنظور تربوي ذو مرجعية فلسفية تتمثل في فلسفة المجتمع الجزائري ومقوماته الضاربة في جذور التاريخ مع ربطها بما يرنو المجتمع تحقيقه بداية من تحقيق الاستقلال الذاتي والفكري من برائن المستدمر والتخلف والتبعية للآخر. إضافة إلى تكريس ثقافة العيش المشترك دون المساس بخصوصية الأفراد ومقوماتهم.

11- أبان المنظور التربوي الإبراهيمي عن صبغة مفاهيمية تربوية فريدة من نوعها، من خلال توظيفه لعدة مفاهيمية جديدة تدخل ضمن قاموس فلسفة التربية وعلوم التربية وفي مجال العلوم الانسانية والاجتماعية بصفة عامة، وتتمثل أهم هذه المفاهيم فيما يلي:

- في مجال التربية الاجتماعية والعلوم الانسانية والاجتماعية يطرح الإبراهيمي عدة مفاهيم أهمها: «عامل التآخي»: والذي يعني به «عامل الأخوة الإنسانية» بين أبناء الأمة الواحدة وبين الناس جميعا، فالإنسان أخو الإنسان، كما يعبر هذا العامل عن الانسانية كعامل يجمع ويساوي بين جميع الناس مسقطا بذلك مختلف الاقصاءات العرقية و الدينية و الجنسية.
- كما يوظف مصطلح «الاجتماع الحيوي» والذي يرتبط بمفهومين آخرين وهما: «الاجتماع المنتج» و«لوازم الاجتماع الحيوي»: كدلالة على المجتمع الذي يؤدي وظيفته في الحياة آخذا بأسبابها، فيكون مجتمعا منتجا فاعلا لا مجتمعا سلبيا يعتمد على الآخر فقط، مجتمعا منتجا على جميع الأصعدة فكريا واقتصاديا وثقافيا. وتعني لوازم الاجتماع الحيوي الأسس والدعائم التي يقوم عليها الاجتماع الحيوي وهي اللوازم المتطرق إليها في الدراسة (الأخلاق، الدين، العلم، المال).
- وفي مجال التربية النفسية وعلم النفس يوظف الإبراهيمي مفهوم «وازع الله في الإنسان» دالا به على الضمير الإنساني، فإن احتكم العديد من فلاسفة الأخلاق والتربية والمنظرين التربويين إلى الضمير

الإنساني ودوره الأخلاقي ورقابته على الإنسان، فما ذلك في نظر الإبراهيمي إلا وازع الله في الإنسان. كما يوظف الإبراهيمي مفهوم: «الكمال الإنساني» ويقصد به: الكمال الإنساني المكتسب وهو كمال نسبي، فالكمال المطلق صفة لله عزّوجل، أما الإنسان فكمال نسبي يسعى جاهدا إلى بلوغه. كما يتطرق إلى أسلوب «الترغيب» و «الاقتداء» كأسلوبين ومفهومين متداولين في التربية الإسلامية.

■ وفي سياق التربية السياسية يوظف الإبراهيمي عدّة مفاهيم أهمها «سياسة التربية» مشيرا إلى التربية السياسية من خلال تربية وبناء وعي سياسي، خاصة وأن من معاني السياسة فن تدبير الأمور. ويميز في السياسة بين معناها الصاعد والمعنى النازل وارتبط ذلك بمفهوم «السخافة السياسية» و«لباب السياسة» إضافة إلى تحديد أحد أهم أهدافها ألا وهو «إيجاد الأمة».

12- من خلال تحليل المنظور التربوي الإبراهيمي والنتائج التي حققتها رؤيته رفقة جهود مختلف العلماء والمربين الجزائريين، يميلنا هذا إلى إمكانية اعتماد نهجهم للخروج من الأزمة التربوية التي يعيشها المجتمع الجزائري، وذلك من خلال مراعاة:

- مراعاة واقع المجتمع الجزائري ومختلف خصوصياته، والأخذ بعين الاعتبار فلسفة المجتمع الجزائري المستمدة من الدين الإسلامي ولغته العربية، فيمثل بذلك الواقع الجزائري وفلسفة المجتمع الجزائرية في الحياة المنطلق والأرضية التي تقوم عليها التربية في الجزائر.
- التركيز على تربية المواطن الجزائري وفق أسس فلسفة المجتمع، مع التركيز على المدرسة ومستجدات العلوم على اختلافها وتنوعها، إضافة إلى الاعتماد على مختلف الأساليب والوسائل وربط كل ذلك بفلسفة المجتمع فتتوافق وإياها.
- توضيح الغايات التربوية التي تسعى إلى تحقيقها التربية الجزائرية كهدف منشود وواضح لدى جميع الأفراد والمؤسسات، حتى لا تحيد الرؤى العامة والخاصة في مسارها عن تلك الغايات. وينبغي على كل فرد أن يسعى إلى تحقيق تلك الأهداف كلّ من موقعه وعلى حسب طاقته.

التوصيات و المقترحات:

وبناء على النتائج المتوصل إليها في الدراسة ارتأى الباحث إدراج جملة من التوصيات والمقترحات علّها تكون منطلقا لدراسات مستقبلية مستفيضة لرؤية الإمام الإبراهيمي ومختلف الآراء التربوية للعلماء والمصلحين الجزائريين مع أمل أن تكون فكرةً تنفيذ القائمين على بناء البرامج والمناهج التربوية في منظومتنا التربوية الجزائرية.

1- إن الجزائر تحظى بموروث فكري تربوي زاخر بالآراء والتجارب الناجحة للعديد من علمائنا، لا زالت مواقفهم وتجاربهم في طيّ التهميش أو التسيان ما يوجب ضرورة دراستها وتحليلها والاستفادة منها لتكون منطلقا في التعامل مع مختلف المشكلات التربوية أو على الأقل الاستفادة منها بالندرج الذي يفيد ويساهم في الخروج من أزماتنا التربوية المتتالية.

2- ضرورة التركيز على حقلّي التربية والتعليم لضمان التطور في الجزائر على مختلف الأصعدة، لأنهما يشكّلان المنطلق الأساس في عملية البناء والتغيير والنهضة بالمجتمعات، وهذا ما أكدّه المنظور التربوي لدى الإمام الإبراهيمي من خلال نجاح التربية والتعليم اللذان عمل عليهما مع العديد من العلماء ومع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تنشئة أجيال مكنت من انتزاع الجزائر لاستقلالها وسيادتها، وتؤكدّه أيضا العديد من التجارب لدى الأمم المتطورة في خروجها من أزماتها المتعدّدة.

3- العمل على إنشاء موسوعة تربوية تحتضن مختلف المشاريع التربوية الجزائرية بداية من جهود العلماء والمصلحين وصولا إلى مختلف الرؤى التربوية الحديثة في الجزائر لإصلاح الواقع التربوي والتعليمي. ممّا يساعد في مقارنتها مع بعضها البعض، تمحيصها وربطها مع الرؤى التربوية المعاصرة وفحص مدى نجاعتها بهدف تسطير رؤية تربوية لا تخرج عن سياق فلسفة المجتمع وقيمه، وترتبط بالتطورات المعاصرة في نفس الوقت، حتى تكون هاته الرؤى كفيلا بالخروج من الأزمة التربوية التي لا زالت مطروحة في الجزائر.

4- الأخذ بعين الاعتبار مختلف الآراء التربوية النابعة عن دراسة العلماء الجزائريين للواقع التربوي في الجزائر، نظرا لدرايتهم الواسعة بخصوصيات الواقع ومختلف ما يعترض له من أزمات، وربط آرائهم بما استجدّ من نظريات تربوية من جهة، ومختلف الآراء في المجالات الأخرى للاستفادة منها، فيكون الناتج التربوي بذلك مرنا يتميز بالتواصل الخلاق بين مختلف التوجهات والآراء دون المساس بخصوصية المجتمع.

5- إعادة الاعتبار للمدرسة الجزائرية من خلال التركيز عليها في عملية الإصلاح وجعلها على رأس الأولويات التي ينبغي على الدولة أن توليها القدر الكبير من الاهتمام، مع ضرورة فصل المدرسة عن مختلف الصّراعات السياسية والأيدولوجية حتى لا تحيد عن الغايات المرسومة لها.

6- ربط حاضر التربية في الجزائر بماضيها حتى يشكل تاريخ الأمة وفلسفتها قاعدة مكيّنة تقوم عليها تربية الأجيال، وفتح آفاق مستقبلية لها من خلال ربطها بمستجدات الحضارة الإنسانية، وكل ما يتدفق من أبحاث ودراسات ونظريات تربوية حديثة مما يبقى على استمراريتها ونجاعتها وهذا ما تحدّد من الطّرح الإبراهيمي.

7- التركيز في مراحل التربية والتعليم الابتدائي على التنشئة الأخلاقية للأطفال وترسيخ قيم الشخصية الوطنية لديهم، مع ضرورة تركيز المناهج على التحكم الجيد في اللغة العربية قراءة وكتابة مما يمكن المتعلم مستقبلا من تحصيل المادة المعرفية بنفسه، على عكس ما هو ملاحظ اليوم من كثرة المادة المعرفية في السنوات الابتدائية مقابل تحجيم الاهتمام باللغة مما انعكس سلبا على تعلمهم.

8- التأصيل والتكوين الفكري والتربوي للمعلمين والمربين بهدف تمكينهم من الفهم العميق والشّامل لمختلف المنطلقات والرّكائز والأسس التربوية وأساليبها ووسائلها وتوضيح غاياتها، فقبل بناء المتعلم والمادة التربوية لا بدّ من بناء المعلم وتشكيله تربويا وإنسانيا وفق ما يتماشى مع فلسفة المجتمع وتطورات العصر، ممثّلا بذلك حلقة الوصل بينهما ومحدثا توادلا خلاقا وطيدا بين المتعلمين.

9- إدراج نصوص الإمام الإبراهيمي والعلماء الجزائريين في البرامج الدراسية في مختلف الأطوار الدراسية، وتخصيص مادة دراسية في الطور الابتدائي للتعريف بأهم العلماء الجزائريين ومآثرهم للاقتداء بهم والاعتزاز بالهوية الوطنية الجزائرية ومقوماتها حتى تترسخ لديهم. دون إغفال تحفيز الباحثين في البحوث الجامعية ومخابر البحث إلى تخصيص دراسات وبحوث في تراث الإمام الإبراهيمي وفكره التربوي والسياسي خاصة وأن معظم الدّراسات حوله ارتبطت بالجانب الأدبي أو الدّيني فقط.

خاتمة:

وكخاتمة لهذه الدراسة فإن المنظور التربوي الإبراهيمي يعكس نظرة تربوية تثويرية تهدف إلى تحقيق الغايات المنشودة التي حددها رفقة العديد من العلماء الجزائريين الأجلاء، سعيا منهم نحو تنوير العقل الجزائري وإخراجه من طيف الممارسات التقليدية، ومن التبعية والأغلال التي كبله بها المستدمر خاصة على المستويين العقلي والنفسي فالمستوى الواقعي. فتمثلت بذلك رؤيته التربوية بعثا لإرادة القوة لدى الناشئة الجزائرية، وتعطشا إلى الحرية وإيماننا بالمستقبل لتأخذ الأجيال موقعها في حركة التاريخ والحضارة.

فيمكن اعتبار أن التربية الإبراهيمية تعبر عن حركة فكرية دينامية جزائرية جديدة، وإن كانت قديمة في قضاياها إلا أنها جديدة في طرحها ومعالجتها، تجاوز الإبراهيمي من خلالها وفي جوانبها الكثيرة الانغلاق على الذات والانفصال عن الواقع وعن تاريخ الأمة وفلسفتها فقد كان لهما موقعهما الهام في طرحه، إضافة إلى فتح مسارات إيجابية مع مختلف العلوم المادية والمعنوية للنهل منها في البناء التربوي، مع الارتباط بأحداث الواقع والقضايا العالمية ليسايرها، مع العمل على الإحاطة بمختلف جوانب الإنسان في عملية تربيته بهدف تحقيق الكمال الإنساني النسبي المكتسب بالاصطلاح الإبراهيمي. فإن كانت التربية الإبراهيمية بسيطة في وسائلها وأساليبها إلا أنها كانت عظيمة في طرحها، معالجتها، نتائجها وغاياتها. وبذلك فهي تمثل نموذجا حيا على كل مربٍ ومصلح جزائري أن يقتدي به وبهذه التجربة مستفيدا منها، وأن يدرك مدى عظمة رسالة التربية كونها منبع الحياة وللأجيال وحلقة الوصل بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

ولا يسع الباحث في الأخير إلا القول أن التربية في الجزائر أصبحت تطرح العديد من المشكلات أكثر من أي وقت مضى نتاجا لتشابك عدّة عوامل بداية من التراكمات التاريخية بلوغا إلى تحديات العصر ومفززات العولمة، مما يطرح مشكلة مدى استمراريته ونجاحتها في عالم مليء بالمتغيرات والتحديات، فعلى كل فرد أن يأخذ موقعه فيها مساهما بالنذر الذي يستطيعه في التربية والتغيير وحلّ هذه المشكلات بهدف تكوين أجيال أكثر وعيا وأوسع أفقا. وتدخّل دراسة الباحث المتواضعة ضمن هذا المجال كمساهمة بسيطة للإفادة في الواقع التربوي الجزائري والعمل على إصلاحه، وتبقى الدراسة ضمن خطوط مفتوحة للنقد والتصويب والتوسيع، وما التوفيق إلا بالله. يقول الله تبارك وتعالى في الآية: ثمانية وثمانون من سورة هود:

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر و المراجع:

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الحديث النبوي الشريف.

ثالثاً: مؤلفات الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

- 1- محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج1، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م.
- 2- محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج2، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م.
- 3- محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م.
- 4- محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م.
- 5- محمد البشير الإبراهيمي، الطرق الصوفية، مقتطفات من تصدير نشرة (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، مكتبة الرضوان، الجزائر، ط1، 2008م.
- 6- محمد البشير الإبراهيمي، تقرير في الأمية، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تقديم نوار جدواني، دار المعرفة، الجزائر، دط، 2009م.
- 7- محمد البشير الإبراهيمي، صوت الإبراهيمي في الثورة، أحاديث الإمام عن الثورة في إذاعة صوت العرب، مقدمة محمد الهادي عبد الوهاب الحسني، دار الوعي للنشر و التوزيع، ط1، 1434 هـ، 2013م.
- 8- محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر (مجموع المقالات التي كتبها افتتاحيات لجريدة البصائر طبعة خاصة)، تقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2007م.
- 9- محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، تصدير أبو القاسم سعد الله، دار الأمة، الجزائر، دط، 2007م.

- 10- محمد البشير الإبراهيمي، مواقف الإمام الإبراهيمي، الإسلام في الجزائر في عهد الاستعمار، تقديم محمد الدراجي، عالم الأفكار للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007.
- 11- محمد البشير الإبراهيمي، مواقف الإمام الإبراهيمي، المغرب العربي الكبير، إعداد وتقديم محمد الهادي الحسني، عالم الأفكار للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007.
- 12- من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تقديم عبد الرحمان شيبان، دار المعرفة، الجزائر، دط، 2009م.

قائمة المراجع:

أولا: الكتب

- 13- إبراهيم مهديد، الدور الإصلاحي والنشاط السياسي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي على نهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بين 1931-1944، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ط1، 2011.
- 14- إبراهيم ناصر، مقدمة في التربية، دار عمان للنشر والتوزيع، عمان، دط، 2002.
- 15- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب، الفوائد، آثار ابن القيم الجوزية وما لحقها من أعمال، تحقيق محمد عزيز شمس، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، مجمع الفقه الإسلامي، جدة. د.س.
- 16- ابن كثير، البداية و النهاية، ج5، مكتبة المعارف، بيروت، ط6، 1988.
- 17- أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية الجزائرية، 1930-1945، ج3، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط4، 1992.
- 18- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج3، عالم المعرفة، الجزائر، ط خاصة، 2009.
- 19- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج5، عالم المعرفة، الجزائر، ط خاصة، 2009.
- 20- أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1992.
- 21- أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية حقل تعليمية اللغات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2007.
- 22- أحمد شلبي، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي جوانب التاريخ والنظم والفلسفة- موسوعة الحضارة الإسلامية ج5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8، 1987.

- 23- أحمد شليبي، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي، جوانب التاريخ والنظم والفلسفة- موسوعة الحضارة الإسلامية ج5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8، 1987.
- 24- أحمد ظريف، من معارك الحق ضد الباطل في جهاد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، دار المجدد لنشر والتوزيع، سطيف، 2015.
- 25- أحمد علي الحاج، أصول التربية السياسية، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2013.
- 26- أحمد قيس هادي، نظرية العلم عند فرانسيس بيكون، مطبعة المعارف، بغداد، دط، 1980.
- 27- إدوارد سعيد، صور المتقف، ت غسان غصن، دار النهار، بيروت، 1996.
- 28- إمانويل كانط، تأملات في التربية - ما هي الأنوار؟ ما التوجه في التفكير؟، ت محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، صفاقص، تونس، ط5، 2005.
- 29- الأمير شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، دط، 2012.
- 30- آنا بونوار، التربية المستقبلية، ت موريس شربل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1983.
- 31- أوليفي روبول، لغة التربية - تحليل الخطاب البيداغوجي، ت عمر أوگان، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2002.
- 34- برتراند رسل، التربية والنظام الاجتماعي، ت سمير عبده، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط2، د س.
- 35- برهان الإسلام الزنوجي، تعليم المتعلم طرق التعلم، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، السودان، ط1، 2004.
- 36- تركي رايح عمامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس-رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، منشورات ANEP، الجزائر، ط5، 1422هـ، 2001م.
- 37- تركي رايح عمامرة، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية (1931-1956) و رؤساؤها الثلاثة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط1، س1425هـ، 2004م.
- 38- تركي رايح عمامرة، دراسات في التربية الإسلامية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1987.
- 39- تركي رايح، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية (1931-1956)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.

- 40- جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيعلي، تخرّيج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، ج3، تحقيق عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط1، 2003.
- 41- جون ديوي، الديمقراطية و التربية، ترجمة نظمي لوقا، مكتبة الأنجلو المصرية، 1978.
- 42- جيل دولوز، فلسفة كانط النقدية، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1997.
- 43- جيلاني ضيف، بناء المجد - محمد البشير الإبراهيمي - طبعة خاصة لوزارة الثقافة، دار الخليل العلمية، الجلفة، الجزائر، 2013.
- 44- حسام محمد مازن، تكنولوجيا التربية وضمان جودة التعليم، دار الفجر للنشر و التوزيع، القاهرة، دط، 2009.
- 45- حسين سعد، بين الأصالة و التغريب، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط1، 1993.
- 46- دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الإجتماعية، ت منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007.
- 47- دوجلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، ت عبده الراجحي وعلي علي أحمد شعبان، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1994.
- 48- روني أويير، التربية العامة، ت عبد الله عبد الدائم، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1983.
- 49- روني ديكارت، مبادئ الفلسفة، ترجمة عثمان أمين، دار الثقافة للطباعة و النشر، القاهرة، دط، 1974.
- 50- روني ديكارت، مقالة الطريقة، ت جمال صليبا، تقديم عمر مهليل، دار موفم للنشر، الجزائر، دط، 2007.
- 51- سعيد إسماعيل علي، فلسفات تربوية معاصرة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1995.
- 53- شبشوب أحمد، علوم التربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1986.
- 54- طه عبد الرحمان، من الإنسان الأبتز إلى الإنسان الكوثر، جمع وتقديم رضوان مرحوم، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، لبنان، ط2، 2016.
- 55- عبد الجليل أبو المجد، عبد العالي حارث، تجديد الخطاب الإسلامي وتحديات الحداثة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2011.

- 56- عبد الحميد بن باديس، كتاب آثار ابن باديس، ج1، مج2، مقالات اجتماعية تربوية أخلاقية دينية سياسية، إعداد عمار طالبي، الشركة الجزائرية، باب عزون، الجزائر، ط3، 1997.
- 57- عبد الرحمن بدوي، فلسفة الدين والتربية عند كانط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دط، 1980.
- 58- عبد الرحمن بدوي، مدخل جديد إلى الفلسفة، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1978.
- 59- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار يعرب، دمشق، سوريا، ط1، 2004.
- 60- عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.
- 61- عبد الكريم بكار، حول التربية والتعليم، دار القلم، دمشق، ط3، 2011.
- 62- عبد الكريم علي اليماني، فلسفة التربية، دار الشروق للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004.
- 63- عبد الكريم كرام، محاضرات في فلسفة التربية، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية، قسنطينة، دط، 2004-2005.
- 64- عبد الله المجيدل، صابر جيدوري، محمود علي محمد، فلسفة التربية، منشورات جامعة دمشق، سوريا، 2007-2008.
- 65- عبد الله شريط، نظرية حول سياسة التعليم والتعريب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984.
- 66- عبد الله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1983.
- 67- عبد الله عبد الدائم، دور التربية والثقافة في بناء حضارة إنسانية جديدة، الثقافة العربية الإسلامية بين صدام الثقافات وتفاعلها، دار الطليعة، بيروت، ط1، ماي 1998.
- 68- عبد الله قلي، فضيلة حناش، التربية العامة - سند للتكوين المتخصص، المعهد الوطني لمستخدمي التربية وتحسين مستواهم، وزارة التربية، الجزائر، دط، 2009.
- 69- عبد المالك مرتاض، الموسوعة التاريخية للشباب، محمد البشير الإبراهيمي، 1889-1965، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، مديرية الدراسات التاريخية و إحياء التراث، الجزائر، دط، 1984.

- 70- عدي جواد علي الحجار، الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء العراق، ط1، 2012.
- 71- علي أسعد وطفة، أصول التربية إضاءات نقدية معاصرة، لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت، ط1، 2011.
- 72- علي أسعد وطفة، التربية والحداثة في الوطن العربي، رهانات الحداثة التربوية في عصر متغير، مجلس النشر العلمي لجامعة الكويت، الكويت، ط1، 2013.
- 73- علي أسعد وطفة، السياسات التربوية في الوطن العربي شعارات قومية وممارسات قطرية، (د.ط، د.س).
- 74- علي أسعد وطفة، علي جاسم الشهاب، علم الاجتماع المدرسي - بنوية الظاهرة المدرسية ووظيفتها الاجتماعية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2003.
- 75- علي القائمي، أسس التربية، ت عبد الكاظم لوبادي، دار النبلاء، بيروت، ط1، 1995.
- 76- علي ديدونة، المنظومة التربوية في الجزائر بين الأصالة والاستئصال، منشورات دار نوريد، بوزريعة، الجزائر، ط1، 2006.
- 77- عمر أحمد بوقفورة، بناء النسق الفكري عند محمد البشير الإبراهيمي، قراءة في ظل البنية والمتغير، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2004.
- 78- عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1979.
- 79- عمر محمد التومي الشيباني، الاتجاهات الحديثة في مفهوم التربية، سلسلة - كتاب الشعب، العدد6، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1980.
- 80- عمر محمد التومي الشيباني، تطور النظريات والأفكار التربوية، دار الثقافة، بيروت لبنان، دط، 1971.
- 81- عمر نقيب، النموذج القرآني للتربية - نحو مقتضيات منهجية للفهم والتطبيق، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013.
- 82- عمر نقيب، مدخل إلى علوم التربية - رؤية بديلة، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، ط1، 2018.
- 83- عمر نقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، نحو نظرية تربوية جديدة للعالم الإسلامي المعاصر، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، ط3، 2017.

- 84- فارح مسرحي، المواطنة والأنسنة، منشورات الوطن، سطيف، الجزائر، ط1، 2017.
- 85- فتحي حسن ملكاوي، منظومة القيم المقاصدية وتحدياتها التربوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرنندن - فرجينيا- الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2020.
- 86- فتحي شهاب الدين، أوراق في التربية السياسية، تقديم عصام العريان، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، س2011.
- 87- فضيلة مقران، كريمة صيام، عبد الرحيم بلعوسي، وحدة علم النفس التربوي (دروس وتطبيقات)، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، بوزريعة، دط، 2007-2008.
- 88- فليسيان شالي، موجز تاريخ الأديان، ترجمة حافظ الجمالي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، ط1، 1991.
- 89- قاسم أمين، تحرير المرأة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دط، 2012.
- 90- مارسيل غوشيه، ماري كلود بليه، دومينيك أوتافي، أوضاع التربية وشروطها، ت نصير مروة، مؤسسة الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2014.
- 91- مالك بن نبي، شروط النهضة، ت عبد الصبور شهين، دار الفكر، دمشق، دط، 1986.
- 92- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 1984.
- 93- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ت عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2002.
- 94- محمد البهي، الدين والحضارة الإنسانية، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، ط2، 1974.
- 95- محمد السويدي، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1984.
- 96- محمد السيد الجليلند، من قضايا الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب واستلاب الهوية، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، دط، 2008.
- 97- محمد الطاهر فضلاء، دعائم النهضة الوطنية الجزائرية: التعليم الديني، الإصلاح الديني، جمعية العلماء، دار البعث للنشر، قسنطينة، ط1، 1984.
- 98- محمد الغزالي، جرعات جديدة من الحق المر، ج4، نخصة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط6، 2005.

- 99- محمد بغداد باي، التربية والحضارة - بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي، عالم الأفكار للنشر والتوزيع، ط2، 2007.
- 100- محمد زرمان، معالم الفكر السياسي والاجتماعي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، دط، 1998.
- 101- محمد عابد الجابري، ابن رشد سيرة و فكر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1998.
- 102- محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية- محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1995.
- 103- محمد عبد الله العربي، ديمقراطية القومية العربية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1961.
- 104- محمد فاضل الجمالي، تربية الإنسان الجديد، نشر الشركة التونسية للتوزيع، دط، 1967.
- 105- محمد لبيب النجيجي، مقدمة في فلسفة التربية، دار النهضة العربية، بيروت، دط، 1992.
- 106- محمد لبيب النجيجي، الأسس الاجتماعية للتربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1971.
- 107- محمود قمبر، التجديد في الفكر التربوي - تقييم ونقد، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2013.
- 108- مصطفى محمد الطحان، التربية ودورها في تشكيل السلوك، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
- 109- مولود عويمر، الفكر الإصلاحي المعاصر وقضايا التنوير، منشورات مؤسسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، سلسلة البحوث والدراسات، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2017.
- 110- مولود قاسم نايت بلقاسم، أصالية أم انفصالية، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1991.
- 111- مؤيد أسعد حسن دناوي، تطوير مهارات التفكير الإبداعي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2008.
- 112- ناصيف نصّار، التربية على المواطنة، كيف نمهّد لقيامه الجيل العربي الجديد، دروس ومحاضرات في التربية القومية، منشورات الطليعة العربية، تونس، أكتوبر 2002.
- 113- نور الدين ثنيو، إشكالية الدولة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، مارس 2015.
- 114- هيرت سبنسر، التربية، ت محمد السباعي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، دط، 2012.

ثانيا: مقالات بمجلات علمية.

- 115- براهمي براهميم، بادي نواره، النظام التربوي بين إشكالية الإصلاح وواقع الأزمة التربوية (دراسة سوسولوجية تربوية بالجزائر)، مجلة عامل التربية، عدد خاص ب: أزمة التعليم في المغرب والعالم العربي "المقاربات"، ع24، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2014.
- 116- تركي رابح عمامرة، التربية والشخصية الوطنية، المجلة الجزائرية للتربية، وزارة التربية الوطنية، الجزائر، ع1، س1، نوفمبر 1994.
- 117- تركي رابح عمامرة، كيف أصبحت اللغة العربية لغة عالمية بعد ظهور الإسلام بقليل، المجلة الجزائرية للتربية، المعهد التربوي الوطني، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، س2، ع5، الفصل الأول، 1996.
- 118- عبد القادر فضيل، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، دار الوعي للنشر والتوزيع، روية، الجزائر، محرم 1432هـ، ديسمبر 2010م.
- 119- عبد الله بن صفية، الفكر التربوي و سؤال المرجع عند محمد البشير الإبراهيمي، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، لبنان - العام الخامس، العدد 40، أبريل 2018.
- 120- عبد الله صحراوي، موجهاات تربية المواطنة بالمدرسة في ظل التحولات المعاصرة بين المواطنة والوطنية، الخيارات المتاحة، مجلة تنمية الموارد البشرية، ع 11، ديسمبر 2015.
- 121- عبد النور آيت بعزيز، الشيخ محمد المنصوري الغسيري المرثي والمعلم المرشد (1912-1974)، مجلة قضايا تاريخية، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر العاصمة، محج2، ع1، ص50-62. ومحج3، ع1، 2018.
- 122- علي خذري، أسئلة النهضة في فكر البشير الإبراهيمي، (مقاربات في نصوص محمد البشير الإبراهيمي - المنجز الفكري والأدبي)، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، برج بوعرييج، ع2، مارس 2020.
- 123- فريدة مولى، المشروع النهضوي الإبراهيمي، قراءة في خطابه الأخلاقي، (مقاربات في نصوص محمد البشير الإبراهيمي - المنجز الفكري والأدبي)، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة برج بوعرييج الجزائر، ع2، مارس 2020.
- 124- محمد جبر السيد عبد الله جميل، الفكر التربوي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - دراسة تحليلية في ضوء رسالته الموسومة "مرشد المعلمين" مقاربات في نصوص محمد البشير الإبراهيمي - المنجز الفكري والأدبي)، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة برج بوعرييج، ع02، مارس 2020.

- 125- محمد ناصر، الشيخ أبو اليقظان ونضال الكلمة، مجلة الثقافة، س4، ع21، جويلية 1974.
- 126- مسعود فلوسي، الطاهر براخلية، أسس الوطنية ومعالمها ومقوماتها في فكر عبد الحميد ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي رحمهما الله، مجلة الدراسات الإسلامية ع9، جوان 2017.
- 127- مسعود موسى الرضي، أثر العولمة في المواطنة، المجلة العربية للعلوم السياسية، ع19، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008.
- 128- ولهة حسين، نحو فهم أعمق للأسس التعليمية عند البشير الإبراهيمي، مجلة الممارسات اللغوية، ع15، 2012.

ثالثا: مقالات الملتقيات العلمية

- 129- أبو القاسم سعد الله، الثقافة التاريخية عند الشيخ الإبراهيمي، - أعمال الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، الجزائر-قصر الثقافة في 13 و14 ربيع الثاني 1426هـ الموافق ل22-23 ماي 2005م، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1427هـ- 2006م.
- 130- عبد الرزاق قسوم، الإصلاح والمصالحة في فكر الإمام محمد البشير الإبراهيمي، - أعمال الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، الجزائر-قصر الثقافة في 13 و14 ربيع الثاني 1426هـ الموافق ل22-23 ماي 2005م، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1427هـ- 2006م.
- 131- عبد القادر بليمان، إشكالية التربية والفلسفة، أعمال الملتقى الوطني الأول "الفلسفة والتربية وإشكالية البدائل" المؤرخ في 25-26 أبريل 2006، الأعمال الكاملة، مخبر التربية والابستومولوجيا، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2009.
- 132- محمد الهادي الحسني، أمريكا في رأي الإمام الإبراهيمي - أعمال الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، الجزائر-قصر الثقافة في 13 و14 ربيع الثاني 1426هـ الموافق ل22-23 ماي 2005م، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1427هـ- 2006م.
- 133- يوسف القرضاوي، مقومات الفكر الإصلاحي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، - أعمال الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، الجزائر-قصر الثقافة في 13 و14 ربيع الثاني 1426هـ الموافق ل22-23 ماي 2005م، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1427هـ- 2006م.

مقالات الكتب الجماعية:

- 134- عبد القادر بوعرفة، الشيخ الإبراهيمي بين مطلب التنوير وحلم التنوير، العلامة محمد البشير الإبراهيمي وآفاق الحداثة-سؤال التنوير- إشراف وتقديم الأستاذ محمد الصادق بلام، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، 2016.

- 135- عبد اللطيف عبادة، الاجتهاد في نظر الشيخ البشير الإبراهيمي، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012.
- 136- علي زكي، فلسفة التعليم عند الشيخ البشير الإبراهيمي، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012.
- 137- محمد الغزالي، مع البشير الإبراهيمي في القاهرة، الشيخ البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، دار الأمة، ط2، 2012.
- 138- محمد بن ساعو، ثنائية الإصلاح والثورة من منظور الإبراهيمي، الثورة أفقا للحرية- محمد البشير الإبراهيمي أنموذجا، كتاب جماعي، إشراف محمد بن ساعو، مطبعة النشر الجامعي الجديد، تلمسان- الجزائر، ط1، 2017.
- 139- محمد بو عبد الله، النزعة النقدية عند الإبراهيمي، العلامة محمد البشير الإبراهيمي وآفاق الحدائثة-سؤال التنوير- إشراف وتقديم الأستاذ محمد الصادق بلام، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، 2016.
- ثالثا: الرسائل الجامعية: أطروحات دكتوراه ورسائل ماجستير:**
- 140- بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان، دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، رسالة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2009-2010م.
- 141- بيبي مرزاق، الفكر التربوي عند محمد إقبال ومحمد البشير الإبراهيمي دراسة مقارنة، أطروحة دكتوراه دولة في علوم التربية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم النفس وعلوم التربية و الأروطونيا، جامعة الجزائر، 2006-2007م.
- 141- حفوف فتيحة، معوقات البحث الاجتماعي في الجامعة الجزائرية من وجهة نظر الأساتذة الجامعيين، دراسة ميدانية في جامعات: سطيف- قسنطينة- مسيلة، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الإدارة والتنمية البشرية، جامعة فرحات عباس، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم علم الاجتماع و الديموغرافيا، 2007-2008م.
- 142- عطية بن حامد بن ذياب، دور تدريس مادة التربية الوطنية في تنمية قيم المواطنة لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية " دراسة من وجهة نظر معلمي التربية الوطنية بمحافظة الليث"، مذكرة مكتملة لنيل درجة الماجستير في المناهج وطرق التدريس، جامعة أم القرى، كلية التربية، السعودية، دس.
- 143- محمد زمران، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الفكر الإسلامي الحديث، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، معهد الدعوة وأصول الدين، قسنطينة، 1994-1995.

رابعاً: الملتقيات الدولية والوطنية:

- 144- أعمال الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، الجزائر-قصر الثقافة في 13 و14 ربيع الثاني 1426 هـ الموافق لـ 22-23 ماي 2005م، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1427 هـ- 2006م.
- 145- أعمال الملتقى الوطني الأول "الفلسفة والتربية وإشكالية البدائل" المؤرخ في 25-26 أبريل 2006، الأعمال الكاملة، مخبر التربية والابستومولوجيا، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2009.

خامساً: الأعمال الجماعية:

- 146- الثورة أفقا للحرية- محمد البشير الإبراهيمي أنموذجا، كتاب جماعي، مطبعة النشر الجامعي الجديد، تلمسان- الجزائر، ط1، 2017.
- 147- الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، دار الأمة للطباعة والنشر و التوزيع، ط2، 2012.
- 148- العلامة محمد البشير الإبراهيمي وآفاق الحداثة-سؤال التنوير- إشراف وتقديم الأستاذ محمد الصادق بلام، منشورات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، 2016.

سادساً: المعاجم و الموسوعات.

- 149- إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العليا لشئون الطباعة الأميرية، القاهرة، دط، 1983.
- 150- إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004.
- 151- ابن منظور، لسان العرب، مج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1988.
- 152- ابن منظور، لسان العرب، مج3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1988.
- 153- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مج 1 A-G، تعريب أحمد خليل، منشورات عويدات بيروت، ط2، 2001.
- 154- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت دط، 1982.
- 155- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، 1980.

- 156- مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، مج24، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1996.
- 157- محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جوهر القاموس، تحقيق علي هلاي، ج2، مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1408هـ- 1987م.

سابعاً: الجرائد.

- 158- أحمد عصماني، الشباب الجزائري في مخيال الشيخ الإبراهيمي، جريدة البصائر، ع705، 19-25 رجب 1435هـ، 19-25 ماي 2014.

ثامناً: مراجع باللغة الأجنبية.

- 159- *Champy Philippe et Christian etevé, Dictionnaire encyclopédique de l'éducation et de la formation Editions nathan. 1994.*
- 160- *Tribune : Qui fait la recherche publique en France?* (www.lemonde.fr/sciences/article/2014/05/05/tribune-qui-fait-la-recherche-publique-en-france_4411829_1650684.html).
- 161- *Max Marghrand ,Robert Tinthoin, Géographie, du milieu local Algérien a la Géographie Générale,cours élémentaire 1^{er} et 2^{er} Années, editions L.Fouque,Oran 1954.*
- 162- *Rapport, de L'UNESCO, sur la Science, 2010, Résumé exécutif, L'état actuel de la science dans le monde, Editions UNESCO 2010, France, p 25.*
- 163- *Tsourikoff Zénaide , L'enseignement dex filles en afrique du nord, Editions A.Podone librairie de la cour d'appel et de l'ordre des avocats, 13 Rue soflot, Paris, 1935.*